اتحاد المؤرخين العرب
بالقــاهرة

مجلة
المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد الخامس   المجلد الأول   مارس ١٩٩٧

اتحاد المؤرخين العرب
بالقــاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الخامس - المجلد الأول

مارس ١٩٩٧

هــذه المجــلة

- علميـة تاريخيـة بحتـة ، تصـدر عـن اتحـاد المؤرخـين العـرب بالقـاهرة ، تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية بعيـدة عـن أى تيـارات سياسـة أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتًا سنوية فـى شـهر مـارس مـن كـل عـام ، علـى أن تصلهـا البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهايـة شـهر نوفمـبر من العام السابق .
- لا يزيد البحث المقدم للنشـر عـن أربعـين صفحـة منسـوخة علـى الآلـة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين : أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقـارير عـن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عـدم إجازتهـا للنشـر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشـورة وفق أسـبقية ورودهـا وإجازتهـا للنشـر ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحـث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسـم الأستاذ الدكتـور رئيـس اتحـاد المؤرخـين العرب (كلية الآداب - جامعة القاهرة - أورمان - جيزة - مصر) .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الخامس - المجلد الأول - مارس ١٩٩٧

فى هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح :

مدرسة التاريخ

لا نريد أن نبالغ فى تصوير الصعاب التى يمر بها عالمنا العربى اليوم ، فنحاكى البعض فى الحكم بأنها بلغت درجة من التفاقم لا مزيد عليها ، وبأن الأمل فى إصلاحها غدا صعبًا ...

وفى الوقت نفسه لا نريد أن نبالغ فى التستر على الأخطاء ، والعمل على إخفاء الجانب المظلم فى واقعنا المعاصر ، لنردد قول القائلين بأنه ليس فى الإمكان أحسن مما كان ؛ وبأن الأمة العربية اليوم تبدو فى أتم صحة وعافية ، لا يشوب واقعها شائبة ، ولا يعيب حاضرها معابة ...

إن العرب بشر. لهم فى تاريخهم الطويل حسناتهم كما أن لهم أخطاءهم . وأمة العرب ليست إلا واحدة بين آلاف الأمم التى يزخر بها التاريخ فى كل زمان ومكان ... لها إنجازاتها ومعطياتها الحضارية ، ولا تخلو مسيرتها من انحرافات وأخطاء.

ومن ينشد الصلاح والإصلاح ، عليه أن يراجع نفسه ليقف على ما قدمت يداه من صواب وخطأ . عليه ألا يتستر على خطأ وقع فيه ، فالرجوع إلى الحق هو أسلم الطرق للصلاح ، ومراجعة النفس هى الخطوة الأولى على طريق الإصلاح . ولا عيب فى أن يخطأ الإنسان ، وإنما العيب هو أن يخفى الإنسان خطأه ، ولا يعترف به وبذلك يتفشى المرض ويصعب علاجه .

وفى ضوء هذه المبادئ علينا أن نسلم بأن هناك أخطاء يشكو منها واقعنا العربى. أخطاء على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية..أخطاء تركت

بصماتها فى المسيرة الحضارية لهذه الأمة ، التى قدمت للعالم فى مرحلة سابقة أزهى وأنقى ألوان الحضارة البشرية ... علينا أن نعترف بأن أمة العرب اليوم فى حاجة إلى قدر من الإفاقة واليقظة ... إن الانحراف والحمد لله ليس متعذر الإصلاح ، والمرض ليس مستعصى العلاج؛ فالجذور قوية ، والأصول ثابتة ، والعقيدة راسخة، والإيمان بالله متغلغل فى القلوب ، متمكن من الصدور والعقول .

* * *

فإذا أخذنا بمبدأ الإصلاح فإنه ليس أمامنا إلا مدرسة التاريخ لنتعلم ما لم نعلم ، ونعرف أين كنا وأين صرنا . علينا بالرجوع إلى التاريخ لنقف على أوجه الصواب والخطأ ، ونحاول الإفادة من دروس الماضى لنواجه أخطار الحاضر ونخطط لمستقبل أفضل .

وهنا نجد أنفسنا أمام عبارة ذكرها ابن خلدون – رحمه الله – فى مقدمته ، إذ يقول عن التاريخ إنه :

[فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية . إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ؛ حتى تتم فائدة الإقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا ...] .

وفى هذا الإطار الذى رسمه ابن خلدون يتحرك إتحاد المؤرخين العرب مستهدفًا الإفادة من دروس الماضى لبناء حاضر سليم والتخطيط لمستقبل يتفق وأمجاد الأمة العربية .

والله ولى التوفيق ،،،

رئيس التحرير

أحداث تاريخية فى الأدب المصرى القديم(*)

د. علاء الدين عبد المحسن شاهين(**)

١ - تمهيـــد

تميز الأدب المصرى القديم بأصالته وبتعبيره عما كان يدور فى عقول المصريين القدماء . وقد تعددت أنماطه وأشكاله الأدبية من قصص ومغامرات وأساطير دينية ، وتنبؤات وحكم وأمثال - فيما عرف بأدب الحكمة - عكست خبرة كاتبها ، وما تضمنته من نصائح مفيدة ، يجب على سامعها إتباعها بغية الوصول إلى طريق الكمال . هذا فضلاً عن الرسائل الشخصية والقصائد الشعرية المتعددة الموضوعات ، والتراتيل الدينية لصالح آلهة مصرية متعددة . وقد دوّن الجزء الأكبر من الأدب الفرعونى بالخط الهيراطيقى والديموطيقى ، وذلك على ورق البردى أو قطع الأوستراكا ، وعكست تلك النصوص ملامح متعددة من جوانب الحياة اليومية للمصريين القدماء ، وملمحًا مختلفًا عمّا درج المرء على معرفته فيما يتعلق بحضارة مصر القديمة ، بما غلب عليها من طابع جنازى ، وما طُبعت عليه النظرة الأولى لتلك الحضارة على أنها مكرّسة لعالم ما بعد الموت(١) .

وقد عكست النصوص الأدبية فى مصر الفرعونية بعض الوقائع التاريخية فى ارتباط مع أوضاع مصر السياسية الداخلية منها أو الدولية ، وبالمثل العلاقات الاجتماعية المتشابكة أحيانًا بين أفراد الأسرة الملكية ، وجهود بعض حكامها فى تأمين حدود مصر اتقاء لأخطار خارجية ، أو لإعادة السلطة المركزية على كامل

(*) هذا البحث الموسع كان موضوع محاضرة عامة ألقيت فى إطار الموسم الثقافى لرابطة أدباء الكويت - الكويت (إبريل ١٩٩٦) .

(**) كلية الآثار جامعة القاهرة، ومعار حاليًا بقسم التاريخ ، كلية الآداب - جامعة الكويت.

شطرى وادى النيل (دلتا وصعيد مصر) إلى نصابها (انظر خريطة(١)) . ومن أهم تلك النصوص الأدبية فى إطار ما عرف بالقصص المصرى قصة خوفو والسحرة (بردية وستكار) ، القروى (الفلاح) الفصيح ، سنوهى ، نجاة (الملاح الغريق) ، قصة أبوفيس وسقنن رع (بردية ساليية) ، خطة تحوتى فى الاستيلاء على يافا وقصة ون آمون . ومن بين نماذج أدب الحكمة والنقد السياسىسنتناول تحذيرات إيبوور ، نبوة نفررهو (نفرتى) ، تعاليم خيتى إلى ابنه مريكا رع ، وتعاليم أمنمحات الأول . أما نصوص الرسائل فسنقصر حديثنا فيها على الرسالة الملكية إلى حرخوف ، رسائل حقانخت ، ومجموعة رسائل أواخر عصر الرعامسة . وسنتناول تلك النصوص الأدبية ليس بهذا التقسيم الأدبى الحرفى، ولكن من منظور تاريخى عبر فترات الأحداث التاريخية لمصر الفرعونية منذ عصر الدولة القديمة (٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق. م.) إلى أواخر الحضارة المصرية فى بدء فترة الانتقال (الإنهيار) الثالث والأخير (١٠٨٥ - ٦٦٤ ق. م.) .

٢ - من أدب الدولة القديمة (٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق. م.) :

لعل من أهم النماذج الدالة على ما يمكن استنباطه من النصوص الأدبية من فترة الدولة القديمة لفهم تلك التغيرات السياسية التى تمت أواخر الأسرة الرابعة وأوائل الأسرة الخامسة هو ما ورد ضمن النص الأدبى المعروف باسم " قصة خوفو والسحرة " أو " بردية وستكار "(٢) المحفوظة حاليًا فى متحف برلين برقم ٣٠٣٣ والتى عكست نصوصها ما هدف إليه مؤلفها من أنصار آله الشمس " رع " من بحث عن أصول قدسية ، ومولد إلهى لأوائل ملوك الأسرة الخامسة (٢٤٩٤ - ٢٣٤٥ ق. م.) كتبرير لاغتصابهم العرش الملكى ، وبدء فرع جديد لأسرة حاكمة ، وكيف أن هؤلاء الملوك قد حملت بهم زوجة كبير كهنة رع ذاته :

" انظر إنها زوجة كاهن رع فى بلدة سخبو وهى التى حملت فى ثلاث أطفال لرع رب سخبو ، وقد أخبرها أنهم سيتولّون هذه الوظيفة (ملوكًا على

مصر) فى كل هذه البلاد ، وأن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى عين شمس[٣] " .

وتلقى نصوص هذه البردية الضوء على الأوضاع السياسية فى نهاية الأسرة الرابعة وما صاحبها من ازدياد النفوذ الدينى للعقيدة الشمسية . وقد ارتبط بفترة حكم ملوك هذه الأسرة الخامسة ازدياد نفوذ الديانة الشمسية ، وما ارتبط بها من إنشاءات خاصة لمعابد الإله رع كتقليد معمارى جديد ارتبط بفترة حكم هذه الأسرة ، وهو ما عرف باسم " معبد الشمس "[٤] (انظر شكل ١ أ - ب) .

إضافة إلى ذلك فإن النقوش المصرية القديمة لبعض كبار رجال الحكم ، خلال فترة الدولة القديمة تعتبر فيما يعرف باسم " السير الذاتية " مصدرًا أدبيًا هامًا يمكن الاستفادة منه فى معرفة بعض الأحداث والوقائع الهامة - من وجهة نظر كاتبها - شارك فيها ، أو لعب دورًا بحكم منصبه فى تنفيذها من قتال دفاعًا عن مصر ، أو ملقيًا الضوء على مؤثرات داخلية ومظاهر للتحلل والانهيار فى سياسة الدولة المركزية مما قد لا تعكسه المصادر التاريخية الرسمية للدولة ، أو ربما تعرض كشفًا جغرافيًا هامًا بحثًا عن موارد اقتصادية مثلما يتضح بصفة خاصة من نصوص القائد المصرى " ونى " ، وحاكم أسوان " حرخوف " .

وقد أشارت نصوص الرسالة الملكية التى تلّقاها " حرخوف " حاكم أسوان فى صعيد مصر من مليكه " مرن رع " والمدون على جدران مقبرته بأسوان[٥] مدى اهتمام حاكم مصر آنذاك من الأسرة السادسة بتكليف من يراه مناسبًا لأعمال الكشف الجغرافى إلى جنوبى مصر بحثًا عن موارد اقتصادية مرغوب فيها[٦] وبدون الحاجة إلى وسيط تجارى ، وهو الدور الذى مارسته جماعات من أهل منطقة النوبة السفلى آنذاك . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن لنا من تلك النصوص استنباط وجود أول محاولة سياسية لتوحيد بعض المجموعات البشرية فى النوبة تحت إمرة حاكم واحد ، وهو الأمر الذى لم يرد له ذكر فى أى مصدر

تاريخى آخر . وأخيرًا توضح لنا نصوص حرخوف مدى التداخل المصرى جغرافيًا إلى الجنوب من الجندل الثالث ، أو منطقة بوتانا ، أو إلى الجنوب الغربى من السودان باتجاه مناطق السافانا الأفريقية استنادًا على التباين فى تحديد الموقع الذى ذهب إليه حرحوف فى منطقة (إ) يام فى رحلاته الكشفية .

٣ - من أدب فترة الانتقال الأول (٢١٨١ - ٢٠٤٠ ق. م.) :

حدث خلال فترة الانتقال الأول (عصر اللامركزية الأولى) (٢١٨١ - ٢٠٤٠ ق. م.) أن انهارت السلطة المركزية ، وانقسمت مصر إداريًا إلى مقاطعات عديدة ، وضعفت أثناءها يدها القوية سياسيًا وعسكريًا على حدودها الشرقية ، مما مكن بعض الجموع الآسيوية من التداخل إلى شرق دلتا وادى النيل حيث عاثت فسادًا . وقد عكست لنا بعض النصوص الأدبية تصويرًا لما حاق بمصر آنذاك من انهيار سياسى واقتصادى ، ومن خلل فى الأمن الداخلى والخارجى . ومن أهمها نصوص بردتى إيبو - ور ونفرتى ، القروى الفصيح ، ونصائح الملك " خيتى " إلى ابنه مريكارع . وتتمثل أهمية تلك المصادر الأدبية فى كونها المصدر الأساسى لفهم الأحداث التاريخية خلال تلك الفترة الزمنية لانهيار السلطة المركزية، الأمر الذى جاء مصحوبًا بعدم توافر مصادر تاريخية رسمية ملكية الطابع ، أو ما يمكن نسبه إلى كبار رجال السلطة المركزية من جهة ، ولعدم توافر الآثار الملكية المدنية منها أو الجنازية من جهة أخرى .

وتوضح لنا نصوص بردية إيبوور (بردية ليدن رقم ٣٤٤)(٧) مدى الفوضى السياسية التى حاقت بمصر فى أوائل فترة الانتقال الأول والإشارة إلى التداخل الآسيوى فى شرق دلتا وادى النيل ، ومدى ما أثارته تلك النصوص من جدل تاريخى حول الربط بين هؤلاء الآسيويين وبين ما يعتقد أنه اندفاع أموري (شمال غرب آسيا) ضد فلسطين(٨) ، مما أدى إلى اندفاع بعض المجموعات البشرية الآسيوية باتجاه مصر .

ودعمت تلك الآراء ما عُثر عليه من آثار أجنبية الأصل مشابهة لمثيلاتها فى غرب آسيا[٩] وقد عكست لنا نصوص " إيبو – ور " تلك الفوضى السياسية والتداخل لبعض العناصر الأجنبية لمصر :

" ما عاد أحد يبحر اليوم نحو جبيل ، فما الذى سوف نفعله بخصوص أخشاب الأرز ، التى اعتدنا أن نصنع منها توابيتنا ، والزيوت التى يحنّط الكبراء بها، وترد من هناك ، ومما يجاور كفتيو . ما عاد يأتى من ذلك شيىء ، وانعدم الذهب (فى الخزائن) ، وقلّت موارد كل الأعمال حتى أصبح مجئ أهل الواحات بمنتجاتهم (البسيطة) شيئًا ذا بال "[١٠] .

إضافة إلى ذلك ، فإن نصوص " إيبو – ور " تتميز بمدى ملموس من الجرأة السياسية فى مخاطبة أحد أفراد الشعب لحاكمه ، بل وإلقاء اللوم عليه فيما ألم بالبلاد من انهيار سياسى ، وتداخل لعناصر أجنبية للمكان :

" إن أصدقاءك قد كذبوا عليك . البلاد تعمل ، والناس على شفًا الهلاك . ما هذا الذى حدث فى مصر ؟ لديك الحكمة والبصيرة ، ولكنك تترك الفساد ينهش البلاد ، الحقيقة أنك أوصلت البلاد إلى هذا الدمار ، الحقيقة أنك تتفوه كذبًا[١١] " .

أما نصوص بردية " القروى (الفلاح) الفصيح " من الأسرة التاسعة الاهناسية الأصل (٢١٦٠ – ٢١٣٠ ق. م.) فقد ألقت ضوءًا هامًا على تصوّر إعادة هيكل الحكم المركزى لملوك تلك الأسرة ، وما تلتها[١٢] . ويستنبط من هذا النص الأدبى الذى يعتبر نموذجًا لروح الفصاحة والبيان فى الأدب المصرى وجود مقر حكم (عاصمة سياسية) وحكم ووزراء قائمين على تصريف شئون الحكم ، وسلطة أمن داخلى لمساعدة الحاكم ولتسيير أمور الدولة ولفرض مفهوم العدل وتطبيقه على الجميع ، مما يوضح لنا أن مصر خلال فترة انهيارها السياسى (الانتقال الأول) بدأت تضع أولى لبنات العودة إلى مفهوم الحكم المركزى

وفرضت سلطتها السياسية على مقاطعات شمال صعيد مصر ووسطه وحتى حدود مناطق التماس مع مملكة طيبة فى منطقة العرابة المدفونة . وبالمثل كشفت لنا تلك النصوص قدرة مصر على تنظيم أمورها الإدارية ، وإعادة تجييش الأفراد للخدمة العسكرية (الجيش المحلى) مما مهد الطريق أمام ملوك أواخر فترة الانتقال الأول لتحقيق حلم الوحدة السياسية الشاملة لشطرى وادى النيل ، تحت إمرة حاكم واحد .

وتتضح تلك الملامح نحو إعادة هيكلة الدولة أيضًا فى النص الأدبى المعروف بنصائح خيتى إلى ابنه مريكارع أحد ملوك الأسرة العاشرة الاهناسة الأصل (٢١٣٠-٢٠٤٠ ق.م.) والمحفوظ حاليًا فى متحف لينتجراد برقم ١١١٦ أ.(١٣) ويستنبط من هذا النص الأدبى تمكن الحاكم المصرى من تأمين مقاطعات غرب الدلتا وحتى شاطئ البحر ، واستمرارية التواجد الآسيوى فقط فى شرق الدلتا ، وكذلك حث الملك لابنه على تنظيم نوع من الوجود العسكرى والبشرى يمتد من وادى الطميلات إلى القنطرة فى شرق الدلتا للتمكن من مواجهة وصد تسللات الآسيويين :

" إذا قامت بلادك من جهة الجنوب بثورة فإن ذلك يكون حافزًا لقيام الأجانب فى الشمال بحروب ضدك . فعليك إذن أن تقيم مدنًا فى الدلتا . والبلد الآهلة بالسكان لا تمس بسوء ، فابن مدنًا "(١٤) .

وأخيرًا نستنبط من هذا النص الأدبى ملامح الصراع العسكرى بين مقاطعات صعيد مصر ممثلاً فى مملكتين : أهناسيًا فى شمال ووسط الصعيد حتى إقليم " ثنى " (العرابة المدفونة) ، وطيبة (الأقصر حاليًا) إلى الجنوب من ذلك وحتى أسوان ، كما نستنبط غلبه النصر التمهيدى لاهناسيًا ، واندفاعها العسكرى ضد الجنوب (١٥) ، وتمكن المملكة الطيبية من فرض سيادتها العسكرية والسياسية آخر الأمر ضد المملكة الاهناسية ، وتمكنها فى مرحلة تالية من إكمال النفوذ

المصرى لمملكة الجنوب على كامل تراب مصر فى عهد الملك " نب حبت رع مونتو حتب " حوالى ٢٠٤٠ ق. م.(١٦) .

٤ – من أدب الدولة الوسطى (٢١٣٣ – ١٧٨٦ ق. م.) :

ومع إعادة كامل الوحدة السياسية لشطرى وادى النيل على يد " نب حبت رع مونتوحتب " من الأسرة الحادية عشر الطيبية الأصل ، ثم خلال فترة حكم ملوك الأسرة الثانية عشر فيما عُرف يعصر الدولة الوسطى (٢١٣٣ – ١٧٨٦ ق. م.) نجد العديد من المصادر الأدبية التى تلقى المزيد من الضوء – إلى جانب بعض المصادر الملكية والخاصة – على علوّ مكانة مصر السياسية والحضارية داخليًا وخارجيًا فى المنطقة الجغرافية إلى جنوب مصر : النوبة ، أو فى مناطق شرق حوض البحر المتوسط أيضًا ، أو انعكاسًا لمفهوم النبوءة السياسية للتمهيد لحكم ملك ما ، أو سرد لاغتيال سياسى . ولعل من أهم تلك النصوص ما يعرف ببردية تنبؤات نفررهو (نفرتى) ، سنوهى ، نصائح الملك أمنمحات الأول إلى ابنه ، قصة نجاه الملاح (الملاّح الغريق) ، وكذلك نصوص رسائل الكاهن المزارع حقًا نخت إلى ابنه .

وتوضح نصوص بردية " تنبؤات بردية " تنبؤات نفرهرو (نفرتى) المحفوظة حاليًا بمتحف لينينجراد برقم ١١١٦ ب (١٧) ملامح الضعف السياسى لمصر أثناء فترة الانتقال الأول ، وتداخل الآسيويين إلى مصر خلالها :

" ظهر الأعداء فى الشرق (حرفيًا : الآسيويون على الأرض تواجدوا فى الشرق) ، واقتحم القبليون (الأسيويون) مصر (حرفيًا : لقد نزل العامو إلى مصر) لقد أصبحت البلاد خرابًا فلا يوجد من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ، ولا من يذرف الدمع ، فأية حال تلك التى عليها البلاد"(١٨) .

وتتمحور نصوص البردية بعد ذلك حول النبوءة التى تبشر بظهور المخلص (المنقذ) أميى (أمنمحات) ، وقدرته على إعادة الأمن والأمان لمصر كنوع من

الدعاية السياسية . إضافة إلى ذلك ، فإنه يمكن الاستنباط من نصوص هذه البردية قدرة أمنمحات الأول على تنفيذ سياسة " السلام المسلح " باهتمامه بحدود مصر الشرقية ، ودوره فى طرد بقايا فلول الآسيويين من شرق الدلتا ، وتشييده لسلسة من الحصون على تلك الحدود .

" إن جدار الأمير (حصن) سوف يشيدّ ، وسيمْنع الأسيويون من الدخول إلى مصر ، وأنهم سيستجدون الماء من مصر ثانية كمألوف عادتهم ، لكى تردها أنعامهم([١٩]) .

ولقد تردد صدى تلك التحصينات أيضًا فى النص الأدبى المعروف بقصة سنوهى ، وربما كان أكثرها فى مدخل وادى الطيملات (فى محافظة الشرقية) . وتعتبر البردية نموذجًا جيدًا للدعاية السياسية قصد بها كاتبها تبرير استيلاء الملك على الحكم([٢٠]) .

وتضيف لنا نصوص قصة سنوهى([٢١]) مزيدًا من المعلومات عن بعض أهم الأحداث التاريخية فى فترة حكم أول ملوك الأسرة الثانية عشر : الملك أمنمحات الأول (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م) ، وولى عهده سنوسرت الأول من مشاركة فى السلطة ، وفى اشرافه على نشاط مصر العسكرى ضد القاطنين على حدودها الغربية والذين ذكرتهم النصوص المصرية باسم التمحو والتحنو (ليبيا) .

" وكان قد أرسل جلالته جيشًا إلى أرض التمحو وكان بكر أولاده سنوسرت الطيب ، ضابطًا فيه ، وقد كان فى هذه الأثناء عائدا بعد أن استولى على أسرى من التحنو ، وكان أنواع الماشية التى يخطئها العد([٢٢]) " .

وتعكس نصوص البردية فى معرض السرد صورة لهروب سنوهى من مصر شرقًا باتجاه سيناء ومنها إلى فلسطين واجتيازه لنقاط المراقبة والحصون المعروفة باسم " جدار (سور) الحاكم " الأمير " والمشيدة لصد البدو ساكنى الرمال :

" لقد ربضت بين الأعشاب خوفًا من أن يرانى ذلك الحارس القائم بالعمل فوق الجدار . وفى الليل استأنفت السير([٢٣]) " .

كذلك فإن نصوص سنوهى حال عودته إلى مصر بعد صدور العفـو الملكـى عنه تشير إلى استخدامه الطريق البرى الشهير باسم " طرق حورس " ، وهو نفســه الذى وردت إشارات عديدة إليه فى النصوص المصرية وخاصــة مـن عصـر الدولـة الحديثة أثناء مجد مصر الامبراطورى (٢٤) ، وكذلك تشير إلى انتظـار سـنوهى عنـد إحدى تلك النقاط للمراقبة على الحـدود لحـين وصـول الإذن الملكـى للسـماح لـه بالدخول إلى منطقة شرق دلتا النيل ، وهو ما تم بالفعل ، إضافة إلى سـفينة خاصـة أرسلت لنقله إلى البلاط الملكى :

" توقفت عند القنطرة . وأرسل الضابط المكلف بالحراسة هنـاك رسـالة إلى القصر ليعلـن حضـورى . فعمـل صـاحب الجلالـة الترتيبـات اللازمـة لمجـئ رسـول خاص، وتبع هذا الرسول عدة صنـادل (مراكـب) بالهدايـا . للآسـيويين المرافقـين معى . بدأت رحلة العودة ، ورفعت الشراع . وقـد أعـدت لى كميـات مـن الجعـة الطازجة على ظهر السفينة حتى وصلت مساء العاصمة ."(٢٥)

ويذكرنا ما حدث لسنوهى ما أوردته نصوص الدولة الحديثة – والتى بلغت مصـر خلالهـا قمـة مجدهـا – مـن اضطـرار مجموعـة آسيوية قدمـت إلى مصـر إلى الانتظار عند إحدى نقاط المراقبة (الحصون) لحين إصدار الأمر الملكى بالسـماح لها باجتياز المكان إلى داخل شرق الدلتا وذلك ضمن النص المعروف بتقرير موظف الحدود :

" تقرير آخر إلى سيدى نحيطه بأننا قد سمحنا لتلك القبـائل البدويـة القادمـة من إدوم بالمرور عبر قلعة " مرنبتاح حتب حر ماعت " له الحياة والرخـاء والصحـة الموجودة فى تكـو (فـى نهايـة وادى الطميـلات) للابقـاء أحيـاء عليهـم ، وعلـى قطعانهم بفضل " كا " جلالته لها الحياة والرخاء والصحة "(٢٦) .

كذلك تعكس نصوص سنوهى بعد هروبه من مصـر ، وإقامتـه فـى آسـيا ، تمتعه بمكانة اجتماعية مميزة بالمكان كيف أن ملامح الحضارة المصرية كانت سـائدة

هناك ، وأن اللغة المصرية القديمة مألوفة ، وأن هناك حركة رسل ومراسلات قائمة بين مصر وموانئ الساحل الشرقى لحوض البحر المتوسط :

" كانت الرسل التى تذهب إلى الشمال أو تتجه إلى بلاد الملك فى الجنوب تنزل عندى إذ كنت أستضيف جميع الناس ، وأسقى الظمآن ، وأهدى الضال إلى الطريق وأحمى المحرومين(٢٧) " .

وأخيرًا يتميز النص الأدبى لسنوهى بإشارته إلى تلك القبائل الأسيوية المعروفة باسم " حقا وخاسوت " التى أشاعت قلاقل بالمكان ، مما اضطر معه أمير " رتنو " إلى أن يعين سنوهى قائدًا عامًا لجنوده لملاقاة هذا الخطر . وتمكن سنوهى من إنجاز ذلك ، والتغلب على قائد تلك المجموعات المسمى " عامونانشى " . ولعل هذه التسمية التى تعنى فى اللغة المصرية القديمة " حكام الأراضى الجبلية (الصحراوية) ". هى التى حرف عنها لفظ الهكسوس ، والذى عرفت به تلك المجموعة الآسيوية التى أقامت عنوة بمصر خلال فترة الإنتقال الثانى .(٢٨) وأخيرًا فإن من بين أهم ما يلفت النظر فى نص سنوهى أيضًا ما يتعلق بالنظرة المصرية إلى الأراضى الأجنبية (خاصة كدمى ، الفنجو وفلسطين) وبعض حكامها الموالين لمصر وحاكمها ، وتشبيه سنوهى لأرض فلسطين بأنها " مِلْك حاكم مصر(٢٩) .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن النص الأدبى المعروف بـ(نصائح الملك أمنمحات إلى ابنه "(٣٠) يلقى الضوء ، وبصورة أدبية مميزة - على أهم أحداث تلك الفترة التاريخية الخاصة بقصة الاغتيال السياسى لحاكم مصر ، بينما كان ابنه وولى عهدى سنوسرت منهمكًا فى حملة حربية على حدود مصر الغربية ضد التحنو - التمحو الليبيين ، وهو ما انعكس أيضًا من قبل فى نصوص سنوهى:

" بعد تناول العشاء وحلول الليل ، ذهبت للنوم لأنى كنت متعبًا ، وفجأة سمعت قعقعة الأسلحة ولقد كنت وحيدًا ورأيت اشتباك الحراس مع الأعداء ، ولو أنى أسرعت وبيدى سلاحى لقاتلت هؤلاء الجبناء ، ولكن لا شجاع فى الليل

ولاقتال لمن كان وحده . فلقد حدث ما حدث وأنـا وحيـد بدونـك ... إن الـذى أكل طعامى هو الذى شجّع الثورة [التمرد] ضدى([٣١]) " .

وبالإضافة إلى ما سبق من نصوص الدولة الوسطى الأدبية فـإن قصـة المـلاّح الغريـق (أو بـالأحرى نجـاة المـلاّح) المحفوظـة حاليًـا فـى متحـف لينـنجـراد برقـم ١١١٥([٣٢]) برغـم صورها المبالغة فى الخيـال([٣٣]) - توضـح لنـا معرفـة أهـل مصـر باستخدام الطرق الملاحية عبر البحر الأحمر وتمكن بحارّتها من الوصـول إلى بونـت وشـبه جزيزة سيناء بغرض الحصـول على ما ترغـب فيـه مصر من مـوارد اقتصاديـة " البخور واللبان ، والنحاس والفيروز على التوالى "([٣٤])

وأخيرًا تجب الإشارة إلى رسائل الكاهن المزارع " حقا نخـت " الـذى عـاش فى عهد المناتحة (الأسرة الحادية عشر ٢١٣٣ - ٢٠٤٠ق.م) وهو شيخ شـحيح مـاكر مـن صغـار المـلاك اضطـر إلى السـفر إلى الشـمال (الدلتـا) لإنجـاز بعـض الأعمال، وترك بقية أفراد عائلته فى طيبة تحت رعاية ابنه الأكبر " مرسـو " وأرسـل له عدة رسائل تصوّر لنا جوانب متعددة من الحياة الزراعية والعلاقـات الاجتماعيـة ومدى التنافر أو المحبة بين أفراد هذه الأسرة ، ومدى العـبء الأسـرى الملقـى علـى عاتق الابن الأكبر تجاه مراعاة مصالح أبيه الاقتصادية من جهة ، والتعامل باحترام ، أو خوفًا من انزال عقوبة به تجاه زوجة أبيه الجديدة ومحظيتـه([٣٥]) . ولعـل أهـم مـا تضمنته تلك النصوص الأدبية لرسائل حقا نخت مـن وقـائع تاريخيـة ، الإشـارة إلى انخفاض مستوى نهر النيل ، والشح الذى حاق بالبلاد :

" لماذا أخذوا يأكلون الرجال والنساء هنا [الدلتا] ، لا يوجد أحد فـى أى مكان يحصل على مثل هذه المؤن ، يجب أن تدبروا أنفسكم حتـى أصلكـم ، فـإننى سأقضى شهور الصيف هنا "([٣٦]) .

ولعل هذا ارتبط مع ما سبقت الإشارة إليه من آراء للباحث " بوتزر " Butzer في الربط بين مستوى انخفاض فيضان نهر النيل أو ارتفاعه وبين إنهيار الحضارة المركزية المصرية أو قوتها .

٥ – من أدب فترة الانتقال الثانى (١٧٨٩ – ١٥٦٧ق.م) :

بدأت مصر دورة سياسية أخرى من التفكك السياسى ، وزاد عليها تمكّن بعض المجموعات البشرية من أصل أسيوى من التداخل إلى شرق الدلتا ، وتأسيس هيكل سياسى خاص بها ، وعرفت هذه المجموعات فى المصادر التاريخية باسم " الهكسوس " وذلك خلال فترة الانتقال الثانى (اللامركزية الثانى) (١٧٨٦ – ١٥٦٧ق.م) . وقد توزعت السلطة السياسية على مصر خلال تلك الفترة بين أسرات حاكمة متعددة بين عواصم سياسية مختلفة . ومع أواخر فترة الانتقال الثانى تركزت أمور السلطة السياسية بين مملكتين أساسيتين : الهكسوس فى الدلتا وأسرة محلية مصرية تدين بالولاء الأسمى لحكم الهكسوس ، فى منطقة طيبة فى جنوب صعيد مصر وهى المعروفة بالأسرة السابعة عشر الطيبية . ولقد توفر لنا بعض المصادر التاريخية عن أخريات تلك الفترة الانتقالية حينما بدأت مصر تستعد لشن حملة معاكسة لتوحيد مصر سياسيًا ، ولتحرير أرضها من موجود الهكسوس وخاصة من فترة حكم سفن رع أمير طيبة . ومن أهم النصوص الأدبية التى يستنبط منها بعض الأحداث التاريخية ما يعرف ببردية سالبية(١) المدونة فى عصر الرعامسة نقلاً عن مصادر قديمة(٣٧) والتى تصور لنا ببلاغة مدى القلق الذى ساور حاكم الهكسوس " أبوفيس " فى شرق الدلتا فى مقر حكمة " حت وعرت " (أواريس) من بوادر التمرد السياسى لحاكم طيبة " سفنن رع " وكيف أنه لا يستطيع النوم فى قصره بسبب أصوات فرس النهر فى طيبة ؟ بالرغم من البعد المكانى (الجغرافى) بين العاصمتين :

" لقد أرسل الملك " أبوفيس " يقول : مر بأن يهجر فرس النهر بحيرته التي في ينبوع المدينة الجارى (المدينة = طيبة) لأنه (فرس النهر) لا يسمح للنوم أن يغشانى ليلاً أو نهارًا ، إذ أن أصواته المزعجة فى أذنى .([38])

وبالرغم من عدم حفظ نصوص البردية لباقى الأحداث التاريخية إلا أن مومياء سقنن رع المحفوظة بالمتحف المصرى خير دليل على إنشغال صاحبها بالكفاح المسلح ضد الهكسوس ، وعن استشهاده فى ميدان القتال متأثرًا بجرح قاطع فى جمجمته .([39])

٦ – من أدب عصر الدولة الحديثة " الامبراطورية "(١٥٦٧–١٠٨٥ ق. م.) :

تمكنت مصر خلال عصر الدولة الحديثة أو عصر الامبراطورية (١٥٦٧ – ١٠٨٥ق. م.) الذى انقسم إلى ما عرف باسم عصر التحامسة (الأسرة الثامنة عشر) ، وعصر الرعامسة (الأسرتان : التاسعة عشر والعشرين) تمكنت من تشييد امبراطورية ضخمة لها شملت مناطق النوبة وحتى الجندل الرابع (فى منطقة نباتا " جبل برقل " فى السودان) والتى تم تمصيرها ، وضمها إلى وحدة الأراضى المصرية ذاتها ، والمناطق إلى الشمال الشرقى من مصر فى آسيا فيما يقابل الوحدات السياسية الحالية : فلسطين ، الأردن ، لبنان ، وجنوب سوريا ، والتى خضعت لسيادة مصر العسكرية والسياسية . كذلك دان لسيادة مصر الحضارية ، ورغبت فى التعايش السلمى معها مناطق وادى الرافدين ، وبلاد الأناضول وجزر البحر المتوسط . وقد تعددت المصادر التاريخية والخاصة عن أحداث تلك الفترة الهامة ، ولكن يظل لبعض المصارد الأدبية أهميتها لتضمنها بعض الأحداث التاريخية التى لم يشر إليها فى تلك الوثائق الملكية ، والتى تضيف عددًا تفصيليًا آخر عن بعض الوقائع الهامة . ومن أهمها ما تضمنته نصوص القائد الحربى " تحوتى " الذى شارك ملكية فرعون مصر الخالد " تحتمس الثالث " (١٥٠٤ – ١٤٥٠ق. م.) (انظر شكل ٢) فى حروبه الآسيوية ، وما نجم عنها من جزى وهدايا حملها أهل

تلك المناطق إلى مصر (انظر شكل ٣) . وقد شارك " تحوتى " فى الاستيلاء على أحد الحصون المنيعة فيما يعرف بقصة الاستيلاء على يافا(٤٠) والتى وردت فى بردية هاريس ٥٠٠ ، والمحفوظة حاليًا فى المتحف البريطانى برقم ١٠٠٦٠ ، وبطريقة ذكية ماهرة تذكرنا بأحداث قصة على بابا والأربعين حرامى(٤١) حيث تمكن من خداع حاكم الحصن الأسيوى بانفصاله عن خدمة مليكه تحتمس الثالث وأنه قادم إليه محملاً بالهدايا (فى زكائب) ، وهى فى واقع الأمر جنوده المحاربون. والجدير بالملاحظة أن أحداث هذه الخديعة الحربية لم يرد لها أى ذكر فى مجموعة تقارير حروب تحتمس الثالث المعروفة تاريخيًا باسم " قوائم تحتمس الثالث " وهى تلك المدونة على جدران معبد الكرنك بالأقصر الحالية .

وخلال فترة حكم الأسرة العشرين (١٢٠٠ - ١٠٨٥ق.م) ، بدأت تظهر ملامح التصدع الداخلى ، وأثر الإنهاك العسكرى نتجية مشاركة مصر فى حروب متعددة وعلى جبهات متعددة : الشمالية الشرقية الآسيوية والغربية الليبية والسواحل الشمالية . وزاد على ذلك ما نستنبطه من نصوص بردية هاريس عن مؤامرة سياسية لاغتيال فرعون مصر "رمسيس الثالث " فيما عرف باسم " مؤامرة الحريم " بإشراف مجموعة من نساء القصر بقيادة الملكة " تتى" لتنصيب إبنها " بنتاؤر " على عرش مصر عنوة ، وتمكن رمسيس الثالث من القضاء على تلك المؤامرة ، وعلى من شارك فيها (٤٢) . كذلك أوضحت لنا مجموعة النصوص الأدبية المعروفة بمجموعة " رسائل أواخر عصر الرعامسة " من قرية عمال دير المدينة بغرب الأقصر ملامح الانهيار الاجتماعى ، وبدء القلاقل السياسية ، والضعف الاقتصادى الذى حاق بمصر مع نهاية فترة حكم رمسيس الرابع ومن تلاه من الملوك ، وحتى نهاية الأسرة العشرين ، وإنتهاء مجد مصر السياسى والعسكرى ، وإنهيار مجدها الامبراطورى ، وتقوقع مصر ثانية داخل حدودها الطبيعية ، وفقدها لممتلكاتها السياسية التاريخية(٤٣) . وتتكون هذه المجموعة من

الرسائل من خمسين رسالة تشير بعض نصوصها إلى الاضراب عن العمـل ، وتنفيـذ سياسة " العصيان المدنى ":

" ساقنا إلى هنا الجوع والعطش ، فليس لدينا كساء ولا دهـون ، ولا سمك ولا خضر ، فاخطروا مولانا الملك . اكتبوا إلى الوزير الذى يتولى أمرنا حتى يعطينا ما يقيم أودنا ."

كذلك تضمنت تلك الرسائل إشارات إلى أعمال شغب داخلى نفذها بعض الأفراد من جنود مصر من أصل أجنبى (المرتزقـة) ، وخاصـة مـن ذوى الأصول الليبية (عنصر المشوش) ، مماقد يعكس بداية لتسلالات ليبية الأصل عـبر صحـراء مصر الغربية أيضًا ، انتظار لفرصة سانحة ، وهو ما تحقق بالفعل أثناء عصر الانتقال الثالث حال إنهيار سلطة مصر المركزية ، وتمكن العناصر الليبية مـن تأسيس أسـرة حاكمة اعتلت عـرش مصر . كذلك أوضحت نصـوص تلك الرسـائل إشـارة إلى " قمع أمنحتب " وإلى الدور الذى لعبه " بانحسى " مما يعكـس مـدى الـتردى فـى الأوضاع السياسية الداخلية فى مصر أثناء أواخر عصر الرعامسـة . وبـالمثل إشـارة إلى نشاط عسكرى محدود فى النوبة ربما نتيجـة لضغـط بمجموعـات بشـرية خـارج مناطق النفوذ التقليدى المصرى على النوبة .

٧ – من أدب فترة الانتقال الثالث (١٠٨٥ – ٦٦٤ق. م.) :

يعكس النص الأدبى المعروف بقصة " ون – آمون " المحفوظ حاليًا بموسـكو برقم ١٢٠ ، والذى يرجع إلى أوائل فترة الانتقال الثالث (١٠٨٥ – ٦٦٤ ق.م) مدى ما لحق بمصر من ضعف سياسى فى الخارج بلغ أقصى مـداه بامتهـان كرامـة إلهها السياسى " آمون رع " فى منطقة لبنان ، وامتهـان كرامـة رسـوله الكـاهن ون – آمون وعدم تلبية احتياجاته التى سافر من أجلها إلى لبنان لاحضار أخشـاب الأرز اللازمة لمركب إلهه المقدس . كذلك تعـرض ون آمـون للسرقة والمهانـة فـى طريقه إلى لبنان على يد أحد البحارة من " الثكر " أحـدى المجموعـات البشـرية لمـا

عرف تاريخيًا باسم " شعوب البحر " ذات الأصول المينوية خلال عصر الرعامسة(٤٤) .وتضيف النصوص إلى أن ون - آمون لم يحصل على حقه حين تقدم بشكواه - حال وصوله إلى صور - إلى الأمير ذى الأصل المشترك مع البحار " الثكرى " وإدعاء هذا الأمير بعدم وجود سلطة له على السفن الأجنبية الموجودة فى مينائه . ولعل ما واجهه كاهن آمون من تهكم على يد أمير جبيل أيضًا ، يعكس مدى ما لحق بمصر وبسمعتها فى الخارج من تأكيد أمير جبيل أنه " ليس تابعا لمصر " ، وأنه ليس هناك ما يجبره على ارسال الأخشاب دون دفع ثمن لها ومقارنة ذلك بما عكسته نصوص ومناظر عصر الدولة الحديثة من تقبيل للتراب بين قدمى فرعون مصر طلبا لمنحهم " نسمة الحياة " . بالرغم من هذا الجانب المظلم للنص الأدبى لقصة " ون - آمون " فأنه يعكس أيضًا بين ثناياه الكثير من نفوذ مصر الأدبى فى لبنان برغم انقضاء السيادة المصرية عليها ، وأفول قوتها العسكرية حيث يتضح مدى المام أمير البلاد باللغة المصرية القديمة . كما توضح النصوص أن بعض القائمين على خدمة هذا الأمير ومن فى صحبته ، كانوا من المصريين . وأخيرًا فإن هذا النص الأدبى يعكس وجود خط ملاحى منتظم بين جبيل (لبنان) وصان الحجر فى دلتا النيل أثناء تلك المرحلة ، ووجود تجار آسيويين مقيمين فى الموانئ المصرية(٤٦) . ولعل ما كشفت عنه النصوص المصرية من وجود جاليات من أصول أجنبية " لبحارة " فى منياء منف القديم ما يدعم ذلك .

* * *

وخلاصة القول أنه يتضح مما سبق أن هناك العديد من الأحداث التاريخية عبر فترات متعددة من تاريخ مصر القديم تردد صداها ثنايا نصوص الأدب المصرى القديم بمختلف أنماطه ، وأن هذه النصوص أضافت أحيانًا نقاطا جديدة لم يرد لها ذكر فى المصادر النمطية الملكية ، أو أعطت تفصيلات أخرى ووجهات نظر توضيحية ساعدت فى استكمال صورة التاريخ المصرى القديم .

هوامش البحث

(١) بوزنر (ج) وآخرون ، **معجم الحضارة المصرية القديمة** ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص١٢ - ١٣.

(٢) تناول النص بالشرح والتعليق العديد من المؤلفين ومن بينهم :

Erman. A. **The Literature of Ancient Egypt**. London: 1927, p. 86.; Lichtheim, M. **Ancient Egyptian Literature,** Vol., I, Berkely: 1973, pp. 215-160.

حسن (سليم) **الأدب القديم أو أدب الفراعنة** . الجزء الأول : **فى القصص والحكم والتأملات والرسائل** .مطبوعات كتاب اليوم القاهرة : ١٩٩٠ ، ص٨٤ - ٩٧ ، مهران (محمد بيومى) **تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم** ، القاهرة : ١٩٨٥ ، ص٤٠ ، فخرى (أحمد) **مصر الفرعونية** ، الطبعة السابعة ، القاهرة : ١٩٩١ ، ص١٣٠ .

(٣) حسن سليم ، **المرجع السابق** ، ص٩٣ ، مهران (محمد بيومى) ، **الحضارة المصرية القديمة** ، الجزء الأول : **الأداب والعلوم** ، الاسكندر ١٩٨٩ ، ص٧٧ - ٧٨ .

(٤) توفيق (سيد) ، **معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية** ، القاهرة : ١٩٧٨ ص ١٣١ ، حسن (سليم) ، **مصر القديمة** ، الجزء الأول : **فى عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر الاهناسى** ، القاهرة : ١٩٩٢ ، ص٣٧٢ .

(5) Erman, A. " Der brief des Konigs nefer- Ke- er ". **ZÄS** 31, pp.62 - 70,

حسن ، **المرجع السابق** ، ص ٣٨٢ - ٨٤

فخرى ، **المرجع السابق**، ص١٥٥

(6) O'Connor D. " Relations between the Sudan and Egypt, 3000-715B. C.
Unpublished paper, pp. 14 - 16 .

(٧) تناول البردية بالإشارة والتحليل :

Gardiner, A. **The Admonitions, of an Egyptian Sage,** Leipzig: 1909; pp. 37-38; Breasted, J. H. **The Dawn of Conscience,** New York " 1933, pp. 193-200; Erman, **The Literature of Ancient Egyptians**, p. 92 ff.

حسن ، **الأدب المصرى القديم** ، ص٣٠٩ - ٣٣٢ ، فخرى **المرجع السابق** ، ص١٦١

(٨) صالح (عبد العزيز) ، حضارة مصر القديمة وآثارها ، الجزء الأول ، القاهرة : ١٩٦٢، ص ٣٨٤-٨٥ ، جاردنر (ألن) ، مصر الفراعنة ، القاهرة : ١٩٧٣ ، ص١١٦-١١٧

(9) Shaheen, A. " A Possible Synchronization of EB IVC Ceramic Ware in Syro - Palestinian and Egyptian Sites, **GM** 131 (1992) PP. 101-109.

(١٠) حسن ، المرجع السابق ، ص٦٤ ، ٦٥

(١١) توفيقن المرجع السابق ، ص ١٦٠ ، ص ٢٣٢

حاول البعض الربط بين انهيار السلطة السياسية أو قوتها وضعف مصر الاقتصادى أو قوتها مع ظاهرة انخفاض فيضان نهر النيل أو ارتفاعه ، وتتبع تلك الظاهرة عبر تاريخ مصر القديم ، وتزامن ذلك خلال عصور الانتقال الأول ، الثالث وهي تلك التي انهارت بالفعل خلالها السلطة المركزية للدولة .

CF Butzer, K. **Early Hydraulic Civilization in Egypt.** Chicago and London, Chicago Uiniveristy press: 1976.

(12) Simpson, W K The Literature of Ancient Egypt. London 1977, pp 16-30; Lichtheim, **op. citl.** p. p. 216-22.

حسن (سليم) ، مصر القديمة ، الجزء الثاني : في مدنية مصر وثقافتها في الدولة القديمة والعهد الاهناسي ، القاهرة : ١٩٩٢ ن ص٤٣٦ ٤٤٨ ، بوفيفر (جوستاف) ، روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني ، القاهرة ١٩٦٢ ، ٣٩٤ ، مهران ، الحضارة المصرية ، ص١٤٠ - ١٥٧ ، فخري (أحمد)، الأدب المصري القديم " ، تاريخ الحضارة المصرية القديمة ، العصر الفرعوني ، القاهرة ، ص ٨٠ ٩٣

(13) Golenischeff W **LesPapyrus hieratiques nos. 1115, 11161 et 1116 B de I,Ermitage Imperiai á Saint** Petersburg, Petersburg 1913, Erman, Op. cit., p. 75 ff.

حسن ، الأدب المصرى القديم ، ص٢٠٠ ٢٠٧ ، مصر القديمة ، ، ١٠ ، ص٤٢٠ - ٤٢١ .

(١٤) حسن ، المرجع السابق ص ٤٢٧ .

(١٥) حسن ، المرجع السابق ص ٤٢٢ - ٤٢٤ .

(16) Hayes, W. " The Middle Kingdom in Egypt; **CAH1**, 2 Cambridge University Press: 1908, p. 465.

(17) Wilson, J. A " Egyptian Prophecy of neferrohu, " **ANET,** I, Edited by H. Britchard Princeton University press: 1972, pp. 252-57; Erman, **Op. cit.,** p. 110 ff;

حسن ، **الأدب المصرى** ، ص ٣٣٣ - ٣٩ ، مهران ، **تاريخ مصر الفرعونية** ، ص٧٥ .

(١٨) **شاهين (علاء الدين) شبه جزيرة سيناء : دراسة تاريخية وأثرية حتى نهاية الدولة**

الوسطى ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨١، ص٣١٧-٣٢٠

(١٩) حسن ، **مصر القديمة** جـ٢ ، ص٤٥٨ .

(٢٠) توفيق ، **المرجع السابق** ، ص٢٠٦ .

(21) Willson, J. " Egyptian Myths and Tales: The Story of Sinuhe:, ANET I, Edited by J. Pritchard, Princeton University Press: 1975, pp. 5-11; Cardiner, A. **Notes on the Story of Sinuhe,** Paris: 1915.

حسن ، **الأدب المصرى** ، ص ٤١ - ٥٦ ، فخرى ، **مصر الفرعونية**، ص ٢٢١.

(٢٢) حسن ، **المرجع السابق** ص٤٤ .

(٢٣) حسن ، **المرجع السابق** ص ٤٥ - ٤٦ ، توفيق ، **المرجع السابق** ص٢٣٥ .

(٢٤) مهران ، **الحضارة المصرية** ، ص١٠٥ .

(٢٥) بوزنر وآخرون ، **المرجع السابق** ، ص٩٧ .

(26) Willson, J. " Egyptian Historical Texts: The Report of a frontier official, " ANET I, Edited by J. Pritchard, Princeton University Press: 1975, pp. 183-84.

(٢٧) فخرى (أحمد) ، **دراسات فى تاريخ الشرق القديم** ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص٦٨ .

(٢٨) فخرى ، **المرجع السابق** ، ص ٦٨ ، مهران ، **الحضارة المصرية** ، ص١٠١ .

(٢٩) حسن ، **المرجع السابق** ص ٥٣ .

(٣٠) فخرى ن **مصر الفرعونية** ، ص ٢٢١ ، حسن ، **المرجع السابق** ، ص ٢٠٩ - ٢١٧ .

(٣١) توفيق ، **المرجع السابق** ص ٢٠٧ -٢٠٨ ، حسن ، **المرجع السابق** ص ٢١٠ ، فخرى، **المرجع السابق** ص٢٢٢ .

(32) Gardiner, A. " Notes on the Tale of the Shipwreckes Sailor." **ZÄS** 14. P. 60 ff. Erman. Op. cit., p. 29 ff, Golenschiff, w, **Le Conte du Naufrage,** Le Caire: 1912 Simpson, Op. cit., pp. 50-56.

حسن ، المرجع السابق ص ٥٧ - ٦٤ .

(٣٣) بوزنر وآخرون ، المرجع السابق ص ٢٣٨ ، مهران الحضارة المصرية ، ص١١٠.

(٣٤) راجع علاء الدين شاهين ، شبه جزيزة سيناء ؛ لمزيد من المعلومات عن الطرق الملاحية المؤدية إلى سيناء .

(٣٦) توفيق ، المرجع السابق ص ٢٣٤ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٢٠٩.

(37) Erman, Op, cit. p. 165ff

(٣٨) حسن ، الأدب المصرى القديم ، ص١١٥ - ١١٩ ، فخرى ، المرجع السابق ص٢٦٢ ، حسن ، المرجع السابق ص ١١٨ .

(٣٩) توفيق ، المرجع السابق ص ٢٥٨ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٢٦٣ ز

(40) Gardiner, A. Late Egyptian Stories, **BA, I** Brussels; 1932. pp. 82-85; Erman, Op, cit. p. 197 ff.

حسن ، المرجع السابق ص ١١٩ ، مهران ، الحضارة المصرية القديمة ص١١٦-١١٩ فخرى " الأدب المصرى " ص ٤٠٨-٤٠٩ ، لوفيفر ،، المرجع السابق ص ١٨٨-١٩٢

(٤١) بوزنر وآخرون ، المرجع السابق ص ٣٨ .

(٤٢) توفيق ، المرجع السابق ص ٣٣١ ، مصر الفرعونية ، ص ٣٩٦ - ٣٩٨.

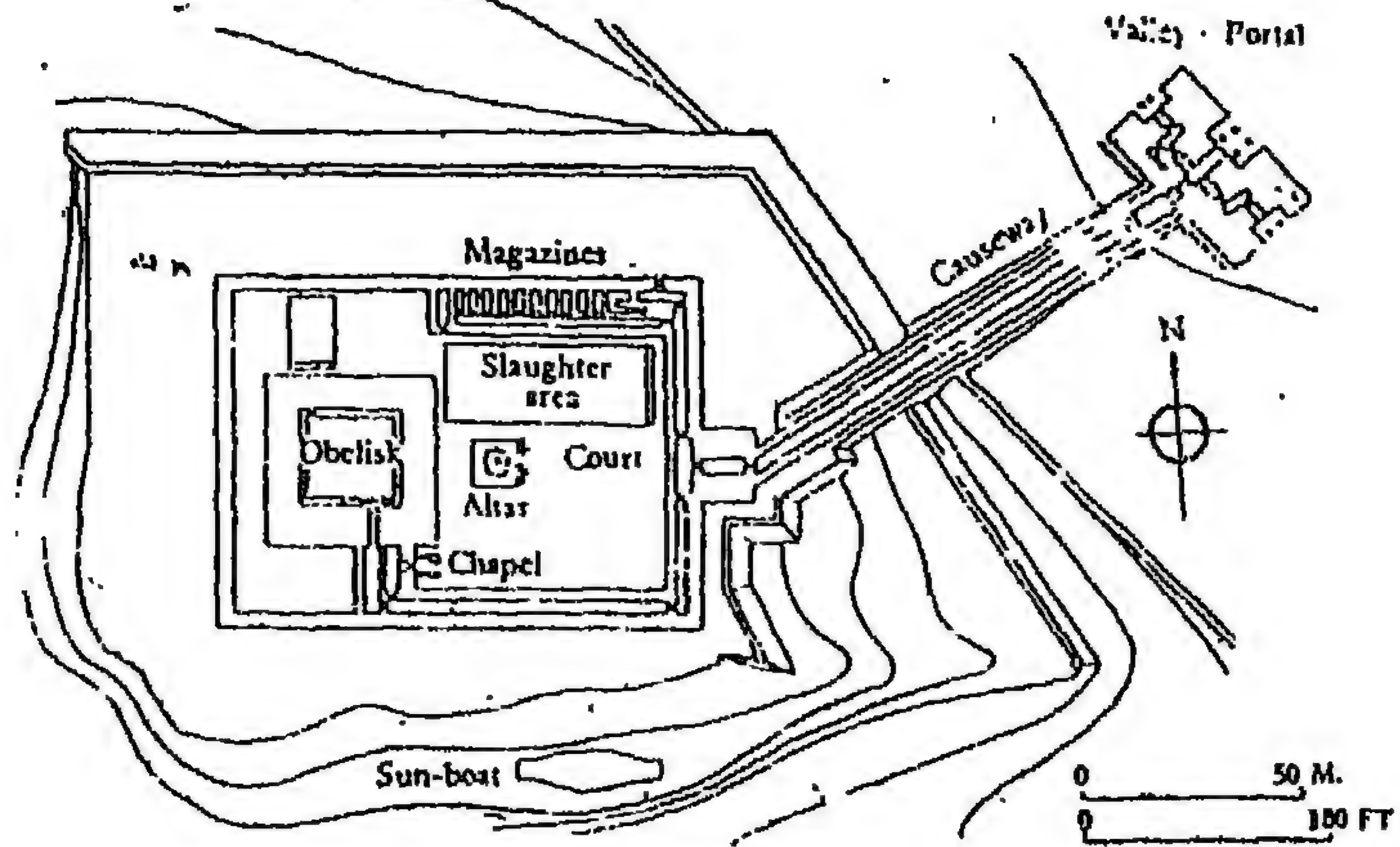
(٤٣) بوزنر وآخرون ، المرجع السابق ص٢٢ ، فخرى ، المرجع السابق ص ٣٩٦.

(٤٤) فخرى ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم ن ص٩١ - ١٠١ ، حسن ، المرجع السابق ص١٧١ - ١٨٠ .

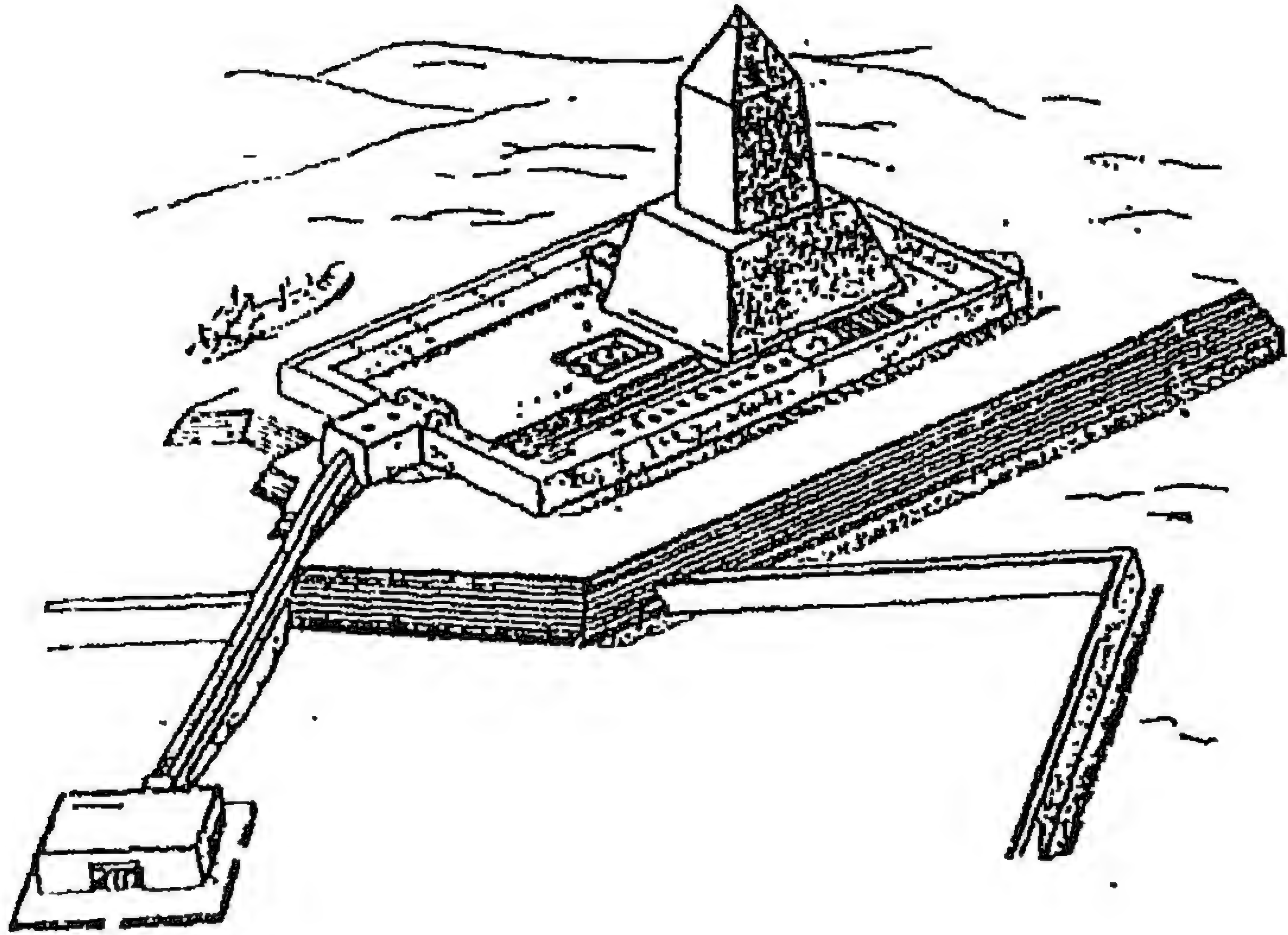
(٤٥) فخرى ، المرجع السابق ص١٠٠، " الأدب المصرى القديم " ، ص٤٠٢ - ٤٠٦ ، جارنر ، المرجع السابق ص ٣٣٦ - ٣٤٢ .

(٤٦) فخرى ، المرجع السابق ص١٠٠ .

خريطة (١) أهم المواقع الأثرية فى مصر القديمة



شكل ١ (أ) رسم تخطيطى لمعبد الشمس



شكل ١ (ب) رسم تصورى لمعبد الشمس



شكل (٢) تحوتمس الثالث



شكل (٣)

بعض الزعماء السوريين وقد أتوا بهداياهم إلى مصر وبخاصة الأوانى الذهبية الجميلة الصنع ،

وترى أحد الزعماء وقد اصطحب معه ابنته الصغيرة

من مقبرة رقم ٦٣ فى طيبة ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد

ظهور إمارة الحيرة
فى التاريخ العربى ومجالها الحضارى
(العمران والثقافة)

أ. إبراهيم عناني*

على بعد ثلاثة أميال جنوبى الكوفة ، وعلى مسيرة ساعة إلى الجنوب الشرقى من النجف الأشرف (مشهد على رضى الله عنه) ، وعلى ضفاف بحيرة نجف التى جفت أو كادت على تخوم الصحراء ، تقع هذه المدينة الجميلة ، قصبة الملوك اللخميين التى سميت : (الحيرة البيضاء) لما شهدته من بناء وعمران ، ولما اشتهرت به من قصور أهمها : الخورنق ، والسدير(1) . والحيرة - هذه المدينة القديمة- طيبة التربة ، مفترشة البناء ، كبيرة ، هواؤها وترابها من الكوفة(2) ، يرويها نهر الحيرة(3) . وقد حاول القدماء اكتشاف السر فى تسمية هذه الإمارة (بالحيرة) وتوهم البعض أن اللفظ من (حار) و (تحير) بمعنى ضل الطريق . فابن الفقيه يرى أنها سميت الحيرة لأن كذلك تبعاً لما سار إلى موضع الحيرة أخطأ الطريق ، وتحير هو أصحابه فسميت الحيرة(4) ويرى ياقوت الحموي أنها سميت لأن تبعاً الأكبر لما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك الموضع وقال لهم : (حيروا به) أى أقيموا به . وثمة وجهة نظر أخرى فى التسمية ينقلها لنا ياقوت فى معجمه ، إذ يقول : (وقال الزجاجى)(5) : كان أول من نزل بها مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد .. فلما نزلها جعلها حيرا واقطعه قومه، فسميت الحيرة بذلك(6) ، وقريب من ذلك ما يروى فى بعض أخبار أهل السير من أن أردشير سار إلى الأردوان ملك النبط ، وقد اختلفوا عليه ، وشاغبه ملك من ملوك النبط يقال له يابا ، فاستعان كل واحد منهما بمن يليه من العرب ليقاتل بهم الأخر، فبنى الأردوان ..حيرا فأنزله من أعانه من العرب ، فسمى ذلك الحير

---

* باحث فى التاريخ . وعضو اتحاد المؤرخين العرب .

الحيرة ، كما تسمى القيعة من القاع(٧) . على أن الأرجح أن هذه التسمية : (بالحيرة) ، أرامية الأصل ، جاءت من الكلمة السريانية (حرتا) (حيرتو) ومعناها المخيم والمعسكر وهى تقابل فى العبرية كلمة (حاصير)،كما أن (حيرتا)، و(حيرة) فى التواريخ السريانية التى تحدثت عن الغساسنة تقابل مصطلح (عسكر) عند الإسلاميين(٨) .

وقد غلبت تسمية الحيرة على الحيرة والكوفة كلتيهما ، فقالوا : الحيرتان تثنية الحيرة والكوفة ، كقولهم القمران ، والعمران(٩) ولأهمية هذه المدينة فى تاريخ العرب ، فقد عرفت (بالحيرة مدينة العرب)(١٠) كما اشتهرت أيضا بحيرة النعمان(١١) . وربما يرجع ذلك إلى أهمية الأحداث التاريخية والأعمال الحضارية التى تمت فى عهد ملوكها المسمين بالنعمان ، إذ من المعروف أن النعمان الأكبر- الذى تملك على الحيرة ثلاثين سنة هو بانى قصر الخورنق(١٢) وقصته شهيرة فى التنسك والزهادة . أما النعمان بن المنذر الذى جاء على فترة بعد جده النعمان الأكبر هذا ، وهو الذى ينسب إليه الزهر المعروف : بشقائق النعمان(١٣) فقد كثرت عنه الأحاديث وشاعت الأساطير التى منها : نديما النعمان ويوما نعيمه وبؤسه . وشهير أيضاً وفود النابغة عليه بمدحه ، ويعتذر له . ويروى المؤرخون أن قتل النعمان عدى بن زيد العبادى الشاعر الحيرى - مترجم كسرى وكاتبه - وقد تسبب فى قتل كسرى التعمان بن المنذر ، ومن ثم فى وقوع حرب ذى قار بين العرب والفرس .

الظروف التاريخية :

أما عن الظروف التاريخية التى احاطت بنشأة الحيرة فترتبط بإنحطاط الدولة الفارسية على أثر الهزيمة التى أنزلها الأسكندر المقدونى بدارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ق. م. وقد قسم الأسكندر بلاد الفرس إلى دويلات صغيرة يحكمها ملوك يعرفون بملوك الطوائف ، حتى لا يقووا على الإغارة على بلاد اليونان . واستمر ملوك الطوائف ، يتولون حكم بلاد الفرس إلى سنة ٢٢٦م ، حين نبغ أردشير بن

بابك مؤسس الطبقة الرباعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة([١٤]) . واستمر أردشير فى الحكم إلى السنة ٢٤١م ، واستطاع أن يوحد كلمة الفرس من جديد ، كما أعاد إلى سلطانة الأراضى العربية المتاخمة لبلاده ومنها الحيرة والأنبار ومنحها الاستقلال ، ليمنع أهلها من الإغارة على تخوم بلاده، وليستعين بهم على الرومان وعلى العرب الذين يغيرون على بلاد الفرس([١٥]) .

والواقع إن تاريخ الحيرة قبل الميلاد غامض لانكاد نعرف من أمره شيئا ، فلم يرد خبرها فى نص تاريخى مدون أو كتابة مدونة الميلاد([١٦]) . غير أن ذلك يتخذ دليلاً على أنه لم يكن لها وجود قبل هذه العهد([١٧]) . واقدم كتابة تتضمن اسم الحيرة (حيرتا) نص يرجع إلى سنة ١٣٢ من التاريخ الميلادى([١٨]) . ونستدل من هذا النص على أن الحيرة اقيمت فى عصر سابق للعصر الساسانى([١٩]) .

ويختلف الإخباريون فيمن اسس الحيرة فى التاريخ العربى القديم ، فمنهم من يرجع عهد هذه الإمارة إلى أيام (بختصر)([٢٠]) فى حين يرى أهل اليمن أنها من بناء تبع الأكبر([٢١]) .

هجرة التنوخيين إلى العراق ، وظهور الحيرة فى التاريخ العربى :

يرى بعض الباحثين المحدثين أن تاريخ إمارة الحيرة يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، واستمر إلى ظهور الإسلام([٢٢]) . وعن هجرة التنوخيين إلى بادية العراق يحدثنا حمزة الاصفهانى بأنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب إلى العراق والشام ، فكانت تنوخ – وهم حى من أحياء الأزد – ممن تمزق إلى العراق ، ذلك أنه اتفق مجئ مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان الازدى من بنى نصر بن الأزد فى جمهور من الأزد ، ومجئ مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن قضاعة فى جمهور من قضاعة ، لما افترقت قضاعة عند تهامة إلى البحرين ؛ فقال مالك بن فهم الازدى لمالك القضاعى : نقيم بالبحرين ، ونتحالف على من نوانا ، فتحالفوا فسموا تنوخا ، وبذلك فى أيام ملوك الطوائف، فنظروا

إلى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهى شاغرة ، فخرجوا عن البحرين وسارت الأزد إلى العراق مع مالك بن فهم الأزدى ، ثم سارت قضاعة إلى الشام مع مالك بن فهم القضاعى ، فملك القضاعيون طائفة من الشام ثمت سليخ بن حلوان فى قضاعة فصار الملك فيها ، ثم منها فى لضجاعمة فبقى الملك فيهم إلى أن أغلب على الملك بنوجفنة مالك بن فهم . وتملك على تنوخ العراق مالك بن فهم فى زمان ملوك الطوائف . وكان منزله بالأنبار[٢٣] . تلك رواية حمزة الاصفهانى عن هجرة العرب إلى الحيرة ، وهى أكثر دقة مما رواه الطبرى[٢٤] وابن الأثير[٢٥] عن ابن الكلبى[٢٦] ، أنه لما مات بختنصر ، انضم الذين كان اسكنهم الحيرة من العرب إلى أهل الأنبار ، وبقيت الحيرة خراباً ، فغبروا بذلك زمانا طويلاً لا تطلع طالعة من بلاد العرب ولا يقدم عليهم قادم .

وبالأنبار أهلها ومن انضم إليهم من أهل الحيرة من قبائل العرب من بنى إسماعيل وبنى معد بن عدنان ، فلما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معه من قبائل العرب ، وملوؤا بلادهم من تهامة وما يليها ، فرقتهم حروب وقعت بينهم وأحداث حدثت فيهم ، فتشتتوا . واقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين وبها جماعة من الأزد كانوا نزلوها فى دهر عمران بن عمرو من بقايا بنى عامر ، وهو ماء السماء بن حارثة وهو الغطريف بن ثعلبه بن امرئ القيس بن مازن ابن الأزد . وكان الذين أقبلوا من تهامة من العرب مالك وعمرو أبنا فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلبـبن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، ومالك بن زهير ابن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة فى جماعة من قومهم ، والحيقار بن الحيق بن عمير بن قنص بن معد بن عدنان فى قنص كلها . ولحق بهم غطفان بن عمرو بن الطمثان بن عوذ مناة بن يقوم بن أقصى بن دعمى بن أياد ابن بن نزار بن معد بن عدنان ، وزهر بن الحارث بن الشلل بن زهر بن اياد ، وصنح بن أفصى بن دعمى بن أياد . فإجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب ، فتحالفوا

على التنوخ وهو المقام ، وتعاقدوا على التوازر والتناصر فصاروا يدا على الناس وضمهم اسم تنوخ(٢٦) . وتنخ على تنوخ بطون من نمارة بن لخم . ودعا مالك بن زهير جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدى إلى التنوخ معه، وزوجة أخته لميس ابنة زهير ، فتنخ جذيمة ومن كان من الأزد ، فصار مالك وعمرو ابنا فهم والأزد خلفاء دون سائر تنوخ وكلمة تنوخ كلها واحدة .

أما اجتماع من اجتمع من قبائل العرب بالبحرين وتحالفهم وتعاقدهم ، فكان على حد قول ابن الكلبى فى أزمان ملوك الطوائف الذين ملكهم الأسكندر وفرق البلدان بينهم عند قتله دارا بن دارا ملك فارس ، إلى أن ظهر أردشير بن بابك ملك فارس على ملوك الطوائف وقهرهم ، ودان له الناس . وفى هذا العهد- عهد ملوك الطوائف على حد قوله أيضاً - تطلعت انفس من كان بالبحرين من العرب إلى ريف العراق وطمعوا فيه واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف فأجمعوا على السير إلى العراق . وكان أول من طلع منهم الحيقار بن الحيق فى جماعة قومه واخلاط من الناس ، فوجدوا الأرمانيين (بنى أرم) ، وهم الذين بأرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل ، يقاتلون الأردوانيين ، وهم ملوك الطوائف ، فاستفادوا من ذلك وانتشروا فى السواد . وسكن قسم منهم بين عرب الأنبار ، وسكن قسم آخر منهم بين عرب الحيرة .

ثم طلع مالك وعمرو ابنا فهم بن تيم الله ومالك بن زهير بن تيم الله ، وغطفان بن عمرو بن الطمثان وزهر بن الحارث ، وصنح بن صنح ، فيمن تنخ عليهم من عشائرهم وخلفائهم على الأنبار على ملك الأرمانين . فطلع نمارة بن قيس بن نمارة والنجدة ، وهم قبيلة من العماليق ، يدعون إلى كندة ، وملكان بن كندة وملك وعمرو ابنى فهم ومن حالفهم وتنخ معهم على (نفر) على ملك الأردوانيين ، فأنزلهم الحير ، أى الحيرة ، فلم تزل طالعة الأنبار وطالعه (نفر) على

ذلك لا يدينون للأعاجم ولا تدين لهم الأعاجم حتى قدمتها تبع وهو أسعد أبو كرب بن ملكيكرب ، فى جيوشة فاستولى عليها ، ونزل الحيرة فيمن معه(٢٧) .

روى ابن الكلبى أيضاً أن كثيراً من تنوخ نزلوا الأنبار والحيرة وما بين الحيرة وطف الفرات وغربيه إلى ناحية الأنبار وما والاها ... نزلوا فى المظال والأخبية لا يسكنون بيوت المدر ، ولا يزاوجون أهلها . وكانوا يسمون (عرب الضاحية) . فكان أول من ملك منهم فى زمان الطوائف مالك بن فهم وكان منزله مما يلى الأنبار . ثم مات مالك بن فهم ، فملك من بعده أخوه عمرو بن فهم ، فملك من بعده جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدى(٢٨) .

وتختلف هذه الرواية التى رواها الطبرى عن ابن الكلبى ، بشأن كيفية مجئ العرب العراق ، وسكنى تنوخ الحيرة ، تختلف عما رواه ابن أسحق ، حيث ترجع مجئ ربيعة بن نصر اللخمى إلى العراق ، إلى الرؤيا التى رآها ، وتعبير سطيح فشق لها بغلبة الحبشة على اليمن فى المستقبل . فأمر عندئذ بنية على نحو ما تخبرنا الرواية بالذهاب إلى العراق، وكتب لهم كتابًا إلى سابور بن خرز اذ فاسكنهم الحيرة(٢٩) .

هذه هى أقوال الإخباريين فى كيفية مجئ العرب إلى العراق وفى سكنا الحيرة والانبار وما بين المكانين من أرضين . وهى أقوال فيها شئ من الحق الواقع لكن فيها أيضًا شيئًا من الخطأ . فنحن لا نريد أن ننكر هجرة القبائل العربية من الجزيرة إلى العراق . فهذا أمر ليس إلى أنكاره من سبيل ، ولكننا لا نستطيع إن نوافقهم على أقوالهم فى مبدأ تلك الهجرة وفى كيفيتها ، فتلك أمور لا يعرفها الأخباريون . كما أننا لا نستطيع أن نوافقهم فى زعمهتم عمن قاد تلك الهجرة أو الهجرات التى تلتها من رجال . فنحن نعلم حق العلم إن من تحدثوا عنهم وجعلوهم فى الدهر الداهر ، وفى العرب العاربة ، أو فى أيام ملوك الطرائف هم فى الأكثر أناس عاشوا بعد الميلاد ، وبينهم رجال لا تبعد أيامهم كثيرًا عن الإسلام ، وبينهم أناس اخترعتهم مخيلة الإخباريين (٣٠) . ومن المعروف إن تنوخ اسم قبيلة

عربية يمنية ورد ذكرها فى جغرافية بطليموس ([٣١]) ، وكانت منازلهم فى الجنوب ... وهى السلسة الجبلية التى رأى البعض أنها نفس جبال شمر ([٣٢]) ولكن الإخباريين يرجعون منازلهم إلى تهامة . ومدينة الأنبار التى هاجر إليها عرب تنوخ قديمة البنيان ، وقد تبين من دراسة إثارها إنها من المواقع السابقة على عصر الدولة الساسانية . وقد ازدهرت هذه المدينة وعمرت فى عصر شابور الثانى (٣١٠ - ٣٧٩م) الذى حصنها بالقلاع والأسوار ، لكى تسهم فى مقاومة غارات الروم على بلاده ، وحفر إلى الجنوب منها نهرًا يصل الفرات بدجلة كان يعرف باسم نهر عيسى . واكتسبت الأنبار بفضل هذا النهر أهمية عظمى ، إذا أصبحت مركزًا تجاريًا هامًا ومخزنًا للأموال . واسم الأنبار القديم بمعنى المخزن يعبر عن الشهرة التجارية النى أصابتها.

وقد أدرك القدماء هذا المعنى ، وفسروها به ، يقول الطبرى : " إنما سميت أنبار ، لإنها كانت تكون فيها أنابير الطعام ، وكانت تسمى الأهراء ، لإن كسرى يرزق أصحابه رزقهم منها .

العلاقة بين الحيرة والجزيرة العربية :

من المعروف إن الصراع بين الإمبراطوريتين الفارسية ، من جانب ، والبيزنطية من جانب آخر ، انسحب على المملكتين التابعتين لهما : المناذرة فى الحيرة ، والغساسنه فى الشام ، فاتخذتا موقفًا عمليًا من هذا الصراع . و قد لاحظ البعض إن جهود الفرس للسيطرة على منطقة الحجاز كانت سببًا فى ضعف نفوذ تميم ، وارتفاع سلطان غطفان . وكان إن قامت مملكة لخم بتنفيذ هذه السياسة ، أعنى ساسة الأيقاع بين القبائل لأضعاف شأنها ، وذلك لكى يحصلوا على موطئ قدم فى هذه المنطقة ([٣٣]) . وسياسة (فرق تسد) قديمة قدم الدول الكبرى ، إذ تقوى شوكتها بأضعاف الوحدات السياسة الصغيرة . وقد اصطنع الفرس هذه السياسة ، ونفذها لهم الأمراء اللخميون - فيما يرى روزشكا - فغدت وسيلتهم

فى الوصول إلى السيطرة والنفوذ . وربما كان أهل المدينة أحرارًا لا سلطان للفرس أو الروم عليهم فيما يرى بعض المؤرخين الغربيين (٣٤) إلا إن البعض الآخر يرى إن عامل المدينة – يثرب – فى فترة من الفترات كان ممثلاً لملك الحيرة ، يناصره (ملوك) قريظة والنضير (٣٥) . ويميل كستر إلى هذا الفريق الثانى استنادًا إلى رواية لابن سعيد فى كتابة : (نشوة الطرب) ، تعطى هذه الرواية تفصيلات مهمه حول سيطرة الساسانين على المدينة بعد إن أوشكت سلطة اليهود على الانتهاء (٣٦) . ويروى ابن سعيد إن المعارك كانت دائمًا تأخذ مكانها بين الفريقين المتخاصمين (أى بين اليهود وبين الأوس والخزرج) و لم يستقم لهم إن يستبد بهم ملك إلى إن دخل على النعمان بن المنذر ملك الحيرة – عمرو بن الاطنابة الخزرجى فملكه على المدينة . ويؤكد أبو عبيدة ، إن عمرو بن الاطنابة كان صديقًا لخالد ابن جعفر زعيم كلاب الذى كان على صلة وثيقه بأمير الحيرة ، والذى قتل من قبل الحارث بن ظالم فى بلاط النعمان . ويستدل كستر من أسماء الأشخاص المذكورين فى القصص حول عمرو بن الاطنابة مثل الحارث بن ظالم ، وزيد الخيل ، وخالد بن جعفر ، والنعمان بن المنذر ، على أن عمرًا هذا عاش فى النصف الثانى من القرن السادس (٣٧) .

ويرجح كستر أيضًا صحة الرواية التى تقول بتعيين النعمان لعمرو بن الاطنابة الخزرجى (ملكًا) أو بالأحرى ممثلاً للحيرة ، وجابى ضرائب على المدينة ، مستدلاً على رأيه ببيتى ثابت الخزرجى ، وهو ما يؤكد فى نظر كستر استمرار السيطرة الفارسية على المدينة خلال القسم الثانى من القرن السادس الميلادى (٣٨).

يعنى هذا على أى الأحوال سيطرة الساسانيين على المدينة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى الذى عاش خلاله النعمان بن المنذر الحيرى .

الحيرة بعد ظهور الإسلام :

يحدثنا المؤرخون بإن شروع سعد بن أبى وقاص فى أنشاء الكوفة سنة ١٧هـ (٦٣٨م) كان إيذانا بتدهور الحيرة وتناقص عمرانها . ذلك إن انقاض قصورها استخدمت فيما يروى فى بناء المسجد الجامع بالكوفة ، وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم . وكانت الحيرة قد فتحت صلحًا كما إن خبرات أهلها التجارية أتاحت لها مجالاً واسعا للإفادة المادية من الفتوح الإسلامية . وهكذا ظلت الحيرة بأديرتها المعروفة مزارًا للمسحيين ، ومتنزها لغير المسحيين ، ينشدون فيها طيب الهواء وراحة المقام (٣٩) . كذلك ذاعت شهرة بعض الآلات الموسيقية فى الحيرة ، مثل العود الحيرى والمزمار ، والدف . كما كان للحيرة دور هام فى خدمة الفتوح الإسلامية الأولى فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فها هو ذا الدينورى (٤٠) يحدثنا فى (الأخبار الطوال) ، بإن المثنى ابن حارثة الشيبانى ، وسويد بن قطبه العجلى ، كانا يغيران على أرض فارس ، وقد أفضى الملك إلى بوران بنت كسرى ، وإن المثنى كتب إلى أبى بكر رضى الله عنه يعلمه ضراوته بفارس ، ويعرفه مواضع الضعف منهم ، ويسأله إن يمده بجيش ، الأمر الذى جعل خليفة المسلمين يكتب إلى خالد بن الوليد - وكان قد فرغ من أهل الردة - إن يسير إلى الحيرة فيحارب الفرس ، ويضم إليه المثنى ومن معه . وقد تم ذلك فسار خالد والمثنى بأصحابهما حتى أناخا على الحيرة وتحصن أهلها فى القصور الثلاثة . ويروى الدينورى إنهم صالحوا خالدا وقد نزل إليه عمرو بن بقيلة من القصور الثلاثة على مائة ألف درهم يؤدونها فى كل عام إلى المسلمين (٤١) . وبينما خالد فى طريقة إلى الشام ليمد أبا عبيدة بن الجراح بمن معه من المسلمين ، تلبية لكتاب أبى بكر رضى الله عنه ، وبعد إن خلف خالد بالحيرة عمرو بن حزم الأنصارى مع المثنى ، أنحط على عين التمر ، وكان بها مسلحة لأهل فارس ، فحاصر أهلها حتى استنزلهم بغير أمان ، فضرب أعناقهم ، وسبى ذراريهم (٤٢) .

وقد ظلت الحيرة مدينة معمورة بالسكان فى العصر الأمـوى ، إلا إنهـا فـى العصر العباسى أخذت فى الاضمحـلال (٤٣) . ويحدثنـا المسعودى إن عمرانهـا لم يزل يتناقص فى العصر العباسى إلى أيام المعتضد عندما حل بها الخراب (٤٤) ، بعـد إن كان جماعـة مـن خلفـاء بنـى العباسـى كالسفاح والمنصـور والرشيد وغـيرهم ينزلونها ، ويصلون المقام بها ، لطيب هوائها ، وصفاء جوهرها ، وصحـة تربتهـا، وصلابتهـا ، وقـرب الخورنـق والنجـف منهـا (٤٥) . فالمسـعودى (٤٦) يحدثنـا إن المتوكل أحدث فى أيامه بناء على النمـط الحـيرى لم يكـن النـاس يعرفونـه ، وهـو المعروف بالحـيرى ، والكمـين ، والأروقـة . وذلـك إن بعـض ملـوك الحـيرة مـن النعمانية من بنى نصر أحـدث بنيانًـا فـى دار قـراره ، وهـى الحـيرة ، علـى صـورة الحرب وهيئتهـا ، فكـان الـرواق فـى مجلس الملـك وهـو الصـدر والكمـان ميمنـة وميسره، ويكون فى البيتين اللذين هما الكمان من يقـرب منـه مـن خواصـه وفـى اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفى الشمال ما احتيج إليه مـن الشـراب والـوراق . فسمى هذا البنيان إلى ذلك الوقت بالحـيرى والكمـين ، إضافـة إلى الحـيرة . وأتبـع الناس المتوكل فى ذلك ائتمامًا بفعله . وهكذا أعطت الحيرة المدينة الجاهلية أسـلوبًا فى العمارة ونمطًا حضاريًا فى البناء ، ينشده خلفاء بنـى العبـاس بعـد أمـراء الحـيرة بقرون ، ويحتذونه مثلاً وطريقة فى التشييد .

فن العمارة :

اشتهرت الحيرة بقصورها التى ضربت الأمثال فـى عظمتهـا ، مثـل قصـرى الخورنق والسدير - وقـد سبق الحديـث عنهمـا وعـن سنمار : بـانى الخورنـق . وكذلـك اشـتهرت باديرتهـا التـى أقيمـت بهـا منـذ إن انتشـرت المسـيحية بـين سكانها(٤٧) . وقد ذكـر شـعراء الحـيرة الجـاهليون القصريـن فـى قصـائدهم وظـل الشعراء فى الإسلام ، حتى العصر العباسى يتحدثون عنهما . ومـن قصـور الحـيرة

كذلك : قصر سنداد ، وكان يقع فيما بين الحيرة والأبلة وذكر ابن الكلبى إن أيادا كانت تنزل فيه (٤٨) .

ومنها أيضًا قصرًا : العذيب والصنبر اللذان بناهـا أمرؤ القيس بن النعمان بالقرب من الفرات . وقصر الفرس ، وقصر الزوراء ، وقصر مقاتل (٤٩) . ومن هذه القصور قصر العدسيين ، وكان يقع فى طرف الحيرة ، وهو أول القصور التى استولى عليها المسلمون . ومنها قصر بنى بقيلة الذى بناه عبد المسيح . وكان لتنصر المناذرة أثر فى تنشيط حركة بناء الأديرة والكنائس . ولقد حفظ لنا الأخباريون أسماء كثيرة من هذه المنشآت المسيحية ، التى أقيمت فى عصر المناذرة بعد إن أصبحت الحيرة أسقفية تابعة لكرسي جاثاليق المدائن . ومن بين كنائس الحيرة كنيسة تنسب إلى قوم من الازد ... من بنى عمرو بن مازن الغسانيين وتسمى ببيعة بنى مازن ، ومنها بيعة بنى عدى التى تنسب إلى بنى عدى بن الذميل من لخم ، ومنها كنيسة الباغوتة التى اعتبرها الهمدانى إحدى مراكز سبعة للعبادة عند العرب ، ومنها بيعة دير اللج بظاهر الحيرة ، وغيرها من الكنائس (٥٠) إما الأديرة فبعضها ينسب إلى ملوك الحيرة وأمرائها والبعض الآخر ينسب لأفراد من العباد الإشراف (٥١) . وأهم أديرة الملوك والأمراء فيما يروى الكبرى وياقوت - دير اللج ، ودير مارة مريم ، ودير هند الكبرى ، ودير هند الصغرى .

١ - دير اللج(٥٢) :

بناه أبو قابوس النعمان بن المنذر ، أيام توليه أمارة الحيرة ، وهو أجمل ديارات الحيرة ، فلم يكن فى هذه الديارات أحسن منه بناء ولا أنزه موضعًا . كان النعمان يركب فى كل أحد إليه ، وفى كل عيد ، ومعه أهل بيته خاصة من آل المنذر ، عليهم حلل الديباج المذهبة ، وعلى رؤسهم أكاليل الذهب ، وفى أوساطهم الزنانير المقصصة بالجواهر ، وبين أيديهم إعلام فوقها صلبان . وإذا

قضوا صلاتهم انصرفوا إلى مستشرفه على النجف ، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه، وخلع ووهب، وحمل ووصل . وكان ذلك فيما يرى البكرى أحسن منظر وأجمله.

٢ – دير مارة مريم :

دير قديم ، بناه المنذر ، حسن الموضع ، حيث يقع بين الخورنق والسدير ، وبين قصر أبى الخصيب ، مشرفًا على النجف يروى البكرى عن أبى الفرج أنه كان فيه قس يقال له يحيى ، وله ابن يقال له : بوشع ، وكان الفتيان يألفون هذا الدير ، ويشربون عنده على قراءة النصارى ، وضرب بالنواقيس . وقد ظل الدير قائمًا إلى زمن الواثق العباسى ، فزاره ومعه أسحق بن إبراهيم الموصلى وأعجب بموقعه وعمارته .

٣ – دير هند الكبرى :

بنته هند أم عمرو بن هند ، وهى هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندى . وكان فى صدره مكتوب : بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ، أمة المسيح ، وأم عبده وبنت عبيده ، فى ملك ملك الأملاك : خسرو أنو شيروان ، فى زمن مار أفريم الأسقف ، فالإله الذى بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ، ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بها ، وبقومها إلى إقامة الحق ، ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر . ويقع هذا الدير على طرف النجف فيما يذكر البكرى . وهذا يعنى إنه قريب فى موقعه من دير اللج . ويروى إن الرشيد كان قد خرج ومعه يحيى بن خالد البرمكى ، إلى الحيرة ، لمشاهدة إثار المنذر ، وللتنزه ، وإنه لدى زيارته هذا الدير تأثر من أبيات قرأها على أحد جدرانه .

٤ - دير هند الصغرى :

بنته هند بنت النعمان بن المنذر ، وهى التى تعرف فيما يروى بحرقة ، أو الحرقة ، ويقال : حريقة . كان يقع هذا الدير فى موقع نزه ، قريبًا من خطة بنى عبد الله بن دارم بالكوفة ، مما يلى خندق القادسية . ويذكر ياقوت إن هندًا إقامت فى هذا الدير ، إلى إن ماتت ودفنت فيه . ويروى شعرًا انشدته فى حوار طويل ، زعم ياقوت إنه دار بينها وبين خالد بن الوليد - رضى الله عنه . وفى هذا الدير أكثر الشعراء من شعرهم الذى يذكرونه فيه ، ومن هؤلاء معن بن زائدة الشيبانى الأمير.

* * *

وإما الأديرة التى بناها بعض العباد أو ...الإشراف ، فلعل أهمها : دير بنى مرينا ، ودير الجماجم ، ودير المسيح ، ودير قرة ، ودير نجران ودير حنة ، الشهير (بالاكيراح) ودير ابن وضاح . وأغلب الظن إن هذه الأديرة على هذه النحو قد انتشرت وتعددت فى أنحاء أمارة الحيرة ونحن إنما نكتفى بالإشارة السريعة إلى بعض منها.

١ - دير بنى مرينا :

بظاهر الحيرة ، فى موضع يعرف بجفر الأملاك ، يقال إنه ضربت فيه أعناق بنى الملك حجر بن عمرو أكل المرار بأمر الملك المنذر بن النعمان .

٢ - دير الجماجم :

ويقع بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها فى اتجاه البصرة . وأغلب الظن إنه سمى كذلك ، لأن ... بلال الرماح بن محرز الايادى قتل قومًا من الفرس ، ونصب رءوسهم عند الدير فسمى دير الجماجم (٥٣) .

٣ - دير حنة :

دير قديم ، بناه بالحيرة حى من تنوخ ، يقال لهم بنو ساطع ، تحاذيه منارة عالية كالمرقب . وكان فتيان الحيرة يألفونه ويشربون فيه .

٤ - دير حنة آخر بالاكيراح :

بناحية البليخ ، بلد كثير البساتين والرياض والمياه ، وبالبحيرة أيضا موضع يقال له الاكيراح ، وفيه دير بناه عبد بن حنيف من بنى لحيان ، الذين كانوا مع لخم ، وملك الحيرة منهم ملكان (٥٤) .

* * *

ولا شك فى إن هذه النهضة فى مجال العمارة ، وإن هذه القصور الفخمة والأديرة الكبيرة التى شيدها الحيريون ، تجعلنا نعود من حيث بدأنا لكى نتذكر أوصاف الحيرة ، فقد وصفها الأخباريون بالبياض فقالوا : الحيرة البيضاء ، معبرين عن وضاءة مبانيها ، وبهائها . فقد أصبح البياض سمة لعمارة الحيرة . وكذلك وصفها الأخباريون ، فيما ذكرنا بالحيرة الروحاء دليلاً على الأمتداد ، والاتساع، وحسن الجو ، وراحة المقام .

وكان عرب الحيرة أرقى عقلاً ومدنية من عرب الجزيرة لتحضرهم ولمجاورتهم حضارة الفرس العظيمة واتصالهم بهم اتصالاً وثيقًا . وكان منهم من يعرف اللغة الفارسية ويجيدها . وجدير بالذكر إن عدى بن زيد (الحيرى) كان

من تراجمة أبرويز (ملك الفرس) وإن أباه زايدًا كان شاعرًا خطيبًا وقارئًا كتاب العرب والفرس . ولا شك فى إن معرفة بعض هؤلاء الحيريين للغة الفرس كانت واسطة شئ من حضارتهم وأدابهم إلى العرب (٥٥) . بل إن عرب الحيرة هؤلاء فيما يحدثنا الأستاذ / أحمد أمين تسرب إليهم شئ من علوم اليونان وأدابهم . ذلك إن الحكومة الفارسية فى عهد هرمز الأول أنشأت مستعمرات كونتها من أسرى الحرب الرومانيين ، وكان من بين هؤلاء الأسرى من ثقف بالثقافة اليونانية، ومنهم من كل يفوق الفرس فى الفن والهندسة والطب، فاستخدموه فى مهام شئونهم . ومن هؤلاء الأسرى من نزلوا الحيرة (٥٦) . وكانت الحيرة بالإضافة إلى ما ذكرنا سوقا تجاريًا كبيرة ، مما أعد لإن تتحضر وإن تتأثر بالثقافة الفارسية ، التى كانت تعم تلك الأنحاء (٥٧) . ومعروف ما كان لعرب الحيرة وأمرائهم وتاريخهم من أثر كبير فى الأدب العربى والحياة العقلية للعرب عامة ، فأحاديث جذيمة الابرش وأساطير الزباء ، والتغنى بالخورنق والسدير ، والأقاصيص التى دارت حول سنماربانى الخورنق ، والأمثال التى ضربت فيه وفى غيره فى غضون ما يحكى الأخباريون من الأساطير ، ويومًا النعمان اللذان وتحدثنا عنهما . كل ذلك مما شغل جزءا كبيرًا من الأدب العربى (٥٨) . وكان أمراء الحيرة مقصدًا لشعراء الجزيرة ينفحونهم المال الكثير ليبشروا بهم بين البدو وفى أنحاء الجزيرة(٥٩) وكان هناك تبار بين أمراء كل من الحيرة وغساسنة الشام على أحتواء الشعراء ، وجذبهم لمديحهم وبيان أفضلية الأمير الحيرى على نده الغسانى ، والعكس . وقد سبق إن أشرنا إلى النابغة مثالاً على ما نقول . ومن ذلك أيضًا وفود حسان بن ثابت على الحارث الغسانى يمدحه ، وكان من قبل يمدح النعمان بن المنذر .

وللشعراء الذين كانوا يحيون فى البلاط الحيرى ، فى كنف الأمراء ، ولقصائدهم ، قصص وأخبار مع بعض هؤلاء الأمراء أو زوجاتهم أو بعض بناتهم،

ترويها كتب الأدب ، على نحو ما شـهر عـن المنخـل وتشـبيبه ، والنابغـة وتشـبيبه أيضًا.

وتحكى لنا هذه الكتب مناظرات بين كسرى والنعمـان ابـن المنـذر وغـيره ، هى من قبيل النثر الفنى الذى تحكمـه خصـائص قوامهـا المحاجـة ، ومحاولـة الإتيـان بالدليل القوى ، والبرهان القاطع لبيان فضل العرب على غيرهم مـن الأمـم . وقـد مر بنا ما كانت عليه الحيرة من ازدهار أدبى فى عهد عمرو بن هند ووفود الشعراء عليه ، وعطاؤه الغامر لهم .وقصة مقتله على يد عمرو ابن كلثـوم التغلبـى الشـاعر من القصص الشهيرة . والواقع إن أمـارة الحـيرة فـى الجاهليـة كـانت أوفـر البقـاع العربية من العلم . وقد يكون الحاريون قد عرفوا الكتابة ، وهم عرفوها بغير شك. من ذلك ما يرويه صاحب الأغانى إن المرقش الأكبر وأخـاه حرملـة تعلمًـا الكتابـة فى الحيرة على أحد النصـارى من أهلها (٦٠) . ومنه ما يرويه (ابن رسته) فـى (الأعلاق النفسية) إن أهل الحيرة علموا قريشًا الزندقة فى الجاهلية ، والكتابة صدر الإسلام(٦١) . وكل هذا يعنى وجود الكتابة فى الحيرة فى الجاهلية وإتقـان بعـض أهل الحيرة للكتابة حتى لقد علموها بعض العرب ، فى الجاهلية والإسلام . ولكـن هذا لا يعنى صحة ما يـروى عـن حمـاد الراويـة مـن أن النعمـان ابـن المنـذر " أمـر فنسخت له أشعار العرب فى الطنوخ – الكراريس – ثم دفنها فى قصره الأبيض " وأنه " لما كان المختار بن أبى عبيد – حوالى سنة ٦٧هـ – قيل له : إن تحت القصر كنزًا ، فاحتفره ، فاخرج تلك الأشعار " . وربما تسرب هذا الوهم إلى ابـن سـلام حيث تراه يقول . " وقد كان عند النعمان بن المنذر منـه – مـن شـعر العـرب فـى الجاهلية – ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه " . ويكفى إن يكون أصل الخبر حمادًا المتهـم فـى روايتـه لنشك فيه (٦١) . وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يجمع فى مصحف واحد إلا بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، وبعد مشاورة بين أبـى بكـر رضـوان الله

عليه والصحابه ، فذلك وحده كاف لبيان إن العرب لم تنشأ عندهم فى الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه فى كتاب ، إنما نشأ ذلك فى الإسلام وبمرور الزمن . أما فى الجاهلية فكانوا يعتمدون على الرواية ، وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها (٦٢) . ويرجع بعض المؤرخين المسلمين إن الخط العربى منشأة الحيرة ، وإنه نقل منها إلى مكة والحجاز . غير إن النقوش الحجازية وغير الحجازية تصور انتقال الخط الآرامي إلى خط نبطى ثم انتقال هذا الخط إلى الخط العربى (٦٣) .

وقد حملت النقوش إلى علماء الساميات الدليل القاطع الذى لا يطعن فيه على هذه الحقيقة ، إذ عثروا على نقوش فى شمالى الحجاز ، وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطى تطورًا سريعًا إلى الخط العربى . وأهم هذه النقوش على الترتيب نقش عثر عليه ليتمان فى قرية أم الجمال غربى حوران ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٧٠م وهو لقهر بن سلى الذى كان مربيًا لجذيمة ملك تنوخ ، وخطه نبطى ، إلا إنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف . ويليه نقش النمارة الذى أكتشفه " دوسو " و " ماكلر " سنة ١٩٠١ على بعد ميل من النمارة القائمة على أطلال معبد رومانى شرقى جبل الدروز ، بالقرب من الأماكن التى عثر فيها على الكتابات الصفوية . وقد كتب شاهدًا لقبر ملك الملوك اللخميين يسمى أمرؤ القيس بن عمرو (٦٤) . وقد يكون مرجع هذا الظن فى روايات المؤرخين الإسلاميين إن الخط الكوفى نما وازدهر فى الكوفة ، فظنوا إن هذه البيئة هى التى ابتكرت الخط العربى ، وإنه نما وتطور فى الحيرة و الجدير بالذكر إن أهل الحيرة إما وثنيين يعبدون الأصنام ، أو صابئة يعبدون الكواكب ، أو مجوسًا يعبدون النار أو نصارى ويهودًا (٦٥) . ومن أصنامهم الصنمان الشهيران بالحيرة ، المعروفان (بالضيزنين) ، كان جذيمة يستسقيهما ويستنصر بهما على العدو . وقد عرفت الحيرة عبادة القمر (٦٦) . وانتقلت إلى الحيرة بغير شك تلك الديانات

المعروفة بالزرادشتية والمزدكية ومر بنا انتشار تلك الديانات الأخيرة لعهد قباذ . ومن ثم كانت الحيرة مركزًا للزندقة فى العصر الجاهلى وانتقلت منها إلى قريش . وعلى الرغم من إن ملوك الحيرة كانوا وثنيين ، إلا إن النصرانية تغلغلت فى الحيرة، فكان يعتنقها العباديون .

وأغلب الظن إنهم سموا بذلك تمييزًا لهم من جيرانهم الوثنيين (٦٧) . وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر فى اعتناق المسيحية (٦٧) . ويذكر ابن حزم إن تنوخ ، وكان كل من سكن الحيرة من تميم كانوا نصارى (٦٩) وهكذا كانت الحيرة مركزا ثقافيًا ودينيًا أدبيًا هامًا فى الحياة العربية الجاهلية ، مما جعلها إحدى شهيرات مدن الشرق لعهد المناذرة اللخميين . وكان تأثيرها ، وتأثير أهلها فى مجال الموسيقى كبيرًا حتى أصبح غناء أهل الحيرة وما له من سمات خاصة ، علامة بارزة فى تاريخ الموسيقى العربية .

وهكذا اجتمع لهذه المدينة من مقومات الحضارة ما لم تشهده عاصمة عربية أخرى قبل الإسلام .

الهوامش

(١) " ياقوت - معجم البلدان مج " (بيروت ١٩٥٦) وانظر ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان ١٨١ ، وجواد علي - تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/٧ - ٨ ودائرة المعارف الإسلامية ١٦١/٨ ، ١٦٢ (الحيرة) وانظر أيضًا (الخورنق) .

(٢) الاصطخرى - المسالك والممالك ٥٨ وابن حوقل - صورة الأرض ٢٣٩/١ ، ٢٤٠ ، وانظر المقدسي (شمس الدين) أحسن التقاسيم ١١٩ ، وجواد على ٤/٧ ، ٨ .

(٣) انظر مقال الدكتور صالح أحمد العلى (منطقة الحيرة دراسة طبوغرافية) ، العدد الخامس من مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد - نيسان ١٩٦٢م .

(٤) نفس المصدر ١٨١ .

(٥) معجم البلدان - مج ٢ مادة (حيرة) .

(٦) نفس المصدر .

(٧) في القاموس المحيط (مادة حار) : الحير شبه الحظيرة الحمى ، وقصر كان يسر من رأى ، وأصبحت الأرض .. حيرة أى مخضرة مبقلة . فالحير بفتح وسكون - المكان الأخضر الذى يعطى نباتًا وحياة .

(٨) ياقوت / معجم البلدان / مادة (حيرة) .

(٩) ياقوت - معجم البلدان ، وفى القاموس المحيط - مادة (حار) : أو الحيرتان : الحيرة والكوفة . وفى معجم البلدان : (والحيرة أيضًا : محلة كبيرة مشهورة بنيسابور ، ينسب إليها كثير من المحدثين ، والحيرة أيضًا : قرية بأرض فارس فيما زعموا) وهما بالطبع ليست حيرة العراق التى ندرسها .

(١٠) جواد على : ٦/٤ .

(١١) نفس المصدر .

(١٢) القرمانى : أخبار الدول وأثار الأول - بهامش الجزء الثالث من ابن الأثير ص٥٢ .

(١٣) نفس المصدر ص٥٣ بهامش ابن الأثير .

(١٤) يحدثنا ابن الأثير عن طبقات ملوك الفرس فى كتابه : (الكامل فى التاريخ) فيذكر ملوك كل طبقة وسنى ملك كل منهم . هذه الطبقات الأربع هى – الطبقة الفيشداذية ، ثم الكيانية ، ثم الأشغانية ، ثم الطبقة الرابعة وهى الساسانية وأول ملوكها اردشير بن بابك وهو أول من أطلق عليه لقب (شاهنشاه) من ملوك الفرس وقد دانت له الكثير من البلدان كما دان له أهل الحيرة ، والأنبار – ابن الأثير ١/٣٧٧ – ٣٨٤ .

(١٥) (حسن إبراهيم حسن) : تاريخ الإسلام السياسى ١/٤٣ .

(١٦) جواد على ٤/٩ .

(١٧) نفس المصدر .

(١٨) جواد على ٣/٨١ ، ٤/٦ .

(١٩) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى الجاهلية ٢٤٤ .

(٢٠) حمزة ص٨٦ والطبرى ١/٦٠٩ وما بعدها ، وانظر ابن الأثير ١/٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٢١) ياقوت : معجم البلدان / مادة (حيرة) .

(٢٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ١/٤٣ .

(٢٣) حمزة ٨٣ ، ٨٤ .

(٢٤) الطبرى : ١/٦٠٩ وما بعدها .

(٢٥) ابن الأثير : مج ١/٣٤٠ وما بعدها .

(٢٦) جواد على : ٤/١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٢٦) قال صاحب القاموس : تنخ بالمكان تنوخًا : أقام ... ومنه تنوخ قبيلة لأنهم اجتمعوا فأقاموا فى مواضعهم .

(٢٧) الطبرى : ١/٦٠٩ وما بعدها .

(٢٨) الطبرى : ١/٦١١

(٢٩) جواد على : ٤/١٩ – ٢٠ ، وانظر الطبرى ١/٦٢٨ .

(٣٠) جواد على : ٤/٢٠ .

(٣١) السيد عبد العزيز : تاريخ العرب فى الجاهلية ٢٤٣ ، وانظر جواد على ٣/٤١١ .

(٣٢) جواد على : ٣/٣٦٩ .

(٣٣) نفس المرجع ص١٠ .

(٣٤) هو شبرع - كتابة (اليهود فى بلاد العرب) ، انظر كستر ص١٢ .

(٣٥) المؤرخان : ألت هايم وشيتل - كستر ص١٢ .

(٣٦) نفس المرجع ص١٢ ، ١٣ .

(٣٧) كستر - الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية ص١٤ .

(٣٨) نفس المرجع والصفحة .

(٣٩) السيد عبد العزيز سالم ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٤٠) انظر الخبر فى الدينورى ١١١ - ١١٢ .

(باب حروب العرب مع العجم) .

(٤١) الدينورى - الأخبار الطوال ١١٢ .

(٤٢) الأخبار الطوال ١١٢ .

(٤٣) السيد عبد العزيز سالم ٢٩٤ .

(٤٤) المسعودى - مروج الذهب ١٠٤/٢ .

(٤٥) مروج الذهب ١٠٤/٢ .

(٤٦) المسعودى - مروج الذهب ٨٧/٤ .

(٤٧) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٢ .

(٤٨) ياقوت - معجم - مج ٢٦٦/٣ .

(٤٩) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٢ .

(٥٠) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٤ ، ٢٠٥ .

(٥١) السيد عبد العزيز سالم ٣٠٥ .

(٥٢) على لفظ لج البحر - البكرى - معجم ما استعجم ص ٥٩٥ .

(٥٣) ياقوت - معجم البلدان - مج ٥٠٣/٢ ، ٥٠٤ .

وانظر البكرى - معجم ما استعجم ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

(٥٤) المرجع السابق ص٥٧٨ ، ص٥٧٩ .

(٥٥) أحمد أمين - فجرالإسلام ١٧ ، ١٨ .

(٥٦) نفس المرجع ١٨ .

(٥٧) شوقي ضيف - العصر الجاهلي ٤٧ .

(٥٨) أحمد أمين - فجر الإسلام ١٨ .

(٥٩) نفسه .

(٦٠) الأغاني ٥/٣٧٥ .

(٦١) أحمد أمين - فجر الإسلام ١٨ .

(٦٢) شوقي ضيف - العصر الجاهلي ١٤١ .

(٦٣) العصر الجاهلي ١٤١ .

(٦٤) نفس المرجع السابق ٣٥ .

(٦٥) شوقي ضيف - العصر الجاهلي ٣٤ .

(٦٦) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ٣١٠ .

(٦٧) العصر الجاهلي ١٠٠ .

(٦٨) نفسه .

(٦٩) ابن حزم الأندلسي - جمهرة أنساب العرب ٤٥٧ .

الترتيبات المالية فى تاريخ غزوة خيبر

بواعثها ونتائجها

د. صلاح التجانى محمد حمودى (*)

الموضوع وأهميته التاريخية :

خصص أصحاب السير والمغازى ، وبخاصة الواقدى(١) ، حيزًا كبيرًا فى كتبهم للحديث عن غزوة خيبر(٢) التى وقعت فى السنة السابعة للهجرة ، مما يؤكد أهمية هذه الغزوة وأهمية النتائج التى ترتبت عليها .

وانطلاقًا من ذلك رأيت أن أقوم بالبحث فى هذا الموضوع ، لأن الترتيبات المالية التى نتجت عن هذه الغزوة تشكل ، فى رأيى ، جزءًا هامًا من التاريخ الحضارى للأمة الإسلامية . أضف إلى ذلك أن هذه الترتيبات المالية انعكس تأثيرها على الحياة الاقتصادية فى عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين .

وسنبدأ حديثنا بالتعرض للأسباب والمبررات التى دفعت الرسول ﷺ والمسلمين لغزو خيبر .

الأسباب والمبررات :

كانت خيبر إحدى مناطق الحجاز التى تسكنها مجموعات من اليهود مثلما كان عليه الحال فى يثرب (المدينة) وفدك وتيماء ووادى القرى(٣) وكان يهود المدينة أول من احتك بهم المسلمون . فعندما هاجر الرسول ﷺ إلى هناك ، وجد أعدادًا من اليهود يقيمون فى المدينة ، كانت من أهمهم ثلاث مجموعات رئيسية هى بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة . وكان لا بد من توضيح وتنظيم

(*) أستاذ مساعد - كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز .

علاقات هؤلاء اليهود بالأمة الإسلامية الناشئة ، التى أصبحت تضم المهاجرين والأنصار ، فقام الرسول ﷺ بكتابة الصحيفة ، وهى كتاب حدد فيه علاقة الأمة الإسلامية باليهود وشرط لهم واشترط عليهم(٤) فنال اليهود بمقتضى هذا الاتفاق حرية البقاء فى المدينة أو الخروج منها ، وحرية العمل الزراعى والتجارى وغيرهما من الأعمال ، فضلاً عن الحرية الدينية . وفى المقابل كان عليهم المحافظة على أمن واستقرار مجتمع المدينة وعدم تقديم المساعدة لأعداء الأمة الإسلامية ، والوقوف مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة فى حالة تعرضها لغزو خارجى ، والمساهمة مع المسلمين فى نفقات الحرب .

كانت هذه هى السمات الرئيسية للاتفاق مع اليهود . غير أنهم لم يحافظوا طويلاً على عهدهم مع المسلمين ، إذ أدت النجاحات الحربية التى حققها المسلمون ضد أعدائهم فى الخارج ، وبخاصة ضد قريش فى غزوة بدر ، أدت إلى إثارة الحقد والحسد فى نفوس اليهود فى المدينة ، فسعوا إلى نقض عهدهم مع الرسول ﷺ . وكان أول من نقض عهده مع المسلمين هم يهود بنى قينقاع ، وذلك عقب غزوة بدر الكبرى فى السنة الثانية للهجرة . ولسنا هنا بحاجة إلى معرفة تفاصيل ما بدر من هؤلاء اليهود وأدى بالتالى إلى طردهم من المدينة ، بقدر ما نحن بحاجة لمعرفة ما ارتبط من أخبار يهود المدينة بغزوة خيبر . ففى السنة الرابعة للهجرة أعلن الرسول ﷺ الحرب ضد مجموعة أخرى من يهود المدينة ، هم بنى النضير ، بسبب نقضهم العهد مع الأمة الإسلامية ، فقد ذكر أن الرسول ﷺ توجه إليهم فى حصونهم ليطلب منهم المساعدة فى دفع دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين عن طريق الخطأ . وكان الرسول ﷺ فى قلة من أصحابه ، فأراد يهود بنى النضير الغدر به وإلقاء صخرة عليه من أعلى أحد حصونهم . ولكن الله كشف أمرهم لرسوله ﷺ ، ومن ثم أعلن عليهم الحرب وحاصرهم فى حصونهم . ولم يستمر حصارهم أكثر من ست ليال حتى قذف الله الرعب فى نفوسهم ، " فسألوا

الرسول ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ففعل ... فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام ، فكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر : سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها"(٥) .

وكان خروج غالبية بنى النضير إلى خيبر ، وبخاصة زعمائهم ، بسبب امتلاكهم لكثير من أراضى خيبر الزراعية(٦) . وقد اتضحت هذه القوة الاقتصادية والسياسية التى كان يتمتع بها بنو النضير ، فى أن يهود خيبر ، رغم كثرتهم ، دانوا لهم بالسيادة والزعامة .

غير أن يهود بنى النضير لم يكن غرضهم الوحيد من الذهاب إلى خيبر هو استغلال أراضيهم الزراعية فيها والتعويض بها عما فقدوه من أراضى فى المدينة ، ومن ثم العيش فى سلام بعد الدرس الذى تلقوه من جراء نقضهم للعهد وطردهم من المدينة ، وإنما كانوا ينوون التآمر ضد المسلمين وتأليب أعدائهم ضدهم مستغلين فى ذلك كثافتهم العددية وكثرة أسلحتهم وأموالهم . وكانت أكبر مؤامراتهم فى السنة الخامسة للهجرة عندما خططوا لغزوة الخندق ، فقد روى ابن هشام(٧) أنه كان من حديث الخندق أن نفرًا من اليهود منهم : سلام بن أبى الحقيق النضرى ، وحيى بن أخطب النضرى ، وكنانة بن أبى الحقيق النضرى ، وهوذة بن قيس الوائلى ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا : إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ... ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه " .

ويبدو أن اليهود اكتفوا بالمساهمة المالية والمعنوية ، و لم يشترك رجالهم اشتراكًا فعليًا فى القتال فى غزوة الخندق ، حيث لم يذكرهم ابن هشام ضمن من

اشترك من الأحزاب(٨) ، ما عدا حيى بن أخطب الذى كانت لـه مهمـة محـددة ، هى تأليب يهود بنى قريظة ، آخر من تبقى من يهود فى المدينة ، وكانوا لا يزالون على عهدهم مع رسول الله ﷺ ، تأليبهم لكى يطعنـوا المسـلمين مـن الخلـف أثنـاء تعرضهم لهجمات الأحزاب من جهة الخندق . وقد نجح حيى فى مهمته واستطاع أن يقنع كعب بن أسد زعيم بنى قريظة لينقض عهده مع الرسـول ﷺ(٩) ، ووعـد حيى كعبًا أن يدخل معهم فى حصونهم إن سارت الأمـور علـى غـير مـا تشـتهى أنفسهم . وبـالفعل ، عندمـا انسـحبت جنـود الأحـزاب بعـد فشـلهم فـى اقتحـام الخندق ودخول المدينة ، دخل حيى بن أخطب إلى حصون بنى قريظة ليواجه نفس المصير الذى واجهوه(١٠) . فبعد أن حاصر الرسول ﷺ بنى قريظـة فـى حصونهـم لمعاقبتهم على نقضهم العهد، استسلموا بعد حصار دام خمسًا وعشرين ليلة ، فقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونساءهم ، وكان حيى من ضمن من ضربت أعناقهم .

ولا شك فى أن اندحار قريش والأحزاب فى غـزوة الخنـدق ، ومقتـل بنـى قريظة ومعهم حيى بن أخطب ، قد أثار الرعب فـى نفـوس يهـود خيـبر وجعلهـم يتوجسون خيفة من المسلمين . غير أن الرسول ﷺ رأى أن يصفى حسابات الأمـة الإسلامية مع قريش أولاً ، قبل أن يلتفت إلى يهود خيبر .

لقد أُحدثت غزوة الخندق تحولاً هامًا فى ميزان القوى بين المسلمين وقريش، فبعد انسحاب قريش والأحزاب من الخندق قـال الرسـول ﷺ : " والله لا يغزوننـا بعدها أبدًا ، وإنما نغزوهم نحن "(١١) . غير أن الرسول ﷺ أراد لحملته الأولى على قريش أن تأخذ طابعًا سلميًا ، وذلك عندما أمر المسلمين فى شهر ذى القعـدة مـن السنة السادسة للهجرة بالاستعداد للخروج لأداء العمرة . وكان الرسول ﷺ يعلم أن قريشًا ستعترض طريقهم وتحاول منعهم من الدخـول إلى مكـة . ولكنـه أراد أن يفرض على قريش أن تعترف بحق المسلمين فى زيارة البيت الحرام ، فتم له ما أراد، وعُقدت اتفاقية الحديبية ، التى بمقتضاها وافقـت قريـش علـى السـماح للمسـلمين

بدخول مكة فى العام الذى يلى ذلك . وكان من ضمن شروط الاتفاق أن تكون هناك هدنة يتوقف فيها القتال بين الفريقين . وبذلك يكون الرسول ﷺ قد أمن جانب قريش وضمن حيادها فى أى نزاع قادم بينه وبين اليهود . ومن هناك ترتبط أحداث الحديبية بغزوة خيبر ، فتحييد قريش معناه عدم تقديمهم أى مساعدة ليهود خيبر ، وبالتالى فتح المجال أمام الرسول ﷺ والمسلمين لغزو خيبر وتأديب يهودها على تآمرهم ضد الأمة الإسلامية .

هناك سبب آخر من أسباب خروج الرسول ﷺ إلى خيبر ، وهو سبب يرتبط أيضًا بأحداث الحديبية ، فعندما عزم الرسول ﷺ على الخروج إلى مكة لأداء العمرة فى عام الحديبية ، دعا المسلمين فى المدينة ومن حولها من الأعراب للاستعداد للخروج معه ، فتباطأ الكثيرون من الأعراب حول المدينة من الخروج مع رسول الله ﷺ . ولذلك عندما خرج الرسول ﷺ عليه وسلم إلى خيبر أمر ألا يخرج معه إلا من اشترك فى الحديبية ، وكان عددهم حوالى ألف وأربعمائة . وكان يستهدف من وراء ذلك جعل خيبر غنيمة لأهل الحديبية مكافأة لهم دون سواهم من المسلمين ، أما من أراد أن يخرج للجهاد فقط دون أن يكون له نصيب فى الغنائم فلا بأس من خروجه(١٢) . ولو فُتح باب الاشتراك فى غزوة خيبر لكل من رغب ، لصحب الرسول ﷺ عدة آلاف من الأعراب ، لمعرفتهم بما فى خيبر من أموال كثيرة وطعام وفير . وهناك تتأكد لنا حقيقة هامة ، هى أنه على الرغم من القوة العددية التى كانت فى خيبر من اليهود ، وقوة حصونهم وكثرة أسلحتهم ومائهم وطعامهم إلا أن الرسول ﷺ كان واثقًا من النصر . كذلك كان من خرج معه من المسلمين ، على قلتهم بالمقارنة لأعداد اليهود ، واثقين أيضًا من إحراز نتائج إيجابية . وهذا يقودنا الآن للحديث عن أوضاع خيبر الحربية والاقتصادية ، حيث إننا ، كما ذكرنا آنفًا ، يمكن أن نعتبر هذه الأوضاع من الأسباب المؤدية لغزوة خيبر .

قوة خيبر :

أورد الواقدى[١٣] فى كتاب المغازى ما يعبر أصدق تعبير عن القوة العسكرية ليهود خيبر ، فقال : " وكانت يهود خيبر لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم ، كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ هيهات ! هيهات ! وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبى ﷺ إلى خيبر : ما أمنع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات فى ذرى الجبال ، والماء فيها واتن (أى دائم لا ينقطع) ، إن بخيبر لألف دارع ، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم ، فأنتم تطيقون خيبر ؟ فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبى ﷺ ، فيقول أصحاب النبى ﷺ : قد وعدهم الله نبيه أن يغنمه إياها " .

من هذا يتضح مدى الخطر الذى أصبح يشكله يهود خيبر على الأمة الإسلامية . وقد رأينا من قبل تآمرهم مع قريش وغيرها من القبائل العربية ، وهجومهم على المدينة فى غزوة الأحزاب ، أو الخندق ، سنة ٥هـ . ولا شك فى أن تدمير القوة العسكرية لليهود فى خيبر فيه إضعاف لقريش ولغيرها من القبائل العربية الموالية لها ولليهود والمعادية للمسلمين ، مثل قبيلتى غطفان وأسد[١٤] . وفى المقابل ؛ فإن تدمير هذه القوة العسكرية فيه تقوية للمسلمين ولقوتهم الحربية، وذلك بما حصلوا عليه من سلاح وأموال غنيمة من خيبر ، كما سنرى .

أما القوة الاقتصادية ليهود خيبر فقد كانت تتمثل فى الأراضى الخصبة التى كانوا يمتلكونها هناك ، وفى الإنتاج الزراعى الوفير لهذه الأراضى . وقد عرفت خيبر بأنها ريف الحجاز طعامًا وودكًا وأموالاً[١٥] . وستتضح لنا كثرة ما فيها من هذه الأشياء مما غنمه المسلمون فيما بعد .

أما الأمر الهام الذى تجدر الإشارة إليه فهو أن استيلاء المسلمين على هذه الأراضى والأموال يعتبر تحولاً هامًا فى الحياة الاقتصادية والمعيشية للأمة الإسلامية فى ذلك الوقت ، كما أنه يعتبر من جهة أخرى ضربة شديدة وجهت لقريش ولمصالحها التجارية .

والآن بعد أن استعرضنا الأسباب والمبررات التى أدت إلى غزوة خيبر ، ننتقل للحديث عن مسير الرسول ﷺ بجيشه إلى خيبر وموقف القوى المختلفة من هذه الغزوة .

* * *

المسير إلى خيبر ومواقف القوى المختلفة :

أدى قرار الرسول ﷺ الخروج إلى خيبر وغزوها إلى ردود فعل متباينة لدى جهات مختلفة . وأول رد فعل كان من بعض الأعراب المقيمين حول المدينة ، والذين انضموا للأمة الإسلامية دون أن يرسخ الإيمان فى قلوبهم بعد . وقد تبين هذا من موقفهم عندما أمر الرسول ﷺ أصحابه " بالتهيؤ للغزو فهم مجدون " ، كما يحدثنا الواقدى ، وتجلب من حوله من الأعراب يغزون معه ، وجاءه المخلفون يريدون أن يخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فقالوا نخرج معك . وقد كانوا تخلفوا عنه فى غزوة الحديبية وأرجفوا بالنبى ﷺ وبالمسلمين ، فقالوا : نخرج معك إلى خيبر ، إنها ريف الحجاز طعامًا وودكًا وأموالاً ، فقال رسول الله ﷺ : لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا . وبعث مناديًا فنادى : " لا يخرجن معنا إلا راغب فى الجهاد ، فأما الغنيمة فلا "(١٦) .

فالرسول ﷺ ، إذا ، لم يمنع أحدًا من المسلمين من الاشتراك معه فى هذه الغزوة إن كان راغبًا فى الجهاد . أما ما يمكن أن يحصلوا عليه من غنائم فى هذه الغزوة فلا نصيب فيه لأحد لم يسبق له الاشتراك فى الحديبية . ولا أحسب أن

الاشتراك بهذه الصورة كان مغريًا لكثير من الأعراب الذين كانوا يطمعون فى غنائم خيبر .

أما رد الفعل الثانى فد كان يتمثل فى موقف اليهود الذين لازالوا يقيمون فى المدينة فى ذلك الوقت . تقول رواية الواقدى : " فلما تجهز الناس إلى خيبر شق ذلك على يهود المدينة الذين هم موادعون لرسول الله ﷺ ، وعرفوا أنهم إذا دخلوا خيبر أهلك الله خيبر كما أهلك بنى قينقاع والنضير وقريظة . قال : (أى الراوى) فلما تجهزنا لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه "(١٧) .

وكان يهود المدينة يهدفون من وراء ذلك تعطيل أكبر عدد من المسلمين عن الاشتراك فى هذه الغزوة ، وذلك بإلزامهم بسداد ما عليهم من ديون قبل خروجهم إلى خيبر ، وكانوا يعلمون تمام العلم أن هؤلاء الذين استدانوا منهم لا يملكون شيئًا وغير قادرين آنئذ على سداد هذه الديون .

ولم يكتف يهود المدينة بذلك ، بل أنهم حاولوا أيضًا أن يضعفوا من معنويات المسلمين ، وذلك بإظهار يهود خيبر بمظهر القوة التى لا يمكن للمسلمين مجابهتها . فقال أحدهم ، ويدعى أبو الشَّحْم ، لأحد المسلمين : " تحسب أن قتال خيبر مثل قتال من تلقونه من الأعراب ؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل " . كذلك كان من بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهيز النبى ﷺ إلى خيبر : " ما أمنع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات فى ذرى الجبال والماء فيها واتن ، إن بخيبر لألف دارع ، ما كانت أسد وعطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم " فأنتم تطيقون خيبر ، فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبى ﷺ "(١٨) .

كذلك حاول يهود المدينة من جهة أخرى مساعدة إخوانهم يهود خيبر ، وذلك بتشجيعهم ورفع روحهم المعنوية ، والتقليل من شأن المسلمين ، وإظهارهم

بمظهر الضعف . فبعثوا أحد الأعراب من بنى أشجع وجدوه بالمدينة قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كنانة بن أبى الحقيق ، زعيم يهود خيبر ، يخبرونه بقلة المسلمين وقلة خيلهم وسلاحهم ويقولون لهم : فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم ، فإنه (أى الرسول ﷺ) لم يلق قومًا يحسنون القتال ، وقريش والعرب قد سروا بمسيره إليكم لما يعلمون من موادكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم"(١٩).

هذا هو إذا موقف يهود المدينة من غزوة خيبر ، محاولة لعرقلة خروج المسلمين وتثبيط هممهم . وفى المقابل تشجيع يهود خيبر ورفع روحهم المعنوية ، فماذا كان موقف يهود خيبر ؟

أما يهود خيبر من جانبهم ، فإنهم كانوا " لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم . فكانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ هيهات ! هيهات ! "(٢٠) .

لا شك فى أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك إظهار قوتهم الزائفة ومحاولة تخويف المسلمين . ويقال إنهم بعثوا بأعرابى من بنى أشجع (ولعله نفس الأعرابى الذى أرسله إليهم يهود المدينة) ليعترض طريق جيش المسلمين وقالوا له : "أحرزهم لنا وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به ، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا ، فإنهم لن يدعوا سؤالك ، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم "(٢١) وبالفعل أخذت طليعة المسلمين هذا الأشجعى ، وعندما سألوه عن يهود خيبر ، أخبرهم أن " كنانة بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس سارًا فى حلفائهم من غطفان فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة ، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر ودخلوا معهم فى حصونهم ، وفيها عشرة آلاف مقاتل ، وهم أهل الحصون التى لا ترام وسلاح وطعام كثير لو حصروا لسنين لكفاهم ، وماء واتن يشربون فى حصونهم ، ما أرى لأحد بهم طاقة "(٢٢) .

وهكذا حاول هذا الأعرابى الذى بعثه يهود خيبر ، أن ينفذ ما طلب منه ، فهول قوة اليهود وأكد سلامة موقفهم ؛ بينما يهود خيبر فى واقع الأمر يرتعدون خوفًا من المسلمين ، وما لجوؤهم إلى غطفان لنصرتهم إلا لخوفهم ولا حساسهم بالضعف رغم كثرة عددهم وتوفر طعامهم ومائهم . أضف إلى ذلك أن الخوف أفقدهم التفكير السليم فأصبحوا وهم مختلفون فيما بينهم ، فبعضهم يرى ضرورة الخروج لمواجهة الرسول ﷺ والمسلمين خارج حصونهم ، والبعض الآخر يرى أن البقاء فى الحصون والمدافعة عنها أجدى لهم(٢٣) . وقد ظهرت حقيقة يهود خيبر وزيف قوتهم بمجرد أن نزل الرسول ﷺ بساحتهم ، " فأصبحوا وأفئدتهم تخفق وفتحوا حصونهم معهم المساحى والكرازين والمكاتل (وهى الآلات التى يستخدمونها فى زراعتهم) فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ قد نزل بساحتهم قالوا: " محمد والجيش ، فولوا هاربين حتى رجعوا إلى حصونهم "(٢٤) .

* * *

أما الغطفانيون فلم يتعظوا بالفشل الذى لاقته الأحزاب (وكانوا هم أحد هذه الأحزاب) ، فى غزوة الخندق . ففى تلك الغزوة نجد الرسول ﷺ حاول إبعادهم عن هذا التحالف بإعطائهم جزءًا من تمر المدينة . غير أن الأنصار ، عندما استشارهم الرسول ﷺ ، رفضوا أن يطمعوا بنى غطفان فيهم وفى ثمارهم ، ورأوا تحمل مشاق الحصار والتضحية فى سبيل دينهم(٢٥) . فضاعت على بنى غطفان فرصة الحصول على ما كانوا يتطلعون إليه من كسب مادى ، فلا هم حصلوا عليه من حلفائهم اليهود ، ولا هم نالوا غرضهم من المسلمين .

ومرة أخرى ، وبعد حوالى عامين من إنتهاء غزوة الخندق ، نجد بنى غطفان أيضًا يراهنون على الفرس الخاسر ، وذلك بتحالفهم مع يهود خيبر . فعندما تنامى إلى سمع يهود خيبر أن الرسول ﷺ يستعد لغزو خيبر ، خرج زعماؤهم ، وعلى رأسهم

كنانة بن أبي الحقيق وهودة بن قيس في أربعة عشر رجلاً من يهود يستنصرون بنى غطفان ، ووعدهم بإعطائهم تمر خيبر سنة ، جعلوا لهم نصف تمر خيبر .(٢٦)

ويبدو أن الرسول ﷺ علم بتحركات يهود خيبر واستنفارهم لبنى غطفان، ولذلك نجده عندما خرج من المدينة إلى خيبر يتخذ طريقًا يجعله يحول بين بنى غطفان وبين دخولهم خيبر، ولكنهم كانوا بالفعل قد خرجوا فىأربعة آلاف رجل(٢٧) ودخلوا حصن ناعم بالنطاة قبل قدوم الرسول ﷺ إلى هناك بثلاثة أيام(٢٨) .

وكان الرسول ﷺ يعلم أن بنى غطفان يسعون وراء الكسب المادى ، ولا يهمهم نصر اليهود بقدر ما يهمهم الحصول على غنائم . ولذلك نجده من جانبه يحاول أيضًا أن يغريهم ويجعلهم ينصرفون عن خيبر ، فأرسل سعد بن عبادة إلى عيينة بن حصن زعيم غطفان ليعرض عليه نصف تمر خيبر سنة ، وفى رواية أخرى ، تمر خيبر سنة(٢٩) وقد أخبرهم الرسول ﷺ أنه وُعِد خيبر . ولكن عيينة وقومه غرتهم أنفسهم وأعماهم الطمع ، فتمسكوا بالعرض الذى قدمه لهم يهود خيبر ، ورأوا ضمانًا أكثر ، ظانين أن كثرة أعداد اليهود وكثرة سلاحهم وحصونهم المنيعة ستحقق لهم النصر على المسلمين .

ومن جهته أراد الرسول ﷺ أن يثبت لبنى غطفان سوء اختيارهم ، وفى نفس الوقت أراد إضعاف معنوياتهم . لذلك نجده يأمر بأن يكون أول حصن يهجم عليه المسلمون هو حصن ناعم ، وهو الحصن الذى دخله الغطفانيون واحتموا به مع حلفائهم اليهود .

ثم كانت الضربة الثانية التى تلقاها الغطفانيون عندما سمعوا صائحًا يقول إن ديارهم وأهليهم قد هوجموا ، فخافوا خوفًا شديدًا وظنوا أن المسلمين خالفوهم على بلادهم ، فلم يترددوا فى الخروج مسرعين نحو ديارهم ، فسقط فى أيدى

اليهود الذين خذلهم خلفاؤهم من الغطفانيين ، وبذلك حقق الرسول ﷺ هدفًا آخر بإضعاف معنويات يهود خيبر(٣٠) .

وكان أن وصل الغطفانيون إلى بلادهم بحيفاء(٣١) فوجدوا أهلهم آمنين مطمئنين لم يرعهم شئ ، فقال عبينه ، إنها مكيدة كادهم بها رسول ﷺ . وبعد أن مكث فى أهله أيامًا راودته نفسه مرة أخرى بالخروج إلى خيبر ، مدعيًا أنه يريد نصرة حلفائه من يهود . ولكنه ما إن وصل إلى هناك حتى وجد المسلمين قد فتحوا بعض حصون خيبر ويحاصرون بعضها الآخر . وعندما شاهد عبينة المسلمين وهم يحملون الغنائم من الحصون التى فتحوها ، امتلأ قلبه حسرة وندمًا ، طلب منهم أن يعطوه ما يعلف به دوابه ، ولكنهم شتموه(٣٢) ، فذهب عبينة إلى الرسول ﷺ يسأله أن يعطيه شيئًا من الغنائم مدعيًا أنه انصرف عنه وعن قتاله وخذل حلفاءه من يهود عن قصد ، ولكن الرسول ﷺ كشف له عن كذبه وأخبره أنه إنما رجع إلى أهله بسبب ما سمعه من صياح بوقوع هجوم على بلادهم (وكان هذا هاتفًا من السماء) . وعندما ألح عبينة على الرسول ﷺ أن يعطيه شيئًا ، قال له : لك ذو الرقيبة ، وهو ما رآه عبينة فى منامه أن الرسول ﷺ يعطيه له(٣٣) .

وهكذا يتضح لنا أن الظروف المعيشية القاسية التى كان يمر بها بنو غطفان هى التى دفعتهم لهذا التذبذب الذى أفقدهم الفرصة للحصول على جزء من غنائم خيبر إن هم قبلوا نصح الرسول ﷺ .

* * *

موقف قريش :

ذكرنا من قبل أن الرسول ﷺ عقد اتفاقية الحديبية مع قريش فى نهاية العام السادس للهجرة ، ثم خرج فى مطلع العام السابع غازيًا خيبر . ويهمنا أيضًا أن نعرف موقف قريش من هذه الغزوة بسبب علاقاتهم باليهود ومصالحهم المشتركة.

الحقيقة إن أصدق ما يعبر عن موقف قريش من خروج الرسول ﷺ لغزو خيبر هذه القصة الطريفة التى كان بطلها أحد المسلمين ، ويدعى الحجاج بن علاط السلمى . تبدأ القصة عندما قدم شخص يدعى عباس بن مرداس السلمى إلى مكة فأخبر القرشيين " أن محمدًا سار إلى خيابر ، وأن خيابر قد جمعت الجموع ، فمحمد لا يفلت ، إلى أن قال عباس هذا : من شاء بايعته لا يفلت محمد فبدأت المراهنات، وانقسم القرشيون إلى فريقين ، فريق يرى أن الرسول ﷺ سيظهر على اليهود ، وفريق آخر يرجح كفة اليهود وحلفائهم(٣٤) .

فى هذه الأثناء كان الحجاج بن علاط السلمى قد خرج ، كما تقول الرواية السابقة ، فى بعض غاراته ، فذكر له أن رسول الله ﷺ بخيبر ، فأسلم وحضر مع رسول الله ﷺ خيبر .. وكان الحجاج متزوجًا من امرأة تدعى أم شيبة بنت عمير بن هاشم ، وهى أخت الصحابى مصعب بن عمير . وكان الحجاج مكثرًا ، له مال كثير من معادن الذهب التى بأرض بنى سليم . فقال : يا رسول الله ائذن لى حتى أذهب فآخذ مالى عند امرأتى ، فإن علمت بإسلامى لم آخذ منه شيئًا . فإذن له رسول الله ﷺ ، وقال : لابد لى يا رسول الله من أن أقول . فإذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء . قال الحجاج :

فخرجت فلما انتهيت إلى الحرم هبطت فوجدتهم بالثنية البيضاء(٣٥) ، وإذا بهم رجال من قريش يستمعون الأخبار ، قد بلغهم أن رسول الله ﷺ قد سار إلى خيبر ، وعرفوا أنها قرية الحجاز ريفًا ومنعة ورجالاً وسلاحًا ، فهم يتحسبون الأخبار مع ما كان بينهم من الرهان . فلما رأونى قالوا : الحجاج بن علاط عنده والله الخبر ! يا حجاج ، إنه قد بلغنا أن القاطع(٣٦) قد سار إلى خيبر بلد اليهود وريف الحجاز . فقلت : بلغنى أنه قد سار إليها وعندى من الخبر ما يسركم . فالتبطوا(٣٧) بجانبى راحلتى يقولون : يا حجاج أخبرنا . فقلت : لم يلق محمد وأصحابه قومًا يحسنون القتال غير أهل خيبر . كانوا قد ساوروا فى العرب

يجمعون له الجموع وجمعوا له عشرة آلاف ، فهزم هزيمة لم يسمع قط بمثلها ، وأسر محمد أسرًا ، فقالوا : لن نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فنقتله بين أظهرهم بمن قتل منا ومنهم ! ولهذا فإنهم يرجعون إليكم يطلبون الأمان فى عشائرهم ويرجعون إلى ما كانوا عليه ، فلا تقبلوا منهم وقد صنعوا بكم ما صنعوا. قال : فصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر ، هذا محمد إنما ينتظر أن يقدم به عليكم . فقلت : أعينونى على جمع مالى على غرمائى فأنا أريد ان أقدم فأصيب من محمد وأصحابه قبل أن تسبقنى التجار إلى ما هناك . فقاموا فجمعوا إلى مالى كأحث جمع سمعت به ، وجئت صاحبتى ، وكان لى عندها مالى فقلت لها : مالى ، لعلى ألحق بخيبر فأصيب من البيع قبل أن يسبقنى التجار إلى من انكسر هناك من المسلمين . وسمع ذلك العباس (بن عبد المطلب) فقام ، فانخذل ظهره فلم يستطع القيام ، فأشفق أن يدخل داره فيؤذى ، وعلم أن سيؤذى عند ذلك ، فأمر بباب داره يفتح وهو مستلق ، فدعا بابنه قثم ، وكان يشبه بالنبى ﷺ ، فجعل يرتجز ويرفع صوته ألا يشمت به الأعداء ، وحضر باب العباس بين مغيظ محزون ، وبين شامت ، وبين مسلم ومسلمة ، مقهورين بظهور الكفر والبغى . فلما رأى المسلمون العباس طيبة نفسه طابت أنفسهم واشتدت منتهم(٣٨) ، ودعا غلامًا له يقال له أبو زبينة فقال له : اذهب إلى الحجاج فقل ، يقول العباس : " الله أعلى وأجل من أن يكون الذى تخبر حقًا " . فجاءه فقال الحجاج : قل لأبى الفضل : أخلّنى فى بعض بيوتك حتى آتيك ظهرًا بعض ما تحب ، فاكتم عنى . فأقبل أبو زبينة يبشر العباس " أبشر بالذى يبشرك " فكأنه لم يمسه ، ودخل عليه أبو زبينة فاعتنقه العباس وأعتقه وأخبره بالذى قال ، قال العباس : لله على عتق عشر رقاب ! فلما كان ظهرًا جاءه الحجاج فناشده الله : لتكتمن على ثلاثة أيام . فواثقه العباس على ذلك ، قال : فإنى قد أسلمت ولى مال عند امرأتى ودين على الناس ، ولو علموا بإسلامى لم يدفعوا إلى ، تركت رسول الله ﷺ قد فتح ، وجرت سهام الله ورسوله فيها وانتثل(٣٩) ما فيها ، وتركته عروسًا بابنة حيى بن أخطب ، وقتل

ابن أبي الحقيق . قال : فلما أمسى الحجاج من يومه خرج ، وطال على العباس تلك الليالى ويقال : إنما استنظر العباس يومًا وليلة، وجعل العباس يقول : ياحجاج انظر ما تقول فإنى عارف بخيبر ، هى ريف الحجاز أجمع وأهل المنعة والعدة فى الرجال ، أحقًا ما تقول ؟ قال : إى والله فاكتم عنى يومًا وليلة ، حتى إذا مضى الأجل ، والناس يموجون فى شأن ما تبايعوا عليه ، عمد العباس إلى حلة فلبسها ، وتخلق الخلوق وأخذ فى يده قضيبًا ، ثم أقبل يخطر حتى وقف على باب الحجاج بن علاط ، فقرعه فقالت زوجته : لا تدخل ، أبا الفضل ! قال : فأين الحجاج ؟ قالت : انطلق إلى غنائم محمد ليشترى منها التى أصابت اليهود منهم قبل أن يسبقه التجار إليها . فقال لها العباس : فإن الرجل ليس لك بزوج إلا أن تتبعى دينه ، إنه قد أسلم وحضر الفتح مع رسول الله ﷺ ، وإنما ذهب بماله هاربًا منك ومن أهلك أن يأخذوه . قال : أحقًا يا أبا الفضل ؟ قال : أى والله ـ قالت : والثواقب إنك لصادق . ثم قامت تخبر اهلها ، وانصرف العباس إلى المسجد وقريش يتحدثون بما كان من حديث الحجاج ، فلما نظروا إليه وإلى حاله تغامزوا وعجبوا من تجلده ، ثم دخل فى الطواف بالبيت ، فقالوا : يا أبا الفضل ، هذا والله التجلد لحر المصيبة أين كنت منذ ثلاث لا تطلع ؟ قال العباس : كلا والذى حلفتم به ، لقد فتح خيبر وترك عروسًا على ابنة ملكهم حيى بن أخطب ، وضرب أعناق بنى أبى الحقيق البيض الجعاد الذين رأيتموهم سادة النضير من يثرب ، وهرب الحجاج بماله الذى عند امرأته . فقالوا : من خبرك بهذا ؟ قال العباس : الصادق فى نفسى ، الثقة فى صدرى ، فابعثوا إلى أهله ، فبعثوا فوجدوا الحجاج قد انطلق بماله واستكتم أهله حتى يصبح ، فسألوا عن ذلك كله فوجدوه حقًا ، فكبت المشركون وفرح بذلك المسلمون ، ولم تلبث قريش خمسة أيام حتى جاءهم الخبر بذلك .

* * *

ونخلص من استعراضنا للمواقف المختلفة للقوى التى كان لها ارتباط بغزوة خيبر أن الوضع الاقتصادى الهام لمنطقة خيبر بأراضيها الخصبة ، لعب دورًا مهمًا فى تحديد موقف كل فئة من هذه الفئات التى أثرت فيها غزوة خيبر ، فالرسول ﷺ باستيلائه على خيبر يكون قد حقق هدفين مهمين ، أولهما القضاء على القوة الحربية والاقتصادية ليهود خيبر ، والتى كانت تستخدم فى حرب المسلمين والأمة الإسلامية . وثانيهما وضع يد الأمة على مورد غذائى هام كانت فى أشد الحاجة إليه(٤٠) .

أما اليهود فقد بذلوا كل ما فى وسعهم للأحتفاظ بوضعهم العسكرى والاقتصادى المتفوق فأخذوا يتحالفون مع بعض القبائل العربية فى مقابل إعطائهم كل ما تتجه خيبر من تمر سنة كاملة .

أما حلفاء يهود ، وبخاصة بنو غطفان وقائدهم عيينة بن حصن ، فقد أعماهم الطمع وغرتهم قوتهم وقوة اليهود الزائفة ، فرفضوا ما عرضه عليهم الرسول ﷺ الذى كان واثقًا من النصر ، فأضاعوا على أنفسهم فرصة ثمينة .

أما قريش فيتضح لنا من قصة الحجاج بن علاط السلمى التى ذكرناها ، أنها أصبحت فى موقف ضعيف ومقيدة باتفاق الحديبية ، بحيث لا تستطيع أن تمد يد المساعدة لحلفاء الأمس ، يهود خيبر . وكان بإمكان قريش أن تنقض عهدها مع الرسول ﷺ وتهاجم المسلمين من الخلف أو تستغل فرصة خروج الرسول ﷺ من المدينة فتهجم عليها ، ولكن قريش كان قد أصابها ضرر شديد لحق بتجارتها من جراء الغزوات والسرايا العديدة التى وجهها الرسول ﷺ ضد قوافل تجارتها ، فأصبح لزامًا عليها التزام جانب الحياد ، وكانت تأمل أن يتمكن اليهود وحلفاؤهم من القضاء على المسلمين . غير أن انتصار الرسول ﷺ والمسلمين على يهود خيبر جاء ضربة أخرى مؤلمة وجهت لقريش . فاستيلاء الرسول ﷺ والمسلمين على خيبر وضع تحت أيديهم ، ولأول مرة منذ نشأة الأمة الإسلامية ، أراضى زراعية

خصبة ، وإنتاجًا زراعيًا كافيًا أمن لهم سبل عيشهم فى هذه المرحلة ، وجعلهم يتفرغون للمهمة الأساسية بنشر الدعوة الإسلامية . وفى نفس الوقت لم تعد قريش قادرة على الإنتفاع بما تنتجه خيبر التى أصبحت ملكًا للمسلمين .

والآن ، بعد أن استعرضنا الأسباب التى أدت إلى غزوة خيبر ، والظروف التى أحاطت بها ، وموقف كل فئة من الفئات التى كان لها ارتباط بهذه الغزوة ، ننتقل للحديث عما حققه الرسول ﷺ والمسلمون من إنجازات حربية فى خيبر ، وما تمخض عن ذلك من ترتيبات مالية .

* * *

سقوط حصون خيبر فى أيدى المسلمين :

كانت حصون اليهود بخيبر تقع فى ثلاث مناطق ، هى الشق والنطاة والكتيبة ، وهى تقع بدورها فى واديين من أودية خيبر هما وادى السرير ووادى خاص(٤١) . كانت الشق والنطاة تقعان فى وادى السرير ، بينما تقع الكتيبة فى وادى خاص . وقد ذكرنا من قبل أن الرسول ﷺ أمر أن يكون أول حصن يهاجمه المسلمون هو حصن ناعم الذى نزل به الغطفانيون حلفاء اليهود ، مما أدخل الرعب والخوف فى نفوسهم . ثم كان أمر ما سمعوه من هجوم وقع على ديارهم وأهليهم، فخرجوا مسرعين إلى هناك . ويقال إن كنانة بن أبى الحقيق ، الذى كان آنذاك فى الكتيبة ، عندما سمع بانصرافهم سقط فى يده وذل وأيقن بالهلكة(٤٢) .

أما الرسول ﷺ فإنه بمجرد أن خرج عيينة والغطفانيون أمر المسلمين بالهجوم على الحصون ، إلى أن وصل جيشهم إلى حصن ناعم ، وكان عبارة عن مجموعة من الحصون . ورغم انسحاب بنى غطفان ، إلا أن اليهود دافعوا عن حصن ناعم دفاعًا مستميتًا بعد أن حشدوا فيه أشجع مقاتليهم ، غير أن المسلمين استطاعوا فى نهاية الأمر الاستيلاء على هذا الحصن .

وبعد سقوط حصن ناعم تحول المسلمون إلى حصن الصعب بن معاذ ، وقد حشد فيه اليهود خمسمائة مقاتل ، كما أن هذا الحصن كان يحوى الكثير من الطعام والودك والماشية والمتاع . وكان المسلمون بحاجة شديدة إلى هذه المواد الغذائية ، لأنهم كانوا يقاتلون منذ عشرة أيام ، حتى أصابهم الجهد والجوع ، فركزوا هجومهم على هذا الحصن وتمكنوا من فتحه بعد قتال شديد وقع بينهم وبين اليهود المدافعين عن الحصن(٤٣) .

وقد حصل المسلمون فى حصن الصعب بن معاذ على الكثير من الطعام الذى لم يظنوا أن يكون هناك بهذه الكثرة . فقد وجدوا الشعير والتمر ، والسمن والعسل ، والزيت ، والودك . ووجدوا كذلك الكثير من الدواب والأنعام مثل الحمير والبقر والغنم ووجدوا الأعلاف ، وآنية كثيرة من نحاس وفخار كان اليهود يستخدمونها للأكل والشرب . ووجدوا من البز عشرين عكمًا(٤٤) مخزومة من غليظ متاع اليمن ، وألف وخمسمائة قطيفة ، ووجدوا عشرة أحمال من الخشب ، أمر به فأخرج من الحصن ثم أحرق ، كذلك وجد المسلمون خوابى السكر مليئة بالخمر فكسرت وأريق الخمر . أما آلة الحرب فقد وجدوا منها أيضًا الكثير ، مثل المنجنيق والدبابات(٤٥) .

وقد سمح الرسول ﷺ للمسلمين أن يأخذوا ما يكفيهم من الطعام والأعلاف لهم ولدوابهم دون أن ينقلوا منه شيئًا إلى بلادهم . وأصبح هذا الطعام مشاعًا للمسلمين لم يمنع منه أحد ، ولم يكن فيه خمس(٤٦) ، أى أن الرسول ﷺ لم يأخذ فيه خمسًا كما كان يفعل فى غزواته الماضية .

وبعد أن استولى المسلمون على حصن الصعب بن معاذ أمروا أن يزحفوا نحو حصن آخر من حصون النطاة ، وهو المعروف باسم قلعة الزبير ، وكان حصنًا منيعًا يقع فى رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه . وقد

أغلق اليهود أبواب الحصن عليهم . وبعد حصار استمر ثلاثة أيام جاء رجل من اليهود يقال له غزَّال إلى الرسول ﷺ فقال له :

أبا القاسم ، تؤمنى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق ، فإن أهل الشق قد هلكوا رعبًا ؟ قال : فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله . فقال اليهودى : إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا ، لهم دبول تحت الأرض ، يخرجون بالليل فيشربون بها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، وإن قطعت عليهم ضجوا . فسار رسول الله ﷺ إلى دبولهم فقطعها ، فلما قطع عليهم مشاربهم لم يطيقوا المقام على العطش ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، وقتل من المسلمين يومئذ نفر ، وأصيب من اليهود ذلك اليوم عشرة ، وافتتحه رسول الله ﷺ ، فكان آخر حصون النطاة(٤٧) تحول بعده الرسول إلى الشق الذى كان يتكون أيضًا من عدة حصون .

وكان أول حصن بدأ به الرسول ﷺ من حصون الشق هو حصن أُبىّ ، ولم يستغرق فتح هذا الحصن وقتًا طويلاً حيث اقتحمه المسلمون فهرب من كان فيه من اليهود إلى حصن آخر من حصون الشق يعرف بحصن النِّزار . غير أن معنويات اليهود كانت قد انهارت تمامًا . ولم يلبث المسلمون أن دخلوا حصن النِّزار . فلما رأى أصحاب الحصون الباقية من الشق ما حدث من سرعة تداعى حصنى أبىّ والنِّزار حتى ولوا هاربين نحو حصون الكتيبة . وقد أدرك الرسول ﷺ أن حصن النِّزار سيشهد ، آخر مقاومة لليهود ، فبعد أن سقطت جيمع حصون النطاة وجيمع حصون الشق ، لم تعد لأهالى حصون الكتيبة المقدرة على مواجهة المسلمين ، ولذلك فضلوا أن يصالحوا الرسول ﷺ ، فأمن الرجال والذرية ، وكان فى حصون الكتيبة أكثر من ألفين منهم.(٤٨)

وكانت ممن أخذ فى حصن النِّزار من النساء صفية بنت حيى بن أخطب التى كانت زوجًا لكنانة بن أبى الحقيق ، ومعها ابنة عم لها وبعض من نساء

يهود." ولم يسب فى حصون النطاة من النساء والذرية أحد ولا بالشق ، إلا فى حصن النزار "[٤٩] . وذلك أن اليهود فرّغوا حصون النطاة للمقاتلة ، وحولوا النساء والأطفال إلى حصون الكتيبة . وكان حصن سلالم بالكتيبة هو حصن آل أبى الحقيق . غير أن كنانة بن أبى الحقيق رأى أن حصن النزار أحصن ما هنالك ، ولذلك حوّل إليه أهله بمن فيهم صفية فى الليلة التى تحول فيها الرسول ﷺ إلى حصون الشق ، ولهذا السبب وجدت صفية فى حصن النزار عندما فتحه المسلمون. والمعروف أن الرسول ﷺ تزوج صفية بنت حيى بن أخطب فيما بعد .

وعندما أكمل الرسول ﷺ والمسلمون فتح حصون الشق تحولوا إلى الكتيبة، كما ذكرنا ، والتى كان بها حصن سلالم ، وهو حصن آل أبى الحقيق ، وحصن الوطيح ، وحصن القموص . وقد لجأ إلى هذه الحصون كل فل كان قد انهزم من النطاة والشق ، وأغلقوا عليهم أبواب هذه الحصون لا يخرجون منها للقتال أو لمبارزة المسلمين كما كانوا يفعلون من قبل فى الحصون التى سبق فتحها ، فحاصرهم الرسول ﷺ أربعة عشر يومًا فلما رأى أنهم لا يخرجون للقتال ، كما أنهم لم يتأثروا بطول الحصار ، هم أن ينصب عليهم المنجنيق ، فأصباهم الخوف وتملكهم الذعر وأيقنوا بالهلكة . فأرسل كنانة بن أبى الحقيق رجلاً من اليهود يقال له شمّاخ إلى النبى ﷺ يقول : " أنزل إليك أكلمك " ، فلما نزل شماخ أخذه المسلمون فأتى به النبى ﷺ فأخبره برسالة كنانة فقبل الرسول ﷺ ، فنزل كنانة فى نفر من اليهود فتم الصلح بينه وبين الرسول ﷺ على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال أو أرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة[٥٠] ، وعلى البز إلا ثوبًا على ظهر إنسان ، وكان حصيلة

ماوجده المسلمون من السلاح : مائة درع ، وأربعمائة سيف ، وألف رمح ، وخسمائة قوس عربية بجعابها .

كذلك كان لآل أبى الحقيق كنز وحلى كثيرة مشهورة ، فلما سأل الرسول ﷺ كنانة عنها أدعى أنهم انفقوه جميعًا فى الحرب . ولكن الرسول ﷺ شك فى كلامه ، ولذلك حذره من مغبة الكذب ، وأنه إن اتضح خلاف ذلك برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله ، وتصبح أموالهم ودماؤهم حل له . ورغم هذا التحذير أصر كنانة على انكاره ، فأشهد الرسول ﷺ على قوله جماعة من الصحابة وعشرة من اليهود .

و لم يلبث أن فضح أمر كنانة عندما سأل الرسول ﷺ ثعلبة بن سلام بن أبى الحقيق ، وكان رجلاً ضعيفًا(٥١)، عن الكنز ، فأخبر الرسول ﷺ أنه لا يعلم شيئًا، ولكنه رأى كنانة يطوف بخربة بجوار الحصن ، ولعله دفن فيها الكنز . فأرسل الرسول ﷺ نفرًا من المسلمين فحفروا فى الخربة حيث أشار ثعلبة ، فأخرجوا الكنز . ونتج عن ذلك أن استحل دم كنانة واستحلت أموالهم وسبى ذراريهم .

أما الكنز المذكور فقد كان يتكون فى معظمه من أسورة الذهب ، ودمالج الذهب ، وخلاخل الذهب وقرطة الذهب ، ونظم من جوهر وزمرد ، وخواتم ذهب ، وفتخ بجزع ظفار مجزع بالذهب .(٥٢)

والآن بعد أن رأينا كيف سقطت جميع حصون اليهود فى أيدى المسلمين ، ووقع فى أيديهم الكثير من الغنائم المنقولة ، ننتقل للحديث عن الكيفية التى تم بها التصرف فى هذه الغنائم وطريقة توزيعها على المسلمين .

* * *

كيفية التصرف فى الغنائم :

حصل المسلمون نتيجة فتحهم حصون خيبر على الكثير من الغنائم التى تشمل الأثاث والبز والقطائف والسلاح والغنم والبقر ، وكميات ضخمة من الطعام والأدم وعلف الدواب . وقد جعل الرسول ﷺ الطعام وعلف الدواب حقًا مشاعًا لجميع المسلمين المشتركين فى الغزوة ، يأخذ كل منهم حاجته وما يكفيه أثناء وجوده بخيبر ، ولا يحق لأحد يحمل من الطعام والأعلاف شيئًا إلى بلاده .

كذلك أشاع الرسول استخدام السلاح الذى غنم لجيمع المسلمين المقاتلين بخيبر ، ويحق لكل واحد أن يأخذ ما يحتاجه من السلاح ليقاتل به ، بشرط أن يرده بعد انتهاء القتال . ثم جمعت الغنائم المنقولة بما فيها السلاح ، وقسمت إلى خمسة أجزاء ، أخرج منها خمس للرسول ﷺ ، والأربعة أخماس الأخرى للمقاتلين . وبعد ذلك تم بيع جميع الغنائم بالمزايدة ، أى لمن يزيد ويدفع أعلى سعر ، وكان حق الشراء والبيع مفتوحًا للجميع ، مسلمين ويهود . وقد وكل الرسول ﷺ أمر بيع هذه المنقولات إلى فروة بن عمرو البياضى . ورغم كثرة الغنائم المنقولة إلا أنه تمكن من بيعها فى يومين فقط(٥٣) .

وكان الرسول ﷺ حريصًا على ألا يغل أحد شيئًا من الغنائم ، أى يأخذه وينتفع به دون سائر المسلمين ، مهما صغر هذا الشئ وقل ثمنه ، وذلك حتى يتحقق العدل والمساواة بين جميع المقاتلين .

أما الذين انتفعوا من غنائم خيبر فكانوا عدة فئات ، أولهم الذين شهدوا الحديبية مع الرسول ﷺ ، حتى الذين غابوا عن خيبر ولم يشهدوها لكنهم كانوا من أصحاب الحديبية ، كان لهم نصيب فى هذه الغنائم مثلهم مثل غيرهم من المقاتلين . وهناك من ماتوا فى الفترة ما بين الحديبية وخيبر ، وهؤلاء أعطى نصيبهم لورثتهم . كذلك الذين استشهدوا فى معارك خيبر نفسها حفظ لهم

حقهم فى الغنائم وأعطى لورثتهم . وهناك ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن القتال بسبب المرض ، وهم سويد بن النعمان ، وعبد الله بن سعد بن خيثمة ، ورجل من بنى خُطامة ، وهؤلاء أيضًا أعطاهم الرسول ﷺ نصيبهم(٥٤) .

وكان المجموع الكلى للمقاتلين فى خيبر الذين شملتهم الفئة ألفًا وأربعمائة رجل ، منهم مائتا فارس ، وقد تولى إحصاء هؤلاء المسلمين المشتركين فى خيبر الصحابى زيد بن ثابت(٥٥) ، وجعل الرسول ﷺ نصيب الفارس من مال الغنائم المنقولة ثلاثة أسهم ، سهم للفارس وسهمين لفرسه . ويبدو أن بعض الصحابة كان له أكثر من فرس بخيبر ، أحدهما قاتل عليه ، والآخر أو الأخرى أعطاها لبعض المسلمين على أن يكون نصيب الفرس الزائد ، وهو سهمان ، لصاحب الفرس ، وهذا يعنى أن من كان له فرسان نال خمسة أسهم ، أربعة لفرسيه وسهم له . ويقال إن الرسول ﷺ لم يسهم لأكثر من فرسين ، ووفق رواية أخرى أنه لم يسهم إلا لفرس واحد(٥٦) .

أما الفئة الثانية التى جعل لها الرسول ﷺ نصيبًا فى غنائم خيبر ، فكانوا عشرة من يهود المدينة غزا بهم الرسول ﷺ خيبر ، ويقال إنه أسهم لهم كسهمان المسلمين ، غير أن هناك رواية أخرى تقول إنه لم يسهم لهم وإنما أحذاهم ، ولعل المقصود بذلك أنهم نالوا مكافأة لمرة واحدة دون أن يتكرر اعطاؤهم ، وفى الغالب فإن هذا يتعلق بغلة الأرض التى أصبحت حقًا ثابتًا للمسلمين المشتركين فى خيبر ولأسرهم توزع عليهم سنويًا أو موسميًا . أما الغنائم المنقولة فقد وزع ريعها فى وقته ، ونال هؤلاء اليهود العشرة نصيبهم منها بحكم اشتراكهم فى الغزوة إلى جانب المسلمين .

كذلك كان مع هؤلاء اليهود العشرة بعض مماليكهم ، وقد أعطاهم الرسول ﷺ أيضًا شيئًا من مال الغنائم(٥٧) .

أما الفئة الثالثة التى أسهم لها الرسول ﷺ من غنائم خيبر دون أن يكونوا من أصحاب الحديبية ، فقد كانوا جماعة من المبعوثين على رأسهم محيصة بن مسعود الحارثى ، أرسلهم الرسول ﷺ إلى فدك ليتفاوضوا مع يهودها على شروط الصلح الذى قبل يهود فدك إتمامه مع الرسول ﷺ (٥٨) .

وكان قد صحب الرسول ﷺ فى غزوته إلى خيبر عشرون امرأة من نساء المسلمين . وقد تطوعن لإغاثة المسلمين بتوفير السقاء لهم ومداوة الجرحى وغيرها من الأعمال . ولم يحرم الرسول ﷺ هؤلاء النسوة ثمرة جهودهن وحقهن فى غنائم خيبر . وتكاد جميع الروايات تجمع على أن الرسول ﷺ رضخ لهؤلاء النسوة ولم يسهم لهن(٥٩) أى إنه لم يجعل لهن أسهما أسوة بالرجال ، وإنما وزع عليهن بعض الغنائم . من ذلك مثلاً إنه رضخ لكل امرأة خرزًا وأوضاح(٦٠) من فضة وقطيفة فدكية وبردًا يمانيًا وخمائل وقدرًا(إناة) من صفر (أى نحاس) . وفى رواية أخرى أن الرسول ﷺ قسم بينهن خرزًا وأعطى كل واحدة قطيفة وبردًا يمانيًا ودينارين(٦١) .

وخلاصة القول فإن الغنائم المنقولة وزع جزء منها ، وبخاصة الحلى ، على النساء اللاتى صحبن الرسول ﷺ فى غزوة خيبر ، وتم بيع ما تبقى فى مزايدة مفتوحة لمن يريد أن يشترى ، ثم وزع ريعها من المال على المقاتلة وعشرة من يهود المدينة ، ومبعوثى الصلح إلى فدك .

أما الأرض الزراعية وما تحويه من نخل وزروع ، فهذه كان لها ترتيب آخر.

توزيع غلة أراضى خيبر :

ذكر الواقدى أن الرسول ﷺ كلف زيدًا بن ثابت بإحصاء المسلمين المقاتلين الذين اشتركوا فى غزوة خيبر ، فوجد أن عددهم يبلغ ألفًا وأربعمائة رجل ، ومعهم مائتا فرس . وكما ذكرنا من قبل ، ليس من الضرورى أن تكون هذه

الخيل ملكًا لمائتى مسلم ، لأن البعض كان له أكثر من فرس ، قاتل على واحد منها ، وأعطى الآخر لرجل آخر من المسلمين . فإذا أخذنا فى الإعتبار ضعف الرواية التى تقول إن الرسول ﷺ أسهم للرجل الذى له فرسان مثلاً ، خمسة أسهم، أربعة لفرسيه وسهم له ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه هو : من الذى أخذ سهمى الفرس الاخر ، هل هو صاحب الفرس ، أم الشخص الذى قاتل عليه؟ ولابد أولاً أن نثبت حقيقة هامة وهى أن الرسول ﷺ أسهم لمئتى فرس ، إذ ذكر الواقدى أن الرسول ﷺ جعل السهمان ثمانية عشر سهمًا ، كل سهم منها مائة سهم ، ليصبح عددها ألفًا وثمانمائة سهم ، وكان نصيب المقاتلين من ذلك ألفًا وأربعمائة سهم بمعدل سهم لكل رجل ، بينما كان نصيب الخيل أربعمائة سهم بمعدل سهمين لكل فرس(٦٢) . غير أنه ليس واضحًا من الذى استفاد من سهمى الفرس الذى يقاتل عليه شخص غير صاحبه . ولعل الاتفاق كان يقضى بأن يتقاسم هذا الرجل وصاحب الفرس السهمين ، والله أعلم .

هذه الألف وثمانمائة سهم(٦٣) كانت فى أراضى النطاة والشق ، وكان لكل مائة شخص سهم كبير له رئيس يقسم على أصحابه ما خرج من غلة الأرض . وكان النطاة خمسة أسهم هى : سهم الزبير بن العوام ، سهم بياضة ، سهم أسيد بن حضير ، سهم بلحارث بن الخزرج ، سهم ناعم (رجل يهودى) .

أما الشق فقد كانت على ثلاثة عشر سهمًا على النحو التالى :

سهم عاصم بن عدى ، سهم على بن أبى طالب ، سهم عبد الرحمن بن عوف ، سهم طلحة بن عبيد الله ، سهم بنى ساعدة ، سهم بنى النجار ، سهم بنى حارثة بن الحارث ، سهم أسلم وغفار ، سهما سلمة ، سهم عبيد السّهام ، سهم أوس ، سهم عبيد(٦٤) .

هذا وقد أبيحت عملية بيع وشراء الأسهم بين المسلمين ، فيقال مثلاً إن الرسول ﷺ اشترى من رجل من بنى غفار سهمه بخيبر ببعيرين بعد أن قال له :

"أعلم أن الذى آخذ منك خير من الذى أعطيك ، والذى أعطيك دون الذى آخذ منك " فقبل الرجل رغمًا عن ذلك .

كذلك اشترى عمرو بن الخطاب من الرسول ﷺ فى سهم ، واشترى عمر أيضًا من أصحابه الذين يشتركون معه فى السهم الكبير ، وعددهم مائة ، حتى صار السهم كله لعمر. كذلك ابتاع محمد بن مسلمة من سهم أسلم سهمين(٦٥) .

هذا فيما يتعلق بأراضى النطاة والشق ، أما أراضى الكتيبة فقد ورد فيها قولان مختلفان : فمن قائل إن الكتيبة كانت للنبى ﷺ خالصة ، ولم يوجف عليها المسلمون (أى لم يقاتلوا عليها) .(٦٦)

أما القول الآخر ، وهو الأقرب للصواب والقول ، فهو أن الرسول عندما انتهى من فتح خيبر جزأ النطاة والشق والكتيبة جيمعها إلى خمسة أجزاء ، ثم جعل خمس بعرات ، وأعلم فى بعرة منها وجعلها لله ، ثم قال : اللهم اجعل سهمك فى الكتيبة . فكان أول ما خرج منها الذى مكتوب فيه على الكتيبة ، فأصبحت الكتيبة نتيجة لهذا الخمس الخاص بالنبى ﷺ يتصرف فيه كيفما يشاء ، وأصبحت النطاة والشق هى أربعة الأخماس للمقاتلين بخيبر . ومما يدعم هذا القول ، أى أن الكتيبة صارت خمس رسول ﷺ ، أنه كان يطعم من أطعمهم فى الكتيبة وينفق على أهله منها ، كما أن الرسول ﷺ لم يطعم أحدًا من الشق والنطاة التى جعلها سهمانًا للمسلمين(٦٧) .

وهكذا أصبحت أراضى خيبر وما تنتجه من غلال وتمر ملكًا للمسلمين ، وهى أول أرض يمتلكها المسلمون خارج المدينة ، فكيف كان تصرفهم ازاءها ؟ هذا ما سنراه بعد قليل .

الاتفاق مع يهود خيبر بشأن الأرض :

لم يكن من السهل على المسلمين فى هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية التى تتطلب التفرغ للجهاد ونشر الدعوة الإسلامية ، أن ينصرفوا لفلاحة هذه الأراضى التى آلت ملكيتها لهم ، أو الإشراف عليها وعلى نخلها وزرعها إشرافًا مباشرًا . ولهذا لم يرفض الرسول ﷺ العرض الذى تقدم به يهود خيبر ليتركهم يعملون فى الأرض مقابل نصيب من إنتاجها . فوافق الرسول ﷺ على أن يقرهم فى أراضى خيبر مقابل حصولهم على نصف إنتاجها([٦٨]) . وكان هذا الاتفاق يسرى على أراضى الشق والنطاة والكتيبة جميعها . واختار الرسول ﷺ أحد الصحابة من الأنصار ، وهو عبد الله بن رواحة ، ليخرص عليهم النخل ، ويقال إنه خرص عليهم أربعين ألف وسق([٦٩]) . وعندما توفى عبد الله بن رواحة فى غزوة مؤتة سنة ٨ هـ بعث الرسول ﷺ أبا الهيثم بن التيهّان خارصًا إلى خيبر . وفى رواية أخرى أنه بعث جبار بن صخر أو فروة بن عمرو (البياضى) ([٧٠]) لهذه المهمة . والجدير بالذكر أن جميع هؤلاء الرجال الذين تولوا هذه الوظيفة كانوا من الأنصار من أهالى المدينة الذين كانت لهم خبرة بالنخل وإنتاجها من التمر .

إنتاج الكتيبة وكيفية توزيعها :

لعل ما أوردته بعض المصادر([٧١]) عن إنتاج الكتيبة يعطينا فكرة عما كانت تنتجه أراضى خيبر من تمر ومحصولات زراعية أخرى . فقد ذكر أن الكتيبة ، وهى تشكل خمس الرسول ﷺ (بمعنى آخر خمس خيبر) كان إنتاجها كالآتى :

٨٠٠٠ وسق تمر لليهود نصفها ، أربعة آلاف .

٣٠٠٠ صاع شعير ، للرسول ﷺ ١٥٠٠ ولليهود ١٥٠٠ صاع .

١٠٠٠ صاع نوى تمر ، للرسول ﷺ نصفه .

ولعل هذا الإنتاج كان شبه ثابت ، أو ربما يمثل متوسط ما كانت تنتجه أراضى الكتيبة ، لأن الرسول ﷺ كان يطعم نساءه وأقرباءه وبعض الفقراء طعمًا على النحو التالى :

٨٠ وسق تمر و٢٠ وسق شعير لكل زوجة من زوجاته .

٢٠٠ وسق للعباس .

٣٠٠ لفاطمة وعلى من الشعير والتمر ، منها ٨٥ وسق شعير ، لفاطمة من ذلك ٢٠٠ وسق .

١٥٠ وسق لأسامة بن زيد (٤٠ شعير و٥٠ نوى) .

١٥ وسق شعير للمقداد بن عمرو .

٠٠٥ أوساق شعير لأم رمثة بنت عمر بن هاشم بن المطلب .

١٠٠ وسق لأبى بكر .

١٤٠ وسق لعقيل بن أبى طالب .

٥٠ وسق لبنى جعفر بن أبى طالب .

١٠٠ وسق لربيعة بن الحارث .

١٠٠ وسق لأبى سفيان بن الحارث بن المطلب .

٣٠ وسق للصلت بن مخرمة بن المطلب .

٥٠ وسق لأبى نبقة .

٥٠ وسق لركانة بن عبد يزيد .

٥٠ وسق للقاسم بن مخرمة بن المطلب .

٣٠ وسق لمسطح بن أثاثة بن عباد وأخته هند .

٤٠ وسق صفية بنت عبد المطلب .

٣٠ وسق بحينة بنت الحارث بن المطلب .

٤٠ وسق ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب .

١٠٠ وسق الحصين وخديجة وهند بنت عبيدة بن الحارث .

٣٠ وسق أم الحكم بنت الزبير بن عبد الطلب

٤٠ وسق أم هانى بنت أبى طالب .

٣٠ وسق جمانة بنت أبى طالب .

٣٠ وسق أم طالب بنت أبى طالب .

٥٠ وسق قيس بن مخرمة بن المطلب .

٥٠ وسق أبو أرقم .

٤٠ وسق عبد الرحمن بن أبى بكر .

٤٠ وسق أبى بصرة .

٣٠ وسق ابن أبى حبيش .

٥٠ وسق عبد الله بن وهب وإبنيه (٤٠ لابنيه) .

٥٠ وسق نميلة الكلبى من بنى ليث .

٣٠ وسق أم حبيبة بنت جحش .

٣٠ وسق ملكان بن عبده .

٣٠ وسق محيصة بن مسعود .

إذا أحصينا مجموع هذه الطعم المذكورة آنفًا نجده يقل كثيرًا عن ثلاثة آلاف وسق ، بينما إنتاج الكتيبة كان يزيد كثيرًا . ومن ناحية أخرى فإننا نلاحظ ليس واضحا ما ناله كل شخص من الأنواع المختلفة من المحصول ، ما عدا فى حالات قليلة . أما مابقى من إنتاج الكتيبة فلابد أن الرسول ﷺ أطعم منه آخرين من فقراء المسلمين ، كما أنه كان يحمل منه فى سبيل الله ، ويعطى منه من يأيته من وفود العرب ليتألفهم للإسلام . ومن هذه الفئات أناس صادف قدومهم إلى الرسول ﷺ عند فتح خيبر ، دون أن يشتركوا فيه ، فأطعمهم الرسول ﷺ من الخمس . ومن هؤلاء الرهاويون الذين أوصى لهم بجاد مائة وسق (أى مما يجمع من تمر) والداريون ، - وكانوا عشرة قدموا من الشام إلى رسول الله ﷺ - فأوصى لهم بطعمة مائة وسق . كذلك أوصى للأشعريين بجاد مائة وسق .(٧٢)

وأصبحت كل هذه الطعم التى قسمها الرسول ﷺ من الخمس حقًا ثابتًا لكل من أعطاهم ، ينالونه فى حياة الرسول ﷺ وخلافة أبى بكر . أما من مات من المطعمين أو قتل فى حياة الرسول ﷺ وأبى بكر فإنه يرثه تلك الطعمة من ورث ماله .(٧٣) غير أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما تولى الخلافة كان له رأى فى هذا الأمر . إذ يقال إنه قبض طعمة كل من مات و لم يورثه ، فقبض طعمة زيد بن حارثة ، وقبض طعمة جعفر بن أبى طالب ، وكلمة على بن أبى طالب فأبى ، وقبض طعمة صفية بنت عبد المطلب فكلمه الزبير (بن العوام ، ابنها) فى ذلك حتى غالظه فأبى عليه برده ، فلما ألح عليه قال : أعطيك بعضه . ولكن الزبير رفض وأصر على أخذها كلها . كذلك يقال إن عمر قبض طعمة فاطمة فكلم فيها فأبى أن يفعل(٧٤) .

غير أن الخليفة عمر استثنى من ذلك أزواج رسول ﷺ ، فكان يجيز ما صنعن ، فماتت زينب بنت جحش فى خلافته فخلى بين ورثتها وبين تلك الطعمة ، وأجاز ما صنعن فيه من بيع أو هبة . وورث ذلك كل من ورثهن ، و لم

يفعل بغيرهن ، وأبى أن يجيز بيع من باع الطعمة وقال : " هـذا شئ لا يعرف إذا مات المطعم بطل حقه ، فكيف يجوز بيعه " (٧٥) .

غير أن هناك رواية أخرى تنفى استثناء عمر لأزواج الرسول ﷺ وعلى قول هذه الرواية فإن عمر قبض طعمة زينب جحش زوج الرسول ﷺ التى توفيت سنة ٢٠هـ فى خلافته وأبى أن يعطيها الورثة وقال : إنما كانت من النبى ﷺ طعمة ما كان المرء حيًا فإذا مات فلا حق لورثته(٧٦) .

وبغض النظر عن الروايتين المختلفتين ، فإن الخليفة عمر لابد أن تكون له أسباب دفعته لوقف وراثة الطعمة بعد أن استمر العمل بها فى عهدى الرسول ﷺ والخليفة أبى بكر . ولعل السبب فى ذلك هو تبدل الأحوال المعيشية للمسلمين وارتفاع مستواها بعد سنة ٢٠هـ وبعد الفتوحات التى تمت وكثرة الأموال بأيدى الناس . أو ربما رأى عمر أن هذه الطعم من حق ولى الأمر بعد الرسول ﷺ أن يتصرف فيها بطريقته ، وأن بيت مال المسلمين أحق بها لينفق منها فى الجهاد وغيره من المصلحة العامة . لعل كل ذلك وغيره من الأسباب (٧٧) جعل عمر يرد هذه الطعم لبيت مال المسلمين ويوقف توارثها . والمعروف أن الخمس كان الرسول ﷺ ينفق منه على الفئات التى حددتها الآية الكريمة : ﴿ واعلَموا أنَّما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير ﴾ .(٧٨)

أما بعد أن أصبح ورثة ذوى القربى فى وضع معيشى مريح ، فأنه من الممكن توجيه هذا الخمس لمصلحة المسلمين العامة . والجدير بالذكر أن الخليفة عمر لم ينفرد بهذا الرأى ، فقد تبعه على ذلك الخليفة عثمان بن عفان الذى رفض أيضًا نقض ما اتخذه عمر فى شأن الطعمة(٧٩) .

ومما يدعم قولنا أن إجراءات الخليفة عمر قد تمت فى الغالب فى أواخر عهده ، وأن عمر عندما عزم على إخراج اليهود من خيبر وفدك ، أثبت لأصحاب الطعم الأخرين ولبعض ورثة من توفى منهم حقهم فيها . وعلى ضوء ذلك فإنه من المؤكد أن الخليفة عمر لم يتعرض لما ناله المسلمون الآخرون الذين اشتركوا فى غزوة خيبر من أرض أو إنتاج ، لأن هذا أساسًا حقهم ويختلف عن وضع الخمس . ولذلك لم نسمع أن الخليفة عمر منع أحدا من هؤلاء المسلمين من التصرف فى حقه ببيع أو شراء ، أو حال دونه ودون ورثته ، كما سنرى عندما نأتى للحديث عن الأسباب التى أدت لإخراج اليهود من الحجاز .

أما الان فننتقل للحديث عن صلح فدك واتفاق الرسول ﷺ معهم ومع يهود تيماء ووادى القرى ، لأنها تمت أثناء غزوة خيبر أو عقبها مباشرة فاعتبرت مكملة لغزوة خيبر .

أمر فدك ووادى القرى وتيماء :

جاء فى كتاب المغازى للواقدى أنه " لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها بعث محيصة بن مسعود إلى فدك يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم أن يغزوهم كما غزوا أهل خيبر ويحل بساحتهم " فذهب إليهم محيصة وأقام عندهم يومين لإقناعهم بقبول الصلح . ولكن يبدو أنهم كانوا يؤملون فى أن يفشل المسلمون فى فتح خيبر لما فيها من رجال وحصون وسلاح . غير أنهم لم يلبثوا أن عدلوا عن رأيهم بعد أن بدأت أخبار أولى الانتصارات التى حققها المسلمون فى خيبر تصل إلى مسامعهم . ففت ذلك فى أعضادهم ووافقوا على أن يبعثوا مع محيصة رجالاً منهم يأخذون لهم الصلح من الرسول ﷺ . فعرضوا على الرسول ﷺ أن يخرجوا من بلادهم ولا يكون للنبى ﷺ عليهم من الأموال شئ ، وإذا كان جذاذها جاءوا فجذوها . فأبى النبى ﷺ أن يقبل ذلك . وعرض عليهم من جانبه أن يحقن دماءهم ويجليهم ويخلو بينه وبين الأموال(٨٠) .

وقد لعب محيصة بن مسعود دورًا بارزًا فى الوصول إلى حل وسط ، فنصح يهود فدك بقبول الصلح لأن وضعهم ضعيف وليست لهم منعة ولا رجال ولا حصون . وبالفعل تم الصلح بين الرسول ﷺ وبينهم أن لهم نصف الأرض بتربتها ، ولرسول الله ﷺ نصفها ، فأقرهم الرسول ﷺ على ذلك ولم يغزهم . وبقى هذا الاتفاق ساريًا حتى خلافة عمر بن الخطاب . وسنرى فيما بعد ما فعله الخليفة عمر مع يهود فدك وغيرهم من يهود الحجاز وأطراف الشام المتاخمة للحجاز .

وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من فتح خيبر عزم على المسير إلى وادى القرى التى كان بها أيضًا مجموعات من اليهود . فلما وصل هو والمسلمون إلى هناك أظهر اليهود المقاومة . وكان قد انضم إليهم أناس من العرب فبادروا برمى المسلمين بسهامهم . ولكن على الرغم من ذلك فإن الرسول ﷺ عرض عليهم الإسلام ، وأنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله . فرفضوا هذا العرض ، وخرج منهم رجال يدعون للمبارزة ، فتصدى لهم رجال من المسلمين وتغلبوا حتى قتل من اليهود أحد عشر رجلاً . ولم يطل القتال كثيرًا، ففى صبيحة اليوم التالى تمكن الرسول ﷺ والمسلمون من فتح وادى القرى عنوة ، وغنم منهم أموالاً وأثاثًا ومتاعا كثيرًا ، فقسم الغنائم على أصحابه ، وترك النخل والأرض بأيدى اليهود وعاملهم عليها(٨١)

ومع أن الوقدى لم يوضح طبيعة الاتفاق بدقة ، إلا أنه فى الغالب كان شبيهًا باتفاق الرسول ﷺ مع يهود خيبر وفدك ، أى على المناصفة للمحصول ، وربما للأرض كذلك .

أما يهود تيماء فإنهم عندما بلغتهم أخبار انتصارات الرسول ﷺ على خيبر وفدك ووادى القرى ، فضلوا أن يصالحوه قبل أن يسير إليهم ، فصالحهم الرسول ﷺ على الجزية ، وهو مبلغ محدد من المال أو جزء متفق من محصولهم يؤدونه فى

مقابل احتفاظهم بأموالهم وأراضيهم . وظل اتفاقهم هذا سارى المفعول حتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، كما سنرى بعد قليل .

أما الآن ، وبعد أن رأينا ما حدث من غزو الرسول ﷺ لخيبر ووادى القرى وما نتج عنه من اتفاقات بينه وبين أهاليهما وأهالى فدك وتيماء من اليهود ، ننتقل للحديث عن تعديات يهود خيبر على بعض المسلمين فى عهد الرسول ﷺ ثم فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وما نتج عنها .

تعديات يهود خيبر على المسلمين ونتائجها :

١ - في عهد الرسول ﷺ :

كان أول اعتداء يقع من يهود خيبر على رجل من المسلمين بعد حوالى عشرة أشهر من غزوة خيبر ، لأن هذه الغزوة كانت فى ملطلع عام ٧هـ وحدث الاعتداء عندما كان الرسول ﷺ يستعد لعمرة القضية فى شهر ذى القعدة من نفس العام . والذى حدث هو أن بعض المسلمين ، وفيهم محيصة(٨٢) وعبد الله بن سهل خرجوا إلى خيبر بسبب ما أصابهم من جهد ومجاعة بالمدينة ، وأخذوا ينتقلون ما بين مزارع الشق والنطاة إلى أن استقر بهم المقام فى الكتيبة حيث وجدوها خيرًا لهم قاموا بها أيامًا (٨٣) . ثم عن لأحدهم ، وهو عبد الله بن سهل ، أن يذهب بمفرده إلى الشق رغم تحذير صاحب له من اليهود فلما استبطأ قدومه غدا فى أثره يسأل عنه حتى الشق فأخبره بعض أهلها أنه مر بهم حين غابت الشمس يريد النطاة ، فذهب إلى هناك ، ولكنه لم يجد له أثرًا ، إلى أن دله غلام يهودى على مكانه ، فوجده وقد قتل وألقيت جثته فى جب . فاستعان ببعض اليهود على إخراجه من الجب ثم كفنه ودفنه ، وخرج سريعا إلى المدينة فأخبر قومه الخبر . فخرج مع محيصة ثلاثون رجلاً منهم أخوه حويصة ، وعبد الرحمن بن سهل أخو القتيل ، وذهبوا إلى الرسول ﷺ . وكان الخبر قد بلغه ، فأخبروه أنهم

يتهمون اليهود بقتل عبد الله بن سهل فكتب النبى ﷺ إليهم فى ذلك ولكنهم انكروا التهمة ، فقال الرسول ﷺ لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن ولمن معهم : تحلفون خمسين رجلاً خمسين يمنيًا بالله أنهم قتلوا صاحبكم وتستحقوا الدم ، فقالوا: يا رسول الله لم نحضر ولم نشهد . فقال الرسول ﷺ لهم : تحلف لكم اليهود خمسين رجلاً خمسين يمنًا بالله ما قتلوه . فقالوا : يا رسول الله كيف نقبل إيمان قوم كفار . ويقال إن الرسول ﷺ جعل دينه على اليهود لأنه قتل بحضرتهم ولكنه أعانهم ببضعة وثلاثين بعيرًا(٨٤) .

فكان هذا أول اعتداء يحدث من اليهود بخيبر بعد الغزوة ، وقد استطاع الرسول ﷺ أن يجد حلاً للمشكلة وعالجها بطريقة حكيمة ، واعتبرها فى الغالب حادثًا فرديًا ، ولكن هل ارعوى اليهود واعتبروا بهذه المعاملة الكريمة ؟ الواقع أنهم لم يفعلوا .

٢ - فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب :

وقع الاعتداء الثانى على المسلمين فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان المعتدى عليه هذه المرة ابنه عبد الله بن عمر ، الذى كان قد خرج هو والزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى أموالهم بخيبر يتعاهدونها ، حيث اعتاد الخليفة أبو بكر ، ومن بعده عمر أن يبعثا إلى خيبر من يطلع على أراضيهم وينظر فى أمرها . فلما قدم عبد الله وصحبه إلى خيبر تفرقوا للقيام بهذه المهمة ، فوقع الاعتداء على عبد الله بن عمر ليلاً وهو نائم ، حيث صرعت يداه ، أى جذبتا جذبًا عنيفًا إلى الخلف حتى أصبحتا وكأنهما موثوقتان ، فأصلحهما أصحابه ، وقدم عبد الله المدينة وأخبر أباه بما صنع به(٨٥) والحقيقة أننا لا ندرى ماذا فعل عمر إزاء ذلك ولكنه فى الغالب سكت عن هذا الحادث لأن أحدًا لم يقتل .

غير أن اعتداء ثالثًا وقع على رجل مسلم يدعى مظهر بن رافع الحارثى ، وكان قد أقبل من الشام بعشرة أعلاج(٨٦) يعلمون له فى أرضه ، فجاء بهم إلى خيبر . وبعد أن مكث ثلاثة أيام دخل عليهم رجل من اليهود فقال : " أنتم نصارى ونحن يهود وهؤلاء قوم عرب قد قهرونا بالسيف ، وأنتم عشرة رجال ، أقبل رجل واحد منهم يسوقكم من أرض الخمر والخير إلى الجهد والبؤس ، وتكونون فى رق شديد ، فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه . قالوا : ليس معنا سلاح. فدسوا إليهم سكينتين أو ثلاثة . قال : فخرجوا فلما كانوا بثبار (٨٧) قال لأحدهم ، وكان الذى يخدمه منهم : ناولنى كذا وكذا . فأقبلوا إليه جميعا وقد شهروا سكاكينهم ، فخرج مظهر يعدو إلى سيفه ، وكان فى قراب راحلته . فلما انتهى إلى القراب لم يفتحه حتى بعجوا بطنه ، ثم انصرفوا سراعًا حتى قدموا خيبر على اليهود فآووهم وزودوهم وأعطوهم قوة فلحقوا بالشام(٨٨) .

وصلت أخبار هذا الاعتداء إلى الخليفة عمر فخطب فى الناس وأخبرهم باعتداء اليهود على مظهر بن رافع وقتلهم إياه ، واعتدائهم من قبل على عبد الله ابن عمر ، كما أعاد إلى الأذهان الجريمة التى ارتكبوها فى عهد الرسول ﷺ عندما قتل عبد الله بن سهل فى خيبر . وقال عمر إنه لا يشك فى أن اليهود هم الفاعلون لأنه ليس للمسلمين هناك عدو غيرهم . وقد قرر عمر الخروج بنفسه إلى خيبر لإخراج اليهود منها وتقسيم أراضيها وتسليمها لأصحابها .

كان الخليفة عمر يعلم أن الرسول ﷺ عندما صالح يهود خيبر وترك لهم الأرض يزرعونها بالمناصفة ، قال لهم : أقركم ما أقركم الله ، ومعنى ذلك أنه قد يحين وقت يأمرهم فيه هو أو أحد خلفائه بالخروج من خيبر . وكان مما قوى من موقف الخليفة عمر أنه بلغه أن الرسول ﷺ قال فى مرضه الذى توفى فيه : " لا يجتمع بجزيرة العرب دينان"(٨٩) ففحص عن ذلك عمر حتى وجد عليه الثبت من لايتهم، فأرسل إلى يهود الحجاز أن الله قد أذن فى جلائهم ، فمن كان له منهم

عهد عند الرسول ﷺ فهو قاضيه له . وقد سرى قرار عمـر بإخراج اليهـود على يهود خيبر وفدك فقط، و لم يخرج يهود تيماء ووادى القرى لأنهما داخلتان فـى أرض الشام ، وكان عمر يرى أن ما دون وادى القرى إلى المدينة حجاز ، وأن ما وراء ذلـك من الشام(٩٠) .

إعادة تقسيم خيبر فى عهد الخليفة عمر :

عندما اتخذ الخليفة عمر قراره بإخراج اليهود من خيبر ، كـان لابـد لـه مـن إعادة تقسيم الأنصبة فيها على أساس الاتفاق الذى عقده الرسـول ﷺ مـع اليهـود هناك ، حيث أنه بخروج اليهود يصبـح هـذا الاتفـاق لاغيًـا وتنتهـى بذلـك مسـألة المناصفة التى كان اليهود بمقتضاها يحصلون على نصف إنتـاج خيـبر مـن المحـاصيل الزراعية . فخرج عمر إلى خيبر مصطحبًا معه أربعة قسَّـام (أى الأشـخاص الذيـن سيتولون التقسيم) وهم فروة بن عمرو البياضى ، وحباب بن صخر السلمى ، أبو الهيثم بن التيهان ، وزيد بن ثابت. وفى رواية أخـرى أن الخليفـة عمرصحـب معـه رجلين من القسـام همـا جبار بـن صخـر وزيـد بـن ثـابت ، وهمـا قاسمـا المدينـة وحاسباها(٩١).

وقد جاء تقسيم عمر متفقًا مع تقسيم الرسـول ﷺ ، فجـزأ أراضـى الشـق والنطاة على ثمانية عشر سهمًا ، ثلاثة عشر سهمًا منها فى الشق ، وخمسـة أسـهم فى النطاة ، وسمى رؤساء هذه الأسهم فجاءت على النحو الذى ذكرنا من قبل .

أما بالنسبة لكتيبة ، وهى خمس الرسول ﷺ ، فيقـال إن الخليفـة عمـر خـير أزواج النبى ﷺ فى طعمهن التى أطمعنهن الرسول ﷺ فى الكتيبـة ، إن أحبـبن أن يقطع لهن من الأرض والماء طعمهـن ، أو يمضـى لهـن الوسـوق (أى نصيبهـن مـن المحصول) وتكون مضمونة لهن ، فكانت عائشـة وحفصـة رضـى الله عنهمـا ممـن اختار الأرض والماء ، وكان سائرهن أخذن الوسـوق مضمونـة (٩٢) . ويظهـر ممـا

روى عن السيدة عائشة أن من اختارت الأرض والماء كان اختيارها موفقًا أكثر ممن اختزن الطعم ، إذا يبدو أن مروان بن الحكم ، عندما أصبح واليًا على المدينة من قبل معاوية بن أبى سفيان ، لم يلتزم إلتزامًا تامًا بحق أصحاب الطعم ، فكان مرة يعطيهم ومرة ينقصهم ومرة لا يعطيهم شيئًا .(٩٣)

وهناك رواية أخرى تقول إن عمر خير الناس كلهم فمن شاء أخذ الطعمة كيلاً ومن شاء أخذ الماء والتراب ، كما أنه أذن لمن شاء أن يبيع نصيبه . وقد قام البعض بالفعل ببيع نصيبه ، ومن هؤلاء الأشعريون الذين باعوا نصيبهم ، وهو مائة وسق ، من عثمان بن عفان بخمسة آلاف دينار . كما باع الرهاويون نصيبهم من معاوية بن أبى سفيان بمثل ذلك(٩٤) ولكن فى الغالب أن البيع لعثمان ومعاوية تم أثناء خلافة كل منهما ، وبذلك يوحى الثمن الذى بيع به مائة وسق ، لأنه مهما عل السعر فإنه لن يبلغ هذا الحد فى خلافة عمر بن الخطاب .

إعادة تقسيم وادى القرى :

وبعد أن فرغ الخليفة عمر من خيبر توجه ومعه القسام الأربعة السابق ذكرهم إلى وادى القرى ، فقسموها على أعداد السهام . والحقيقة أن ما جاء فى المصادر عن وادى القرى والكيفية التى تعامل بها الرسول ﷺ مع أهله مقتضب جدًا وليس واضحًا تمامًا . ففى الوقت الذى ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ عندما فرغ من خيبر انصرف إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم انصرف راجعًا المدينة دون أن يشير إلى أن الرسول ﷺ فتح وادى القرى أو اتفق مع أهله على العمل بالأرض نظير جزء من محصولها ، نجد الواقدى يقول إن الرسول ﷺ فتح وادى القرى عنوة فغنمة الله أموالهم وأثاثًا ومتاعًا كثيرًا ، فقسم الرسول ﷺ الغنائم بين أصحابه خلال الأيام الأربعة التى أقامتها بوادى القرى . أما النخل والأرض فتركها بأيدى اليهود وعاملهم عليها.(٩٥)

ومهما يكن من أمر فإن رواية الواقدى لا تعطينا تفصيلاً عن هـذا الاتفـاق، هل كان مثلاً بالمناصفة مثلما كان مع يهـود خيـبر ، أم كـان شـبيهًا بالاتفـاق مـع يهود فدك ، أم أنه غير ذلك . وماذا عن نصيب المسلمين فى هذا الاتفاق ؟ هل تم توزيعه على المقاتلة مثلما حدث فى خيبر ؟ وهل تم إخراج الخمس من ذلك ؟ هذه كلها أسئلة لا تجد لها إجابة ، وقد انعكس عدم الوضوح هذا على التقسيم الـذى أجراه الخليفة عمر فيما بعد فى وادى القرى. فهنا نجد الحديث عن تسمية جديدة، فبدلاً عن طعمة ورد لفظ " خطر " الذى عرفه الواقدى بأنه يعنى السهم . أما ابـن هشام فقد ذكر أيضًا هذه التقسيمات ، مع العلم بأنـه لم يشـر إليهـا مـن قبـل فـى حديثه عن مسير الرسول ﷺ إلى وادى القرى ، أما الخطـر فقـد فسـره ابـن هشـام بأنه النصيب.(٩٦)

أضف إلى ذلك أنه مما يزيد فى الغموض أن هـذه التقسيمات شملـت أفـرادًا بعضهم كان له نصيب فى خيبر والبعض الآخر لم يرد لـه ذكـر فـى قائمـة أسـهم خيبر . وكان عدد هذه الأخطار (إن جازلنا أن نجمعهـا هكـذا) ثمانيـة وعشـرين خطرًا ، وزعت على ثلاث وثلاثين شخصًا ، حيث نال بعضهم نصف خطر بينمـا اشتراك البعض ، كل اثنين منهم فى خطر .

الخاتمـــة :

كانت غزوة خيبر خاتمة لسلسلة من المعارك التى خاضتهـا الأمـة الإسـلامية ضد يهود الحجاز ، بدءًا بيهود المدينة (بنى قينقاع وبنى النضـير ، وبنـى قريظـة) وانتهاء بيهود خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى . فبعد أن أخرج الرسول ﷺ يهود بنى النضير من المدينة ، توجه معظمهم ، وعلى رأسهم زعماؤهم ، إلى خيبر فـدان لهم يهودها على كثرة أعدادهـم وقلـة بنـى النضـير ، فـأصبحت خيـبر ، بسـكانها وحصونها وأراضيها الخصبة ومزراعهـا ، تشـكل قـوة حربيـة واقتصاديـة واضحـة المعالم . وليت اليهود فى خيـبر انصرفـوا لمـا فيـه مصلحتهـم ومصلحـة جـيرانهم ،

وبخاصة الأمة الإسلامية ، ولكنهم بدأوا يستغلون أموالهم فى محاربة الإسلام والمسلمين ، فكان تأليبهم للأحزاب فى غزوة الخندق .

وقد أدرك الرسول ﷺ مدى الخطر الذى أصبح يشكله يهود خيبر على الأمة الإسلامية الناشئة ، فكان هذا من أهم الأسباب المؤدية لغزوهم .

وكان توقيت غزوة خيبر أيضًا مناسبًا جدًا ، حيث أن الرسول ﷺ قبل ذلك بقليل كان قد عقد اتفاقية الحديبية مع قريش والتى اتفق فيها على هدنة بين الجانبين لمدة عشر سنوات . وبذلك أصبحت قريش مقيدة بتلك الاتفاقية ولا تستطيع أن تمد يد العون لحلفائها من اليهود .

ومن الأسباب لغزوة خيبر أيضًا أن الله وعد رسوله خيبر أن يغنمها له لتكون مكافأة للملسمين الذين خرجوا مع الرسول ﷺ إلى الحديبية وبايعوه بيعة الرضوان . وإننا لنجد فى انتصار الرسول ﷺ والمسلمين على اليهود فى خيبر تصديقًا لهذا الوعد . فإذا حكمنا العقل المنطق دون غيرهما وتساءلنا : كيف يمكن لنا أن نفسر انتصار ألف وأربعمائة رجل على عشرة آلاف رجل من اليهود مدججين بالسلاح فى حصون على ذرى الجبال يتوفر فيها الماء والطعام ، بخلاف أنه نصر من الله ؟هذا هو تفسيرنا من وجهة نظر باحث مسلم ، فلينظر من يرى غير هذا ليجد ما يبرر به هزيمة اليهود فى خيبر وهم بهذه الكثرة والقوة .

أما رأينا حول هزيمة اليهود فيتمثل أيضًا فيما وصفهم به القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ .(٩٧)

والحقيقة أن ما جاء فىالآية الكريمة ينطبق تمامًا على وضع وأحوال يهود خيبر . فبالإضافة إلى حصونهم واحتمائهم بها فهناك الكثير من قرائن الأحوال التى نستخلصها من أخبار غزوة خيبر ما يؤكد لنا ذلك :

١ - أولها أنه على الرغم من إظهار يهود المدينة تعاطفهم مع يهود خيبر إلا أن هناك عشرة من اليهود اشتركوا مع الرسولﷺ فى غزوة خيبر إلى جانب المسلمين ، مما يؤكد أن هناك فئة منهم لا تؤيد يهود خيبر .

٢ - أما يهود خيبر أنفسهم ، فرغم مظاهر القوى والحدة التى بدت منهم إلا أنهم كانوا من بداية أمرهم مختلفين ، فبعضهم كان يرى الخروج لمواجهة المسلمين بينما رأى البعض الآخر البقاء داخل حصونهم .

٣ - عندما وصل الرسولﷺ إلى جهات خيبر خرج رجل من اليهود يدعى سماك وجاء إلى معسكر المسلمين وطلب من الرسولﷺ أن يأمنه ، ففعل ، فأخبره بعورات اليهود وخوفهم منه ، وأطلعه على المكان الذى خبأوا فيه بعض سلاحهم .كما نقل إليه خبر انسحاب بنى غطفان من خيبر وتركهم مساعدة حلفائهم من اليهود . وعندما فتح الرسولﷺ الحصن الذى فيه الذرية رد لهذا اليهودى زوجته ، وتدعى نفيلة .

٤ - رجل آخر من اليهود يدعى غزَّال خرج للرسولﷺ وبعد أن أمنه على حياته كشف له ثغرة فى حصن الزبير مما مكان المسلمين من فتحه .

٥ - عندما تداعت معظم الحصون ولم يبق إلا حصن آل أبى الحقيق وأيقن كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق بالهكلة ، أرسل رجلاً إلى الرسول ﷺ ليصالحه ، فوافق الرسول ﷺ على ذلك ونزل إليه كنانة ، فكان من شروط صلحه ألا يخبئ عنه شيئًا خاصة فيما يتعلق بأموالهم وكنوزهم ، فادعى كنانة أنهم أنفقوها جميعًا فى حربهم ، فأشهد الرسول ﷺ جماعة من الصحابة وعشرة من اليهود على ذلك . ويقال إن أحد اليهود قام فقال لكنانة : إذا كان عندك ما يطلب منك محمد أو تعلم فأعلمه فإنك تأمن على دمك ، وإلا فوالله ليظهرن عليه ، قد أطلع على غير ذلك بما لم نعلمه ، فزبرة .(أى زجرة) ابن أبى الحقيق فتنحى اليهود فقعد .

٦ - وكانت المفاجأة أن الذى كشف للرسول ﷺ المكان الذى أخفى فيه كنانة الكنز هو ابن عمه ثعلبة بن سلام بن أبى الحقيق .

٧ - شئ آخر يشير إلى أن يهود خيبر لم يكونوا قلبًا وقالبًا خلف زعمائهم ، وهو أنه بمجرد أن انتهت المعارك وبدأت حركة بيع وشراء الغنائم نجد اليهود الذين أمنهم الرسول ﷺ يشتركون مع غيرهم من المسلمين فى بيع وشراء غنائم خيبر ، وكأنها لم تكن لهم ولقادتهم .

من كل ذلك نستطيع أن نستشف أن يهود خيبر لم يكونوا على وفاق مع زعمائهم من بنى أبى الحقيق وبخاصة كنانة ، ولعلهم كانوا يحقدون علهيم استئثارهم بالثروة ويحسدونهم على مكانتهم السياسية والاجتماعية . ولعل كنانة أيضًا لم يكن بالزعيم المحبوب ، وليس أدل على ذلك من موقفه مع زوجته ؛ فيقال إنه تزوج صفية بنت حيى بن أخطب وأعرس بها قبل قدوم الرسول ﷺ بأيام وقد حكت هى أنها رأت فى النوم كأن قمرًا أقبل من يثرب يسير حتى وقع فى حجرها فلما ذكرت ذلك لكنانة لطم عينها حتى أخضرت وقال لها : ما هذا إنك تمنين مَلك الحجاز محمدا(٨٩) .

والمعروف أن الرسول ﷺ استصفى صفية لنفسه وتزوجها فأصبحت من أمهات المؤمنين .

* * *

أما ما نستخلصه من نتائج عن الترتيبات المالية التى تمت نتيجة لغزوة خيبر فيمكن أن نصوغه على النحو التالى :

- كانت أراضى خيبر أول أرض يحصل عليها المسلمون خارج حدود المدينة لقد هيأت أراضى خيبر الزراعية الخصبة ومزارع نخيلها مصدرًا غذائيًا هامًا

للمسلمين فى هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية بما تنتجه من تمر ومحاصيل زراعية .

- نظرًا لانشغال المسلمين بالجهاد ولعدم توفر العمال عند المسلمين فى ذلك الوقت ، فإن الرسولﷺ وافق على أن يترك هذه الأراضى لليهود يزرعونها بالمناصفة ، أى أن يكون نصف إنتاجها للمسلمين ونصفه لليهود .
- من الواضح أن تقسيم الرسولﷺ لخيبر كان يعنى تقسيم الإنتاج الزراعى وليس الأرض لأن التقسيم الذى أورده المؤرخون يتحدث عن أنصبة بالمكيال وليس عن مساحة أرض .
- استمر العمل بالترتيب الذى وضعه الرسولﷺ حتى نهاية خلافة أبى بكر الصديق وصدر خلافة عمر بن الخطاب . وعندما عزم الخليفة عمر على إخراج اليهود قام بإعادة التقسيم . ويبدو أن عمر هذه المرة قسم الأرض لأنه اصطحب معه إلى خيبر قسَّام المدينة وحاسبيها وهم أشخاص مختصون فى هذه المسائل .
- هناك ما يشير إلى أن الخليفة عمر قسم الأرض بين مستحقيها وورثتهم ، لأنه خير نساء الرسولﷺ بين الطعمة مضمونة وبين الأرض ، فاختار البعض منهن الطعمة ، والبعض الآخر اختار الأرض .
- عندما فتح المسلمون العراق والشام ومصر أراد الذين اشتركوا فى فتحها من الخليفة عمر بن الخطاب أن يقوم بتقسيم هذه الأراضى الزراعية عليهم كما قسم الرسولﷺ خيبر ، حسب زعمهم . غير أن الخليفة عمر لم يكن موافقًا على هذا الطلب ، وكان يرى أن تترك هذه الأراضى فى أيدى الفلاحين فى البلاد التى فتحها المسلمون يزرعونها ويؤدون عنها الخراج . وقد وافقه على

رأيه ذلك عدد من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار مما قوى من موقفه وقرر عدم تقسيمها .(٩٩)

وهكذا فإن الترتيب الذى وضعه الرسولﷺ فى خيبر أصبح نموذجا يحتذى فى كيفية التعامل مع أراضى البلاد التى فتحها المسلمون فيما بعد ، لأن الرسولﷺ فى واقع الأمر لم يقسم أرض خيبر وإنما قسم إنتاجها . وكان استعماله لليهود فيها بالمنصافة إجراءً مؤقتا زال بزوال أسبابه ، فجاء الخليفة عمر فأخرج اليهود منها ، وكان عمر فى الحقيقة هو الذى قسم أراضى خيبر وحدد حدودها . ولعله أدرك أن هذا الإجراء لا يمكن أن يتبع فى الأراضى الشاسعة التى امتلكها المسلمون فى البلاد المفتوحة ، لأنه لو قسمها عليهم لما وجد من جاء بعدهم شيئًا، فوفق الله عمر لهذا الرأى السديد .

ونختم حديثنا بتعليق للأستاذ الريس حول هذا الموضوع حيث يقول : "كان هذا قرارًا بالغ الخطورة ، فيه أصبحت الأراضى التى فتحها المسلمون ، وكذلك ما يمكن أن يفتحوه بعد ، أصبحت فيئًا موقوفًا ، أى ملكًا عامًا للأمة الإسلامية كوحدة بجميع أجيالها بدل أن تكون ملكا متقاسمًا بين الأفراد يتداولونه ويرثه الأبناء عن الآباء " (١٠٠) .

الهوامش

(١) الواقدى ، محمد بن عمر : " **كتاب المغازى** " ، ٣ أجزاء ، تحقيق مارسدن جونز ، آكسفورد (١٩٦٦) ، الجزء ٢ ، ص ص٦٣٢ - ٧٢١ . ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك : "**السيرة النبوية** " ، الطبعة الثانية ، ٤ أجزاء ، بيروت ، دار الكتاب العربى (١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م) ، الجزء ٣، ص ص ٢٧٥ - ٣٠٦ . ابن سعد ، أبو عبد الله محمد : " **كتاب الطبقات الكبرى** " ٨ أجزاء ، بيروت ، دار صادر (١٩٦٠) الجزء ٢ ص ص ١٠٦ - ١١٧ . ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا اسماعيل : " **السيرة النبوية** " ٤ أجزاء ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه (١٣٨٤ هـ/١٩٦٤) الجزء ٣ ص ص ٣٤٤ - ٤١٦ .

الحقيقة أن ما كتبه الواقدى عن غزوة خيبر لا يدانيه فيه أحد ممن كتب فى السير والمغازى وإن الإنسان ليقف بكل فخر وإعجاب أمام ما أورده هذا المؤرخ الكبير من مادة غزيرة وتفاصيل دقيقة عن هذه الغزوة وغيرها من الغزوات .

(٢) خيبر : وهى ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام . يطلق هذا الاسم على الولاية، وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير . أما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن ، ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر ، وخيابر جمع خيبر ، كأنها جمعت بما حولها . (انظر : ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله : " **معجم البلدان** "، ٥ أجزاء ، بيروت ، دار صادر (١٣٩٧هـ/١٩٧٧) ، الجزء ٢ ، ص٤٠٩.

(٣) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة (ياقوت : معجم ، الجزء ٤، ص ٢٣٨) .

تيماء : بليد فى أطراف الشام ، بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام ودمشق (ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص٦٧) .

وادى القرى : وهو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة (ياقوت :معجم ، الجزء ٥ ص٣٤٥).

(٤) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٢ ، ص ص ١٤٣ - ١٤٦ . أورد نص الصحيفة أيضًا، مع الشرح والتعليق : أبو عبيد ، القاسم بن سلام : " **كتاب الأموال** " ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد خليل هراس ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، (١٣٨٨ - ١٩٦٨) ، ص ص ٩٠ - ٢٢٩٧ ، وكذلك أوردها ابن كثير : السيرة النبوية ، الجزء ٢ ، ص ص ٣٢٠ - ٢٣ .

(٥) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٢ ، ص ص ١٤٤ - ١٤٥ .

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا اسماعيل : " **البداية والنهاية** " ، الطبعة الأولى ، ٢٤ جزءًا ، بيروت ، مكتبة المعارف ، الرياض ، مكتبة النصر ، (١٩٦٦) الجزء ٤ ، ص٧٦. ابن كثير : السيرة النبوية : الجزء ٣ ، ص ١٤٧ .

(٦) انظر ابن كثير : السيرة النبوية ، الجزء ٣ ، ص ٣٧١ .

(٧) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٦٦ - ١٦٧ . ابن سعد : الطبقات ، الجزء ٢ ص ص ٦٥ - ٦٦ . ابن كثير : البداية والنهاية ، الجزء ٤ ، ص ٩٤ . كذلك ابن كثير: السيرة النبوية ، الجزء ٣ ، ص ١٨١ -٨٢ .

(٨) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٦٧ - ١٧١ - ٧٢ .

(٩) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٧٢ - ٧٣ .

(١٠) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ١٨٦ ، ١٩٠ - ٩١ .

(١١) ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٢٠٣ .

(١٢) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ . ابن هشام السيرة، الجزء ٣ ، ص٢٧٩.

(١٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٧ .

(١٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٧ . ابن هشام السيرة،الجزء ٣ . ص٣٧٨.

(١٥) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ . الودك : الدسم معروف ، وقيل دسم اللحم ... ودهنه الذى يستخرج منه (ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : " **لسان العرب** "، ١٥ جزءًا/بيروت ، دار صادر (١٣٨٨ / ١٩٦٨) ، الجزء ١٠ ، ص ٥٠٩.

(١٦) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ .

(١٧) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٤ .

(١٨) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٣٤ ، ٦٣٧ .

(١٩) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٤١ .

(٢٠) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٣٧ .

(٢١) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٤١ .

(٢٢) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٤٠ .

(٢٣) انظر الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٣٧ - ٣٨ .

(٢٤) الواقدى: المغازى، الجزء ، ص ص٦٤٢-٤٣ ابن هشام: السيرة ، الجزء٣، ص٢٧٧

(٢٥) ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص١٧٤ - ٧٥

غطفان بن سعد : بطن من حرام بن جذام ، من كهلان من القحطانية ، وهم بنو غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام " انظر كحالة ، عمر رضا : " **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة** " ، ٣ أجزاء ، بيروت ، دار للملايين ، (١٣٨٨ -١٩٦٨) ، الجزء٣، ص٨٨٩ .

(٢٦) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٤٠ ، ٦٤٢.

(٢٧) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٣٩ - ٦٥٠.

(٢٨) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٥٠ - ٥١ .

النطاة : قيل : هو اسم لأرض خيبر ، وقال الزمخشرى : نطاة حصن بخيبر ، وقيل عين بها تسقى بعض نخيل قراها وهى وبئة (انظر ياقوت : معجم ، الجزء ٥، ص ٢٩١) .

(٢٩) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٣٠) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٤٦ ، ٦٥١ . وكان الذى حمل خبر خروج غطفان ورجوعهم إلى بلادهم للرسولﷺ أحد اليهود .

(٣١) حيفاء : موضع بالمدينة ، منه أجرى النبىﷺ الخيل فى المسابقة (ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٣٣٢) .

(٣٢) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٦٥ .

(٣٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٧٥ - ٧٦ وذو الرقيبة جبل بخيبر .

(٣٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٧٠١ ٢ . انظر الهامش رقم (٢) لشرح خيابر .

(٣٥) الثنية البيضاء : عقبة قرب مكة تهبطك إلى فخ وأنت مقبل من المدينة تريد مكة، أسفل مكة من قبل ذى طول (ياقوت : معجم الجزء ٢ ، ص ٨٥).

(٣٦) يريدون بذلك ، لعنهم الله ، الرسول ﷺ .

(٣٧) اللبطة : أن يضرب البعير بيديه ، ولبطه البعير يلبطه لبطا : خبطه واللبط باليد كالخبط بالرجل (ابن منطور : لسان ، الجزء ٧ ، ص ٣٨٨) .

(٣٨) المنة : بالضم ، القوة منظور : لسان ، الجزء ١٣ ، ص ٤١٥) .

(٣٩) انتثل : أى استخرج (ما فيها من أموال) (ابن منظور : لسان ، الجزء١١ ، ص٦٤٥) .

(٤٠) بطانية ، محمد ضيف الله : " فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الجزء الثانى : الحياة الاقتصادية فى صدر الإسلام " عمان ، الأردن الفرقان ، (١٤٠٧/١٩٨٧) ص٥٩. العمرى ، أكرم ضياء: بالمدينة المنورة المجلس العلمى (١٤٠٣ / ١٩٨٣) ، ص١٧١

(٤١) الشق : من حصون خيبر (ياقوت ، الجزء ٣ ، ص ٣٥٥) .

الكتيبة : وهو حصن من حصون خيبر (ياقوت: معجم، الجزء ٤ ،ص٤٣٧)

وادى السرير : ووادى خاص : (وفق رواية ابن إسحاق) وكان واديا خيبر، وادى السرير ووادى خاص ، وهما اللذان قسمت عليهما خيبر ، ووادى الكتيبة الذى خرج فى خمس الله ورسوله وذوى القربى وغيرهم (ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٣٣٨).

(٤٢) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٥١ .

(٤٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٥٦ - ٥٩ ، ٦٦٢ - ٦٤ .

(٤٤) العكم : عكم الثياب الذى تشد به العكمة . يقال : عكمت الثياب إذا شدت بعضها إلى بعض (ابن منظور : لسان ، الجزء ١٢ ، ص٤١٥) .

والبز : الثياب ، وقيل ضرب من الثياب ، وقيل البز من الثياب أمتعة البزاز ، وقيل البز متاع البيت من الثياب خاصة (ابن منظور : لسان ، الجزء ٥ ، ص ٣١٢) .

(٤٥) الدبابة : آلة من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه، وتقيهم ما يرمون به من فوقهم ، وسميت بذلك لأنها تدفع فتدب (ابن منظور : لسان، الجزء ١ ، ص ٣٧١) . أما المنجنيق فهو ما يعرف بالنار الإغريقية ، وهى عبارة عن حجارة مشتعلة تقذف من على بعد .

(٤٦) الواقدى : المغازى، الجزء ٢ ، ص٦٦٥ .

(٤٧) الواقدى : المغازى، الجزء ٢ ، ص٦٦٦ - ٦٧ .

(٤٨) الواقدى : المغازى، الجزء ٢ ، ص٦٦٩ .

(٤٩) الواقدى : المغازى، الجزء ٢ ، ص٦٦٩ .

(٥٠) فى الحديث أن الرسولﷺ صالح أهل خيبر على الصفراء والبيضاء والحلقة ، فالصفراء : الذهب ، والبيضاء : الفضة ، والحلقة : الدرع ، أما الكراع فقد تعنى البقر والغنم، وقد تعنى الخيل والسلاح ، وقد تعنى السلاح ، (انظر : ابن منظور : الجزء ٤ ، ص ٤٦٠ ن والجزء ٨ ، ص ٣٠٧) .

(٥١) الواقدى : المغازى، الجزء ٢ ، ص ٦٧٦ . ابن هشام السيرة ، الجزء ٣ ، ص٢٨٦.

(٥٢) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٧٣ .

الدملج والدملوج : المعضد من الحلى (ابن منظور : لسان ، الجزء ٢ ن ص ٢٧٦) الفتخة والفتخة : خاتم يكون فى اليد والرجل بفص وغير رفص ، وقيل هى الخاتم أيا كان ، وقيل هى حلقة تلبس فى الأصبع كالخاتم ، وكانت نساء الجاهلية يتخذنها فى عشرهن ، والجمع فتخ وفتوخ وفتخات ، وقيل الفتخة حلقة من فضة لا فص فيها ، فإذا كان فيها فص فهى الخاتم (ابن منظور : لسان ، الجزء ٣ ، ص ٤٠) .

(٥٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٠ .

(٥٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٤ .

(٥٥) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٩ . هناك رواية أوردها الواقدى تقول أن عدد الفرسان كان ثلثمائة فارس .

(٥٦) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٨-٤٣ . ابن هشام : السيرة ، الجزء٣، ص٢٩٨ . حول هذا الموضوع كتب أبو سيف (يعقوب بن إبراهيم : " **كتاب الخراج** " الطبعة الخامسة ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها (١٣٩٦) ، ص ٢٠) قال : " وكان الفقيه المقدم أبو حنيفة يقول : للرجل سهم وللفرس سهم ، وقال : لا أفضل بهيمة على رجل مسلم : " وما جاء من الأحاديث والآثار أن للفرس سهمين وللرجل سهم أكثر من ذلك وأوثق والعامة عليه ، ليس هذا على وجه التفضيل ... إنما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر وليرغب الناس فى ارتباط الخيل فى سبيل الله . ألا ترى أن سهم الفرس إنما يرد على صاحب الفرس فلا يكون للفرس دونه " ثم يضيف أبو سيف قائلاً : " فى الرجل يكون فى الغزو ومعه الأفراس ، قال : " لا يقسم له من الغنيمة لأكثر من فرسين " انظر أيضًا : القرشى ، يحى بن آدم : " **كتاب الخراج** " صححه وشرحه ووضع فهارسه أحمد محمد شاكر ، الطبعة الثانية ، المطبعة السلفية ومكتبتها (١٣٨٤ هـ) ص ص ١٨ - ١٩) وأيضًا : البخارى، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم : " **صحيح البخارى** " ثمانية أجزاء ، استنانبول ، تركيا ، الكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، (دون تاريخ) ، الجزء ٥ ، ص٧٩ .

(٥٧) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٤ .

(٥٨) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٤-٤٣ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣، ص ٢٨٦ . الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير : " **تاريخ الرسل والملوك** " تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، دار المعارف (دون تاريخ) ، الجزء ٣ ، ص١٩.

(٥٩) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٨٥ - ٨٧ . وفى راية أخرى للواقدين (ص٨٧) ص١٧ .

(٦٠) الأوضاح : حلى من الدراهم الصحاح (ابن منظور: لسان ، الجزء ٢، ص ٦٣٥).

(٦١) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٨٦ - ٨٧ ، ٦٨٨ .

(٦٣) هناك بعض الخلط وعدم الوضوح فيما أورده الواقدى عن هذه الأسهم ، فنجده فى مكان من كتابه (الجزء ٢ ، ص ٦٨٩ - ٩٠) يذكر أن الرسول ﷺ جعل النطاة والشق ثمانية عشر سهمًا فوضى (أى بدون تحديد) وكان كل سهم يضم مائة رجل وله رأس . ولكننا نجده فى نفس المكان يقول : " فكانت سهمان المسلمين التى أسلمها رسول ﷺ فى

النطاة أو فى الشق ثلاثة أسهم فوضى لم تعرف على عهد رسول الله ﷺ ولم تحج ولم تقسم " وليس واضحًا تمامًا العلاقة بين الثمانية عشر سهمًا التى ذكرها آنفًا وبين الثلاثة أسهم فى كل من النطاة والشق . أضف إلى ذلك إنه عندما عدد الأسهم وبعض رؤسائها (الجزء ٢، ص ٦٨٩ - ٩٠) ذكر أربعة رؤساء سهمان . بينما نجده فى مكان آخر (ص ص ٨١٧ - ١٩) يعدد مرة أخرى الأسهم ورؤساءها ، فنجد أن عددها هنا ثمانية عشر سهمًا لسلمة وسهم لعبيد السهام ، الذى لم يذكره فى المرة الأولى. ولعل تفسير ذلك أن عبيد هذا قد قام بشراء أسهم من كانوا يشتركون معه فى السهم الكبير بحيث أصبح كله باسمه ، وقد سمى عبيد السهام لكثرة ما اشترى منها (الواقدى ، الجزء ٢ ، ص ٧١٩) . أضف إلى هذا أن هناك بعض الخلط فى اسم الرجل اليهودى الذى كان له سهم فنجده مرة باسم عبيدة (ص ٦٩٠) ومرة أخرى باسم عبيد (ص٧١٩).

(٦٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٧١٨ - ١٩ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣، ص ص٢٩٧ - ٩٩ .

(٦٥) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٠.

(٦٦) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩١ - ٩٢ .

(٦٧) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩٢ - ٩٣ .

(٦٨) قال أبو سيف (الخراج ، ص ٥٤) أن الرسول ﷺ دفع خيبر إلى اليهود مساقاة بالنصف ، وكان يبعث إليهم عبد الله بن رواحة فيخرص عليهم ثم يخيرهم أى النصفين شاءوا أو يقول لهم : اخرصوا أنتم وخيرونى . انظر كذلك : يحى بن آدم : الخراج ، ص٢١ وأبو عبيد : الأموال ، ص ص ٧٩ - ٨٠ ، والبخارى : صحيح ، الجزء ٥ ، ص ٨٤ .

(٦٩) أصل الخرص : التظنى فيما لا تستيقنه ، ومنه خرص النخل والكرم إذا حرزت التمر لأن الحرز إنما هو تقدير بظن لا إحاطة ، والاسم الخرص بالكسر ، والخرص حرز ما على النخل من الرطب تمرًا (ابن منظور : لسان الجزء ٧ ، ص ٢١) . أما الوسق والوسق : مكيلة معلومة : وقيل هو حمل بعير وهو ستون صاعًا بصاع النبى ﷺ وهو خمسة أرطال وثلث (ابن

منظور : لسان ، الجزء ١٠ ، ص ٣٧٨) . انظر كذلك زلوم ، عبد القديم: " **الأموال في دولة الخلافة** " الطبعة الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، (١٩٨٣-١٤٠٣ هـ) ، ص ٦٣.

(٧٠) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢، ص ص٦٩١ - ٩٢ . ابن هشام : السيرة ، الجزء٣، ص٣٠٢ ذكر ابن هشام أن جبار بن صخر هو الذى خرص عليهم بعد مقتل ابن رواحة.

(٧١) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩٣ - ٩٥ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠ . ابن كثير : البداية ، الجزء ٤ ، ص ٢٠٠ .

(٧٢) انظر الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٥ . فى الغالب المقصود هنا " بجاد مائة وسق " أنه اعطاهم أو جاد عليهم بكذا .

أما الأشعر فهم من قبائل كهلان من القحطانية ... قدموا على النبى ﷺ فقال لهم : "نعم الحى ، والأشعريون لا يفرون فى قتال ولا يغلون ، هم منى وأنا منهم . وكانوا أول منتقض بعد انتقال النبى ﷺ سنة ١١هـ بتهامة فقاتلهم أبو بكر فانهزموا (كحالة : معجم ، الجزء ١ ، ص ص ٣٠ - ٣١) . أما الداريون فهم : الدار بن هانئ ، بطن من لخم من القحطانية وهو بنو الداربن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم (كحالة : معجم ، الجزء ١ ، ص ٣٧٠) ، أما الرهاويون فهم رهاء بن منبه ، بطن من مذحج بن كهلان من القحطانية . (كحالة : معجم ، الجزء ٢ ، ص ٤٤٨) .

(٧٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٧.

(٧٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩٧ - ٩٨.

(٧٥) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٨.

(٧٦) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٦٩٩.

(٧٧) لعل من الأسباب لذلك الديوان الذى وضعه الخليفة عمر بن الخطاب وأصبحت الأموال بمقتضاه توزع على جميع المسلمين فعم الخير الكل .

حول وضع الخليفة عمر لديوان العطاء وتوزيع الأموال انظر : ابن سعد : الطبقات ، الجزء ٣ ، ص ص ٢٩٦ - ٣٤٠ .

(٧٨) القرآن الكريم ، سورة الأنفال ، الآيـة ٤١ ، وقـد ذكـر ابـن هشـام (السـيرة ، الجزء ٢ ، ص ٢٤٧) أن العمل بالخمس بدأ عقب سرية نخلة التى كانت فى السـنة الثانيـة للهجـرة قبيل معركة بدر الكبرى . ولكن من الواضح أن آية الخمس المشار إليها نزلت بعد غزوة بدر.

(٧٩) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٩٨ – ٩٩.

(٨٠) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٦٠٧ – ٧ . ابـن هشـام : (الجـزء ٣ ، ص ٢٨٦ وص٣٠١) فى خبر فدك أنه لما فرغ الرسولﷺ من خيـبر قـذف الله الرعـب فـى قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر ، فبثو إلى رسول الله ﷺ يصالحونـه على النصف من فدك فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بالطائف ، أو بعـد مـا قـدم المدينـة ، فقبـل ذلك منهـم . انظـر كذلك الطـبرى : تاريخ ، الجزء ٣ ، ص ٢٠ . أما أبو عبيد (الأموال ، ص ١٦) فقد ذكر أن أهل فدك قد أرسلوا إلى رسولﷺ فبايعوه على أن لهم رقابهم ونصـف أراضيهم ونخلهم ولرسول اللهﷺ شطر أرضهم ونخلهم .

(٨١) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٧١٠ – ١١ . ابـن هشـام : (السـيرة ، الجزء ٣ ، ص٢٨٨) أن الرسولﷺ لما فرغ من خيبر انصرف إلى وادى القـرى فحـاصر أهلـه ليالى ثم انصرف راجعًا إلى المدينة .

(٨٢) هو محيصة بن مسعود بعثه الرسولﷺ فى أمر الصلح ليهود فدك .

(٨٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص٧١٣ .

(٨٤) الواقدى : المغازى ، الجـزء ٢ ، ص ٧١٢ . تقـول ثـلاث روايـات أوردهـا ابـن هشام (السيرة ، الجزء ٣ ، ص ٣٠٣) أن الرسولﷺ هو الذى دفع دية هذا القتيل من عنده.

(٨٥) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧١٦ . من جهة أخرى ابن هشـام (السـيرة الجزء ٣ ، ص ٣٠٥) ذكر ما يدعو للاعتقاد أن الخليفة عمر بن الخطاب اتخذ قـراره بـإخراج اليهود بعد حادثة ابنه عبد الله فذكر أن عمر قال ذلك للصحابة ، وأنه لا يشك أن اليهود هـم الذين فعلوا ذلك ، وأنه مخرجهـم ، فمـن كـان لـه مـال بخيـبر فيلحـق بـه . انظـر: الهمشـرى ، مصطفى : " النظام الاقتصادى فى الإسلام. مـن عهـد بعثـة الرسـولﷺ إلى نهايـة عصـر بنـى أمية"، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار العلوم للطباعة والنشر (١٤٠٥/ ١٩٨٥) ، ص١٤٥ .

(٨٦) العلج : الرجل من كفار العجم ، والعلج الكافر ، ويقال للرجل القوى الضخم من الكفار علج (ابن منظور : لسان ، الجزء ٢ ص ٣٢٦) .

(٨٧) ثبار : بالكسر وآخره راء موضع على ستة أميال من خيبر ، وقد روى بالفتح (ياقوت : معجم ، الجزء ٢ ، ص٧٢) .

(٨٨) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧١٦ .

(٨٩) ابن أنس ، مالك : " الموطأ " الطبعة الأولى ، قدم لها وراجعها ونسقها فاروق سعد ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة (١٩٧٩) ص ص ٧٨٠ - ٨١ . الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧١٧ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ، ص٣٠٤ .

أبو داود ، سلميان بن الأشعث السجستانى الأزدى : " سنن أبى داود " ، الطبعة الأولى ، خمسة أجزاء ، حمص ، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع (١٣٨٨/١٩٦٩) الجزء ٣ ، ص ١٥٤ الطبرى : تاريخ ، الجزء ٣ ، ص٢١ .

(٩٠) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧١١ .

(٩١) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ص ٧١٨ - ٢١ هناك اختلاف فى الأسماء فابن هشام (السيرة ، الجزء ٣ ص ٣٠٥) ذكر جبار بن صخر بدلاً عن حباب بن صخر الذى ذكره الواقدى . أما الآخر فقال عنه ابن هشام أنه يزيد بن ثابت بينما ذكره الوقداى باسم زيد بن ثابت . الواقدى ذكر أيضًا أربعة أشخاص بينما ذكر ابن هشام اثنين فقط . أما الرواية الثانية فنجدها تتفق مع رواية ابن هشام فى ذكر اثنين فقط .

(٩٢) يحى بن آدم الخراج ، ص ٣٧ . الواقدى ، المغازى ، الجزء٢ ، ص ٧١٩-٢٠)

(٩٣) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧٢٠ . يوحى هذا بأن مروان بن الحكم استغل نفوذه عندما كان واليًا على المدينة فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وهناك ما يشهد على ذلك، وهو أن معاوية عندما تولى الخلافة أقطع فدك لمروان فوهبها مروان لابنيه عبد العزيز وعبد الملك (ويبدو أنه فعل هذا نكاية فى آل على بن أبى طالب الذين كانوا يتمتعون بجزء من إنتاج فدك منذ عهد الرسولﷺ ثم جاء عمر بن عبد العزيز فردها إلى آل على بن أبى طالب (ياقوت : معجم ، الجزء ٤ ص٢٤٠) .

(٩٤) الواقدى : المغازى ، الجزء ٢ ، ص ٧٢٠ .

(٩٥) الواقدى: المغازى، الجزء ٢ ، ص ٧١١ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ص٢٨٨

(٩٦) الواقدى : المغازى ، الجزء٢ ، ص٧٢١ . ابن هشام : السيرة ، الجزء ٣ ص ص٣٠٥-٦

(٩٧) القرآن الكريم : سورة الحشر ، الآية : ١٤ .

(٩٨) الواقدى: المغازى ، الجزء٢ ، ص٧٢١ . ابن هشام : السيرة ، الجزء٣ ص ص٢٨٥-٨٦

(٩٩) يقول يحى بن آدم (الخراج ، ص ٢٠) قال بعض الفقهاء : الأرض لا تخمس لأنها فئ وليست بغنيمة لأن الغنيمة لا تتوقف والأرض إن شاء الإمام وقفها وإن شاء قسمها كما يقسم الفئ ، فليس فى الفئ خمس ولكنه لجميع المسلمين ، كما قال الله عز وجل : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (القرآن الكريم : سورة الحشر ، الآية : ٧) انظر كذلك أبو يوسف : الخراج ، ص ص ٢٨ - ٢٩ . أبو عبيد : الأموال ، ص ص ٨١ ، ٨٥ . زلوم : الأموال فى دولة الخلافة ، ص٤٨ .

(١٠٠) الريس ، محمد ضياء الدين : " **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية** " الطبعة الثالثة، مصر ، دار المعارف ، (١٩٦٩) ص ١١٧ .

وصية معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد

- دراسة نقدية تحليلية -

د/ يوسف بن أحمد حوالة*

ترك الخليفة الأموى الأول معاوية بن أبى سفيان ، الذى اتصلت خلافته من سنة إحدى وأربعين للهجرة حتى سنة ستين منها ، وصية مهمة لابنه وولى عهده يزيد ، الذى كان قد جُعِل إليه أمر الخلافة من بعده . والوصية من الأهمية بمحل كبير فى مسيرة الدراسات التاريخية كما يتراءى للباحث . ومن هنا استقر عزمه على إن يخضعها لدراسة تاريخية دقيقة ، راسمًا لنفسه منهجًا يقوم على تقسيم هذه المعالجة التاريخية إلى قسمين اثنين : النقد ثم التحليل .

- النقـــد -

لعل أول ما تقتضيه دواعى الدراسة النقدية وموجباتها ، التأكيد على إن الوصية التى وجَّهها الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لابنه يزيد ، هى وصية سياسية محضة . وليس فيها ما يشير إلى الجوانب الأخرى المعروفة عن الوصايا بشتى مناحيها ، أى الشرعية ، أو الأسرية ، أو الاجتماعية(١) . وثمة أمر ثان من موجبات الدراسة النقدية يفرض نفسه ، هو الأهمية التاريخية التى تكتسيها هذه الوصية السياسية ، فهى بادئ ذى بدء فاتحة هذا النوع من الوصايا التى يتركها الملوك لأبنائهم فى تاريخ الإسلام ، حيث يرسمون خلالها النهج الذى يريدون لأبنائهم انتهاجه ، والسير بمقتضاه . والمعروف إن معاوية بن أبى سفيان ، هو أول ملوك الإسلام(٢) . نقول هذا تقريرًا للحقيقة التاريخية ، ونقول معه كذلك إن علينا الإعتراف بأن ثمة وصايا سياسية عرفتها الدولة الإسلامية فى عهود

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك - كلية التربية - جامعة الملك عبد العزيز المدينة المنورة .

الخلفاء الراشدين . بيد إن الأمر مختلف هنا ، فما نقصده إن وصية معاوية رضى الله عنه ، هى فاتحة هذا النوع من الوصايا ، إنما نعنى به ذلك المتصل بوصايا الملكية الوراثية . ولذلك ترتدى الوصايا عند الحكام الملوك طابعًا أسريًا ، بجانب السمة السياسية لهذه الوصايا . وإلا فالحق إن عصر الراشدين عرف شيئًا من هذه الوصايا التى تركها الخلفاء الراشدون لمن ياتى بعدهم ، سواء نص على هذا الشخص أو لم ينص(٣) . ثم علينا ألا ننسى أخيرًا إن الحكومة الراشدة لها بعض الشبه بالملوكية ، أعنى النظام الملكى ، إذا يلحظ على الخليفة كما يقول عبد الوهاب النجار فى كتابه : " الخلفاء الراشدون "(٤) عند حديثه عن نوع الحكم فى الخلافة الإسلامية (يلحظ على الخليفة فى انتخابه الدوام دون إن يكون ذلك إلى زمن معين يكون معزولاً عن الخلافة بانقضائه)(٥) .

والموجب الثالث الذى تفرضه دواعى الدراسة النقدية موجباتها هو المتضمن القول بأننا نجد أنفسنا مدفوعين دفعًا إلى الوقوف عند هذه الوصية بعينها - علاوة على ما سلف - فهى عدا إنها فى ذاتها تعد ذات قيمة ومضامين سياسية مهمة نحو كيفية التعامل مع المواقف والأزمات ، مما يجعلها معينًا أو مرتعًا مخصبًا للساسة والقادة يجدون فيه أبجديات السياسة وفنونها ، كما سيوضحه التحليل لاحقًا إن شاء الله - فهى تدل دلالة واضحة عى شخصية الخليفة المؤسس معاوية ، الذى أشادت كثير من المصادر قديمها وحديثها ببراعته السياسية (٦) . نعم يمكننا القول إن الوصية هى الدليل أو الأنموذج الأوضح لمقدار ماتمتع به الخليفة معاوية من حصافة وكياسة وحنكة سياسية ، فلقد جاءت فقراتها جميعها لتؤكد على الحذق السياسى والسبل الناجعة الكفيلة بالتعامل مع الأزمات والمخاصمين . وفوق هذا وذاك لعلها تدل من نحو ثالث على موفور الخبرة النفسية بطباع الناس الذين خبرهم معاوية وعجم بهم ومعهم عود الحياة طوال فترة اضطلاعه بالمسؤولية مذ بدء نجمه السياسى يبزغ : حاكمًا أو واليا على دمشق بعد أخيه يزيد ابن أبى سفيان(٧) ، ثم

واليًا على بلاد الشام كلها فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه (٨) ، ثم خليفة من بعده لمدة أكثر من تسعة عشر عامًا (٩) .

والموجب الرابع الذى تفرضه دواعى الدراسة النقدية ، إن الوصية وقد جاءت فى نصين لاثنين من الإخباريين : هما أبو مخنف : لوط ابن يحيى الأزدى ، وعوانه بن الحكم الكلبى ، أقول إن الوصية وقد جاءت كذلك تمثل لنا واقعة تاريخية حية للوضع والإختلاق الذى رافق كمًا غير يسير من الروايات التاريخية لأمة الإسلام التى فطن إليها مؤرخو الأمة الثقات وعلماؤها ، وحسبنا بهذا التسطير كفاية هنا ، لأننا سنوسع هذا الأمر بحثا ودراسة فى التحليل إن شاء الله .

وإذ استقام هذا فإن ثمة خطوات تتصل أوثق الاتصال بهذا القسم الأول من البحث ، أعنى النقد . أجل ثمة حديث لابد منه عن التحديد الزمنى للوصية ، ثم المصادر التى أشارت إلى الوصية بنصّيهامعًا أو اشارت إلى واحد من النصين فقط، ثم نورد النصين معًا ، ثم الظروف المحيطة التى استدعت توجيه الوصية ، ثم نعقد مقارنة بين النصين من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون ، ويلى ذلك مقتضيات رد أحد النصين سندًا ومتنًا ، مع ما يستلزم ذلك من التعريف بأطراف رواة الوصية وأقوال العلماء فيهم .

التحديد الزمنى للوصية :

بوسعنا القول عن التحديد الزمنى للوصية ، أى تحديد الزمن الذى وجه فيه معاوية رضى الله عنه الوصية لابنه يزيد إن الشئ القريب من الطبع يدل على إن توجيه هذا النوع من الوصايا ، يتم غالبًا عندما يستشعر الشخص الموصى دنو أجله (١٠-١٢) .

ومع هذا فإن ما جاء من تأكيد على إن الخليفة معاوية لم يوجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، بل استودعها اثنن من أخلص رجاله ، هما الضحاك بن قيس

الفهرى الذى كـان صـاحب شرطته(١٣) ، ومسـلم بـن عقبـة المرى(١٤) -أحـد رجالات العرب اليمنية المشهورين فى الشـام - علـى إن يبلغاهـا ابنـه يزيـدًا الـذى كان غائبًا وقتها خارج دمشق عندما مات والده معاوية ، يؤكد إن الخليفة قد فعل ذلك عندما استشعر دنو أجله فعلاً ، ومن هنا بعث فى الرجلين فأتيـاه ، فأبلغهمـا وصيته لابنه يزيد(١٥) . وبالفعل فما إن علم يزيد بنبأ وفاة أبيـه حتى عـاد سـراعًا إلى دمشق ، فتولى الخلافة على الفور بعد إن أدى إليه الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة وصية والده إليه . وفى هذا الصدد سنجد عند حديثنا عن القسم الآخـر مـن هذه المعالجة ، أى التحليل ، إن ثمـة قـولاً آخـر مفـاده إن الخليفـة معاويـة بـن أبـى سفيان وجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، وهذا مبحث آخر يحتاج إلى توثيق ، ولعلـه بالتحليل ألصق وأقرب .

المصادر التى أشارت إلى الوصيَّة :

الحق أننا مدينون للمؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبرى - رحمه الله - الذى دلّنا على هذه الوصية بنصِّها . ولقد جهدنا إن نجد لها أثـرًا عنـد المؤرخـين الذيـن سبقوا الطبرى كخليفة بن خياط ، واليعقوبى فى كتابه المنسوب إليـه كذلـك، أى تاريخ اليعقوبى ، ثم صاحب الكتاب المنسوب خطأ للمحدث اللغوى: ابن قتيبـة ، أعنى كتاب : الإمامة والسياسة (١٦) ، وهم ابرز الذين سبقوا الطبرى إلى التدوين التاريخى فى صورته الشمولية ، أى التى تؤرخ للأحداث والوقائع منذ بدء الخليقـة، فتتناول التاريخ الإنسانى منذ آدم عليه السلام حتى عصر كل واحـد منهـم ، علـى نسق الحوليات ، أو تتناول التاريخ الإسـلامى منـذ بدايتـه . أقـول جهدنـا إن نجد للوصية أثرًا عند هـؤلاء المؤرخـين المتقدمـين عـن الطـبرى فلـم نوفـق (١٧) . نعـم مدينون نحن إلى هذا المؤرخ العظيم - أى ابن جرير الطبرى - الذى بلغ به التدوين نهاية عمر التكوين والنشأة فى هذا النوع من الكتابة التاريخية الشاملة(١٨) ، ومـن هنا سيكون اعتمادنا على ابن جرير الطبرى فى نقله للوصية بنصيها(١٩) معًا . أمـا من جاء بعد ابن جرير ممن أشار إلى الوصية ، فهـو لاحـق لـه ، وقـد يكـون عالـة

عليه، ولذا فلن نشير إلى روايته ، اللهم إلا عند توقفه - أى هذا المؤرخ - عند بعض نصوص الوصية مبديًا رأيًا ما ، كما فعل ابن كثير فى كتابه: البداية والنهاية، وهو الأمر الذى سننظر إليه بعين التجلة والاحترام عند تحليل نصوص الوصية فى القسم الثانى ، وفق المنهج الذى رسمناه .

الظروف المحيطة التى استدعت توجيه الوصيَّة :

الحق إن الأمر بَين يدل عليه العنوان ابتداءً ، ثم الموجبان الثانى والثالث من مقتضيات الدراسة النقدية . ولعلنا نفصل أكثر فنقول إنها - أى ظروف إملاء الوصية أو توجيهها - تعد إفرازًا طبيعيًا لقضية أو مسألة ولاية العهد ليزيد ، القضية المشهورة التى يخيل إلى الباحث إنها من القضايا التاريخية القليلة التى حظيت بأقوال وتعليقات وآراء ما انقطع سيلها مذ بدأت الكتابة التاريخية عن تلك الحقبة وحتى الآن .

زد على ذلك إنها من قضايا التاريخ الشامل للدولة الإسلامية ، إذ هى فاتحة هذا الشكل من أشكال الحكم فى الدولة الإسلامية كما لإخفاء(٢٠) .

أما موضوعها فلحمته وسداه : توضيح واقعى أو قل : تبصير واقعى بكيفية التعامل مع أولئك الذين خالفوا معاوية رضى الله عنه وعنهم فى رأيه فى تعيين ابنه يزيد ، أعنى أولئك النفر من أبناء الصحابة الذين كان لهم موقف من البيعة ليزيد، هو التأبى والإمتناع . وهذا التوضيح أو التبصير يكاد يشكل نصف مادة الوصية ، وينضاف إليه تحذير يمثل رؤية صائبة فى كيفية التعامل مع أهل بعض الأمصار فى خلافته أو إن شئت قلت : مملكته حسبما سنفصل لاحقًا فى التحليل إن شاء الله.

نص الوصية عند أبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدى :

قال الطبرى(٢١) : (وفيها - أى سنة ستين - التى توفى فيها معاوية رضى الله عنه - عهد إلى ابنه يزيد حين مرض فيها ما عهد إليه فى النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد حين دعاهم إلى البيعة ، وكان عهده الذى عهده ما ذكره هشام ابن محمد عن أبى مخنف ، قال : حدثنى عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن مخرمة

إن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه فقال : يا بنى إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعتُ لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وإنى لا أتخوف إن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلاّ أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما عبد الله بن عمر ، فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق غيره بايعك ، وأما الحسين بن على فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحمًا ماسَّة وحقًا عظيمًا ، وأما ابن أبى بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ليس له همَّة إلاّ فى النساء واللهو . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربًا إربًا) .

نص الوصيَّة عند عوانة بن الحكم الكلبى :

قال الطبرى فى كتابه سالف الذكر ، أى تاريخ الأمم والملوك (٢٢) بعد إن أورد نص أبى مخنف مباشرة ، قال نقلاً عن هشام بن محمد نفسه ما نصه : "قال هشام قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لمَّا حضره الموت ، وذلك فى سنة ٦٠ هجرية وكان يزيد غائبًا ، فدعا الضحاك ابن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فأوصى إليهما فقال : بلّغا يزيد وصيَّتى. انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإن عزل عامل أحبٌّ إلىّ من إن تشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن نابك شئٌ من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فإنّهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ، وإنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن على وعبد الله بن عمر ، وعبد

الله بن الزبير . فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئًا وأما الحسين ابن على فإنه رجل خفيف وأرجو إن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه . وإن له رحمًا ماسَّة وحقًا عظيما وقرابةً من محمد ﷺ . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه ، وأما ابن الزبير فإنه خب وضب فإذا شخص لك فالبد له إلا إن يلتمس منك صلحًا ، فإن فعل فأقبل ، وأحقن دماء قومك ما استطعت " .

المقارنة بين النصَّين من حيث الشكل :

ها نحن أولاء إذن أمام روايتين للوصية اثنين أشارًا إلى الوصية وفق ما أرتاه أو صاغه كل واحد منهما ، ولا أريد إن أعجل بالقول - هنا على الأقل - : ووفق ميول كل واحد منهما كذلك ، فلعل الحديث عن هذه النقطة لَمّا يحن بعدُ . نلاحظ بادئ ذى بدء على الوصيَّة بنصيَّها أنها قصيرة موجزة ، وإن كان نص أبى مخنف : لوط بن يحي أقصر من نص عوانة ، ويبدو لنا من خلال ما تميَّزت به الوصايا كلونٍ من ألوان النثر الأدبى(٢٣) إن الوصيَّة إن تكون هكذا : قصيرة السطور ، وجيزة التعبير ، فذلك أدعى وأبلغ فى التأثير أو لنقل فى بث التأثير المطلوب .

وبالطبع فلا نسطيع أن نبنى حكمًا على ذلك فنقول إن معاوية وهو يواجه الموت أراد لوصيته إن تكون هكذا ، إلاَّ أن ما نريد قوله إن معاوية هُدى إلى هذا الأمر سليقةً وفطرة كما يهتدى بعض الشعراء الذين لم يدسوا العروض أى الشعر الموزون المقفى : سليقةً وفطرة .

وإذا ما تركنا الشكل الأدبى إلى الوصايا التاريخية التى نعرفها قبل عهد معاوية رضى الله عنه وبعده ، سنجد كذلك الطابع العام الذى يميزها هو : القِصَرْ. خذا إليك مثلاً وصية الملك الفارسى أردشير إلى ابنه ، فهى وصيَّة لم تزد عن بضعة

سطور(٢٤) ، ثم خذ إليك مثلاً وصيَّة الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه لعمر بن الخطاب رضى الله عنه(٢٥) . وبعد معاوية خذ إليك مثلاً وصيَّة الخليفة عبد الملك بن مروان إلى ابنه وولى عهده : الوليد ، إذ لم تزد عن بضعة سطور هى الأخرى (٢٦-٢٧) .

المقارنة بين النصيَّن من حيث المضمون :

على أننا نلحظ بعد هذه الملاحظات الشكلية أن ثمَّة اختلافًا لا نقول يسيرًا، ينحصر فى الألفاظ والكلمات ، وإنما هو اختلاف جوهرى فى المضمون بين النصين . فنص أبى مخنف فيه زيادة ونقص - معًا - عن نص عوانة بن الحكم . أما الزيادة فى نص أبى مخنف والتى خلا منها نص عوانة فهى المتمثلة فى الجزء الذى يشكل صدر الوصية ، أعنى تلك الأسطر التى ذكرها هشام بن محمد الذى أسند إليه الطبرى رواية الوصية بنصيها حسبما هو واضح مما مر من إيراد النصيَّن ، والتى قال فيها نقلاً عن أبى مخنف : " حدثنى عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله ابن مخرمة أن معاوية لمَّا مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقال : يا بنى إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذلَّلت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد " .

أما النقص فى النص أبى مخنف ، مقارنةً بنص عوانة ، فهو المتمثل فى ذلك الوصف الذى خصَّ به معاوية رضى الله عنه أهل الحجاز والشام والعراق بما خصهم به ، إذا جاء النص الذى أسنده الطبرى إلى هشام بن محمد راوى نص عوانة حسبما مرَّ من قبل على النحو التالى : " قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠ وكان يزيد غائبًا ، فدعا الضحاك بن قيس الفهرى ، وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى فأوصى إليهما فقال : بلِّغا يزيد وصيتى ، انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن

تعزل عنهم كل يوم عاملاً ، فافعل فأن عزل عامل أحب إلى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن نابك شئ من عدوك ، فانتصر بهم ، فإذا اصبتهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم " .

يبقى بعد هذا إن نشير إلى موطن الإتفاق بين الرجلين ، فالحق إن الشبه جد واضح فى الجزء المتصل بالتحذير أو التخويف الذى بثه معاوية روع ابنه يزيد من النفر الذين خالفوه من قريش فى التأبى عن بيعة يزيد ، هذا الجزء الذى يحذر فيه معاوية ابنه من هؤلاء النفر الذين حددهم وذكرهم له صراحة ، هو الذى التقى عنده الرجلان ، وهو الذى كان عرضة للدخل والاختلاق عند واحد من هذين الرجلين ، وقد تعمدنا إرجاء ذكر اسمه حتى نأتى على تمام الملاحظات الأولية على النصين ، ثم نشرع فى التحليل بعد . ولا تظل لنا وقفة بعد هذا الإطار إلا عند جزءيتين لانخال القارئ الكريم إلاّ قد فطن إليهما ، أولادهما تلك التى يمكن أن نُعَبِّرَ عنها بالقول : إنه مع الإتفاق بين الراويين على إن الوصية موجهة ليزيد وهو المعنى بها إلاّ إن الاختلاف وقع فى هل وجهت ليزيد مباشرة أم نقلت إليه نقلاً ؟ الثانية أننا نلحظ إن راويًا واحدًا أورد نصَّ الوصيتين هو : هشام بن محمد الذى سنعرض له فيما بعد ، وبوسعنا أن نلحظ إن ثمة اختلافًا يسيرًا آخر فى أن هناك شخصًا آخر أسند أليه أبو مخنف روايته فيما ذكره هشام بن محمد من حديث الوصيَة ، وهو عبد الملك ابن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة ، وسنقف عنده بعد إن شاء الله ، فيما خلت رواية عوانة من ذلك .

مقتضيات رد أحد النصين سندًا :

وإذا استقام لنا الفراغ من حديث المقارنة بين النصين من حيث الشكل والمضمون علينا الشروع توًا فى حديث مقتضيات رد أحد النصين سندًا حسبما

ألزمنا به أنفسنا ، على أن ذلك لا يستقيم له معنى ولا يطرد له قياس دون إن نقدم له بحديث ضاف - بعض الشئ .

وقر فى نفس الباحث شك مذ وقع بصره على نصيى الوصية فى تاريخ الأمم والملوك للطبرى مفاده إنَّ ثمة اختلافًا ووضعًا داخل رواية أبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدى ، فما يعرفه من أقوال علماء الجرح والتعديل والمؤرخين الثقات فى أبى مخنف وإجماعهم على الرأى السئ فيه لا يفارق وعيه . هذا ، ومن نحو آخر فإن المادة التى أوردها أبو مخنف تبدو - فيما خلا صدر الوصية - مقززة منفرة فيها تطاول وقدح فى حق الصحابة رضوان الله عليهم ، سواء أولئك الذين خالفوا معاوية فى موضوع البيعة لابنه يزيد ، أو فى حق معاوية رضى الله عنه نفسه - بيد إن الباحث وجد نفسه تجاه الراوى الآخر للوصية ، وهو : عوانة بن الحكم الكلبى ، فى مأزق ، فرأى علماء الجرح والتعديل وأصحاب كتب التراجم والطبقات وبعض الفقهاء فى عوانة غير بعيد عن رأيهم فى أبى مخنف ، وإن لم يحكموا عليه تجريحًا بمثل ما حكموا به على أبى مخنف ، ولكنه على كل حال متهم عندهم كذلك . ومن هنا بات الباحث فى حيرة من الأمر ، أى النصين يعتمد فى بحثه هذا ، أهو نص أبى مخنف أم هو نص عوانة ؟ ... نعم نستدرك هنا فنقول لما بقىَ من الصورة إن المادة التى أوردها عوانة عن النص لا يشتم منها قدح أو مذمة فى حق معاوية أو من خالفه من أبناء الصحابة ، وهذا أمر مهم للغاية ، كان الباحث وما يزال يضعه نصب عينه بل يسعى إليه .

على كل فلنعرض شخصية أبى مخنف بوصفه راويًا وإخباريًا على ميزان النقد العلمى ، وعلينا إن نعرض روايته على منهج المحدثين الذين حرَّروه لنا فى منهجية علمية دقيقة رصينة ، خلص إلينا وفقها حديث رسول الله ﷺ صافيًا نقيًا من شوائب الوضع والوضاعين ، أى منهج نقد الرواية سندًا ومتنًا . أقول فلنعرض شخصية أبى مخنف وروايته تلك على هذا المنهج الذى يقوم على نقد الرواية نقدًا

داخليًا ونقدًا خارجيًا أو ما يعرف بنقد السند والمتن(٢٨) ، وهو المنهج الـذى غـدًا مطروحًا ومطلوبًا من قبل فريق من المؤرخين والباحثين المحدثين فى تمحيص الروايـة التاريخية ولاسيما فترة صـدر الإسـلام ، إى التـى تشـمل العصـر النبـوى ، وعصـر الراشدين والعصر الأموى ، وذلك من أجل تنقيح تاريخنـا ممَّـا خالطـه مـن الدخـل والشوائب(٢٩) . أجل فلنفعل ذلك لنصل إلى الحقيقة - مـا أمكننـا الجهـد وبلغتنـا الطاقة - ثم نفعل الشئ ذاته مع عوانـة ونصـه ، ثـم ننثنـى فنعـرض إلى هشـام بـن محمد، وعبد الملك بن مساحق اللذين جاء ذكرهما فى النصين .

التعريف بأطراف رواية الوصيَّة :

قبل أن نعرض إلى أقوال العلماء فى أطراف رواية الوصية . علينـا أن نعرِّف بأطراف الوصية الأربعة فى نصيَّها الواردين عند الطبرى . أمَّا أبو مخنف : فهو لوط ابن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدى ، المتوفى سـنة سـبع وخمسـين ومائـة للهجرة(٣٠) . يُعد أبو مخنف فى أوائل الإخباريين الذيـن اعتنـوا بالروايـة التاريخيـة تصنيفًا وتأليفًا ، ولقد تتبع أحد الباحثين مؤلفاته التى ألفهـا عـن العـراق بخاصـة - وغيرها من الأقطار - بعامة كما تتبع جميع ما قيل عن أبى مخنف من حيـث نشـأته ومذهبه إلى غير ذلك(٣١) . ولعلنـا هنـا نكتفـى بالاشـارة إلى إنـه شيعى المذهـب بإجماع المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل .

إما عوانه بن الحكم ، فهـو عوانـة بـن الحكـم بـن عيـاض بـن وزر الكلبـى العلامة الإخبارى ، أبـو الحكـم الكوفـى الضريـر ، أحـد الفصحـاء . لـه كتـاب : التاريخ وكتاب سير معاوية وبنى أمية ، توفى سنة سبع وأربعين ومائة(٣٢) .

وأما هشام بن محمد ، فقد سرد لنا الذهبى ترجمته كذلـك فـى كتابـه آنـف الذكر أى : سير إعلام النبلاء (٣٣) ، فقال عنه : العلامة الإخبارى النسابة الأوحد أبو المنذر : هشام بن الإخبارى الباهر محمد بن السائب بن بشر الكوفى ، تصانيفـه

جمّة ، توفى سنة أربع ومائتين على الصحيح . وأما عبد الملك بن نوفل الذى يصرح لوط بن يحيى بالقول أنه حدثه بخبر الوصية فهو : عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة العامرى ، عامر قريش ، مدنى ، يكنى أبا نوفل(٣٤).

أقوال العلماء فيهم :

وإذ فرغنا من التعريف بأطراف نقل خبر الوصية الأربعة فى نصيها معًا ، يحسن بنا إن نورد أقوال العلماء فى كل واحد منهم . أما أبو مخنف : لوط بن يحيى فقد قال عنه علماء الجرح والتعديل كلامًا مهمًا فى تجريحه ، فهذا ابن أبى حاتم الرازى(٣٥) يقول عنه : متروك الحديث ، وهذا ابن عدى(٣٦) : - وهو رأس فى علم الجرح والتعديل - يقول عنه ما نصه : " حدث بإخبار من تقدم من السلف الصالحين . ولا يبعد منه إن يتناولهم وهو شيعى محترق صاحب أخبارهم ، وإنما وصفته للإستغناء عن ذكر حديثه " . وفى موضع آخر يقول(٣٧) : وله من الأخبار المكروه الذى لا استحب ذكره ، ثم هذا الإمام المحقق الثبت شمس الدين الذهبى - وهو علم فى فن الجرح والتعديل - يقول عنه فى كتابه : ميزان الإعتدال(٣٨) : " إخبارى تالف لا يوثق به " . أما فى كتابه سير أعلام النبلاء(٣٩) فقد قال بعد إن ذكر عددًا من الذين سماهم ممّن رووا عنه ، قال ختمًا لكلامه... وطائفة من المجهولين ، وهو من بابة(٤٠) سيف بن عمر التميمى(٤١) ، صاحب الردة ، وعبد الله بن عياش المنتوف(٤٢) وعوانة بن الحكم .

وإذ ما تركنا هذا النفر من علماء الجرح والتعديل الذين اكتفينا بهم من غيرهم من العلماء فى هذا الشأن إذا ما تركنا هؤلاء إلى الفقهاء ، لرأينا إن رأيهم فى أبى مخنف لا يقل جرحًا عن علماء الجرح والتعديل أولئك . فهذا ابن تيمية مثلاً يقول فى كتابه منهاج السنة(٤٣) فى معرض كتابه عن الشيعة : " وعلماؤهم يعتمدون على نقل مثل أبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدى ، هشام بن محمد

السائب وأمثالهما من المعروفين بالكذب عن أهل العلم " . وفى كتابه الرد على البكرى(٤٤) يقول : " وأمَّا جمهور المصنفين فى الأخبار والتورايخ والسير والفتن من رجال الجرح والتعديل ، فهم من هو فى نفسه متهم أو غير حافظ كأبى مخنف: لوط بن يحيى الأزدى ، وهشام بن محمد السائب الكلبى وإسحاق بن بشر(٤٥) وأمثالهم من الكذابين " .

أما عوانة بن الحكم فلقد جهدت فى البحث عن ترجمة له فى مظانها المشهورة ، أى كتب الجرح والتعديل ، فلم أعثر على ترجمة له عندهم ، اللّهم إلاّ ما سطره ابن حجر فى لسان الميزان(٤٦) من القول بأنه كان صدوقًا فى نقله . أما كتب التواريخ العامة وكتب التراجم فقد ترجم له ابن النديم فى الفهرست ، المقالة الثالثة ، الفن الأول(٤٧) ، وياقوت الحوى فى معجم الأدباء(٤٨) ، والذهبى فى سير إعلام النبلاء(٤٩) ، وكذلك كتابه العبر فى أخبار من غير(٥٠)، ثم ابن العماد الحنبلى فى كتابه : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب(٥١) . وهذه التراجم جميعها متقاربة ، وبوسعنا إن نشير فقط إلى ترجمة الذهبى له فى كتابه آنف الذكر، أى سير إعلام النبلاء(٥٢) ، ولاسيما وقد عمّدنا إليه من قبل فى التعريف بعوانة ، فلقد قال بعد أن سرد لنا نسبه : ... أبو الحكم الكوفى الضرير ، أحد الفصحاء ، له كتاب سير معاوية وبنى أمية ، وغير ذلك . يروى عنه: هشام بن الكلبى ، وكان صدوقًا فى نقله قال محمد بن إسحاق النديم : توفى سنة سبع وأربعين ومئة وهناك قول بأن وفاته كانت سنة ثمان وخمسين ومائة حسبما ألمعنا إلى ذلك من قبل .

وأما هشام بن محمد السائب الكلبى فحسبنا إن نشير إلى ما ذكره الذهبى عنه فى ميزان الاعتدال(٥٣) ، فلقد قال عنه ما نصه : " قال أحمد بن حنبل : إنما كان صاحب سمر ونسب . ما ظننت إن أحدًا يُحَدِّث عنه ، وقال الدار قطنى وغيره-متروك ، وقال ابن عساكر : رافضى ، وقال كذلك : وهشام لا يوثق به".

وفى كتاب سير إعلام النبلاء(٥٤) ، قال الذهبى كذلك بعد أن ساق نسب هشام، مما سبق لنا إن سردناه آنفًا ، قال : " ... أحد المتروكين كأبيه ... وتصانيفه جمة بلغت مائة وخمسين مصنفًا ، وكان أبوه مفسرًا ، ولكنه لا يوثق به أيضًا وفيه رفض كإبنه ".

وننتهى إلى الطرف الرابع فى الوصية ، أى عبد الملك بن مساحق لنقول إننا لم نوفق فى العثور على ترجمة له سوى التى أشرت إليها والتى أوردها ابن حجر العسقلانى فى كتابه : تقريب التهذيب(٥٥) التى أوردنا فيها ذكر اسمه ونسبه . ونورد هنا قوله فيه : مقبول من الثالثة ، ويعنى بالثالثة الطبقة الثالثة من الرواة - بحسب ترتيبه هو للرواة - وهى الطبقة الوسطى من التابعين . وذكر إنه خرج له من أصحاب كتب الصحاح : أبو داود ، والنسائى . ويعنى ابن حجر بقوله مقبول ، أى من خلال المراتب التى عقدها للرواة ، يعنى تلك الطبقة التى ليس لها من الحديث إلا القليل ولم يثبت فيه ما يُترك حديثه من أجله فإليه الإشارة بلفظ مقبول " هى عبارة ابن حجر بنصها " حيث يتابع(٥٦) .

ونستدرك أخيرًا فنقول إننا وجدنا اسمه ، أى عبد الملك بن نوفل بن مساحق فى الشجرة التى رسمها يحيى بن إبراهيم بن على اليحيى فى كتابه : مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة - دراسة نقدية(٥٧) ، المار ذكره سابقًا . بيد أنه لم يشر إلى ترجمته .

وإذ فرغنا من حيث التعريف بأطراف رواية الوصية ثم أقوال العلماء فيهم ، علينا إن ننتهى تأسيسًا على ما مر إلى القول بأن رواية أبى مخنف متهافتة واهية ساقطة سندًا ، إذ قد رأينا أى مكانة علمية لأبى مخنف : لوط بن يحيى ، وليس علينا من تثريب بعدئذ من القول إن أقوال العلماء أطبقت على تضعيفه فى الحديث وعلى تركه . وليست الروايات التاريخية بأفضل حالاً من الحديث . فلقد ناقش يحيى بن إبراهيم(٥٨) روايات أبى مخنف فى عصر الخلافة فقط ، حيث قصر عليها

جهد فتبين له بعد مناقشة طويلة سقوطها وتهافتها . وللمناسبة فقد بلغت نحوًا من أربعة وأربعين رواية . وهكذا فإن روايته لذلك النص ساقطة من حيث السند لا يعتد بها .

أما عوانة بن الحكم ، فإن حكم علماء الجرح والتعديل عليه وفيه لا يرقى إلى حكمهم على أبى مخنف . ولابد إن أعيد هنا القول إننى لم أعثر له على ذكر فى كتب الضعفاء والمتروكين ، بل لقد رأينا ابن حجر يصفه بالصدوق فى كتابه لسان الميزان . ولئن كان الإمام شمس الدين الذهبى قد وضعه فى درجة مساوية لأبى مخنف وسيف بن عمر الضبى وعبد الله بن عياش المنترف . وذلك فى كتابه : سير إعلام النبلاء حسبما مر بنا سابقًا ، فإنه لم يفعل أو بمعنى أدق لم يترجم له فى كتابه النقدى الصارم : ميزان الإعتدال ، ثم إنه ذكر فى كتابه سير إعلام النبلاء نفسه فى سياق ترجمته لعوانة بأنه كان صدوقًا فى نقله(٥٩) .

ولئن قال ابن النديم (٦٠) وتابعه ياقوت الحموى فى معجم الأدباء(٦١) إنه كان عثمانيًا يضع أخبارًا لبنى أمية ، أى أنه كان ذا ميل للأمويين وأنه يتعصب لهم ولا سيما عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهى قضية تدخل فى عداد قضية ميول الإخباريين وأهوائهم التى تعددت مشاربها بين مآرب نفسية طورًا ومآرب مذهبية طورًا ثانيًا ومآرب إقليمية طورًا ثالثًا(٦٢) ، أقول لأن وصفه ابن النديم بما وصفه به ، فإننا نرى وجاهة فى قول شاكر مصطفى (٦٣) فى مقارنته بين عوانة بن الحكم وبين أبى مخنف من حيث الرواية التاريخية ، إذ يرى إن عوانة روى وكتب كتبًا عامة لا تتناول موضوعًا خاصًا ضيقًا ولكن أكثر سعة، هى مطالعة التاريخ الإسلامى العام على خلاف أبى مخنف . ثم علل أسباب كتابته كتابًا عن بنى أمية عنوانه - سيرة معاوية وبنى أمية - بأن ذلك يعود إلى معرفة قوية بدخائل العهد الأموى بحكم كونه كلبيًا أى من قبيلة كلب اليمنية التى ارتبطت بروابط متينة مع الأمويين فى أغلب فترات حكمهم(٦٤) . ولقد ذكر شاكر مصطفى - وليس ثمة

ما يدعو لمخالفته - إن ذلك لا يعنى أنه - أى عوانة - يتعصب للأمويين لذلك الارتباط ، بل لأنه لا يهمل الآراء المعارضة لهم ولا الروايات العراقية والمدينة فقد تبين له من التقصى فى بعض المصادر التاريخية وجود الكثير من النصوص لعوانة جاءت قوية مؤيِّدة للزبيريين(٦٥) وأخرى ضد الحجاج ، ونصوص أخرى مؤيدة للعلويين ، وأخرى ضد الكوفة .

يبقى أخيرًا إن نؤكِّد هنا إن مقتضيات التحقيق هى وحدها التى فرضت علينا الإشارة إلى هشام بن محمد السائب الكلبى بوصفه الشخص الذى أسند إليه الطبرى رواية نصى الوصية عن أبى مخنف وعوانة ، وكذا الأمر فيما يتعلق بعبد الملك بن نوفل شيخ أبى مخنف . نقول هذا لحقيقة العلمية لتأخذ الدراسة النقدية حقها من الطرح ، دون إن ننحى عليهما بأى لائمة ، إذ يبدو إن التحريف والوضع - الذى ستكشفه الدراسة النقدية للمتن - يتحمل تبعته أبو مخنف : لوط ابن يحيى الأزدى ، الذى أتضح للعلماء بجلاء تشيعه الشديد . هذا شئ والشئ الثانى إن تشيع هشام ابن محمد السائب الكلبى الذى أشار إليه عدد من علماء الجرح والتعديل حسبما مر بنا سابقًا ، لم يمنعه من رواية نص عوانة الذى يختلف عن نص أبى مخنف . والشئ الثالث إن عبد الملك بن نوفل بن مساحق وصفه ابن حجر - وهو رأس فى علم الجرح والتعديل - بأنه مقبول الرواية حسبما مربنا سابقًا . هذا شئ ، والشئ الآخر أن عبد الملك بن نوفل كان معاصرا لمعاوية وروى عنه(٦٦) ، وليس يبعد إنه سمع خبر الوصية أو رواها له أحد الرجلين : الضحاك أو مسلم بن عقبة المرى ، وقد توفيًا بعد معاوية بأربع سنوات، كما أن عبد الملك بن نوفل سليل بيت كانت له صلته الوثيقة بالبيت الأموى(٦٧) . ومن هنا لا نجد مبررًا لتقوِّل عبد الملك على معاوية ، ولكن التجريف وقع من أبى مخنف ، فلا تثريب إذن من إسقاط رواية أبى مخنف سندًا .

مقتضيات رد أحد النصَّين متناً :

الحقيقة إن المتن الذى سنفصِّل الحديث عنه وهو الذى يهدم - مع السند - رواية أبى مخنف ، يمثل الصورة الأوضح للتهافت والضعف والسقم الذى تميزت به بعض الروايات التاريخية التى لاكها نفر من الإخباريين الضعاف . ففى البدء يلفت نظرنا خطأ أبى مخنف التاريخى المتمثل فى قوله : إن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه فقال : يا بنى ... إلخ . نقول خطأ تاريخيًا، لأننا وقد أجرينا استقصاءً واسعًا حول هذه النقطة تبين لنا خلالها إن يزيدا كان فى الوقت الذى اشتد المرض على معاوية وبات يتوقع حلول أجله المحتوم ، كان فى حوارين(٦٨) البعيدة عن دمشق ، ولقد نص على ذلك بعض ثقات المؤرخين من أمثال الذهبى وابن كثير وابن الأثير وغيرهم(٦٩) .

ثم إذا وقفنا عند الجزء الذى تشابه فيه النصان : نص أبى مخنف ونص عوانة، وهو المتمثّل فى التحّذير من أولئك النفر من أبناء الصحابة رضى الله عنهم، لرأينا أن ثمة خطأ تاريخيًا ثانيًا تميزت به رواية أبى مخنف . هذا الخطأ هو المتمثل فى قوله : إن معاوية رضى الله عنه حذر ابنه من أربعة نفر من قريش هم : عبد الله بن عمر ، الحسين بن على ، عبد الرحمن بن أبى بكر ، وأخيرًا عبد الله بن الزبير . ومكان الخطأ يكمن فى ذكره لعبد الرحمن بن أبى بكر ضمن هؤلاء ، فالحقيقة أن الصواب هو ما ذكره عوانة بن الحكم فى روايته من أنهم ثلاثة نفر لا أربعة . وذلك لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما - وهو ثالث الأربعة فى رواية أبى مخنف - كان قد توفى قبل معاوية بعامين ، أى أنه توفى على المشهور والأرجح سنة ٥٨هـ . وهذا ما ذكره مؤرخو تراجم الصحابة رضى الله عنهم(٧٠)، ثم هذا هو عينه ما لاحظه ابن كثير(٧١) الذى تدخل معلّقًا بعد أن أورد نص أبى مخنف فبلغ فى الحديث هذه النقطة ، تدخل معلقًا فقال العبارة التالية: كذا قال ، يعنى كذا قال أبو مخنف ، ثم أردف قائلاً : والصحيح أن عبد

الرحمن كان قد توفى قبل موت معاوية بسنتين كما قدمنا . ويعنى ابن كثير بهذه العبارة ما كان قد تحدث عنه من ذكر وفيات بعض المشاهير سنة٥٨هـ ومنهم عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

ولسنا ندرى حقيقة سبب هذا الفعل من أبى مخنف ، لسنا ندرى هل يعود إلى غفلة غير مقصودة أوقعته فى هذا الخطأ التاريخى ، مع أنه شئ مثير للإستغراب أن يغيب عنه هذا ، والتدوين التاريخى كان آنذاك شديد الإهتمام بذكر وفيات الأعيان ؟ أم أن فى الأمر قصدًا متعمدًا لإظهار معاوية فى صورة تهيج عليه النفوس، بالإشارة إلى أن ابن الخليفة الراشد الأول كان من الممتنعين على المعاوية . ولقد كان بالفعل من الممتنعين على معاوية مثل غيره من أبناء الصحابة رضى الله عنهم ، بل كان أكثرهم استياءً(٧٢) ، ولكن هذا لا يعنى أن يستغل أبو مخنف هذا لميوله المذهبية التى تدفعه إلى تهييج النفوس على معاوية وبنى أمية وأن يستغل هذه الواقعة التاريخية فيلوى ذراع الحقيقة ويحشر اسم رجل كان قد توفى قبل ظهور النص بعامين ، وهو الذى اقترن بوفاة معاوية .

وثمّة خطأ تاريخى ثالث لا يقل فداحة عن هذا الخطأ بل يزيد عليه ، إذ نرى فيه صورة واضحة للإساءة للصحابة رضى الله عنهم . لقد تدخلت ميول أبى مخنف المذهبية فيه دون مراء ، إذ أن من الطبيعى أن يقف أبو مخنف موقف العداء من معاوية وإن يهيج النفوس عليه ، وإن تأتى عباراته ملتهبة قاسية مغلوطة لا تصيب معاوية وحده فحسب ، بل وبعض من جاء ذكرهم فى الوصية من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . فأبو مخنف لم يكتف بالخطأ التاريخى الذى وقع فيه ، وهو جعله عبد الرحمن بن أبى بكر فى عداد النفر الذين حذر معاوية ابنه يزيد منهم، ولكنه أورد قولاً على لسان معاوية فيه إساءة لمعاوية وعبد الرحمن معًا.

هذا القول هو الذى سبق لنا أن رأيناه فى نص أبى مخنف الذى يقول فيه معاوية : وأما ابن أبى بكر ، فهو رجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ،

ليست له همه إلاّ فى النساء واللهو . هنا نجد أبا مخنف يظهر عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما بمظهر الامعة الذى لا رأى لـه . ثـم لم يكفـه هـذا ، بـل زاد فوصفه بالمضياع المتلاف لهمته التى ما وسعت من الأمور إلاّ النساء واللهو .

ترى هل كان أبو مخنف وهو يورد هـذه العبـارة يريـد أن يمـرر هـذا القـول الظالم معتمدًا على ما اشتهر من أمر تولع عبد الرحمن بن أبى بكر بابنـة الجـودى ، وهو الموضوع الذى أشار إليه بعـض المؤرخـين(٧٣) فظـن أن ذلـك ألـزم لحجتـه ؟ الحقيقة أنه وإن تولع عبد الرحمن بن أبى بكر بابنة الجودى ، فقد انتهى به الأمر إلى النكاح الشرعى حيث كرمَت عنده. ثم لم نعد نسمع شيئًا ما عن موضوع النساء. ثم لو كان على عبد الرحمن من لوم هنا لكان قد لامه عمر بن الخطاب رضـى الله عنه ، ولكانت قـد لامتـه أختـه السـيدة عائشـة رضـى الله عنهـا . لننظـر مـا قالـه الذهبى(٧٤) هنا فى ترجمة عبد الرحمن بن أبى بكـر : " كـان أسـن أولاد الصديـق وكان من الرماة المذكورين الشجعان ، قتل يوم اليمامة سبعة من كبارهم ... وقـد هوى ابنة الجودى وتغزل فيها بقوله ... فقال عمر لأمير عسكره إن ظفـرت بهـذه عنوة فادفعها إلى ابن أبى بكر ، فظفر بها فدفعها إليه ، فأعجب بهـا وآثرهـا علـى نسائه ... إلخ " .

ثم كيف يتهم عبد الرحمن بالأمعة ، بـل كيـف يتهـم معاويـة عبـد الرحمـن بالإمعة ، وهو الذى تصدى لمروان بـن الحكـم ، عـامل معاويـة علـى المدينـة ، لمّـا أخبره هو ونفر من أهل المدينة بعزم معاوية العهد لابنه يزيد تصدى له ، فقال معبرًا عن استيائه : جعلتموها هرقليه أو قيصرية . كلمـا مـات هرقـل أو قيصـر ، خلفـه قيصر أو هرقل(٧٥) . وكرر هذا القـول دون مواربـة لمّـا جـاء معاويـة إلى الحجـاز لأخذ البيعة لابنه يزيد ومقابلة النفر الذين امتنعوا عن البيعة له ، وفيهم عبد الرحمن ابن أبى بكر(٧٦) .

وننتقل إلى وصف معاوية الذى ذكره أبو مخنف أنه قاله فى حق الصحابى ابن الصحابى : عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، مما تتبدَّى فيه كما يتراءى لنا إساءة للرجلين معًا : معاوية وابن الزبير ، فى البداية لسنا نقصد عبارات : وأمَّا الذى الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، وهما المعنيان اللذان درج العرب على أن يُشبهوا بعض الرجال بهاتين الصفتين المشهورتين عن الأسد والثعلب ، أى : الجثوم والمراواغة . الجثوم لزوم المكان وعدم مبارحته أو اللصوق بالأرض(٧٧) ، وهى ما اشتهر به الأسد(٧٨) ، والمرواغة : الاحتياد يمنه ويسرة فى سرعة وخديعة(٧٩) ، وقد اشتهر بها بين الحيوانات الثعلب(٨٠) .

لسنا نقصد هذا ، ولكننا نقصد تلك العبارة التى يقول فيها معاوية ليزيد حسب رواية أبى مخنف : ... فإن فعلها بك أى خرج عليك فقطِّعه إربًا إربًا .

الإرْبُ فى اللغة : العضو ، وإربًا : قطِعَ ، وإربًا إربًا : العضو قطِّعه كاملاً كما الذبيحة التى تقطع إربًا إربًا : عضوًا عضوًا(٨١) . هذا من حيث اللغة ، ومن حيث المعنى السياسى لايمكن لسياسى حصيف محنك مثل معاوية أن يطلب من ابنه مثل هذا المطلب . وهو الذى ما جُربَ عليه أن سفك دم أحد الصحابة قتلاً ، ففيما عدا حجر بن عدى(٨٢) وحادثته(٨٣) لا نملك دليلاً على قيام معاوية بالفتك بأحد الصحابة .

ثم أن معاوية رضى الله عنه مع معرفته بموقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما الرافض لموضوع البيعة ليزيد بولاية العهد(٨٤) ، ومع إفصاحه عما يتميز به عبد اله بن الزبير من صفات سياسية(٨٥) لانظن أنه يحرض ابنه على قتل عبد الله بن الزبير ، حتى ولو امتنع عليه . ولعل الأولى أن يطلب منه تركه وشأنه – ما دام أن بيعته قد انعقدت شرعًا – كما فعل هو نفسه – أى معاوية – عندما ترك النفر الأربعة وشأنهم ، وإن كان قد أظهر للناس أنهم بايعوا(٨٦) . لقد كان فى وسع

معاوية أن ينصح ابنه باتخاذ نفس الموقف لو واجهه هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم - ومنهم عبد الله بن الزبير - بموقفهم الرافض .

ونخلص من هذا كله إلى القول بأننا سنعتمد رواية عوانة بن الحكم لملائمتها سندًا ومتنًا للواقع التاريخى من نحو ، ولما نعتقده يقينًا فى الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا من الخيرية والصلاح من نحو ثان(٨٧) ، ولما عرف عن معاوية رضى الله عنه من السجايا والخلال على رأسها الإغضاء والحلم والدهاء - التى دلت عليها سيرته وسلوكه من نحو ثالث ، فذلك " أدعى فى حدس الخبر ومعرفة صحته من ضعفه "(٨٨) .

التحليل

ولنمض الآن فى تحليل وصية معاوية رضى الله عنه ، متحرِّرين من تأثير أبى مخنف : لوط بن يحيى وروايته ، على أننا سنعود إليها بين الفينة والفينة للمقارنة بينها وبين نص عوانة ، ولكى يتأتّى لنا ذلك يحسن بنا أن نجزئ نص عوانة إلى فقرات عدة هى :

١ - قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لمّا حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠هـ، وكان يزيد غائبًا .

٢ - فدعا الضحاك بن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فأوصى إليهما .

٣ - فقال : بلّغِا يزيد وصيّتى : أنظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

٤ - وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فإن عزل عامل أحب إلى من تشهر عليك مائة ألف سيف .

٥ - وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن نابك شيئ من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم .

٦ - وإنى لست أخاف من قريش إلاّ ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير .

٧ - فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين ، فليس ملتمسًا شيئًا قبلك .

٨ - وأمّا الحسين بن على . فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه ، وخذل أخاه، وإن له رحمًا ماسة، وحقا عظيمًا وقرابة من محمد ﷺ . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فإن قدرت عليه ، فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه .

٩ - وأمّا ابن الزبير ، فإنه خب وضب ، فإن شخص لك ، فالبدله ، إلاّ أن يلتمس منك صلحًا ، فإن فعل فاقبل ، واحقن دماء قومك ما استطعت .

* * *

ويخيل إلى أنه ليس هناك ما يقال بصدد الفقرة الأولى التى قال فيها الطبرى، قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا ... إلخ . أجل ليس هناك ما يقال عن هذه الفقرة ، فلقد سبق لنا التعريف بهشام بن محمد بن السائب الكلبى فى القسم الأول من الدراسة النقدية ، وكذا الشأن فيما يتصل بعوانة مما لا فائدة من إعادته . غير أن ما يلفت النظر هنا هو عبارة عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية ... إلخ ، فهل هذا يعنى أن عوانة قد سبق له الإطلاع على نص أبى مخنف سابق الذكر ، فقال ما قال اعتمادًا على مصدره الذى وثق فيه ؟ يتراءى لنا أن هذا هو ما توحى به هذه العبارة .على أننا نستغرب ألا يشير عوانة إلى الشخص الذى نقل عنه خبر الوصية مثلما فعل أبو مخنف الذى اسند روايته لعبد الملك بن نوفل بن

مساحق . وبعيد جدًا أن يكون عوانة معاصرًا للأحداث وهو الذى توفى سنة١٤٧هـ . فهاهنا انقطاع يصل إلى أكثر من قرن . ترى ما الذى يعنيه هذا . هل يعنى التقليل من قيمة الرواية لانقطاع السند مدة طويلة ولأن السند مجهول كذلك ، وهو الذى قل أن روى حديثًا مسندًا كما ذكر مؤرخو ترجمته(٨٩) ؟ ربما يكون الأمر كذلك ولكن هذا لا يقلل من روايته التى لها شاهد ، هو نص أبى مخنف نفسه . نرجو الا يبادر القارئ الاستغراب من قولنا هذا الذى ربما رأى فيه تناقضًا فالأمر ليس كذلك ، فنص أبى مخنف يؤكد فعلاً أن معاوية ترك وصية ، ولكن الاعتراض على أبى مخنف ينحصر فى التغيير والتبديل الذين أحدثهما - مدفوعًا بميوله المذهبية كما يبدو - فى نص الوصية . ومن هنا شابهَ نص أبى مخنف عوانة فى عدة جوانب ، وخالفه فى جوانب أخرى . هذا هو كل شئ فيما يتراءى لنا .

وبعد هذا لا يبقى لنا ما نقوله عن هذه الفقرة سوىالتذكير بأن سنة ٦٠هـ، هى السنة الى توفى فيها معاوية بإجماع مؤرخى ترجمته فى كتب التاريخ العام وكتب التراجم والطبقات ، ولم يشذ عنها مؤلف البتة بخلاف ذلك. وهذا القول يشمل كذلك عبارة : وكان يزيد غائبًاالتى حققنا أمرها من قبل فى الدراسة النقدية ، تبيَّن لنا أن هناك إجماعًا على أن يزيدًا كان غائبًا عن دمشق عند وفاة أبيه. وهذا هو نفسه ما عاد أبو مخنف فاشار إليه فى موضع آخر من روايته للأحداث التاريخية حسبما نقل عنه الطبرى ومن بعده ابن كثير(٩٠) .

ونمر بالفقرة الثانية مرورًا عابرًا وهى التى ذكر فيها عوانة أن معاوية دعا الضحاك بن قيس الفهرى صاحب شرطته ومسلم بن عقبة المرى فأوصى إليهما ، وذلك بالطبع لأنه قد سبق لنا التعريف بالضحاك ومسلم بن عقبة المرى فى الدراسة النقدية . هذا شئ والشئ الآخر أننا انتهينا بالأدلة والشواهد التاريخية إلى أن معاوية استودعهما الوصية مباشرة بخلاف ما جاء فى نص أبى مخنف من أن

معاوية بث الوصية روع ابنه يزيد مباشرة . وإذا استقام هذا فلننتقل إلى الفقرة الثالثة التى قال فيها عوانة عن معاوية للرجلين - الضحاك ومسلم - بلغا يزيد وصيتى : انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، فاكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

إن هذه الفقرة - وماتبعها من فقرات - لتؤكد دون ريب أى رجل كان معاوية . إنه وهو السياسى الذى عركته الأحداث والتجارب يعرف أن الحجاز مركز ثقل سياسى لا يُستهان به البتة ، كيف لا ، وهو موئل دولة النبوة والخلافة الراشدة ؟ كيف لا وهو : عش صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم ، الذين ينظر إليهم أهل الأمصار الإسلامية الأخرى بالتجلة والاحترام ؟ . ثم إن معاوية يعرف ويدرك أنه ما وصل إلى ماوصل إليه من السلطان والنفوذ إلا بعراقته الحجازية ، فهو القرشى المكى العبد منافى ، أى فى الذروة من بيوتات الحجاز . ومن هنا فليس فى الأمر غرابة أن يدل معاوية ابنه يزيد على البدهية ، وهى أن أهل الحجاز أصله ومئوله . ويزيد نفسه ليس فى حاجة إلى تذكيره بهذا. فهذه بدهية لا تستوقف أحدًا ، ولكن الأب السياسى والأب الباحث عن الرحم ، والمقدر لها حق قدرها لا يرى من تثريب فى أن يؤكد على ابنه القول ، حتى وإن كان بدهيًا مفروغًا منه . وللأمر اشباه ونظائر ، فالأب عندما يلح على إبنائه فى وصيته التى يتركها لهم على ضرورة التراحم وجمع الشمل ، مع أنه يعرف أن هذه أمور بدهية، فإنما يفعل ذلك زيادة فى التوثق(٩١) .

انظر أهل الحجاز ، فإنهم أصلك ، فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . هذا هو ما كان يفعله معاوية مذ آلت إليه الخلافة أو إن شئت قلت الملك . لطالما كان يكرم من يقدم عليه من أهل الحجاز ، ولطالما بالغ فى ذلك مما كانت ألسنتهم تلهج به ، مما ذكرته لنا المصادر ورصدته ، ولطالما كان يتعاهد من غاب(٩٢) . وقصته مع عبد الله بن جعفر بن أبى طالب معروفة معلومة(٩٣) .

أجل هذا مايريده الأب من ابنه ، ثم إن شواهد التاريخ تدل على أن معاوية كان لا يسقط أهل الحجاز من حساباته السياسية بل كان حريصًا على ذلك . ومما يدل عليه أنه جاء بعد مضى سنوات من بدء خلافته التى نعرف أنها جاءت بعد أحداث عاصفة معروفة معلومة ، وفى وقت كانت الأمة ترى فيه أن هناك من هو أحق من معاوية بالأمر لمكانته وفضله وسابقته . جاء المدينة ليواجه الصحابة رضوان الله عليهم وأبناءهم بإلقاء بيان سياسى مهم جدًا يوضح كل معطيات الموقف ، بل تضمن نظرته الإستشرافية للمستقبل(٩٤) .

دليل آخر أنه عندما عزم على الإعلان عن بيعته لإبنه يزيد ، حرص على أن يستمزج رأى اهل الحجاز ، وهم هنا - أهل المدينة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين ، فبعث إلى عامله مروان بن الحكم بذلك ، ودارت بينه وبين عامله الكتب عن مواقف أهل المدينة من البيعة . ولمّا تبيَّن له أنَّ ثمة ممانعة ، حرص على المجئ بنفسه إلى المدينة ، وهذا ما حدث فعلاً سنة ٥٦هـ عندما جاء معتمرًا ، فقابل النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، فناقشهم وناقشوه طويلاً(٩٥) .

ونلوى صعودًا نحو الفقرة الرابعة ، وهى التى يقول فيها معاوية ... وانظر أهل العراق ، فإن سألوك إن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإن عزل عامل أحب إلىّ من أن تشهر ألف سيف .

رؤية أو فلسفة من فلسفات التاريخ السياسية عميقة أن تدع العاصفة تمر ، أو كما عبَّر عنها معاوية بنفسه : طأطئ لها تمر فتجاوزك(٩٦) ، أجل لا تثريب من التراجع عندما يقتضى الأمر ذلك ، ولا غضاضة من مسايرة الأحداث بحسب الواقع والزمان ، ولقد كان معاوية رضى الله عنه سيد هذه المواقف ، أليس هو صاحب المبدأ السياسى المشهور بشعرة معاوية(٩٧) ؟ وأليس هو نفسه الذى قال فيه وفى حقه الصحابى الجليل عبد الله بن عباس : قد عملت بم غَلَبَ معاوية الناس؟ كان إذا طاروا وقع وإذا وقعوا طار(٩٨) .

فمعاوية هنا يريد من ابنه أن يسمح للعاصفة أن تمر مادام أن هناك داعيًا لها. وملاحظة معاوية هذه لم تأت من فراغ ، فمعاوية الخبير بأحوال العراق ، القطر الهائج المائج آنذاك ، كان يقرا الأحداث بعين يقظة مفتوحة . ينظر فيرى قطرًا هائجًا مائجًا على عمَّاله . يرجع البصر كرة أخرى فيرى أن الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو من هو ، يعزل عمالاً له فى العراق لا لريبة فيهم ولا لشبهه . عمَّال من أمثال سعد بن ابى وقاص الصحابى الجليل وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، أبى موسى الأشعرى وأبى هريرة ، يعزلهم ، وهو الخبير بهم وبعدلهم ونزاهتهم . يفعل ذلك تهدئة للأحوال(٩٩) ، بل كان للفاروق عمر رضى الله عنه رأى مماثل فى عزل الولاة عن الكوفة بخاصة ، حتى لو اضطر الأمر إلى عزل عامل كل يوم(١٠٠) .

ومعاوية رضى الله عنه الذى وقف من الخليفة الراشدى الرابع على ابن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه ذلك الموقف الذى رصدته كتب التاريخ ، كان يعرف كم عانى رضى الله عنه من أهل العراق حتى ملّهم(١٠١) . ثم كم عانى هو نفسه – أعنى معاوية – وعمَّاله من ثوارتهم من بعدُ فى العراق كثيرًا(١٠٢) .

ثم إن معاوية الذى كان يحلم على الشخص يواجهه بكلام شديد لا يصمد له إلاَّ الحليم من الرجال – وقد ذاع صيته بهذا ذيوعًا شديدًا(١٠٣) ، أليس بالحرى أن يكون حليمًا مع القطر ومع الرعية بصفة العموم ؟ .

هذه هى الرسالة التى أراد أن يوجهها لابنه ولولى العهد يزيد . أراد منه أن يكون سياسيًا ماهرًا لا يفلت الأمر من قبضته حتى لو استدعى الحال أن يعزل عن أهل العراق كل يوم عاملاً – وذلك بعيد – فليفعل ما دام الزمام بيديه . ثم تعال فانظر هذه العبارة ذات المغزى السياسى العميق : ... فإن عزل عامل أحب إلىّ من أن تشهر عليك مائة الف سيف . حكمة بالغة . أن تعزل عاملاً هو بلاشك امر قد يوجد حالة من الاستقواء عند أهل ذلك القطر . فلربما رأوا فيه دليل ضعف

النظام ولربما استمرءوا ذلك ، ولكن لأن الهدف أكبر والمضمون أعمق فلا ضير ان يلبى الحاكم الدعوة بعزل عامل(١٠٤) أو عاملين أو ثلاثة ، بل حتى كل يوم - وهو بعيد ، وإنما هو للمبالغة والتهويل ، إذا استدعى الأمر ذلك لئلا تعم الفوضى وتشيع البلبلة ، وترفع سيوف وتعلو رماح . فالعزل قضية فردية ، أمَا الشغب ، وأمَا الفوضى فجماعية ، ومن هنا لا ضير من فعل ذلك تهدئة للأحوال وسداً للذارئع .

وأخيرًا يبدو أن عبارة : ... مائة ألف هذه حملت صيغة مبالغة . يبدو أنها كانت شائعة آنذاك فى الشارع العام .. نطالع سيرة الأحنف بن قيس التميمى، وقد اشتهر بالحلم هو الآخر ، فنجد فى وصفه أنه إذا غضب غضب له مائة ألف لا يسألونه فيم غضب . ولعل المفارقة هنا أن قائل هذه العبارة هو معاوية بن أبى سفيان نفسه ، وقد قالها لخاصته من كبار رجال الدولة لمّا سألوه عن هذا الرجل الذى يواجهه مواجهة شديدة ، فلا يملك معاوية إلا أن يدع العاصفة تمر(١٠٥) ، أوليس هو الذى يقول : إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا(١٠٦) .

ويقودنا التحليل إلى الفقرة الخامسة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : ... وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن نابك شئ من عدوك ، فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم . هنا رؤية سياسية ثانية يهديها الأب إلى ابنه . على أننا قبل أن نتحدث عنها ، نود الوقوف عند المعنى اللغوى لكلمتى : البطانة والعيبة ، فالبطانة : أصفياء الرجل يكشف لهم أسراره(١٠٧) أما العيبة : فهى من الرجل موضع سره ، يقال فلان : عيبة فلان أى موضع سره(١٠٨) . إذن فالأب يطلب من ابنه أن يكون اعتماده على أهل الشام وحدهم ، لأنهم أثبتوا له طاعة عمياء ، وانقياداً تامًا . ولقد ذهبت الأمثلة بطاعة أهل الشام لمعاوية مذ جاءهم عاملاً على

بعض الشام ، حتى غدا خليفة أمضى معهم نحوًا من أربعين سنة ألقوا إليه بعصا الطاعة وخبرهم : خبر نفسياتهم وعرف مدى إخلاصهم له ولأسرته(١٠٩) . من هنا يؤكد عل ابنه أن يجعل أهل الشام محل سره واهتمامه وأن يثق في وقوفهم إلى جانبه متى ما واجهه موقف ما ، وليثق بأنهم سيلبون نداءه ، فليوجههم إلى خصومه، ثم يعيدهم إلى شامهم حتى لا تتغير أخلاقهم . ولسنا ندرى هل هناك حالات فردية أو جماعية دلّت على ذلك ، أم هو التخمين والحدس فقط ؟ نقول هذا لأننا لم نعثر على دليل تاريخى حدث فيه هذا الذى يخوف ابنه منه . لا ندرى ولكن ربما يكون الحس السياسى الرفيع عند معاوية هو الذى دفعه إلى هذا .

على أننا قبل أن نغادر الحديث عن هذه الفقرة نريد القول بأنه بنهايتها ينتهى المتن الذى اختلف فيه نص عوانة عن نص أبى مخنف . وهنا نريد أن نقف وقفة عند أبى مخنف لنتساءل : لَم أهمل أبو مخنف الوصف الذى وصف به معاوية أهل الأمصار الثلاثة : الحجاز والعراق والشام ، أهى رغبتة فى بث صورة منفَرة لمعاوية تهيّج النفوس ضده فعمد إلى اظهار معاوية بمظهر العسوف المستبد ، ومن هنا أغفل هذه الرؤية السياسية الهادئة الصائبة ، وولج إلى وصف معاوية للرجال الذين خالفوه ، ثم سمح لنفسه بالتّزيد هنا والتّنقيص هناك ؟ لا ندرى ولكننا نجد قرينة ربما توضح ذلك ، هى التى جاءت فى صدر الوصية - برواية أبى مخنف بالطبع - أى تلك المتعلقة بالعبارات التى صدر بها أبو مخنف الوصية التى ساقها ، ربما للتدليل على عسف معاوية - من وجهة نظره هو - وهى : يابنى إنى قد كنت إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد .

مع أننا لا ننكر أن فى بعض هذه الأسطر شيئا كبيرا من الصحة ، ولكن اعتراضنا على إهمال ذلك النص واثبات هذه الأسطر وحدها . وننهى الحديث عن

هذه الفقرة بالتذكير بأن هذه الأسطر السالفة هى التى خلا منها نص عوانة بن الحكم حسبما ألمحنا إلى ذلك فى النقد .

ونسير مع الوصية فى فقرتها السادسة ، وهى التى يقول فيها معاوية لابنه : ... وإنى لستُ أخاف من قريش إلاّ ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير . الحقيقة أن هذه الفقرة لن تستوقفنا طويلاً ، فلقد سبق لنا القول بأن هذه الفقرة ، هى فاتحة التشابه بين نص عوانة ونص أبى مخنف ، ثم تليها الفقرات الثلاث الأخريات ، لكن مالم نقله آنذاك أن الفقرات الأربع هذه وإن تشابهت فى النصَّين إلاّ إن التشابه ليس متطابقًا فيها جميعًا ، إذ ثمة اختلاف يسير بين رواية عوانة وأبى مخنف . وهكذا فإنه فيما يتصل بهذه الفقرة السادسة من نص عوانة نلاحظ أن ثمة اختلافًا بينها وبين الفقرة المماثلة فى نص أبى مخنف . فأبو مخنف يقول : ... وإنى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلاّ أربعة نفر من قريش : الحسين ين على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر . ففى الحين الذى جاء نص عوانة يقول : إنى لست أخاف من قريش إلاّ ثلاثة ، جاء نص أبى مخنف بزيادة انحصرت فى أمرين هما : الإشارة بالقول إلى أنه لا يتخوف أن ينازعه الأمر الذى استتب له ، ثم الإشارة إلى أنهم أربعة نفر . ولقد أكدنا فى النقد أن الصواب أنهم ثلاثة لا أربعة كما زعم أبو مخنف .

وإذ وضح هذا فلنمض نحو الفقرة السابعة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد بعد أن ذكر له الثلاثة نفر الذين يخافهم عليه : ... فأمَّا ابن عمر ، فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسًا قبلك . فى البدء لابد من الإشارة إلى أن ثمّة اختلافا يسيرًا كذلك بين نص عوانة هذا ونص أبى مخنف . فأبو مخنف يقول : ... فأمَّا عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، وإذا لم يبق غيره بايعك .

وإذا تركنا هذا فلنمض فى تحليل فقرة عوانة . المعروف فعلاً أن عبد الله بن عمر والحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر قد امتنعوا عن البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية ، ولئن غيب الموت عبد الرحمن بن أبـى بكـر قبـل أن يصدر معاوية وصيته لابنه يزيد فإنّه ما زال يستشعر الخطر على ابنه من مواقـف هؤلاء الثلاثة النفر من سادة الصحابة . على أنـه يطمئـن ابنـه يزيـد مـن ابـن عمـر الصحابى ابن الصحابى ، وهو الرجل الذى وقذه الدين ، أى غلبـه . وهـو المعنـى اللغوى لعبارة وقذه(١١٠) الدين ، وهذه حقيقة فلقد انصرف ابن عمـر رضـى الله عنهما إلى الدين والعبادة بكلّيته ، وكثيرة هى المواقف التى وضح فيها زهده رضـى الله عنه فى المناصب والسلطان(١١١) . ومعاوية بتفهمه لنفسيات الرجال إدرك أن ابن عمر الذى غلبه الدين والعبادة لن يكون له خطر على يزيد ، وربما يريـد الأب من ابنه أن يحرص على عدم استعداء هذا الرجل كبير الشأن عند المسلمين(١١٢) .

وننتقل بعد هذا إلى الفقرة الثامنة مـن نـص عوانـة التـى يقـول فيهـا : وأمّـا الحسين بن على فإنه رجل خفيف ، فأرجو أن يكفيكـه الله بمـن قتـل أبـاه وخـذل أخاه ، وإن له رحمًا ماسة وحقًا عظيمًا وقرابـة مـن محمـد ﷺ . ولا أظـن أن أهـل العراق تاركيه حتى يخرجوه فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه .

لابد لنا من التذكير كذلك إلى أنه على تشابه هذه الفقرة مع الفقرة المماثلـة من نص أبى مخنف إلاّ أن ثمّة اختلافا كذلك بينهما ، ففقرة أبـى مخنـف : .. وأمّـا الحسين بن على فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجـوه . يلاحـظ هنـا انـه علـى التّطابق فى ذكر حدس معاوية مـن تأثير أهـل العـراق فـى الحسـين فـى موضـوع الخروج ، فإن هذا الحدس جاء فى صدر فقرة أبى مخنف ، فى حين جاء عند عوانة فى آخر الفقرة . هذا شئ والشئ الآخر أن هناك تطابقًا فى موضوع الرحم والحق العظيم للحسين ، وكذلك موضوع الصفح . ويبقى بعد ذلك الإشـارة إلى الزيـادة

فى نص عوانة ، وهى المتمثلة فى قول معاوية عن الحسين ، فإنه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، ثم زيادة جملتين وهما ... وقرابة من محمدﷺ ، وكذلك : فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه . هذا من ناحية الشكل، فإذا دلفنا نحو تحليل فقرة عوانة ، لرأينا معاوية يخوف ابنه يزيد من خروج الحسين بن على رضى الله عنهما عليه ، ومامن شك إن الحسين رضى الله عنه لم يكن راضيًا عن بيعة يزيد وتترجم ذلك فى الموقف الذى وقفه هو وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن ابن أبى بكر من هذا الموضوع وجاهروا به معاوية(١١٣) .

ومعاوية هنا يمضى فيبين مخاوفه من أن الحسين رضى الله عنه ربما خالف يزيدا وخرج عليه ومع توقعه من أن شيئًا من ذلك قد يحدث إلا أنه يطمئن ابنه أن أهل العراق سوف لن يمضوا طويلاً فى تأييدهم للحسين . ولقد ساق إليه موقفين سابقين لأهل العراق مع على بن أبى طالب والد الحسين ، والحسن بن على أخيه، وكلاهما يوضحان مواقف أهل العراق منهما(١١٤) . فمعاوية هنا يطمئن ابنه بأنه حتى لو حدث شئ من ذلك فلا يجزع . ولكن الأهم عند معاوية أن يرعى يزيد حق الحسين وصلته بالرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ثم يُشدِّد عليه بأن يصفح لو حدث شئ مما يتخوفه ، ويؤكد عليه أنه لو حدث هذا فى أيامه هو، فإنه سيبادر إلى الصفح إرعاء لحق الحسين ورحمه .ونختم بالقول إن هذا ليس بمستغرب من معاوية ، فالرجل يعرف من هو الحسين بن على ، ثم أنه يرى وهو السياسى المحنك إن الحكمة كل الحكمة والحنكة كل الحنكة تكمن فى تجاوز الأمر، فياليت يزيدًا فعل هذا فى تلك الأحداث المعروفة المعلومة .

ونخلص إلى الفقرة التاسعة والأخيرة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : ... وأما ابن الزبير ، فإنه خب وضب ، فإذا شخص لك فالبدله إلا إن يلتمس منك صلحًا فإن فعل فأقبل واحقن دماء قومك ما استطعت .

وقبل أن نمضى فى تحليل الفقرة لابد إقتضاء لما سرنا عليه - من ملاحظة الفروقات بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف ... ففقرة أبى مخنف تقول فى موضوع عبد الله بن الزبير : ... وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربًا إربًا. يلاحظ فرقًا واضحًا من حيث الشكل ومن حيث المضمون ، وإذا كنا قد فندنا هذه الفقرة مضمونًا فى النقد فإن مما لا فائدة منه إن نبحث عن التشابه بين الفقرتين من حيث الشكل ، فالفرق بينهما جد واضح . على كل حال فلندع هذا ولنمض فى تحليل فقرة عوانة . فى البدء يصف معاوية لابنه يزيد ، عبد الله بن الزبير بالخب والضب . أما الخب فى اللغة فهو خَبَّ خبًا : خدع وغش ، فهو خَبٌ(١١٥) . وأما الضب فإن من معانية : الحقد والغيظ الكامن فى الصدر ، ويقال رجل خب ضب : مراوغ خداع(١١٦) . وإذا ما تركنا هذا المعنى اللغوى لكلمتى : الخب والضب إلى التحليل ، لقلنا إنه سبق لمعاوية أن وصف عبد الله بن الزبير بهذا الوصف(١١٧) وكأنه كان يتحسس إن ابن الزبير رضى الله عنه سيكون له موقف مشهود من يزيد ، لذا طلب منه أنه إذا شخص إليه ، أى خرج عليه كما هو معنى الكلمة اللغوى (١١٨) فاليلبد له أى : فاليلصق به إلصاقًا شديدًا ، وهو المعنى اللغوى لكلمة : لَبَدَ(١١٩) .

إن معاوية يحذر ابنه من ابن الزبير تحذيرًا واضحًا فيدعوه إلى عدم التهاون فى الأمر اللهم إلا إن يجنح إلى الصلح ، فإن فعل فليقبل منه ذلك وكأنه يشدد عليه فى هذا ، وهو ما تدل عليه عبارة : وأحقن دماء قومك ما استطعت . نعم إنه معاوية الذى نعرفه صاحب السياسة الهادئة وصاحب المواقف التى تتفاوت : رغبة ورهبة ، الميالة إلى الإغضاء والتسامح ، هذا هو الدرس الذى طلب من أبنه أن يعيه ويحتذيه مذكرًا أياه بضرورة الحرص على الدماء من أن تسفك بكل ما

أوتى من سعة صدر ورحابه فؤاد ، وشتان بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف القاسية الملتهبة .

* * *

وبعد فهذه هى وصية معاوية لابنه وولى عهده يزيد ، وقد أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلة . ولعل القارئ يلحظ أننا سرنا بحذر شديد - وهذا ما نحسبه إن شاء الله - فى كل ما يتعلق بأراء الصحابة : معاوية والنفر الذين امتنعوا عليه فى بعضهم بعضًا ، فعلنا ذلك لئلاً تزل قدم بعد ثبوتها . وهذا هو المطلوب من المسلم أن يمسك عما شجر بين الصحابة ، وعن آرائهم فى بعضهم(١٢٠) بعضًا . هذا شئ والشئ الآخر لعل القارئ لاحظ كذلك أننا ركزنا جهدنا على تحليل الوصية فى فقراتها المختلفة داخل إطار عهد معاوية وحده دون أن نقف عند عهد يزيد والأحداث التى وقعت خلاله ، والدور الذى اضطلع به كل من الحسين بن على رضى الله عنهما ، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فى تلك الأحداث . ذلك لأن الموضوع يخرج بنا عن الهدف الأساسى للدراسة النقدية لوصية معاوية .

الهوامش والتعليقات

(١) تشكل الوصايا - جمع وصية - محورًا أو غرضا مهمًا من فنون الأدب وبحسب القارئ أن يلقى نظرة فاحصة على المؤلفات التى عالجت قضايا الأدب وفنونه ليجد الوصايا تمثل مكانًا رفيعًا فى تلك المؤلفات . وهى - أى الوصايا - بشتى نواحيها : الدينية والأسرية والسياسية ، تشكل هذا المحور، أو اللون الأدبى . ولعل تعريفها الإصطلاحى الأدبى يشى بذلك ، فهى : قول يراد به الترغيب فيما ينفع وعما يضر ، وتكون لقوم معينين فى زمن معين كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو الموت .

انظر للدلالة على اندراج الوصايا ضمن قضايا الأدب أو فنونه مثلاً : أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربى ، منشورات دار نهضة مصر ، القاهرة ، الطبعة الخامسة والعشرون - الفهرس ، وعن التعريف الأدبى الإصطلاحى للوصايا ، انظر ص : ١٨ - ١٩ .

صادر ، بيروت ، ١٩٥٥م ، ١٥ مجلدًا ، المجلد ١٥ ، ص : ٣٩٤ .

(٢) يقول ابن كثير (ت : ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر، طبعة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءًا ثم مجلد للفهارس . المجلد الرابع ، الجزء الثامن ، ص : ١٦ - ١٧ ، ١٣٥ يقول : والسنة أن يقال لمعاوية رضى الله عنه : ملك ولا يقال له خليفة ، لحديث سفينه مولى رسول الله ﷺ الذى رواه عنه ﷺ وهو : خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتى الله الملك من يشاء ، والمعلوم أن الرسول ﷺ توفى سنة إحدى عشرة من الهجرة فى شهر ربيع الأول ، وتنازل الحسن بن على لمعاوية عن الخلافة فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين " الذى عُدَّ عام الجماعة الأول " ، فكان ذلك كمال الثلاثين سنة لخلافة النبوة ، وهو من دلائل نبوته ﷺ .

(٣) عن وصايا الخلفاء الراشدين لمن سيخلفهم ، انظر مثلاً : رفيق العظم : كتاب أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة " سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر فى دولتهم " منشورات دار الرائد العربى ، بيروت ، ط ٦ ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ، مجلدان ، ٤ أجزاء ، الجزء الأول : ص١٣٥ حيث الإشارة إلى وصية أبى بكر الصديق لعمر بن الخطاب خليفته من بعده ، الجزء الثانى ، ص : ٤٧٩ حيث الإشارة إلى وصية الصديق لمن يخلفه دون تحديد للاسم.

(٤) نشرته دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، والجملة المستقاة من الكتاب وردت فى ص : ٢٨ .

(٥) ليس بإطلاق - كما لاخفاء - فقد يحل بالخليفة عارض من مرض أو موت ، أو يحدث فى الإسلام حدثًا يوجب خلعه أو عزله .

عن الخلافة وشروطها المعتبرة . والصفات المعتبرة واجبة التوفر فى الخليفة ، انظر الماوردى (ت : ٤٥٠هـ) : الأحكام السلطانية ، عنى بتصحيح السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى ، ط١ ، ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩ ، ص: ٦-٨ ، ١٨ ، ٢١ .

(٦) يكفى أن نقف عند مؤرخ قديم واحد هو الذهبى وباحث محدث هو : هو محمد منير الغضبان الذ كتب كتابًا بعنوان : معاوية بن أبى سفيان صحابى كبير وملك مجاهد ، سعى فيه إلى أن يسير على منهج المحدثين فى نقد الرواية سندًا ومتنًا . أقول يكفى أن نشير إلى هذين المؤلفين لنرى كثرة النصوص الدالة على حنكة ودهاء معاوية من خلال أقواله وأفعاله .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، مجلد ٤ ، جـ٨ ، ص : ٢١ ، ١١٨ ، ١٢٤ حيث التأكيد على ولايته لدمشق فقط .

(٨) ابن كثير نفس المصدر والمجلد والجزء أعلاه ، ص : ١٢٤ ، حيث التأكيد على أنه تولى الشام كلها فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٩) ابن كثير : نفسه ، ص ٢١ حيث الإشارة إلى أن توليه الخلافة سنة ٤١هـ، ص : ١٣٦ ، ١٤٣ حيث الإشارة إلى وفاته سنة ٦٠هـ .

(١٠-١٢) لاتنفرد الوصية السياسية بهذه الخصيصة ، بل تشترك معها الوصية الشرعية فى ذلك ، ومن المعروف أن الوصية مشروعة ابتداء ، ومشروعة أكثر فأكثر عند الموت ، وهناك نصوص قرآنية ونبوية طافحة بهذا الندب الشرعى ، المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص٤١٤ - ٤٢٢ .

من ذلك الوصية التى وجهها الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور قبل وفاته لابنه وقد توفى المنصور سنة ١٥٨هـ ، وهى السنة التى كان قد حج فيها ، وعن هذه الوصية وظروف توجيهها ، انظر الطبرى (ت : ٣١٠) : تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، منشورات التراث العربى ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء ، الجزء الثامن ، ص١٠٢ - ١٠٤ .

ومن ذلك أيضًا الوصية التى وجهها المنصور بن أبى عامر لابنه عبد الملك ، انظر ابن بسام الشنتريني (ت : ٥٤٢هـ) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ط١ ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص : ٧٦ - ٧٨ حيث الإشارة إلى الظروف المحيطة التى أملت على المنصور توجيه وصيته لابنه عبد الملك مباشرة .

(١٣) الضحاك بن قيس بن خالد الفهرى . قال البخارى : له صحبة ، وكان ذا خاصة بالخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وتولى له ولاية بعض المدن بالإضافة للشرطة ، قتل فى موقعة مرج راهط التى حدثت سنة ٦٤ أو ٦٥ للهجرة بين أنصار عبد الله بن الزبير وانصار مروان ابن الحكم .

راجع ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الثالث ، ص : ٤٧٩. كذلك راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ٢٤١ وما بعدها .

(١٤) مسلم بن عقبة بن رباح المرى " وعند ابن كثير : المزنى " أبو عقبة ، قائد من القادة القساة الفتاك فى عهد يزيد بن معاوية ، وكان مع معاوية من قبل فى معركة صفين ، عهد إليه يزيد بقيادة الجيش الأموى الذى وجّهه لأهل المدينة الذين خرجوا عليه ، فجاء فخاض مع أهل المدينة الوقعة المشهورة المعروفة بموقعة الحرة سنة ثلاث وستين للهجرة .انظر الزركلى : الإعلام - تراجم الرجال النساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠م ، ٨ مجلدات السابع ، ص : ٢٢٢ .

(١٥) انظر نص الوصية عند الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ ، حيث الإشارة الصريحة إلى أن معاوية لما حضره الموت ، وجه وصيته لابنه يزيد ، الذى كان غائبًا عن دمشق وقتها .

(١٦) أبو محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٦هـ ، عالم لغوى محدث فوق كونه مؤرخًا . له العديد من الكتب المهمة كعيون الأخبار ، والمعارف ، وأدب الكاتب ، ومشكل القرآن ، وكتاب مختلف الحديث انظر : عبد الحميد سندى الجندى : ابن قتيبة العالم الناقد الأديب، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى للتأليف والترجمة والطباعة والنشر تحت إعلام العرب (رقم ٢٢) القاهرة ، ١٩٦٣م ص ١٦٩ - ١٧٣ ، ثم انظر كذلك : عبد الله عبد الرحيم عسيلان : كتاب الإمامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ .

(١٧) نستدرك هنا فنقول : نعم وجدتُ عند أبى حنيفة الدينورى ، صاحب الأخبار الطوال ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ إلا أنه أوردها - أعنى الوصية - متداخلة فى نصيها ، أى نص أبى مخنف ، ونص عوانة بن الحكم مع إسقاط السند .

انظر الدينورى (ت : ٢٨٢هـ) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى - الإدراة العامة للثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ، ص : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(١٨) انظر ، شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون - دراسة فى تطور علم التاريخ ومعروفة رجاله فى الإسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٣م جزءان ، الجزء الأول ، ص : ٧٤ وما بعدها وكذلك انظر محمد الزحيلى : الإمام الطبرى شيخ المفسرين وعمدة المؤرخين ومقدم الفقهاء المحدثين ، صاحب المذهب الجريرى ، منشورات دار القلم ، دمشق ، بحث فى سلسلة أعلام المسلمين (رقم ٣٣) ط١ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

(١٩) يورد الذهبى فى أعلام النبلاء ، جـ٣ ، ص١٥٩ فى معرض سياق ترجمة معاوية رضى الله عنه يورد نصًا من ٣ أسطر ، عن وصيَّة أخرى لمعاوية تختلف اختلافًا كبيرًا عن الوصية التى نعنيها بنصيَّها معًا ، وذلك نقلاً عن الواقدى ، ولكن هذه الوصية لم يشر إليها أحد من المؤرخين الكبار على خلاف الوصية التى أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلية التى أشار إليها عدد من كبار المؤرخين حسبما بيّنا فى المتن . أخيرًا يورد الذهبى فى نفس ترجمته لمعاوية، ص: ١٦٠ نصًّا يفهم منه أن معاوية رفض أن يوصى . وهذا خلاف المشهور .

(٢٠) الواقع إننا لسنا معنيين هنا مباشرة بالحديث عن عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد بالخلافة . وهى القضية التى أفرزت مسألة ولاية العهد لأول مرة فى التاريخ الإسلامى ، كما أننا لسنا معنيين بمناقشة الأقوال التى دارت حول فعل معاوية رضى الله عنه ، والموقف منه ، ويكفى أن نشير إلى أن ثمّة أقوالاً ، دارت حول هذه القضية بين معترض عليها وبين مؤيد لها ، وفريق - وهم علماء الأمة ومؤرخوها الثقات - ذكروا أن معاوية رضى الله عنه كان فيها مجتهدًا . وللوقوف على هذه الأقوال يكفى أن نحيل القارئ إلى كتاب : تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى أو إفادة الأخبار ببراءة الأبرار لمحمد العربى التبانى الذى نشرته دار الكتب العلمية بيروت ط٢ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م فى جزئين ، الجزء الثانى ، ص : ١٨٩ - ٢٠٠ حيث الإشارة إلى التحقيق الأصولى لهذه القضية وكذلك راجع محمد منير الغضبان : معاوية بن أبى سفيان - صحابى كبير وملك مجاهد ، ص : ٣٠٨ - ٣٢٠ ، وفيها تحقيق تاريخى وأصولى جيد فى معظمها .

(٢١) تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ .

(٢٢) نفسه ، ص : ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢٣) راجع تعريف الوصية فى الأدب ، قبل ، ص : ٣٩ ، حاشية (١) .

(٢٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، المجلد الأول ، الجزء الأول ص : ١٧١ .

(٢٥) رفيق العظم : اشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة ، جـ١ ، ص : ٨٣٥ جـ٤ ، ص : ٤٨٩ .

(٢٦) ابن كثير : نفسه ، ص : ٦٧ .

(٢٧) ابن كثير : نفسه ، ص : ١٨٢ .

(٢٨) عن الوضع والوضّاعين ، وعن هذه المنهجية العلمية الأصيلة التى أهداها المسلمون إلى مسيرة الحياة العلمية بخاصة ، والحضارية بعامة ، وما اقتضاه ذلك من نشوء علمى مصطلح الحديث ، والجرح والتعديل ، انظر مثلاً :

مصطفى السباعى : السنّة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ، منشورات المكتب الإسلامى ، بيروت - دمشق . ط٤ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الفصول ٢،٣،٤،٥، ص : ٧٥ - ١٣٢ - صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١٥ ، ١٩٨٤ ، ص٢٦٣ - ٢٧٣ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط١٠ ، ١٩٦٩م ، ص : ٢٠٨ - ٢١٩ ، ٢٢١ - ٢٢٤ .

(٢٩) الدعوة إلى إعادة صياغة التاريخ الإسلامى وفق قواعد المحدثين - ما أمكن ذلك - انطلقت من فترة ليست بالطويلة من أناس غيورين ، ثم طرحت على هيئات وتنظيمات عالمية إسلامية ، وفى المملكة العربية السعودية أخذت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة على عاتقها توجيه طلاب الدراسات العليا التاريخية بها ، إلى إجراء دراسات تاريخية تطبيقية وفق قواعد المحدثين لفترة صدر الإسلام .

وللتوسع والاستزادة عن هذا الموضوع راجع : محمد بن صامل العليانى السلمى : منهج كتابة التاريخ الإسلامى مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين ، منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ط١ ١٤٠٦/١٩٨٦م ، ص : ٨ - ١٤ وراجع كذلك ، أكرم ضياء العمرى : المجتمع المدنى فى عهد النبوة : خصائصه وتنظيماته الأولى .. محاولة لتطبيق قواعد المحدثين فى نقد الروايات التاريخية ، منشورات المجلس العلمى لإحياء التراث الإسلامى بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ ، ص : ٩ - ٣١ .

(٣٠) ساق ابن النديم (ت ٣٨٠هـ) : الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ص : ١٣٦ - ١٣٧ ترجمة طويلة مسهبة لأبى مخنف، اكتفينا منها فقط بما تم إيراده فى المتن .

(٣١) هذا الباحث هو : يحيى بن إبراهيم بن على اليحيى الذى أعدّ رسالته للماجستير بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان : مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة - دراسة نقدية ، وقد نشرت هذه الرسالة بهذا العنوان ، دار العصمة ، الرياض، ط١ ، ١٤١٠هـ .

(٣٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ، حـ٧ . بتحقيق على أبى زيد ، ص : ٢٠١ ، هذا ما أشارت إليه أكثر مصادر التاريخ ، بيد أن ابن حجر العسقلانى يؤكد على أن وفاته كانت سنة ١٥٨هـ . انظر ابن حجر (٨٥٢هـ) : لسان الميزان ، منشورات دار الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م ، ٧ أجزاء ، حـ٤ ، ص : ٣٨٦ .

(٣٣) الجزء العاشر بتحقيق محمد نعيم العرقسوس ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣٤) ابن حجر : تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، جزءان ، دون سنة للطبع ، الجزء الأول ص : ٥٢٤ ، وفى كتابه تهذيب التهذيب تفصيل كبير فى ترجمة عبد الملك ، ولعلنا نعود إليها فيما بعد ، انظر ابن حجر : تهذيب ، منشورات دار مطبعة مجلة دائرة المعارف النظامية فى الهند (حيدر آباد) ط١ ، ١٣٢٦هـ ، ١٢ جزء ، حـ٦ ، ص : ٤٢٨ .

(٣٥) ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) : الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند - ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء ، الجزء السابع ، ص: ١٨٢

(٣٦) ابن عدى (ت ٣٦٥هـ) : الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء ، الجزء السادس ، ص : ٩٣ .

(٣٧) نفس الجزء والصفحة أعلاه .

(٣٨) حققّه على محمد البجاوى ، ونشرته دار المعرفة ببيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م فى ٤ أجزاء ، والعبارة المشار إليها فى المتن وردت فى الجزء الثالث ، ص : ٤٣٠ .

(٣٩) الجزء السابع ص : ٣٠١ - ٣٠٢ بتحقيق على أبى زيد .

(٤٠) البَابَه : الوجه ، وقد علّق محقّق الجزء السابع من سير أعلام النبلاء على أبى زيد على الحاشية رقم ٢ ص : ٣٠٢ أن مراد الذهبى هنا أن أبا مخنف مساوٍ للثلاثة الذين ذكرهم فى ترجمته لأبى مخنف فى الضعف والمنزلة ، وقد عاد المحقق فى تحقيق معنى البابة اللغوى لابن السكيت فى كتابه : إصلاح المنطق .

(٤١) سيف بن عمر الضبى الأسدى ، ويقال التميمى البرجمى ، ويقال السعدى الكوفى مصنّف الفتوح والردة (أى أخبار الردة) وغير ذلك .

للمزيد من الترجمة له وأقوال علماء الجرح والتعديل فيه ، انظر الذهبى ، ميزان الاعتدال، حـ٢ ، ص : ٢٥٥ .

(٤٢) عبد الله بن عياش الهمداني المنتوف ، توفى سنة ثمان وخمسين ومائة ، إخبارى صدوق كما قال الذهبى ، ميزان الاعتدال ، حـ٢ ص : ٤٧٠ حيث نقلنا عنه .

(٤٣) منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر المحمية ، ١٣٢١هـ ، جزءان وبهامشه الكتاب المسمى بيان موافقه صريح المعقول لصحيح النقل ، له نفسه أى لابن تيمية ، والنص المنقول فى المتن ورد فى الجزء الأو ص : ١٣ .

(٤٤) منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، ص : ١٧ وما بعدها .

(٤٥) إسحاق بن بشر ، أبو حذيفة البخارى صاحب كتاب المبتدأ . توفى سنة ٢٠٦هـ ، كما يقول الذهبى فى ميزان الاعتدال ، حـ١ ص١٨٤ - ١٨٦ حيث عقد له بجانب هذا التعريف ترجمة طويلة - إلى حد ما - حشاها بعبارات علماء الجرح والتعديل ، مثل : تركوه أى علماء الجرح والتعديل ، وكذّبوه ، وكذلك ضعيف ... إلخ .

(٤٦) الجزء الرابع ، ص : ٣٨٦ .

(٤٧) ص١٣٤ .

(٤٨) منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م منقّحة ومصحّحة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ، ٢٠ جزءًا ، مجلد ٨ ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٦ - ١٣٩ .

(٤٩) الجزء السابع ، ص : ٢٠١ .

(٥٠) حققّه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار الكتب العلمية . بيروت ، دون سنة للطبع-٤ أجزاء ، الجزء الأول ، ص:١٧٦.

(٥١) منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات ، المجلد الأول ص : ٢٤٣ .

(٥٢) الجزء السابع ص : ٢٠١ .

(٥٣) الجزء الرابع ، ص : ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٥٤) الجزء العاشر ، ص : ١٠١ - ١٠٣ .

(٥٥) الجزء الثانى ، ص : ٥٢٤ .

(٥٦) راجع مقدمة ابن حجر فى كتابه تقريب التهذيب ، حـ١ ، ص : ٣ - ٧ حيث الإشارة إلى منهجه .

(٥٧) ص : ٨٨ أ .

(٥٨) المرجع السابق ، ص : ١٤٠ .

(٥٩) راجع الحاشية ص ٤٩ .

(٦٠) المصدر السابق ص : ١٣٤ .

(٦١) المجلد الثامن ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٨ .

(٦٢) عن الإخباريين وميولهم والتدوين التاريخي وما نتج عنه من نشأة المدارس التاريخية، راجع أحمد أمين: ضحى الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط ١٠، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء ، جـ٢ ص : ٣٣٨ - ٣٤٢ . شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ، الجزء الأول ، الفصول ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ولا سيما الفصل الخامس. ص : ١٦٩-٢٠٠.

(٦٣) المرجع السابق ، والجزء أعلاه ، ص : ١٨٠ .

(٦٤) كتب كثير من الباحثين المحدثين عن هذه العلاقة بين الأمويين وقبيلة كلب اليمنية منذ أن بدأت هذه العلاقة بزواج الخليفة الأموى المؤسس معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه من ميسون بنت بجدل الكلبية وهى أم ابنه يزيد .

للاستزادة عن هذا الموضوع راجع مثلاً ، محمد الطيِّب النجار:الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ، ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة .ط٣ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص:١٣٨-١٤٠ ، يوسف العش . الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهَّدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص : ١٨٤-١٩٢.

(٦٥) أى أنصار عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، الذين روَّجوا لدعوته ، ثم أيَّدوا مواقفه سواء بالتأييد الحسى أو بالتأييد المعنوى عن طريق كتابة الروايات عن أحقيته بالخلافة ، راجع محمد الطيِّب النجار : المرجع السابق أعلاه ، ص : ٧٥ وما بعدها ، على حسن الخربوطلى : عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والأنباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤م، ص : ٢٥٨ وما بعدها حيث الإشارة إلى التيار المؤيِّد لعبد الله بن الزبير رضى الله عنه من الأدباء وغيرهم .

(٦٦) ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ٦ ، ص : ٤٢٨ .

(٦٧) ابن حجر : ابن حجر : نفس المصدر أعلاه ، جـ١٠ ، ص : ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٦٨) حُوَّارين : بالضم وتشديد الواو ، قرية من قرى حلب معروفة ، وحُوَّارين : حصن من ناحية حمص .

ياقوت الحموى / معجم البلدان ، منشورات دار صادر بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص : ٣١٥ - ٣١٦ . ويبدو أن حُوَّارين الثانية ، أى الحصن الذى من ناحية حمص ، هو المقصود هنا ، على خلاف تلك القرية من نواحى حلب البعيدة عن دمشق كثيرًا . وهى التى مات بها يزيد .

(٦٩) بجانب ما كتبه الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، جـ٣ ، ص : ١٦١ - ١٦٢ فى ترجمته لمعاوية بن أبى سفيان من تأكيد على أن يزيدًا كان خارج دمشق فى حُوَّارين ، عاد فذكر الأمر نفسه فى الجزء الرابع ص : ١٣٦ فى ترجمته ليزيد ابن معاوية وقد أكَّد على ذلك أيضًا ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) : الكامل فى التاريخ ، عُنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الكتاب العربى بيروت ط٢ ، ١٤٠٠/١٩٨٠م ١٠ أجزاء ، الجزء الثالث ، ص : ٢٦٠ حيث عبارات التأكيد التى ختمها بقوله : وهو الصحيح . ثم أكَّد ابن كثير كذلك عليه حسبما أكَّدنا فى المتن . فى المجلد الرابع ، الجزء الثامن من المصدر السابق ص: ١٤٣ وقال هو رأى الجمهور .

(٧٠) انظر ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م، ٧ أجزاء الجزء الثالث ، ص : ٤٦٦ - ٤٦٩ .

ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الرابع : ص ٣٢٥ - ٣٢٨ ، وانظر كذلك ابن عبد البر (ت ٤٦٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص : ٣٩٤ .

(٧١) نفسه ، ص : ١١٥ .

(٧٢) ابن كثير : نفسه ، ص : ٧٩.

(٧٣) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، الجزء الثانى ، ص : ٤٧١ - ٤٧٣ مع الحواشى ، ابن حجر : الإصابة ، القسم الرابع ، ص : ٣٢٨ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ٩٠ .

(٧٤) نفس المصدر أعلاه والجزء ص : ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٧٥) انظر ابن حجر : نفسه ، ص : ٣٢٨ .

(٧٦) ابن كثير ، نفسه ، ص : ٧٩ - ٨٠ . وعنده أن عدد النفر الذين امتنعوا عن إعطاء البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية خمسة ، هم أولئك الذين ذكرناهم فى المتن ، إضافة إلى عبد الله بن عباس . وهذا خلاف المشهور والراجح عند المؤرخين من أنهم أربعة .

(٧٧) انظر إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد المجيد ومحمد على النجار : المعجم الوسيط ، إشراف عبد السلام هارون ، منشورات دار إحياء التراث العربى ، المكتبة العلمية ، طهران ، دون سنة للطبع ن جزءان ، الجزء الأول ، ص : ١٠٧ .

(٧٨) انظر النويرى : نهاية الأرب ، جـ٩ ، ص : ٢٢٩ حيث الإشارة إلى عادات وصفات الأسود .

(٧٩) إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط جـ١ ، ص : ٣٨٤ .

(٨٠) انظر النويرى : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص : ٢٧٩ حيث الإشارة إلى صفات الثعالب .

(٨١) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفس المعجم والجزء أعلاه ص : ١٢ .

(٨٢) حجر بن عدى بن معاوية بن حبلة الكندى ، يعرف بحجر بن الأدبر ، وحجر الخير ، اختلف فى صحبته ، والأشهر أنه صحابى ، كان من كبار أشياع الخليفة على بن أبى طالب،قتل سنة ٥١ وقيل ٥٣هـ، بأمر من معاوية. ابن حجر، نفسه ، القسم الثانى،ص: ١٦٨.

(٨٣) مقتل حجر رضى الله عنه بأمر معاوية رضى الله عنه من القضايا التى يحسن بنا أن نمسك عنها ، إذ أننا لسنا معنيين بالتدخل فيما شجر بينهما - أى الصحابة - من الخلاف - ولقد لامت السيدة عائشة رضى الله عنها معاوية لفعله ذلك ، فوضّح لها أنه رأى فى ذلك إصلاحًا للأمة . انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٥٥ .

(٨٤) راجع خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى، منشورات دا القلم ودار الرسالة ، بيروت ودمشق ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص : ٢١٥ وما بعدها وإسنادها صحيح .

(٨٥) انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٨٥ .

(٨٦) راجع خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص : ٢١٧ .

(٨٧) كتب كثير من العلماء والمؤرخين الثقات عن فضل ومكانة الصحابة رضوان الله عليهم وما الموقف الذى يجب أن نقفه ممّا شجر بينهم من خلاف كانوا فيه بين مجتهد مصيب ، ومجتهد مخطىء متأول وقد أُلِّفت فى ذلك بعض الكتب .

للوقوف على هذا الموضوع ، راجع محمد العربى التبانى : تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى ، حـ١ ، ص : ٣٦ - ٤٣ ، ١٧٨ - ٢١٨ ، حـ٢ ، ص : ٢٦ - ٢٨ ، ٥٦ - ٨٧، حيث فيه جماع أقوال علماء السلف فى ذلك . وانظر كذلك محمد صامل السلمى : منهج كتابة التاريخ الإسلامى ص : ١٨٩ - ٢٦٩ .

(٨٨) ابن العربى (ت : ٥٤٣هـ) : العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ ، خرّج أحاديث وعلّق عليه محمود مهدى الاستانبولى ، حقّقه وعلّق حواشيه محب الدين الخطيب ، ص : ١٣٩ حيث استلت هذه العبارة من تعليقه - أى محب الدين الخطيب - .

(٨٩) انظر مثلاً ابن حجر : لسان الميزان ، حـ٤ ، ص : ٣٨٦ .

(٩٠) نفسه ص : ١٤٣ .

(٩١) من أشهر الوصايا فى هذا الصدد وصية عبد الملك بن مروان لإبنائه ، عن هذه الوصية انظر ابن كثير ، نفسه ، ص : ٨٥ .

(٩٢) انظر هذه الحالات والمواقف عند ابن كثير : نفسه ، ص : ٣٧ ، ٤٢ ، ٩٤ ، ١٣٢ ، ١٣٧ - ١٣٨ . وقد ألّف أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد إبراهيم الشريف مؤلّفًا بعنوان : دور الحجاز السياسى فى القرنين الأول والثانى الهجريين .

(٩٣) انظر بن كثير : نفسه ، ص : ١٣٧ - ١٣٨ .

(٩٤) كان ذلك فىسنة٤٤هـ على الأرجح. راجع ابن كثير: نفسه ، ص١٣١-١٣٢.

(٩٥) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص : ٢١٣ - ٢١٥ .

(٩٦) انظر ابن كثير ، نفسه ص : ١٣٥ .

(٩٧) قال معاوية : .. لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل كيف يا أمير المؤمنين ، قال : كانوا إذا مدّوها خليتها ، وإذا خلوها مددتها .

راجع اليعقوبى ، (ت : ٢٨٤هـ) تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر ، بيروت مجلدان ، دون سنة للطبع ، المجلد الثانى ، ص : ٢٣٨ .

(٩٨) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ص : ١٥٤ .

(٩٩) انظر أمثلة ذلك والتحقيق الأصولى الجيِّد فى توضيح أسباب ذلك لدى محمد العربى التبانى ، المرجع السابق ، حـ١ ، ص : ٢٠٤ - ٢٠٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(١٠٠) انظر محمد العربى التبانى : نفس المرجع السابق ، جـ٢ ص : ٢٠٥ وما بعدها حيث توسع فى هذا الجانب الذى عاد فيه إلى عدد كبير من المصادر والمراجع ذات الصلة .

(١٠١) انظر الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، جـ٣ ، ص : ١٢٤ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٩ .

(١٠٢) راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٦ ، ١٣٥ - ١٣٧ .

(١٠٣) انظر أمثلة هذا عند الذهبى : نفسه ، جـ٣ ص : ١٣٢ - ١٣٣ ، ابن كثير : نفسه ص : ١٢٦ ، ١٣٥ - ١٣٧ .

(١٠٤) انظر الذهبى ، نفسه ، جـ٤ ، ص : ٩٥ حيث الإشارة إلى عزل معاوية عاملة على العراق عبيد الله بن زياد ، بطلبٍ من أهل العراق ثم إعادته بعد ذلك .

(١٠٥) انظر ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء ، جـ٢ ، ص : ٥٠٠ .

(١٠٦) ابن كثير : نفسه ص : ١٣٩ .

(١٠٧) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ١ ، ص : ٦١ .

(١٠٨) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ٢ ، ص : ٦٤٥ .

(١٠٩) انظر الذهبى : نفسه ، جـ٣ ، ص : ١٢٨ ، ١٣٣ - ١٤١ ، ابن كثير ، نفسه، ص : ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٨ - ١٢٩ . وانظر فى هذا الصدد يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدّت لها ابتداءً من فتنة عثمان ، ص : ١٥٦ - ١٦٢ حيث تحليل سياسى واسع لواقع بلاد الشام ونظرتها لمعاوية .

(١١٠) انظر إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ٢ ص : ١٦٠١ .

(١١١) نُحيل القارئ إلى ترجمة ابن عمر لدى الذهبى : نفسه ، جـ٣ ، ص : ٢١٦ ، ٢١٩ ، ١٢٤ ، ٢٦٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ .

(١١٢) يقول الذهبى : نفسه ، ص : ٢٢١ نقلاً عن الإمام مالك بن أنس إن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ظل إمامًا للناس يفتيهم مدة ستين سنة .

(١١٣) انظر قبل ، ص : ٢٢ - ٢٤ مع الحواشى .

(١١٤) الحقيقة أن الموقف الذى ذكره معاوية رضى الله عنه عن خذلان أهل العراق للحسن بن على رضى اللع عنهما إنما هو حقيقة فعلاً وقد ذكرها المؤرخون ومعاوية يقصد هنا حادثة طعن أحد جنود معسكر الحسن له فى الجيش الذى جيّشه للقاء معاوية بقيادة قيس بن

سعد بن عبادة ، ولقد نهب معسكره كذلك ، وهى الحادثة التى أصابت الحسن رضى الله عنه بالمرارة من أهل العراق . انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٤ - ١٥ ، ١٧ .

لكن الواقع أن الموقف الأول الذى عبّر عنه معاوية رضى الله عنه بالقول إن أهل العراق قتلوا عليا بن أبى طالب ، يحتاج إلى توقُّف فالمعلوم أن عليًا رضى الله عنه قُتل على يد أحد أشقياء الخوارج الذين كان رأيهم فى على ومعاوية رضى الله عنهما معًا سيئًا .

(١١٥) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ١ ص : ٢١٢ .

(١١٦) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ١ ، ص : ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(١١٧) ابن كثير ، نفسه ، ص : ١٣٧ .

(١١٨) إبراهيم مصطفى : نفسه ، جـ١ ، ص : ٤٨٧ .

(١١٩) إبراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، جـ٢ ، ص : ٨١٨ .

(١٢٠) راجع محمد بن صامل السلمى : المرجع السابق ، ص : ٢٠٩ - ٢٣٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) :

١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء .

٢ - الكامل فى التاريخ ، عُنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، منشورات دار الكتاب العربى ، ط٢ ، ١٤٠٠ - ١٩٨٠ ، ١٠ أجزاء .

ابن بسام الشنترينى (ت ٥٤٢هـ) :

٣ - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ . ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان .

ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) :

٤ - الرد على البكرى، منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ.

٥ - منهاج السنة ، منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، القاهرة ، ١٣٢١هـ جزءان وبهامشه الكتاب المسمى ببيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، له نفسه .

ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) :

٦ - كتاب الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء .

ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) :

٧ - الإصابة فى تمييز الصحابة ، حقق أصوله وضبط أعلامه ، ووضع فهارسه على محمد البجاوى ، منشورات دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ٨ أقسام .

٨ - تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، دون سنة للطبع ، جزءان .

٩ - تهذيب التهذيب ، منشورات مطبعة مجلة دائرة المعارف النظامية بالهند ، (حيدر آباد) ، ط١ ، ١٣٢٦هـ ، ١٢ جزءًا .

١٠ - لسان الميزان ، منشورات دار الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، ط٢ ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، ٧ أجزاء .

ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) :

١١ - وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء .

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) :

١٢ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ، دمشق ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

أبو داود السجستانى (ت ٣٧٥هـ) :

١٣ - سُنن أبى داود ، راجعه على عدَّة نسخ وضبط أحاديثه وعلَّق حواشيه محمد محى الدين عبد الحميد ، منشوارت دار إحياء السنة النبوية ، القاهرة، دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .

الدينورى (ت ٢٨٢هـ) :

١٤ - الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة لثقافة والإرشاد القومى ، الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .

الذهبى (ت ٧٤٨هـ) :

١٥ - سير النبلاء ، أشرف على تحقيق الكتاب وخرَّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م ، ٢٥ جزءًا .

١٦ – العبر فى أخبار من غبر . حقّقه وضبطه على مخطوطتين أبـو هـاجر : محمـد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيـع ، بيروت ، ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات .

١٧ – ميزان الاعتدال ، حقّقه على محمد البجاوى ، نشرته دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م ، ٤ أجزاء .

الطبرى (ت ٣١٠هـ) :

١٨ – تاريخ الأمم والملـوك ، تحقيـق محمـد أبـو الفضـل إبراهيـم ، منشـورات دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء .

ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) :

١٩ – الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، منشـورات دار الكتـاب العربـى بـيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .

ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) :

٢٠ – العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، تقديم ممدوح حقى ، منشـورات دار الفكر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، ٤ مجلدات ، ٨ أجزاء .

ابن عدى (ت ٣٦٥هـ) :

٢١ – الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء .

ابن العربى (ت ٥٤٣هـ) :

٢٢ – العواصم من القواصم ، خرَّج أحاديثه وعلّق عليه محمد مهـدى الاسـتانبولى ، حقّقـه وعلـق حواشيه محـب الديـن الخطيـب ، منشـوارت مكتبـة السـنة ، القاهرة، ط٥ ، ١٤٠٨هـ .

ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ) :

٢٣ – شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات .

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) :

٢٤ - البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءًا ثم مجلد الفهارس .

الماوردى (ت ٤٥٠هـ) :

٢٥ - الأحكام السلطانية، عُني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى، ط١ ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م .

ابن منظور (ت ٧١١هـ) :

٢٦ - لسان العرب، منشورات دار صادر، بيروت ، ١٩٥٥م ، ١٥ مجلدًا.

ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) :

٢٧ - الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

النويرى (ت ٧٢٣هـ) :

٢٨ - نهاية الأرب فى فنون الأدب ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر سلسلة من تراثنا ، القاهرة ، ٣٠ جزءًا .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) :

٢٩ - معجم الأدباء ، منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، منقّحة ومصحَّحة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ٢٠ جزءًا .

٣٠ - معجم البلدان ، منشورات دار صادر ، ودار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء .

اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) :

٣١ - تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر، بيروت ، دون سنة للطبع ، مجلدان.

ثانيًا : المراجع

إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ومحمد على النجار:

١ - المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، جزءان ؛ ١٩٦٠م .

أحمد أمين :

٢ - ضحى الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط١٠ ، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء .

٣ - فجر الإسلام ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ط١٠ ، ١٩٦٩م .

أحمد حسن الزيات :

٤ - تاريخ الأدب العربى ، منشورات دار نهضة مصر ، ط٢٥ .

أكرم ضياء العمرى :

٥ - المجتمع المدنى فى عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الأولى - محاولة لتطبيق قواعد المحدِّثين فى نقد الروايات التاريخية ، منشورات المجلس العلمى لإحياء التراث الإسلامى بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

رفيق العظيم :

٦ - أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة (سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر فى دولتهم) منشورات دار الرائد العربى ، ط٦ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، مجلدان ، ٤ أجزاء .

الزركلى :

٧ - الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،منشورات دار العلم للملايين، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠ ، ٨ مجلدات.

سيد سابق :

٨ - فقه السنة ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ٣ مجلدات .

شاكر مصطفى :

٩ - التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الإسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٣ ، جزءان .

صبحى الصالح :

١٠ - علوم الحديث ومصطلحه ، منشوارت دار العلم للملايين ، بيروت ،ط١٥، ١٩٨٤م .

عبد الله عبد الرحيم عسيلان :

١١ - كتاب الإمامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات مكتبة الدار، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ .

عبد المجيد سندى الجندى :

١٢ - ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى للتأليف والترجمة والطباعة والنشر تحت سلسلة أعلام العرب رقم (٢) القاهرة ١٩٦٣م .

عبد الوهاب النجار :

١٣ - الخلفاء الراشدون ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

على حسنى الخربوطلى .

١٤ - عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٤٣، القاهرة ، ١٩٦٤م .

محمد الزحيلى :

١٥ - الإمام الطبرى ، شيخ المفسرين ، وعمدة المؤرخين ، ومقدم الفقهاء والمحدثين صاحب المذهب الجريرى ، منشورات دار القلم ، دمشق تحت سلسلة أعلام المسلمين رقم (٣٣) ، ط١ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

محمد بن صامل العلياني السلمي :

١٦ - منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

محمد الطيب النجار :

١٧ - الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة ، ط٣ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

محمد العربى التبانى :

١٨ - تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى أو إفادة الأخبار ببراءة الأبرار، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م . جزءان.

محمد منير الغضبان :

١٩ - معاوية بن أبى سفيان : صحابى كبير وملك مجاهد ،منشورات دار القلم ، دمشق ، وبيروت سلسلة أعلام المسلمين ، رقم (٢١) ، ط١ ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

مصطفى السباعى :

٢٠ - السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ، منشورات المكتب الإسلامى، بيروت ، دمشق ، ط١٥ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

يحيى بن إبراهيم بن علي اليحيى :

٢١ - مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة - دراسة نقدية ، منشورات دار العاصمة ، الرياض ، ط١٠ ، ١٤١٠ هـ .

يوسف العش :

٢٢ - الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهّدت لها ابتداءً من فتنة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ط٢ ، ١٩٨٥م .

الإسلام واللغة العربية فى دول الطراز الإسلامى

خلال العصور الوسطى

د/ غيثان بن على بن جريس *

لعبت الهجرات العربية الإسلامية إلى شرق أفريقية دورًا هامًا فى تشكيل تاريخ تلك المنطقة اقتصاديًا وسياسيًا ودينيًا . ذلك أن الإمارات والمراكز التى أنشأها العرب المسلمون فى كل من بلاد الحبشة والصومال أسهمت إسهامًا إيجابيًا فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى إلى الساحل الأفريقى ، ومن ثم إلى الداخل(١).

ولم تكن سواحل الحبشة والصومال مجهولة لدى العالم الخارجى منذ أقدم العصور ، فقد كشفت البحوث التاريخية والأثرية عن صلات قديمة ومستمرة بين أهالى هذه السواحل وشعوب العالم الأخرى ، ليس فقط الشعوب القريبة جغرافيًا، ولكن أيضًا الشعوب البعيدة مثل الهنود والصينيين . ومن خلال اشتغال العرب بالدراسات الجغرافية والفلكية والطبيعية والتجارية ، عرفوا الساحل الأفريقى . ومن أشهر الرواد العرب الذين تحدثوا عن الساحل الشرقى لأفريقية من الناحيتين العلمية والنظرية : المسعودى وابن حوقل والإدريسى وياقوت الحموى وابن بطوطة والقلقشندى والمقريزى وأبو الفداء وغيرهم(٢).

يضاف إلى ذلك تقدم العرب فى فنون الملاحة وما يقتضيه من معارف ، أهمها معرفة الطرق البحرية الآمنة ، ونظام سير الرياح ومواقيتها ومواقع البلاد والجزر ، ووقوفهم على الآلات التى ساعدتهم على الملاحة مثل البوصلة والإبرة المغناطيسية فضلاً عن رسم الخرائط ، وكل ذلك أدى إلى تسهيل الروابط مع شرق أفريقية . والعرب الذين اشتهروا بصناعة السفن هم عرب الجنوب فى الجزيرة

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك - كلية التربية - جامعة الملك سعود - فرع أبها .

العربية ، ولا سيما عرب عمان . وقد عرف عرب عمان بمهارتهم فى صناعة السفن وتفوقهم فى أعمال الملاحة ، وسارت سفنهم فى المحيط الهندى حتى وصلت سواحل شرق أفريقية(٣) .

والثابت أن العرب كانوا أهم الشعوب التى اتصلت ببلاد الحبشة والصومال منذ القدم ، وأبقاهم أثرًا فى تلك البقعة من القارة . وساعد على ذلك عامل القرب الجغرافى ، وقد نشطوا فى الاتصال بأثيوبيا والصومال منذ زمن دول معين وسبأ وحمير التى كان لها نشاط كبير فى الحركة التجارية البرية والبحرية ، وتمكنت من السيطرة على تجارة العالم القديم فى المحيط الهندى وسواحل أفريقية الشرقية . كذلك كان لعرب الحجاز دور كبير فى الاتصال والتجارة ، وقد سيطروا سيطرة تامة على التجارة وطرق القوافل بعد تدهور دول الجنوب منذ القرن السادس الميلادى(٤) .

ثم كان أن قامت الدعوة للدين الإسلامى فى أثيوبيا منذ ظهوره ، ويمكن أن يؤرخ لدخول الإسلام فى أثيوبيا بهجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة ، وخاصة بعد أن أظهر النجاشى أرماح (أصحمة) اعتناقه للإسلام . وقد تدفقت على أثر ذلك مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من عرب وغيرهم لإنشاء مراكز عربية ثابتة ، ونشر الإسلام بين القبائل التى كان من أهمها : الصوماليون والأحباش والدناقل والجالا والبجة والبانتو ، فضلاً عن الاريتريين وغيرهم . وكثر توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية بعد أن دانت لهم بلاد العرب ، وأصبحوا يتحكمون فى طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ولا سيما بين عدن وصنعاء ، كما أسهموا بنشاط كبير فى التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر . وعبرت مجموعات قليلة من تجار العرب إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر ، كما اخترق عدد من هؤلاء الحدود الحبشية وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج ،

بل إن العرب المسلمين استطاعوا بنشاطهم أن يتحكموا فى ميناء عدوليس (Adulis) وهو ثغر الحبشة وميناؤها العظيم(٥) .

وكانت مملكة أكسوم الحبشية فى ذلك الوقت فى طريقها إلى الإنحطاط . وفى الوقت نفسه كان الإسلام يتقدم بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل ، حيث بدأ المسلمون فى الإمتزاج بالوطنيين وصاهروهم ، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجيًا ، فأعتنقته عناصر الساهو والعفر فى شرقى الحبشة ، كما أنه امتد إلى المناطق السيدامو وشوا الشرقية فى الجنوب من الحبشة(٦) .

كذلك انتشر المسلمون شمالاً فى ارتيريا ومنظمة البجة ، وشجعهم على ذلك غنى تلك المناطق بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد . وقد تزايد عدد المسلمين فى الحبشة واريتريا ومنطقة البجة ، وأشهر القبائل العربية التى استقرت فى هذه المناطق قوم من ربيعة وقحطان ، إلا أن قبائل ربيعه كانت أقوى العناصر ، حتى سادت وغلبت على ما جاورها من العرب القحطانيين(٧) .

وهكذا امتدت الرقعة الإسلامية على طول منطقة القرن الأفريقى ، وفى داخلها حتى منطقة وادى النيل الجنوبى والأوسط ، حيث قامت مشيخات إسلامية فى فترة التوسع الإسلامى البارزة التى تقع ما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (العاشر والثانى عشر الميلاديين) ، وهى فترة التوسع المنظمة للإسلام دينًا ودولة ، من ناحية نشر العقيدة الإسلامية عن طريق الدعوة الهادئة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتدعيم سلطان الممالك والمشيخات الإسلامية داخل البلاد ، على حساب مملكة أكسوم الحبشية المتداعية . وقد تحولت كل منطقة نهر جوبا للإسلام ، وامتدت الرقعة الإسلامية حتى منطقة البحيرات العظمى وذلك فى عام (٥٠٢هـ / ١١٠٨م)(٨) .

وقد تلا ذلك قيام المشيخات الإسلامية التى سبقت الإشارة إليها مثل عدال وهرر وهوبات ، والتى لم تعمر طويلاً نظرًا للخلافات التى قامت فيما بينها ، فضلاً عن أن عنايتها كانت منصبة على شئون التجارة ، ولا سيما تجارة الرقيق ، ثم تلا ذلك قيام ممالك إسلامية قوية ومزدهرة ، أصبحت تحيط بالحبشة من كل جانب ، وغدت هذه الممالك الإسلامية تسيطر على كل الرقعة الإسلامية الممتدة من سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وأجزاء من أفريقية الشرقية ممتدة على الساحل إلى الداخل الأفريقى . وبفضل هذا الوضع الجغرافى الممتاز أصبحت تحيط بالحبشة من الناحية الشرقية وتقابل اليمن فى الجزيرة العربية ، ولذلك نعتها المؤرخون بمنطقة الطراز الإسلامى ، لأنها على جانب البحر كالطراز له(٩) .

وقد اشتهر فى هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك ، هى **أوفات** ، **دوارو**، **أرابينى** ، **هدية** ، **شرخا** ، **بالى** ، **وداره**(١٠) وهذا عدا مشيخات الساحل الصومالى التى امتدت على طول الساحل المعروف بساحل الزنج(١١) . وقد أفردنا لمملكة أوفات الإسلامية حيزًا خاصًا فى مقالين مختلفين(١٢) .

والملاحظ أن تكوين هذه الممالك اتسم بالطابع السلمى التجارى أو الاقتصادى بصفة عامة ، هذا فضلاً عن أن هذه الممالك ارتبطت بالعالم الإسلامى، وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق والقاهرة . وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز ،فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد الأموى بدمشق ، وكذلك أفرد رواق لهؤلاء بالأزهر يعرف برواق الجبرتية(١٣) .

ثم إن هذه الممالك التى أمها المسلمون لقرون عديدة ظلت مراكز نشاط ومدنية ، وارتكزت شهرتها على أنها وسيطة بين عواصم العالم الإسلامى الكبرى وبقية أجزاء أفريقية المجاورة فى نقل الفكر والثقافة الإسلامية .

ومن ناحية أخرى فقد تطورت هذه الممالك الإسلامية بفضل تجمع العلماء والفقهاء الذين وفدوا إليها من مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة ، فظلت الصبغة العربية هى البارزة والمميزة فى منطقة القرن الإفريقى خلال فترة العصور الوسطى . وأسهم العرب فى هذه البلاد بالآداب والعادات التى اتصفوا بها ، وظلت الثقافة العربية تشع وتنتشر حتى بعد انكماش النفوذ العربى الإسلامى فى القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع الميلادى) . وكان أعلام المسلمين فى هذه البلاد يفكرون بالعقلية العربية الإسلامية ، ويكتبون باللغة العربية ، وهم فى إنتاجهم ونشاطهم إنما يعبرون عن حضارة عربية إسلامية سادت منطقة الطراز الإسلامى ردحًا من الزمن(١٤) .

وعلى الرغم من أن المجتمع الإسلامى فى بلاد القرن الأفريقى يتكون من أجناس متعددة ، وأمم مختلفة فى صفاتها وعاداتها وثقافاتها ، فإنها بعد إسلامها وبسببه أخذت تنصهر جميعًا فى بوتقة الحضارة الإسلامية فى ظل رعاية دول الطراز الإسلامى وكنفها ؛ لأن الدين الإسلامى عامل هام من عوامل الانسجام بين الشعوب التى تدين به ، والدين الإسلامى فضلاً عن أنه عقيدة ، فإنه كذلك نظام اجتماعى كامل ، ومجموعة من الأخلاق والقواعد والأنظمة التى يستطيع الناس أن يعيشوا بمقتضاها(١٥) .

١ - سلطنة أوفات :

كانت سلطنة أوفات أقوى سلطنة إسلامية قامت فى الحبشة بسبب تحكمها فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع . وقد أسسها قوم من قريش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب ، قدم أولهم من الحجاز واستوطنوا مدينة أوفات . وقد اشتهرت جماعة منهم بالصلاح ، وظهر من بينهم رجل يسمى عمر ويلقب " ولشمع " حكم مدينة أوفات وأعمالها واعترف بسلطان النجاشى . ولم يتضح تاريخ أوفات إلا فى حوالى (٧٠٠هـ / ١٣٠٠م)

حين أورث عمر هذه المملكة لأولاده الأربعة أو الخمسة الذين تولوا عرشها واحدًا بعد آخر ، وذلك بموافقة ملك الحبشة . ومع ذلك فإن سلطنة أوفات هى التى تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة ، وقامت مع غيرها من دول الطراز الإسلامى بدور كبير فى نشر الإسلام والثقافة الإسلامية(١٦) .

٢ - سلطنة بالى :

تقع جنوبى سلطنة دارة ، ويحدها شمالاً نهر وييى ، ومن الجنوب نهر حرانا إلى دوريا ، وبهذا الوضع تتحكم فى وادى الصومال . والعنصر الغالب على سكانها عنصر السيداما ، ويسكن جنوبه فريق من عنصر الجالا . وتعتبر هذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة ، وتختلف عن شقيقاتها الإسلامية فى أن الملك لم يظل كغيرها ، محفوظًا فى أسرة معينة ، بل حدث فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أن انتقل الحكم إلى رجل ليس من بيوت الملك ، وذلك بمساعدة ملك الحبشة(١٧) . وفى سائر المظاهر تقترب هذه السلطنة من بقية السلطنات وتسير المعاملة فيها بالتبادل ، وأهلها على المذهب الحنفى(١٨) .

٣ - سلطنة هدية :

تقع إلى الغرب من دول الطراز الإسلامى وتجاور أرابينى ، وتشغل مساحة واسعة بين نهرى هواش وجيبى ، وليست حدودها معروفة بدقة شأنها شأن باقى الولايات الإسلامية وتتكون من (١٨) مقاطعات(١٩) ، وبرغم أنها دون أوفات فى المساحة والامكانيات ، فإنها أقوى الممالك السبع وأكثرها خيلاً ورجالاً ، ويقال إن عدد جنودها بلغ نحوًا من (٤٠) ألف فارس سوى الرجالة الذين يبلغون ضعف هذا العدد تقريبًا . ومع أن الطبقة الحاكمة فيها إسلامية ، فإن أغلب رعاياها كانوا على الوثنية ، وهؤلاء الرعايا من السيداما والجوارجى والشابو ، وهذا الأخير خليط من العنصرين الأولين(٢٠) .

وتقترن شهرة هدية بتجارة الخصيان الذين يجلبون إليها وهؤلاء يعرفون فى مصر باسم الطواشية . وقد حظر ملك الحبشة هذه العلمية الوحشية ، غير أن اللصوص ما فتئوا يسطون على العبيد ويأتون بهم إلى بلدة وشلو القريبة من هدية . وسكان وشلو هذه همج متخلفون ، يخصى العبيد عندهم لدرايتهم بالخصى ، وهذا أمر يهتم به التجار النخاسة ، إذ إن الخصى أرفع ثمنًا من غيره . وبعد إتمام عملية الخصى يحمل هؤلاء إلى هدية حيث يعالجون مرة أخرى حتى يبرأوا من الجراحة التى أجريت لهم ، ولأهل هدية دراية بعملية العلاج والتطبيب . ومع ذلك فإن العدد الذى يموت من الخصيان بسبب هذه العملية أكثر من الذى تكتب له الحياة ليباع مصدرًا من هدية(٢١) .

٤ - سلطنة دارة :

تقع على حدود أوفات العربية وشمال شرقى هدية فى منطقة السيداما . وتعد أضعف إخواتها حالاً ، وأقلها خيلاً ورجالاً ، ولكنها تستطيع أن تقيم جيشًا يعادل فى قوته جيش أوفات إذ عنيت بهذه الناحية.ولا تختلف كثيرًا عن غيرها من الإمارات الإسلامية، فأهلها مسلمون على المذهب الحنفى ومعاملتها بالمبادلة(٢٢).

٥ - الإمارات الإسلامية الأخرى :

أما الإمارات الإسلامية الأخرى : دوارو وأرابينى وشرخًا ، فهى إمارات صغيرة قليلة الأهمية ، ولم يذكر عنها سوى أن أهلها مسلمون أحناف ، وأن عدة عساكر الأولى تقرب من قوة أوفات فى الفارس والراجل ، وفرسان الثانية نحو عشرة آلاف غير الرجالة ، بينما لا تتجاوز قوة الأخيرة ثلاثة آلاف فارس سوى الرجالة(٢٣) .

* * *

ولم تكن هناك سيادة عامة مستمرة لإحدى تلك الدول التى عرفت بالطراز ، وإنما وجدت سيادات مؤقتة فى بعض الفترات ، تحققت عن طريق القوة

أو الدبلوماسية أو المصاهرات . وكانت فى معظم الأحيان مستقلة داخليًا وتدفع الجزية أحيانًا كثيرة ، وذلك عندما تنضوى تحت لواء سلطنة أوفات أكبر دول الطراز الإسلامى فى منطقة القرن الأفريقى خلال فترة العصور الوسطى(٢٤) .

ويعنينا أنها أسهمت إسهامًا إيجابيًا فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى والعربى فى منطقة القرن الأفريقى وفى داخل بلاد أثيوبيا أو الحبشة . هذا بالإضافة إلى الدور الذى لعبته فى تاريخ المنطقة اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا ، فاستمر تيار الحضارة الإسلامية فى تلك المنطقة فى الانتشار والازدهار حتى بلغ أقصى مداه فى نهاية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، وذلك فى زمن المجاهد الإسلامى الكبير أحمد الجران (أحمد بن جرا) ، عندما أشتدت الدعوة لمناهضة النصرانية ونشر الإسلام واللغة العربية فى هذه البلاد(٢٥) .

ومن الثابت أن الدعوة الإسلامية فى بلاد الطراز الإسلامى والحبشة المسيحية ، كما فى غيرها من المناطق - ارتبطت باللغة العربية ، بوصفها لغة القرآن والعلوم الإسلامية . وسار الإسلام واللغة العربية جنبًا إلى جنب مع الجهاد فى سبيل نشر الدين وتوسيع رقعة البلاد الإسلامية ، فضلاً عن تنشيط الحركة التجارية(٢٦) .

ومنذ فجر التاريخ والقلم العربى هو القلم المعروف فى شرق أفريقية دون غيره . وكانت هناك علاقة قديمة بين العرب وبين الحبشة والزنج ، ترجع إلى ما قبل القرن التاسع الميلادى ، أى قبل دخول الإسلام فى القارة الأفريقية . وقد اشتهرت عدة طرق للقوافل ، كانت تبدأ من زيلع وهرر وسواكن وأوفات ، فتجتاز هضاب الحبشة إلى الداخل حتى منطقة البحيرات . وقد تولى العرب أمر هذه التجارة منذ أزمان بعيدة ، حيث يجتازون الصعاب ، ويخترقون الهضاب والوديان التماسًا للرزق .وكان العرب ينشدون الذهب والعاج والأبنوس والرقيق والبخور ، مقابل بضائعهم التى كانوا يحضرونها معهم والتى كانت تتمثل فى

الحرير والسروج والسيوف والنحاس والملح وأنواع شتى من المنسوجات ، فيبيعونها ويشترون الذهب والجلود والعاج والعبيد وغير ذلك(٢٧) .

ونستطيع القول إن هذه العلاقة التجارية بين العرب المسلمين ومنطقة القرن الأفريقى والحبشة التى بدأت فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) وازدهرت بعد القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أدت إلى انتشار اللغة العربية فى تلك البلاد . ولقد نمت هذه العلاقة بطريقة سليمة طبيعية منذ ذلك التاريخ إلى أن تمت بانتشار الإسلام فى كل بلاد أفريقية الشرقية . فالتجارة بطبيعة الحال تلزمها لغة التفاهم بين البائع والمشترى ، كما تولد الصلة بينهما ، وبما أن اللغة العربية كانت أرقى من اللغات المحلية ، فقد كان من الطبيعى أيضًا أن تكون هى المستعملة فى تلك الجهات . ومن الطبيعى أيضًا أن يلتقطها التجار والأهالى المحليون من إخوانهم العرب وينشروها فيما بينهم . فهذه العلاقة التجارية إذن هى التى وضعت الحجر الأساسى للغة العربية فى أفريقية الشرقية ، وبدأ أولئك التجار يدخلون كلمات وتعابير عربية فى تلك المناطق ، فانتشرت تلك الكلمات والتعابير تدريجيًا حتى توغلت فى ربوع أفريقية ، واندمج بعضها فى اللهجات المحلية ، وخاصة بعد انتشار الإسلام . ومما يؤكد هذا وجود كلمات عربية كثيرة فى بعض اللغات الأفريقية مثل لغة السواحيلى والأحباش ، وخاصة أسماء تلك البضائع التى كانت تصدر إليها من اليمن وعمان والحجاز فى تلك القرون الماضية ، هذا فضلاً عن الكلمات والتعابير الإسلامية التى دخلت مع الإسلام . فنجد فى اللغة السواحيلية والأثيوبية مثلاً أن أسماء هذه البضائع عربية ، فكلمات السرج والحرير والزعفران واللجام والقلم والدواة وأمثالها ، كلها وافدة على اللغة السواحيلية والأثيوبية ، وتنطق بتحريف بسيط(٢٨) . لذلك يمكن القول أن اللغة العربية قد تركت آثارها فى عدد من اللغات المحلية لدرجة كبيرة . وظهر هذا الأثر واضحًا فى لغة السواحيلى وبعض اللهجات الأثيوبية والصومالية والأرتيريه إذ يوجد فى هذه اللغات الكثير من الكلمات ذات الأصول العربية ، بل إن الحروف العربية

استخدمت فى كتابة اللغة العربية السواحيلية منذ زمن مبكر ، كما استخدمت فى اللغات الصومالية والأمهرية(٢٩) .

وقد ساعد على انتشار اللغة العربية والتمسك بها ، فضلاً عن الجانب الدينى المرتبط بها ، أن الكثير من الشعوب الأفريقية فى منطقة القرن الأفريقى وعلى طول الساحل الشرقى الممتد من زيلع شمالاً إلى سوفالا جنوبًا ، ادعت الأصول الشرقية . لقد ادعى ملوك أوفات وهرر وزيلع ومقديشو وكلوه وغيرهم، أنهم انحدروا من الشرق . كذلك من العوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فى أفريقية الشرقية الإسلامية هجرة القبائل العربية إلى تلك البلاد واستقرارها فيها . وهذه الهجرات - كما سبق القول - قديمة وسابقة على دخول الإسلام . وازدادت بانتشار الإسلام . ثم أن مصاهرة العرب مع القبائل الأفريقية ساعد على انتشار اللغة العربية بجانب الإسلام مثل قبائل الأمهرة والدناقل والاريتريين والأحباش والصوماليين . وهكذا ظفر الإسلام واللغة العربية بنجاح كبير فى هذه البلاد ، فأدى ذلك إلى تقدمها وتطورها ، وتطلعت إلى البلاد الإسلامية فى الشرق والشمال الشرقى من أجل العقيدة والمدنية ، ولم تحل صعاب البحر والمحيط دون الاجتياز(٣٠) .

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم العربية الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى بصفة خاصة ، وبلاد شرق أفريقية بوجه عام ، بعهود الدول الإسلامية الكبرى ، أوفات ، زيلع ، هدية ، مقديشو وكلوة ، وبقية دول الطراز الإسلامى بصفة عامة . ذلك أن اللغة العربية صارت هى اللغة الرسمية السائدة فيها ، واستخدمت فى شتى الأغراض وأوفت بها ، كما استخدمت فى مجال الحكم والإدارة والقضاء ، ثم صارت لغة المكاتبات الرسمية بين هذه الدول والعالم الإسلامى الخارجى . ووجد فى الدواوين المصرية زمن المماليك صيغ عربية لمخاطبة ملوك تلك البلاد ، لابد من تصدير المكاتبات بها(٣١) .

* * *

يتضح من هذا العرض السريع أن اللغة العربية كانت اللغة السائدة فى العصور الوسطى فى تلك البلاد الإسلامية ، واستمرت كذلك حتى بداية التدخل الأوروبى فى شئون البلاد الأفريقية الإسلامية . فكانت اللغة العربية طيلة هذه القرون هى لغة الدين والثقافة والتجارة ، ثم إنها لغة الحكومة والإدراة والقضاء ، كما أصبحت لغة التفاهم فى كثير من بلاد الأحباش والصومال والسواحيلى بصفة عامة(٣٢) مع وجود اللغات المحلية كلغة الأمهرا والتيجرى والبنى عامر والدناقل والصومال والسواحيلى . هذا بالإضافة إلى بعض اللهجات الأفريقية القديمة كلغة البانتو والبوشمن والهوتنتوت . كذلك كانت اللغة العربية ، هى لغة المراسلات الدولية والوثائق والمعاهدات(٣٣) .

وقد مر ازدهار اللغة العربية الذى جاء مقرونًا بانتشار الإسلام فى إفريقية بوجه عام ، بمراحل عديدة :

ذلك المعروف أن الإسلام أخذ ينتشر فى تلك البلاد منذ ظهوره ، وساهم الأفريقيون مع العرب فى نشر الدعوة الإسلامية منذ مطلع القرن الأول الهجرى ، كما إن إزدياد الهجرات العربية والإسلامية أدت إلى ازدياد الداخلين فى الإسلام. كذلك ساعد على ذلك أن الصلة التجارية والثقافية قديمة منذ الأزمنة السحيقة بين بلاد القرن الأفريقى (الحبشة والصومال) وبلاد العرب . وتحت مظلة الإسلام كثرت هجرات المسلمين ، من العرب والفرس وغيرهم . واحتكر التجار المسلمون عملية الاتصال بهذه البلاد لأسباب دينية وتجارية ، واستقرت أعداد كبيرة منهم فى تلك البلاد ، يضاف إلى ذلك جهود دول الطراز الإسلامى ، (٣٤) التى تفانى ملوكها فى نشر الإسلام واللغة العربية بين سكان هذه البلاد من الأمهرا والتيجرى والصوماليين والأحباش والارتيريين . وقد بلغت هذه الدول ذروة قوتها وعظمتها خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادى عشر الميلاديين) ، فقامت بدور كبير فى نشر الإسلام والعلوم الإسلامية العربية(٣٥) .

ولا أدل على ذلك مما ذكره ابن بطوطة من أن ملوك هذه البلاد كانوا شديدى الحماسة لنشر الإسلام واللغة العربية بين قومهم وبين القبائل الأفريقية المجاورة من ناحيتى فى الغرب والجنوب(٣٦) . وكانت حماسة هؤلاء الملوك من العناصر الهامة التى أسهمت فى ازدياد انتشار الإسلام ، كما أن الصلات المتنوعة والجهود البارزة لملوك دول الطراز الإسلامى أدت إلى اتساع رقعة البلاد الإسلامية فى شرق أفريقية . ولما كانت الحبشة جزءًا من شرق أفريقية ، فلا ريب أن الإسلام داخلها وانتشر بين سكانها ، بدرجات متفاوتة ، وذلك بفضل جهود ملوك دول الطراز المجاورين لها ، أو الخاضعين لسيادتها فى بعض الفترات . والراجح أن عددًا كبيرًا من سكان الحبشة المسيحية قد اعتنق الإسلام، وأن مظاهر هذا الدين من الشعائر والمساجد والثقافة واللغة العربية ، قد وجدت طريقها إلى بلاد الحبشة منذ زمن مبكر ، قبل قيام الطراز الإسلامى ، بدليل بروز آثار الطراز الإسلامى فى بلاد الحبشة والقرن الأفريقى بوجه عام، وبخاصة فى هدية وأوفات ودوارو وأرابينى وشرخا وبالى وهرر وزيلع . وقد ضمت أوفات وحدها نحو اثنى عشر مسجدًا ، وكذلك هدية وهرر ، وألحق بكل مسجد مدرسة لتعليم القرآن وقواعد الدين واللغة العربية . هذا إلى أن نواحى هذه البلاد كانت ملأى بالعلماء والفقهاء والأئمة ، (٣٧) وأصبحت مدن هذه البلاد مثل أوفات وزيلع وهدية وشرخا وهرر مراكز ثقافية عربية إسلامية ،كما كانت مراكز لنشر الدعوة الإسلامية . وكانت اللغة العربية هى لغة العبادة والثقافة الوحيدة فى البلاد ، هذا إلى جانب كونها لغة التجارة المستعملة فى التبادل التجارى والمكاتبات . وتبوأت هذه اللغة فى الحبشة والطراز الإسلامى المكانة التى تبوأتها اللغة اللاتينية فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى ، بل زادت عليها ، إذ بقيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة الدين والثقافة حتى فى العهد الاستعمارى فى أفريقية ، بينما زالت اللغة اللاتينية تدريجيًا أمام زحف اللغات الجرمانية القومية بأوروبا بتلك العصور . وقد شهد بعض المكتشفين والمستعمرين فى مطلع العصور الحديثة ، بأن إلمام سكان شرق أفريقية باللغة العربية ، يفوق إلمام أوروبا باللغة اللاتينية فى العصر الوسيط(٣٨).

ومما يذكر أن ملوك دول الطراز الإسلامى كانوا يرسلون العلماء لبث العقيدة الصحيحة . وكان أن أقبل الأفريقيون المسلمون من سكان هذه البلاد على مناهل العلم العربية فى حماسة تلقائية ، بسبب ما اتصف به انتشار الإسلام ولغته من تسامح وفضائل ، وبفضل ما أمتاز به المسلمون الذين استقروا فى هذه البلاد ، والذين اتصلوا بتلك البلاد ، من كفاءة وخبرة وأمانة وصدق فى شتى الميادين الاقتصادية والإدارية فضلاً عن الجانب الثقافى ، ذلك أن المسلمين يمثلون حضارة رفيعة ومدنية سامية ، بدليل استعانة ملوك دول الطراز بهم فى أجل أعمالهم . والمسلمون فى بداية الأمر كانوا وحدهم هم الذين يعرفون القراءة والكتابة ، لذلك كانوا عونًا للملوك(٣٩) ، وهذا دليل على انتشار الثقافة الإسلامية التى توسعت وانتشرت مع ازدهار دول الطراز الإسلامى .

وبالإضافة إلى الدور الذى قام به التجار والدعاة فى نشر الإسلام فى بلاد القرن الأفريقى وما جاورها شمالاً وغربًا وجنوبًا ، هناك عامل آخر ساعد على نشر الإسلام واللغة العربية فى تلك البلاد المجاورة من الحبشة وارتيريا حتى الصومال الشمالى وهضبة البحيرات وأعالى نهر النيل الأزرق ، وذلك بفضل الهجرة التى قام بها التجار المسلمون من مقديشو ومركه وبراوة إلى مدن القرن الأفريقى ، وخاصة أثر غزو الشيرازيين الفرس لتلك البلاد والاستيلاء عليها ، فانتشر التجار فى هذه البلاد وأقاموا مراكز تجارية أصبح لبعضها أهمية عظيمة وأثر كبير فى نشر الدين والثقافة العربية فى شرق أفريقية(٤٠) .

وكان أن وجدت المدارس الكثيرة أيضًا فى جميع المدن المشهورة بجوار المساجد ، مثل مدارس هدية وبالى وشرخا وأوفات . ويقول ابن بطوطه أن أهل مدينة زيلع قدماء فى الإسلام ولهم ديانة وطلب علم . وبجانب الاهتمام بالقرآن ، كما ذكر ابن بطوطه ، هناك الاهتمام بلغة القرآن ، وهى اللغة العربية التى

أكتسبت مسحة من التقديس عند مسلمى شرق أفريقية عامة(٤١). ولم تكتف قبائل هذه الدول بدخول الإسلام ، بل طبعت بطابع عربى بسبب انتشار اللغة العربية في تلك البلاد . وهناك خصائص معينة فى نطق الحروف العربية عند مسلمى شرق أفريقية ، أما طريقة الكتابة ، فهى طريقة الخط الكوفى .

وقد ساعد ازدهار دول الطراز الإسلامى ، واتساع رقعتها وعظمة ملوك المسلمين فيها وتفانيهم من أجل خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية ، على أن تترك اللغة العربية أثرًا قويًا فى اللغات المحلية ، ولا سيما لغات السواحيلى والأمهرا والتيجرى ، فاستخدمت اللغة العربية منذ ذلك التاريخ فى كتابة اللغة السواحيلية ولا تزال إلى اليوم .

كذلك كان العامل التجارى من عوامل ازدهار اللغة العربية وانتشارها على نطاق واسع حول هضبة الحبشة والبحيرات وما جاورها . وكانت طرق القوافل التجارية تبدأ من زيلع وأوفات وتتجه إلى الجنوب عن طريق هدية وبالى إلى أن تصل أكسوم وهرر إلى داخل أثيوبيا . وهذا مما سهل وصول التجار المسلمين إليها وبالتالى دخول الإسلام وتعلم اللغة العربية . ولا شك أن التجار هم الذين ادخلوا الإسلام فى تلك المنطقة(٤٢) .

لقد استطاع ملوك هدية وبالى وأوفات فى أيام ازدهار دولهم إيجاد علاقة سياسية وتجارية بين حكوماتهم والبلاد العربية الإسلامية ، وخاصة الحجاز واليمن ومصر . وبالطبع فهناك الكثير من المراسلات التى جرت بين هذه الدول وتلك البلاد العربية والظاهر أن العلاقة مع الحجاز كانت قوية بسبب الحج ، إذ إن من المعروف أن كثيرًا من ملوك أوفات وهدية كانوا يؤدون تلك الفريضة(٤٣) .

ولا شك أن العلاقة التى كانت موجودة فى تلك القرون الغابرة قد ساعدت كثيرًا فى نشر الثقافة العربية الإسلامية فى تلك المنطقة ، فقد انتشر فيها

التعليم وكثر من يتكلم باللغة العربية ، وكثر العلماء . ومما ساعد فى نشر اللغة العربية وجود عدد كبير من العرب الوافدين إليها من اليمن ، ومن قبائل ربيعة التى استقرت بعض بطونها فى بعض مدن هذه البلاد حتى ارتيريا(٤٤) .

ويضاف إلى هذه الأدوار ما قامت به بعض القبائل العربية مثل قحطان وربيعة وبعض القبائل اليمنية مثل الأزد وغيرهم ، وقد اشتدت حماسة هذه القبائل لنشر الإسلام فى زمن ازدهار دول هدية وبالى وأرابينى ، فانتشرت الثقافة العربية الإسلامية بفضل جهود ملوكها الذين نشروا الإسلام والثقافة الإسلامية فى مناطق عديدة يقع بعضها فى الهضبة الحبشية وبعضها الآخر فى منطقة البحيرات ، لذلك تمثل هذه الدول وقبائلها العربية العصر الذهبى لازدهار وانتشار اللغة العربية وتقدم العلوم والثقافة الإسلامية فى بلاد شرق أفريقية(٤٥) .

وعندما قام الإمام أحمد ابن جرا بالجهاد ونشر الإسلام فى القرن العاشر الهجرى ، كان أكبر همه بعد تحطيم الوثنية والقضاء على الحركة الصليبية النصرانية، نشر مبادئ الإسلام الصحيحة والثقافة العربية . ولم يكن أيضًا حكام هذه البلاد الذين نظموا دولهم وإماراتهم حسب النظم الإسلامية يدعون أنفسهم أو يدعوهم الناس سلاطين أو أمراء ، إنما كانوا يدعون مؤدبين أو معلمين أو شيوخًا لعلمهم وورعهم بالإضافة إلى أهميتهم ومكانتهم .

إن هؤلاء الحكام هم الذين باشروا الحكم بين رعيتهم حسب الشريعة الإسلامية ، كما كانوا يباشرون الأمور السياسية ، ويؤمونهم فى الصلاة . وفضلاً عن ذلك فقد كانوا يقومون بتدريس العلوم الدينية فى أوقات فراغهم، وكانوا مثلاً فى التواضع والزهد . وعلى الرغم من أن دول الطراز الإسلامى لم تفتح مدارس رسمية نظامية على النظام المدرسى الحديث ، فإنها شجعت التعليم تشجيعًا بالغًا ، فكان معظم الملوك والحكام دعاة ومعلمين .كذلك كان الوزراء والقضاه ، وكانوا كلهم يجعلون بيوتهم مدارس ويفتحون أبوابهم على مصاريعها لطلاب

العلم ولغير الطلاب من كافة المسلمين ، وكان من الطبيعى أن يقلد الطلاب قادتهم وأساتذتهم ، ومن ثم كثرت المدارس القرآنية ، وتعددت المجالس العلمية فى معظم مدن دول الطراز الإسلامى وانتشر التعليم الدينى ، وكثر التأليف ، فأصبح ذلك العصر عصر النهضة فى شتى العلوم النقلية وغيرها . ويمكن القول إن تعليم اللغة العربية نال اهمية كبيرة فى فترة ازدهار هذه الدول(٤٦) .

ولم تكن مناهج الدراسة فى تلك المدارس القرآنية منظمة تنظيمًا دقيقًا كالذى نعرفه الآن فى المدارس ، ولم تكن محدده . لكن ينتقل الصبى فى تلك المدارس الكثيرة من المرحلة الأولية وهى المدارس القرآنية ، حتى يصل إلى مستوى الكبار ، ثم يدخل فى سلك العلماء ويقتفى أثرهم فيدرس كما يدرسون . وكان الطلبة دائمًا يعتمدون على الكتب التى تدرس ، وعلى المدرس الذى يدرسها على طريقة الأزهر القديم ، حيث إن أساس التعليم مبنى على الشيخ والكتاب فقط . وكان الطالب ينتقل من مدرس إلى آخر ، وربما كان الانتقال فى بعض الأحيان من بلد إلى آخر التماسًا للعلم حتى يأخذ كفايته(٤٧) . لقد عكف العلماء على تعليم اللغة العربية وتعلموها لغة وأدبًا ، وألفوا بها كتبًا كثيرة فى شتى الفنون . وأنتج العلماء والأدباء فى تلك الفترة كثيرًا ، وألفوا كتبًا ورسائل عالجوا فيها الكثير من المشكلات الدينية والاجتماعية والسياسية(٤٨) .

وقد أعطى المجتمع الإسلامى فى بلاد شرق أفريقية العلم منزلة عالية ، وتمنى كل طالب أن يكون عالمًا من علماء الدين ، واندفعوا إلى مجالس الفقهاء والعلماء للتزود من مناهلهم العلمية . وبذل العلماء مجهودات هائلة لأداء رسالتهم العلمية، وساعد على ذلك قرب المنطقة من مواطن الحضارة الإسلامية فى مكة والمدينة والقاهرة ودمشق . ونزحت إلى هذه البلاد جميع الفرق والمذاهب المعروفة - آنذاك - فى العالم الإسلامى ، كما رحل كثير من أبنائها إلى تلك البلاد ، فتوحدت الحياة الثقافية . وركز سلاطين الطراز على الالتزام بخلق الإسلام فى المجتمع ، وفى الإدارة الحكومية ، كما اتخذوا ألقابًا متصلة بالدين كسعد الدين وجمال الدين

ومعز الدين وغيرها . كذلك أصبح العلماء مجموعة ذات وجود مؤثر فى البلاط السلطانى فى الحياة الثقافية والاجتماعية فى هدية وأوفات وهرر وزيلع وارابينى . وقاد العلماء حركات الجهاد كالشيخ محمد أبى عبد الله والشيخ حق الدين الثانى وأحمد بن إبراهيم الجران ، كما تولى بعضهم مهمة السفارات كالشيخ عبد الله الزيلعى(٤٩) .

ومهما يكن من أمر ، فقد ازدهرت الحركة العلمية ، وتعدد العلماء والفقهاء الذين يقومون بأمور الدولة ، وبتدريس الدين واللغة العربية التى تدون بها الدواوين على الطريقة الإسلامية . كما كان لدول الساحل الإسلامية مثل كلوه وأوفات وهدية وأرابينى قضاه ومحاكم شرعية وأئمة للمساجد وكتبة ، مما استدعى وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية . كذلك ساعد ازدهار دول الطراز واتساع رقعتها ، وعظمة ملوكها ، وتفانيهم فى خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية ، على استمرار هجرة العلماء فى أيام السلطان جمال الدين الثانى من سلاطين الطراز الإسلامى ، وقد نزل عدد من هؤلاء فى مدينة برية عام (٨٣٤هـ/١٤٣٠م) ، ثم انتشروا فى مدن دول الطراز المختلفة(٥٠) .

وبفضل هجرة العلماء واستمرارها ظلت العقيدة والثقافة الإسلامية ثابتة ، حتى فى أصعب أوقات الشدة التى تعرضت لها هذه الدول فى نضالها المستمر ضد حملات الصليبيين عليها من وقت لآخر . وأدى ازدهار الحركة العلمية فى ربوع هذه البلاد إلى تعدد المؤلفات العلمية وكتب الفقه والحديث والتفسير . ومن أهم ما وصل إلينا منها كتاب " **تاريخ عمر ولشمع وامبراطوريته** " " **للشيخ أبى بكر باعلوى**"، وفتوح الحبشة لشهاب الدين الجيزانى " **عرب فقيه** "(٥١) .

ومما ساعد على ازدهار الحركة العلمية ، وانتشار اللغة العربية فى بلاد الطراز ، انتشار الطرق الصوفية وظهورها فى شرق إفريقية فى فترة العصور الوسطى . وكان أوسع تلك الطرق انتشارًا الطريقة القادرية والشاذلية ، بجانب

طرق أخرى مثل الرفاعية والأحمدية والإدريسيه وغيرها . وكانت لكل طائفة زواياها الخاصة التى يجتمع فيها المريدون للذكر . وقد امتدت الطوائف على طول مدن الساحل وجزره ، بل لقد امتدت لتشمل الداخل أيضًا . وساهمت هذه الطرق بقدر وافر فى نشر الإسلام والثقافة الإسلامية فى ربوع الطراز الإسلامى(٥٢) .

وفى ضوء ما تقدم ، يتضح أن حركة التعليم ونشر الثقافة العربية الإسلامية قد تطورت ووصلت منزلة رفيعة خلال فترة ازدهار دول الطراز الإسلامى فى الحبشة؛ لأن هذه الدول قامت على أساس إسلامى خاضع لقوانين شرعية ونظم دقيقة لابد من دراستها ومعرفتها قبل تطبيقها . ولما كانت هذه الدول تقوم على نظم إسلامية ، فقد كان من الطبيعى أن تدور فيها الدواوين على الطريقة الإسلامية ، وأن تكون فيها محاكم شرعية وقضاه . لذلك أدرك المستعمرون عند دخولهم هذه البلاد خطورة اللغة العربية حيث كانت اللغة الرسمية ولغة الثقافة ، فحاولوا بكل ما يستطعون من قوة أن يزيلوا اللغة العربية من مكانها ، ليجعلوا اللغات الإنجليزية والإيطالية والفرنسية هى الرسمية فى تلك البلاد ، وجعلوا هذه اللغات هى المستخدمة فى الدواوين والمكاتب الحكومية . كذلك استبدلت الحروف العربية التى كانت تكتب بها اللغات واللهجات الأفريقية بالحروف اللاتينية فى المدارس الحديثة التى أنشأوها ، وشجعوا الإرساليات والمنظمات المسيحية فى هذه البلاد ، وسهلوا لها كل الطرق والوسائل لنشر الدين المسيحى والثقافة المسيحية . لكن برغم ذلك تركت اللغة العربية أثرها البارز فى شعوب أفريقية المختلفة ، ويظهر ذلك واضحًا وجليًا فى لغاتهم المحلية . ولا تزال إلى اليوم آلاف الكلمات العربية مستخدمة فى شرق أفريقية فى شتى مظاهر الحياة : الدينية والثقافية والاقتصادية، سواء فى الحرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الاجتماعية، وحتى فى أسماء الأعلام والمدن والحيوانات والنباتات . ولا تزال اللغة العربية

متفوقة من حيث سعة الانتشار والبقاء بسبب مكانتها الدينية ؛ بوصفها لغة القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية .

وبعد ، فإن شرق أفريقية كان وما زال جزءًا هامًا من دار الإسلام ، متميزًا فى إطارها ، نابضًا بكل ما نبضت به الحضارة الإسلامية فى أثناء القرون الوسطى من ألوان الحياة الفكرية والعلمية والنظم السياسية والاجتماعية وإبداعاتها الأدبية والفنية ، متفاعلة معطياتها فى كل تلك الأبواب مع معطيات مثيلاتها من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية فى القارتين الآسيوية والأفريقية .

الهوامش والتعليقات

(١) للحصول على تفصيلات أكثر عن وصول ثم انتشار الإسلام فى كل من بلاد الحبشة والصومال ، انظر . جلال الدين السيوطى . **أزهار العروش فى أخبار الحبوش** . مخطوط مصور عن نسخة بالأرسكوريال ، ميكروفيلم رقم(٢٧) تاريخ، دار الكتب بالقاهرة ؛ عبد الرحمن بن الجوزى . **تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش** .

مخطوط مصور عن نسخة بالأرسكوريال ، مكروفيلم رقم(٢٩) تاريخ ، دار الكتب بالقاهرة ؛ أبو محمد عبد الملك ابن هشام . **السيرة النبوية** . تحقيق مصطفى السقا وآخرين (د.ت) ، جـ١،ص٣٢١-٣٢٢ ، ابن حجر العسقلانى . **فتح البارى** . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ومحب الدين الخطيب (د.ت)،جـ٧،ص١٨٨؛

غيثان بن على بن جريس . **بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية** . (الأسكندرية ، ١٩٩٤م) جـ١،ص١١-٣٧ ؛ للمؤلف نفسه " تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز فى صدر الإسلام " . **مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية** . العدد (٨) رجب (١٤١٣هـ) ص ٤١٢-٤٣٣ .

J . Spencer Trimingham . **Islam in Ethiopia** (London,1976) pp 46 ff.

(٢) للمزيد من التفصيلات ، انظر : أبو الحسن على بن الحسن المسعودى . **مروج الذهب ومعادن الجوهر** . (القاهرة ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) جـ١،ص١١٢ وما بعدها ؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى . **معجم البلدان** (بيروت ، ١٣٢٤ هـ/١٩٠٦م) جـ٣،ص٣٤٣ وما بعدها ؛ فاضلو حورانى . **العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور الوسطى القديمة وأوائل القرون الوسطى.**

ترجمة يعقوب بكر (القاهرة ، ١٩٥٨م) ص٥٢، وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس " العرب فى مقديشو وأثرهم فى الحياتين السياسية والثقافية فى ظل الإسلام " **مجلة المؤرخ العربى** . العدد الأول ، المجلد (١) (القاهرة،١٩٩٣م) ص١٢٨-١٥٨ ؛ للمؤلف نفسه . **الهجرات العربية إلى ساحل شرقى أفريقية فى العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجرى** (كتب نشر من مركز بحوث كلية التربية بفرع جامعة الملك سعود بأبها ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م) ص٥ وما بعدها .

G .S .P Freeman & Grenville **The East African Coast** (**Select Documents from the first to the earlier Nineteenth Century** (Clarendon Press , 1962) PP . 33 ff ; R.Reusch.**History of East African** (Newyork , 1916) PP . 11 ff; R. Coupland . **East Africa and its Invaders** (Oxford , 1938) pp . 15 ff .

(٣) محمد بن حبيب . **كتاب المنمق فى أخبار قريش** . تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م) ص٤٠١ وما بعدها ، غيثان أبو عثمان الجاحظ . **التبصر بالتجارة** . تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب (بيروت ، ١٩٦٦م) ص ٣٤؛ إبراهيم رزقانه ، ومحمد صفى الدين . **الجغرافية الطبيعية** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٩٢ وما بعدها .

M.J.Kister

. " Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam " **Studies in Jahiliyya and Early Islam** (London , 1980) pp . 61 ff ; Patricia Crone . **Meccan Trade and the Rise of Islam** (Oxford , 1987) pp . 23 ff ; Coupland , **East African its Invaders** , pp . 16 ff , Reusch , **History of East African** , pp . 12 ff.

(٤) للمزيد من التوضيحات انظر . ياقوت الحموى . **معجم البلدان** ، جـ٣ ، ص ٣٤٢ وما بعدها ؛ جواد على . المفضل على . المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد ، ١٩٧٧م) جـ١، ص٤٤ وما بعدها ، أحمد فخرى . **دراسات فى تاريخ الشرق القديم** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ١٢٥ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس . **الهجرات العربية إلى ساحل شرقى أفريقية فى العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية** ... ص٨ وما بعدها، للمؤلف نفسه " العرب فى مقديشو ..." ، ص١٢٨-١٣١ ؛ جورج حوارنى ، **العرب والملاحة فى المحيط الهندى** ، ص وما بعدها .

Patricia Crone **Meccan Trade and the Rise of Islam** , pp . 20 ff , 124 ff .

(٥) وللإطلاع على تفصيلات أكثر حول علاقة العرب بالجزء الشرقى من أفريقية، وعن انتشار الإسلام فى تلك الأجزاء ، انظر . محمد بن عمر الواقدى . **كتاب المغازى** .تحقيق مارسدن جونس (بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) جـ٣،ص٩٨٣ وما بعدها ؛ محمد بن إسحاق الفاكهى . **كتاب المنتقى فى أخبار أم القرى** (نشرة وستفلد) جـ٢، (ليبزج،١٨٥٩م) ص٤٤ وما بعدها ؛ يوسف فضل حسن . **دراسات فى تاريخ السودان** (جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م) جـ١،ص٣ وما بعدها ، غيثان بن على بن جريس . **بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية** ، جـ١،ص١١-٢٧،٢٥٩-٢٧٣ ؛ للمؤلف نفسه " تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز " ، ص٤١٤ وما بعدها ؛ السر سيد أحمد العراقى . " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا " **ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم فى الحضارة العربية الإسلامية ، الخرطوم ٢٨/٣٠يوليو م** " (بغداد ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص١٦٤ وما بعدها .

Sir E.A.W. Budge. **Ahistory of Ethiopia & Abyssinia** (London , 1928) VOL.I , pp . 120 ff ; Trimingham , **Islam in Ethiopia** pp . 44ff.

(٦) ابن هشام ، السيرة ، جـ١،ص٣٢٨-٣٣٥ ، محمد بن جعفر بن جرير الطبرى . **تاريخ الرسل والملوك** . تحقيق أبو الفضل إبراهيم (بيروت ، د.ت)جـ٢ ص٣٢٨ وما بعدها ، عماد الدين ابن كثير . **البداية والنهاية** . (بيروت،١٩٧٨م) جـ٣ ، ص٦٦ ، ٧١ وما بعدها، أحمد حفنى القنائى . **الجواهر فى تاريخ الحبشان** (القاهرة ، ١٣٢١هـ) ص، ج ؛ الشاطرة بوصيلى عبد الجليل . **معالم تاريخ السودان ووادى النيل** " (القاهرة، ١٩٧٥م) ص٩ وما بعدها ؛ عبد المجيد عابدين . **بين الحبشة والعرب** (القاهرة ،١٩٤٧م) ص١٦ وما بعدها . محمد محمد أمين . **تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى** (القاهرة ، ١٩٧٧م) ص٣٣ وما بعدها ، إبراهيم على طرخان . " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى " . **المجلة التاريخية المصرية** (القاهرة ، ١٩٥٩م) المجلد الثامن ، ص٥ وما بعدها . عبد الشافى غنيم عبد القادر . " البحر الأحمر طريقًا للدعوة الإسلامية " **البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، أبحاث الأسبوع العلمى ١٠-١٥مارس ١٩٧٩م** (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص٧٨ وما بعدها .

(٧) للمزيد من التفصيلات انظر . المسعودى ، **مروج الذهب** ، جـ١،ص٥١-٥٢ ؛ أحمد بن على المقريزى . **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام** (القاهرة ، د.ت) ص٢٢ وما بعدها ، أحمد حفنى القنائى . **الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان** ، ص١٥-١٦ ، يوسف فضل " انتشار الإسلام فى سودان وادى النيل " **ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم فى الحضارة الإسلامية** (الخرطوم ٢٨/٣٠يوليو تموز ١٩٨٣م) (بغداد ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص٢٥ وما بعدها ، غيثان بن على بن جريس . " الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية فى العصور الوسطى . **مجلة المؤرخ العربى** . العدد الثالث ، المجلد (١) (القاهرة ، ١٩٩٥م) ص٧٤-٧٧ ، للمولف نفسه . " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ/١٢٠٠-١٥٠٠م) " **مجلة المؤرخ المصرى** . العدد (١٦) (يوليو /١٩٩٦م) ١٥٧-١٦٠ ؛ Triminigham , **Islam in Ethiopia** , pp.5-7) C.N. Stigand . **the Land of Zing** (London , 1913) pp . 104 ff , R.Reusch. **History of East Africa** pp.18-12; Yusuf Fadl Hassan . **The Arabs and the Sudan** (Khartoum , 1973) pp.59-66.

(٨) أبو العباس أحمد القلقشندى . **صبح الأعشى فى صناعة الإنشا** (القاهرة ، ١٩٠٦م) ؛ حسن أحمد . **الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص٤٣٥ وما بعدها ؛ جامع عمر عيسى , **مقديشو ماضيها وحاضرها** (مقديشو ، ١٩٧٩) ص٣٣٢ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس . **بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية** ، جـ١، ص١١ ، ٢٦٠ ؛ للمؤلف نفسه " العرب فى مقديشو ... " ص١٢٩ وما بعدها ؛ للمؤلف نفسه ." الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد وشرق أفريقية ... " ص٧١-٧٢

Triminigham , **Islam in Ethiopia,** pp. 5,7,32-ff. Kamerer, Abyssinie et la Mer. Rauge(Le Cairo, 1992) p.57ff.

(٩) للمزيد عن تلك الدول الإسلامية التى ظهرت فى القرن الأفريقى خلال العصر الإسلامى الوسيط ، انظر . المقريزى ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ، ص٢١ وما بعدها ، إبراهيم طرخان "الإسلام والممالك بالحبشة ..." ص٣٠ وما بعدها ؛ محمد المعتصم سيد . دول إسلامية شرق أفريقيا (هرر والصومال) (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص٢٥ وما بعدها ؛ ترمنجهام . **الإسلام فى شرق أفريقيا** – ترجمة محمد عاطف النداوى (القاهرة ، ١٩٧٣م) ص٣٢ وما بعدها . وغيثان بن على بن جريس " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى ..." ص١٥٩ وما بعدها ، للمؤلف نفسه " سلطنة أوفات الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وعلاقاتها مع العلم الإسلامى خلال العصر الإسلامى الوسيط " بحث مقبول للنشر فى الجزء الأول من العدد التاسع عشر بحولية كلية البنات بجامعة عين شمس

(١٠) للمزيد انظر ، أحمد القنائى ، **الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان** ، ص ١٥ وما بعدها ، المقريزى ، **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام** ، ص٢٣ وما بعدها ؛ إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة " ، ص٣٣ وما بعدها .

(١١) حمدى السيد . **الصومال قديمًا وحديثًا** (مقديشو ، ١٩٦٥م) جـ١ ،ص٢٧ وما بعدها ؛ إبراهيم طرخان ، **الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة** ،ص٣٢ وما بعدها .

(١٢) لقد أفردنا بحثين مستقلين عن مملكة أوفات الإسلامية ، أحدهما بعنوان : – " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠ –٩٠٠هـ/١٢٠٠–١٥٠٠م) ، وتم نشره فى مجلة المؤرخ المصرى ، وقد أشرنا لهذا البحث فى ملاحظة (٧) من هذه الدراسة . أما البحث الثانى فهو بعنوان : – " سلطنة أوفات الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وعلاقاتها مع العالم الإسلامى خلال العصر الإسلامى الوسيط " وسوف ينشر فى حولية كلية البنات بجامعة عين شمس ، وقد أشرنا لهذه المعلومات فى ملاحظة (٩) من هذه الدراسة أيضًا .

(١٣) للمزيد انظر . محمد بن حبيب . **كتاب المنمق فى أخبار قريش** ، ص٣٣ وما بعدها ، محمد ابن عبد الله اللواتى (ابن بطوطة) . **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** . (بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) جـ١ ، ص٢٦٩ وما بعدها ؛ حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص٢٦ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس . " العرب قديشو ... " ص١٣١ وما بعدها .

(١٤) حسن أحمد محمود . **الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا** ، ص٤٣١، سير توماس أرنولد . **الدعوة إلى الإسلام** . ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين (القاهرة ،

١٩٧٠م) ص٣٧٢ وما بعدها ، عبد القادر شيخ عبد الله . **تاريخ التعليم فى الصومال** (مقديشو ، ١٩٧٨م) ص١١ وما بعدها .

(١٥) للإطلاع على تفصيلات أكثر عن انتشار الدين الإسلامى بين الشعوب الأفريقية، وذلك لما يتميز به الإسلام من محاسن ومناقب تختلف عن الأديان الأخرى . سيرتوماس أرنولد . **الدعوة إلى الإسلام** ، ص٣٢٢ وما بعدها ، حسن إبراهيم . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص ٢٤ وما بعدها .

(١٦) للمزيد من التفصيلات عن مملكة أوفات ، انظر . غيثان بن على بن جريس "سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ ... " ص١٥٣-١٨٩) للمؤلف نفسه " سلطنة أوفات الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وعلاقاتها مع العالم الإسلامى خلال العصر الإسلامى الوسيط " بحث مقبول للنشر فى الجزء الأول من العدد (١٩) حولية كلية البنات بجامعة عين شمس (أكتوبر/١٩٩٦م) .

(١٧) انظر القلقشندى ، **صبح الأعشى** ،جـ٨ ، ص ٣٣٢ وما بعدها .

(١٨) عماد الدين أبو الفداء . **كتاب تقويم البلدان** (باريس ، ١٨٤٠م) ص ، ١٦٠-١٦١ ؛ القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، جـ٨ ، ص١٣٠ .

(١٩) أبو الفداء ، **كتاب تقويم البلدان** ، ص ١٦٠ ، الشاطر بوصيلى عبد الجليل . **معالم تاريخ سودان ووادى النيل** ، ص٦-٧ .

Trimingham , **Islam in Ethiopia** , pp.58-9.

(٢٠) للمزيد من التفصيلات عن مملكة هدية . انظر : أبو الفدا ، **كتاب البلدان** ، ص١٦٠ وما بعدها ؛ زاهر رياض . **الإسلام فى أثيوبيا فى العصور الوسطى** (القاهرة ، ١٩٦٤م) ص٩٥-٩٧ .

Trimingham , **Islam in Ethiopia** , pp . 60-2 .

(٢١) للمزيد انظر ، إبراهيم طرخان " **الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة**" ص٣٤-٣٧ .

(٢٢) القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، جـ٥ ، ص٣٣٤ وما بعدها ، إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ... " ص٣٣ وما بعدها .

(٢٣) انظر القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، جـ٥ ، ص٣٣٥ وما بعدها ، إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة " ص٣٦-٣٨ .

(٢٤) حمدى السيد . **الصومال قديمًا وحديثًا** ، ص٣٩٤ وما بعدها ، غيثان بن على بن جريس " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠ - ٩٠٠ هـ ...) ص١٥٣ وما بعدها .

(٢٥) لمزيد من التفصيلات ، انظر . شهاب الدين أحمد بن عبد القادر عرب فقيه . **تحفة الزمان (أو) فتوح الحبشة** . مخطوط نشره مع المقدمة بالفرنسية، رينية باسيه ، وحققه فهيم محمد شلتوت (القاهرة ، ١٣٩٤م) ص٧٥-٧٩ ؛ فتحى غيث . **الإسلام والحبشة عبر التاريخ** (القاهرة ، د.ت) ص٥٣ وما بعدها .

(٢٦) انظر ، عبد الشافى عبد القادر " البحر الأحمر طريق للدعوة الإسلامية " ص٧٩ وما بعدها ؛ يوسف فضل " انتشار الإسلام فى سودان وادى النيل " ، ص٢٧ وما بعدها ؛ السر سيد أحمد العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا والصومال " ، ص١٦٦ ما بعدها .

(٢٧) الجاحظ ، **التبصر بالتجارة** ، ص٣٣ وما بعدها ، شمس الدين المقدسى . **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** . تحقيق دى غوى (ليدن ، ١٨٧٧م) ص٧٩،٩٧ إبراهيم طرخان " الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة " ص٣٨ وما بعدها .

(٢٨) عبد الرحمن زكى . **الإسلام والمسلمون فى شرق إفريقية** (القاهرة، ١٩٦٥م) ص٧٧ وما بعدها ؛ سيرتوماس أرنولد . **الدعوة إلى الإسلام** ، ص٢٧٨،٣٦٩ وما بعدها .

(٢٩) عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون فى شرق إفريقية ، ص٧٦ وما بعدها ؛ السر سيد أحمد العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا والصومال " ص١٦٨وما بعدها .

(٣٠) لمزيد من التفصيلات ، انظر ، حسن أحمد محمود . **الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا** ، ص١٣٤ وما بعدها ، عبد الرحمن زكى . **الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقية** ، ص٧٧ وما بعدها .

(٣١) للمزيد انظر ، شهاب الدين بن فضل الله العمرى . **مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار** . تحقيق أحمد زكى باشا (القاهرة ، ١٩٢٤م) حـ١،ص١١-١٢ ؛ انظر كذلك الجزء الثانى من هذا الكتاب الذى لازال مخطوطًا بجامعة الأزهر تحت رقم (٤٤١ / ٦٧٣٥) ، القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، حـ٥،ص٣٢٣ وما بعدها .

(٣٢) ابن بطوطة ، **تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأمصار** ، حـ١،ص٦٨، وما بعدها .

(٣٣) ابن فضل الله العمرى / **مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار** ، حـ٢، ورقة ١٨٤ وما بعدها ، ابن بطوطة . **تحفة النظار في غرائب الأمصار** ، حـ١،ص٢٦٩ وما بعدها .

(٣٤) لمزيد من التفصيلات انظر ، فاضلو حورانى . **العرب والملاحة فى المحيط الهندى** ، ص٥١ وما بعدها ؛ محمد محمد أمين . **تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى** ، ص٣٢ ومابعدها ، غيثان بن على بن جريس . **بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية** ، حـ ١ ، ص١١-٣٧ ، للمؤلف نفسه " الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية " ص٧١ وما بعدها ، للمؤلف نفسه " الهجرات العربية إلى ساحل شرقى أفريقية فى العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية ... " ص٩ وما بعدها ، للمؤلف نفسه أيضًا " سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى (٦٠٠-٩٠٠هـ / ١٢٠٠-١٥٠٠م) ص١٥٣ -١٨٩ .

(٣٥) ابن بطوطة . **تحفة النظار فى غرائب الأمصار** ، حـ١ ، ص٢٦٨ ، المقريزى ، **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام** ، ص٢٧ وما بعدها. محمد محمد أمين . **تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى** ، ص٣١ وما بعدها ، غيثان بن على بن جريس " العرب في مقديشو ... " ص١٢٩ وما بعدها .

(٣٦) ابن بطوطة ، **تحفة النظار فى غرائب الأمصار** ، حـ١ ، ص٢٦٩ وما بعدها .

(٣٧) لمزيد من التفصيلات انظر ، القلقشندى ، **صبح الأعشى** ، حـ٥ ، ص٣٢٣-٣٢٧ ؛ العمرى ، **مسالك الأبصار** ، حـ١ ، ص١٢-١٥ ؛ زاهر رياض.**الإسلام فى أثيوبيا** ، ص٦٤ وما بعدها ؛ عبد المجيد عابدين . **بين الحبشة والعرب** ، ص٢٤٢ وما بعدها .

(٣٨) توماس أرنولد ، **الدعوة الإسلامية** ، ص٨٧ ، وللإطلاع على التفصيلات أكثر انظر ، محمد المعتصم سيد . دول إسلامية شرق أفريقيا (هرر والصومال) ، ص٣٦ وما بعدها، حسن أحمد محمود . **الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا** ، ص٤٢٦ وما بعدها .

(٣٩) انظر ، إبراهيم طرخان ، **الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى** ، ص٣٧-٤٠ .

(٤٠) الشاطر بوصيلى . **معالم تاريخ السودان ووادى النيل** ، ص٥٣-٥٥، غيثان بن على بن جريس " العرب فى مقديشو ... " ، ص١٣٢ وما بعدها؛ **Trimingham , Islam** pp . 18-21 .

(٤١) ابن بطوطة ، **تحفة النظار فى غرائب الأمصار** ، حـ١ ، ص٢٧٩ وما بعدها .

(٤٢) لمزيد من التفصيلات ، انظر . عبد الرحمن بن خلدون . **مقدمة ابن خلدون** (القاهرة ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨) جـ٢ ، ص٥٧١-٥٧٣ ؛ شهاب الدين عرب فقيه ، **تحفة الزمان (فتوح الحبشة)** ، ص١٧-٢٣ .

(٤٣) حمدى السيد . **الصومال قديمًا وحديثًا** ، ص٣١٧ وما بعدها ؛ حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص٢٤٠-٢٤٢ ، صلاح العقاد . **زنجبار** (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص٢١-٢٢ ؛ غيثان بن على بن جريس " سلطنة أوفات الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وعلاقاتها مع العالم الإسلامى خلال العصر الإسلامى الوسيط ... " .

(٤٤) لمزيد من المعلومات ، انظر . شمس الدين الأنصارى الدمشقى . **نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر** (بطرسبورج ، ١٢٨١هـ / ١٨٦٥) ص١٦٢-١٦٣؛ حمدى السيد . **الصومال قديمًا حديثًا** ، ص٣٤٦.

(٤٥) حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص٢٣٩-٢٤٢ .

(٤٦) المسعودى ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، جـ٢ ، ص٧-٩ ؛ المقريزى ، **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام** ، ص١٣٣-١٣٥ .

(٤٧) عبد القادر شيخ عبد الله . **تاريخ التعليم فى الصومال** (مقدبشو ، ١٩٧٨م)، ص١٤ وما بعدها

Freeman & Grenville , **the East African Cost** , pp.39-41
Reusch , **History of East African** , pp.154-41.

(٤٨) حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص٢٤٦ وما بعدها . Marsh & Kingsonrth .**An Introduction to the History of East Africa** (London , 1966) pp.31-4 .

(٤٩) لمزيد من التفصيلات ، انظر . ابن بطوطة . **تحفة النظار** ، جـ١ ، ص٩٣-٩٤،١٠٧،٢٦٨ وما بعدها ؛ حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص٢٤١ وما بعدها .

(٥٠) حسن إبراهيم حسن . **انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية** ، ص٢٤٤ وما بعدها ، Freeman & Grenville **The of East Afican Coast** pp.172-3 ; **History of East Africa** pp.123-129 .

(٥١) شهاب الدين عرب فقيه . **تحفة الزمان (فتوح الحبشة)** ، ص١٧-٢٥ .

(٥٢) Trimingham , **Islam in Ethiopia** pp . 135-7
Marsh & Kingsonorth, **An Introduction to the History of East African**, pp . 23 ff.

علاقة الإمارة الصفارية بالدولة العباسية

فى القرن الثالث الهجرى

د. عبد العزيز عبد الله السالم*

المقدمة :

يتناول هذا البحث دراسة لطبيعة العلاقات التى ربطت الإمارة الصفارية والدولة العباسية خلال القرن الثالث الهجرى .

أما عن الإمارة الصفارية فهى إحدى الدويلات التى قامت على حساب الدولة العباسية عندما تعرضت للضعف والتمزق ، وكان قيامها فى إقليم سجستان الذى شهد كثيرًا من الاضطربات السياسية بسبب كثرة الخوارج فيه ، حتى قال عنه ياقوت الحموى : " وبسجستان كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم ولا يتحاشون منه " .

وقد أدت الجهود والخدمات التى قدمها الصفاريون لولاية سجستان إلى تدعيم مكانة الإمارة الصفارية لأنها جاءت فى وقت كانت الخلافة العباسية تعانى من سيطرة الأتراك عليها إضافة إلى عجزها عن السيطرة على الثوارت التى قام بها الخوارج فى سجستان .

واستطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقدم خدمات جليلة حيث قام بمحاربة الأتراك الدرارى وأفشل جميع مخططاتهم وحال دون تحقيق أطماعهم وتمكن من نشر الإسلام فى تلك البقاع الأمر الذى جعل عددًا من ملوك المناطق المجاورة يعترفون بسلطته بل ويعقدون معه معاهدات صداقة وتحالف ، ولم تعترض

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد – جامعة الملك عبد العزيز .

الخلافة العباسية على ذلك لأن تلك الأعمال التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار جاءت لصالح الدولة العباسية التى كانت فى حاجة إلى قوة لحماية جناحها الشرقى من هجمات الترك وغيرهم من العناصر الأسيوية .

والواقع أنه يمكن اعتبار الإمارة الصفارية فى كثير من فترات حكمها إمارة عسكرية إذ فرض الصفاريون أنفسهم فى حكم ولاياتهم بقوة السلاح . ومع أنهم أنكروا عدة مرات سلطة الخليفة ، إلا أنهم وجدوا من الضرورى الحصول على تأييد الخليفة ليكسبوا سلطتهم صبغة شرعية . ومن جهة أخرى اضطر الخليفة المعتز با لله ثم المهتدى با لله ثم المعتمد على ا لله ثم المعتضد با لله إلى إقرارهم فى حكم ولاياتهم والاعتراف بسلطتهم وذلك دفعًا لشرهم وحسمًا لمخالفتهم ، وحرصًا على اتحاد وترابط دولة الإسلام .

وفى الوقت نفسه اتجه يعقوب إلى المجتمع فى " سجستان " فأخذ يصلح أحواله حتى استقر الوضع ، ثم اتجه إلى بلاد الترك المتاخمين لسجستان ودعاهم للإسلام .

ويبدو أن نشأة يعقوب فى سجستان بين الخوارج كانت من العوامل القوية التى جعلته يتأثر ببعض أفكارهم السياسية ، وإن كانت المصادر التاريخية لم تبين مدى تأثر يعقوب بآراء الخوارج .

والواقع إننا لا نستطيع أن نطلق على " الإمارة الصفارية " لقب دولة كما يردد بعض الباحثين لأن الدولة عبارة بجموعة كبيرة من الناس تعيش على وجه الدوام على قطعة ثابتة من الأرض ، ويقوم على تنظيم هذه الجماعة وإدارة شئونها فى أوقات السلم والحرب هيئة حاكمة وفق تنظيم سياسى معين(١) .

ومن هذا التعريف يتضح أنه لكى توجد الدولة يتعين أن تتوافر لها أركان ثلاث : شعب وإقليم ، وسلطة سياسية حاكمة ، فإذا توفر لأى مجتمع تلك الأركان الثلاثة فإن المجتمع يوصف بأنه دولة .

أما الإمارة الصفارية فإن تعريف الدولة بأركانها لا ينطبق عليها إلا فى جوانب ضيقة فهى لا تمثل شعبًا مستقرًا وإنما هى عبارة عن جموع من البشر تحيا حياة مضطربة قلقة والأسرة الحاكمة فيها اعتمدت على القوى العسكرية واتخذت منها أسلوبًا تحكم به البلاد والعباد ، ثم إنها لا تضم أرضًا ذات معالم وحدود واضحة باستثناء – سجستان – فى بعض الفترات ، وإنما حكمت عدة أقاليم ، مما أدى إلى قصر عمرها وتقلص نفوذها حتى انزوت فى جزء من سجستان .

* * *

قامت الإمارة الصفارية فى ولاية سجستان فى الوقت الذى كانت هذه الولاية تابعة لآل طاهر فى خراسان ، وكان الوضع السياسى فيها مضطربًا غير مستقر ، فضلاً عن أن سجستان فى ذلك الوقت كانت مأوى للصوص والخوارج وقطاع الطرق(٢) ، ولذا كثرت فيها الاضطربات والثورات ضد الحكم المحلى ، الأمر الذى جعل سيطرة الطاهريين عليها تضعف أمام نشاط حركة الخوارج . ولما رأى أهل سجستان أن الطاهريين عجزوا عن إقرار الأمن والنظام فى ولايتهم . قرروا تكوين فرق عسكرية متطوعة ، تكون مهمتها الأولى نشر الأمن والاستقرار فى بلادهم ، وتزعم هذه الحركة رجل من قريش يعرف باسم : صالح بن النضر الكنانى(٣) . وكان أن انضم إلى حركة المتطوعة كثير من المغامرين الذين وجدوا فيها خير وسيلة للارتقاء إلى مراكز اجتماعية وسياسية مرموقة فضلاً عن الحصول على مكاسب مادية . وكان من أبرز هؤلاء يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو . وكان يعقوب يشتغل فى إحدى الصناعات المحلية فى بلدته " قرنين " إحدى مدن سجستان ، حيث احترف العمل فى المعادن وبخاصة النحاس الأصفر ، ومن ذلك اشتق لقبه ، وكان يتقاضى عن عمله خمسة عشر درهمًا فى الشهر مما جعله يعيش شارد الذهن كثير التفكير والتأمل(٤) لأن مهنته هذه كانت لا يمكن أن تحقق له مركزًا اجتماعيًا ذا قيمة فى مجتمعه ، ولا تحقق له طموحه وآماله العريضة ، ولذا هجرها(٥) وانضم هو وأخوته إلى خاله كثير بن رفاق الذى جمع

حوله عددًا من وجوه الخوارج ، وقاد ثورة ضد السلطات المحلية المتمثلة فى عمال آل طاهر . ولكن هذه الثورة فشلت وأمكن القضاء عليها فى مهدها وإن كان آل الليث بزعامة أخيهم الأكبر يعقوب قد تمكنوا من الفرار إلى بست إحدى مدن سجستان الهامة(٦) .

وفى " بست " رأى يعقوب أن أفضل وسيلة للحصول على السلاح والخيل والمال هى قطع الطريق ، لأن الظروف التى كانت تعيشها سجستان فى تلك الفترة تتيح لمن ينجح فى مثل هذه الأعمال أن يحقق لنفسه مركزًا اجتماعيًا وسياسيًا مرموقًا ، فجمع حوله عددًا من الناس وكون منهم عصابة لقطع الطريق . ونشط هو وأصحابه فى قطع الطرق ، حتى أصبحت الطرق التى تربط كرمان بسجستان وفارس بسجستان غير مأمونة . ولما وصل إليهم نبأ قدوم قافلة تجارية كبيرة من البصرة والأهواز فى طريقها إلى أصفهان خرج إليها يعقوب ورجاله وترصدوا لها وهاجموها ، واستولوا على الخيل والسلاح ، وبهذه الطريقة حصل يعقوب على ما يحتاج إليه من المال والسلاح لاستخدامه فى نشاطاته البعيدة المدى(٧) . وذلك أن يعقوب عاد إلى سجستان هو ورفاقه ومعهم أعداد كثيرة من الخيل والسلاح فاستقبلهم صالح بن النضر الكنانى(٨) ودعاهم للاشتراك معه فى المحافظة على الأمن ، والاستقرار فى ولايتهم ، ومطاردة الخوارج وغيرهم . وكان أن أظهر يعقوب بطولات نادرة فى مطاردة الخوارج ، والقضاء على كثير من زعمائهم المتطرفين ، وبعد أن استطاعت حركة المتطوعة بزعامة الكنانى ومساعدة يعقوب الصفار أن توفر الأمن والاستقرار فى ولاية سجستان أردات أن تتوج انتصارتها على الخوارج بالحصول على مكاسب سياسية ، فأعلن قائدها الخروج على طاعة بنى طاهر والتغلب على ولاية سجستان ، ولكن طاهر بن عبد الله استطاع أن يقضى على حركة الكنانى سنة ٢٣٧(٩) . وفى سنة ٢٤٣ هـ تزعم درهم بن الحسين حركة المتطوعة حينما عبث الخوارج بأمن واستقرار سجستان .

وكان يعقوب هو الموجه لهذه الحركة لما تمتع به من شخصية قوية ومهارات قتالية، ولما بذله من جهود كثيرة فى مطاردة الخوارج الذين رفضوا التعاون مع الحركة . وبعد أن ساد الأمن والاستقرار ولاية سجستان أعلنت الحركة التغلب عليها . ولكن أمير خراسان طاهر بن عبد الله استطاع أن يعمل الحيلة فى إبعاد درهم بن الحسين إلى بغداد، وكان ذلك حوالى سنة ٤٧ هـ(١٠) . وبذلك خلا الجو ليعقوب الصفار ، وأصبح قائدًا عامًا للحركة دون منافس . وبعد أن توفى طاهر بن عبد الله سنة ٢٤٨ هـ استطاع يعقوب أن يستقل بولاية سجستان فى الوقت الذى كان الوضع فى خراسان مضطربًا بسبب حداثة سن محمد بن طاهر (٢٤٨ هـ - ٢٥٩ هـ) الذى أسندت إليه ولاية خراسان . هذا بالإضافة إلى ضعف شخصيته وعدم مقدرته القيادية والإدارية فقرر يعقوب سنة ٢٥٣ هـ أن يغزو هراة وبوشنج . وبعد معركة حربية جرت بينه وبين محمد بن أوس الأنبارى عامل محمد بن طاهر ، استطاع يعقوب ضمهما إليه ، وقبض على عدد من بنى طاهر فى بوشنج فمعظم أمره ، وهابه أمير خراسان وغيره من الحكام(١١) .

وبعد أن استقرت الأحوال الأمنية والسياسية فى ولاية سجستان بفضل الجهود التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار ، رأى أنه أحق بولاية سجستان من الطاهريين الذين بدت عليهم إمارات الضعف والعجز ، فأعلن نفسه حاكمًا على ولاية سجستان ، دون أن يستند فى ذلك إلى تقليد شرعى من الخليفة العباسى(١٢) صاحب السلطة الشرعية . وكانت الخلافة العباسية فى تلك الفترة فى ظروف لا تمكنها من إقرار الوضع فى سجستان ، فتركت ليعقوب مهمة إقرار الأمن والنظام بها .

ومما يكشف عن قيمة الجهود والخدمات التى قدمها الصفاريون لولاية سجستان أنها جاءت فى وقت كانت الحكومة العباسية عاجزة عن إقرار الأمن والنظام فى عاصمتها والمدن المجاورة لها . وقد زامن ضعف الحكومة العباسية فى

بغداد ضعف الإدارة الطاهرية فى خراسان مما جعل الخوارج يرفعون راية الثورة والعصيان فى سجستان . وشجعت هذه الظروف راتبيل سجستان(١٣) ، وغيره من ملوك وأمراء الترك الدرارى الذين كانت تربطهم بالدول الإسلامية عقود ومعاهدات ، لأن يعلنوا خروجهم وتمردهم على السيادة العربية الإسلامية ، ويمتنعوا عن دفع الخراج(١٤) ، بل أنهم أخذوا يتهيئون لضرب الوجود الإسلامى فى سجستان ، واستعاده نفوذهم عليها . ولكن قيام إدارة عسكرية قوية فى ولاية سجستان فى تلك الفترة أفشل مخططات الترك وحال دون تحقيق أطماعهم . ذلك أن يعقوب بن الليث الصفار لما نجح فى تهدئة الأوضاع الداخلية فى سجستان وقضى على شوكة الخوارج فيها ، أخذ يستعد لإعداد جيش قوى لملاقاة رتبيل سجستان وغيره من ملوك وأمراء الترك الدرارى ، لأن خطر أولئك على أمن واستقرار الولاية كان أشد وأقوى من خطر الخوارج عليها . وقاد يعقوب حملة عسكرية لدفع خطر الترك عن أراضى الدولة الإسلامية فى سجستان ، وكان أن نجح يعقوب فى حملاته العسكرية الموفقة فى قتل رتبيل سجستان وثلاثة من ملوك الترك ، كما استطاع أن يصل إلى كابل ويفتح غزنة ، وأن ينشر الإسلام فى تلك البقاع ، مما جعل عددًا من ملوك البلاد المجاورة يعترفون بسلطته(١٥) ، ويعقدون معه معاهدة سلام مثل : ملك " المولتان " " وملك " الرخج "وملك " زابلستان "، وملك " السند ومكران "(١٦) . كما أرسل ملك الهند وفدًا تفاوض مع يعقوب(١٧) على جسر " بسط " .

* * *

وقد اتسمت علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية بعدة سمات أسهمت إسهامًا كبيرًا فى صياغة تلك العلاقة وتوجيهها ومن أهمها :

١ - الشك والحذر وعدم ثقة كل منهما بالآخر .

٢ - الاصلاح الدينى والاجتماعى .

٣ - الفكر السياسى للخوارج وأثره فى توجيه حركة الصفاريين .

٤ - الطبيعة العسكرية للإمارة الصفارية وأثرها فى تكييف حركة الصفاريين .

كان لهذه المؤثرات وغيرها من العوامل المساعدة الأخرى كاختلال الأمن ، واضطراب الأحوال السياسية فى ولايات المشرق(١٨) ، وعجز الطاهريين عن إقرار الأمن والنظام فى ولاياتهم ، وضعف سلطة الخلافة العباسية ، أثر بارز فى رسم الخطوط العريضة للروابط والصلات التى حكمت علاقة الإمارة الصفارية بدولة الخلافة العباسية فكانت العلاقات بينهما تستقر حين تتفق مصالح الطرفين ولكنها لم تصل إلى درجة ثقة كل واحد منهما فى الطرف الآخر . أما حين تتعارض مصالحهما فكانت تنفصم عرى الروابط والصلات بينهما .

وبالنسبة للعامل الأول أخذ يعقوب بن الليث يوجه نشاطه بتحريض من أهل سجستان إلى بلاد الترك الدرارى المتاخمين لولاية سجستان ، لأن خطرهم على سجستان كبير(١٩) ، فقاتل ملوك تلك البلاد حتى وصل إلى غزنة وكابل ، ثم عاد يعقوب إلى سجستان وقد حمل بعض رؤوس الترك معه ، فزادت هيبته ، وغنم من بلاد الترك غنائم كثيرة(٢٠) ، وكان ذلك كله فى صالح الخلافة العباسية ولذلك لم تعترض الخلافة على أعماله . وكان يعقوب يظهر التمسك بطاعة الخليفة المستعين با لله ، فلما تولى المعتز با لله الخلافة سنة ٢٥٢هـ ، كتب إلى يعقوب بولاية سجستان(٢١) ، ولكن علاقة الدولة العباسية به لم تتوثق لأن شخصيته وأهدافه وخططه لم تتضح بعد للخلافة .

وفى سنة ٢٥٤ هـ أرسل يعقوب إلى الخليفة المعتز با لله يطلب ولاية كرمان ويذكر عجز الطاهريين وعدم قدرتهم على إدارتها واستيفاء خراجها وتحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . وأعلن يعقوب ولاءه وطاعته للخليفة فأجابه إلى طلبه وقلده ولاية كرمان وكان المعتز با لله يعلم أن يعقوب يظهر له طاعة ظاهرية لا حقيقة لها(٢٢) . ولكل الظروف التى كانت تعيشها الخلافة العباسية عندئذ الأوضاع التى أحاطت بولايتى فارس وكرمان دفعت الخليفة إلى تقليد

يعقوب ولاية كرمان . ولم يكن ذلك ناتجًا عن ثقة الخليفة فى يعقوب أو فى ولائه وطاعته للخلافة ، وإنما أراد يعقوب أن يتقرب إلى الخلافة لعله يزيل شكها فيه وعدم ثقتها به فبادر حينما استولى على فارس بالخطبة للخليفة العباسى والدعاء له. وحينما طلب منه على بن الحسين إبراز كتاب الخليفة إليه بولايته رد عليه يعقوب قائلاً : " فإن البلد لأمير المؤمنين ، ونحن عبيده نتصرف بأمره فى أرضه وسلطانه ، وفى طاعة ا لله وطاعته"(٢٣) ، ثم أرسل إلى الخليفة المعتز بـا لله هدية ثمينة(٢٤) ، وكتب إليه يعلن طاعته . ومع ذلك ، فإن الخليفة لم يكن مطمئنًا إلى عمل يعقوب وتصرفاته ، فحينما غادر فارس أرسل إليها عمالاً(٢٥) .

وفى سنة ٢٥٧ هـ استولى يعقوب على فارس مرة أخرى ، وأراد أن يتحدى سلطة الخلافة ، ولكن الخليفة ، العباسى الموفق بـا لله حرص على تسوية الموقف بين الصفاريين والخلافة فأسند إليه بعض أعمال الولايات التى كان معظمها تحت يده ، كبلخ وطخارستان والسند وسجستان ليبعده عن فارس ، ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائمًا إبعاده عن فارس ، وأنها لا تطمئن إليه ، ولا زالت تشك فى نواياه وخططه ولا تثق فى ولائه وطاعته ، اعتبر أن السبب فى ذلك هم آل طاهر أصحاب النفوذ فى خراسان وبغداد وفارس ، فأراد أن يصفى حسابه مع آل طاهر لعله يحظى بثقة الخلافة ، فاستولى على خراسان ، وقضى على نفوذ الطاهرين بها فى سنة ٢٥٩ هـ ، ولكن الخلافة ما كانت لتعدل الصفاريين بالطاهريين ، فازداد شكها فى الصفاريين وأصدرت أمرها إلى عاملها على بغداد بأن يجمع حجاج خراسان وجرجان وطبرستان والرى ويعلمهم بأن الخليفة لم يول يعقوبًا أيا من تلك الولايات ، وإنه من المخالفين الخارجين على سلطة الخلافة ولما رأى يعقوب أن الخلافة لم تغير موقفها منه وأن ثقتها فيه انهارت قرر أن يلتحم معها عسكريًا(٢٦) ، وتم ذلك فى دير العاقول ٢٦٢ هـ . وكان هذا اللقاء العسكرى ، بين يعقوب وقوات الخلافة العباسية يمثل قمة الشك وعدم ثقة كل طرف فى الآخر .

ورغم أن عمرو بن الليث الذى خلف أخاه على الإمارة كان أكثر مرونة وتعاونًا وتقربًا إلى الخلافة ، إلا أن الخلافة العباسية كانت تسند إليه ولاية الأعمال وترسل التقاليد مداراه له ودفعًا لخطره ، لا ثقة فى ولائه وطاعته لبنى العباس . وكانت الخلافة تتحين الفرص للقضاء على عمرو ونفوذه ، فلما أتيحت الفرصة للمعتضد با لله سنة ٢٨٧ هـ على يد السامانيين لم يتردد فى ذلك .

وقد أعلن يعقوب ، عدم ثقته وكرهه للعباسيين فى رواية حيث قال يعقوب: " إن العباسيين قد ثبتوا حكمهم على الحيلة والخديعة . ألم تشاهد ما عملوه مع أبى مسلم وعائلته البرامكة على الرغم من كل ما عمله هؤلاء الرجال بالنسبة للدولة العباسية ، فلاتدع أحد يثق بهم أبدصا ."(٢٧)

وقد ادخل الصفاريون تقليدًا جديدًا على علاقة الأمراء المستقلين بالخلافة العباسية فاحتفظوا لأنفسهم بما جمعوه من خراج مناطقهم ،ولم يرسلوا منه شيئا إلى بيت المال ببغداد ، واقتصروا على إرسال الهدايا . وكان يعقوب أول من أدخل اسمه فى الخطبة مع اسم الخليفة ، كما كان عمرو أول من نقش اسمه على الدنانير. والصفاريون هم أيضًا أول من هاجم سلطة العباسيين فى فارس ، وحاولوا الحط من سلطتهم الدنيوية إلى أدنى حد(٢٨) .

أما العامل الثانى وهو جهود الصفاريين فى الاصلاح الدينى والاجتماعى فلقد تأثر يعقوب بن الليث الصفار بفلسفة حركة المتطوعة ، فانضم إلى تلك الحركة وأصبح أحد أعضائها النشيطين ، واستطاع بقوة شخصيته(٢٩) وتأثيره وحسن معاملته لاتباعه وأصحابه أن يتزعم الحركة(٣٠) . ثم أنه أخذ يتقرب إلى أفرادها حتى استحوذ على قلوبهم فاطاعوه طاعة مطلقة · فلما قضى على كثير من زعماء الخوارج المتطرفين الذين رفضوا التعاون معه ، وأقر الأمن والنظام فى سجستان اتجه إلى المجتمع فى سجستان فأخذ يصلح أحواله ويقضى على المفاسد التى انتشرت فيه وكان يأخذ بعضًا من أموال الأغنياء فيوزعها على الفقراء

والضعفاء . وأظهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٣١) فازادات محبة الناس له(٣٢) . وقد أظهر يعقوب لأصحابه وخاصة العلماء منهم أن الخليفة ولاه سجستان وأمره بقتال الخوارج ، لئلا يظهر فى نظرهم بمظهر العاصى الخارج على سلطة الخلافة . وبعد أن استقر الوضع فى سجستان ثم إصلاح أحوال المجتمع فيها اتجه إلى بلاد الترك المتاخمين لسجستان وأخذ يدعوهم للإسلام ليظهر أمام اتباعه وأعدائه على حد سواء بمظهر المجاهد فى سبيل الله . وبعد ذلك قصد بعض أملاك الطاهريين فى هرات وبوشنج فضمها إليه مظهرًا أن الدافع من وراء ذلك هو عجز الطاهريين عن تحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . ثم اتجه إلى الطاهريين فى كرمان وأملاك الدولة العباسية فى فارس متخذًا من عجز الطاهريين وفساد الإدراة وفقدان الأمن حجة لبسط نفوذه(٣٣) . وكانت الخلافة العباسية حتى نهاية عصر المهتدى بالله (٢٥٦) لا ترى فى حركة يعقوب التى أظهرها بمظهر الإصلاح الاجتماعى والدينى خطرًا يهدد آمنها واستقرارها ، بل رأت أنها تستفيد منها فى توطيد الأمن فى فارس وكرمان . ولكن سياسة الخلافة العباسية تجاه يعقوب تغيرت حينما تقلد المعتمد على الله ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ الذى أصدر إلى محمد بن طاهر منشورًا بولاية خراسان وسجستان ، وبهذا لم يعترف المعتمد بولاية يعقوب على سجستان(٣٤).

أما العامل الثالث وهو : الفكر السياسى للخوارج وأثره فى توجيه حركة

وعلى الرغم من أن يعقوب الصفار قد تعاون مع الخوارج واستفاد من حركتهم إلا أن المصادر التاريخية التى بين أيدينا لم تبين مدى تأثر يعقوب بعقيدة الخوارج ومذهبهم . ويبدو أن المصادر التاريخية التى نعتت يعقوب بأنه خارجى(٣٧) قصدت من اللفظ معناه السياسى ، ولم تقصد معناه المذهبى والفكرى . فيعقوب عاش حياة فيها قدر من الزهد والتقشف وكان لا يكتشف لأصحابه عن آرائه وأفكاره وأسراره(٣٨) . ونتيجة لأن يعقوب الصفار عاش فى بيئته سجستان التى كان للخوارج فيها صولة وجولة ، وكانوا فيها من الكثرة والقوة ما جعلهم يتفاخرون بمذهبهم عند البيع والشراء(٣٩) ، فقد تأثر يعقوب بفكرهم السياسى ، وكان لهذا التأثر أثره فى علاقته مع دولة الخلافة العباسية ، ويتضح لنا ذلك فى ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : كان سنة ٢٥٤ هـ حينما اتجه يعقوب بجيشه إلى فارس ليستولى عليها ويضمها إلى ولايته ، فلما طلب منه على بن الحسين بن قريش والى فارس – فى عهد الخليفة المعز بالله – إن كان معه عهد من الخليفة أن يبرزه له رد عليه يعقوب بأن معه عهد من الخليفة لا يستطيع أن يبرزه إلا بعد أن يدخل البلد ، فلما قبض يعقوب على على بن الحسين ودخل شيراز أخرج سيفه قال : هذا عهدى(٤٠) .

وكان الموقف الثانى : حينما دخل يعقوب الصفار نيسابور فى شوال من عام ٢٥٩ هـ وقبض على محمد بن طاهر ، إذ أخذ علماء ووجهاء وأعيان المدينة يتناجون فيما بينهم وكل يسأل صاحبه : أمعه عهد وتقليد من الخليفة ؟ فلما علم بما يساورهم أمر جنوده بأن يطوفوا فى المدينة يدعون الناس وخاصة العلماء وأعيان نيسابور حتى يعرض عليهم منشور الخليفة فلما اجتمعوا عنده التفت

يعقوب إلى حاجبه وقال له : " احضر منشور أمير المؤمنين حتى اقرأه عليهم فوضع الحاجب أمامه سيفًا براقًا فقال يعقوب : هذا هو منشور الخليفة إن هذا السيف هو الذى أعطانى خراسان ، وبذلك فأنا والخليفة سيان فى الحجة(٤١) .

أما الموقف الثالث : فحينما انهزم يعقوب بن الليث الصفار أمام جيش الخلافة العباسية بقيادة المعتمد على الله سنة ٢٦٢ هـ حيث اتجه إلى جند يسابور وأقام هناك يعالج جراحه . وفى تلك الأثناء أراد الموفق بالله أن يستغل هزيمة يعقوب لكى يتفرغ لحرب الزنج ، فأرسل إليه رسولاً يحمل تقليدًا ليعقوب بعمل بعض الولايات البعيدة عن العراق . فلما وصل رسول الخليفة : إلى جند نيسابور سنة ٢٦٥ هـ كان يعقوب على فراش الموت وبجانبه سيفه فقال يعقوب لرسول الخليفة : قل للخليفة أننى عليل فإن مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وأن عوفيت فليس بينى وبينك إلا هذا السيف(٤٢) .

وجملة القول ، كان لبيئة سجستان التى عاش فيها آل الصفار ولتعاونهم مع الخوارج وتعاون الخوارج معهم دور كبير فى تأثر يعقوب بالفكر السياسى للخوارج ثم فى توتر العلاقة بين الإمارة الصفارية ودولة الخلافة بما جعلها تحتكم فى كثير من المواقف إلى السيف والقوة ، مثلما يفعل الخوارج حينما يصطدمون عسكريًا بالخلافة العباسة .

أما العامل الرابع فهو الطبيعة العسكرية للإمارة الصفارية : إذ توصف الإمارة الصفارية فى سجستان بأنها كانت إمارة عسكرية ، وكان يعقوب وأخوه عمرو جنديين عبقريين(٤٣) يتمتعان بكثير من الصفات القيادية والعسكرية ، وكان ليعقوب منهج خاص فى تنظيم جيشه وتزويده بالعناصر الجديدة واعداده وتهيئته للقتال(٤٤) .

وكان معظم جند جيش يعقوب من أهالى سجستان ، وهى منطقة سهلية سبخة رملية تقل فيها الجبال وذات مناخ حار(٤٥) ، مما جعل يعقوب لا يحقق مكاسب استراتيجية ثابتة فى منطقة الترك الدرارى ذات الجبال الوعرة والمناخ البارد ، لأن جيشه تعود على الهواء الدافئ وخفة الحركة وقلة المؤنة(٤٦) . لذلك نلاحظ أن الإمارة الصفارية اتجهت فى توسعها إلى المنطقة الجنوبية لسجستان ، وهى فارس وكرمان وإلى المنطقة الغربية لها وهى خراسان(٤٧) ، مما جعلها فى صراع مستمر مع الخلافة العباسية . وكان لذلك أثره القوى فى توتر العلاقة مع العباسيين . وكان يعقوب وعمرو يريان دائمًا أن قوتهما ترجع لأصل عسكرى بحت ، لا لأى اعتبارات أخرى ، وهذا يؤكد سيطرة الروح العسكرية على الإمارة الصفارية ، مما جعل علاقتها بالخلافة متذبذبة مضطربة لا تستقر على حال. وعلى كل حال فإن شهرة يعقوب وأخيه عمرو تعود إلى شجاعتهما ومقدرتهما السياسية والعسكرية ، لا إلى ثقافتهما ودعمهما وتشجيعهما للحركة العلمية والأدبية فى سجستان . والذين كتبوا عن الإمارة الصفارية إما فرس(٤٨) ، اندفعوا وراء العاطفة فجعلوا يعقوب وأخاه بطلين قوميين بعثا مجد فارس القديم فنسبوا إليهما أمورًا كثيرة تتعلق بالعناية بأمجاد فارس وتاريخها وتراثها وأدبها ، إما من طوائف أخرى تحدثت عن الصفاريين من خلال نشاطهم السياسى ومعاركهم العسكرية دون أن تتعرض لما خلفوه من تراث حضارى ، فلم تذكر جانبًا من نشاطهم العلمى ، أو طرفًا من دورهم فى ازدهار المشرق وحضارته . ولعل السبب فى اغفال المصادر التاريخية للجوانب العلمية والأدبية التى أسهم فيها الصفاريون إبان إمارتهم على سحستان وغيرها من ولايات المشرق ، يعود إلى توتر علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية ، والتى اتخذت طابع المواجهة الحربية بينهما حين أعلن يعقوب الحرب ضد الخليفة المعتمد على الله ، وأعلن أخوه عمرو الذى أعقبه على الإمارة عدة مرات تمرده وعصيانه على الخليفتين المعتمد على الله والمعتضد بالله ، مما جعل المصادر التاريخية التى سجلت أحداث التاريخ العباسى فى

عصر نفوذ الأتراك تبرز جانبًا كبيرًا من النشاط السياسى والمعارك الحربية للصفاريين دون ذكر الجوانب الحضارية التى أسهموا فيها والتى سارت جنبًا إلى جنب مع نشاطهم السياسى(٤٩) لذلك فإن إبراز دور الصفارية كإحدى الإمارات الإسلامية التى حكمت المشرق فى العصر العباسى فى المجال الحضارى من الأمور التى تتطلب جهدًا كبيرًا ، لأن هذا الجانب ضاع بين إغفال المصادر التاريخية التى أغفلت نشاط الصفاريين الثقافى ومساهمتهم فى حضارة المشرق ، وبين حماسة واندفاع المؤلفين الإيرانيين الذين نظروا إلى الإمارة الصفارية نظرة قومية عاطفية، فقالوا إن نهضة المشرق الأدبية خاصة فى القرن الثالث الهجرى تدين لهم وخاصة فيما يتعلق بالعناية باللغة الفارسية وآدابها .

وللحقيقة والتاريخ فإن الحركة العلمية والأدبية فى ولاية " سجستان " وخاصة فى مدينتى " زرنج " و " بست " شهدت إزدهارا ونشاطًا ملحوظًا فى الفترة التى تعاقبت فيها على الإمارة الصفارية يعقوب بن الليث وأخوه عمرو ، وذلك لاستتباب الأمن واستقرار الأوضاع فيها ، وللرخاء الاقتصادى الذى عاشته الولاية فى عهدهما . وقد تخرج فىبست " بست " فى تلك الفترة علماء كثيرون فى الفقه والتفسير والأدب واللغة ، منهم الخطابى أبو سليمان أحمد بن محمد البستى صاحب معالم السنن وغريب الحديث(٥٠) .

وعلى الرغم مما شهدته ولاية سجستان فى عصر يعقوب وعمرو من نشاط فى الحركة العلمية والأدبية إلا أن المصادر التاريخية ، وكتب الأدب ، لم تسجل لنا صورة أو حدثًا تاريخيًا يمكن الاستفادة منه فى بيان دور آل الصفار فى دعم وتشجيع الحركة العلمية فىسجستان وخراسان ، اللهم إلا ما يذكره المسعودى عن إحسان يعقوب ، وبره بأتباعه وجنده دون تمييز ، وما يذكره أيضًا عن طريقته ومنهجه فى استقبال الوفود والرؤساء(٥١) . كذلك يذكر ابن خلكان أن عمرًا انتهج سياسة ونظمًا إدارية فى حكمة لخراسان تعد فريدة فى ذاتها(٥٢) ، والإمارة

الصفارية - كما ذكرنا - وإن كانت السمة العامة لها أنها إمارة عسكرية فى خططها ونفقاتها - ، إلا أن الباحث المتحرى للحقيقة لا يستطيع أن ينكر أن يعقوب وأخاه عمرو بذلا جهودًا أسهمت فى الازدهار الحضارى لولاية المشرق .

وكانت عناية الصفاريين بالآداب الفارسية على ما يبدو أكثر من عناية الطاهريين ، لأنه لم يكن لطاهر وبنيه دراية تامة باللغة الفارسية(٥٣) ، ويذكر باريزى : أن يعقوب لم يكن له علم باللغة العربية . وينبغى أن ندرك أن رأى باريزى وغيره من المؤلفين الفرس القائل بأن اللغة العربية لم تنتشر فى سجستان فى ذلك الوقت أمر مجاف للحقيقة ، فقد انتشرت اللغة العربية فى مدن سجستان الهامة مثل " بست " و" زرنج " وتخرج فى بست عدد من علماء اللغة العربية . ولا أدل على انتشار اللغة العربية فى زرنج قاعدة الولاية من أن خطبة الجمعة فيها كانت باللغة العربية .

والخلاصة أنه ويمكن إبراز مجهود الإمارة الصفارية ودورها فى حضارة المشرق فى عدة جوانب تشمل النقاط التالية :

(أ) إقرار الأمن والنظام فى سجستان وبذلك أتاحوا للحركة العلمية فى مدن سجستان جوا علميًا بعيدًا عن الفوضى والإضطراب .

(ب) العناية بالمشآت العمرانية وخاصة بناء المساجد وإقامة بعض المبانى للإدارات والأجهزة الحكومية فى نيسابور وإقامة بعض الأسواق فى زرنج(٥٤)

(جـ) الاهتمام بالصحةالعامة والرعاية الصحية وتشجيع الحركة الطبية فى سجستان . ويتضح ذلك من أن عمرو بن الليث أوقف جزء من دخل السوق الذى بناه فى زرنج ليصرف دخله على البيمارستانات(٥٥) فيها فأصبح لها مورد ساعدها على أداء رسالتها وعلى نشر الوعى الصحى بين الناس .

الهوامش

(١) د. محمد عبد القادر أبو فارس : النظام السياسى فى الإسلام ص١٣١

د. فتحى عبد الكريم : الدولة والسيادة فى الفقه الإسلامى ص١٥١

(٢) يراجع فى ذلك ابن منظور : لسان العرب ، وكذلك حاشية جيش الصفاريين بقلم قحطان عبد الستار الحديثى ، ص٢٣٨

(٣) سى . أى . بوزورث : جيش الصفاريين ترجمة : د. عبد الجبار ناجى ، ص١٩٦

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص ٤٣٠

(٥) الحموى : معجم البلدان جـ٤ ، ص٣٣٣

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٢

والحديثى : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٢

(٧) ف . بارتولد : تاريخ الدولة الصفارية .

ترجمة : د. منذر البكر : مقالة فى مجلة كلية الآداب جامعة البصرة – السنة الثانية .

(٨) يراجع فى ذلك : سى . أى . بوزورث : جيش الصفاريين .

ترجمة : د. عبد الجبار ناجى ص/:ط

وفيات الأعيان جـ٥ ، ص٢٩١

(٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٥ ، ص٢٩١

ابن خلكان :وفيات الأعيان جـ٦ ، ص

(١٠) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٢

(١١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٣٣٨

(١٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٢٩١

(١٣) السمعانى : الأنساب جـ٧ ، ص١٣

(١٤) الشلقانى : الرواية فيما وراء العراق ص٢٥

(١٥) بارتولد : تركستان ص٣١٩

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦، ص٤٠٤

(١٧) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٠

(١٨) ابن حوقل : صورة الأرض ص٢٧٠

(١٩) النرشخى: تاريخ بخارى ص١٠٨

(٢٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٣

(٢١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ٣ ، ص٢٩٤

(٢٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ١١ ، ص١٥٩

(٢٣) ابن خلكان : جـ٦ ، ص٤٠٨

(٢٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٢٤١

(٢٥) باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ص١٤٨

(٢٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ، ص٣٦٣

(٢٧) سى . ى . بوزورت : جيش الصفاريين ص١٩٠

(٢٨) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص٢٠٢

(٢٩) ابن الأثير : الكامل جـ٥ ، ص٣٣٨

(٣٠) نفس المرجع .

(٣١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٣

(٣٢) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٧٠

(٣٣) ابن الأثير : جـ٥ ،ص٢٤٠

(٣٤) د. إبراهيم باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ص١٤٦

(٣٥) د. فاروق عمر : الخلافة العباسية ص٢٢٣

(٣٦) سى . أى بوزورث : جيش الصفاريين ص٢٠٢

(٣٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٢

(٣٨) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٣

(٣٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٣ ، ص١٩٠

(٤٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ص٤٠٧

(٤١) باريزى : يعقوب بن الليث الصفار جـ٦ ، ص٤٠٧

د. فاروق عمر : الخلافة العباسية ص٢٢٢

(٤٢) باريزى : يعقوب بن الليث ص١٦٣

(٤٣) سى . أى بوزورث : جيش الصفاريين ص١٨٩

(٤٤) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٥

(٤٥) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٥

(٤٦) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٠

(٤٧) ابن طيفور : تاريخ بغداد ص١٧

(٤٨) يمثل هؤلاء صاحب تاريخ سيستان ، ومن الباحثين المحدثين :

د. إبراهيم باستانى باريزى : أستاذ التاريخ بجامعة طهران فى كتابه : يعقوب بن الليث الصفار .

ود. رضا زاده شفق : أستاذ الأدب الفارسى فى جامعة طهران فى كتابه : تاريخ الأدب الفارسى .

(٤٩) يمثل هؤلاء الطبرى فى كتابه : تاريخ الأمم والملوك ، والمسعودى فى كتابه: مروج الذهب ، وابن الأثير فى كتابه : الكامل ، وابن خلكان فى كتابه : وفيات الأعيان . قد تميز المسعودى ، وابن خلكان بالإشارة إلى طرف من نظم الصفاريين الإدارية والمالية والعسكرية

(٥٠) الحموى : معجم البلدان جـ ١ ، ص٤١٥

(٥١) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ، ص٢٠٤

(٥٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٦ ، ٤٢١

(٥٣) حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسى جـ١ ، ص١١٧

(٥٤) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٠

(٥٥) الأصطخرى : المسالك والممالك ص١٤٠

المصادر والمراجع

المصـــــادر :

ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد . ت٦٣ هـ .

- الكامل فى التاريخ .

دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

الحموى : أبو عبد الله ياقوت : ت ٦٢٦ هـ .

- معجم البلدان .

بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .

ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على . ت ٣٦٧هـ .

- صورة الأرض

منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون . ت ٨٠٨هـ .

- تاريخ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٦٦م .

- مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد . ت٦٨١هـ

- وفيات الأعيان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

السمعانى : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور . ت ٥٦٢هـ .

- كتاب الأنساب (لندن ١٩١٢) .

الاصطخرى : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى - ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .

- المسالك والممالك .

تحقيق : محمد عبد العال الحسينى ، دار القلم ١٣٨١ هـ .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير . ت٣١٠ هـ
- تاريخ الأمم والملوك .

ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر الكاتب . ت٢٨٠ هـ .
بغداد . طبع سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٣٦٨ م.

القزوينى : زكريا محمد . ت٦٨٢ هـ .
- آثار البلاد وأخبار العباد .
دار صادر بيروت .

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين / ت ٣٤٥هـ
- مروج الذهب ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد . الطبعة الرابعة ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٥ هـ .

المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد . ت٣٨٨ هـ .
- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبع فى مطبعة بريل عام ١٩٠٩ م .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . ت٧١١ هـ .
- لسان العرب .
الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

اليعقوبى : أحمد بن يعقوب ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٣٧٩ هـ .

المراجـــــع :

د. حامد عبد القادر :
- قصة الأدب الفارسى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة الطبعة الأولى ١٩٥١ م

د. عبد الحميد الشلقانى :
- الرواية فيما وراء العراق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥

عبد العزيز الدورى :
- دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، الطبعة الأولى، مطبعة السريان، بغداد ١٩٤٥.

د. عبد الفتاح السرنجاوى :

- النزعات الاستقلالية والخلافة العباسية ، الطبعة الرابعة : نشر دار الكتب الأهلية بمصر ١٣٦٣ هـ/١٩٤٥ م .

د. فاروق عمر :

- الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرية ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٧٧ م .

د. فؤاد محمد النادى :

- نظرية الدولة فى الفقه السياسى الإسلامى ، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ .

الكتب المترجمة إلى العربية :

- **باريزى** : د. إبراهيم باستانى
يعقوب بن الليث الصفار
ترجمه من الفارسية : د. محمد فتحى يوسف الريس
دار الرائد العربى .
- **بارتولد فاسيلى** : تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، ترجمة د. صلاح الدين عثمان هاشم .
منشورات المجلس الوطنى للثقافة والفنون الكويت ١٤٠١ هـ .
- **بوزورث . سى . أى** : جيش الصفلريين ، لندن ، ١٩٧٧ .
- **د. رضا شفق** : تاريخ الأدب الفارسى .
ترجمه من الفارسية : محمد موسى هنداوى
دار الفكر العربى ١٩٤٧
- **النرشخى** : أبوبكر محمد بن جعفر . ت ٣٨٤ هـ تاريخ بخارى .
ترجمة : د. أمين عبد المجيد البدوى ، دار المعارف بمصر .

محاولة المهتدى بالله الإصلاحية
وأثرها على الخلافة العباسية

د/ على بن صالح المحيميد*

مقدمة :

يمثل الخليفة المهتدى بالله (حكم بين عامى ٢٥٥ و٢٥٦هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠م) ، نموذجًا حيًا وصادقًا لمجموعة الخلفاء الصالحين الذين سطر التاريخ الإسلامى بمراحله المختلفة سيرتهم وجهودهم الخيرة بحروف من نور ، فقد كان المهتدى بالله دينًا على منهج الخلفاء الراشدين ، وضعه الإمام السيوطى يرحمه الله ضمن الاثنى عشر خليفة الذين ورد ذكرهم فى الحديث الشريف : " لا يزال هذا الأمر عزيزًا إلى اثنى عشر خليفة كلهم من قريش "(١) ، وقال عنه الإمام الحافظ ابن كثير : " لقد كانت خلافته بحمد الله خلافة صالحة "(٢) ، وامتدحه الإمام الذهبى قائلاً: " إنه من أحسن أهل زمانه "(٣) .

ولقد استهدفت المحاولة الإصلاحية التى تولى كبرها الخليفة المهتدى بالله قلب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتردية التى عانت الخلافة العباسية من ويلاتها وآثارها السلبية منذ فجر عصرها الثانى الذى بدأ سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦ م بسبب ضعف السلطة المركزية فى العاصمة سامراء من ناحية ، وتفاقم نفوذ الموالى الأتراك ، وتدخلهم المستمر فى شؤون الخلافة من ناحية أخرى .

مدخل :(الحياة السياسية فى سامراء قبيل عهد المهتدى ٢٣٢-٢٥٥هـ):

أضحت الخلافة العباسية منذ مطلع العصر العباسى الثانى ٢٣٢هـ / ٨٤٧م تئن تحت وطأة نفوذ العناصر التركية التى وفدت إلى حاضرة الخلافة العباسية فى العراق(٤) بأعداد هائلة أثناء عهد الخليفة المعتصم(٥) .

---

* أستاذ مساعد بكلية العلوم العربية والاجتماعية، بالقصيم جامعة الإمام محمد بن سعود.

وعندما اعتلى الخليفة المتوكل(٦) (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٧ - ٨٦١م) عرش الخلافة حاول مقاومة النفوذ التركى والتخلص منه ، فزج ببعض القواد الأتراك فى السجن(٧) ، وأقدم سنة ٢٣٥هـ / ٨٥٠م على خطوة جريئة أخرى هدفت إلى الحد من سيطرة الأتراك ، ومنعهم من التدخل فى شئون فى شؤون الخلافة ، وحرمانهم من اختيار الخليفة العباسى . ذلك أنه عقد البيعة لأبنائه الثلاثة : محمد المنتصر با لله(٨) ، والزبير المعتز با لله(٩) ، وإبراهيم المؤيد با لله(١٠)، وأقطع كلا منهم ناحية مهمة من بلدان الخلافة العباسية(١١) .

وبذلك حرم المتوكل الأتراك مما كان فى أيديهم من الولايات والمناصب المهمة . ومن الطبعى أن يولد هذا الإجراء كرها فى نفوسهم تجاه المتوكل ، فاشتد حقدهم عليه ، وأشاعوا الاضطرابات والفتن(١٢) داخل العاصمة العباسية سامراء(١٣) .

وقد شعر المتوكل بذلك فقرر الابتعاد عنهم ، وانتقل من العراق إلى الشام حيث وصل دمشق سنة ٢٤٣هـ / ٨٥٧م سعيًا وراء كسب تأييد العناصر العربية التى كانت تشكل آنذاك غالبية سكان بلاد الشام . ولكن المتوكل لم يستطع تحقيق ما كان يصبو إليه ، بل شغب عليه جند الشام(١٤) فعاد إلى سامراء بعد أن غاب عنها قرابة شهرين(١٥) .

ولما عاد إليها وجد ابنه وولى عهده المنتصر قد تغير موقفه ، وصار يتعاطف مع بعض قواد الأتراك . فقام بعزله من منصبه ، وجعل ابنه المعتز وليًا للعهد . وعندئذ أنضم المنتصر إلى الأتراك ، وشايعهم ضد أبيه . فعزم المتوكل على الفتك بابنه وبعض أعوانه الأتراك (١٦) ، ولكنهم اغتالوه سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م ، وبايعوا ابنه المنتصر بالخلافة (١٧) ، وأوعزوا إليه عزل أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد، فاستجاب لطلبهم وهم المتورطون معه فى قتل أبيه (١٨) . ثم انقلب عليهم وراح يسبهم فى مجالسه بقوله : " هؤلاء قتلة الخلفاء "(١٩) . ولما شعروا بالخطر دسوا

عليه طبيبه حيث فصده بريشة مسمومة مات متأثرًا بها سنة ٢٤٨هـ/ ٨٦٢م(٢٠). وبوفاة المنتصر اتفق الأتراك على حجب الخلافة عن أولاد المتوكل كى لا يجدو فرصة للأخذ بثأر أبيهم وأخيهم ، وبايعوا أحمد بن المعتصم(٢١) ، ولقبوه بالمستعين قائلين : " هو ابن مولانا "(٢٢) .

تولى المستعين الخلافة وقلّد عددًا من قواد الأتراك بعض المناصب فى الدولة، وأناب بعضهم عنه فى الولايات ، ثم فرق عليهم الأموال (٢٣) . ولكنه ما لبث أن غير معاملته لهم ، وأمر بقتل اثنين منهم ، فتنكروا له ، ثم خاف على نفسه منهم ولجأ سنة ٢٥١هـ / ٨٦٦م إلى بغداد(٢٤) .

وكان أن قرروا مبايعة المعتز بالله بن المتوكل ، وعندئذ أصبح للدولة العباسية خليفتان وحاضرتان فى آن واحد . أحدهما المعتز فى سامراء ، والآخر المستعين فى بغداد . واندلعت الحرب بين أنصار الخليفتين فكثر القتل ، وغلت الأسعار ، وعظم البلاء . ولم تضع هذه الحرب أوزارها إلا بعد أن أقدم المستعين على خلع نفسه سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٧م(٢٥) .

فى تلك السنة تولى المعتز الخلافة ، وكان أول إجراء قام به أنه خلع أخاه المؤيد من ولاية العهد ، وضربه ، وقيده فمات بعد أيام(٢٦) ، ثم قبض على أخيه طلحة الموفق(٢٧)، وزج به فى السجن، ثم سيره إلى بغداد وظل مقيمًا بها(٢٨).

وكان المعتز طيلة مدة حكمه واقعًا تحت سيطرة أمه (قبيحة)(٢٩) ، ولهذا أصبح مستضعفًا من جانب الأتراك الذين طالبوه بأرزاقهم ، فطلب من والدته بعض المال ، ولكنها رفضت . ولم يجد الأتراك بدًا من الهجوم عليه ، وأمروه بخلع نفسه ، فلما رفض خلعوه ، وسلموه إلى من يقوم بتعذيبه ، فمنعه من الطعام والشراب ثلاثة أيام ، ثم أدخلوه سردابًا وجصصوا عليه فمات(٣٠) . وعندئذ أحضروا محمد بن الواثق من بغداد وبايعوه بالخلافة سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م، ولقبوه المهتدى بالله(٣١) .

نبذة عن الخليفة المهتدى با لله :

هو أمير المؤمنين ، المهتدى با لله ، أبو عبد ا لله محمد بن الواثق هارون ابن المعتصم محمد بن الرشيد العباسى (٣٢) . ولد بالقاطول(٣٣) فى خلافة جده المعتصم سنة ثمان أو تسع عشر ومائتين هجرية(٣٤) وأمه أم ولد رومية تسمى قرب(٣٥) .

رشحه البعض لتولى منصب الخلافة عقب وفاة أبيه الواثق سنة ٢٣٢هـ ، ولكن فئة من قواد الأتراك عارضوا هذا الإجراء بسبب صغر سنه ، فحال ذلك دون وصوله إلى الخلافة آنذاك(٣٦) . فجرى ترشيح المتوكل جعفر بن المعتصم مكانه فى الخلافة(٣٧) .

وقد بويع المهتدى بالخلافة فى آخر شهر رجب سنة ٢٥٥هـ ، وكان عمره يومئذ سبعًا وثلاثين سنة ، وقيل : تسعًا وثلاثين سنة(٣٨) . ولما بويع أقر جعفر بن محمود الاسكافى(٣٩) على وزارته ، ثم عزله(٤٠) واستوزر سليمان بن وهب(٤١) وجعل صالح بن وصيف(٤٢) حاجبًا له وأسند القضاء إلى الحسن بن أبى الشوارب(٤٣) .

يقول الخطيب البغدادى : " كان المهتدى با لله من أحسن الخلفاء مذهبًا ، وأجملهم طريقة ، وأظهرهم ورعًا ، وأكثرهم عبادة " (٤٤) . أما ابن العمرانى فقد قال عنه : " كان زاهدًا صوامًا قوامًا لم تعرف له زلة ، سهل الحجاب ، كريم الطباع "(٤٥) .

ويقول ابن الجوزى : " لم يزل المهتدى صائمًا منذ جلس للخلافة إلى أن قتل "(٤٦) .

وقد تحدث بعض المؤرخين عن سياسة التقشف التى انفرد بها هذا الخليفة عن غيره من خلفاء بنى العباس ، وذلك فى ملبسه ومأكله ومشربه وسائر شؤون

حياته ، فقد روى الخطيب البغدادى (٤٧) أن أحد أصحاب المهتدى تناول معه طعام الإطار فى رمضان ، وكان الطعام قطعًا قليلة من الخبز وبجانبها آنية فيها ملح وخل وزيت فدعا المهتدى صاحبه إلى الطعام ، ولكنه تأخر فى بدء بالأكل ظنًا منه أنه سيؤتى بطعام آخر . فقال له الخليفة : " كل فليس ها هنا من الطعام غير ما ترى" . وعندئذ تعجب صاحبه وحاول أن يثنيه عن إفراطه فى التقشف حيث أخذ يذكره بما أسبغ الله عليه من النعم ، وبما بسطه من الرزق وكثرة الخير، فرد عليه المهتدى ردًا بليغًا أبان فيه بعضًا من فصاحته فى القول ، وحكمته وتقديره للأمور، إذ قال لصاحبه : " إن الأمر لعلى ما وصفت فالحمد لله ، ولكنى فكرت فى أنه كان فى بنى أمية عمر بن عبد العزيز ، وكان من التقلل والتقشف على ما بلغك ، فغرت على بنى هاشم ألا يكون فى خلفائهم مثله فأخذت نفسى بما رأيت"(٤٨).

وكان الناس يروون عن سفيان الثورى (٤٩) قوله : " الخلفاء الراشدون خمسة ، ويُعدّ فيهم عمر بن العزيز " ، ثم أجمع الفقهاء ، وأصحاب الحديث ، والقرآن أن السادس هو المهتدى با لله(٥٠) .

وبينما المهتدى يُطل على الناس من أعلى قصره فى أحد الأيام سمع رجلاً يقول لآخر : نصبت ميزاب سطحك فى ملكى ، بينى وبينك أمير المؤمنين ، فسجد المهتدى ، ثم رفع رأسه وبكى ، وقال : الحمد لله الذى أرانى الدنيا هكذا، هذا والله قد طيب على الموت(٥١) .

وكان المهتدى يُكثر من الصلاة والركوع والسجود إلى أن يدركه الصباح، ويُكثر من الدعاء خصوصًا وقت الأفطار إذا كان صائمًا ؛ وكذلك كان يكثر من الدعاء على خصومه ويسأل ربه بأن يكف عنه شرهم(٥٢) . ولما قتل أخرج رجل من الموضع الذى كان هذا الخليفة يأوى إليه فأصيب له سفط(٥٣) مقفول فتوهم المقربون منه أن فيه مالاً أو جواهرًا ، فلما فتح وجد فيه جبة صوف ، وقيل جبة

شعر ، فلما سألوا خادمه ، أخبرهم أن المهتدى إذا جن عليه الليل لبسها وغل نفسه بها(٥٤) .

محاولة المهتدى الإصلاحية :

قبل أن نتطرق إلى محاولة المهتدى الإصلاحية يجدر بنا أن نشير إلى حال البيت العباسى نفسه وقت تسلم المهتدى مقاليد الخلافة .

ذلك إن البيت العباسى كان عندئذ يعانى من حالة ضعف وتفكك لم يسبق لها مثيل ، وذلك بسبب انصراف أكثر أبنائه عن شؤون الرعية ، وميلهم إلى حياة البذخ والترف ، وانسياقهم خلف أهواء الموالى الأتراك الذين أحكموا سيطرتهم على بعض المناصب المهمة فى الخلافة ، وتمكنوا من غرس بذور الفتنة بين أفراد الأسرة العباسية . وفأوجد ذلك جوًا من العداء والكراهية والشك فيما بينهم ودخلوا فى مشاحنات لا طائل من ورائها سوى إنهاك القوة العباسية ، والتقليل من محبة ومكانة العباسيين وهيبتهم فى قلوب الناس . فاستغل الأتراك ذلك وصاروا بمثابة حلقة اتصال بين الرعية والخلفاء(٥٥) . وكان القواد قد أجمعوا بعد أن خلع المعتز نفسه عن الخلافة على أنه ليس فى أولاد الخلفاء أفضل ولا أعقل من محمد بن الواثق(٥٦) .

ولما تبوأ المهتدى مكانه فى دار الخلافة وجد أن الفرصة باتت مواتية لتحقيق ما كان يدور فى ذهنه من قبل . إذ لم يستطع هذا الخليفة تحمل رؤية مظاهر الفساد والفوضى وقد أضحت تعم أرجاء الدولة ، فكان أول إجراء إصلاحى أقدم عليه حينما جرى ترشيحه للخلافة رفضه قبول البيعة من أحد ما لم يعلن سلفه الخليفة المعتز أمام الملأ عدم قدرته على تصريف أمور الخلافة ، ورغبته فى تسليمها إليه عن رضا وقناعة واختيار منه . وكان المهتدى قد قال لأنصاره حينما تقدموا إلى مبايعته المثل السائر :" لا يجتمع فحلان فى شول، ولا سيفان فى غمد" (٥٧).

ولما حضر المعتز ومثل أمام المهتدى سلم عليه بالخلافـة ، فطلب الحـاضرون من المهتدى أن يأخذ مكانه فى صدر المجلس ، ولكنه أبى ، وقال : " لا ارتفع على العرش إلا أن يرفعنى الله بخلافته " . ثم تحدث إلى ابن عمه المعتز قـائلاً : "يـا أمير المؤمنين خلعت أمر البرية من عنقك طوعًا ورغبة ، وكل من كانت لك فـى عنقـه بيعة فهو برئ منها " فأجابه المعتز إلى ذلك ، ثم قـام المهتـدى إلى صـدر المجلس ، وبايعه الناس فى سامراء(٥٨) .

ويبدو أن المهتدى قصد من وراء قيامه بهذا الإجراء تحقيق أمور عدة :

أولها : أن يؤكد لمن حوله بأن وصوله إلى الخلافة لم يكن مغنمًا وهدفًـا قـد خطط له وسعى من أجل الوصول إليه ، بل كان مغرمًا وجد نفسه فجأة فيه .

ثانيها : إنه كان يخشى من وقوع فى الفـخ نفسـه الـذى نصبـه بعـض قـواد الأتراك من قبل للخليفة المعتز حينما بايعوه بالخلافـة ووافقهـم علـى ذلـك ، بينمـا كان سلفه المستعين ما زال قائمًا علـى رأس الخلافـة فـى بغـداد ، فـأدى ذلـك إلى تأجج نيران الفتنة أواخر سـنة ٢٥١هـ / ٨٦٦م بـين المعتـز وأنصـاره فـى سـامراء والمستعين وأعوانـة فـى بغـداد ، وسـقط فيهـا عـدد ليـس بـالقليل مـا بـين قتيــل وجريح(٥٩) .

ثالثها : حاول الحصول على أوسع تأييد ، حيث إن مبايعته الشعبية المسبقة تعد بمثابة تأييد لكل ما كان يخطط لتنفيذه من إصلاحات إدارية واجتماعية .

لقد أدرك المهتدى بثاقب نظره وحكمته وتواضعه أن يبدأ قبل فرض محاولتـه الإصلاحية على عامة الناس بإصلاح البيت العباسـى نفسـه مـن الداخـل ، بعـد أن انغمس أكثر أفراده فى الملذات فحرى بهم إن يكونوا فى سائر أحوالهم وتصرفاتهم قدوة حسنة ومثلاً أعلى للناس كافة . ولكن المهتدى قبل أن يأمر أهل بيته بذلك ، بدأ أولاً بنفسه حيث عاش حياة زهيـدة مما جعـل أهـل عصـره يشـبهونه بـالخليفـة الأموى عمر بن عبد العزيز .

قال عنه الإمام الأزدى فى أخبار الدول المنقطعة : " يكاد يكون فى الهاشميين كعمر بن عبد العزيز فى بنى أمية هديًا وصدقًا "(٦٠) .

وقال عنه مؤرخ آخر : " لم يل الخلافة بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن العزيز أصلح منه "(٦١) ، وكان المهتدى كثيرًا ما يردد قوله : " إنى لأستحى أن يكون لبنى مروان عمر بن عبد العزيز وليس لبنى العباس مثله ، وهم آل الرسول عليه الصلاة والسلام وبه ألزم ، وإليه أقرب "(٦٢) .

وكان المهتدى يلبس الصوف الخشن تحت ثيابه ، وظل فى أثناء خلافته يلبس الثوب الواحد فيبقى عليه أيامًا كثيرة لا يستبدله بغيره(٦٣) . وكان يقول : " لو لم يكن الزهد فى الدنيا ، والإيثار لما عند الله من طبعى لتكلفته وتصنعته فإن منصبى يقتضيه ، أنى خليفة الله فى أرضه ، والقائم مقام رسوله ، النائب عنه فى أمته "(٦٤) .

ولما تولى المهتدى الخلافة صار يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب بالحاضرين ، ويعظهم ويذكرهم بالآخرة ، ويصلى بهم(٦٥) .

وكان المهتدى قد انفرد بعمله هذا عن غيره من خلفاء العصر العباسى الثانى الذين سبقوه فقد كان هؤلاء يندبون عنهم من يخطب بالناس أيام الجمع والأعياد(٦٦) .

لقد أبطل المهتدى إبان خلافته الملاهى ، وأمر بإخراج القيان والمغنين والمغنيات من سامراء(٦٧) ، وأمر بطمس وإحراق الصور التى كانت فى المجالس، وبإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم ، وأمر بذبح الكباش والديوك التى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء(٦٨).

كذلك أولى المهتدى النواحى المالية قدرًا كبيرًا من الأهمية ؛ إذ كان يعلم أن السياسة المالية ذات قيمة كبرى فى سير أعمال الدولة ، بل هى العنصر النابض

في حياة الأمم ، وكثير من المشاكل تحدث من سوء التنظيم المالى . ولـذا فقـد بـدأ هذا الخليفة بنفسه وخصص مائة درهم يوميًا لنفقاته الشخصية(٦٩) ، وبلغ إجمـالى نفقاته على أهله وولـده وخدمـه وحشـمه طـوال مـدة حكمـه خمسـة عشر ألـف دينار(٧٠) فى حين كان الخلفاء الذين سبقوه ينفقون على موائدهـم فـى كـل يـوم عشرة آلاف درهم(٧١) .

واتسعت دائرة إصلاحاته المالية فشملت رواتب الجنـد حيـث قـرر أن تدفـع هذه الرواتب على أساس الأيام بدلاً من الشهور ، ليكـون فـى مـأمن مـن ثـورات الجند ، حتى إذا نقصت الأموال فى خزينة الدولة حسم ذلـك اليـوم عليهـم بـدون مشاغبة(٧٢) .

ولما كان الجيش العباسى يتألف من فرق عسـكرية عـدة تشـكلت علـى مـر العصور وتعاقب الخلفاء ، فقـد رأى المهتـدى أن تدفـع رواتـب الجنـد فـى الجيش العباسى على حسب نوعية الفرق العسكرية التى ينتمـون إليهـا ، فقـد كـان الفـرد الواحد من فرقة الأتراك يتقاضى درهمين يوميًا مقـابل درهـم واحـد لزميلـه الـذى يخدم فى فرقة المغارية " المنسوبة إلى مصر "(٧٣) .

وما من شك أن هـذا التميز فـى مرتبـات الجنـد العباسـى وإعطـاء الأتـراك أفضلية دون غيرهـم ، يعكس بوضوح مدى قوة نفـوذ العنـاصر التركيـة وتحكمهـم فى مركز القرار السياسى داخل البلاط العباسى ، كما أنه يبين مدى الضعف الذى بلغه العنصر العربى إبان هذه المرحلة فى تاريخ الدولة العباسية .

لقد كان المهتدى يقصد من وراء تلك الإصلاحـات الماليـة ترشيد النفقـات العسكرية ، والعمل على الوصول إلى توازن مصروفات الخلافة مـع إيراداتهـا التـى أختلت أمورها فى عهود من سبقه ، لدرجة أن خزينـة الدولـة عنـد توليـه الخلافـة أصبحت شبه خاوية بعد أن عبث بها القادة الأتراك وبعض نساء وأمهات الخلفاء.

ولما كانت فترة الفوضى السياسية التى سبقت خلافة المهتدى قد أتاحت الفرصة لبعض ضعاف النفوس فى الوصول إلى المراتب العليا فى الدولة ، كالوزارة والدواوين العامة وغيرها ، فأساءوا استخدام هذه المؤسسات وأخفقوا فى إدارتها لأنهم جاءوا إليها بقصد تحقيق مكاسب ذاتيه لهم ، فقد باشر المهتدى الإشراف بنفسه على الخراج والدواوين حيث خصص يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع للجلوس فيها والكتاب بين يديه يقومون بعمل الحسابات(٧٤) .

ولما تبين له أن جماعة من الوزراء والرؤساء أهملوا فى أعمالهم لم يتوان فى القيام بتأديبهم ، حيث فوض أمرهم إلى كبير حجابه صالح بن وصيف فسجن الوزير أحمد بن إسرائيل(٧٥) والكاتب عيسى بن إبراهيم(٧٦) ، ثم أمر بإخراجهما إلى باب العامة فى سامراء وجلد كل واحد منهما خمسمائة سوط ، ثم طيف بهما على بغلين أمام الناس وماتا متأثرين بذلك(٧٧) .

لقد بالغ الحاجب ابن وصيف فى تعذيبهما بهدف التخلص منهما ، فقد فعل فيهما ما لم يطلبه الخليفة منه ، إذ إن المهتدى لما بلغه ما حل بهذين الكاتبين غضب عليه ، ومن شدة تأثره بما حدث لهما قال : "أما عقوبة إلا السوط أو القتل؟ أما يقوم مقام هذا شئ ؟ أما يكفى ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون " وكان يقول ذلك ويسترجع مرارًا(٧٨) .

لقد كان المهتدى بالله خليقًا للإمارة ، بطلاً ، شجاعًا ، قويًا فى أمر الله(٧٩) ، حازمًا ضد من يخرج عن جادة الصواب حتى ولو كان من أفراد أسرته فقد طال عقابة ثلة منهم لما بلغه أنهم اختلسوا شيئًا من أموال الدولة فأصدر قرارًا بنفى قبيحة والدة المعتز وابنها عبد الله(٨٠) ومعهما أبا أحمد الموفق إلى مكة(٨١).

وأهتم الخليفة بالمهتدى بالقضاء وشهدت خلافته - رغم قصرها - انتعاشًا لمكانة القضاء ، فنظر الناس إليه بشئ من الإكبار والإعجاب(٨٢) . ولم يتردد فى

تأديب اثنين من قضاة سامراء ، هما حماد ابن إسحاق(٨٣) ، والحسن بن أبى الشوارب ، حيث أمر بإركاب الأول على بغل وطيف به فى سامراء ، ثم نفاه إلى الأهواز(٨٤) ، وذلك عندما بلغه أنه كاتب دون علمه ابن عمه الموفق أثناء إقامته فى منفاه بمكة(٨٥) . أما القاضى الثانى فقد عزله المهتدى عن القضاء وألقاه فى السجن سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م وولى بدلاً منه القاضى عبد الرحمن البصرى(٨٦) .

ويأتى هذا الإجراء فى إطار حملة قام بها المهتدى ضد بعض ذوى المناصب المرموقة فى الدولة ، كالوزير الإسكافى والحاجب ابن وصيف ، بعد أن كثر كلام الناس فيهم ، وفى سوء سيرتهم ، وميلهم الشديد إلى الدنيا(٨٧) .

لقد شيد المهتدى فى عهده قبة لها أربعة أبواب سماها (قبة المظالم) ، وجلس فيها للخاصة والعامة من الناس ، حيث صار يخاطب أصحاب الحوائج بنفسه(٨٨) . وكان المهتدى إذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كوانين الفحم عندما يشتد البرد فى أروقة ومنازل قبة المظالم ، فإذا أدخل المستظلم أمر بأن يدفأ ويجلس ليسكن ويثوب إليه عقله ، ويتذكر حجته ثم يدني ويسمع منه ويقول : كيف يُدلى المتظلم بحجته إذا لم يُفعل به هذا وقد تداخلته رهبة الخلافة وألم البرد ؟(٨٩) .

ولما علم المهتدى بأن عمال الخراج دأبوا منذ عصر خلفاء بنى أمية على مطالبة أهل البلدان بدفع الكسور فى الأوزان والمعاملات المالية ، رفض ذلك وأمر بإسقاطه عن الناس ، وقال : " معاذ الله إن ألزم الناس ظلمًا تقدم العمل به أو تأخر ، على أن أقرر حقًا وأزيل ظلمًا وأن أجحف بيت المال "(٩٠) .

وانتشر خبر إنصافه وعدله فى سائر الأقطار الإسلامية فقصده الناس من كل مكان ، فقد كان يجلس للنظر فى أمور المسلمين فى دار العامة ، فتقرأ عليه قصص الناس من أولها إلى آخرها . فيأمر بالتوقيع فيها وإنشاء الكتب لأصحابها وتختم وتُدفع إلى صاحبها بين يديه(٩١) . وكان قد قدم عليه رجل من مدينة الرملة(٩٢)،

وأعطاه كتابًا يشكو فيه من ظلم عامله على هذه المدينة ، فأخذه المهتدى ، وكتب فيه أسطرًا بخطه إلى الوالى يأمره بإنصافه . ولما أراد هذا الرجل الانصراف من مجلس الخليفة سقط مغشيًا عليه فنهض المهتدى يعاينه بنفسه حتى أفاق وسأله عن سبب ذلك فأجابه بأنه ما كان يتوقع أن يعيش حتى يرى هذا العدل . فقال المهتدى : كان الواجب علينا أن ننصفك وأنت فى بلدك ولا تحتاج إلى كل هذا التعب والكلفة ، وأعطاه خمسين دينارًا من بيت مال المسلمين ، وقال له : " إننى لا أملك مالاً فخذها لنفقتك قادمًا وراجعًا ، واجعلنا فى حل من تعبك وتأخر حقك "(٩٣) .

ولما وقعت فى عهد المهتدى خصومة بين أحد أبنائه ورجل من سامراء لم يتوان لحظة واحدة فى استدعاء ابنه وطلب منه بأن يقف بجوار خصمه ، فسأله عما ادعاه عليه ، فأقر به ابنه ، وعندئذٍ أمر برد حقه عليه ، وكتب إليه الخليفة كتابًا بذلك ، فقال له الرجل : والله يا أمير المؤمنين ما أنت إلا كما قال الشاعر:

حَكّمتموه فقضى بينكم ... أبلج مثل القمر الزاهر

لا يقبل الرشوة فى حكمه ... ولا يبالى غبن الخاسر

فقال المهتدى : أما أنت أيها الرجل فجزاك الله خيرًا ، وأما أنا فما سمعت بهذا الشعر ، ولكنى أذكر قول الله عز وجل : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٩٤).

وقد أحاط المهتدى العلماء ببره ، وإحسانه ، ورفع منازل الفقهاء والأدباء والكتاب فكانوا لا يفارقون مجلسه . ومن أبرز هؤلاء العلامة شيخ الحنفية أبى بكر الشيبانى المعروف بالخصاف(٩٥) ، الذى صنف كتاب "الخراج" للمهتدى ، ولما قُتِل هذا الخليفة نهبت دار الخصاف ، وذهبت بعض كتبه(٩٦) . ومن الكتاب

المبرزين فى دواوين المهتدى الوزير الكبير والكاتب الشهير سليمان بن وهب ، روى أنه كان جالسًا فى مجلس المهتدى فدفع إليه هذا الخليفة كتابًا ليجيب عليه ، فلما قام قال المهتدى : " ليس فى صناعته له نظير ، غير أنه يُفْسِد نفسه بحبه الشديد للمال "(٩٧) .

ولقد أنشد البحترى(٩٨) قصيدة بديعة فى المهتدى وصف فيها زهده وسيرته وأولها :

إذا عرضت أحداج ليلى فنادها   سقتك غوادى المن صوب عهادها

ولما فرغ البحترى من إنشاد هذه القصيدة اعتذر منه المهتدى لأنه ليس لديه مال يكافئه به ، ولا يرى له حقًا فى بيت المال فيعطيه منه . وأحضر بعض أفراد أسرته وقال لهم : " أبو عبادة - يقصد البحترى - خطيب بيتنا ، وشاعر دولتنا ، وليس فى يدى شئ سوى أموال بيت المال وهى وديعة فى يدى ، والله يسألنى عنها يوم القيامة ، ويحاسبنى عليها . فأجيزوا أبا عبادة عنى . فجمعوا له فى الحال مائة ألف درهم . فقال المهتدى : يا أبًا عبادة والله ما ملكت عُشرها قط ولا أملكه إن شاء الله "(٩٩) .

وهكذا كان المهتدى حريصًا على استقرار الأمور الداخلية فى عهده كى يتسنى له المضى قدمًا فى تنفيذ محاولته الإصلاحية دون أن يواجه عقبات تذكر . واقتضى ذلك منه أن يقف فى بداية عهده على الأقل موقفًا وسطًا من الحركات الفكرية والمذهبية التى كانت تموج بها بعض الولايات الإسلامية ، وخصوصًا فى مدن العراق والمشرق الإسلامى . ولكنه لم يتردد رغم ذلك فى المجاهرة فور توليه بمناصرته للسنة وأهلها وبعدائه للتشيع وأهله . وذلك عكس السياسة التى انتهجها قبله كل من جده المعتصم وأبيه الواثق . وأقوى دليل على ذلك قيامه بنفى وزيره جعفر الإسكافى إلى بغداد حينما بدرت منه تصرفات توحى بميله إلى الشيعة(١٠٠).

وكان المهتدى لما ذاكره أحد أصحابه بقضية خلق القرآن الكريم وموقف أبيه وجده من الممتنعين عن القول بذلك ، كالإمام أحمد بن حنبل(١٠١) ، أقر بأنه ظل يقول : إن القرآن مخلوق صدرًا من خلافة أبيه الواثق حتى سمع مناظرة جرت فى عهد أبيه فرجع عن هذه المقالة منذ ذلك اليوم . وقال المهتدى لصاحبه : " رحم الله أحمد بن حنبل ، والله لو جاز لى أن أتبرأ من أبى لتبرأت منه "(١٠٢).

ونخلص مما سبق : إلى أن الإصلاح الذى حاول المهتدى القيام به كان متسع النواحى ، فقد بدأ بنفسه ثم انتقل إلى أسرته ليعطى المثل الكامل لشعبه ، ولأولئك الجند والموالى الذى يحيطون به ، وكذلك أصحاب المصالح الذين حاولوا عبثًا ثنيه عن المضى فى مشروعه الإصلاحى . ولكنه أصر على موقفه ، ورفض الإذعان لرغبتهم فأجبرهم على قبول ما كان يعتزم القيام به ، والانطلاق فى ذلك إلى أبعد مدى : حقًا لقد امتدت يده الإصلاحية إلى الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فأعاد لبيت المال توازنه ، وحفظ للقضاء مكانته ، وجلس للمظالم ، وأشرف بنفسه على أعمال الدواوين ، فكان من البدهى والحالة هذه أن تستقيم الأمور ، ويسود قدر من العدل والإنصاف أكثر من ذى قبل فى عهده .

أسباب فشلها :

كادت محاولة المهتدى الإصلاحية ترى النور ، وتؤتى ثمارها ، ولكن الأوضاع العامة من حوله كانت فوق طاقته . ففى مستهل خلافته بدأت الفتن والاضطرابات ، وظهرت بعض حركات المعارضة السياسية والمذهبية التى لم يقتصر ظهورها على حاضرة الخلافة العباسية سامراء فحسب ، بل قامت فى مدن وأقاليم شتى داخل العراق وخارجه مثل بغداد والبصرة(١٠٣) والموصل(١٠٤) وسجستان(١٠٥) غيرها .

وقد لخص الطبرى مجمل حال الخلافة أبان عهد المهتدى بقوله : " وكانت ولايته والدنيا كلها من أرض الإسلام مفتونة "(١٠٦) .

أما ابن الأثير فقد شخص هو الآخر واقع الخلافة آنذاك قائلاً : " ولما ولى - يقصد المهتدى - كانت الدنيا كلها بالفتن منسوخة "(١٠٧) .

ويقول بعض المؤرخين(١٠٨) : " لقد كان المهتدى با لله بطلاً ، شجاعًا، مهيبًا ، قويًا فى أمر ا لله ، كأنما خلق للإمارة لكنه لم يجد معينًا ولا ناصرًا على الحق ، والوقت قابل للإدبار " .

وقد بدأ العلامة ابن خلدون(١٠٩) حديثه عن هذا الخليفة بقوله : "كانت الفتن فى عهده قائمة ، والدولة مضطربة ، فشمر لأصلاحها لو أمهل ، لكن ابن وصيف غلب على أمره " .

والواقع أن محاولة المهتدى الإصلاحية لم تكن من الأساسى محل رضا وقبول من بعض العناصر المتسلطة داخل البلاط العباسى ؛ إذ إن من شأن نجاحه فى ذلك سلب هؤلاء كل الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها . وهذا يفسر رياح المعارضة التى أثاروها فى وجه هذه الحركة ، ويفسر مجاهرتهم فى وجه الخليفة بعدم تقبلهم لخطواته الإصلاحية ، فقد قالوا له : تريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يألفوها فى خلافة من سبقك ! ولكن المهتدى تصدى لهم بكل حزم وإصرار قائلاً : " أريد أن أحملهم على سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأهل بيته والخلفاء الراشدين "(١١٠) . ثم عادوا إلى الحوار معه وقالوا : ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مع قوم قد زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم . وأنت إنما رجالك تركى وجزرى ومغربى وغيرهم من العجم ، لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة . وقد دار بينه وبينهم جدل طويل فى هذا الأمر حتى استطاع فى النهاية أن يجبر كثيرًا من معارضيه على تقبل سياسته الإصلاحية(١١١) .

وبدهى القول أن بروز هذه المعارضة المبكرة ضد لإصلاحات المهتدى كانت كفيلة بإحباط معنوياته أو على الأقل تثبيط عزيمته عن المضى قدمًا فى تنفيذ ما كان يسعى إليه ، ومع ذلك كان المهتدى على يقين تام بأن هذه المشكلات التى بدأت فى الظهور هنا وهناك ، لم تكن موجهة ضده شخصيًا وليس الغرض منها النيل من ذاته ، أو الاعتراض على توليه هذا ، المنصب بقدر ما كانت تعبيرًا صريحًا عن رفض الرأى للواقع المرير الذى أضحت الخلافة العباسية تئن تحت وطأته ، منذ أن تغلبت العناصر التركية على شئونها ابتداء من العصر العباسى الثانى (٢٣٢هـ / ٨٤٧م) حتى عصر المهتدى بالله . فقد شهدت هذه الحقبة الزمنية القصيرة تولى عدد من الخلفاء الذين لم يكونوا مؤهلين أساسًا للوصول إلى هذا المنصب فقد كان بعضم ضعيف الشخصية أو صغير السن ، وبعضهم الآخر غير مبال بأحوال الرعية ، وكان منصرفًا تمامًا عن شئون الدولة . وقد ذكرنا فى - مدخل هذا البحث - نماذج من هؤلاء كالمنتصر والمستعين والمعتز .

ولعل من سوء حظ المهتدى أن ترشيحه للخلافة جاء بعد أولئك الخلفاء مباشرة ، فى الوقت الذى كان الناس قد يئسوا فيه من ظهور خليفة لديه الكفاية والمقدرة على إصلاح وتجديد أوضاع الخلافة .

ولهذا كانت النفوس مهيأة لشق عصا الطاعة على الخليفة الجديد ، بعد أن ضاق الناس ذرعًا وسئموا من عدم وفاء الخلفاء الذين سبقوه بالوعود التى قطعوها على أنفسهم لتبديل حال الخلافة .

ومن ثم نظر الناس إلى سياسة المهتدى على أنها امتداد لسياسة من سبقه خصوصًا تجاه الأتراك ، إذ كانت هذه السياسة ترمى إلى تقريب هؤلاء من البلاط العباسى ، ومنحهم المناصب المهمة فى الدولة ، وإغداق الأموال الطائلة عليهم .

لقد سار أوائل خلفاء العصر العباسى الثانى على ذلك النهج اعتقادًا منهم أن مثل هذا الإجراء من شأنه أن يقوى الصلات بينهم وبين أولئك الأتراك ، وبالتالى يكون فيه ضمان لسلامتهم وبقائهم أطول مدة ممكنة فى الحكم العباسى.

وكانت فى طليعة المشكلات التى واجهت المهتدى أنه لما جرى ترشيحه للخلافة أواخر شهر رجب سنة٢٥٥هـ / ٨٦٩م ، تردد أهل بغداد فى مبايعته إذ فضلوا عليه الموفق بن المتوكل(١١٢) ،فكان ذلك الحدث غير المتوقع بمثابة صدمة للمهتدى بالله فى فجر حياته السياسية ، وهو الذى كان قد قبل منصب الخلافة بغرض الإصلاح ، والعمل على تطهير مؤسسات الدولة من كل مظاهر الفساد التى كانت تفشت بها .

ورغم أن بعض المؤرخين (١١٣) قد ذكروا أن سبب إقدام بغداد على هذه الخطوة يعود إلى عدم معرفتهم بما جرى فى العاصمة سامراء من إجماع الناس على ترشيح المهتدى للخلافة ، فإننا نرى أن أهل بغداد فضلوا الموفق على ابن عمه المهتدى لكون الأول يقيم بينهم فى بغداد . هذا بالإضافة إلى أنه كان شخصية قيادية بارزة وقتذاك ، بعكس المهتدى ، الذى لم يكن معروفًا على المسرح السياسى فى الدولة العباسية .

فالموفق هو ابن الخليفة المتوكل ، وأخو الخليفتين المنتصر بالله والمعتز . وكان قائد جيش الخلافة فى عهد أخيه المعتز ، فضلاً عما كان يقوم به من نشاطات سياسية أخرى فى خلافة أخيه ألقى بسببها فى السجن ، ثم نفى إلى البصرة ، ولكنه أعيد إلى بغداد قبيل وفاة أخيه ، وتولى المهتدى الخلافة(١١٤) .

ويبدو لنا أن ما حصل من أهل بغداد تجاه الموفق كان له صلة وثيقة بالقرار الذى اتخذه المهتدى حينما تولى الخلافة ، حيث قام بنفى الموفق إلى مكة المكرمة(١١٥) .

وكان والى الشرطة فى بغداد سليمان آل طاهر(١١٦) قد حاول إجبار الناس على مبايعة المهتدى بالقوة ، فغضب هؤلاء وهاجموا داره(١١٧) . ولما وصلت الأنباء إلى المهتدى فى سامراء ، طلب من الوالى عدم اللجوء إلى استخدام القوة

لثنى الناس عن رغبتهم ، فما كان من الوالى إلا إن قام بتوزيع الأموال عليهم ، فسكنت الفتنة وأقبل سكان بغداد على مبايعة المهتدى با لله(١١٨) .

ولم يكد الخليفة يفرغ من فتنة العامة فى بغداد حتى أثار الجند فتنة أخرى ، وذلك احتجاجًا على إيواء والى الشرطة نفسه جموعًا من الخراسانين الفرس الموالين للدولة الطاهرية(١١٩) ، وكان هؤلاء أثناء إقامتهم فى بغداد قد أساءوا معاملة أهلها ، وارتكبوا أعمالاً شنيعة ، فحقد الناس عليهم ، وتطورت هذه الفتنة بعد أن رأى أهل بغداد تعاطف الوالى مع أولئك الفرس لدرجة أنه اختلس أموال الجند وقام بتوزيعها عليهم . وعندئذٍ لم يستطع الجند كبت مشاعر الغيرة والغضب ، فأعلنوا العصيان على الخليفة ، ووجدوا مساندة قوية من عامة الناس التى لم تهدأ ثورتهم بعد ، وبذلك خرجت بغداد مرة أخرى عن طاعة المهتدى با لله(١٢٠) .

وقد اشتدت هذه الفتنة ضراوة عندما اقتحم الجند السجن فى بغداد ، وأطلقوا سراح السجناء . واندلعت الحرب بين الخراسانيين وجند بغداد فى الشوارع والميادين ، فاضطر القائد الخراسانى محمد بن أوس(١٢١) إلى النزوح ناحية مناطق الجزيرة الفراتية ، واقتفى أثره حوالى مائة ألف شخص من أهل بغداد وعسكرها ، واشتبك الطرفان فى شمال العراق حتى حلت الهزيمة بالخراسانيين(١٢٢) .

ونتيجة لذلك أصبح موقف والى الشرطة ابن طاهر حرجًا للغاية أمام المهتدى با لله ، نظرًا لانتماء الوالى المذكور إلى الأسرة ذات النفوذ القوى فى كل من بغداد وخراسان . وتفاقم خطر هذه الفتنة ربما يؤدى إلى فقدان أسرته تلك المكانة المرموقة التى كانت تحظى بها آنذاك لدى البيت العباسى . لذلك طلب ابن طاهر من القائد الخراسانى محمد بن أوس أن يرحل نهائيًا عن إقليم العراق ، وأن يعود مع إتباعه إلى خراسان(١٢٣) .

ونلحظ مما سبق أن جانبًا من علة الخلافة الحقيقـة فـى عصـر المهتـدى بـا لله يكمن فى وجود ولاة غير مخلصين له ، فابن طاهر على سبيل المثال انحـاز إلى أبنـاء جنسه الفرس وأهمل مصلحة الخلافة ، فاستفحل أمر الفتنة التى كـان الـوالى سـببًا فى نشوئها ، وتعد واحدة من العقبات التى واجهت المهتدى فى مستهل خلافتـه ، واعترضت طريق حركته الإصلاحية .

ومن المشكلات التى شُغل بها فكر الخليفة المهتدى بـا لله فـى بدايـة حكمـه الخلاف الذى نشب بين كبير حجابه صالح بن وصيف ووالدة الخليفة المعتز قبيحـة التركية ، فقد كـانت هـذه المرأة ذات نفـوذ ومـال وجـاه فـى عهـد ابنهـا . وقـد تواطأت مع نفر من أنصارها على قتل صالح بن وصيف الذى كان وقتـذاك مُقـدّم قواد الأتراك ، ولكنه اكتشف هذه المؤامرة ، فلما قُتِل ابنها اختفـت داخـل سـرب فى قصرها وظلت فيه مدة من الزمن(١٢٤) .

ولما تولى المهتدى الخلافة اضطرت إلى الخـروج ، وسـعت إلى مصالحـة ابـن وصيف ، فوافق على طلبها ، شريطة أن تسمح له بمصادرة أموالها التـى قـدرت بـ (مليون وثمانمائة ألف دينار) . هذا فضلاً عما عُثِر عليه لديها مـن خزائـن وجواهـر مدفونة تحت الأرض . فوافقت على تسليم هذه الأموال إليه(١٢٥) .

لقد أوجس المهتدى خيفة فى نفسه مـن ظهـور قبيحـة والـدة المعـتز ، كمـا أقلقته محاولتها الراميـــة للتقرب من حاجبـه ابن وصيف ، وذلك بهـدف إحيـــاء ما كان لها من نفوذ وجاه فى خلافـة ابنهـا ؛ إذ أن ذلـك يشـكل تهديـدًا لسـلطته ولمحاولته الإصلاحية . وهذا ما دفعه إلى إبعادها عن العاصمة سـامراء ، فنفاهـا إلى مكة المكرمة ، حيث سيرت إليها بصحبة بعض رجاله ، وظلـت فيهـا إلى أن تـولى المعتمد على ا لله(١٢٦) الخلافة سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م فردها إلى سامراء(١٢٧) .

ومن أهم العقبات التى واجهت المهتدى با لله فى مبتدأ خلافته ، وكـان لهـا دور مؤثـر فـى إربـاك خطتـه الإصلاحيـة ثـورة الزنـج التـى اندلعـت فـى شـوال سنة٢٥٥هـ / ٨٦٩م قرب مدينة البصرة فى جنوب العراق(١٢٨) .

وكان زعيم الزنج قد أدعى أنه ينتسب إلى آل البيت(١٢٩) ، وأراد أن يستغل الفوضى السياسة والاجتماعية الضاربة أطنابها فى هذه المدينة المزدحمة بالسكان ، خاصة أن البصرة كانت تزخر آنذاك بجموع العبيد الذين كانوا يستوطنون السباخ ويقومون باستصلاح الأرضى الزراعية (١٣٠) . هذا بالإضافة إلى أن هذه المدينة كانت وقتذاك مسرحًا لبعض الحروب العصبية حيث كان الصراع القبلى على أشده بين قبيلتى البلالية والسعدية(١٣١) . والواقع أن صاحب الزنج رجل مغامر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، فقد رأى اضطراب أحوال الخلافة العباسية ، وأرد أن يكون له شأن وسط هذا الجو المضطرب . لقد كانت ثورة الزنج على جانب كبير من الأهمية من حيث طابعها ودوافعها وآثارها على الدولة العباسية ابتداء من عهد المهتدى با لله ، فقد كانت حلقة فى سلسة متصلة من الأحداث الاجتماعية والسياسية والفكرية الهائلة التى عبرت إبان هذه المرحلة عن السخط العام من ناحية ، وعن تفكك الدولة العباسية من ناحية ثانية(١٣٢) .

وكان زعيم الزنج قد بدأ حركته فى خطبة ألقاها على أتباعه العبيد يوم عيد الفطر سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م حيث أخذ يَعِدُ أصحابه بالحرية ، ونقض الرق وتحقيق العدل الاجتماعى ، وغلظ لهم الإيمان بألا يغدر بهم ، ولا يخذلهم ولا يدع شيئًا من الإحسان إلا أتى به إليهم(١٣٣) .

أخذ زعيم الزنج فى بداية خلافة المهتدى يزحف على بلدان الخلافة العباسية الواقعة جنوب العراق ، حيث بدأ بالبصرة نفسها ، وجرت بينه وبين أهلها معركة البيداء التى انتصرت فيها . وسميت بهذا الاسم لكثرة ما سقط فيها من القتلى والجرحى غالبيتهم من العلويين وألقى صاحب الزنج برؤوسهم فى النهر رغم زعمه بأنه من سلالة الخليفة على بن أبى طالب رضى ا لله عنه(١٣٤) .

والواقع أن الخليفة المهتدى با لله لم يتحرك بشكل إيجابى لقمع حركة الزنج فى مهدها، فقد ترك أهل البصرة وحدهم يتحملون مواجهة تيار الزنج العنيف(١٣٥).

ولكننا لو أمعنا النظر فى ظروف الخلافة وقتذاك ، لوجدنا للمهتدى بعض العذر فى ذلك ، فقد تزامن قيام حركة الزنج مع نشوب فتنة العامة ثم فتنة الجند فى بغداد ، وهبوط الروح المعنوية لأفراد الجيش العباسى بسبب قيام والى بغداد باختلاس مرتباتهم(١٣٦) .

ولما استقرت الأمور فى بغداد ولى الخليفة المهتدى وجهه شطر البصرة فأرسل جيشًا محدود العدد والعدة لمساعدة أهلها ضد زعيم الزنج ، ولكنه انهزم أمام الزنج قرب نهر الريان(١٣٧) ولقى حوالى ألف وخمسمائة من أفراده مصرعهم(١٣٨) .

ولما انتصر صاحب الزنج على جيش الخلافة اشتد بأسه ، وخاف منه أهل البصرة ، وأمسكوا عن حربه ، وكتبوا إلى الخليفة يطلبون منه التدخل ، وعندئذ فقط وجه إليهم المهتدى مددًا بقيادة جُعْلان التركى ، وفى الوقت نفسه عين قائدًا آخر يدعى أبا الأحوص الباهلى (١٣٩) واليًا على مدينة الأبلة(١٤٠) .

ويأتى هذا الإجراء من جانب المهتدى للحيلولة دون وقوعها هى الأخرى تحت سيطرة الزنج ، إذ إن هذه المدينة تتمتع بموقع جغرافى على شاطئ نهر دجلة فى زاوية الخليج (العربى) بالقرب من البصرة(١٤١) .

وقد أثارت سيطرة الزنج على البصرة ، وما جاورها من المدن جوًا من الهلع والفزع بين سكانها ، وألحقت بها خرابًا كبيرًا .

ولما كانت البصرة تُعد باب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع ، وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا ...(١٤٢) ، حيث وصفها المقدسى بأنها : " فرضه البحر ومطرح البر "(١٤٣) . وتقع على مرمى حجر من حاضرة الدولة العباسية ، فمن الطبعى أن تتأثر بقية مدن العراق من جراء سقوطها بيد الزنج ، حيث أختلت طرق المواصلات بينها وبين هذه المدن ، وألحق الزنج بزراعتها وتجارتها أضرارًا بالغة(١٤٤) .

لقد كان لحركة الزنج آثار ونتائج سيئة تمثلت فى الأضرار المادية كالقتل الجماعى والتخريب العشوائى ، وما أصاب الزراعة من شلل ترتب عليه عجز فى موارد بين المال وارتفاع الأسعار وقلة الأقوات(١٤٥) .

وتزامن ظهور حركة الزنج فى البصرة مع إعلان يعقوب بن الليث الصفار(١٤٦) عن قيام الدولة الصفارية فى إقليم سجستان ، وذلك سنة٢٥٣هـ/ ٨٦٧م (١٤٧) . ولم يتوقف طموح الصفار عند هذا الحد ، فقد شرع فى مد نفوذه غربًا ناحية مركز الخلافة فى العراق حيث خضعت لسيطرته سنة٢٥٥ هـ / ٨٦٨م ولايتا كرمان(١٤٨) وفارس(١٤٩) ، وأصبح على مقربة من البصرة معقل حركة الزنج . وعندئذ صارت الخلافة تخشى أن يواصل الصفار زحفه نحو ، العراق ويسعى إلى إحياء النفوذ الفارسى هناك من ، جديد أو تقوم بينه وبين صاحب الزنج اتصالات خفية تلتقى خلالها أهدافهما السياسية ، ومن ثم ينشأ بينهما تحالف سياسى يكون موجهًا ضدها فيصعب عليها مواجهة هاتين القوتين فى آن واحد . وهكذا فإنه لم تمض على تسلم المهتدى با لله زمام الحكم سنة واحدة حتى وجد نفسه مضطرًا للمحاربة على جبهات ثلاث فى وقت واحد . فبالإضافة إلى حركتى الزنج والصفار فى الجبهة الجنوبية من العراق ، ظهرت حركة الخوارج(١٥٠) بقيادة مُساور الشارى(١٥١) فى إقليم الموصل بشمال العراق(١٥٢) .

وكان زعيم الخوارج فى بداية أمره قد اتخذ من بلدة الحديثة(١٥٣) دارًا لهجرته ، فلما قوى شأنه ، وازداد أتباعه ، قصد الموصل سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م واستطاع أن يدخلها دون حرب بعد أن اقتحم دار والى الخلافة عبد ا لله بن سليمان(١٥٤) وأحرقها(١٥٥) .

وهكذا لم يجد مساور أدنى صعوبة فى السيطرة على الموصل ، وذلك لميل أهلها إلى الخلاف ، ورغبتهم المستمرة فى الخروج عن طاعة أمير المؤمنين(١٥٦).

وفى هذه الأثناء هاجم زعيم الخوارج المسجد الجامع فى الموصل وقت صلاة الجمعة ، وصعد المنبر ، وخطب فى الناس ، فوجه المهتدى با لله جيشًا إليه ، التقى بالخوارج الذين ألحقوا بالجيش العباسى هزيمة قاسية(١٥٧) اشتدت على أثرها شوكة الخوارج فى شمال العراق ، وبصفة خاصة بعد أن تغلب قائدهم مساور على أشد خصومه هناك ويدعى عبيدة العمرى(١٥٨) الذى لقى مصرعه عند نواحى جهينة قرب الموصل فى مطلع سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م(١٥٩) .

وكان مساور الخارجى قد رفض أن يرسل خراج الموصل إلى الخليفة المهتدى با لله ، فضاقت الأرزاق على الجند العباسى . فجهز المهتدى جيشًا آخر لقتال الخوارج . وقد جعل على مقدمته بعض قواد الأتراك . غير أن خلافًا حادًا نشب بين الخليفة وقواد الجيش أدى إلى توقفه عن مواصلة سيره ، ولم يتمكن من بلوغ هدفه فى الموصل(١٦٠) . وما من شك أن اندلاع حركة الخوارج فى الموصل كان أحد العوامل المؤثرة التى أصابت محاولة المهتدى الإصلاحية بالشلل . فالموصل معقل هذه الحركة ذات موقع استرتيجى مهم بالنسبة للخلافة العباسية من الناحيتين السياسية والاقتصادية فقد كانت آنذاك باب العراق ، ومفتاح خراسان(١٦١) ، ومنها يُقصد إلى ولاية أذربيجان(١٦٢) .

ويقول ياقوت الحموى : " كثيرًا ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاث ، نيسابور(١٦٣) ؛ لأنها باب الشرق ، ودمشق ؛ لأنها باب الغرب ، والموصل ؛ لأنه القاصد إلى هاتين الجهتين لابد أن يمر بها(١٦٤) .

ولم تكن الأحوال الداخلية فى بقية مناطق الخلافة العباسية أكثر أمنًا واستقرارًا مما كانت عليه داخل العراق ، فقد كانت الأوضاع هناك مضطربة خصوصًا فى مصر حيث ظهرت فى مطلع خلافة المهتدى با لله بعض الحركات العلوية ، كانت الأولى بقيادة أحمد بن طباطبا(١٦٥) ، وكان ميدانها بين بَرْقَة(١٦٦) والإسكندرية . ثم نقل ابن طباطبا حركته إلى الصعيد (١٦٧) جنوب

مصر ، وهناك ازداد نصاره وادعى الخلافة ، فأوعز المهتدى إلى واليه على مصر أحمد بن طولون(١٦٨) بأن يقتفى أثر هذا العلوى . وقد تمكن ابن طولون من سحق هذه الحركة بعد أن قتل قائدها وحُملت رأسه إلى مصر(١٦٩) .

أما الحركة الأخرى فقد تولى كبرها ابن الصوفى العلوى (١٧٠) الذى ظهر فى صعيد مصر ، وملك مدينة إسنا(١٧١) فى ذى القعدة سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م ، ثم نهب هذه البلاد وقتل أهلها(١٧٢) . ولقد سير إليه أحمد بن طولون جيشًا ، هزمه ابن الصوفى ، وأسر قائده ، وقطع يديه ورجليه ، ثم صلبه ، وذلك فى ربيع الأول سنة٢٥٦هـ / ٨٦٩م(١٧٣) . ثم سير إليه ابن طولون جيشًا آخر تمكن من هزيمته ، وقتل كثيرًا من رجاله ، ولاذ ابن الصوفى نفسه بالفرار إلى إحدى الواحات القريبة فى الصعيد(١٧٤).

كذلك كانت الحالة الأمنية فى الشام سيئة ومضطربة إلى حد كبير ، فقد ثار فيها عيسى بن الشيخ (١٧٥) ، واستولى على دمشق ، وقطع الخراج عن بغداد(١٧٦) .

ونلحظ مما سبق أن أقاليم العراق ومصر والشام والموصل التى تعد أهم بلدان الخلافة العباسية من الناحيتين السياسية والاقتصادية كانت فى عهد المهتدى با لله مسرحًا لعدد من الحركات والثورات المختلفة فى دوافعها وأهدافها ، مما أدى إلى تعطيل المرافق العامة فى هذه النواحى ، التى أصبحت عرضة للسلب والنهب من جانب الخارجين عن طاعة الخليفة . وقد أثر ذلك بشكل كبير عل خراج تلك البلدان الذى كان يعد أحد الموارد الأساسية لبيت المال فى العصر العباسى . لقد كان لتدهور الحالة الاقتصادية فى عصر المهتدى نتائج سلبية للغاية فقد وقفت الخلافة عاجزة عن صرف مرتبات الجند فتأخرت أرزقهم لعدة أشهر ، واضطرت إلى استمالة قواد الجيش بكل الوسائل المتاحة ، حيث قامت بمنحهم الإقطاعات ، وإعفائهم من الزيادات والرسوم(١٧٧) . وانعكس ذلك بشكل تلقائى على

نفسيات الجند ، فبدأت تظهر بينهم حالة من الاستياء والسخط . وكانت أولى ردود الفعل تجاه ذلك قد ظهرت فى أوساط الجند المرابطين فى ولاية الرى(١٧٨) إذ ترك هؤلاء مواقعهم ، وعادوا إلى العراق خصوصًا حينما أشيع بينهم أن أمراء الأتراك فى سامراء قد نهبوا أموال الدولة بعد مقتل الخليفة المعتز(١٧٩) .

وقد بذل الخليفة المهتدى محاولات شتى لإقناع العسكر بالبقاء فى الرى ولزوم ذلك الثغر ، وأخذ يحذرهم من أن انسحابهم سيؤدى إلى تغلب العلويين بقيادة الحسن بن زيد(١٨٠) على البلاد التى سوف يتركونها خلفهم . ولكن لما تبين للمهتدى عزم الجند على ترك مواقعهم ، أفضى لقوادهم بأنه يعانى من ضائقة مالية لا يستطيع معها صرف مرتبات الجند العائدين إلى سامراء(١٨١) لكن محاولاته باءت بالفشل ، وعاد الجند إلى العراق ، وأقاموا بالقرب من سامراء ، وطلبوا من الخليفة أن يرسل إليهم أحد أخواته ليحملوه رسالة إليه ، فندب لهذه المهمة أخاه عبد الله بن الواثق(١٨٢) . وفى أثناء المفاوضات بين الطرفين اعترف الجند بأن بعض قوادهم يدبرون مؤامرة لعزل المهتدى بالله عن الخلافة ، وكتبوا بعض المطالب التى نقلها ابن الواثق إلى أخيه ، وتعهدوا للمهتدى فى حال تنفيذه لها بأن يقفوا إلى جانبه ، ويقتلوا كل من يريد أن يمسه بسوء(١٨٣) . ورغم أن المهتدى وعدهم بتحقيق ما طلبوا ، إلا أن الظروف السياسية والاقتصادية من حوله لم تمكنه من الوفاء بوعده ، فقد كان الخليفة طيلة مدة حكمه محاطًا بطغمة من أمراء الأتراك الذين لم يتركوا له سبيلاً إلى الإصلاح . وكان على رأس هؤلاء كبير حجابه صالح بن وصيف الذى ازداد ظلمه ، واشتد جبروته بعد مقتل المعتز وجلوس المهتدى مكانه ، فقد قام بتصفية كبار رجال الدولة والقواد الذين يخشى منهم أن ينافسوه على السلطة فى البلاط العباسى .

ولما رأى بعض القواد الأتراك أن صالح بن وصيف تخلص من كبار منافسيه، ولم يقف فى طريقه أحد خافوا على أنفسهم ، فثاروا عليه يتقدمهم موسى بن

بُغا(١٨٤) . ولكنه اختفى عنهم . ثم اتهموا الخليفة المهتدى بالتواطؤ معه ، وطلب موسى من المهتدى مناظرته ، فرفض الخليفة طلبه فى بادئ الأمر ، ولكنه مـا لبث أن عاد ، ووافق على ذلك ، ثم تناظرا . وفى أثناء ذلك قام رجال موسى وحملوا المهتدى على دابة ، ونهبوا ما كان فى مجلسه ، وأدخلوه إلى دار أحدهم(١٨٥) ثـم أخذوا عليه عهدًا بألا يمايل صالحًا عليهم ، وأصروا على أن يقوم المهتدى بتسليمهم ابن وصيف لكى يحاسبونه على أفعاله(١٨٦) .

ولما احتدم النزاع بين الثوار والخليفة فكروا فى خلعه ، وشاع هذا الخبر فـى أوساط الناس ، فقام هؤلاء وكتبوا رقاعًا ألقوها فى المساجد " معاشر المسلمين ادعوا لخليفتكم العدل الرضا المضاهى عمر بن عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤنه ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه"(١٨٧)، وعندما بلغ الأمر المهتدى خرج إلى الثوار متقلدًا سيفه ، وخطب فيهم بعد أن نفى علمه بالمكان الذى يختفى فيه صالح بن وصيف قائلاً : " بلغنى ما أنتم عليه ، ولست كمن تقدمنى ، مثل المستعين والمعتز ، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط ، وقد أوصيت إلى أخى بولدى ، وهذا سيفى ، والله لأضربن به ما استمسك بيدى ، والله لئن سقط منى شعرة ليهلكن أكثركم ، أما دين ، أما حياء ؟ كم هذا الخلاف على الخلفاء ، والإقدام والجرأة على الله ؟ "(١٨٨) .

وعلى الرغم من قوة الخطاب الذى وجهه المهتدى إلى الثوار فإنه لم يترك أثرًا كبيرًا فى نفوسهم ، فما أن فرغ منه حتى نادى قائدهم أنه من جاء بصالح بن وصيف فله عشرة آلاف دينار ، فاشتد عليه الطلب ، فلما عثروا عليه قتلوه ، وذلك فى شهر صفر سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م(١٨٩) .

وهكذا نلحظ مما سبق أن الأتراك سلبوا الخليفة المهتدى سلطته ، وأساءوا التصرف فى شؤون دولته حتى إنه صار يرجو الخلاص منهم . وليس أدل على ذلك مما رواه الطبرى من أن المهتدى عندما أشغل باله موسى بن بُغا رفع يديه

إلى السماء قائلاً : " اللهم إنى أبرأ إليك من فعل هذا القائد ، فقد أخل بالثغر، وأباح العدو ، اللهم تول كيد من كايد المسلمين ، اللهم إنى شاخص بنيتى واختيارى إلى حيث نكب المسلمون فيه ، ناصرًا لهم ودافعًا عنهم ، اللهم فآجرنى بنتيى إذا عدمت صالح الأعوان " ! ثم انحدرت دموعه ، وبكى(١٩٠) .

ولقد تفاقم الخلاف بين المهتدى وبعض قواد الأتراك عندما اتهم اثنين منهم - هما موسى بن بُغا وأخوه محمد - بنهب أموال الجند واختلاسها(١٩١) . ووقع ذلك فى وقت كان فيه صبر المهتدى على تصرفات الأتراك قد نفد . وفوق ذلك فإنه لم يعد يتحمل رؤية ما يدور بينهم من صراعات. ويبدو أنه أدرك أن الوقت قد حان للتخلص منهم ورأى أن أنجع وسيلة لذلك هى ضرب بعضهم ببعض .

وكانت أولى الخطوات التى أقدم عليها الخليفة فى هذا الاتجاه قيامه باستدراج محمد بن بُغا ، ومصادرة أمواله ، وقتله فى سامراء . وقام على إثر ذلك بتنحية أخيه موسى عن قيادة الجيش العباسى (١٩٢) .

ولما تخلص المهتدى من هذين القائدين رنا ببصره إلى قائد تركى آخر يدعى بايكباك عُرف بميله إلى العبث والفساد ونهب الأموال ، وقتل الناس ظلمًا . وأمره الخليفة بالكف عن ذلك مرات كثيرة ، ولكنه لم ينته(١٩٣) ، وأسند إليه قيادة الجيش مكان موسى بن بُغا ، وطلب منه أن يواصل زحفه إلى الموصل لحرب زعيم الخوارج مساور الشارى ، وأوعز إليه كذلك بأن يقبض على موسى ، ويقتله(١٩٤) .

ويبدو واضحًا أن المهتدى عندما زج بهذا القائد فى الحرب ضد الخوارج لم يكن مقتنعًا بكفاءته وإخلاصه بقدر ما كان يرغب فى التخلص منه ، أو عل الأقل إبعاده عن العاصمة العباسية سامراء ، وضرب قواد الأتراك بعضهم ببعض . ولكن

بايكباك كان يقظًا لما يدبره الخليفة ضده ، فاتصل بالقائد موسى بن بُغـا ، وأخبره بتدبير المهتدى ضده ، فاتفقا على وضع خطة للإطاحة بـه ، ومـن أجـل هـذا عـاد بايكبـاك فجـأة إلى سـامراء ، وبصحبتـه نفر مـن قـواد الأتـراك ، ودخلـوا إلى دار الخلافة في شهر رجب سنة٢٥٦هـ / ٨٦٩م ، فـأخذت تسـاور المهتـدى بعـض الشكوك من عودة بايكباك ، فأصدر أمرًا بالقبض عليه، وإلقائه فى السجن(١٩٥).

ولما بلغ أصحاب بايكباك ما جرى لقـائدهم ، اجتمعـوا ، وطـالبوا المهتـدى بالإفراج عنه ، ولكنه قبل أن يُبت فى ذلـك استمع إلى مشـورة مـن أحـد الأفـراد الأسرة العباسية ؛ إذ قال له : " لقد كان أبو مسـلم الخراسـانى(١٩٦) أعظـم شـأنًا عند أهل خراسان من بايكباك عند أصحابه ، فلما طرح رأس أبى مسلم سـكتوا ، ولو فعلت بهذا مثلـه لسـكتوا . وعندئـذٍ أمـر المهتـدى بقتـل بايكبـاك ، فاسـتراح منه(١٩٧) .

وبعد مصرع بايكباك دق ناقوس الخطر فى دار الخلافة ، فقد تجمهر حـوالى سبعين ألف تركى مـن أعـوان هـذا القـائد وطـالبوا بدمـه ، فـالتقى بهـم المهتـدى وأنصاره فى ميدان العاصمة سامراء فى نحو عشرة آلاف فارس من الـترك والعـرب والفـرس وغـيرهم ، فحـاربهم . ولكنهـم كسـروه لأن الأتـراك الذيـن كـانوا فـى عسكره غدروا به أثناء القتال وانضموا إلى إخوانهم أتباع بايكباك . وولى المهتـدى منهزمًا ، وفى حلقه مصحف معلـق ، والـبردة فـى كتفيـه ، والسـيف بيـده(١٩٨) وأخذ ينادى : يا معشر المسلمين ! أنا أمير المؤمنـين ، قـاتلوا عـن خليفتكـم ! فلـم يجبه أحد من العامة إلى ذلك ، فسار إلى باب السجن ، فأطلق من فيـه وهـو يظـن أنهم يعينونه، فهربوا ، و لم يعنه أحد ، فاتجه إلى دار صاحب الشرطة ودخلها وهـم فى أثره ، فدخلوا عليه وأخرجوه ، وحملوه على بغل ، وحبسوه فى أحـد الـدور . ثم عرضوا عليه أن يعزل نفسه عن الخلافة مقابل الإفراج عنه ، ولكنه أبى ، ووافق على أن يكتب لهم بخطه كتابًا يتعهد فيه بألا يغدر بهـم ، ولا يغتـالهم ، ولا يفتـك

بهم ، وأنه متى فعل ذلك فُهم فى حل من بيعته ، ويصبح الأمر إليهم يستخلفون شخصًا غيره . ولكنهم لم يصغوا لطلبه ، وقاموا بتعذيبه حتى مات فى الثامن عشر من شهر رجب سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م ، ودُفن بمقبرة المنتصر فى سامراء(١٩٩) ، بعد أن استمرت خلافته كلها أحد عشر شهرًا وخمسة وعشرين يومًا فقط ، وكان عمره حين أدركه الأجل ثمانيًا وثلاثين سنة(٢٠٠) .

* * *

وخلاصة القول: إن محاولة المهتدى لم تنجح أولاً لأنه مكث سنة واحدة فى الخلافة ، وأن صفاته الشخصية الإيجابية لم تكن لتكفى فى هذا العصر المليئ بالمؤامرات والفتن .

وثانيًا : أن من يريد تبنى سياسة مضادة لما هو سائد ، لا يكفيه قوة منطقه ووضوح الحق فى جانبه، بل يحتاج إلى القوة، فالحق بلا قوة يضيع، والسياسة تحتاج إلى قوة. والمهتدى لم يكن يملك القوة فى الجيش أو فى الوجهاء من القوم .

وثالثًا : أن الرجل كان يشعر بضعفه وسط أعاصير عصره ، فمال إلى الانعزال وابتغاء آجل الآخرة بدلا من عاجل الدنيا .

ورابعًا : أن المهتدى لم يمتلك خطوط منهج إصلاحى واضح متكامل سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وعسكريًا ، وإنما كان يمتلك مبادئ تمثلها واقتبسها من سير الصالحين الأوائل ، فعرف بها ونقلت عنه .

وخامسًا : أن المهتدى لم يبادر إلى إصلاح الخلل الأكبر فى جسد الدولة المتمثل فى الاعتماد الكبير على الجند والقادة الأتراك . فقد ركن هذا الخليفة إليهم وهادنهم و لم يواجههم ، وبذلك أصبح مثل سابقيه فاقدًا لقوة الجموع الأخرى من الأمة ، وخاصة العرب الذين أسقطهم العباسيون من حسابهم منذ قيام دولتهم .

ثم إن المهتدى كان فى حاجة إلى كل نصير خصوصًا من أفراد أسرته ، ولذلك فإنه أخطأ حينما قام بنفى الموفق إلى مكة بدلاً من احتوائه وضمه إلى جانبه فى مواجهة التيار العنيف الذى ثار ضد محاولته الإصلاحية .

أثر هذه المحاولة على الخلافة العباسية :

لم تذهب محاولة المهتدى با لله عبثًا ، فقد كشفت قواد الأتراك أمام جنودهم حتى أن هؤلاء طالبوا الخليفة المهتدى فى أواخر أيام خلافته بأن يوكل قيادة الجيش إلى أحد أفراد الأسرة العباسية(٢٠١) ، وقد تنبه المعتمد إلى ذلك حينما تولى الخلافة، فأدار ظهره للأتراك ، وجعل قيادة الجيش لأخيه الموفق(٢٠٢) .

وكان لمحاولة المهتدى أثر فى استرداد البيت العباسى بعض سلطانه ، بعد أن استطاع هذا الخليفة الحد من نفوذ الأتراك بضرب بعض قادتهم أمثال محمد بن بُغا وصالح بن وصيف وبايكباك ، ولذا لم يجد الخليفة المعتمد صعوبة عند اختيار ابنه جعفر وليًا للعهد(٢٠٣) ، ثم إنه لما مات الموفق سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١م جرت مبايعة ابنه أحمد بولاية العهد بعد جعفر المفوض ، ولُقب بالمعتضد با لله(٢٠٤) .

ولما خلع المعتمد با لله جعفرًا من ولاية العهد فى محرم سنة٢٧٩هـ / ٨٩٢م أسند ولاية العهد للمعتضد(٢٠٥) ، ولم يواجه خلال ذلك مضايقة من الأتراك كما كانوا يفعلون من قبل فى مثل هذه الظروف ، وبذلك حرم البيت العباسى الأتراك من فرصة اختيار من يرون مصلحتهم فى استخلافه .

حقيقة أن هذه المحاولة الإصلاحية كانت بمنزلة حجر الأساسي الذى قامت عليه مرحلة الانتعاش التى مرت بها الخلافة ، وشملت كثيرًا من جوانب الحياة ، ودامت حوالى أربعين سنة ، حكم فيها ثلاثة خلفاء هم : المعتمد على الله ، ثم المعتضد ، ثم ابنه الكتفى . وعاش هؤلاء الخلفاء فى دست الخلافة آمنين من عدوان الأتراك عليهم ، بل إن الأتراك فى أيامهم عادوا خدامًا للدولة ، كما كان

شأنهم عند بدء ظهورهم فى بغداد وبذلك سكنت الفتن التى كانوا يثيرونها ، ولم يجرؤ واحد منهم على إسخاط خلفاء هذه الفترة أو معارضتهم .

ومهما يكن من أمر فقد ترتب على عزل المهتدى بالله ووأد محاولته الإصلاحية فى مهدها آثار سلبية عديدة على الخلافة ، فقد نشطت إثر ذلك مباشرة الحركات المناوئة للخلافة منتهزة فرصة الفراغ السياسى ومرحلة الانتقال التى مرت بها الخلافة العباسية ما بين وفاة المهتدى ووصول القائد المحنك أبى أحمد الموفق إلى قيادة الجيش ، وضبطه لشؤون الدولة فى ظل خلافة أخيه المعتمد . ففى البصرة اشتدت شوكة صاحب الزنج ، وصار يتطلع إلى توسيع دائرة نفوذه بهدف بسط كامل سيطرته على جنوب العراق . والواقع أن قائد الزنج حقق لنفسه ما يريد فقد استغل ظروف الخلافة ، واستولى إبان هذه الفترة على بعض المدن الهامة فى المنطقة الواقعة جنوب شرقى إقليم العراق وضمها إلى مركز حركته فى البصرة . ولم يواجه زعيم الزنج فى هذه الأثناء أدنى مقاومة من الخلافة العباسية(٢٠٦) .

وفى الموصل انتهز الخوارج كذلك فرصة الاضطراب التى وقعت داخل الدولة العباسية فسعى قائدهم مساور الشارى إلى إحياء حركته الانفصالية من جديد ، والتقى بجيش الخلافة قرب بلدة خانقين(٢٠٧) . وقُتل من أصحاب مساور جمع كثير ، وكان ذلك فى سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م(٢٠٨) . وفى خضم هذه الأحداث التى شهدتها الخلافة نتيجة لعزل المهتدى عن الخلافة وفشل مشروعه الإصلاحى ، انتعشت بعض الحركات العلوية المعارضة للحكم العباسى ، فقد ظهر أحد العلويين فى الكوفة ويدعى على بن زيد(٢٠٩) وتمكن من الاستيلاء عليهما بعد أن أزاح الوالى العباسى عنها(٢١٠) .

وفى المشرق الإسلامى استطاع الحسن بن زيد العلوى مؤسس الدولة الزيدية فى طبرستان بسط سيطرته على ولايتى الرى وجرجان(٢١١) .

ومما ساعد على ظهور هاتين الحركتين سوء أحوال عمال الخلافة في بعض الولايات الإسلامية ، فقد استهان أكثرهم بأمر الخلفاء بسبب الضعف السياسى والاقتصادى الذى انتاب الخلافة وقتذاك . ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال الوالى العربى عبد العزيز بن أبى دلف(٢١٢) نائب الخلافة فى الرى الذى فارق ولايته دون سبب ، الأمر الذى مكن الحسن بن زيد من السيطرة عليها والإساءة إلى أهلها . وكذلك نائب الخلافة فى الكوفة الذى أهمل شأن ولايته مما جعل على بن زيد يستولى عليها دون مقاوم(٢١٣) .

وفى الشام حاولت العناصر العربية التى كانت تشكل غالبية السكان هناك الإفادة من الأحداث السياسية التى جرت فى العراق من أجل استعادة ما كان العرب يتمتعون به من هيبة ونفوذ فى الدولة الإسلامية . وكان أن جاهر الأمير العربى عيسى بن الشيخ فى عدائه للخلافة العباسية ، ولم تتوقف أطماعه السياسية عند حدود السيطرة على دمشق ، وقطع الخراج عن بغداد ، بل إنه تمادى إلى ما هو أبعد من ذلك فقد نهب خراج مصر الذى حمله والى الخراج هناك أحمد بن المدبر(٢١٤) عن طريق الشام إلى بغداد ، وكان يُقدر بسبعمائة ألف دينار . وفى الوقت نفسه رفض ابن الشيخ إقامة الدعوة للخليفة المعتمد على الله بعد توليه الخلافة مباشرة . وبدلاً من أن يقوم هذا الخليفة بتأديبه على تصرفه فقد كافأه بولاية أرمينية(٢١٥) . وقد قبل ابن الشيخ ذلك ظنًا منه أن الشام تكون بيده إضافة إلى أرمينية ، ولكن المعتمد أنفذ جيشًا لطرد ابن الشيخ من الشام ، فالتقى الجيشان قرب دمشق وانهزم عسكر ابن الشيخ ، فلاذ بالفرار إلى أرمينية(٢١٦) .

وفى العراق حاول كذلك مغامر عربى يدعى سعد الباهلى(٢١٧) أن يتغلب على البطائح(٢١٨) ، ولكن أحد قواد الخلافة قبض عليه ، وساقه أسيرًا إلى سامراء، فضُرب سبعمائة سوط حتى مات(٢١٩) .

وفى إقليم فارس سعت العناصر الفارسية بدورها علـى الظهـور مـن جديـد لإنعاش ما كان لها من نفوذ فى العصر العباسى الأول ، وهو النفـوذ الـذى انـزوى بعد تقدم العناصر التركية فى العراق ، فقد ازدادت أطماع يعقوب الصفار مؤسس الدولة الصفارية وتحرك لضم أجزاء من بلدان الخلافة إلى دولته التى كـان مركزهـا فى سجستان ، حيث زحف الصفار فور علمه بنبأ خلع الخليفة المهتدى غربًـا نحـو إقليم العراق ، واضطرت الخلافة إلى صرفه عن هـذه الناحيـة فعهـدت إليـه ببعـض ولايات المشرق الإسلامى ، فقبل فى بادئ الأمر ذلك ، ولكنه ما لبـث أن تراجـع وعاد إلى العراق ، وحارب جيش الخلافة(٢٢٠) .

ومما سبق نستطيع القـول : إنـه علـى الرغـم مـن انهيـار محاولـة المهتـدى الإصلاحية فى مهدها نتيجة لعزل هذا الخليفة فإنها فى واقع الأمر تركـت وراءهـا آثار إيجابية وسلبية عديدة على الخلافـة العباسـية . وقـد استفاد الخلفـاء خصوصًـا الثلاثة الأوائل الذين حكموا بعد المهتـدى مـن الآثـار الإيجابيـة ، وقـاموا بتوظيفهـا لصالحهم . وفى الوقت ذاته حرصوا على تجنب ما نتج عنها من آثار سلبية حتى لا تتكرر الأحداث السياسية والاقتصادية نفسها التى وقعت فىخلافة المهتدى با لله.

الخاتمـــــة :

عندما تولى المهتدى با لله الخلافة كان غالبُ الناس قد فقدوا الثقة بخلفاء بنى العباس نتيجة ضعفهم ، وعدم مبالاتهم بشؤون الرعيـة ، وسيطرة المـوالى الأتـراك على مقاليد الخلافة، حيث بلغ سلطانهم آنذاك ذروته لدرجة ، أنهم أصبحوا بمنزلة حلقة اتصال بين الخليفة والرعية ، ولم يكن أحد يستطيع أن يجرؤ على معارضتهم.

لقد كان المهتدى با لله حقيقة من أفضل خلفاء البيت العباسى زهـدًا وعـدلاً وتواضعًا ، ومن هذا المنطلق حاول إصلاح ما فسد من أحـوال دولتـه مقتديًـا فـى ذلك بسيرة الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، فشـرع فـى إحيـاء بعـض السـنن

والعادات الحميدة التى كان يقوم بها خلفاء الدولة الإسلامية ، والتى كادت قبل توليه أن تندثر بسبب إهمال الخلفاء الذين سبقوه لها . ونذكر من ذلك على سبيل المثال : حضوره إلى المسجد الجامع ، ومصلى العيد فى أيام الجمع والأعياد لإلقاء الخطبة وإمامة الناس فى الصلاة ، وكذلك جلوسه للمظالم ، والإشراف بنفسه على الدواوين .

لقد شملت محاولة المهتدى الإصلاحية كثيرًا من جوانب الحياة فقد أهتم هذا الخليفة بالنواحى المالية ، وأولى القضاء اهتمامًا خاصًا حيث شهدت خلافته انتعاشًا مكانة القضاء ، ومن مآثره قبة المظالم التى شيدها فى العاصمة سامراء . وكان المهتدى حازمًا مع المخالفين حتى ولو كانوا من أقربائه ، أو من كبار رجال الدولة فقد طال عقابه ثلة من هؤلاء ، ولم يفرق بين قريب وبعيد .

لقد تأججت نيران الفتن والاضطرابات فى عهد المهتدى بشكل لم يسبق له مثيل . وكان أول الوهن الذى أصاب جسد الخلافة فى مستهل حكمه رفض أهل بغداد مبايعته فى بادئ الأمر . ثم ازداد الوضع سوءًا عندما اندلعت ثورة الجند فى بغداد ، وعاد الجند ، المرابطون فى الثغور الشرقية من أرض الخلافة إلى ثكناتهم قرب العاصمة سامراء مطالبين بأرزاقهم المتأخرة لعدة أشهر . وفى هذا الوقت خرج صاحب الزنج فى جنوب العراق ، وشق الخوارج عصا الطاعة على الخلافة فى شمال العراق . وعندئذٍ أسقط بيد المهتدى ، وأصبح فى حيرة من أمره، فهل يمضى بحركته قُدمًا إلى الإمام أم يتوقف عن ذلك ويتفرغ للقضاء على هذه الحركات المناوئة للخلافة ؟

وكان لقيام هذه الحركات انعكاسات اقتصادية خطيرة على الخلافة فقد عجزت موارد الدولة من الأقاليم المتمثلة وقتذاك فى رسوم الضرائب والخراج وغيرهما عن الوفاء باحتياجات بيت المال ، لدرجة أن المهتدى أصبح غير قادر حتى على دفع مرتبات الجند ، مما أدى إلى تسلل الإحباط والملل إلى نفوسهم .

وعندئذٍ فقد الخليفة السيطرة عليهم ، ولم يُعد بإمكانه أن يركن إليهم لقمع أولئك الخارجين عن طاعته ، وتأديبهم وإعادتهم إلى جادة الصواب .

والواقع أن المهتدى بالله لما شرع فى محاولته الإصلاحية لم يجد من يناصره، أو يشد من أزره، بل كان محاطًا بطغمة من الأتراك لم تترك له سبيلاً إلى الإصلاح. ومن سوء حظه أنه لم يلبث فى الحكم طويلاً ، وبالتالى فإن محاولته هذه لم تأخذ وقتًا كافيًا لكى تقف على قدميها لترى النور ، وتؤتى ثمارها.

الهوامش

(١) ورد هذا الحديث بعدةِ ألفاظ وطرق منها : " لا يزال الإسلام عزيزًا إلى اثنى عشر خليفة " ، و " لا يزال أمر الناس ماضيًا " ، و " لا يزال الدين قائمًا حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش " .

انظر : صحيح مسلم : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (١٤٥٢/٣ - ١٤٥٣) . ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، بيروت ، ص١١ .

(٢) البداية والنهاية ، ط٦ ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م (١٨/١١) .

(٣) العبر فى خبر من غبر ، بيروت (٣٦٦/١) .

(٤) الأزدى : أخبار الدول المنقطعة (تاريخ الدولة العباسية) تحقيق ودراسة د. محمد الزهرانى ، المدينة المنورة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص١٨١ . ؛ السيوطى : نفسه ، ص٣١٠ .

(٥) المعتصم : (أبو إسحاق بن هارون الرشيد) ، ولد سنة ش١٧٨هـ ، بويع بالخلافة فى رجب سنة ٢١٨هـ ، وكانت وفاته فى ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ. (ابن العمرانى : الإنباء فى تاريخ الخلفاء تحقيق د. قاسم السامرائى، ط٢ ، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص١٠٤).

(٦) المتوكل : (أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى ، بويع فى ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ ، وقُتل فى شوال سنة ٢٤٧هـ . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، (٣٥٠/١) .

(٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، (٣٠٢/٥).

(٨) المنتصر بالله : (أبو جعفر محمد بن المتوكل ، بويع له بعد مقتل أبيه مباشرة سنة ٣٤٧هـ ، ومات مسمومًا على يد طبيبه سنة ٢٤٨ . (ابن العمرانى : الإنباء ١٢١ - ١٢٣).

(٩) المعتز بالله : (محمد وقيل الزبير بن جعفر المتوكل) ، بويع له عند خلع المستعين سنة ٢٥٢هـ ، ولم يل الخلافة قبله أحد أصغر منه ، توفى سنة ٢٥٥هـ . (ابن قتيبة : المعارف، ط٢ ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، دار المعارف، مصر ، ص٣٩٤ . ؛ الأزدى : أخبار الدول المنقطعة / ص١٩٣ - ١٩٤) .

(١٠) المؤيد : (إبراهيم بن جعفر المتوكل) كان وليًا للعهد فى أثناء خلافة أخيه المعتز، ولكنه عزله فى رجب سنة ٢٥٢هـ ، وضربه وقيده فمات متأثرًا بذلك بعد أيام . (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٣) .

(١١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (٣٠٦/٥) .

(١٢) السيوطى ، نفسه ، ص٣٢٤ .

(١٣) سامراء : مدينة تقع بين بغداد وتكريت وقامت على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، بناها الخليفة المعتصم ، ونقل إليها دار الخلافة سنة ٢٢١هـ . (ياقوت الحموى : معجم البلدان، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، (١٧٣/٣ - ١٧٤) .

(١٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصر ١٣٤٦هـ (٣٨٩/٢) .

(١٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (٣٢٧/٥)

(١٦) نفسه ، (٣٣٥/٥) .

(١٧) ابن العمرانى : الإنباء ص١٢٠ . ؛ ابن الأثير : الكامل فى تاريخ ، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م . (٩٧/٧ - ٩٩) .

(١٩) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٠ .

(٢٠) ابن الأثير : الكامل ، (١١٤/٧ - ١١٥) .

(٢١) أبو العباس أحمد بن المعتصم بن الرشيد ، أخو الخليفة المتوكل ، ولد سنة ٢٢١هـ، تولى الخلافة عقب وفاة المنتصرة سنة ٢٤٨هـ ، ثم خلع نفسه سنة ٢٥٢هـ . وفى هذا العام لقى مصرعه على يد أحد حجابه الأتراك . (السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٢).

(٢٢) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٢٣ .

(٢٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٣٥٤/٥) ؛ ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٢٤؛ ابن الأثير : الكامل ، (١١٩/٧ - ١٢٠) .

(٢٤) المسعودى : مروج الذهب ، (٤٠٧/٢ - ٤٠٨) .

(٢٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٢ .

(٢٦) الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ، ص١٩٣ . ؛ ابن الأثير : الكامل ، (١٧١/٧).

(٢٧) الموفق : هو الأمير أبو أحمد طلحة بن المتوكل بن المعتصم ، كان بيده الحل والعقد فى خلافة أخيه المعتمد ، ومات قبل أن يتولى الخلافة فى صفر سنة ٢٧٨هـ . (الذهبى: سير أعلام النبلاء ، ط١٠ ، بيروت ١٤١٤هـ ، ١٦٩/١٣) .

(٢٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤١٤/٥ ، ٤٣٢) .

(٢٩) قبيحة أم المعتز سماها زوجها المتوكل بهذا الاسم لحسنها وجمالها ، كانت من ربات السياسة والدهاء والنفوذ والسلطان . ولما قُتل ابنها المعتز ظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال طائلة وكنوز وجواهر ثمينة ، توفيت في ربيع الأول سنة ٢٦٤هـ بعد أن أعيدت من مكة إلى سامراء مكرمة معززة : انظر : (ابن الأثير : الكامل ، ٢٠٠/٧ . ، عمر كحالة : أعلام النساء ، ط٣ ، بيروت ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م ، (١٨٤/٤ - ١٨٧) .

(٣٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣١/٥) .

(٣١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٣ .

(٣٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣١/٥) . ؛ الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ٥٣٥/١٢) .

(٣٣) القاطول : أحد روافد نهر دجلة ، حفره هارون الرشيد فى موضع سامراء قبل بنائها . (الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، بيروت (٣/ ٣٤٧). ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، (٢٩٧/٤) . ؛ لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص٨٢) .

(٣٤) البغدادى : تاريخ بغداد ، (٣/ ٢٤٨) .

(٣٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣١/٥) .

(٣٦) ابن الأثير : الكامل ، (٣٣/٧) .

(٣٧) نفسه ، (٣٣/٧) .

(٣٨) المسعودى : مروج الذهب ، (٤٣١/٢) .

(٣٩) أبو الفضل جعفر بن محمود الإسكافى . تولى الوزارة فى عهد المعتز ، كان قليل الحظ من العلم والأدب ، ولكنه سعى إلى استمالة الناس بالمنح والعطايا ، وكان متهما بالتشيع، وثارت بسببه فتنة ، فعزله المعتز . (ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، ص٢٤٤) .

(٤٠) ابن طباطبا : نفس المصدر والصفحة .

(٤١) سليمان بن وهب بن سعيد بن حُصين الحارثى ، أصبح كاتبا للخليفة المأمون، ولما تولى المهتدى جعله وزيرًا له ، وشغل أيضًا منصب الوزارة فى خلافة المعتمد على الله .

انظر : (ابن طباطبا : نفسه ، ص٢٤٧ - ٢٤٩ . ؛ الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ١٢٧/١٣) .

(٤٢) هو صالح بن وصيف الكبير " شيخ الموالى " كان والده من أمراء الأتـراك ممـاليك المعتصم ، وكان ابنه صالح أحد مقدمى الأتراك فى بلاط المعتز ، ثم جعله المهتدى حاجبًـا لـه ، وقد قتل صالح بسامراء فى صفر سنة ٢٥٦هـ على يد نفر من الموالى الأتراك . (ابن العمرانى : الإنباء ، ص٢٨٦ ، هامش (٣٣٧)،؛ ابن الأثير : الكامل ، (٢٢٥/٧) .

(٤٣) الحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب الأموى تـولى القضـاء فـى عهـد المتوكل ثم عزل ، وأسند إليه مرة أخرى فى عهد المهتـدى ، توفـى سنة ٢٦١هـ . (وكيـع : أخبار القضاة ، بيروت ، (٣٠٣/٣) . ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهـرة فـى ملـوك مصـر والقاهرة ، مصر (٣٤/٣) .

(٤٤) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، (٣٤٨/٣) .

(٤٥) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٣ .

(٤٦) المنتظم ، (٨٤/١٢) .

(٤٧) تاريخ بغداد ، (٣٥٠/٣) .

(٤٨) نفسه .

(٤٩) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى ، كان إمامًـا فـى علـم الحديث وغيره من العلوم ، وقد أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقتـه ، وهـو أحـد الأئمـة المجتهدين ، ولد سنة٩٥هـ ، وتوفى بالبصرة سنة ١٦١هـ .

(الأصبهانى : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط٢ ، دار الكتـاب العربى ، بـيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، (٣٥٦/٦) .

(٥٠) ابن العمرانى : الإنباء ، ص ١٣٣ .

(٥١) نفسه .

(٥٢) المسعودى : مروج الذهب ، (٤٣٦/٢) .

(٥٣) السَّفط : رعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النســاء . ووعـاء مـن قضبـان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها . (المعجـم الوسـيط ، عنـى بطبعـه ونشـره عبد الله الأنصارى ، دار إحياء التراث الإسلامى ، قطر ، (٤٣٣/١) .

(٥٤) المسعودى : مروج الذهب ، (٤٣٦/٢) .

(٥٥) د. حسن محمود وأحمد الشريف . العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ط٤ ، الكويت ١٩٨٠م ، ص٣٤٣ .

(٥٦) اليعقوبى : تاريخ ، بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ، (٥٠٥/٢) .

(٥٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣١/٥ - ٤٣٢) ، ابن العمرانى : الإنباء ص١٣٣ .

(٥٨) ابن العمرانى : نفس المصدر والصفحة .

(٥٩) انظر تفاصيل هذه الحادثة فى تاريخ الطبرى ، (٣٧٠/٥ - ٣٧١).

(٦٠) أخبار الدول المنقطعة ، ص١٩٦ .

(٦١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، (٢٦/٣) .

(٦٢) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٣ .

(٦٣) اليعقوبى : تاريخه ، (٥٠٥/٢) .

(٦٤) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٣ .

(٦٥) المسعودى : مروج الذهب (٤٣١/٢) .

(٦٦) كتب سعيد بن عبد الملك - وهو أحد الكتاب فى ديوان المهتدى با لله - رسالة فيها بأحد الخلفاء وقوة فصاحته وخطبته فى عيد الفطر . ومن المحتمل أنه يقصد بتلك الرسالة خليفته المهتدى با لله . وللإطلاع على نص هذه الرسالة . انظر : أحمد زكى : جمهرة رسائل العرب ، بيروت ، (٢٦١/٤) . ؛ د. شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ، ط٧ ، دار المعارف ، مصر ، (٥٥٤/٤) .

(٦٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (٤٣٩/٥) ابن الأثير : الكامل ، (٢٠٣/٧).

(٦٨) المسعودى : مروج الذهب ، (٤٣٦/٢) .

(٦٩) نفسه .

(٧٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٦٢/٥) .

(٧١) المسعودى : مروج الذهب ، (٤٣٦/٢) .

(٧٢) د. ضيف الله الزهرانى : النفقات وإدارتها فى الدولة العباسية ، ط١ ، مكة المكرمة ١٣٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، ص٢٩٩ .

(٧٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٧٠/٥) .

(٧٤) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، (٣/٣٥٠) . ؛ ابن الجوزى : المنتظم ، دراسة وتحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا ، ط١ ، بيروت ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م ، (٨٤/١٢) .

(٧٥) أحمد بن إسرائيل بن الحسين الأنبارى ، كان ذا مكانة رفيعة عند الخليفة المعتز ، استوزره سنة٢٥٢هـ ، فنهض بأعباء الوزارة ، وجمع بين الذكاء وسرعة الحفظ . وقد اعتمد عليه المعتز فى حساب الديوان ، ظل فى الوزارة ثلاث سنين حتى قتله صالح بن وصيف بالضرب فى عهد المهتدى با لله سنة ٢٥٥هـ .

(الذهبى : السير ، (٣٣٢/١٢ - ٣٣٣) . ؛ الصفدى : الوافى بالوفيات ، ط٢ ، تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية،دار صادر، بيروت ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ،(٢٤٣/٦- ٢٤٤).

(٧٦) أبو نوح عيسى بن إبراهيم ، من الكتاب المبرزين فى عهد المعتز . وقد أتهم باختلاس الأموال مع الوزير أحمد بن إسرائيل والكاتب الحسن بن مخلد ، فصودرت أموالهم ، وأمر كبير الحجاب صالح بن وصيف بضربهم ، ولقى أبو نوح حتفه بسبب ذلك ، كان لا يزال نصرانيا وذلك فى٢٧رمضان سنة٢٥٥هـ .(الطبرى:تاريخ الأمم والملوك٥/٤٣٤-٤٣٥).

(٧٧) الطبرى : نفسه ، (٥/٤٣٥) .

(٧٨) نفسه .

(٧٩) الذهبى : السير ، (٥٣٦/١٢) .

(٨٠) أبو العباس عبد ا لله بن المعتز بن المتوكل ، كان أديبًا بليغًا شاعرًا مقتدرًا مجالسًا للعلماء والأدباء ، بايعه رؤساء الأجناد ووجوه الكتاب بالخلافة فى خلافة المقتدر ، ولقبوه المرتضى با لله، وأقام فى الخلافة يومًا وليلة ، ولكن المقتدر قبض عليه وسلمه إلى القائد مؤنس الخادم فقتله فى شهر ربيع الآخر فى السنة نفسها (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٧٦/٣).

(٨١) اليعقوبى : تاريخه ، (٥٠٥/٢) .

(٨٢) د. عادل محيى الدين : الرأى العام فى القرن الثالث الهجرى ، ط١، ١٩٨٧م ص١٩٤.

(٨٣) حماد بن إسحاق بن إسماعيل بن الإمام حماد بن زيد . أخو القاضى إسماعيل بن إسحاق ، كان حماد من أهل العلم ، ومن حفظه الحديث ، وكان فقيها على مذهب مالك ، وكان يحضر مجلس المهتدى مع غيره من الفقهاء . تولى قضاء بغداد مرة واحدة ، ومات

بالسُّوس سنة ٢٦٧هـ . (وكيع : أخبار القضاة ، (٢٨٠/٣) . ؛ الذهبي : السير ، (١٦/١٣) .

(٨٤) الأهواز : ولاية تقع بين البصرة وفارس ، وقد أطلق العرب المسلمون عليها هذا الاسم بعد فتحهم لها حيث كان الفرس يسمونها خوزستان .

(ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، تحقيق : د. محمد مخزوم ، ط١ ، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، ص٤٨ . ؛ ياقوت :معجم البلدان ، (٢٨٥/١) .؛ لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٢٦٧) .

(٨٥) وكيع : أخبار القضاة ، (٢٨٠/٣) .

(٨٦) عبد الرحمن بن نائل بن نجيح البصري ، ولاه المهتدي با لله قضاء سامراء في ذي الحجة سنة ٢٥٥هـ بعد أن عزل القاضي الحسن بن أبي الشوارب.

(وكيع : المصدر السابق ، (٣٠٣/٣) ؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٥٧/٥)؛ ابن الأثير : الكامل ، (٢١٧/٧)) .

(٨٧) الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ، ص١٩٨ .

(٨٨) ابن العمراني : الإنباء ، ص١٣٣ .

(٨٩) البيهقي: المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م ، ص٥٤٠.

(٩٠) الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، مصر ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص٨٠ - ٨١ .

(٩١) الآجُري : الشريعة ، تحقيق محمد الفقي ، ط١ ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ، ص٩١ . ؛ البُرّي : الجوهرة ، ط١ ، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، (٤٥٨/١) .

(٩٢) الرَّمْلَة : مدينة بفلسطين ، وهناك مدن أخرى تحمل الاسم نفسه مثل محلة الرملة الواقعة نحو شاطئ دجلة مقابل الكرخ ببغداد ، رقرية الرملة بالبحرين ، والرملة كذلك محلة بسرخس في خراسان . (ياقوت : معجم البلدان ، (٦٩/٣)

(٩٣) ابن العمراني : الإنباء ، ص١٣٤ .

(٩٤) سورة الأنبياء الآية٤٧ . هذه الرواية ساقها الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، (٣٤٩/٣) ؛ وابن العمراني : الإنباء ، ص١٣٤ .

(٩٥) أبو بكر أحمد بن عمرو بن مُهير الشيبانى . الفقيه الحنفى ، المحدث عن وهب بن جرير وأبى عامر العقدى ، والواقدى ، وخلق كثير ، وكان الخصاف زاهدًا ورعًا . حريصًا على أن يأكل من صنعته رحمه الله ، ومات ببغداد سنة ٢٦١هـ ، وكان عمره قرابة ثمانين سنة. (الذهبى : السير ، (١٢٣/١٣ - ١٢٤) .

(٩٦) من أشهر كتبه : الحيل ، والشروط الكبير ، والرضاع وأدب القاضى ، وذرع الكعبة ، والمسجد والقبر وأحكام الوقوف ، وغيرها . (الذهبى : نفسه ، ص١٢٤) .

(٩٧) الذهبى : المصدر السابق (١٢٧/١٣ - ١٢٨) .

(٩٨) البحترى : أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى ، ولد بمنبج فى حلب سنة٢٠٦هـ ، وفيها نشأ ثم خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء أولهم المتوكل على الله ، ويقال له : البحترى نسبة إلى بُحتر وهو أحد أجداده . وقد توفى البحترى سنة ٢٨٤هـ فى مدينة منبج مسقط رأسه .

(ياقوت : معجم الأدباء ، دار المستشرق ، بيروت - لبنان ، (٢٤٨/١٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان ، (٢١/٦) .

(٩٩) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٦ .

(١٠٠) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٥ .

(١٠١) الإمام : شيخ الإسلام أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال... الشيبانى المروزى البغدادى . أحد الأئمة الإعلام ، ولد فى شهر ربيع الأول سنة ١٦٤هـ ، وطلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، كان إمامًا فى الحديث والفقه والسنة . وله مصنفات عديدة فى هذه العلوم . وكان ممن امتنع عن القول بخلق القرآن فى عهد الخليفة المأمون وتعرض نتيجة ذلك للسجن والتعذيب ، وقد أصر على موقفه فى عهد المعتصم وابنه الواثق حتى تولى المتوكل على الله الخلافة فأظهر الميل إلى السنة ، ونصر أهلها ، ورفع المحنة ، وكتب بذلك إلى الآفاق وذلك فى سنة ٢٣٤هـ . توفى الإمام أحمد محمومًا فى ربيع الأول سنة ٢٤١هـ . (الأصبهانى: حلية الأولياء ، (١٦١/٩) ؛ الذهبى : السير ، (١٧٧/١١)، العبر ، (٣٤٢/١) ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٢٠ .

(١٠٢) الآجُرّى : الشريعة ، ص٩٢ ، ٩٥ ، البرى : الجوهرى ، (٤٥٩/١ ، ٤٦١) ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٥ .

(١٠٣) البصرة : مدينة مشهورة فى جنوب العراق تقع على رأس الخليج العربى قرب مصب نهر دجلة ، (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٦٥) .

(١٠٤) المَوْصِلُ : مدينة معروفة تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة شمال العراق .

(ياقوت : معجم البلدان ، (٢٢٣/٥) . ؛ لسترنج : المرجع السابق ، ص١١٥) .

(١٠٥) سِجِسْتَانُ : ولاية جنوب خراسان . (ياقوت : المصدر السابق ، (١٩٠/٣).

(١٠٦) تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣٩/٥) .

(١٠٧) الكامل ، (٢٠٣/٧) .

(١٠٨) الذهبى : السير ، (٥٣٦/١٢) ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين ، ط١ ، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، (١٥٣/١) .

(١٠٩) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط١ ، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، (٣٧٢/٣) .

(١١٠) المسعودى : مروج الذهب ، (٤٣٣/٢) .

(١١١) نفسه .

(١١٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣٢/٥) . ؛ ابن الأثير : الكامل ، (١٩٨/٧ - ١٩٩) .

(١١٣) تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣٢/٥) .؛ ابن كثير : البداية والنهاية،(١٧/١١).

(١١٤) الطبرى : نفسه .؛ ابن الأثير : نفسه .

(١١٥) اليعقوبى : تاريخه ، (٥٠٥/٢) .

(١١٦) سليمان عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رُزيق بن ماهان الخُزاعى، أحد أفراد الأسرة الطاهرية التى حكمت خراسان ، وكان سليمان عاملاً على طبرستان ولم يتول حكم الدولة الطاهرية حيث أصبح واليًا على الشرطة فى بغداد سنة ٢٥٥هـ ، وكانت وفاته سنة٢٦٦هـ .

(ابن الأثير : نفسه ، (١٣٠/٧ ؛ ٢٠١ ، ٣٣٣ .؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٨٣/٣) .

(١١٧) الطبرى : المصدر السابق . (٤٣٢/٥) .

(١١٨) نفسه ، (٤٣٣/٥) .

(١١٩) الدولة لطاهرية : أسسها طاهر بن الحسين الذى وُلد فى بوشنج بخراسان سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م ، وهو من أصل فارسى . وقد صعد نجمه أثناء الصراع الذى نشب بين الأمين وأخيه المأمون ، ولما استقرت الأمور فى بغداد للمأمون اختار طاهر بن الحسين وعهد إليه بحكم المشرق سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م . وأقام طاهر فى مدينة مرو بخراسان التى أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة للدولة الطاهرية . وتوفى طاهر سنة ٢٠٧هـ ، وتدرج أفراد أسرته فى حكم تلك الدولة حتى سقوطها سنة ٢٥٩هـ/٨٧٣م .

وللإطلاع على تفاصيل واسعة عن قيام هذه الدولة . انظر : د. فتحى أبو سيف : المشرق الإسلامى بين التبعية والاستقلال ، القاهرة ١٩٧٨م ، ص٩٥ - ١٣٨ .؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ، ترجمة د. محمد علاء الدين منصور ، القاهرة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص١٣ -١٨) .

(١٢٠) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣٦/٥) .

(١٢١) محمد بن أوس البلخى . كان الغالب على أمر سليمان آل طاهر أيام ولايته على طبرستان . وكان محمد قد فرق أولاده فى مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء ، فتأذى بهم الرعية . وقد قدم محمد على رأس جند خراسان الموالين الطاهرية إلى بغداد وذلك سنة ٢٥٥هـ. ومنذ سنة ٢٦٤هـ انقطعت أخبار ابن أوس ولا نقف له على سيرة . (ابن الأثير : الكامل ، (١٣٠/٧ ، ٢٠٢ ،٢٧٦ ، ٢٩١ ، ٣١٠) .

(١٢٢) ابن الأثير : نفسه ، (٢٠٢/٧) .

(١٢٣) نفسه ، (٢٠٢/٧ - ٢٠٣) .

(١٢٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣٣/٥) .

(١٢٥) ابن الأثير : الكامل ، (٢٠٠/٧) .

(١٢٦) المعتمد على الله : هو أبو العباس أحمد بن المتوكل ، بويع له فى رجب سنة ٢٥٦هـ ، وتوفى بغداد فى رجب سنة ٢٧٩هـ . (الأزدى : أخبار الدولة المنقطعة ، ص١٩٩).

(١٢٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٣٣/٥) .؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٤ .

(١٢٨) الطبرى : نفسه ، (٤٤١/٥) .

(١٢٩) زعم صاحب الزنج أن اسمه ونسبه : على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى ابن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وذكر البعض أن اسمه : على بن محمد بن عبد الرحيم ، ونسبه فى عبد القيس ، وأنه وُلد ونشأ فى إحدى قرى مدينة الرى (طهران حاليًا) وكان قبل ظهور حركته وإعلان زعامته للزنج يتنقل بين سامراء والبحرين وهجر ومناطق البادية لنشر أفكاره وادعاءاته بين سكان هذه البلاد . ولمعرفة أوسع التفاصيل عن حركة الزنج . طالع : (الطبرى : المصدر السابق ، (٤٤١/٥ ، ٤٥٧) .؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، (١٨/١١ - ١٩) .

(١٣٠) ابن الأثير : الكامل ، (٢٠٥/٧) .

(١٣١) اليعقوبى : تاريخه ، ٥٠٦ .؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/ ٤٤٣) .

(١٣٢) د. بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية ، مصر ، ص١٥٨ .

(١٣٣) ابن الأثير : الكامل ، (٢٠٩/٧) .

(١٣٤) ابن الأثير : نفسه ، (٢١٤/٧ - ٢١٥) .

(١٣٥) د. بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية ، ص١٦١ .

(١٣٦) الطبرى : تاريخ الأم والملوك ، (٤٣٢/٥) .

(١٣٧) نهر الريان : أحد الأنهار الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة جنوب العراق. (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٦٩) .

(١٣٨) ابن الأثير : الكامل ، (٢١١/٧) .

(١٣٩) أظهر جُعْلان عجزه للخليفة فى التصدى لصاحب الزنج داخل البصرة ، فصرفه عن حرب الزنج وأسند الخليفة هذه المهمة لقائد تركى آخر يدعى سعيد الحاجب . أما أبو الأحواص الباهلى فقد لقى مصرعه أثناء هجوم الزنج على الأبلة فى أواخر شهر رجب سنة ٢٥٦هـ. (الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٥٧/٥ ، ٤٧٦ - ٤٧٧) .؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، (٧/ ٢٣٦) .

(١٤٠) الطبرى : نفسه ، (٤٥٧/٥) .

(١٤١) ياقوت : معجم البلدان ، (٧٧/١) .

(١٤٢) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن عبد الوهاب ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٦م ، ص٥ .

(١٤٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ط٢ ، ليدن ١٩٠٩م ، ص١٢٨.

(١٤٤) أحمد على : ثورة الزنج ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ص١٠٤ .؛ د. بدر عبد الرحمن : الدولة العباسية ، ص١٧٠ .

(١٤٥) د. عادل الألوسى : الرأى العام فى القرن الثالث الهجرى ، ص١٦٢.

(١٤٦) يعقوب بن الليث ، مؤسس الدولة الصفارية ، وقد حكمت منطقة إيران خمسًا وأربعين سنة (٢٥٣ - ٢٩٨هـ/٨٦٧ - ٩١٠م) ، وكان يعقوب نحاسًا فعُرف بلقب الصفار ، ثم برز كقائد عسكرى فى إقليم سجستان سنة ٢٥٣هـ ، ومات يعقوب سنة ٢٦٥هـ/٨٧٩م ، ثم خلفه أخوه عمرو بن الليث فى حكم هذه الدولة .

انظر : ستانلى لين بول : الدول الإسلامية ، ترجمة محمد صبيحى فرزات ، دمشق ، (٢٦٣/١) .؛ د. على المحيميد : دراسات فى تاريخ المشرق الإسلامى، ط١ ، الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، ص٩ .

(١٤٧) ابن الأثير : الكامل ، (١٨٤/٧) .

(١٤٨) كرمان : ناحية تقع بين فارس ومكران وسجستان وخراسان . ياقوت : معجم البلدان ، (٤٥٤/٤) .

(١٤٩) فارس : ولاية تقع جنوب إيران حاليًا وكانت قصبتها شيراز (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٢٨٣) .

(١٥٠) بدأ ظهور الخوارج فى الموصل سنة ٧٦هـ/٦٩٥م ، وكانوا بقيادة صالح بن مُسرح التميمى . وقد دعا صالح أصحابه إلى الخروج على طاعة أمير المؤمنين ، وإنكار الظلم ، وجهاد المخالفين لهم . وقد قاموا بعدة حركات فى العصر العباسى كان أولها سنة ١٣٧هـ فى عهد أبى جعفر المنصور .

انظر : ابن الأثير : الكامل ، (٣٩٣/٤) ؛ ابن خلدون : العبر ، (١٩٠/٣) .

وللإطلاع على مزيد من المعلومات عن حركات الخوارج فى الموصل . انظر : سعيد الديوه جى : تاريخ الموصل ، مطبوعات المجمع العراقى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م (٦٧ ، ٧٦) .

(١٥١) مُساور بن عبد الحميد بن مساور الشارى البجلى الموصلى . كان مبدأ خروجه بالبوازيج فى الموصل سنة ٢٥٢هـ . ومنذ ذاك التاريخ قاد عددًا من ثورات الخوارج هناك ضد الخلافة العباسية حتى سنة ٢٦٣هـ (ابن الأثير : الكامل ، (١٧٤/٧ ، ٣٠٩) .

(١٥٢) ابن الأثير : نفسه ، (٢٠٥/٧) .

(١٥٣) الحديثة : بليدة كانت تقع على الجانب الشرقي لنهر دجلة قرب الزاب الأعلى، وتسمى حديثة الموصل تمييزًا لها عن حديثة الفرات . (ياقوت : معجم البلدان ، (٢٣٠/٢) . لسترنج : بلدان الخلافة ، ص١١٩) .

(١٥٤) لم تذكر المصادر التى لدينا سوى أنه كان أمير الموصل وقت استيلاء مساور الخارجى عليها سنة ٢٥٥هـ . (ابن الأثير : الكامل ، (٢٠٥/٧)

(١٥٥) ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة .

(١٥٦) نفسه .

(١٥٧) نفسه ، ص٢٠٥ ، ٢١٥ .

(١٥٨) عُبَيْدة من بنى زهير العمروى . (ابن الأثير : نفسه ، ٢٢٦/٧) .

(١٥٩) نفسه .

(١٦٠) نفسه ، ص٢٢٦ - ٢٢٧ .

(١٦١) خراسان : هو الإقليم الشرقى من بلاد فارس ، وهى حاليًا قسمة بين إيران وأفغانستان وجزء منها يتبع روسيا . (محمود شاكر : تركستان ، بيروت ، ص٢٦) .

(١٦٢) أذربيجان : هى الدولة المعروفة الأن بجمهورية أذربيجان الواقعة فى منطقة القفقاس ، عاصمتها مدينة (باكو) . (محمود شاكر : تركستان ، ص١٠٨) .

(١٦٣) نيسابور: إحدى مدن خراسان، وقد أصبحت حاضرة ذلك الإقليم بعد مدينة مرو. (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٤٢٤) .

(١٦٤) ياقوت : معجم البلدان ، (٢٢٣/٥) .

(١٦٥) هو أحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن طباطبا ، لقى مصرعه فى صعيد مصر سنة ٢٥٥هـ . (ابن الأثير : الكامل ، ٢١٧/٧) .

(١٦٦) بَرْقة : اسم ناحية كبيرة تشتمل على مدن وقرى تقع بين الإسكندرية وإفريقية. (ياقوت : معجم البلدان ، (٣٨٨/١) .

(١٦٧) الصعيد : بلاد واسعة فى مصر تشتمل على مدن عدة أهمها أسوان فى أقصى الجنوب . (ياقوت : المصدر السابق ، (٤٠٨/٣) .

(١٦٨) الأمير التركى أبو العباس أحمد بن طولون ، صاحب الديار المصرية والشامية والثغور ، كان الخليفة المعتز قد ولاء على مصر ، ثم استولى على الشام فى مدة اشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج . ولُد أحمد بسامراء سنة ٢٢٠هـ ، وتوفى فى مصر سنة ٢٧٠هـ (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٧٣/١ - ١٧٤) .

ولمزيد من التفاصيل عن الدولة الطولونية . انظر : د. محمد أحمد زيود : العلاقات بين الشام ومصر فى العهدين الطولونى والأخشيدى ، ط١ ، دمشق ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

(١٦٩) ابن الأثير : الكامل ، (٢١٧/٧) .

(١٧٠) هو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد على بن أبى طالب ويُعرف بابن الصوفى . (ابن الأثير : الكامل ، (٢٣٧/٧) .

(١٧١) إسنا : مدينة بأقصى صعيد تقع على الشاطى الغربى لنهر النيل . (ياقوت : معجم البلدان ، (١٨٩/١) .

(١٧٣) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، (٧/٣) .

(١٧٤) ابن الأثير : الكامل ، (٢٣٩/٧) .

(١٧٥) عيسى بن الشيخ بن السليل من ولد جساس بن مرة بن ذهل الشيبانى ، عقد له الخليفة المستعين سنة٢٥٢هـ على مدينة الرملة ، ثم استولى على فلسطين كلها ، وتغلب على دمشق وأعمالها . ولكنه تنكر للخلافة واستبد بالأموال ، وحارب جيش الخلافة فى عهد المعتمد على الله ، ولما انهزم سار إلى أرمينية حيث توفى فيها سنة ٢٦٩هـ . (ابن الأثير : الكامل ، (١٧٦/٧ ، ٢٣٨ ، ٣٩٧) .

(١٧٦) ابن الأثير : نفسه ، (٢٣٨/٧) .

(١٧٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٦١/٥) .

(١٧٨) الرى مدينة تقع فى الطرف الشمالى الشرقى من إقليم الجبال ، قامت على أنقاضها مدينة طهران عاصمة إيران حاليًا . (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٢٤٩ - ٢٥٢) .

(١٧٩) الطبرى : نفسه ، (٤٤٠/٥) ؛ ابن الأثير : الكامل ، (٢٠٤/٧)

(١٨٠) الحسن بن زيد بن إسماعيل بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على أبى طالب مؤسس الدولة الزيدية فى طبرستان سنة ٢٥٠هـ ، وقدحكم حوالى عشرين سنة حتى

وفاته سنة ٢٧٠هـ ، ثم خلفه أخوه محمد بن زيد (ابن الجوزى : المنتظم ، (٣٤/١٢) ؛ ابن الأثير : الكامل ، (٤٠٧/٧) .

(١٨١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٤١/٥) .

(١٨٢) أبو القاسم عبد الله بن الواثق ، ظهر على مسرح الحوادث السياسية فى خلافة أخيه المهتدى بالله. ولم يجلس على عرش الخلافة قط. (ابن الأثير: الكامل،(٢٢١/٧-٢٢٤).

(١٨٣) ابن الأثير : نفسه ، (٢٢٣/٧) .

(١٨٤) موسى بن بغا الكبير . ابن خالة الخليفة المتوكل . كان أحد قواد الأتراك البارزين فى الدولة العباسية منذ عهد المتوكل ، وقد سطع نجمه فى خلافة المعتمد على الله . (ابن الأثير : نفسه ، (٩٨/٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٥) .

(١٨٥) الطبرى : تاريخ الأمم والموك ، (٤٥٨/٥) .

(١٨٦) نفسه .

(١٨٧) نفسه ، (٤٦١/٥) .

(١٨٨) نفسه ، (٤٦٠/٥) .

(١٨٩) نفسه ، (٤٦٦/٥ - ٤٦٧) .

(١٩٠) نفسه ، (٤٤١/٥) .

(١٩١) ابن الأثير : الكامل ، (٢٢٨/٧) .

(١٩٢) نفسه .

(١٩٣) ابن العمرانى ، الإنباء ص١٣٦ .

(١٩٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٦٨/٥) ، ابن الأثير : الكامل ، (٢٢٨/٧) .

(١٩٥) الطبرى : نفسه ، (٤٦٨/٥ - ٤٦٩) .

(١٩٦) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى ، كانت ولادته سنة ١٠٠هـ ، فى إحدى قرى خراسان ، وأخذ يدعو للعباسيين سنة ١٢٩ هـ . لقى أبو مسلم مصرعه سنة ١٣٧ هـ على يد أبى جعفر المنصور بسبب خلافات حادة نشبت بينهما .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٤٥/٣ - ١٥٥) .

(١٩٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك،(٤٦٩/٥)، ابن كثير: البداية والنهاية، (٢٢/١١) .

(١٩٨) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، (٢٢٩/٧) .

(١٩٩) ابن الأثير : الكامل ، (٢٣٠/٧) .

(٢٠٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (٤٧٦/٥) .

(٢٠١) نفسه ، (٤٦٣/٥) .

(٢٠٢) نفسه ، (٤٨٠/٥ ، ٤٨٨) .

(٢٠٣) نفسه ، (٥٠٢/٥) .

(٢٠٤) المعتضد با لله : أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن المعتصم ، ويكنى : أبا العباس ، ولد بسامراء سنة ٢٤٣هـ ، وبويع له بالخلافة سنة ٢٧٩هـ .

(ابن الجوزى : المنتظم ، (٣٠٦/١٢) ؛ ابن الأثير : الكامل ، (٤٤٤/٧) .

(٢٠٥) الطبرى : نفسه ، (٦٠٤/٥) .

(٢٠٦) ابن الجوزى : المنتظم ، (١٠٨/١٢) .

(٢٠٧) خانقين : بلدة تقع شرق مدينة حلولاء . ويمر به حاليًا الطريق الذى يربط بين بغداد وإيران . (ياقوت : معجم البلدان ، (٣٤٠/٢) ؛ لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٨٧) .

(٢٠٨) ابن الأثير : الكامل ، (٢٤٠/٧) .

(٢٠٩) على بن زيد العلوى ، صاحب الكوفة ، قتله قائد الزنج سنة ٢٦٠هـ (الطبرى : تاريخ الأمم والملوك . (٤٩٩/٥) .

(٢١٠) الطبرى : نفسه . (٤٧٨/٥) .

(٢١١) جرجان : إقليم يقع فى جنوب شرقى بحر قزوين (لسترنج : بلدان الخلافة ، ص٤١٧) ، ولمزيد من المعلومات عن هذه الأحداث انظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٤٧٨/٥ ، ابن الأثير : الكامل ، (٢٤٨/٧) .

(٢١٢) عبد العزيز بن أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى ، كان والده أبو دلف أحد قواد المأمون ثم المعتصم . وقد عهدت الخلافة سنة ٢٥٢هـ إلى الأمير عبد العزيز بحكم بلاد الجبل، ولقى هذا مصرعه سنة ٢٦٥هـ . (ابن الأثير : الكامل ، (٧ / ١٧٦ ، ٣٢٧) : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٧٣/٤).

(٢١٣) ابن الأثير : الكامل ، (٧/ ٢٤٠ ، ٢٤٩) .

(٢١٤) أحمد بن محمد بن عبيد الله بن المدبر الضبى ، كان والى الخراج فى مصر فلما قدمها ابن طولون سنة ٢٥٤هـ كف يده عن الخراج ، وقبض عليه ، وسجنه ، ثم أمر بقتله سنة ٢٧٠هـ (ابن الأثير: نفسه،(٧/ ٨٧)، الذهبى: السير إعلام النبلاء، (١٣/ ١٢٥-١٢٦).

(٢١٥) أرمينية : ناحية واسعة تنقسم إلى قسمين : آرمينية الكبرى وعاصمتها خلاط ، والصغرى عاصمتها تفليس . أما حدود آرمينية الحديثة فيحدها من الشمال جمهورية جورجيا ، ومن الجنوب إيران ، ومن الغرب تركيا ، ومن الشرق جمهورية أذربيجان . (ياقوت الحموى: معجم البلدان ، (١/ ١٥٩ - ١٦٠) ؛ مروان المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ط١ ، بيروت ١٩٨٢م ، ص٥٧٥) .

(٢١٦) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، (٥/ ٤٧٩)، ابن الأثير: الكامل، (٧/ ٢٣٨).

(٢١٧) سعد أحمد بن سعد الباهلى ، ظهر فى البطائح ، وحاول أن يتغلب عليها سنة ٢٥٧هـ ، ولكن الخلافة أرسلت إليه القائد أحمد المولد ، فقبض عليه وضرب حتى مات .

ابن الأثير : نفسه ، (٧/ ٢٤٨) .

(٢١٨) البطائح : ناحية فى العراق تقع بين مدينتى واسط والبصرة .

ياقوت : معجم البلدان ، (١/ ٤٥٠) .

(٢١٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، (٥/ ٤٨٧) ؛ ابن الأثير : الكامل، (٧/ ٢٤٨).

(٢٢٠) ابن الأثير : نفسه ، (٧/ ٢٤٧ ، ٢٩٠) .

المصـــادر والمراجـــع

أولاً : المصـــادر :

- ابن الأثير : عز الدين على بن محمد الشيبانى (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م).
الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

- ابن تغرى بردى: جمال الدين أبى المحاسن يوسف(ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م).
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة .

- ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن على (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) .
المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، دراسة وتحقيق محمد ومصطفى عطا ، ط١ ، بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

- ابن خرداذبة : أبو القاسم عبد الله بن عبد الله(ت٣٠٠هـ / ٩١٢م) .
المسالك والممالك ، تحقيق محمد مخزوم ، ط١ ، بيروت ١٩٨٨م .

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط١ ، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م).
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ، بيروت.

- ابن دقماق : إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ) .
الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين ، ط١، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ،

- ابن طباطبا : محمد بن على بن الطقطقى (ت ٧٠٩هـ) .
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت .

- ابن العمرانى : محمد بن على بن محمد (ت فى حدود سنة ٥٨٠هـ)
الإنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق د. قاسم السامرائى ، ط٢، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١١٩٨م.
- ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)
المعارف ، تحقيق د. ثزوت عكاشة ، ط٢ ، مصر .
- ابن كثير : أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقى (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م).
البداية والنهاية ، ط٦ ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- الآجرى : أبو بكر محمد بن الحسين (ت٣٦٠هـ) .
الشريعة، تحقيق محمد حامد الفقى، ط١ ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.
- الأزدى : جمال الدين على بن ظافر (ت٦١٣هـ / ١٢٧٦م) .
أخبار الدول المنقطعة ، تاريخ الدولة العباسية ، تحقيق ودراسة د. محمد الزهرانى ، المدينة المنورة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- الأصبهانى : الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت٤٣٠هـ)
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط٢ ، بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- البرى : محمد بن أبو بكر بن عبد الله الأنصارى التلمسانى .
الجوهرة فى نسب النبى ﷺ وأصحابه العشرة، ط١ ، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- البيهقى : إبراهيم بن محمد (ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م) .
المحاسن والمساوئ ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .
- الجاحظ : عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) .
كتاب التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن عبد الوهاب ، القاهرة ١٩٦٦م .
- الخطيب البغدادى : أبو بكر أحمد بن على (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) .
تاريخ بغداد، بيروت .

- الذهبى : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ / ١٣٧٤م) .
سير إعلام النبلاء ، ط١٠ ، بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ . العبر فى خبر من غبر ، تحقيق أبو هاجر محمد بن بسيونى ، بيروت .
- السيوطى : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ)
تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، بيروت .
- الصفدى : خليل بن أيبك (ت٦٧٤هـ).
الوافى بالوفيات، بيروت ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
- الطبرى : محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) .
تاريخ الأمم والملوك ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- الماوردى : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ) .
الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط٣ ، مصر ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م
- المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصر ١٣٤٦هـ .
- المعجم الوسيط ،مجمع اللغة بالقاهرة ، ١٩٦٠ .
- المقدسى : أبو عبد اله محمد بن أحمد (ت ٣٧٨هـ / ٩٧٨م) .
أحسن التقاسيم فى معرفة الإقاليم ، ط٢ ، دارصادر ، بيروت ، ليدن ١٩٠٩م.
- النيسابورى : الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ) .
صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، دار إحياء الكتب العربية .
- وكيع : محمد بن خلف بن حيان (ت٣٠٦هـ / ٩١٨م) .
أخبار القضاة ، عالم الكتب ، بيروت .
- ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الملك الحموى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .
معجم الأدباء ، بيروت ، لبنان .
معجم البلدان ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

- اليعقوبى : أحمد بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) .
تاريخ اليعقوبى، بيروت ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .

ثانيـًا : المراجــع :

- أحمد زكى : جمهرة رسائل العرب ، بروت .
- أحمد على : ثورة الزنج ، مكتبة الحياة ، بيروت .
- بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية ، مصر .
- د. حسن محمود وأحمد الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ط٤ ، الكويت ١٩٨٠م .
- ستانلى لين بول : الدول الإسلامية ، ترجمة محمد صبيحى فرزات ، دمشق .
- سعيد الديوه جى : تاريخ الموصل، مطبوعات المجمع العلمى العراقى١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
- د. شوقى ضيف : تاريخ الآدب العربى ، ط٧ ، دار المعارف ، مصر .
- د. ضيف الله الزهرانى : النفقات وإدارتها فى الدولة العباسية ، ط١ ، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- عادل محى الدين الألوسى : الرأى العام فى القرن الثالث الهجرى ، ط١ ، ١٠٨٧م.
- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام ، ترجمة د. محمد علاء الدين منصور ، القاهرة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- د. على المحيميد : دراسات فى تاريخ المشرق الإسلامى ، ط١ ، الرياض ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- عمر رضا كحالة : إعلام النساء ط٣ ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- د. فتحى أبو سيف : المشرق الإسلامى بين التبعية والاستقلال ، القاهرة ١٩٧٨م .
- لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ط٢، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- د. محمد أحمد زيود : العلاقات بين الشام ومصر فى العهدين الطولونى والأخشيدى، ط١ ، دمشق ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .
- محمد شاكل : تركستان ، بيروت .
- مروان المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ط١ ، بيروت ١٩٨٢م .

العلاقة بين مغول فارس ومغول القفجاق
بعد معركة عين جالوت
١٢٦٠ - ١٢٧٠ م

أ . د . محمود سعيد عمران (*)

مات الخان الأعظم للمغول مونكو Mongka فى أغسطس عام ١٢٥٩م ، فأوقفت القوات المغولية عملياتها العسكرية فى بلاد الشام . وكان للخان الأعظم ثلاثة أخوة كبار هم قوبيلاى Kubilai وهولاكو Hulagu الذى كان يقود القوات المغولية فى بلاد الشام، وأريق بوقا Arigboga كما كان له إخوة صغار أقل أهمية. وأشارت الدلائل إلى ترشيح قوبيلاى لمنصب الخان الأعظم . وكان قوبيلاى فى تلك الأثناء يقود حملة عسكرية على حدود بلاد الصين ، فساندته القوات المغولية المرافقة له فى حملته ليكون خانا أعظم ، وبدأ يستعد للعودة إلى العاصمة المغولية حتى سيطر على الموقف داخل العاصمة(١) .

وفى ظل هذه الأحداث انقسمت الأسرة الحاكمة المغولية إلى قسمين ، أحدهما يساند قوبيلاى والآخر يساند أريق بوقا . وانتهى الأمر باختيار قوبيلاى خانا أعظم للمغول (١٢٦٠ - ١٣٩٤م) وعندئذ انسحب هولاكو ومعه قواته إلى بلاد فارس ليراقب الأحداث فى حين ترك قائده كتبغا مع باقى القوات المغولية فى بلاد الشام . وصادف ذلك مولد دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام فكان عليها أن تحمل راية الجهاد لإثبات وجودها وقوتها فى المنطقة حتى تكون جديرة بالحكم بوصفها وريثة البيت الأيوبى فى حكم مصر والشام .

وكانت بداية الاحتكاك بين المغول والمماليك عندما أرسل هولاكو سفارة إلى القاهرة فى أوائل عام ١٢٦٠ م تطلب من سلطان قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠)

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

الاستسلام والخضوع للسيادة المغولية . ولكن السلطان أمر بقتل الرسل ، ومعنى ذلك أن الحرب قائمة لا محالة بين الطرفين . وعلى ذلك استعد قطز للقتال فحشد قواته ، وانضم إليه ما تبقى من القوات الخوارزمية وعساكر المغيث عمر الأيوبى حاكم إمارة الكرك (١٢٣٩ - ١٢٦١م) حتى أصبحت القوات الإسلامية تفوق أعداد القوات المغولية التى قدرها البعض بحوالى عشرة آلاف مقاتل(٢) .

فى نهاية يوليو ١٢٦٠م اجتاز قطز وقواته الحدود المصرية ، وتولى قيادة المقدمة القائد بيبرس الذى نجح فى الانتصار على طلائع القوات المغولية التى كانت مرابطة فى نواحى مدينة غزة بقيادة القائد بيدرا Baidar . وعلى إثر هذه الهزيمة أرسل بيدرا إلى القائد المغولى كتبغا Kitbuqe المقيم فى مدينة بعلبك يخبره بالوقائع(٣) .

وكان أن نظم كتبغا قواته ، وكان مع القوات المغولية قوات كرجية و أرمينية ، وعناصر من مغول القفجاق(٤) ، كما كان يرافق كتبغا من البيت الأيوبى الملك السعيد صاحب الصبيبة ، والملك الأشرف موسى صاحب حمص(٥). ورغم هذا كله فقد كانت القوات المغولية أقل عددًا من القوات الإسلامية . وحول أعداد القوات الأرمينية فقد ذكرت أحد المصادر الأرمينية أن عدد القوات التى أرسلها الملك الأرمنى هيثوم الأول Hethim I (١٢٢٦) - ١٢٦٩ م) كانت حوالى خمسمائة(٦) .

أما عن قوات مغول القفجاق فقد ذكر ابن عبد الظاهر أن كشافة المماليك وجدوا جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى الباب الشريف لأنهم من أصحاب الملك بركة - خان مغول القفجاق - وكانوا نجدة عند هلاون أى هولاكو . فلما وقع بينهما ، أى وقع الخلاف بين بركة وهولاكو ، كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه ، وإن لم يقدروا على ذلك يتجاوزون إلى عسكر الديار المصرية ، ويذكرون أن العدواة قد استحكمت بينهما - أى بين هولاكو وبركة - وكان عددهم فوق المائتى فارس ، فكتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم ، وحمل الخلع إليهم وإلى نسائهم ، وأحسن إلى مقدميهم الأربعة(٧) .

أما كتبغا فقد تقدم من بعلبك حتى وصل إلى مدينة الناصرة ، ثم إلى عين جالوت التى وصلها يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨ / الثانى من سبتمبر ١٢٦٠م . وعند عين جالوت دارت المعركة الفاصلة بين المغول بقيادة كتبغا والمماليك بقيادة قطز ، فانكسر المغول وسقطوا بين قتلى وأسرى ، فى حين ظل كتبغا يقاتل حتى هلك فرسه ، فوقع فى أسر المسلمين ، وحمل مقيدا بالأغلال إلى السطان فأمر بقتله . كما وقع فى الأسر الملك السعيد الأيوبى وقد أمر السلطان بقتله أيضًا . أما الملك الأشرف فقد فارق العسكر المغولى وطلب الأمان من السطان فأمنه ، وأقره على ما بيده وهى مدينة حمص ومضافاتها . وتقدم قطز ودخل دمشق ظافرا(٨) .

وكان لجنكيز خان Jenghiz Khan أربعة أولاد حسب كبر السن هم جوجى Juji ، وجغتاى Jagatai ، ووأوكيتاى Ogodai ، وطولوى Tului . وفى أيام جنكيز خان كان مركز الحكومة فى العاصمة قراقورم فى إقليم منغوليا ، أما بعد وفاته فقد تم نوع من التقسيم الإدارى ، فأصبح أوكيتاى خانا بالإضافة إلى إقليم منغوليا، أما جغتاى فقد اختص بإقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية منذ عام ١٢٢٧ م، وفى سلالته التى استمرت حتى عام ١٣٧٠ م.وفيما يختص بإقليم فارس فقد تولى حكمه هولاكو بعد موت والده طولوى وذلك منذ عام ١٢٥٦(٩) .

أما جوجى فقد حكم القبيلة الذهبية الذى كان لون خيماتها ذهبيًا فعرفت بهذا الاسم ، وقد حكم بعده ولدان هما باطو وعرفت سلالته باسم القبيلة الزرقاء، وحكمت جنوب روسيا وغرب بلاد القفجاق منذ الفتح حتى عام ١٣٨٠م ، والثانى هو أوردا Orda الذى عرفت سلالته باسم القبيلة البيضاء واستمرت حتى ١٤٨١ م ، وحكمت فى سيبريا وشرقى بلاد القفجاق .

ويعنينا فى هذا البحث مغول فارس ومغول القبيلة الزرقاء الذين أطلق عليهم مغول القفجاق . ويلاحظ أن كلمة القفجاق أطلقت على البلاد التى تقع إلى شمال

البحر الأسود والتى تعرف حاليًا باسم أوكرانيا ، وكان يعيش فيها فى تلك الحقبة وما قبلها عناصر البشناق Pechenegs ثم عناصر الكومان Cumans(١٠) ، وهى الأراضى التى وردت فى المصادر العربية والفارسية باسم القفجاق ، وقد أتخذ هؤلاء من مدينة سراى Sarai على نهر الفولجا عاصمة لهم (١١) .

أما مغول فارس فقد تولى هولاكو حكم بلاد فارس وأذربيجان وجزء من غربى بحر قزوين وأتخذ من مدينة شيراز عاصمة له عام ١٢٥٦م وحتى عام ١٢٦٥ ، وخلفه ابنه أباقا أو أبغا ١٢٦٥ - ١٢٨٢ م ، ثم تكوادار ١٢٨٤ - ١٢٨٤ م ، وأرغون ١٢٨٤ - ١٢٩١م .

أما عن مغول القفجاق فكانوا تحت حكم بركة بن جوجى منذ عام ١٢٥٧م أى قبل معركة عين جالوت وحتى عام ١٢٦٧م ، ثم حكمها منكو تيمور ١٢٦٧ - ١٢٨٠م ، وتلاه تودا منكو ١٢٨٠ - ١٢٧٨ ، وغياث الدين ١٢٩٠- ١٣١٢ م .

وإذا كان البحث يتركز على علاقة مغول فارس بمغول القفجاق بعد معركة عين جالوت ، فلتكن البداية عن العلاقة بين الخان هولاكو والخان بركة . والواقع أن توسعات هولاكو عند حدود بلاد القفجاق كانت السبب فى العداوة بين الطرفين، فقد أورد العينى إن هولاكو طمع لظروف عائلية فى التوسع فى بلاد القفجاق ، لذلك تجهز بجيشه وسار فى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥ م بعد جلوس بركه على سرير الملك ، وعندما علم بركة بذلك سار إليه بعساكره وهزمه ، وكان بينهما نهر " ترك " ، وقد جمد ماؤه لشدة البرد ، فعبر هولاكو وعساكره متخطبًا إلى بلاد بركة . وانتهى الأمر بهزيمة هولاكو وعسكره " فولوا على أدبارهم وتكردسوا فى النهر الجامد ، فانفقأ الجمد من تحتهم فغرق منهم جماعة كثيرة ، وأفلت من نجا منهم من المصاف والغرق صحبه هولاكو راجعين إلى بلادهم ، وصارت العداوة بين الطائفتين متمكنة " ، وقد لعب القائد المغولى نوغاى Nogay

الذى أسماه العينى نَوغَيْة دورًا كبيرًا فى هذه المعركة التى أدت إلى هزيمة هولاكو(١٢) .

ويذكر أبو المحاسن أن الخان بركة كان يميل إلى المسلمين ميلاً زائدًا ويعظم أهل العلم ويقصد الصلحاء ويتبرك بهم . ووقع بينه وبين ابن عمه هولاكو ، وقاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله وغيره من المسلمين(١٣) . وهكذا نشبت الحرب بين الطرفين منذ ذلك الحين ، وصارت العداوة بين الطرفين مورثة(١٤) . وإذا كان العداء بين الطرفين قد ظهر قبل معركة عين جالوت بخمس سنوات فإنها لم تتفاقم إلا بعد موت الخان الأعظم مونكو وإنقسام الامبراطورية المغولية إلى وحدات سياسية ، وهذا لم يتضح إلا بعد معركة عين جالوت .

وكان الخان بركة يميل إلى الإسلام والمسلمين فإعتنق الإسلام فى مرحلة لاحقة ، وهى نقطة فى غاية الأهمية فى تاريخ العلاقات بين الخان بركة والخان هولاكو . ومسألة تحديد الزمن الذى اعتنق فيه الخان بركة الإسلام أمر يصعب تحديده بدقة ، ولكن الباحث سيحاول الوصول إلى تاريخ معقول ومقبول ، إذ يرى البعض أنه تحول للإسلام قبل اجتياج المغول لمدينة بغداد فى عام ١٢٥٩م ، وأنه اعترض على التخريب الوحشى الذى ألحقه المغول بالمدينة(١٥) ، ثم تصاعد الخلاف بين الطرفين بعد معركة عين جالوت ، وهو الأمر الذى دفع الخان بركة إلى سحب قواته التى كانت تحارب إلى جانب قوات هولاكو فى بلاد الشام(١٦).

وحول الزمان الذى أسلم فيه الخان بركة فقد سبق أن ذكرنا أن جماعة كبيرة من التتار مستأمنيين وفدوا إلى الباب الشريف ، أى سلطنة المماليك لأنهم من أصحاب الخان بركة ، وكانوا نجده ، فلما وقع بينهما كتب إليهم بالحضور ويعتبر طلب الخان بركة من عساكره الدخول إلى الديار المصرية أمرًا له دلالته . إذ لا يعقل أن يطلب الخان بركة من عساكره ذلك إلا إذا كانت العلاقات طيبة بين السلطان بيبرس والخان بركة . وحول إسلام الخان بركة ذكر العينى أنه أسلم على

يد أحد تلامذه الشيخ الباخرزى الذى إتخذ من بخارى مقرًا له ، وقد أورد ذلك فى عام ٦٥٢ هـ/١٢٥٤م ، وقال أيضًا إنه عندمـا ملـك الخان بركـة البـلاد " أسـلم وحسن إسلامه "(١٧) .

ولعل فى ذلك إشارات واضحة إلى إسلام الخان بركة ، ولكن إعلام الظاهر بيبرس بإسلام الخان بركة جاء بعد ذلك . فقد ذكر العينى أنـه فـى عـام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م وصلت رسل بركة خان مخبرين بإسلامه وعلى أيديهم كتاب منه يتضمـن ذكر من أسلم أيضًا من بيوت التتار(١٨) .وعلى ذلك يمكن القول أن إسلام الخـان بركة كان قبل عام ١٢٦٢م ، وأن السلطان بيبرس قد تلقاه بصورة رسمية فى عـام ١٢٦٢ م .

وحـول العلاقـات بـين مغـول فـارس ومغـول القفجـاق يهمنـا فـى هـذه الصفحات التعرض للطرق التى تربط بين الطرفـين . ومـن المعـروف أنـه لا يوجـد طريق بين الدولتين إلا طريق بحر قزوين . وليس لدى المغـول قـوة بحريـة فـى تلـك المرحلة . أما الطريق البرى فيمر من بلاد فارس إلى أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) وآسيا الصغرى حيث دولة سـلاجقة الـروم ، وأخـيرًا الامبراطوريـة البيزنطيـة التـى قامت فى المنفى وإتخذت من مدينة نيقية عاصمة لها ، والدولة اللاتينية التـى أقامهـا الصليبيون فى القسطنطينية على أنقاض الامبراطورية البيزنطية .

وفيمـا يتعلق بدولتـى أرمينيـة والكـرج فقـد خضعتـا للخـان هولاكـو ، واشتركت قوات الدولتـين فـى معـارك المغـول ضـد المسـلمين ، فـى معركـة عين جـالوت وغيرهـا مـن المعـارك ، خاصـة التـى دارت فـى أعـالى بـلاد بـلاد الشـام والفرات. كذلك كانت دولة سـلاجقة الـروم فـى طاعـة هولاكـو . ويذكـر ابـن العبرى أن هولاكو أرسل قبل معركة عين جالوت فى طلـب السـلطان عـز الديـن وأخيه ركن الدين ليذهبا إلى خدمتـه فأطاعـاه . وطلـب مـن الأخويـن بـأن يتـولى عزالدين من مدينة قيصرية فى آسيا الصغرى إلى تخوم أرمينيـة ، وركـن الديـن مـن

مدينة أقسرا حتى ساحل البحر بحدود الامبراطورية البيزنطية .. وعاد الأخوان مسرورين وأتخذ ركن الدين مدينة سبسطية عاصمة له ، وأقام عز الدين فى قونية ، ووضع هولاكو قوات مغولية لترابط فى أراضى سلاجقة الروم(١٩) .

وعلى هذه الصورة لم يتبق فى آسيا الصغرى خارج سلطان هولاكو سوى الامبراطورية البيزنطية فى نيقية ، وعلى الطرف الآخر القسطنطنية حيث كان اللاتين يحكمون بقية الأراضى البيزنطية بعد ما سقطت فى أيديهم منذ عام ١٢٠٤م على أيدى قوات الحملة الصليبية الرابعة .

* * *

وقد استفاد الظاهر بيبرس من الخلافات التى وقعت بين مغول فارس ومغول القفجاق ، حتى أنه يمكن القول بأن فكرة التقارب بين مغول القفجاق ودولة المماليك ظهرت فى تلك المرحلة . ولكن مثل هذا التقارب لم يكن وضعه على أرض الواقع بين الطرفين لأن الطريق البرى بين بلاد الشام ومغول القفجاق تقطعه الدول المتحالفة مع مغول فارس . هذا إلى أن الطريق البحرى عبر بحر مرمرة كان يتحكم فيه اللاتين الذين يحكمون فى القسطنطينة . ولكن الظروف هى التى خدمت هذه القضية ، ففى عام ١٢٦١ م نجح الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaiologos (١٢٥٨ - ١٢٨٢م) فى القضاء على امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الحاجز البحرى الوحيد بين دولة القفجاق ودولة المماليك هو بحر مرمرة الذى يقع تحت سلطان الامبراطورية البيزنطية .

والواقع أن العلاقات بين الظاهر بيبرس والامبراطور ميخائيل أصبحت طيبة منذ عام ٦٦٠هـ - ١٢٦١م على الأقل . وهناك العديد من الأمثلة على حسن العلاقة بين الطرفين ، ومن ذلك أنه فى عام ١٢٦١م وصلت كتب الامبراطور ميخائيل " وهو يقسم أنه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة ، ساعدت بكل ما تقدر سلطنتى عليه " . وقد رد السلطان عليه وأرسل إليه هدية " منها الزرافات وجماعة من التتار الأسارى بخيولهم التترية وعدتهم "(٢٠) .

ويتضح من النصوص أن هذه الأحداث وقعت قبل إنتقال الامبراطور من مدينة نيقية إلى القسطنطينية ، فقد ذكرت المصادر أن الأمير فارس الدين أقوش المسعودى كان قد توجه رسولاً إلى الامبراطور ميخائيل الذى طلب من السلطان بيبرس أن يرسل إليه بطرقا للنصارى الملكانيين ، فعين السلطان الرشيد الكحال لذلك ، وأرسله فى صحبة الأمير فارس الدين ١٢٦٠م . فأكرمه الامبراطور وأكرم من فى صحبته من الأساقفة . وتصادف وصول هذه الجماعة من قبل السلطان بيبرس مع فتح الامبراطور للقسطنطينية ، واصطحب الامبراطور السفارة المصرية لمشاهدة المدينة ، ثم عبروا على مكان به مسجد يبدو أنه مسجد أبو أيوب الأنصارى - فأبقى الامبراطور عليه ليكون ثوابه للسلطان(٢١) . وهكذا غدا الطريق مفتوحًا أمام حسن العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق ، مما جعل إقامة تحالف بين الدولتين أمرًا يسهل تحقيقه .

والواقع أن الرسل والمراسلات نشطت بين الطرفين . وهناك العديد من الأمثلة على ذلك(٢٢) . والذى يعنينا فى هذا البحث هو ما سجل عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م عن وصول رسل من الامبراطور البيزنطى ، ورسل سلطان سلاجقة الروم ، ورسل الخان بركة إلى أبواب سلطنة المماليك . وهذا كله يؤكد حسن علاقة الظاهر بيبرس بهذه الدول وحكامها ، وما ترتب عليها من آثار فى العلاقات بين مغول فارس ومغول القفجاق .

وسوف نركز فى هذه السطور على الكتب التى أرسلها الخان بركه إلى السلطان ، وقد ورد بها " السلام والشكر وطلب الأنجاد على هلاون " هولاكو " والإعلام بما هو عليه من مخالفة شنكرخان " جنكيز خان " وشريعة أهله ، وأن كل ما فعله من اتلاف النفوس بطريق العدوان منه ، وأننى قد قمت أنا وأخوتى الأربعة قربة من سائر الجهات لإقامة منارة الإسلام وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة ، وذكر الله والآذان والقراءة والصلاة ، وأخذ ثأر الأئمة والأمة".

ثم التمس الخان بركه من السلطان بيبرس " إنفاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك الطريق على هلاون ، ويوصى على السلطان عز الدين [سلطان سلاجقة الروم] ويستمد مساعدته "(٢٣) .

ويتضح مما سبق عدة أمور أهمها ، أن الحرب كانت قائمة بين مغول فارس ومغول القفجاق ، وأن هناك ترابط وتفاهم واتفاق تام بين زعماء مغول القفجاق المسلمين لمحاربة هولاكو فى جميع الجبهات لرفع راية الإسلام . والأمر الثانى هو طلب الخان بركه إقامة تحالف عسكرى بين المماليك فى مصر والشام ومغول القفجان يتم بموجبه قيام الجيش المملوكى بقطع الطريق على قوات مغول فارس فى جهة الفرات ، وهو الطريق الذى يتقدمون منه لمهاجمة مغول القفجاق . والأمر الثالث هو قيام السلطان بيبرس بالتوسط بين الخان بركه وبين عز الدين الذى يحكم بلاد سلاجقة الروم مع أخيه ركن الدين(٢٤) ، لأن دولة سلاجقة الروم كانت خاضعة للخان هولاكو وبها حاميات من مغول فارس(٢٥) ، وإذا ما أنضم سلاجقة الروم إلى جانب الخان بركه ضد هولاكو يكون ذلك فى مصلحة دولة مغول القفجاق ودولة المماليك جميعًا .

وكان أن أكرم السلطان بيبرس سفراء الخان بركه ، وأعادهم ومعهم رسل من قبله محملين بالهدايا . يضاف إلى ذلك أن بيبرس طلب أن يُدعى للخان بركه بعد الدعاء له فى مساجد مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقدس الشريف . وأرسل السلطان عُمرة إلى مكة نيابة عن الخان بركه(٢٦) . وعلى أية حال ، فالعداء بين بيبرس وهولاكو قائم ، والعداء بين الخان بركه وهولاكو قائم ، كما أن الظاهر بيبرس يرجع أصله إلى بلاد القفجاق وهى بلاد الخان بركه(٢٧) .

ولم يلبث الحلف الذى تم بين بركه والظاهر بيبرس إن دخل حيز التنفيذ ، ففى جمادى الأولى من عام ٦٦٢هـ / مارس ١٢٦٤م وصل إلى السلطان بيبرس فى مصر جماعة من عربان خفاجه ، وذكروا أنهم يغيرون على التتار ، وإن غاراتهم تصل إلى أبواب بغداد والبصرة ، كما أخبروا السلطان بأخبار مدينة شيراز، وقد أكرمهم السلطان وأنعم عليهم(٢٨) .

كذلك اهتم السلطان بيبرس بمعابر الفرات التى تؤدى إلى بلاد الشام ، فطلب من نائب حلب أن يتوجه إلى هذه المناطق حيث نهر الساجور ، ويقيم بمن معه من عسكر حلب ويحفظ معابر الفرات لئلا يعبرها أحد من التتار قاصدًا الشام(٢٩) .

واستهدفت سياسة بيبرس تدمير المناطق إلى يلجأ إليها مغول فارس إذا ما قدموا إلى حلب سواء للإغارة أو لشق طريقهم إلى بلاد القفجاق . من ذلك أنه كتب إلى النواب بحلب بإحراق الأعشاب ، كما سير جماعة إلى مدينة آمد ومواضع الأعشاب التى اعتادت قوات مغول فارس نزولها إذا ما وصلوا إلى حلب، وقد تم إحراق هذه الأعشاب لمسافة مسيرة عشرة أيام إلى أن صارت رمادًا ، وتم ذلك أيضًا فى أعشاب مدينة خلاط(٣٠) .

ومن ناحية أخرى فإن الحرب بين بركة وهولاكو لم تتوقف كما تطالعنا النصوص ، فقد ورد أن قوات بركه انتصرت على قوات هولاكو عدة مرات فى البر والبحر(٣١) . ولعل المقصود هنا بكلمة البحر نهر الفرات . وقد أدى ذلك إلى توقف التجارة فى تلك المناطق وتعرض العديد من التجار للنهب والقتل . وكان فى ذلك فرصة طيبة لدولة المماليك التى تسيطر على مياه شرق البحر المتوسط(٣٤) . ويتضح من ذلك أن تحالف الخان بركه مع الظاهر بيبرس ضد هولاكو قد نجح تمامًا ، وأن الخان بركه كان بعيد النظر عندما تحالف مع الدولة المملوكية ، هذا التحالف الذى عاد على المماليك ومغول القفجاق بفوائد كثيرة .

وفى تلك الأثناء ، ظل السلطان الظاهر بيبرس يراقب حركات مغول فارس " محترزًا من مكائدهم ، أخذا بالحزم فى أمورهم ، وقصاده لا تنقطع من بغداد وخلاط وغيرهما من بلاد الشرق ... " وكان يبعث بالكشافة – أى الجواسيس – لاستطلاع أمورهم" وأمسك من وسط التتار ناسًا أخذ الأخبار منهم..."(٣٢).

أما عن العلاقات بين الخان بركة والظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل فقد ظلت طيبة ، ولكن صفو العلاقات بين الخان والإمبراطور تعكر لبعض الوقت، وذلك بسبب اعتداء قوات مغول القفجاق على الأرضي البيزنطية . وقد أدى ذلك إلى منع الإمبراطور لرسل الظاهر بيبرس من التوجه إلى بلاد القفجاق مما أثار غضب الظاهر بيبرس ، واعتبر أن الإمبراطور قد نكث بوعوده ، " فأخرج أيمان الأشكرى (الإمبراطور ميخائيل) وقال قد نكث بإمساك رسلى ومال إلى جهة هولاكو " ، وأرسل بيبرس إلى الإمبراطور يقول : " إن كان إمساك رسلى فساد حالك مع الملك بركة ، وكون عساكره أفسدت فى بلادك ، فأنا أصلح الحال بينك وبينه ، كما كتب إلى خان بركة بذلك أيضًا "(٣٣) .

ويبدو أن السبب الرئيسى لتوتر العلاقات بين الخان والإمبراطور يرجع إلى التقارب الذى تم بين الإمبراطور وهولاكو ، فقد رأى الأخير أن التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية فى غاية الأهمية لضرب مغول القفجاق وإيجاد نوع من التوازن السياسى والعسكرى فى آسيا الصغرى . لذلك أرسل هولاكو إلى الإمبراطور يطالب بزوجة له بعد موت زوجته النسطورية طقز خاتون(٣٤) . وقد وافق الإمبراطور على طلبه وشرع فى إرسال ابنة غير شرعية له هى ماريا Marie ، وقبل أن تصل ماريا إلى بلاط المغول فى فارس مات هولاكو، فتزوجت من ابنه أبغا (١٢٦٥ - ١٢٨١م) ، وعرفت فى البلاط المغولى باسم دسبينا خاتون Despina Khatun . وقد وجد المسيحيون فيها حامية جديدة للمسيحية بعد رحيل طقز خاتون ، وأجلها المسيحيون والمغول لما اشتهرت به من حب الخير والحكمة(٣٥) .

وفى تلك الأثناء وصل رسل الظاهر بيبرس الذين أوفدهم للتوسط فى الصلح بين الخان بركة والإمبراطور ، إلى العاصمة البيزنطية ، وعادوا ومعهم كتاب من الإمبراطور يتضمن رجوعه عن رأيه فى معاداة مغول القفجاق ، وأنه

أقسم على ذلك . ويضيف الإمبراطور أن سبب تأخره فى الرد على السلطان هو وفاة الخان بركه . كما طلب استمرار الصلح مع الظاهر بيبرس ، وسأله أيضًا الدخول فى الصلح مع أبغا بن هولاكو ، بعد أن أقر الصلح مع بيت بركه . وقد رد الظاهر بيبرس على الإمبراطور بالموافقة على طلب الصلح ، عدا الصلح مع أبغا وقال : "وأما أبغا فماله إلا السيف ، وهو مطلوب منا بثأر المسلمين"(٣٦) .

ويرى البعض أن من أسباب التوتر بين هولاكو والإمبراطور والخان بركه ، ما حدث عام ١٢٦٢م ، ففى أواخر صيف هذا العام تأهب عز الدين سلطان قونيه للقدوم لخدمة هولاكو لأن السفراء كان يلحون عليه فى ذلك . ولما ضرب عز الدين خيامه خارج مدينة قونيه استعدادًا للرحيل جاء من يخبره أن أخاه ركن الدين والقائد المغولى فى تلك النواحى سوف يقيدونه بالسلاسل ويذهبا به إلى ملك الملوك هولاكو . ولما سمع عز الدين خاف وترك خيامه وأخذ أهل بيته واتجه إلى الإمبراطور ميخائيل(٣٧) . ويضيف آخرون أن السبب الرئيسى يرجع إلى أن عز الدين سلطان قونيه الذى أقامه هولاكو أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يذكر فيها أنه تنازل له عن نصف بلاده . وقد وافق الظاهر بيبرس وشرع فى تجهيز نجدة للسلطان عز الدين . ثم وصل كتاب آخر من عز الدين إلى الظاهر بيبرس يخبره فيه أن قوات هولاكو علمت بما تم الاتفاق عليه بينه وبين سلطان مصر ، فخاف وولى هاربًا(٣٨) .

وإزاء هذا التوتر الذى ساد آسيا الصغرى وأعالى الشام وبلاد القفجاق لم يكن أمام الإمبراطور البيزنطى وهو الدبلوماسى البارع إلا التصرف بسرعة للحفاظ على عرش الإمبراطورية الذى استعاده بقوة السلاح وسط محيط هائل من العداء شمل كل دول المنطقة التى تمتد من بلاد فارس شرقًا حتى أوربا غربًا . لذلك بدأ الإمبراطور فى تغيير سياسته وعمل على مزيد من التقارب مع مغول القفجاق وعرض زواج إبنته من الأمير نوغاى Nogai الوزير الأول فى دولة مغول القفجاق وقائد قواتها(٣٩) .

ومما لا شك فيه أن هذا التصرف أغضب هولاكو علاوة على غضبه من إيواء الإمبراطور للسلطان عز الدين . ويبدو أن الإمبراطور أراد إرضاء الخان هولاكو فعرض عليه الزواج من إحدى بناته فوافق هولاكو على ذلك ، ومن الواضح أيضًا أن السلطان عز الدين خاف من غدر الإمبراطور به فأرسل إلى الخان بركه يخبره سرًا بذلك ، فعرض الخان بركه استضافته فسافر عز الدين متخفيا إليه(٤٠) ، وقد منحه حكم منطقة القرم(٤١) .

والحقيقة أن الإمبراطورية البيزنطية كانت فى وضع حرج للغاية منذ استعادة الإمبراطور ميخائيل لعرش الإمبراطورية . ذلك أنه ظهرت فى غرب أوربا حركة لاستعادة الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وساند هذه الفكرة البابا أوربان الرابع Urban (١٢٦١ - ١٢٦٤م) الذى وعد فى عام ١٢٦٢م بتقديم عرش صقلية وجنوب إيطاليا إلى شارل أف أنجو Charles of Anjou (١٢٦٦-١٢٨٥م) أخ الملك لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٠م) . وقد ناصب شارل الإمبراطورية البيزنطية العداء لإرضاء البابوية التى أخذت تطالب الإمبراطور ميخائيل بتنفيذ وعده وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية(٤٢) .

وفى الوقت نفسه كان هولاكو يسعى للتحالف مع الغرب الأوربى لضرب دولة المماليك واستعادة القدس ، وفى هذا ما يزعج الظاهر بيبرس . وكان بيبرس يعلم أن البيزنطيين ليس لديهم رغبة فى إتمام مثل هذا التحالف الذى سيعرضهم للخطر .كما أن الغرب الأوربى نادى بحملة صليبية فى عامى ١٢٦٣ - ١٢٦٤م ضد مغول القفجاق لقيامهم بغزو بولندا . وكان الأرمن والمسيحيون النساطرة يرون أن المغول هم إرادة الله لتدمير القوى الإسلامية ، وقد قام النساطرة الذين كانوا فى دولة مغول فارس بجهود جبارة من أجل إتمام هذا التحالف(٤٣) .

وفى حوالى عام ١٢٦٣م أرسل هولاكو أول سفارة إلى البابا ، وكانت هذه السفارة بداية لسلسلة من الاتصالات الدبلوماسية المتبادلة بين خانات فارس

والغرب الأوربى استمرت حوالى أربعين عامًا حتى دخل مغول فارس فى الديانة الإسلامية(٤٤) .

ومما لا شك فيه أن أنباء تقارب الغرب الأوربى مع هولاكو أزعج منطقة الشرق الأدنى الإسلامى ، خاصة أن المغول اقترحوا هجومًا مغوليا على مصر ، وأنهم سوف يقدمون القدس للصليبيين ، هذا إلى أن تقدم القوات الصليبية كان فيه إزعاج كبير للإمبراطورية البيزنطية التى باتت تخشى على نفسها تكرار الحملة الصليبية الرابعة . ومع موت الخان هولاكو فى عام ١٢٦٥م ، والخان بركه فى العام التالى ١٢٦٦م ، ظهر شبه تحالف بين مغول القفجاق ودولة المماليك والإمبراطورية البيزنطية من جانب ضد خانات فارس والإمارات الصليبية والغرب الأوربى من جانب الآخر ، رغم التصاهر الذى تم بين الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن وبين أبغا خان مغول فارس .

أما عن التحالف الثلاثى فقد استهدف شق صفوف الغرب الغرب الأوربى بعامة وبين جنوة والبندقية بخاصة ، حتى لا يدخل التحالف بين أوربا وبين مغول فارس حيز التنفيذ ، لأن هذا التحالف سوف يدخل منطقة الشرق الأدنى فى صراع يعود بالضرر على الأطراف كلها . وخطط ميخائيل باليولوج لضرب الترابط الأوربى رغم أنه كان واهيًا ، عن طريق بذر الشقاق بين جنوة والبندقية ، فى ضوء ما كان بينهما من صراع قديم ومتكرر ، خاصة أن هذا الصراع قد تجدد فى عام ١٢٦٥م فى مدينة عكا الصليبية ، وهى الحرب المعروفة باسم حرب القديس سابا Saint sabas وقد استمرت هذه الحرب لأكثر من خمس سنوات هزم خلالها الجنوية فى معركة بحرية عام ١٢٥٨م ، ولم يتم الصلح بينهما رغم توسط البابوية حتى عام ١٢٦١م(٤٥) .

وقد استغل الإمبراطور هذه الفرصة ، ووجد أن البندقية تعتبر دعامة قوية للصليبيين ، وأنها هى التى قادت الحملة الصليبية الرابعة وأسقطت الإمبراطورية ،

لذلك بدأ فى التقرب إلى دولة جنوة المنافسة الأولى لدولة البندقية ، وعقد معها معاهدة فى الثالث عشر من مارس ١٢٦١م عرفت باسم معاهدة نيمفايون Nymphaion نسبة إلي المنتجع الذى كان الإمبراطور يقضى فيه فصل الشتاء . وبموجب هذه المعاهدة تم التحالف بين جنوة وبيزنطة ضد البندقية ، ووضعت جنوة خمسين سفينة تحت تصرف الإمبراطورية لمقاومة سفن البندقية ، كما منحت جنوة كل الامتيازات التجارية التى كانت ممنوحة للبنادقة من قبل ، وأصبح للتجار الجنويين حق التجارة المعفاة من الضرائب فى كل موانئ الإمبراطورية وفى البحر الأسود أيضًا . وقد تعاملت جنوة بالذات فى تجارة الرقيق والسلع الأخرى مع مصر ومغول القفجاق(٤٦) .

ورغم المتاعب اللاحقة لهذه الاتفاقية بين البنادقة والإمبراطور ميخائيل الذى أتهم البنادقة بالتآمر عليه مع ما نفرد Manfred ملك صقلية وجنوب إيطاليا ١٢٥٨- ١٢٦٦م ، فإن سفن الجنويين عززت وجودها فى البحر الأسود . وسارت هذه السفن بصفة دائمة عبر مضيقى البسفور والدردنيل لتصل إلى موانى الشام ومصر . ومن خلال هذا الاتصال فإن ثروة مغول القفجاق ازدهرت رغم محاصرة مغول فارس للطريق البرى . ويتضح من ذلك أن هذا الاتصال التجارى لم يكن يتم طالما بقيت القسطنطينية فى أيدى اللاتين(٤٧) .

ولم يسلم مغول فارس من تهديد أعدائهم المنافسين ، فقد استمرت الحرب بين مغول فارس ومغول القفجاق بعد موت هولاكو عام١٢٦٥م والخان بركه عام ١٢٦٦م . ورغم أن مغول فارس نجحوا فى الحفاظ على أراضيهم إلا أنهم لم يتمكنوا من التوسع بعد ذلك فى جهة الغرب بعامة ، كما أنهم فشلوا تمامًا فى السيطرة على بلاد الشام بخاصة .

والواقع أن مغول فارس كانوا يحاربون على جبهتين ، جبهة مغول القفجاق وجبهة بلاد الشام . وكان خانات مغول فارس يأملون فى التحالف مع الغرب

الأوربى ولذا وأطلقوا العديد من السفارات إلى البابوية وإلى حكام أوربا من أجل إقامة هذا التحالف . ولكن أوربا التى كانت متمثلة فى إنجلترا وفرنسا بعد ضعف الإمبراطورية الرومانية المقدسة بوفاة الإمبراطور فريدريك الثانى Fredrick II عام ١٢٥٠م كانت تهتم بمشاكلها الداخلية أكثر من الاهتمام بالقضية الصليبية والتحالف مع المغول . هذا إلى أن أوربا لم تنس هجوم المغول الوحشى عليها وكانت تخاف من تقدم المغول مرة أخرى . يضاف إلى ذلك أن أوربا سبق إن توهمت أن مغول فارس سوف يتحولون إلى الديانة المسيحية ولكن هذا لم يحدث .

ومن جانب آخر تطلع شارل أف أنجو إلى قيادة حملة صليبية ضد القسطنطينية وإسقاط الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى . لذلك لم يكن لدى شارل النية فى الصراع مع الظاهر بيبرس أو مهاجمة أملاكه فى مصر أو الشام . ويرى البعض أن شارل أقنع أخاه الملك لويس التاسع بأن يتوجه بحملته الصليبية إلى تونس فى عام ١٢٧٠م ، وليس إلى مصر كما حدث فى عام ١٢٥٠م .

وكان للإمبراطور ميخائيل باليولوج أهمية عظمى فى الصراع الذى دار بين مغول فارس ومغول الفجاق ، فقد كان كل ما يعنيه هو استمراره على عرش الإمبراطورية ، كما إن الإمبراطورية لم تنس ما فعله الغرب الأوربى عندما أسقطوا الإمبراطورية عام ١٢٠٤م ، ولذا فإنه كان عدوا لدودا للغرب الأوربى ، وكان ذلك كافيا للظاهر بيبرس ، كما أن تحالف الإمبراطور مع مغول القفجاق كان سندا قويا له .

وحقيقة الأمر أن مغول فارس كان بوسعهم الانتقام لهزيمتهم فى معركة عين جالوت والانتصار على دولة المماليك الناشئة فى مصر ، وذلك إذا كانت دولة المغول قد استمرت موحدة ، وإذا كانت الحكومة اللاتينية قد استمرت مسيطرة على القسطنطينية . ولكن طرد الإمبراطور اللاتينى بلدوين الثانى Baldwin II عام

١٢٦١م سهل كثيرًا من مهمة السلطان بيبرس فى الدفاع عن الشام ومصر ضد مغول فارس .

* * *

وفى ختام هذا البحث يود الباحث أن يؤكد حقيقة تاريخيه ، وهى إن المعارك لا تقاس بوقائعها وإنما تقاس بنتائجها . لقد كانت معركة عين جالوت صغيرة فى أحداثها ولكنها كبيرة فى نتائجها على إمبراطورية المغول بعامة وخانات مغول فارس ومغول القفجاق بخاصة ، وعلى دولة الكرج وأرمينية وسلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية ، ثم على الدولة المملوكية وعلى شمال أفريقية حيث قامت الدولة الحفصية فى تونس . وتطالعنا المصادر الأراجونية بأن السفارات تبودلت بين مغول فارس والملك جيمس الثانى James II ملك أراجون (١٢١٣ - ١٢٧٦م) وأن أسطول أرغوان أبحر إلى الشرق فى ما يشبه حمله صليبية للتحالف مع المغول ومحاربة المسلمين(٤٨) .

وهكذا يبدو فى ضوء النصوص أن معركة عين جالوت كانت لها نتائج على دول حوض البحر المتوسط بأكمله ، بل أنها ربما تجاوزت ذلك إلى عمق أوربا الشرقية والغربية .

الهوامش

(١) الهمذانى ، رشيد الدين : جامع التواريخ – دار النهضة العربية – لبنان – ١٩٨٣، ص ١٥٠ – ١٥٢ .

(٢) ابن العبرى : تاريخ الزمان – دار المشرق – بيروت – ١٩٨٦ – ص٣١٦ .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر – ٤أجزاء – بيروت (د.ت) جـ٣ ، ص٢٠٤ – ٢٠٥ .

(٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٣٧ .

(٥) أبو الفدا : المصدر السابق – جـ٣ ، ص٢٠٥ .

(6) Sambat, La Chronique, Paris 1980, p.106.

(٧) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٣٧.

(٨) أبو الفدا : المصدر السابق – جـ٣ – ص٢٠٥ ، ابن العبرى : المصدر السابق ، ص٣١٧ ، ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص٦٦ .

(٩) الهمذانى : المصدر السابق – ص١٦ ، ٩٦ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ٢٥٢.

(10) John Kinamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, New York. 1976, p.65, Marco Polo, The Travels, Penguin, p.335 .

(١١) قسطنطين برونيروجنيتوس . إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة محمود سعيد عمران – دار النهضة العربية – بيروت – ١٩٨٠ ، ص٥٣ – ٥٥ .

أبو الفدا : المصدر السابق – جـ٣ ، ص١٢٨ ، العينى : عقد الجمان – دولة سلاطين المماليك ، ص٧٦ – ابن سباط ، تاريخ ابن سباط – طرابلس ١٩٩٣ – جـ٢ ، ص٢٧٦ ، ٥٨٥ .

الهمذانى : المصدر السابق ، ص٢٨ ، ٣٢ .

(١٢) العينى : المصدر السابق – ص١٠٨ – ١٠٩ .

(١٣) أبو الحسن : المصدر السابق – جـ٢ – ص٢٢٢ .

(١٤) الهمذانى : المصدر السابق – ص١٢٥ ، بيروت المنصورى : التحفة المملوكية – الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٧ – ص٣٦ .

(١٥) أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٩٢ – ١٩٣ .

(١٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٣٧ .

(١٧) العينى : المصدر السابق - ص٩٠ - ٩١ .

(١٨) العينى : المصدر السابق ص٣٦٠ .

(١٩) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣١٥ - ٣٢٥ .

(٢٠) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص٨٨ .

(٢١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٢٩ .

(٢٢) أبو المحاسن : المصدر السابق - جـ٧ -ص٢٢٢ .

(٢٣) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٧٠ - ١٧١ .

(٢٤) أبو المحاسن : المصادر السابق - جـ٧ - ص٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢٥) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٩٢ .

(٢٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٧٤ .

(٢٧) أبو المحاسن : المصدر السابق - جـ ٧ - ص٩٤ .

(٢٨) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٩٤ .

(٢٩) أبو المحاسن : المصدر السابق - ص١٩٤ .

(٣٠) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٣٦ .

(٣١) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٤٩ .

(32) Sanuders, Muslim and Mongols, Canterbury 1977, p.73.

(٣٣) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص١٩٥ - ١٩٦ .

(٣٤) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣٥) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣١٤ - ٣١٥ - محمود سعيد عمران - المغول وأوربا - دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦ - ص٦٥ .

(٣٦) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق - ص٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣٧) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣٢٢ .

(٣٨) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص١٢٥ - ١٢٨ .

(39) Saunders, op. cit., p.73 .

(٤٠) ابن العبرى : المصدر السابق - ص٣٢٤ .

(٤١) الهمذانى : المصدر السابق - ص٢٠٠ .

(42) Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge, 1958, pp. 68-9, 138-40

(٤٣) محمود سعيد عمران : المرجع السابق - ص٢٣٠ وما بعدها .

(٤٤) محمود سعيد عمران : المرجع السابق - ص٢٥٥ وما بعدها .

(45) Saunders, op. cit., p. 74 .

(46) Nicol, Donald. The last Centuries of Byzantium 1261 - 1453, London 1972, p.38 .

(47) Saunders, op. cit., pp. 74 - 5 .

(48) James of Aragon, The Chronicle, London 1883, II, pp. 578 ff

حياة التسلية والترفيه فى المجتمع الأندلسى

د. سعد عبد الله البشرى*

دراسة الحياة الاجتماعية فى أى قطر من أقطار الدولة الإسلامية من الدراسات التى ينبغى العناية بها وتسليط الضوء على جوانبها المختلفة ، إذ فيها ما يعين على كشف الكثير من الجوانب الخفية والنواحى الغامضة فى التاريخ الإسلامى ، ويقدّم تفسيرات مهمة لعدد كبير من وقائع وأحداث التاريخ . وانطلاقًا من هذه الحقيقة رغبت فى دراسة جانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية فى الأندلس، هو ما يتصل بحياة التسلية والترفيه فى المجتمع الأندلسى، وركزت فى هذا البحث على ما يتعلق بوسائل التسلية التى كان يمارسها الأندلسيون ويجدون فيها المتعة والترويح عن النفس . وكان اهتمام الباحث منصبًا أكثر على ألوان الألعاب والرياضيات المسلية وبعض الوسائل الأخرى البريئة . ولم نتعرض خلال البحث إلى وسائل أخرى ندرك أنها اتصفت بشئ من ألوان المجون أو الابتذال ، مثل مجالس الطرب والغناء . ونرجو من خلال هذه الدراسة المتواضعة أن نكون قد ألقينا بعض الضوء على جانب له أهميته فى تاريخ المجتمع الأندلسى والكشف عن بعض جوانبه التى تلامس مشاعر الناس وتمس أحاسيسهم، وكما أن هناك تاريخ لآلامهم فهناك صفحات باسمة فى حياتهم .

الألعاب :

عرف الأندلسيون فى تاريخهم عددًا من الألعاب التى مارسوها بقصد التسلية والترويح عن النفس ، وكان البعض يمارس لعبة أو ألعابًا مختلفة بدافع الارتزاق والحصول على المال .

---

* أستاذ مشارك التاريخ الإسلامى - جامعة أم القرى .

وتجدر الإشارة إلى تنوع الألعاب ، فمنها ما يمكن أن نطلق عليه : الألعاب الرياضية كسباق الخيل ، والرماية ، ورياضة الصيد والقنص ، ومصارعة الثيران . ويلحق بذلك لاعبو الحركات الغريبة أو ما عرف عند الأندلسيين بـ (العجائبى)، وهو ما يعرف اليوم بالبهلوان ، الذى يقوم بألعاب تتطلب المهارة فى الحركة وإثارة إعجاب النظارة . وهناك أنواع من الألعاب الأخرى كلعبة خيال الظل ، ولعبة الشطرنج وغيرهما . ومن أنواع الألعاب ما يستخدم فيه الحيوان ، كمصارعة الإنسان للحيوان ، أو صراع الحيوانات بعضها مع بعض ، أو استخدام الحيوان لتأدية حركات معينة كألعاب القرّادين .

أما عن ألعاب الرياضة والفروسية فإن هذا اللون من الألعاب حظى بعناية واهتمام الأندلسيين . وليس هذا بدعًا فى سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم فقد ورثوا الولع بهذا الصنف من الألعاب عن آبائهم وأجدادهم ، إذ هى من الرياضات التى شغف بها العرب منذ جاهليتهم(١) وزادها الإسلام عناية ، لما فى ذلك من مظاهر الشجاعة والرجولة والفروسية . فسباق الخيل لون من ألوان الفروسية نال عناية الأندلسيين وولعوا به حكامًا ورعايا ، فكانت رياضة سباق الخيل من الرياضات التى يشاهدها أمراء بنى أمية ويشجعون الناس على ممارستها ، ويغدقون الجوائز على الفائزين فى حلبات السباق . كما كان يصاحب هذه السباقات عروض أخرى من رياضيات الفروسية كاللعب بالسيوف والرماح . وكان يوم المهرجان الذى يحتفل به الأندلسيون ، من الأيام التى تشهد سباق الخيل بصورة واسعة . وقد تحدث عنها الشعراء(٢) ومما عمق الاهتمام بهذه الرياضة روح الجهاد ومجابهة مخاطر القوى النصرانية فى شمال الأندلس وحماسة المسلمين إلى النفير وتلبية داعى الجهاد ، ولا يتم ذلك إلاّ لمن توفرت فيه مؤهلات الفروسية والقدرة البارعة على الكرّ والفرّ .

وكان أهل الحسبة والمشتغلون بالتأديب يعمدون إلى تشجيع الناس على تعلم الرماية ، والسباحة ، وألعاب الفروسية ، وذلك بدلاً من ممارسة غير النافع من ألوان اللهو(٣) .

وكان الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) حريصًا على مشاهدة ألعاب الفروسية وسباق الخيل (حتى لظل أيام علته ... يتطلع على فرسان البرابر إذا تحركوا للعب ، شاخصًا إليهم معجبًا بهم ويقول لمن حوله : انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيلوهم فكأفنهم الذين عناهم الشاعر بقوله :

فكأنما ولدت قيامًا تحتهم وكأنهم وُلِدوا على صهواتها

ما أعجب انقيادها لهم . كأنها تفهم كلامهم ...(٤) .

يذكر ابن عذارى أن الناس فى قرطبة كانوا يخرجون لرؤية العساكر المتأهبة للغزو ، وحدث أن خرج الناس رجالاً ونساءً وأخذت طائفة من الناس تحاكى صفى القتال و تمثل أسلوب الكر والفر فى القتال(٥) . ويبدو أن هذه الظاهرة كانت معروفة لدى الأندلسيين وكانوا يمارسونها من باب الإعجاب بالفروسية وفنون القتال .

كذلك كان الموحدون يمارسون ألعاب الفروسية على ظهور الخيل . ويصف ابن صاحب الصلاة إحدى احتفالاتهم التى شارك فيها الخليفة يعقوب المنصور سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥م فيقول (وتجاولت الخيل من فرسان العساكر بالجرى واللعب والدفاع بالحملات والكرات ، والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى أذان الظهر من اليوم المذكور ، حتى حمل الأمير بنفسه فى تلك الوقعات سرورًا فأظهر من ركوبه وفروسيته أمرًا عجيبًا)(٦) .

وعندما قدمت جموع العرب من أفريقية للانضمام لجيوش الموحدين على عهد الخليفة أبى يعقوب المنصور ، وذلك فى ربيع الثانى ٥٦٦هـ ١١٧٠م أعد لهم استقبالاً حافلاً . وللتعبير عن سروره بقدومهم طلب من عساكر العرب وعساكر الموحدين أن يحمل بعضهم على بعض (جريًا ولعبًا وفرحًا وطربًا . ورأى الحاضرون والنظار منهم عجبًا ودام ذلك اللعب والطرب ، والطبول تضرب إلى أن مضى أكثر النهار)(٧) .

وقد عرفت هذه الألعاب والسباقات وإظهار فنون الفروسية بحملات الخيل ، ولا تزال تجرى فى بلاد المغرب إلى يومنا هذا ، وخاصة عند الأفراح والمواسم(٨).

وأولى بنونصر ملوك غرناطة عنايتهم هذا الجانب ، وكانوا أنفسهم يمارسون سباق الخيل ، وألعاب الفروسية . وقد أثنى ابن الخطيب على السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج ٧٢٥ - ٧٣٣هـ فوصفه بقوله : (حلس ظهور الخيل ، أفرس من جال على صهوة ، لا تقع العين - وإن غصَّت الميادين - على أدرب بركض الجياد منه مغرمًا بالصيد ، عارفًا بسمات الشفار وشيات الخيل ...)(٩) .

وكان السلطان النصرى محمد الخامس (٧٥٥ - ٧٩٢هـ) ممن شغف بالجياد وسباقها . وكان يشهد حفلات السباق ، ويحتفى بالفائزين فيه ، وفى ذلك يقول وزيره أبو عبد الله بن زمرك :

لك الجياد إذا تجرى سوابقها ... فللرياح جياد ما تجاريها

إذا انبرت يوم سبق فى أعنتها ... ترى الروق طلاحًا لا تباريها(١٠)

وبلغ من اهتمام بنى نصر ورعاياهم بألعاب الفروسية وسباق الخيل أن جيرانهم من رعايا مملكتى أرغون وقشتالة كانوا يقصدون غرناطة للمشاركة فى ألعاب الفروسية(١١) .

واشتهر من رجال الدولة النصرية بالفروسية وألعابها المختلفة كإجادة الرماية والمبارزة : محمد بن أحمد بن قطبة الدوسى الذى وصفه ابن الخطيب - وكان أحد أصحابه - فقال : (ومناقبه يقصر عنها الكثير من أبناء جنسه ، كالفروسية والتجنّد والبسالة والرماية والسباحة والشطرنج ، متحمّد بحمل القنا مع البراعة ...)(١٢) .

ومن وسائل الترويح والتسلية [الصيد] ، وهو من ألوان الرياضات التى عرفها العرب قديمًا . ولما دخلوا الأندلس ورأوا ما بها من ألوان الحيوانات والطيور، زاد شغفهم بالصيد والقنص . وكان نهر الوادى الكبير الذى يقع عليه عدد من المدن الأندليسية منها قرطبة وأشبيلية ، من المواضع التى يخرج إليها الناس للنزهة والصيد .

وكان الصيد يتم بوسيلتين : (**الأولى**) بالبزاة (جمع بازى) والجوارح ويعرف البيزرة ويسمى صاحبها : بازيًا . و(**الثانية**) بالكلاب والفهود ويُسمى صاحبها : الكلاّب والفهّاد(١٣) .

وقد أعطى حكام وأمراء الدولة الأموية فى الأندلس هذه الرياضة المثيرة الكثير من اهتمامهم ، حتى أنهم خصصوا فى دولتهم خطة للبيزرة ، يتولاها بعض كبار رجال الدولة كالحاجب بدر بن أحمد وفطيس بن أصبع ، والفتى خوذر الصقلبى(١٤) وكان أشهر من تولاها على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر نجم بن طرفه(١٥) .

ونظرًا لما كانت تحظى به هذه الرياضة المسلية من اهتمام بنى أمية وشيوع ممارستها بين الأهالى ، قال الناس عن الأمير هشام الرضا عندما أصلح قنطرة قرطبة، وبالغ فى ذلك : (إنما بناها لتصيده ونزهته) فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة(١٦) .

ولم تكن هذه الرياضة حكرًا على الحكام فقط ، فهذا مطروح بن سليمان الأعرابى أحد الثائرين على الأمير هشام الرضا ، كان مولعًا بالصيد ، وقد لقى حتفه غدرًا فى إحدى متصيداته(١٧) .

وكان الملوك والأعيان يدربون صقورهم وجوارحهم على الصيد فى نواحى أشبونة ، وجبال شرق الأندلس وجزر البليار . وكان المسئولون عن الصيد بالبزاة والصقور والجوارح يولون مواسم الصيد اهتمامهم ، حيث تكثر فيها أنواع الطيور ومنها الغرانيق فى الوادى الكبير(١٨) ويبدو أن نهر الوادى الكبير كان من المواطن المفضلة لصيد أنواع الطيور والحيوانات ، وكان من الأماكن التى يخرج إليها الناس خاصة وعامة للنزهة والتصيد(١٩) .

ومن الطريف أن نشير إلى أن من أنواع الحيوان الذى شغف الناس بصيده حيوان (السمور) الذى يستخدم وبره فى الفراء الفاخر . ويذكر أحد الأطباء أنه حيوان يكون فى بحر الروم ولا يحتاج منه إلا إلى خصاه فيؤخذ وتقطع ويطلق(٢٠).

وفى مقامة للوزير أبى حفص عمر بن شهيد (حيًا فى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) يشير إلى حياة الصيد والطراد فيقول : " ثم رحلنا وتذكرنا الطّراد فمشيت الجياد ، وتواثبت آساد ، واستُعدّ بباز وكلاب فإذا بحر من بِرَكٍ يخرقه سفين من بُرك(١٢) ، وفى السيّور صقور إذا نظرت . وليوث إذا جُردّت . تنظر من أمثال الدنانير ، وتتخطف بأشباه المرهفة الذكور ، فأرسلناها إرسال سهام الأحداق إلى قلوب العشاق، فلم نر إلا ريشًا محلوجًا . ومنسرًا يُحسن توديجًا(٢٢) ".

ونجد نصوصًا متفرقة عن الصيد بالجوارح والحيوانات فى عصر ملوك الطوائف ، إذ كان هؤلاء ممن ولعوا بهذه الرياضة المسلية . وكان ولاتهم وعمالهم يتقربون إليهم بإهداء أنواع متميزة من الصقور والجوارح ، وبعض الحيوانات المدربة على الصيد . وفى أحيان أخرى يمنحها الحكام أو الملوك رجالاتهم

وأعوانهم . من ذلك إهداء ابن طاهر أمير مرسية المنصور بن محمد بن أبى عامر ملك بلنسية بعض الصقور المدربة وإهداء ابن المرغوى الأشبيلى للملك المعتمد بن عباد كلبة صيد وصفها فى شعر بقوله :

لم أر ملهى لذى اقتناص ومكسبًا مقنع الحريص

كمثل خطار ذات جيد أتلع فى صفرة القميص

كالقوس فى شكلها ولكن تنفذ كالسهم للقنيص

إن تخذت أنفها دليلاً دل على الكامن العويص(٢٣)

وللشاعر الأديب أبى العباس ابن حمدين القرطبى المتوفى (٥٢١هـ/ ١١٢٧م) وصف ممتع لأحد كلاب الصيد ومنها ما أورده شعرًا حيث يقول :

إذا عدا واشتد فى طلابه يكاد يخرج من إهابه

متقدًا كالنار فى التهابه لا يطعن الصيد بغيرنابه(٢٤)

ومن الآثار التى تدل على الولع بحياة الصيد بالحيوانات كالفهود فى القرن السادس الهجرى ، ما نجده منقوشًا على علبة محفوظة بمجموعة أو كتافيو ، هومبرج ، ويمثل النقش فارسًا يركب خلفه فهد(٢٥) . وكان محمد بن عبد الملك ابن سعيد المتوفى (٥٨٩هـ / ١١٩٣م) إذا ركب فى الصباح الباكر للصيد من داره الواقعة بجوار جامع غرناطة ، شوّش على المصلين صلاتهم بأصوات دوى الجلاجل بالبزاة ، ومناداة الصيادين ، ونباح الكلاب(٢٦) .

ولم تنقطع هواية الصيد فى القرون التالية ، فقد مارسها سلاطين بنى الأحمر ملوك غرناطة ، واشتهر منهم بذلك : السلطان محمد الرابع والسلطان محمد الخامس . وقد احتفظت الكتب التى أرخت لهم بمقطوعات شعرية تتضمن الإشارة إلى ذلك(٢٧) .

وكانت الحيوانات البرية كثيرة فى جبال شلير ، ومنها الدببة والغزلان ، إلى جانب ما حفلت به المناطق الغرناطية بأنواع الطيور والحجلان والبط والدراج والحمام البرى ، وكانوا يستخدمون لاصطيادها طيور الباز التى لقيت عناية واهتمام الغرناطيين(٢٨) .

وتجدر الإشارة إلى أن من بين كثير من القطع الأثرية التى حفظت من الضياع ، والتى تعود إلى تاريخ مسلمى الأندلس ، ما يحمل فى زخرفته ونقوشه ورسومه ما يدل على ولع الأندلسيين بالصيد ، سواء كان صيد الحيوانات كالغزلان والأيل أو صيد أنواع الطيور المختلفة(٢٩) .

المصارعة - والمبارزة - الصولجان - الكرة :

ومن الألعاب الرياضية التى مارسها الأندلسيون المصارعة والمبارزة ، وتوضح لنا بعض التحف الأندلسية التى سلمت من الضياع ، - ومنها علبة المغيرة بمتحف اللوفر - ما لقيته رياضة المصارعة من اهتمام ، إذ يصور نقشها مصارعين يمسك أحدهما بالآخر ويحاول أن يطرحه أرضًا . وفى تحفة فنية أخرى تنسب لعبد الملك بن المنصور العامرى ثلاثة نقوش ، ثلاث صور ، فى الأولى رجلان يركبان فيلين بينهما شجرة ، وقد تسلحا بترس وسيف ، وفى النقش الثانى يبدو فارسان يحاول أحدهما طعن آخر برمحه الطويل فيتلقاه الثانى بدرعه ويهم بطعنه بسيفه ، وفى النقش الثالث صورة فارسين يستعدان للمبارزة(٣٠) .

وكان كثير من الناس - وليس الأمر وقفًا على الفرسان وحدهم - يلعبون بالسيوف والرماح ، ويمارسون لعبة المبارزة والطعن بالرماح ، وما أشرنا إليه من الرسومات والنقوش فيه ما يؤكد ذلك .

كذلك من أنواع الرياضات المسلية التى عرفها الأندلسيون (لعبة الصولجان) ، وهى رياضة تمارس من فوق صهوات الخيل . وقد نقلها العرب عن

الفرس . والصولجان اسم العصا التى يُلعب بها ، هى المضرب التى تضرب بها الكرة ، وفى نهايتها ما يشبه رأس المطرقة مصنوع من الخشب . والكرة التى تستخدم فى رياضة الصوالجة كانت بحجم البرتقالة وتصنع من الجلد المضغوط ، ويتدافعها اللاعبون بمضاربهم وهم فوق خيولهم لإدخالها المرمى ، وهو عبارة عن قائمين بينهما مسافة هى سعة المرمى(٣١) .

وممن مارس هذه الرياضة فى الأندلس الأمير الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢١م) إذ كان يلعبها مع رجاله داخل قصره ، ولم تكن القلاقل التى اندلعت فى عهده تمنعه عن ممارسة هواياته ورياضته المسلية(٣٢) .

وما من شك فى أن هذه الرياضة كانت من الرياضات المفضلة عند حكام وأعيان الأندلس ، فهى من الرياضات الملوكية التى لقيت إقبالاً واسعًا لدى هذه الفئة من المجتمع . ومما يشير إلى ممارسة الأندلسيين لهذه اللعبة (الصولجان) قول الشاعر أبى الحسن على بن إبراهيم بن الزقاق (ت قريبًا من ٥٣٠ / ١١٣٥م).

يحنيه طول ضرابه هام الغدى حتى يُرى بيديه منه صولج(٣٣)

وقول الشاعر عبد الوهاب بن أحمد بن حزم (ت ٤٣٨هـ)

لما رأيت الهلال منطويًا فى غُرة الفجر قارن الزُّهرة

شبهته والعيان يشهد لى بصولجان أوفى لضرب كُرة(٣٤)

ومن بين الألعاب التى عرفت عند الأندلسيين ومارسوها (لعبة المخراق) وهى من ألعاب الصبيان . يقول ابن مقانا الأشبونى(٣٥) مادحًا ابن حمود الإدريسى صاحب مالقه فى مطلع القرن الخامس الهجرى :

البرق لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين

لعبت أسيافه عارية كمخاريق بأيدى لاعبين(٣٦)

والمخاريق جمع مخراق وهو ما تلعب به الصبيان من الخرق المفتولة . والمخراق منديل أو نحوه يلوى فيضرب به ، أو هو ثوب يُلَفّ ويضرب به الصبيان بعضهم بعضًا(٣٧) .

ونجد إشارة لطيفة لدى أحد الأطباء الأندلسيين ، ينصح فيها بممارسة الرياضة ثم يقول : (وأحمد الرياضة اللعب بالكرة الصغيرة وهو آمنها)(٣٨) فهل عرف الأندلسيون اللعب بالكرة سواء كان ذلك اللعب يتم بالأيدى أو الأرجل ؟ إننا لا نستطيع الجزم بذلك مع أن أحد المشتلغبن بالرياضة فى عصرنا الحاضر أمدنا من خلال أحد كتبه بصورة تمثل أندلسيًا يلعب الكرة ويتبادل لقفها(٣٩) بيديه . ولا نستبعد ذلك لأن العرب - حتى فى فترة مبكرة من تاريخهم فى الإسلام - عرفوا الكرة وهذه الشاعرة ليلى الأخيلية فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى تصف قطاة تدلت على فراخها فتقول :

تدلت على حصٍّ ظماء كأنها　　　كرات غلام فى كساءٍ مؤرنب

فهى تشبه القطاة بالكرة التى كُسيت بكساء من جلد الأرنب .

ويذكر ابن منظور (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) فى كتابه " نثار الأزهار " أن الدبوق كرة شَعَرية ترمى فى الهواء ، ثم يتلقاها الغلام ضاربًا لها تارة . بصدر قدمه، وتارة بالصفح الأيمن من ساقه اليمنى، رادًا إياها إلى العلو على الدوام(٤٠).

أما لعبة الشطرنج فكانت (٤١) من الألعاب التى شغل بها الكثير من رؤساء ووجهاء الأندلس . ومن هؤلاء عدد كبير من الأمراء الأمويين وخاصتهم من الوزراء والقادة . فممن اشتهر بلعبها والتهمم بها الأمير الأموى محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨ - ٣٠٠هـ / ٨٥٢ - ٩١٢م) . ويذكر ابن حيان أن أحد فتيان الأمير ويدعى أيدون كان ماهرًا فى لعبة الشطرنج ، وأنه غلب فى ذلك الأمير وعددًا من أصحابه ، ثم انبرى له أصحاب الأمير ويدعى تمام بن عامر ،

وكان الأمير قد أقصاه عن مجلسه بسبب خلاف ، فتمكن تمام من التغلب على أيدون فى جولات متعددة ، فسُرَّ بهذا الأمير وأدناه ووصله وأعاده إلى مجالسته . وذاعت هذه القصة بين الناس فسارع الكثير من الفتيان والأدباء إلى تعلم الشطرنج، بغية الوصول إلى ما ما وصل إليه تمام . وكان من أولئك المتطلعين إلى الجاه والنفوذ ابن أخت الشاعر يحيى الغزال ، فعاب عليه خاله انشغاله ولهوه بالشطرنج وقال :

عمل فى غير بِرٍّ ... واختلاف ولزوم
إنما أسسها ويحـ ... ـك شيطان رجيم
هبك فيها ألعب النـ ... ـاس فماذا يا حكيم ؟
لعبة الشطرنج شؤم ... فاجتنبها يا شؤوم
فليقل ماشاء من شاء ... فقولى مستقيم
إنما جاءت بمهر ... واحد وهو وخيم
والذى ينزى عليها اليـ ... ـوم من يُنزى عقيم
وسيبلو صدق مافسرت ... فيها من يروم
إنما هى لأناس ... شأنهم شأن عظيم
ملك يجبى إليه ... أو وزير أو نديم
أو رجال ورثوا الأمـ ... ـوال للدهر سلوم
فاذّكر ما بيد القا ... ئم عنها إذ يقوم
هل سوى شئ يسير ... من سرور لا يدوم
فإذا ما أبلغ البيـ ... ـت فمسحور ملوم(٤٢)

ويتضح من خلال الأبيات السابقة أن لعبة الشطرنج كانت فى الغالب لعبة الخاصة ، إذ أن العكوف عليها والاشتغال بها فيه ملهاة عن شئون الحياة الأخرى . ولا يستغرق فى لعبها إلاّ عِلية القوم وأثرياء المجتمع ، الذين يزجون أوقات فراغهم بمثل هذا اللعبة وغيرها من الألعاب . ولهذا فاشتغال العامة بها ضرب من الغباء ، لأنهم أحوج إلى الوقت المضاع .

وكان لبعض الفقهاء موقفهم الحازم من هذه اللعبة ، حتى ألّف أحدهم وهو الفقيه محمد بن الفخار المالقى ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م كتابًا فى تحريم الشطرنج هو (استواء النهج فى تحريم اللعب بالشطرنج)(٤٣) .

وعلى الرغم من ذم هذه اللعبة لما يترتب عليها من ضياع الوقت وتضييع المصالح والاشتغال عما ينفع المرء ، إلاّ أننا نجد هناك فئة من أهل العلم عُرف عنهم لعب الشطرنج ، بل والمهارة فى ذلك . وسوف نذكر عددًا منهم حسب الترتيب الزمنى .

فممن اشتهر بلعب الشطرنج من الخاصة أحمد بن عباس وزير زهير العامرى صاحب المرية فى عصر ملوك الطوائف ، وقد وصفه أحد جلسائه بالشغف الشديد بالشطرنج وذكر أنه أغلب الشهوات عليه وأنه فى أحد الأيام واصل اللعب بالشطرنج نهاره كله وبعض ليله(٤٤) .

وذاع صيت الوزير محمد بن عمار فى الدولة العبادية فى أشبيليه فاشتهر بالمهارة الفائقة فى لعبة الشطرنج ، ووصف بأنه (طبقة بالأندلس لا يقوم له أحد فيها) وكان المعتمد ابن عباد قد بعثة لمفاوضة الفونسو السادس ملك قشتالة الذى كان قد خرج لغزو أشبيلية وقرطبة ، فسار إليه ابن عمار لمفاوضته ، وتمكن ابن عمار عن طريق الحيلة والدهاء من إقناع الفونسو بالدخول معه فى تحدٍ على أيهما يغلب فى الشطرنج . فأخذت الفونسو العزة بالإثم ووعد بأن يهب لابن عمار ما

يشاء إذا غلبه عمار فى لعبة الشطرنج ، فلعب الاثنان وأحرز ابن عمار الظفر ، وأذعن الفونسو لمطالب ابن عمار التى تمثلت فى أن يعود عن غزو أشبيلية وقرطبة، فاستجاب الفونسو بعد أن حصل على أتاوة كبيرة من المعتمد(٤٥) .

وممن اشتهر بلعب الشطرنج من أهل العلم الطبيب الأديب أبو بكر محمد زهر الأشبيلى (ت ٥٩٠هـ ١١٩٣م) وكان هذا العلامة عارفًا بعدد من العلوم والفنون ، واشتهر إلى جانب ذلك بالبراعة فى الشطرنج(٤٦) .

وكان العلامة أبو بكر بن أبى الحسن الزهرى (ق ٧هـ) قد عرف فى مستهل حياته بالولع الشديد بلعبة الشطرنج ، حتى عرف عند الناس بالشطرنجى فكره أن يوصف بذلك ، فاشتغل بدراسة علم الطب حتى نبغ فيه وذاع صيته بالطب(٤٧) .

وممن شاع ذكره فى هذه اللعبة العلامة محمد بن عبد المنعم الصنهاجى (ق٨هـ) ، وصفه ابن الخطيب بأنه من صدور الحفاظ وأهل الصلاح ، ثم قال (طبقة فى الشطرنج يلعبها محجوبًا)(٤٨) كذلك كان معاصره الأديب الكاتب محمد بن أحمد بن قطبة الدوسى الغرناطى بارعًا فى عدد من الألعاب ، كالرماية، السباحة ، ماهرًا فى الشطرنج وكان من أصحاب ابن الخطيب(٤٩) .

ومما له صلة بالشطرنج أو قريب منه لعبة الخمسية . فإذا كان الشطرنج لعب الخاصة وأرباب الجاه والسلطة فإن لعبة الخمسية كانت لعبة العامة . ويبدو أن الفرق بين اللعبتين ومن يلعبهما كان مضرب المثل فى التمايز الطبقى فى المجتمع الأندلسى ، ولهذا يرد المثل الشعبى الأندلسى إذ يقول (لسنة الشطرنج كلعب الخمسية)(٥٠) .

مصارعة الحيوانات :

أما عن مصارعة الحيوانات فإن أول الإشارات المهمة التى تفيد أن هذا اللون من الرياضات والألعاب الخطيرة والمثيرة كان سائدًا ومألوفًا فى حياة الأندلسيين ، ما تشير إليه نقوش بعض التحف الفنية ، ومنها صندوق خشبى منسوب إلى عبد الله بن منصور العامرى ت (٣٩٢-٣٩٧هـ/١٠٠١-١٠٠٦م) ويحمل هذا الصندوق نقشًا يمثل صيادًا مقاتلاً يصارع أسدين فى وقت واحد ، ويوجه إلى أحد الأسدين طعنة برمحه فى حين يمسك الأسد أحد ساقى الرجل وينهش مؤخره . وفى ذات الوقت يكون المقاتل مشغولاً بدفع الأسد الآخر الذى يهاجمه من الأمام بدرعه . والنقش يتميز بالحيوية والإثارة .

وعلى غطاء الصندوق نفسه نقش يمثل فارسًا يطعن وحشًا فى رقبته فيلتفت برأسه فاغر الفم ألمًا وتحفزًا ، بينما تعلو وجه الفارس نشوة الظفر(٥١).

وتجدر الإشارة إلى أن مصارعة الثيران السائدة الآن فى أسبانيا ودول أمريكا اللاتينية كانت معروفة لدى الأندلسيين فى مملكة غرناطة ، إذ يذكر ابن الخطيب أن هذه اللعبة كانت منتشرة بين علية المجتمع فى غرناطة ، ويصف طريقه مصارعة الثيران بأن يطلق الثور أو البقر الوحشى كما أسماه ، وتطلق عليه كلاب اللان المتوحشة فتأخذ فى نهش جسمه وأذنيه متعلقة بها كالأقراط . والهدف من هذا هو الحد من قوة الوحش وتهذيب حركته ، وهو ما يقوم مقامة اليوم عمل رماة السهام وطاعن الرمح ، وذلك تمهيدًا للقاء المصارع . ويصف ابن الخطيب المصارع بالفروسية والإقدام ، وأنه يصارع الثور وهو ممتط فرسه المدرب ، ثم يجهزا أخيرًا على الثور بطعنة من رمحه(٥٢) وهذا اللون من المصارعة لا يزال موجودًا إلى يومنا ، ويسمى الفارس المصارع باسم رخونيا دور Rejoneador نسبة إلى الرمح القصير الذى يستعمله فى قتل الثور واسمه رخون Rejon . ويشير د / أحمد مختار العبادى إلى أن هذا النص الذى احتفظ لنا به ابن الخطيب الغرناطى

هو أقدم نص وجدناه عن هذه المصارعة المشهورة ، ونبّه إلى أن هذا النص لم يرد ذكره في الموسوعة الكبرى التى ألفها خوسية ماريا قوسيو عن الثيران (Jose Maria Cossi: Ios Toros, 3 Tomos) (٥٣) .

وكانت مصارعة الثيران على هذه الصورة معروفة فى بلاد المغرب ، إذ يذكر ابن الخطيب أنه عندما كان لاجئًا مع سلطانه محمد الخامس ببلاد المغرب - وكان ذلك سنة ٧٦٠ - ٧٦٣هـ / ١٣٥٨ - ١٣٦١م - حضر أثناء إقامته احتفالاً لسلطان المغرب أبى عنان فارس ، وذلك بمناسبة اختتان أحد أبنائه . وكان من بين عروض الاحتفال مصارعة جرت بين ثيران وكلاب رومية . وكيف أن الكلاب كانت تهاجم الثور وتمسكه فى أذنيه بأسنانها كالأقراط ، ويصف ذلك فى شعره ومنه :

وطاردت مقدام الصوار بجارح ... يُصابُ به منه الصماخ أو الإبط

متين الشّوا فى رأسه سمهرية ... مقصرة عنهن ما يّنبت الخطُ

وقد كان ذا تاج فلما تعلقا ... بسامعتيه زانه منهما قرط(٥٤)

ولا يعلم على وجه الدقة أى القطرين : الأندلس أو المغرب كان الأسبق إلى ممارسة هذه الرياضة المثيرة ، ولكن أرجح أن الأندلس هى السابقة إلى ذلك. وقد يكون لهذه الرياضة أصل لدى الشعوب القديمة كالرومان ، ومن انتقلت إلى الأندلسيين ، وإن كانت المصادر التاريخية شحيحة بالمعلومات حول هذه اللعبة ، وذلك فى القرون الأولى من تاريخ الأندلس .

والحق يقال : إن هذه اللعبة فى صورتها التى يعمد فيها الإنسان إلى التسلى بقتل الحيوان بعد إثخانه بالجراح ، فيها ما يوحى بغرابتها عن المجتمع الإسلامى ، وما كان عليه من أخلاق تدعو إلى الرحمة والشفقة ليس بالإنسان فقط وإنما

كذلك بالحيوان . ويبدو لى أن هذا اللون من الرياضيات لم يكن معروفًا لدى الأندلسيين فى القرون الأولى ؛ وذلك عائد إلى ما كان يتحلى به المجتمع الأندلسى آنذاك من صفات وخلال أكثر التزامًا وإنسانية . ومما يؤكد ذلك أننا لم نعثر - حسب الطاقة - على نص أو معلومة تشير إلى ممارسة الأندلسيين لهذه الرياضة القاسية العنيفة ، وأن هذه الرياضة لم تعرف إلاّ فى أواخر العهد الإسلامى فى الأندلس، الذى سادفيه تدهور الأخلاق ، والبعد عن نهج الدين الإسلامى الحنيف.

ولم تكن هذه اللعبة تجرى بتلك الصورة فقط إنما كانت تتم أيضًا بصورة أخرى، وذلك بأن تكون المنازلة بين ثور وأسد . وقد شاهد أحد شعراء الأندلس وهو أبو عبد الله محمد بن جزى (ت ٧٥٧هـ/١٣٥٦م) لدى سلطان المغرب أبى عنان مصارعة بين الثور والأسد فقال ابن جزى المذكور :

لله يوم بدار الملك مر به ... من العجائب ما لم يجر فى خلدى

لاح الخليفة فى برج العلا قمرًا ... يشاهد الحرب بين الثور والأسد(٥٥)

* * *

والحديث عن مصارعة الحيوانات سواء مع الإنسان أو مع بعضها البعض يقودنا إلى الحديث عن أنواع أخرى من الألعاب التى تشارك فيها الحيوانات أو الجوارح . ومن هذه الألعاب ما تشارك فيه القردة إذ يتم تدريبها على أداء حركات رياضية تثير الدهشة والإعجاب . وكان يطلق على أصحاب هذه اللعبة (القرّادين) وكانوا يمنعون من دخول الدور والمنازل لما فى ذلك من ترويع للحوامل والأطفال(٥٦) .

وكان البعض يفضل مشاهدة القتال بين الديكة وكانت هذه اللعبة من الألعاب الشعبية ، وراجت على وجه الخصوص فى القرى والأحياء الشعبية بالمدن(٥٧) .

لعبة خيال الظل :

يجدر بنا فى البداية توضيح مفهوم هذه اللعبة وأصل منشأها ، فنشير إلى أنها تمثيلية تُستخدم الظلال فى إبراز مشاهدتها ، وذلك باستخدام شاشة من النسيج الأبيض يوضع خلفها مصدر ضوئى ، ويرفع اللاعب بمجموعة من الدمى المصنوعة من الجلد أو الورق ويحركها بأصابعه المعقودة بخيوط رفيعة ، فتنعكس ظلال هذه الدمى على الشاشة البيضاء أمام المشاهدين ، وتكون مصحوبة بألحان أو حوار يلقيه اللاعب. وتعتبر الصين المهد الأول لهذا الفن إذ كان من الفنون المعروفة بها منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم انتشر منها إلى سواها فدخل البلاد العربية ومنها مصر ، التى ارتقى فيها خيال الظل ، ومنها انتشر إلى تركيا ، وبلاد البلقان، وإلى بلدان شمال أفريقيا . وقد بقى لنا من المصنفات حول هذا الفن تمثيليات الطبيب المصرى محمد دانيال ، ويُسمى كتابة (طيف الخيال)(٥٨) ، نشر المستشرق الألمانى ارلنجر ثلاثة أجزاء منه عام ١٩١٠م .

ويبدو من خلال بعض ما وصلنا من شذرات تاريخية ومعلومات محدودة أن هذه اللعبة المسلية دخلت الأندلس بصورة مبكرة نسبيًا ، وذلك منذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، إذ نجد إشارة طريفة يوردها أحد أدباء الأندلس وهو عمر بن الشهيد التجيبى وكان حيًا سنة (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) وذلك فى مقامة أدبية يقول فيها : (وصلنا إلى منزل بدوى ذى هيئة وزى ... فهش وبش ، وكنس منزلة ورش ... ثم مال بنا إلى بيت مُكنس ، منوع مجنّس ، قد جلّله حصرًا بلدية وغشاه بُسطًا بدوية ، ومد فيه شرائط وحبالاً كأنه يريد أن يخرج خيالاً ...(٥٩) .

وما من شك فى أنه هنا يعنى خيال الظل . وقد تكون هذه اللعبه قد انتقلت فى مرحلة من مبكرة من العراق أو مصر إلى الأندلس . وربما كان ناقلها أحد الأندلسيين المترددين على المشرق ، أو قد يكون ذلك على يد أحد المشارقة .

وليس هذا بغريب فكثير من التأثيرات الاجتماعية التى كانت سائدة فى المشرق انتقلت إلى المغرب ، والأندلس ، ولنا فى قصة زرياب وانتقاله إلى الأندلس وتأثيره فى الحياة الاجتماعية أبلغ دليل . ونقع على اسم أحد الوافدين المصريين ، ويدعى أبو القاسم الخيالى ، وقد وصل إلى قرطبة فى القرن الرابع الهجرى ، وقد يكون لقبه المذكور له صلة بحرفته حول لعبة الخيال ، مع أننا لا نملك نصًا واضحًا يفيد ذلك، وإن كان هناك ما يشير إلى أحدى جواريه وتدعى بستان كانت من بين من استدعا هن الخليفة محمد بن هشام لتسليته ومجونه(٦٠) .

ونجد فى أزجال ابن قزمان إشارات مهمة إلى هذه اللعبة ، تفيد أنها شاعت فى أوساط المجتمع الأندلسى ، ففى إحد أزجاله يقول :

ليس على قميص ذاب إلا قميصًا مرقع
وطويشر غفاره الُطّر كلٌ مقطع
سل لو كانِ لعنقى أو كان على رأس قُنّزع
(بابه) كنت أنا نرقص فى لعبة القلياني

ويشير عبد العزيز الأهوانى إلى أن الكلمة التى لم تنقط فى أول القفل هى (بابه) وهى لفظة اصطلاحية تستخدم فى لعبة (خيال الظل) ، ويراد بها الفصل أو المشهد من تمثيلية خيال الظل . ويدل النص على أن هذه اللعبة عرفت عند الأندلسيين (بلعبة القلياني) ووصف لباسه بالمهلهل والممزق يدل على أن اللعبة فى الأندلس مثلما كانت فى الشرق تعتمد على الهزل والإضحاك(٦١) .

والقلياني قد تكون نسبة إلى أحد الخياليين الماهرين ومنسوب إلى قليانة Juliana (جليانة) وهى بلدة من أعمال وادى آش إلى الجنوب من غرناطة .

وإضافة إلى ما سبق نجد لمحات محدودة عن لعبة خيال الظل فى أشعار بعض الأندلسيين وبعض رسائلهم ، ففى ديوان أبى الحسن الشسترى يقول فى زجله الذى جعل فى قفلة :

(وما الناس إلاّ كما الخيال فانظـر إلى ماسك الصـور)

وهى إشارة واضحة إلى لعبة خيال الظل ، وأن الدنيا بمن فيها من أناس ومـا قدر لهم من حياة وسعى وحركة ، ما هم إلاّ كالدمى التى يحركها لاعب الخيال ، ثم يزول كل ذلك ويفنى . وإلى مثل هذا المعنى أشار الشاعر المملوكى ضياء الدين بن عبد الكريم حيث قال :

تجـئ وتمضـى بابة بعـد بابه وتفنى جميعـًا والمحرك باق(٦٢)

وهناك إشارات للعبة الخيال فى رسائل أبى عبد الله محمد بن عبـاد الرنـدى وهو من أعلام الزهد فى الأندلس وكان حيًـا فـى القـرن الثـامن الهجـرى / الرابـع عشر الميلادى(٦٣) .

* * *

ألعاب تقوم على المهارات الحركية :

كان من بين الألعاب التى استحوذت علـى اهتمـام الأندلسيين ، وأثـارت إعجابهم تلك الألعاب التى يؤديهـا بعـض الأشـخاص مـن ذوى المهـارات والأداء المتميز . ويشبه هؤلاء فى عصرنا الحاضر ما يطلق عليه البهلوان ، الذى يشاهد فى السيرك وهو يقوم بأداء حركات تثير إعجاب النظارة . وفـى ديـوان ابـن الخطيـب أبيات شعرية طريفة يصف فيها أحدهم وهو يتلاعب على الحبل ويتدلى منه حينًا ، ويرتقى حينًا آخر بين حركة سريعة ، وثبات عجيب :

وبحـــرى تــلاعب فى شـريط وجئ الفعـل متصـل الصّـموت

تــدلى وارتقــى وسمــا وأهوى فأعجب فى التماسك والثبوت

فقلنــا إن يكــن بشــرًا سـويًا ففيـه غريـــزة مـن عنكبـوت

يشير د. محمد بن شريفة إلى هذه الأبيات ويقول تعليقًا عليها : إن كلمة بحرى التى وردت فى أول البيت الأول (إنما هى تحريف لكلمة غجرى نسبة إلى الغجر المعروفين فى الأندلس)(٦٤) ولكن الباحث يستبعد ذلك ، لأنه لو حلّ لفظ غجرى محل بحرى لاختل وزن البيت ، إذ لو قطّعنا كلمة بحرى حسب العروض لكانت على هذا النحو : وحرى ، وغجرى(٦٥) .

وبالتالى لا نطمئن إلى تعليل الأستاذ ابن شريفة . فضلاً عن أن لفظ غجرى فيما يبدو لى لم يكن معروفًا عند الأندلسيين وإنما كان ذلك فى القرون التى اعقبت خروج المسلمين من الأندلس .

ويصف الشاعر الغرناطى محمد بن يوسف بن زُمرَك (ت ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) أحد اللاعبين المهره وهو يؤدى حركاته المثيرة على الحبل فيقول :

ومنوع الحركات قد ركب الهوا ... يمشى على خط به متوهم

فإذا هوى من وجوه ثم استوى ... أبصرت طيرًا حل صورة آدميَ

يمشى على فنن الرشاء كأنه ... فيه مساور ذابل أو أرقم

وقد أطلق فى الأندلس على من يحترف هذه الألعاب ويؤديها بمهارة وبراعة [العجائبى] وذلك لما يثيره من دهشة وإعجاب المشاهدين .

وكان هذا الشخص يؤدى ألعابًا مختلفة ، من بينها اللعبة المشار إليها وهى اللعب على الحبال . وقد احتفظ لنا أبو المطرف بن عميرة بوصف نادر وطريف لأحد هؤلاء العجائبيين وهو يلعب بالصحائف فارغة ومليئة بالماء ، فيقذفها فى الهواء ويتلقاها بيديه فى حركات عجيبة ، ومهارات بارعة . ويقول ابن عميرة : (هذا ولإحدهما وصف يزيد على الأوصاف ، وعمل هو المشار إليه فى الصحاف ، تصفُّ له فى مداره ، وتلقى بمجال إقباله إدباره . فيأخذها بأصبعين ويديرها لرأى العين ، فترى عجبًا من نصب وإماله ، وإثبات وإزالة ، واتساق بغير قد ، والصاق

دون ود ، وربما أكفأها فى الهواء ، وقد غمرها بالماء ، فتحسبه جمد فما يقطر ، أو عاد سرابًا فى عين من ينظر ، ويمر بها فيجعلها تحت ذيله ، ثم يقتلعها بجملة سيله فيفقدها العيان ، ويخلى منها المكان ، ويخلع الثياب لا أثير هناك ، وينزع السراويل فلا زيادة على تلك وذاك، فإذا استوفى فى بعض جوانبه ، وقضى وطرًا من عجائبه ، ارتج من الأمام والوارء وقام عنها كتاركة بيضها بالعراء) . ومن مهاراته الحركية وألعابه المدهشة ما يقوم على اللعب بالنار فيقول : (ويؤتى بالنار وحرها مرهوب ولهيبها مشبوب ، فيودعها ذاك المستودع ، ويبدع فى شأنها فوق ما أبدع) وفى طور آخر يلعب بقلال الماء ، (وربما وضعت له القلة بمائها ، فلا ترى أعجب من إخفائها يختطفها اختطافًا وقد هزَّ منها أعطافًا وركّب فوقها صحافًا فيحمل منها جنينًا حش(٦٦) ، ودفينًا يأمن النبش ثم يقوم عنها عجلان ، ويترك شخصها كما كان ، وهذا خلال نغمات حسان سماعية وهيآت إيقاعية) .

ولهذا العجائبى ألعاب يؤديها بصحبة أحد أصحابه ، تقوم على أداء حركات بارعة يستخدم فيها العمائم والملابس (ولهما فى مركز المدار ، وموقف الاختيار ، نشروطى ونشر للعمائم ولى ، وربما أعدها بعد إلقاء ، وقلبا الثياب لغير استسقاء ، فيرجع الطالع آفلا ، ثم يعود العالى سافلاً ...)(٦٧) .

وهكذا يتبين لنا أن هذه الألعاب التى تقوم على البراعة والمهارة فى الأداء والحركة بالأرجل والأيدى والأصابع ، وتستخدم فيها وسائل متعددة من أوان وحبال وعمائم وقلل وغيرها مما نشاهده حاليًا فى السيرك أو غيره ، نقول إن هذه الألعاب كانت تستقطب جمهورًا كبيرًا من الناس وكانت فى مقدمة وسائل التسلية والمتعة لديهم .

ولعل من أهم الدلائل التى تشير إلى ولع الناس بمثل هذه الألعاب أن صاحبها وهو العجبائى لا يزال له ذكر ووجود فى بعض بلدان المغرب ، بل إن

بعض الألعاب التى أشرنا إليها لا تزال تعرض فى ساحة جامع الفناء بمدينة مراكش(٦٨) .

ونظرًا لخفة ورشاقة العجبائى أثناء تأديته إحدى ألعابه فقد أطلق عليه (الزريزير) وهو اسم طائر عرف حركته وسرعته فى القفز(٦٩) .

ومما له صلة بمثل هذه الألعاب أولئك الذين يقومون بحركات تدعو إلى الضحك والتسلية . ويرتدى أحدهم فى سبيل ذلك ثيابًا مناسبة لدوره ، وربما وضع له شعرًا كثيفًا على حاجبيه وشاربه وعلى رأسه قلنسوة ، وهو أشبه فى عصرنا الحاضر بما يسمى (المهرج) الذى يؤدى دوره أمام الجمهور سواء فى السيرك أو المسرح . وقد أمدنا ابن بسام بمعلومات طريفة حول أحدهم وما يقوم به من حركات مضحكة(٧٠) .

وقد نبّه السقطى إلى عدم ترك أمثال هؤلاء المهذرجين والمهذرين يمارسون ألعابهم وحركاتهم إلا فى الشوارع السالكة والساحات العامة(٧١) .

* * *

المنتزهات :

ومن وسائل التسلية التى عرفها المجتمع الأندلسى خروج الناس إلى المنتزهات. وبلاد الأندلس من البلدان التى اشتهرت بجمال طبيعتها ، وخاصة فى الجزء الأوسط الجنوبى . وبطبيعة الحال توفر لأهلها عدد من مواضع النزهة والفرجة . وكان أمراء وخلفاء بنى أمية ، ومن تبعهم من الملوك والسلاطين لهم جناتهم وبساتينهم التى يقضون بها كثيرًا من الوقت طلبًا للمتعة والترويح . وكان أول أمراء بنى أمية ومؤسس ملكهم بالأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام - المعروف بالداخل - قد اتخذ له جنانًا وبساتين فى منية الرصافة بقرطبة. وحدث عندما نظر منها إلى نخلة أن هاجت شجونه فقال :

تبـــدت لنـــا وســط الرصـافة نخلـة　　تناءت بأرض الغـرب عن بلـد النخل
فقلـت شبيهى فى التغـرب والنـوى　　وطـول التنـاءى عـن بُنّى وعن أهلـى
إلــــــخ ......(٧٢) .

وفى عصر الخلافة الأموية - على عهد الخليفة الحكـم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) أهدى أحد الفتيان الصقالبة - ويدعـى درى الأصغر - إلى الخليفة الحكم بستانًا عرف بالرمانية . وكان درى هذا قد بالغ فى العناية بـه وزراعة مختلف أنواع الأشجار والأزهار فيه ، حتى غدا فى أبهى صورة ووضع فيه أنواعًا من الحيوانات ، ثم قدَّمه هداية للخليفة فقبله ، وعهد إليه بالقيام عليـه . ثـم دعاه درى لإستضافته فى البستان ، فسار إليه الخليفة بحاشيته، وقد أبدى درى مـن ضروب الضيافة والإكرام للخليفة ما عمَّ ذكره ، وأجمـع مـن حضـر تلـك المناسبة أنهم لم يشاهدوا فى المنتزهات السلطانية أكمل مما رأوه(٧٣) .

وهذه صورة من صور التنزه والفرجة لدى الطبقة الحاكمة آنذاك . ونكتفـى بها لنركز الضوء أكثر على ما يتصل بالرعية وأفراد المجتمع الأندلسى ، وذلـك لأن طبقة الخاصة كان لها منتزهاتها الخاصــة الملحقـة بـالقصور والـدور ، ممـا لا سبيل لعامة الناس إليه .

فمن أشهر المنتزهات الشعبية ما عرف بحصن الحمة ، وهو من مدينة بجانة . وفى هذا الموضع عين ماء يقصدها الناس للاستشفاء . وكان أهل المريـة يقصـدون ذلك الموضع فى أيام الربيع مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم ، ويتزودون خلال ذلك بألوان الطعام والشراب . ونظرًا لكثافة من يقصدها من المتنزهين ، فإن أسعار المساكن وايجاراتها ترتفع خلال ذلك بصورة كبيرة(٧٤) .

وكانت مدينة سرقسطة من أجمل مدن الأندلس حتى قال ابن سعيد : (ولا نعلم فى الأندلس مدينة يحدق بها أربعة أنهار سواها ، وكــأن كـل جهـة تغـايرت

على اتحافها فأهدت إليها نهرًا يلثم من أعطافها ، وأشهرها نهر جلق ، وشرب موسى بن نصير فاتح الأندلس من ماء نهر جلق فاستعذبه وحكم أنه لم يشرب بالأندلس ماء أعذب منه ، وشبَّه ما عليه من البساتين بغوطة دمشق ، ... ومن متفرجاتها الحلقين ، ووادى الزيتون)(٧٥) .

واشتهرت مدينة أشبيلية بمتنزهاتها ، ومنها مرج الفضة ، والعروس ، والسلطانية ، وشنتبوس. وكانت المتفرجات والمتنزهات مقصدًا للناس فى أعيادهم، وأيام سرورهم ، ويجدون بين خمائلها وطبيعتها الخلابة المتعة والسرور(٧٦) .

واشتهر وادى العسل فى الجزيرة الخضراء بجمال طبيعته وكثرة بساتينه .

* * *

الألعاب التى حظرها المحتسب لما بها من الخداع والاحتيال :

كان للقائمين على الاحتساب دور بالغ فى مراقبة أصحاب الألعاب ، والمشتغلين بألوان اللهو الذى يقوم على الخداع أو السحر ، فسعوا إلى محاربة أصحابها ، ومنهم أهل التخيل : (الذى يظهر أنه شيئًا من غير فعله ويخيل بمثل النواريج(٧٧) وقلب العين ، والسندى(٧٨) الذى يهيج نفسه عن القدر ينهى عن ذلك وإلا أُدِّب(٧٩) .

وينهى السقطى عن ترك المبهرجين والمهذرين يمارسون ألعابهم وحركاتهم إلا فى الشوارع السالكة ، وعند تجمعات الناس(٨٠) .

وكان هناك من أصحاب الألعاب من يستخدم فى ألعابه الحيات والعقارب، ومنهم من يعمد إلى المرآة فيضعها تحت الشمس فتحرق ما تحتها ، ويستغلون ذلك فى خداع السذج من العامة ، فكانوا يمنعون من ذلك(٨١) .

ويبدو أن من الألعاب الشعبية التى عرفت لدى الأندلسيين وخاصة أيام الأفراح والمواسم ما يفعله الصبيان من رش الأسواق والشوارع بالماء ، ليكون سببًا فى تزليق ، الناس والضحك عليهم ، فنهى المحتسب عن ذلك(٨٢) .

ومن بين الألعاب التى نهى المحتسب عنها لما قد تجر إليه من أذى وضرر الألعاب التى يُلعب فيها بالمقارع والعصى فى الشوارع(٨٣) .

الأعياد ومظاهر التسلية والترفيه :

كان من الطبيعى أن يحتفل الأندلسيون بعيدى الفطر والأضحى ، ولكنهم ابتدعوا أعيادًا ومواسم يحتفلون فيها ، ويتخذونها وسيلة للتسلية والابتهاج . وقد زَلَّ كثير منهم فى مشاركة أهل الذمة فى أعيادهم ومناسباتهم ، ومنها عيد يناير ، وفيه يصنعون ألوان الحلوى التى يعملونها على شكل مدن صغيرة ذات أسوار(٨٤).

ومن أشهر المناسبات التى يشارك فيها الأندلسيون النصارى ما يُسمى بعيد العنصرة أو المهرجان ، ويأتى فى اليوم الرابع والعشرين من حزيران ، وهو اليوم الذى زعموا أن يحيى بن زكريا ولد فيه . وقد اشتهر بشعلة النار التى كانوا ينصبونها ويقفزون فوقها . وورد فى أمثالهم الشعبية : (الكبش المصوّف ما يكفز (ما يقفز) العنصرة)(٨٥) .

وفى هذا اليوم يعمد الأطفال والصبيان إلى رش الشوارع والأسواق بالماء ، ويلعبون بالمقارع والعصى ، وكان فى ذلك ما يسبب الأذى للمارة ، فشدد المحتسب على منعه(٨٦) .

وكان الناس يلبسون فى هذا العيد الثياب ذات اللون الأبيض . وكان الفنان زرياب هو الذى سَنَّ هذا اللون لهم(٨٧) .

ويبدو أن هذا العيد ، أو ما يعرف بيوم المهرجان ، كان مشهورًا لدى الأندلسين . وتمدنا كتب الأدب بالكثير من النصوص والأشعار التى نظمها الأدباء والشعراء حول هذا الموسم . من ذلك ما قاله الشاعر أبو بكر الدانى (ت٥٠٧هـ/ ١١٧٤م) واصفًا مشاركة الأسطول الاحتفال بيوم المهرجان :

بشـــرى بيـــوم المهرجـــان فإنــه يـــوم عليــه مـــن احتفـــائك رونق

طـــارت بنـــات المـــاء فيه وريشها ريش الغراب وغير ذلك شـوذق(٨٨)

ويقول الشاعر عبد الرحمن بن عثمان الأصم(منتصف القرن الرابع الهجرى):

أرى المهرجـــان قـــد استبشـــرا غـــداة بكـــى المـــزن واستعـــبرا

وســـربلت الأرض أفوافهـــــا وجللت الســـندس الأخضـــرا

وَهَـــزَّ بـــه الريـــاح صنابيرهـــا فضـــوّعت المســـك والعنـــبرا

تهـــادى بـــه النـــاس ألطـافهم وســـامى المقـــلُ بـــه المكثـرا(٨٩)

وكان من بين الألعاب التى يمارسها الناس يوم المهرجان سباق الخيل . يقول الشاعر عبد العزيز بن الخطيب وكان مسجوناً فى يوم المهرجان :

رويـــدك أيهـــا الشـــوق المذكّـــى لنـــار صبـــابتى بالمهرجـــان

لقـــد أذكـــرت منى غـــير نـــاس وهجـــت لـــى الصبابة غـــيروان

أيـــوم المهرجان أعـــذر فحـــالى تراهـــا فـــى البـــلاء كما ترانى

ولـــو لم يثننـــى طبـــق وقيـــد لرحت وقيّد لى قصب الرهان(٩٠)

وما من شك أن هذه الأعياد والمواسم ليست مما شرع للمسلمين ، بل تـــأثر هؤلاء بأهل الذمة بحكـــم المجاورة والاختـــلاط . وقـــد بلـــغ الأمـــر بتقليـــد النصـــارى ومشاركتهم هذه الأعياد مدى خطيرًا نبه الفقهاء والعلمـــاء إلى ذلـــك ، ودعـــوا إلى نبذ هذه العادات وعدم التشبه بالنصارى . ومن هؤلاء العلماء عبد الملك بن حبيب الذى ذم تقليد النصارى . ويحيى بن عمر الذى نهى عن اجراء الخيل ورش الماء فى يوم المهرجان . وأكبر من تصدى لهذا الظاهرة الفقيه محمد بن وضاح الذى صنـــف

كتابًا أسماه (البدع والنهىعنها) حمل فيها على مجاراة النصارى وتقليدهم فى أفراحهم وأعيادهم(٩١) .

ومن العادات التى اشتهر بها أهل غرناطة خروجهم فى موسم جنى العنب إلى المنتزهات ، والمروج الخضراء وهم يلبسون أبهى الثياب والأزياء، ويظلون عدة أيام فى نزهة وتسلية مع أخذ الحيطة والحذر من عدوان النصارى عليهم(٩٢) .

وكان لأهل الجزيرة الخضراء جنانًا وبساتين على ضفافه ، وكان مقصدهم للتنزه ونيل أونقات من الراحة والاستجمام(٩٣) .

واشتهرت مدينة غرناطة بمنتزهاتها الرائعة ، وخاصة ما أطلق عليه فحص غرناطة La Vega de Granada . وقد شبه هذا الفحص أو المرج بغوطة دمشق، فوصف بكثرة جداوله وكثافة روضاته وجناته ، وكان فى غاية الجمال والنضارة يقصده الناس للتنزه ، وكان أكثر ذلك فى ليالى الصيف(٩٤) .

وكان أهالى غرناطة يخرجون للتنزه فى موسم نضج العنب ، ويقصدون المروج الخضراء وضفاف الأنهار ، وخاصة نهر شنيل ، الذى ولع الشعراء بوصفه وما عليه من البساتين والرياض ، وفيه قال أبو الحجاج يوسف بن سعيد :

أحنّ إلى غرناطة كلما هفت ... نسيم الصبا تهدى الجوى وتشوق
سقى الله غرناطة كل منهل ... بمنهل سحب ماؤهن هريق
وما شاقنى إلا نضارة منظر ... وبهجة وادٍ للعيون تروق
تأمل إذا أملت حوز مؤمل ... ومُدّ من الحمرا عليك شقيق
وأعلام نجد والسبيكة قد علت ... وللشفق الأعلى تلوحُ بروق
وقد سلّ شنيل فرندًا مهندًا ... نضى فوق در ذُرّ فيه عقيق
إذا نم منه طيب نشر أراكه ... أراك فتيت المسك وهو فتيق

ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ثغور أقاح للرياض أنيق(٩٥)

ولو تتبعنا أماكن التنزه ومواضع الفرجة عند أهل الأندلس لطال بنا الحديث؛ لأن بلاد الأندلس - كما سبق - كانت في مجملها من أجمل البلدان وأخلبها طبيعة ، فلا يعدم أهلها حينذاك أن يجدوا في كل ناحية منها موضعًا يقصدونه للمتعة وجلب السرور .

سرد القصص والحكايات :

ومن وسائل التسلية التي عرفها الأندلسيون سرد القصص والحكايات . وتشير كتب التاريخ إلى ولع كثير من الخلفاء والحكام بالقصص ، فاتخذوا لهم من أرباب الأخبار والتاريخ والأدب من يقومون بسرد نوادر الأخبار وطرائف الحكايات والآثار . ويهمنا ما يتصل بالأندلس:

ففي العهد الأموي كان الأمراء والخلفاء يقربون في مجالسهم ومنتدياتهم وأسمارهم أصحاب النوادر والقصص والآثار ، ويقضون معهم ساعات عديدة كل ليلة ، يتسامرون ويتذاكرون طرائف الأخبار ونوادر الحكايات والقصص . واشتهر من هؤلاء الذين حظوا بمكانة لدى أمراء بني أمية : يحيى الغزال ، وعباس بن فرناس ، وذلك على عهدي الأمير الحكم الربضي وابنه عبد الرحمن الأوسط ، كما اشتهر الأديب الفنان زرياب بنوادره وطرائفه التي أثارت إعجاب الأمير عبد الرحمن الأوسط ورعيته(٩٦) .

وعلى عهد الخلافة الأموية كان الخليفة الناصر مولعًا بالتاريخ وأخبار الأوائل ، فأهداه إمبراطور القسطنطينية كتاب أورسيوس في تاريخ العالم(٩٧) . وأما ابنه الحكم المستنصر فكان يجد متعته في قراءة الكتب ومطالعتها ومجالسة أهل العلم والأدب والتاريخ(٩٨) .

وكان الحاجب المنصور بن أبي عامر (٣٦٦ - ٣٩٣هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٢م) مولعًا بالأدب والنوادر والقصص والحكايات فصنف له الأديب صاعد بن الحسن كتاب " الفصوص " في الأدب ، وفي الحكايات كتابي (الهجفجف ابن عدقان بن يثربي مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف) و(كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء) . وقد أثنى حزم الظاهري على الكتاب الأخير ووصفه بالملاحة ، وأن المنصور كان شغوفًا به حتى رتب له من يخرجه أمامه في كل ليلة(٩٩) .

وألف الأديب حسان بن مالك للمنصور بن أبي عامر كتابًا اسماه (ربيعة وعقيل) وكان سبب تصنيفه أنه دخل على المنصور وبين يديه كتاب من كتب السمر لأحد أدباء المشرق ، فخرج حسان إلى داره واعتكف على تصنيف كتابه المذكور ، فجاء به بعد أسبوع وقدمه للمنصور فكافأه عليه وأجزل صلته(١٠٠) .

وكان من أشهر القصاصين والأخباريين أبو أيوب بن حجاج (ت٣٣٨هـ/ ٩٤٩م) وصف بسعة حفظه للأخبار القديمة ، وبراعته في عرضها ، وحسن سردها(١٠١) . وكان أبو عبد الله الغابي من أحفظ الناس لأخبار أهل الأندلس ، وآدابهم وما دار بينهم من الأخبار والفكاهات ، وكان يفد على الخليفة عبد الرحمن الناصر فيجد لديه كل برٍّ وإكرام(١٠٢) .

ومن الطريف تأثر حكام أسبانيا النصرانية بالعرب في هذا الجانب ، فقد أشار المؤرخون إلى ولع السيد القمبيطور بالقصص العربية ، وكان معجبًا بسيرة المهلب بن أبي صفرة ، وحروبه ، كثير التطلع والسؤال عن أخباره ، وقصصه مع أعدائه(١٠٣) .

وكان القصاصون يتخذون لهم مواضع في الأسواق والساحات . وقد نهى المحتسب بعضهم عن سرد القصص والحكايات التي يسندونها إلى النبي ﷺ ،

وذلك لجهلهم ، وكذبهم ، وزياداتهم ، وأباح لهم أن يرووا القصص عن بنى اسرائيل(١٠٤) .

ولا يتسع المجال لسرد أسماء البارزين من القصاصين وأصحاب السير والأخبار، إذ تحفل كتب التراجم بأعداد كبيرة من هؤلاء(١٠٥) .

الخــــاتمة :

وأخيرًا فهذه أبرز وسائل التسلية التى عرفها الأندلسيون فى تاريخهم الاجتماعى . وما من شك فى أن بعض هذه الوسائل كانت معروفة منذ القدم عند العرب ، ومنها رياضة الصيد وبعض ألعاب الفروسية كسباق الخيل والمبارزة وغيرها ، كما أن فيها من الألعاب ما نقله الأندلسيون عن غيرهم من الشعوب ، ومنها لعبة الشطرنج وهى لعبة فارسية ، نقلها العرب عنهم أدخلوها معهم إلى الأندلس . ومثل ذلك خيال الظل وهى - كما مرَّ - من الألعاب التى نقلها المسلمون عن الصينيين ، ومن ثم انتشرت فى أقطار العالم الإسلامى ، ومنها الأندلس . ولا نعلم على وجه اليقين ما يتصل بتاريخ لعبة بمصارعة الثيران وما إذا كان الأندلسيون هم الذين ابتكروها ، أم كان ذلك من تأثير حضارة أخرى . وفى هذا كله ما يدل دلالة واضحة على الامتزاج الحضارى الذى انصهر فى بوتقة الحضارة الأندلسية ، فكان الأندلس - كأى قطرفى الدولة الإسلامية - صاحبت حضارته وحياة الأفراد فيه ظواهر اجتماعية مختلفة ، راوحت بين التأثر والتأثير . ومثلما تأثر الأندلسيون بغيرهم من الشعوب أثروا أيضًا فيهم من خلال أهم ألعابهم التى اشتهروا بمزاولتها فى المجتمعات والأقطار الأخرى ، ونعنى بها رياضة مصارعة الثيران ، التى تعد من أشهر الألعاب إن لم تكن أشهرها فى أسبانيا ودول أمريكا الوسطى والجنوبية ، هذا على الرغم من تحفظنا إزاء تلك اللعبة التى تفتقر إلى الرحمة والشفقة بالحيوان .

وبعد فهذه لوحة اجتماعية أردنا تقديمها عن جانب مهم في حياة الأندلسيين ، ونمط سلوكهم الفكه ، وطرائفهم المختلفة للترويح عن أنفسهم ، وإبعاد السأم والملل عنها ، وذلك على الرغم من تاريخهم المليئ بالأحداث والوقائع المؤلمة ، سواء على مستوى الجبهة الداخلية وما حفل به تاريخ الأندلس من تعاقب الحكام والدول وما تخلل ذلك من قلاقل وفتن ، أو على مستوى الجبهة الخارجية المتمثل في استفحال القوى النصرانية تحفزها للعدوان .

الهوامش

(١) نذكر فى هذا الصدد أن الحرب التى اندلعت بين عبس وذبيان والتى عرفت بحرب داحس والغبراء كانت سبب اتهام المتسابقين لبعضهم بالغش فى نتيجة السباق بين داحس وهو حصان لقيس بن زهير والغبراء وهى فرس لحذيفة بن بدر (انظر ، ابو عبيدة ، أيام العرب ، جمع وتحقيق عادل جاسم / ١٤٨ وما بعدها .

(٢) انظر الحميدى ، جذوة المقتبس / ٢٨٩ - عبادة كحلية ، تاريخ النصارى فى الأندلس . / ١٧٦

(٣) ابن عبد الرؤوف : آداب الحسبة والمحتسب / ١١٣

(٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحبحى / ١٩٣

(٥) البيان المغرب . ج ٢٢٢/٢

(٦) المن بالإمامة / ٢١٥

(٧) ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ، ٣٤٣

(٨) المصدر نفسه والصفحة حاشية رقم (١) .

(٩) اللمحة البدرية / ٩٠

(١٠) المقرى : نفخ الطيب ج ١٧٤/٧

(١١) يوسف شكرى ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر / ١٣٦

(١٢) الإحاطة ، ج٢ / ٢٥٠

(١٣) السيد عبد العزيز سالم (صور من المجتمع الأندلسى) مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج١٩/٧٢-٧٣

(١٤) ابن عذارى . البيان المغرب ج١٥٩/٢و٢٥٩

(١٥) ابن حلجل ، طبقات الأطباء . تحقيق فؤاد سيد /١٠٧ - ابن حيان ، المقتبس ، ج٥/٤٧١

(١٦) ابن عذارى , البيان الغرب ج ٦٦/٢

(١٧) ابن عذارى . المصدر السابق ج ٦٣/٢

(١٨) السيد عبد العزيز (صور من المجمع الأندلسى) مقال بمجلة الدراسات الإسلامية بمدريد ص٧٢

(١٩) المقر ، نفح الطيب ج ٢٠٨/١

(٢٠) المقرى ، المصدر نفسه ج ١٩٨/١ . وبحر الروم هو البحر الأبيض المتوسط .

(٢١) البرك . جمع البركة . طائر مائى صغير أبيض . انظر (لسان العرب مادة : برك) .

(٢٢) ابن بسام ، الذخيرة ق١ ، ج٢/٦٨٣ والتوديع الفصد انظر الصفحة المذكورة ح رقم٤ ، انظر أيضًا وسالة طردية فى صيد الظباء لأبى عبد الله محمد بن الحناط فى خريدة القصر ج٢/٢٩٧-٢٩٨

(٢٣) انظر السيد عبد العزيز سالم : المقال السابق /٧٢-٧٣

(٢٤) الأصفهانى خريدة القصر ج٢/ ٣٠٢-٣٠٣

(٢٥) السيد عبد العزيز سالم . صور من المجتمع الأندلسى ٧٨

(٢٦) ابن الخطيب ، الإحاطة ج٣/٢١٥ وكان أخوه أحمد مولعًا بالصيد انظر المقرى ، النفح ج٤ / ١٨٠-١٨١

(٢٧) انظر على سبيل المثال المقرى ، أزهار الرياض ، ج٢ /١٠٥-١٠٦

(٢٨) يوسف شكرى ، مرجع سبق ذكره ١٣٦

(٢٩) انظر السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع الأندلسى ٧٤ وما بعدها .

(٣٠) السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع الأندلسى / ٧٩

(٣١) أمين الخولى . الرياضة والحضارة الإسلامية / ٢٨٤

(٣٢) انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٢ / ٧٩

(٣٣) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج٢/٣٢٨

(٣٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ج٢ / ٣٨١

(٣٥) نسبة إلى مدينة أشبونه وهى لشبونه عاصمة البرتغال حاليًا .

(٣٦) ابن بسام ، الذخيرة ق٢ . ج٢ / ٧٨٦ وما بعدها .

(٣٧) انظر لسان العرب . مادة خرق .

(٣٨) بن زهر ، كتاب الأغذية ١١٤

(٣٩) أمين الخولى ، الرياضة والحضارة الإسلامية ٢٧٢

(٤٠) أمين الخولى ، نفس المرجع / ٣٠٠

(٤١) شرح المسعودى ما هية هذه اللعبة وصفتها وآلاتها ، للوقوف على ذلك ، انظر مروج الذهب ج٤ / ٣٢٥

(٤٢) المقتبس . تحقيق محمود مكى ١٨٠ - ١٨١ وما بعدها .

(٤٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ج٣ / ٩٤

(٤٤) ابن بسام ، الذخيرة ق١ ج١ ٢/ ٦٦٧

(٤٥) المراكشى ، المعجب / ١٧٩

(٤٦) ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء / ٥٢٢

(٤٧) ابن أبى صعيبة - نفس المصدر / ٥٣٦

(٤٨) الإحاطة ج٣ / ١٣٤

(٤٩) ابن الخطيب ، الإحاطة ج٢ / ٢٥٠

(٥٠) انظر الزجالى ، أمثال العوام ق١ ، ص٢٥٦

(٥١) السيد عبد العزيز سالم ، صور من المجتمع الندلسى ، (بحث مبجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد جـ١٩ ١٩٧٦ - ١٩٧٨ ص٧٨

(٥٢) أشار إلى هذا النص د. أحمد مختار العبادى نقلاً عن ابن الخطيب . الإحاطة (نسخة الاسكوريال لوحة ٤٤١) .

(٥٣) انظر أحمد مختار العبادى / مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس ٦/٠ حاشية رقم (١) .

(٥٤) انظر المقرى . نفح الطيب ج ٦/ ٤٥٩ - ٤٦٠ وما بعدها .

(٥٥) المقرى . النفح ج٥ / ٥٣٠ - ٥٣١

عرفت المصارعة بين الحيوانات فى الشرق فيُذكر أن المعتز (منتصف القرن الثالث) الهجرى كان يحب مشاهد العراك بين الحيوانات وكان يدعو ضيوفه لمشاهدة العراك بين الأسد والفيل (انظر آدم متز) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٢/٢٦٤

(٥٦) الجريسفى . رسالة فى الحبسة ١٢٣ - ١٢٤

(٥٧) شكرى ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ١٣٧

(٥٨) انظر أحمد عطيــة الله ، القــاموس الإســلامى ج٣ / ٣٠٦ - ٣٠٧ - دائـرة المعارف الإسلامية ج٩/٥١-٥٢

(٥٩) ابن بســام . الذخـيرة ق١ ج٢/٦٧٧ وانظر ترجمة الأديـب ابـن الشـهيد لـدى الحميدى .

الجذوه / ٣٠٢ وقد أشار محقق الذخيرة إحسان عباس إلى أن النص يشـير فـى الأغلب إلى (خيال الظل) . كما أورده عبد العزيز الأهوانى فى مقالة المنشـور بعنـوان (على هـامش ديوان ابن قزمان ، بمجلة معهد الدراسات الإسـلامية فـى مدريـد ج١٩، ١٩٧٦ - ١٩٧٨م / ٥٤ - ٥٥) .

(٦٠) انظر ابن عذارى،البيان الغرب ج٣/٨٠ وكذلك الزجالى،أمثال العوام ق١/٢٥٤

(٦١) على هامش ديوان ابن قزمان ، بحث بمجلـة معهـد الدراسـات الإسـلامية بمدريـد ج١٩ / ٥٥ وأورد محمد ابن شريفة فى تحقيقه لأمثال العوام إشارة إلى زجل ابن قزمان إلاّ أنـه لم يربط بين لعبة القليانى وخيال الظل .

ابن قزمان هو أبو بكر محمد بن عيسى عبد الملك أمام الزجـالين بـالأندلس ولـد حـوالى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م وتوفى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م (انظر ابن سعيد ، المقتطف من ازاهـر الطرف ٢٦٣) .

(٦٢) انظر عبد العزيز الأهوانى على هامش ديوان ابن قزمان ٥٥ - ٥٦

(٦٣) انظر الزجالى ، أمثال العوام ، ق١ / ٢٥٤ حاشية رقم ٦

(٦٤) الزجالى . أمثال العوام . ق١ / ٢٥٢

(٦٥) الأبيات المذكورة أعلاه من بحر الوافر الذى وزنه :

مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن

وكلمة (ويجرى) دخلها زحاف فتُقلب من مفاعلين وهذا يسمّى [معصم] أما كلمة (وَغَجَرِىُّ) فى تستقيم أبدًا مع وزن الأبيات . ولا مع بَحْرِهَا .

(٦٦) أى الجنين الذى يبس فى البطن : انظر لسان العرب ، مادة حش .

(٦٧) انظر محمد بن شريفة . أبو المطرف أحمد بن عميرة ١٩٤ نقلاً عن الرسائل ١٤٩ (محفوظ بالخزانة لعامة بالرباط تحت رقم ٢٣٢) .

(٦٨) الزجالى . أمثال العوام ، ق ١ / ٢٥٣ .

(٦٩) الزجالى . نفس المصدر والقسم والصفحة .

(٧٠) انظر الذخيرة ، ق١ ج٢/٦٥٤ ، الزجالى ، أمثال العوام ق١/٢٥٤

(٧١) رسالة فى آداب الحسبة /٨٣

(٧٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢/٦٠

(٧٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجى ١٠٧

(٧٤) الإدريسى ، نزهة المشتاق ج٢/٥٦٦

(٧٥) المغرب فى حلى المغرب ج٢/٤٣٤-٤٣٥

(٧٦) انظر ابن سعيد ، القدح المعلى ٧٣ - ٧٥

(٧٧) النواريج مفردها النيرج وهو أُخَذٌ تشبه السحر وليست بحقيقة وإنما هو تشبيه وتلبيس (لسان بالعرب . مادة نرج) .

(٧٨) ابن عبد الرؤف ، آداب آداب الحسبة والحتسب ١١٣

(٧٩) الإشارة إلى السندى هنا قد تكون عائدة إلى لعبة معينة أدخلها أحد الهنود إلى الأندلس فعُرفت به ويبدو أنها قريبة مما يعرف فى عصرنا هذا برياضة اليوغا .

(٨٠) رسالة فى آداب الحسبة ٨٣

(٨١) ابن عبد الرؤف . آداب الحسبة والمحتسب ١١٢

(٨٢) الجرسيفى ، رسالة فى الحسبة ١٢٣ - ١٢٤

(٨٣) الجرسيفى ، نفس المصدر والصفحة .

(٨٤) انظر الزجالى . أمثال العوام ، القسم الأول ٢٣٩

(٨٥) الزجالى ، المصدر نفسه والجزء ٢٤٠

(٨٦) الجرسيفى ، رسالة فى الحسبة ١٢٣ - ١٢٤

(٨٧) المقرى ، ج٣/٢٨

(٨٨) المراكشى ، العجب ، المعجب ٢٢٥

(٨٩) الحميدى ، حذوة المقتبس ٢٧٦

(٩٠) الحميدى ، الجذوة / ٢٨٩ وانظر أيضًا أمثلة أخرى لدى الأصفهانى، خريدة القصرج ٢ / ١٣١

(٩١) عبادة كحيلة ، تاريخ النصارى فى الأندلس ١٧٦ - ١٧٧

(٩٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ج١/١٣٨

(٩٣) ابن سعيد ، القدح المعلى /٩٥ وتحفة القادم /٦٨

(٩٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ج١/٩٩

(٩٥) ابن الخطيب المصدر نفسه ج١/١١٧ - ١٣٨

(٩٦) انظر المقريزى : نفح الطيب ج٣/١٢٧ حيث وصفه بأنه (حوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية مام لم يجده أحد من أهل صناعته) .

(٩٧) ابن أبى صيبعة ، عيون الأنباء / ٤٩٣ - ٤٩٤

(٩٨) ابن الأنبار ، الحلة السيراء ج١/ ٢٠٢

(٩٩) الحميدى ، حذوة المقتبس ٢٤٠

(١٠٠) الحميدى ، الجذوة ١٩٦

(١٠١) الزبيدى ، طبقات النحويين واللغويين ٣٠٠

(١٠٢) الزبيدى ، نفس المصدر ص ٢٩٠

(١٠٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ق٣ ج١/١٠٠

(١٠٤) ابن عبد الرؤف ، آداب الحسبة والمحتسب ١١٢ - ١١٣

(١٠٥) انظر على سبيل المثال الإحاطة ج٣/٨٥ - ٩٧-١٦٠-١٩٦-٢٢٨ وكذلك ج٢/٧٣ . وأصحاب التراجم المذكورة هناك كانوا فى قرون متأخرة من تارخ الأندلس .

(قائمة المصادر والمراجع)

(١) ابن أبى أصيبعة . (ت ٦٦٨ هـ)

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا .

دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٦٥م .

(٢) الإدريسى ، محمد بن محمد (ق ٦هـ)

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . مكتبة الثقافة الدينية القاهرة .

(٣) الأصفهانى ، عماد الدين محمد (ت ٥٧٩هـ) .

خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد العروسى وآخرين ، الدار التونسية للنشر ، ط الثالثة .

(٤) ابن بسام ، على بن بسام (ت ٥٤٢ هـ) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٣٩٨هـ .

(٥) الجرسيفى ، عمر بن عثمان (ق ٦هـ) .

رسالة فى الحسبة ، تحقيق ليفى بروفينسال ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥م .

(٦) الحميدى ، محمد بن أبى نصر (ت ٤٨٨هـ) .

جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس . الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦م .

(٧) ابن حيان ، حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ) .

المقتبس فى أخبار بلد الأندلس . تحقيق عبد الرحمن الحجى . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٥م وكذلك الجزء الذى حققه محمود مكى دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٣م .

(٨) ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عنان ج١ ط الثانية ح٢و٣و٤ ط يالأولى مكتبة الخانجى القاهرة .

(٩) الزبيدى ، محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ) .

طبقات النحويين اللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل . دار المعارف ط الثالثة.

(١٠) الزجالى ، عبد الله بن أحمد (ت٦٩٤هـ) .

أمثال العوام فى الأندلس ، دراسة وتحقيق د / محمد بن شريفة منشورات وزارة الدولة المكلفة بشئون الثقافة . مطبعة محمد الخامس بفاس .

(١١) ابن زهر ، عبد الملك بن زهر (ت ٥٥٧هـ) .

الأغذية . تقديم وتحقيق . إكسبيرائيون غارثيا المجلس الأعلى للأبحاث العلمية معهد التعاون مع العالم العربى ، مدير ١٩٩٢م .

(١١) ابن سعيد ، على بن موسى (ت ٦٨٥هـ) .

(١) المغرب فى حلى المغرب. تحقيق شوقى ضيف. دار بالمعارف ، القاهرة ١٩٦٤م.

(٢) القدح فى التاريخ المحلى . اختصره محمد بن عبد الله بن خليل ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، دار الكتب اللبنانى ، بيروت ط الثانية ١٩٨٠م .

(١٢) ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك (ت ٥٩٤هـ) .

المن بالإمامة ، تحقيق عبد الهادى التازى . دار المغرب الإسلامى . بيروت ١٩٨٧م .

(١٣) ابن عبد الرؤوف ، أحمد بن عبد الله (ق ٥هـ) .

رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب . تحقيق ليفى بروفنسال . مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥م .

(١٤) أبو عبيدة ، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) .

أيام العرب . جمع وتحقيق عادل جاسم . مكتبة النعضة العربية بيروت ، ط الأولى ١٩٨٧م .

(١٥) ابن عذارى ، أبو عبد الله محمد (ق ٨هـ) .
البيان المغرب فـى أخبار الأندلس والمغـرب . ج٢ . تحقيـق ومراجعـة ج.س كولان وليفى بروفنسال . دار الثقافة بيروت .
(١٦) المسعودى ، على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق محمد محى الدين عبد الله عبد الحميـد. مطبعة السعادة . القاهرة . ط الرابعة ١٩٦٤م .
(١٧) المراكشي ، عبد الواحد بن على (ت ق ٧هـ) .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . تصحيح وتعليـق . محمـد سعيد العريـان ومحمد العربى العلمى . دار بالكتاب . الدار البيضاء . ط السابعة ١٩٧٨م .
(١٨) المقرى ، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ) .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق إحسـان عبـاس . دار صـادر بيروت ١٩٦٨م .
(١٩) ابن منظور ، جمال الدين محمد .
لسان العرب . دار صادر ، بيروت .

(أ) المراجع :

- **أحمد عطية الله** : القاموس الإسـلامى ، ج٢ مكتبـة النهضـة المصريـة القـاهرة ١٩٦٦م .
- **أحمد مختار العبادى** : مشاهدات لسان الدين بن الخطيـب . مؤسسـة شباب الجامعة . الإسكندرية ١٩٨٣م .
- **آدم متز** : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابـع الهجـرى . تعريـب محمـد عبـد الهادى أبو ريده . دار الكتاب العربى ، بيروت ط الرابعة ١٩٦٧م .
- **أمين الخـولى** : الرياضـة والحضـارة الإسـلامية . دار الفكـر العربـى القـاهرة ١٩٩٥م .

- **عباده كحيلـه** : تـاريخ النصـارى فـى الأندلـس ، المطبعـة الإسـلامية الحديثـة القاهرة ١٩٩٣م .
- **محمد بن شريفه** : أبو المطرف أحمد بن عميرة حياته وآثاره ، منشورات المركز الجامعى للبحث مطبعة الرسالة . الرباط ١٩٦٦م .
- **يوسف شكرى** : غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، المؤسسة الجامعية للدراسات الجامعية والنشر ، بيروت ط الأولى .

(ب) الدوريات :

- **السيد عبد العزيز سالم** : صور من المجتمع فـى عصـر الخلافـة الأمويـة وعصـر دويلات الطوئف من خلال النقوش فى علب العـاج ، (بحيث بمجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد ج١٩ سنة (١٩٧٦ - ١٩٧٨م) .
- **عبد العزيز الأهوانى** : على هوامش ديوان ابن قزمـان (بحث بمجلة معهد الدراسات معهد الإسلامية فى مدريد ج١٩ سنة ١٩٧٦ - ١٩٧٨م .
- **دائرة المعارف الإسلامية** : تعريب أحمد الشنتناوى وإبراهيـم زكـى خورشـيد وعبد الحميد يونس . دار الفكر .

الصرب بين البيزنطيين والبلغار

د. عادل عبد الحافظ حمزة(*)

أصل الصرب :

قيل فى تفسير كلمة " الصرب " إنها ترجع إلى أصل قوقازى هو لفظ "صير" Ser ، بمعنى رجل ، مع إضافة علامة الجمع التى تلحق بآخر الكلمة وهى "بى" ، فتصبح " صربى " : أي " رجال " . وقد ورد اسم الصرب للمرة الأولى فى القرن السادس الميلادى فى كتابات الجغرافى فيبيوس سكويسبوس Vibius Sequespus(١) فى حين يذكر بعض البيزنطيين أن كلمة " صرب " تعنى فى لغة الرومان " العبيد " وأنها باللغة الدرجة " صربولا " Serbula بمعنى الذين يلبسون النعال الحقيرة(٢) ويبدو أن هذا التفسير قد ألحق بالصرب للحط من شأنهم ، فى ضوء خضوع الصرب للبيزنطيين ردحا طويلاً من الزمن .

أما عن أصل الصرب فقد أرجعه كثير من المؤرخين إلى السلاف Slaves الجنوبيين أو اليوجسلاف(٣) . وهؤلاء من العناصر الآسيوية التى تنتمى لمجموعة الشعوب الأوربية القديمة الذين قطنوا المنطقة الواقعة خلف جبال الكربات شمالاً ما بين نهرى الفيزل والدينيير(٤) وينقسم الصرب داخليًا إلى قسمين : صرب يوجسلاف، يبدو أنهم من مجموعة سلافيه تشمل (السلوفان والكروات والصرب والبلغار) ومجموعة الشرق الروسية(٥) غير أن الصرب انشقوا عن السلاف ، وظهروا فى بداية القرن السادس الميلادى فى ألمانيا بمناطق " ماجد بورج " Mageburg وانهالت Anhalt(٦) حيث عاشوا بين نهرى الإلب Elbe والسال

---

* أستاذ مساعد بكلية الآداب – جامعة المنيا .

Sale(٧) ونتيجة لضغط الأقار أوغل الصرب وكذلك الكروات في تراقيا ومقدونيا(٨) .

وكان أن حدث صراع على الميراث بين ولدى رئيس الصرب فى أوائل القرن السابع ، فلجأ أحدهما مع أتباعه إلى الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠ - ٦٤١هـ) ليساعدهم فى للاستقرار فى مكان جديد . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى وجدها فرصة ليستغل هؤلاء ضد الآفار الذين يقلقون الإمبراطورية البيزنطية ، مما يوضح أن هذه الجموع الصربية كانوا فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم قادرين على صد الآفار بدليل استجابة الإمبراطور البيزنطى لطلبهم(٩) . على أية حال فإن الإمبراطور وطن جزءًا من الصرب فى الأماكن التى طرد الآفار منها وخاصة إقليم تسالونيكا Thessalonica ، وفى المنطقة شمالى جبال أو لمبياس Olympus وهى التى أطلق عليه " صربيليا " Serblia . ويتعجب بعض المؤرخين من قدرة هذا المكان على استيعاب تلك الأعداد من الصرب(١٠) وأن كان يمكن القول أن أعداد تلك الجموع لم تتعد بضعة آلاف ، فضلاً عن إن جزءًا منهم فقط هو الذى استقر فى المكان الجديد وليس كل الصرب كما سبق القول .

وقد مكث هذا الفريق من الصرب فترة ليست طويلة ثم عاودهم الحنين للعودة مرة أخرى إلى أماكنهم الأصلية حيث بقية بنى جلدتهم يعيشون فيما بين نهرى الآلب والسال إلى جانب الهنغاريين ، وذلك فى المنطقة التى يطلق عليها اسم بوجكى Bijki المجاورة لكرواتيا التى تسمى البيضاء(١١) . ولكن حدث أثناء عودتهم - عند عبورهم نهر الدانوب - أن عدلوا عن رأيهم ، وفكروا فى العودة مرة ثانية إلى أحضان الدولة البيزنطية . لذلك أرسل أميرهم بورجا Porga إلى الإمبراطور البيزنطى هرقل يطلب منه من الصرب منطقة أخرى يستقرون فيها ، فسمح لهم الإمبراطور البيزنطى بالاستقرار فى إقليم نسب إليهم وعرف باسم بلاد الصرب serbia بالإضافة إلى عدة مناطق تحمل أسماء الباجانى والزاكلومى

Zachlumi وتربونيا Terbounia والكانـاليت Kanalites وهـذه الأقـاليم كـانت خاليةبعد ما هجرها أهلها من الرومان إمام الزحف السلافى(١٢).

ويبدو كما يرى بعض الباحثين أن الذى كـان قد دفع الصربيين إلى اتخاذ قرار العودة إلى بلادهم هو أن الأرض التـى حاولوا الاستقرار فيها كـانت مجدبة فقيرة وأنهم لم يفلحوا فى أن يعايشوا أهل البلاد الأصليين من اليونانيين فضلاً عما ألقى عليهم من بعض الالتزامات ، مما دفعهم إلى الاتجاه نحـو الدانـوب . هـذا مـن ناحية ؛ ومن ناحية أخرى ربما دفعهم إلى تغيير رأيهم عند وصولهـم إلى الدانـوب ، و التفكير فى الاستقرار فى شبه جزيرة البلقان ، أنهم أدركوا أن هناك أرضـا لهـم، وأن أتباعهم وذويهم من القبائل الأخرى استقروا فيها(١٣) .

وهكذا أخذت قوافل الصرب تتجه نحو المناطق الآنفـة الذكـر التـى منحهـم إياها الإمبراطور البيزنطى هرقل فى أوائـل القـرن السـابع الميـلادى . غـير أنهـم لم يقنعوا بما صار تحت أيديهم من بلاد ، وإنما تطلعوا إلى غـرب أوربـا ، شـأنهم فـى ذلك شأن غيرهـم من الشعوب التى استقرت فى شرق أوربا ، مثل الهنغـاريين بعـد ذلك . على أى حال فإن هنـاك إشـارات فـى المصـادر تشير إلى هجـوم الصـرب خلال القرن الثامن الميلادى على إقليم ثورنجيا سنة ٧٨٢م ، حيث احتكوا بقـوات الفرنجة(١٤) ، التى تصدت لهم وجعلت حركتهم التوسعية تقتصر على شبه جزيرة البلقان . وكان أن استطاعوا فى بدايات القرن التاسع الميلادى احتلال بعض المـدن وتدمير ما قاومهم واعترض سبيلهم ، مثل سـنجو دينـوم Singidunum "بلجـراد " Belgrade وفيمينا سيوم Vimindeum وكوستولان Kostolan على نهر الدانوب، وديوشيا Diociea وتيتـو جـراد Titograd فـى مونتنجـرو Mentenegro وسـالونا Salona التى انقسمت إلى دلمـا شيا(١٥) هـذا بالإضافـة إلى أن الصربيـين فرضـوا سيطرتهم على القبائل السلافية بين نهرى الألب والساله(١٦) واستقروا فـى تلـك المنطقة حيث كونوا دولة يحدها مـن الشـمال الغربـى كرواتيـا Croatia والبوسـنة

Bosnia ومن الغـرب هرسـكجوفينا Hercegovina ومنونتنجرو ، ومـن الجنـوب العربى البانيا Albania ومن الجنوب مقدونيا ، ومن الشرق بلغاريا ورومانيا ، ومن الشمال المجر(١٧) ، وكانت جبال الألب الديناريه تحوط بلاد الصرب من الغـرب، ومن الشمال جبال الألب الألبانية " بروكلتيـى " Prokletige ، وجبـال شـار فـى الاتجاه الجنوبى الغربى وجبال البلقان فى الشرق ، بالإضافة إلى نهر الدانوب الذى يتدفق من الشمال إلى الجنوب ليفصل بين يوغسلافيا ورومانيا(١٨) ومن ثم تكون دولة الصرب قد امتدت من بلجراد إلى شاطئ البحر الأدرياتى(١٩) .

هذا عن المكان الذى استقر فيه الصرب ، أما عن لغتهم فهى تشـبه إلى حـد كبير اللغـة الكرواتيه باستثناء بعـض اختلافـات لغويـه فـى المفـردات واسـتخدام الأحرف الهجائية المختلفة . والكروات يستخدمون الحروف الرومانيـة اللاتينـة فـى حين أن الصرب يستخدمون الحروف السيرليه و النصوص الأولى التى وجدت فـى اللغه الصربية والكرواتية يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر الميلادى(٢٠) .

الصراعات الداخلية بين أمراء الصرب :

وهكذا لم يكن ينتصف القرن التاسع الميلادى إلا وكانت الشعوب والقبـائل الصربية قد كونت كيانًا سياسيًا وعسكريًا لها ، وتلقب أميرهم الذى تـولى القيـادة السياسية بلقب زوبان Zupan (٢١) وسرعان ما غدت مجموعة مدن صربيا عامرة بالسـكان ، مثـل دسـتنيكون Destinikon وتزرنـا بوسـكى Tzernabouskei وبحيرتوس Megyretous ودرسـنيك Dersneik ولسـنيك Lesnik وسـالينس Salines ، وفى إقليم البوسنة Bosona توجد مدن كاتيرًا Katera وغيرها(٢٢) .

ولاشك فى أن هذا المجتمع الصربى الأخذ فـى النمـو والاسـتقرار قـد واجـه مشاكل سياسية داخلية لعدم استقراره استقرارًا كاملاً مـن ناحيـة ، ووجـود كثـير من الطامعين فيه من ناحية ثانية ، ولتطلع معظم الأمراء إلى السلطة من ناحية ثالثة.

وقد أعقب موت أمير الصرب بورجا Porga ابنه ثم حفيده ، ثم توالى الحكم فى هذه الأسرة واحد بعد الآخر . وقد شهد النصف الأخير من القرن التاسع اشتداد الصراع حول الحكم بين الأبناء بعضهم وبعض ولأخوة والأعمام ، مما أتاح فرصة للبلغار للتدخل فى شئون دولة الصرب .

ويمكن القول أن أمراء البيت الحاكم فى صربيا ، أعطوا الفرصة للبلغار للتدخل ، ومن ثم زاد لهيب الصراع بين أفراد ذلك البيت . ولم يقف الصراع عند هذا الحد ، فقد تدخلت بيزنطة هى الأخرى ليس ضد بلاد الصرب فحسب ، بل ضد التدخل البلغارى أيضًا ، حيث أرسل الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول Romanus 1 من القسطنطينية الأمير زكريا من بريبسلاق بن مونتيمير الصربى لينتزع الحكم من بولس بن برانواس أمير الصرب الذى سانده الأمير سيمون البلغارى ، وبذلك يكون الإمبراطور البيزنطى قد حاول الحد من النفوذ البلغارى فى بلاد الصرب . وهكذا صارت الحرب الأهلية بين أمراء الأسرة الحاكمة فى الصرب ، عبارة عن حرب بين البيزنطيين والبلغار على أرض صربية ، وقد انتهت هذه الحرب ، بانتصار بولس بن برانوس على زكريا بن بريبسلاف ، فسلم الأمير بولس غريمة الأمير زكريا للبلغار الذين أو دعوه فى السجن(٢٣) .

على أن الأمير بولس لم يلبث أن ضاق ذرعًا بالسيطرة البلغارية عليه ، ومن ثم لم يستمر على ولائه للبلغار . وعندما أدرك البلغار ذلك فكروا فى إرسال الأمير زكريا المسجون عندهم وغريم الأمير بولس ، ليحل محله فى صربيا ، وكان أن استولى الأمير زكريا على الحكم فى صربيا بمساندة البلغار لمدة أربع سنوات (٩٢٠ - ٩٢٤هـ) . غير أن الأمير زكريا لم يلبث بدوره أن سئم سيطرة البلغار عليه ، فأراد التخلص منهم . ولما أحس البلغار بذلك رأوا أنه لابد من تعديل سياستهم ، فعينوا على صربيا الأمير تزيسلاف Tzeeslav بن كلوينيمير البلغارى الأم الصربى الأب ، وسليل الأسرة الحاكمة الصربية ، وأرسله الأمير سيمون

البلغارى صحبة جيش بلغارى . وقد دبر الأمير سيمون مؤامرة قبض بمقتضاها على أمراء الصرب كلهم ، وكان من بينهم الأمير تزيسلاف نفسه . أما الأمير زكريا حاكم الصرب ، فقد فر إلى كرواتيا . وقد مكث هؤلاء الأمراء فى بلغاريا بضع سنين إلى أن استطاع تزيسلاف الهروب من بلغاريا ، ودخل صربيا من مدينة بريسلاف واستولى عليها . وعندئذ وجد البلاد وقد هجرها أهلها ، بحيث لم يبق فى صربيا إلاّ عددًا قليلاً من الناس يعيشون على الصيد . ولما كان تزيسلاف له تجارب سابقة مع البلغار ، وعلى يقين من رغبتهم فى السيطرة الجامحة على صربيا، فإنه لم يلبث عندما دخل صربيا أن تخوف من هجوم بلغارى عليه ، الأمر الذى دفعه إلى طلب المساعدة العسكرية من الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول (٩١٩ – ٩٤٤م) على أن يكون تابعًا له . ولاشك فى أنها كانت فرصة عظيمة للإمبراطور البيزنطى ، تمكنه من السيطرة على صربيا وأمرائها ، فأرسل قوات عسكرية لأمير الصرب بريسلاف . وعندما شعر الصربيون الذين فروا من بلادهم إلى بلغاريا وبيزنطة وكرواتيا بسبب الحرب الأهلية من ناحية والهجوم البلغارى البيزنطى من ناحية أخرى بالأمان ، أخذوا يعودون إلى بلادهم صربيا ، فى حين عمل تزيسلاف (٩٢٧ – ٩٥٠) على النهوض بالعمارة فى بلاده وتوطين الصربيين فيها(٢٤) . وبذلك يكون الصراع البيزنطى البلغارى قد اتخذ من بلاد الصرب ساحة له ومن أمرائها أداة لتدمير هذه البلاد وتشتيت سكانها وتخريب ديارهم وإشاعة الفوضى وعدم الاستقرار بين ربوعها .

الصرب والمسيحية :

كانت القبائل الصربية أيا كان مصدر هجراتها وثنية فى أول أمرها ، وخاصة إذا علمنا أن تحرك هذه القبائل بدأ غالبا قبل القرن السادس الميلادى ، فى وقت لم تكن المسيحية قد انتشرت انتشارًا واسعًا فى شرق أوربا . وبعبارة أخرى فإن القبائل الصربية التى استقرت فى الإمبراطورية البيزنطية أوائل القرن السابع

الميلادى أبان عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) كانت وثنية ، ولم تكن قد اعتنقت المسيحية بعد(٢٥) وقد دفع ذلك الإمبراطور إلى أن يطلب من روما إرسال مبشرين لتنصير الصربيين وليشرحوا تعاليم المسيحية وجوانبها(٢٦) .

وهكذا أخذت الإمبراطورية البيزنطية على عاتقها القيام بعملية تنصير الصرب واستمرت هذه السياسة بعد عهد الإمبراطور هرقل ، إذ يشير بعض المؤرخين إلى أن هناك محاولات فى هذا الصدد بذلت من قبل الإمبراطورية البيزنطيه فى عهد الإمبراطور باسيل الأولى Basil 1 (٨٦٧ - ٨٨٦م)(٢٧) ، وقد واكب ذلك فترة حكم أمير الصرب مونتيمير Montimer الذى اعتنق المسيحية على المذهب الأرثوذكسى عام ٨٧٩(٢٨) . وبذلك أخذت المسيحية تشق طريقها فى المجتمع الصربى خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد(٢٩) وكان أن أخذت الكنائس تظهر فى صربيا اعتبارًا من عهد راستكو Rastko الذى عرف بالقديس سافا Sava ، حيث أسس سنة ١٢١٩م كنيسة أرثوذكسية تحمل اسمه(٣٠) ، وعين نفسه أول أسقف لها ، فضلاً عن تأسيسه عددًا من الأسقفيات الجديدة بعد ذلك(٣١) وكان للقديس سافا طائفة ربطت المسيحية الصربية بالمراكز الدينية التى زارها ، وهى جبل أثوس Athos ، والقدس ، والقسطنطينية، و" ترنوفو " Trnovo وعند وفاته نقل رفاته من بلغاريا إلى الدير الملكى فى ملسيفا Mileseva بصربيا عام ١٢٣٧م(٣٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن صربيا أخذت بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسى ولم يتهاون أمراء صربيا ضد كل من حاول أبعاد الصربيين عن الأثوذكسيه ، وليس أدل على ذلك مما ورد فى الدستور الذى وضعه ستيفن دوشان (١٣٣١ - ١٣٥٥م) بشأن معاقبة كل من يحاول تحويل الرعايا الأرثوذكس إلى البدعة اللاتينية (الكاثوليكية) كذلك الزواج بين الأرثوذكس وأنصاف المؤمنين ، يعنى الكاثوليك . ولا شك فى أن هذا الاتجاه يحمل بين ثناياه

عداء بين ستفن دوشان والبابوية . غير أن هذا العداء كان لا يبدو إلا فى أوقات السلام الصربى فقط ، أما إذا توترت العلاقات بين الصرب والبيزنطيين فإن ستيفن كان يمالئ البابويه(٣٣) على أية حال فإن ستيفن دوشان بذل جهدا كبيرًا لدعم المسيحية الأرثوذكسية الصربية وحسبه أنه أنشأ البطريركيه الصربية(٣٤) .

ولا شك فى أنه بالإضافة إلى جهود أمراء صربيا فى نشر المسيحية بين الصرب لا ننسى دور البيزنطيين فى هذا المضمار . وقد حرصت الدولة البيزنطية على إرسال البعثات التبشيرية إلى صربيا خوفًا من تغلغل النفوذ الدينى البلغارى فيها ، لما هناك من عداء مستمر بين البيزنطيين والبلغار ، وعليه فقد انتشرت المسيحية الأرثوذكسية فى صربيا(٣٥) .

علاقة الصرب بالبيزنطيين والبلغار :

كان للصرب منذ وقت مبكر أطماعهم التوسيعه على حساب جيرانهم مما أوقعهم فى صدام مع هؤلاء الجيران ، وهو ما يشير إليه التاريخ فى موقف شار لمان منهم وسيطرته على بعض القبائل الصربية(٣٦) ويغلب على الظن أن قوات شارلمان لم تصل إلى بلاد الصرب إلا فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، وذلك بعد أن هاجمت بعض القبائل الصربية إقليم ثورنجيا عام ٧٨٢م(٣٧) .

كذلك حدث صدام بين الإلمان وأقوى قبيلة صربية وهى اللوساكيين Luscians (٣٨) ، كما أصطدم التشيك Czechs بالصرب(٣٩) .

وهناك بعض المؤرخين ذكر أن السكسون هجموا على الصرب فى بلادهم فى ربيع سنة ٩٢٩م تقريبًا ، وخاصة على قبيلة الدالمنيزى Daleminzi الصربية(٤٠) .

هذا فيما يخص المناوشات التى حدثت بين الصرب وبعض القوى الغربية . ومن الواضح أنها لم تستمر طويلاً ، وإنما كانت عبارة عن هجمات خاطفه من

الجانبيين ، فهى إذا كانت من جانب الصرب فهى على ما يبدو بهدف البحث عن مكان للاستقرار ، أو البحث عن غنائم ، أو وضع اقتصادى أفضل . وإذا كانت الهجمات من جانب القوى الأوربية الغربية سواء من الفرنجة أو التشيك أو السكسون فهى فى الغالب لاحتواء قبائل الصرب حتى لا تقلقها أو لأسكاتها حتى لا تكرر هجماتها .

أما علاقة الصرب بالدولة البيزنطية والبلغار فقد اختلفت اختلافًا بينًا . ويبدو إن الصرب عاشوا فى وئام مع الإمبراطورية البيزنطية بعد عصر هرقل خلال القرون السابع والثامن والتاسع للميلاد . وانتهج الصرب نفس السياسية تجاه البلغار ، بل كانت هناك - أحيانًا - صداقة قائمة بين الطرفين لأنهما سويا يخشون قوة الإمبراطورية البيزنطية(٤١) .

والذى لا شك فيه هو أن قوة الصرب أقل بكثير من قوة البلغار ، الأمر الذى كان يدفع الصرب إلى التودد للبلغار ، ولكن البلغار كانت لهم أطماع سياسية فى بلاد الصرب ، أدناها إخضاع أمراء الصرب للسيطرة البلغارية ، ومن ثم فإن هناك محاولات بذلت من جانب البلغار لتنفيذ مخططاتهم ضد الصرب . وبدأت أولى هذه المحاولات فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى فى عهد أميرهم برسيام Persiam (٨٣٦ - ٨٥٢م) إذ شنوا حربًا ضد الصرب استمرت قرابة ثلاث سنوات ، وكان أمير الصرب عندئذ هو بلاستيمير Blastimer . غير أن البلغار لم يتمكنوا من الانتصار على الصرب بل حلت بهم الهزيمة ، وبالتالى ذهبت أمال البلغار تلك المرة أدراج الرياح فى محاولة الاستيلاء على بلاد الصرب . ثم كرر البلغار المحاولة مرة أخرى عندما استغلوا الانقسام الأسرى الذى ساد بين الأمراء فى بلاد الصرب والذى نشب بين أولاد بلاستيمير الثلاثة بعد وفاة والدهم، فزحف الأمير البلغارى ميخائيل بوريس Michael Boris بن برسيام لتحقيق آمال والده فى بلاد الصرب وينتقم منهم ، لكن الصرب هزموه هزيمة ساحقة ، وأسروا

ابنه فلاديمير Vladimer . وعندئذ لم يكن أمام أمير البلغار ميخائيل إلا التفكير جديًا فى أمرين هامين هما ؛ إطلاق سراح ابنه من الأسر ، والخروج بجيشه سالمًا من بلاد الصرب . لذلك طلب من أمير الصرب مونتيمير أن يفك أسر فلاديمير ، ويحميه بقواته حتى يخرج من بلاد الصرب ، بالفعل أرسل مونتيمير ولديه بوريناس Borenas وستيفن Stephen ليصحبا الأمير البلغارى ميخائيل وجيشه إلى أن غادر بلاد الصرب ، ووصل إلى بلاده آمنًا . ويبدو أن الأمير البلغارى اعتبر مغادرته بلاد الصرب دون المساس به وبقواته جميلاً أسداه له الأمير الصربى . وليس أدل على ذلك من إرساله الهدايا الفاخرة للأمير الصربى مونتيمير الذى اعتقد أن ما فعله أمير البلغار يعبر عن صفاء سماء العلاقات بينهما ، وأن ذلك إيذانًا بفتح صفحة جديدة بينهما . والدليل على ذلك أنه رد على هدايا الأمير البلغارى بإرساله ثمانية عشرة قطعة من الفراء وكلبين وصقرين وعبدين له. غير أن الأمير البلغارى ومن معه من أمراء البلغار اعتبروا هذه الهدايا تعبيرًا من أمير الصرب عن ولائه وخضوعه لأمير البلغار ، أى أنها بمثابة إتاوة(٤٢) . على أية حال ترتب على هذا توطيد العلاقة بين الصرب والبلغار ، ووصل الأمر إلى زواج الأمير الصربى كلونيمير Klonimer بن ستروبمير من امرأة بلغاريه ، أنجب منها تزيسلاف Tzeaslav (٤٣) .

ومهما يكن من أمر هذه الفترة من العلاقات الصربية البلغارية ، فإن حكم الأمير الصربى بطرس بن جوينيكوس بن بلاستيمير (٨٩٢ - ٩١٧م) عاصر فترة حكم كل من الأمير البلغارى سيمون (٨٩٣ - ٩٢٧م) والإمبراطور البيزنطى ليو السادس Leo VI (٨٨٦ - ٩١٢م) . ويذكر بعض المعاصرين أن الأمير بطرس الصربى من جانبه ناشد السلام مع الأمير البلغاري سيمون ، كما دان - بطرس - بالولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطى ليو السادس . غير أنه حدث بعد وفاة الأخير وإعلان الوصاية على الإمبراطور القاصر قسطنطين السابع، أن جاء الحاكم العسكرى البيزنطى لإقليم دايرًا كيوم ، وكان يدعى ليو رابدوكوس Leo

Rhabduchus إلى إقليم باجانى الصربى لينافس الأمير بطرس حول بعض الموضوعات . وقد أزعج ذلك مخيائيل أمير زاكلومى (٩١٣ - ٩٢٦م) ، فكتب إلى الأمير سيمون البلغارى يذكر له أن الإمبراطور البيزنطى أرسل إلى الأمير بطرس الصربى يطلب منه مساعدة الصرب للهنغاريين(٤٤) لمحاربة البلغار. ولا شك فى أن ذلك أدى إلى استياء الأمير البلغارى من المكائد البيزنطية ضده ، الأمر الذى ترتب عليه حدوث معركة بين البيزنطيين والبلغار فى ٢٠أغسطس ٩١٧م عرفت بمعركة أخيلو Achelo . ولم يكتف الأمير سيمون البلغارى بهذا بل وجه جهوده العسكرية ضد الأمير بطرس الصربى فأرسل جيشًا بقيادة سيجر يتيس تيودور Sigritzis Theodor ومارمياس Marmais سنة ٩٢٠م . وكانت خطة الأمير البلغارى تستهدف خلع الأمير بطرس من بلاد صربيا وتعيين أمير صربى موال للبلغار ويكون على عداء مع بطرس . وقد وجد البلغار ضالتهم المنشودة فى الأمير الصربى بولس بن برانوس بن مونتيمير بن بلاستيمير الذى كان بطرس قد سمل عينى والده وحتى لا يلجأ البلغار إلى حرب طاحنة مع الصرب تكون نتيجتها الفشل كما سبق ، لجأ البلغار إلى الحيلة والخداع ضد الأمير الصربى بطرس ، فأظهروا له أنهم أصدقاء منذ القدم ؛ وأن هناك روابط ودلائل تشير إلى ذلك ، ولا داعى للتخوف منهم . وبالفعل اطمأن الأمير بطرس تمامًا وقابلهم . وعندئذ خانوا القسم الذى اقسموه على أنفسهم بأنهم لن يخونوه وتنصلوا من تعهداتهم، فقبضوا عليه وخلعوه من الحكم وعينوا بدلاً منه أميرهم الصربى بولس الذى جاءوا به من بلغاريا . أما بطرس فقد أخذه البلغار وسجنوه عندهم حتى مات وهو فى السجن(٤٥) .

وإزاء هذا التدخل البلغارى السافر فى صربيا ، لم تستطع بيزنطة الوقوف مكتوفة الأيدى . فإذا كانت بلغاريا قد فرضت أميرًا صربيًا من قبلها على صربيا ، فإن معنى ذلك الحد من النشاط البيزنطي فى المنطقة أمام انتشار النفوذ البلغارى .

وهذا ما لا تحتمله بيزنطة : وإمام هذه الأعمال البلغارية فى صربيا ، قام الإمبراطور البيزنطى روما نوس الأول (٩١٩ - ٩٤٤م) بإرسال الأمير الصربى زكريا بن بريبسلاف بن مونتيمير بن بلاستيمير الذى كان مقيمًا فى بيزنطة ، مؤيدًا عسكريًا منها ليحارب الأمير الصربى بولس المعين من قبل البلغار ، ودخل الأميران فى صراع انتهى بانتصار الأمير بولس على الأمير زكريا المدعم بمساعدة بيزنطية ، وأسره وسلمه لبلغار الذين أخذوه والقوا به فى السجن مثلما ألقوا بيطرس من قبل(٤٦) .

لقد حكم بولس بلاد الصرب ثلاث سنوات تحت رعاية البلغار ، لكنه ضاق ذرعًا بالتدخل البلغارى وأعلن العداء لهم . ولم ينتظر البلغار حتى تتدخل بيزنطة ، وتستغل هذا العداء ، لذا أرسلت بلغاريا الأمير الصربى زكريا بن بريبسلاف المسجون عندها ، وقد سبق أن أرسله بولس أسيرًا إليها . على أية حال تمكن زكريا هذه المرة بفضل المساعدة البلغارية من الأنتصار على بولس وهزيمته وطرده من صربيا . وغدا زكريا أميرًا على الصرب تحت السيطرة البلغارية (٩٢٠ - ٩٢٤م) . وفى الصدام بين البيزنطيين والبلغار قرر الأمر زكريا الوقوف إلى جانب الإمبراطور البيزنطى ، فأخذ يرسل المبعوثين إلى أباطرة الإمبراطورية البيزنطية أثناء حكمه لصربيا تحت رعاية البلغار ، وكافة رسائله إلى الإمبراطور البيزنطى تشير إلى طلب التبعية والخضوع لبيزنطية(٤٧) .

وإذا لم نسلم بما أوردة قسطنطين بورفيجنيتوس عن طلب الأمير الصربى الخضوع لبيزنطة ، فإن بيزنطة كانت تتحين الفرصة - بلا شك - للسيطرة على صربيا من حين لآخر . وأيما كان الأمر أمام العداء الذى أعلنه الأمير الصربى زكريا للبلغار ، كان على أمير البلغار سيمون أن يضع حدا لسياسة الأمير زكريا . ولم يكن أمامه غير الخيار العسكرى ، لأن البلغار لا ينظرون إلى الصرب بوصفهم أندادا لهم ، وإنما هم إتباع . ولذا فإنه لم يكن هناك مجال للمفاوضات السياسية .

وكان الحل الوحيد أمام البلغار هو إخضاع الصرب وأميرهم بالقوات العسكرية . وللمرة الثانية فى عهد سيمون أرسل جيشًا على رأسه ثلاثة من القادة ، يصحبهم أمير صربى هو تزيسلاف ، البلغارى الأم ، الصربى الأب . وهذه القوات فاقت فى عدها وعتادها مقدرة الأمير زكريا العسكرية ، ولذا لم يستطيع الصمود أمامها ففر إلى كرواتيا . ومرة أخرى خضع أمراء الصرب إمام وعود البلغار وخرجوا إليهم ، فقبض عليهم البلغار جميعًا بمن فيهم تزيسلاف نفسه سنة ٩٢٤م تقريبًا ، بالإضافة إلى كثير من أهالى صربيا ، وأخذوهم أسرى . أما الباقون من الصربيين فقد فروا إلى كرواتيا وراء الأمير زكريا ، وتركوا صربيا خاوية ، شبه خالية تمامًا من السكان . وتماديا من البلغار فى قطع الطريق على زكريا وإتباعه من الصرب الذين فروا إلى كرواتيا ، فقد أمر سيمون بإرسال فرقة عسكرية إلى كرواتيا لقتالهم، وحتى لا يفكر الأمير زكريا فى الاستغاثة بهم والعودة إلى صربيا مرة أخرى(٤٨) .

أما تزيسلاف الأمير الصربى الذى كان من المنتظر أن يعينه البلغار أميرًا على صربيا فقد جاءوا به معهم ثم خدعوا به أمراء الصرب وأسروهم جميعًا وهو معهم. وقد عاش بعد ذلك قرابة سبع سنوات فى بلغاريا يتحين الفرصة للعودة إلى بلاده أميرًا . و لم يكن فى إمكان تزيسلاف تحقيق هذا الهدف فى ظل وجود أمير البلغار سيمون لما له من شكيمة ، لذلك ما أن مات الأخير سنة٩٢٧م(٤٩) ، حتى هرب تزيسلاف من بلغاريا ومعه أربعة رجال ودخل صربيا من مدينة بريسلاف ، فاستولى على هذه المدينة . وقد خشى من هجوم بلغارى جديد على الصرب ، ولذا استغاث بالإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول ، وطلب منه قوات عسكرية بيزنطية للمساعدة ، مقابل قيام الأمير تزيسلاف بإعلان التعبيه والولاء للإمبراطور البيزنطى ، بحيث يكون خادمة الأمين ورهن إشارته ، مثلما فعل أمراء الصرب الأولين . ولا شك فى إن هذا كان كل ما يتمناه الإمبراطور البيزنطى ، فاستجاب

للأمير الصربى وأرسل إليه ما أراد من عون عسكرى ، وبذلك أصبحت صربيا فى حماية البيزنطيين . وكان بدأت صربيا مرحلة جديدة فى طريق استقرارها ، وأخذ أهالى صربيا الذين فروا منها إلى كرواتيا ، وأسرهم البلغار أو أستأ منهم الإمبراطور البيزنطى فى إمبراطوريته ، يعودون إلى صربيا . ومن ناحيته بدأ الأمير الصربى تزيسلاف (٩٢٧ - ٩٥٠م) يعمل على تعمير صربيا وتنظيمها مستغلاً ما أرسله إليه الإمبراطور البيزنطى من معونة وهدايا فاخرة وثمينة(٥٠) .

ومن هنا فإن صربيا وتوابعها مثل راسكيا Rascia وليم The Lim وإيبار Ibar وزيتا Zeta وزاكلوميا وباجانى وغيرها ، ظلت فى حماية الإمبراطورية البيزنطية حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى(٥١) إلى أن ظهر أمراء صربيون أقوياء أخرجوا أنفسهم من التبعية البيزنطية التى فرضها أمراء صربيا السابقون عليها(٥٢) مثل راسكيا التى أعلنت الحرب على الإمبراطورية البيزنطية للتخلص من الخضوع لها . وقد وقفت هنغاريا بجوار راسكيا ضد بيزنطة ، الأمر الذى ترتب عليه قيام أباطرة الإمبراطورية البيزنطية من أسرة كومنين بأنفسهم بحملات عسكرية ضد هنغاريا لمساعدتها المدن الصربية للتحرر من السيطرة البيزنطية . وأبان هذه الحركات التى قامت بها المدن الصربية ضد بيزنطة ، لجأ البيزنطيون إلى عزل أمراء الصرب ، وتعيين غيرهم موالين لبيزنطية ، لكن هذا الأسلوب وغيره مما أتبعته بيزنطة مع الصرب لم يكن ناجحًا ، فإذا رجعت القوات البيزنطية إلى بلادها سرعان ما انقلب الصرب ثانية ضد بيزنطة(٥٣) .

وعندما تولى عرش صربيا الأمير ستيفن ثيمانى Stephen Temani (١١٦٧ - ١١٩٦م) حاولت الإمبراطورية البيزنطية فرض سيطرتها على صربيا ، فاستغلت النزاع الذى ساد بين أمير صربيا وأخواته ، وشجعتهم على تقسيم صربيا ، وحصل ستيفن على نصيبه ، فزادت مكانته وأصبح هو الأمير الأكبر (الزوبان الكبير) . وعندئذ عمل على التخلص من السيطرة البيزنطية ، لكن

الإمبراطور البيزنطى ما نويل كومنـين (١١٤٣-١١٨٠م) Manuel Comnenus لم يتركه يهدأ بذلك ، إذ قام بحملة ناجحة على بلاد الصـرب أخضع بهـا ستيفن ثيمانى ، وأعلن تابعا له عام ١١٧٢م(٥٤) .

وقد احتفل بذلك الإمبراطور مانويل كومنـين عنـد دخولـه القسـطنطينية(٥٥) ، ولكن وفاة الأخير عام ١١٨٠م كان نكبة على الإمبراطوريـة البيزنطيـة ، إذ زادت هجمات الهنغاريين والنورمان عليها ، وسـعت بلغاريـا إلى التخلـص مـن السيطرة البيزنطية . وفى نفس الوقت كان فردريك الأول يخترق بحملتـه الصليبيـة الأراضـى البزنطية فى جو من سـوء تفـاهم بينـه وبـين الإمـبراطور البيزنطى إسحق الثـانى انجليوس Isac Angelus (١١٨٥ - ١١٩٥م) وأمام هذا الوضع لم يـترك ستيفن ثيمانى هذه الفرصة تمر مد يده ، فهو لم يعمل على التخلص من السيطرة البيزنطيـة فحسـب ، بـل عمـل علـى توسيع أمـلاك الصـرب علـى حســاب الإمبراطوريـة البيزنطية، إذ استولـت راسكيا على بعض المناطق ، وخاصة ما تبقى من إمارة "زيتا" وكذلك المـدن السـاحلية مثـل سـكوتارى Scutari وبـار Bar وأولسـينى Ulciny وكوتور Kotor (٥٦) ويضيف بعـض المؤرخين أن سـتيفن ثيمـانى اسـتغل قـدوم الإمبراطور فردريك الأولى بحملته الصليبية إلى الشرق ، وأعلن الترحيب به وقدم له المؤن من شعير ودقيق وأغنام وبقـر ، وهدايـا عبـارة عـن " فـرس البحـر وخنـازير وثلاثة غزلان حيه متوحشه " ، كما وزع على كل أمير مجموعة من المؤن والخمـر واللحم(٥٧) وقد فسر بعض المؤرخين هذا الموقف من أمير الصرب تجاه الإمبراطور الألمانى بأنه نكاية فى الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى انجليوس ، وإنه ربما يكـون الأمير الصربى قد طلب المساعدة العسكرية من الإمبراطور الألمـانى فردريـك الأول ضد الإمبراطور البيزنطى(٥٨) .

ولم يقف الإمبراطور البيزنطى مكتوف الأيدى أمام تصرفـات الصـرب تجـاه الدولة البيزنطية واستغلالها الأوضـاع التـى أضحـت فيهـا ، فشـن حربًـا ضدهـم ،

وتقابل مع الصرب على نهر مورافيا Moravia سنة ١١٩٠م فهزمهم وأجبرهم على طلب السلام والتخلى عن المكاسب التى حققوها على حساب البيزنطيين . ولم يكن من السهولة بمكان على الصرب تقبل شروط الإمبراطور البيزنطى ، إذ كان ما استولوا عليه خلال عشر سنوات يصعب التخلى عنه غداة معركة واحدة، ولذا ظلت مساحات كبيرة من الأراضى البيزنطية تحت السيطرة الصربية . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطى آخذ يدرك مدى قوة الصرب ، فلم تعد صربيًا هى تلك المناطق والشعوب التى تسعى للحماية البيزنطية الآن كما كانت من قبل فى عهد هرقل أو رومانوس الأول . وصار على الإمبراطور البيزنطى أن يعيد النظر فى علاقته بالصرب ، ولذا لجأ إلى تحقيق كسب سياسى عن طريق المصاهرة مع الصرب بحيث تتزوج ايودكيا Eudocia ابنة الكسيوس انجليوس Alexius Angelus من ستيفن بن ستيفن ثيمانى(٥٩) .

ومهما يكن من أمر ، فإن ستيفن ثيمانى أمير صربيا تنازل عن الحكم سنة ١١٩٦م لابنه ستيفن الثانى (١١٩٦ - ١٢٢٧م) . وكان ستيفن الأول يعتقد أنه بذلك العمل ستسود العلاقة طيبة بين الصرب والإمبراطورية البيزنطية لما بينهما من صلات نسب ، وقد أقر ابنه ستيفن ليحقق هذا الغرض ، فى حين أن الأمير ستيفن الأول أقر ابنه الأكبر فوكان Vukan على المقاطعات الصربية البحرية التى كانت بيده مثل زيتا Zeta وتريبنى Trebinge . ولا شك فى أن حرمان الابن الأكبر من تولى العرش قد أدى إلى نزاع أسرى استعان فيه فوكان بالهنغاريين وستيفن الثانى بالبلغار ، وبالتالى تدخلت القوى الخارجية فى مشاكل صربيا الداخلية من جديد ، مما اضطر الأخوان فوكان وستيفن الثانى للانسحاب إلى المناطق البحرية . وعلى الرغم من أن البلغار ساعدوا ستيفن الثانى فى استعادة العرش ، إلا أن الأخوين توصلا إلى سلام ، وبذلك قدر صربيا أن تفيق من هذه الاضطرابات الأسرية ، وأخذت تلعب دورًا جديدًا على الساحة البلقانية فشنت

حروبًا على خلفاء الأمس (بلغاريا وهنغاريا)(٦٠) ، وأصبح الطريق مفتوحًا أمامهم ناحية الامبراطورية البيزنطية ، بعدما سقطت بيزنطة عام ١٢٠٤م فى أيدى اللاتين ، وبذلك انزاحت هذه القوة التى ظلت جاثمة على قلب صربيا ردحًا من الزمن(٦١) . ولم تفلح صلة النسب بين الصرب والبيزنطيين فى توطيد الصلات الطيبة بينهما ، إذ تعددت القوى السياسية فى البلقان ، وطمعت فى السيطرة على صربيا . وشكل حلف ضم كل من الإمبراطور اللاتينى هنرى أف فلاندرز Henry of Flanders فى القسطنطينية والإمبراطور البلغارى " بوريل Boril " وحاكم ابيروس Eprius ميخائيل الأول Michael I . ولم يكن أمام ستيفن الثانى الصربى إلا الصمود أمام هذا الحلف فى المنطقة ، حتى تمكن من صده ، وأوقف خطره على الصرب . وإن دل هذا على شيئ فإنما يدل على مكانة صربيا فى عهد ستيفن الثانى بصفة خاصة وفى القرن الثالث عشر بصفة عامة(٦٢) .

ومن هنا يمكن القول أن علاقات صربيا بالدولة البيزنطية والبلغار تأثرت إلى حد كبير بوضع صربيا فى منطقة البلقان وسط القوى السياسية المحيطة بها . ولم تقتصر علاقات صربيًا على هاتين القوتين فحسب ، بل تعددت علاقاتها بكثير من القوى فى غرب أوربا كما رأينا ، وبعد سقوط بيزنطة فى أيدى اللاتين عام ١٢٠٤ م ، صار لصربيا علاقات مع أبيروس Epirus ونيقية Nicaea ، وأحيانًا مع هنغاريا Hungary فضلاً عن الأنجويين Angevins فى صقلية ونابلى(٦٣) .

الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية :

عندما استقرت القبائل الصربية فى منطقة البلقان ، كان من الصعب عليها فى البداية التخلص من الأوضاع القبلية العشائرية التى ألفها الصرب . ويصف البعض نظام الصرب عندئذ بأنه نظام عشائرى ديمقراطى ، يرتبط بالمصالح المباشرة لقبيلة أو عشيرة معينة . ولم يكن لدى القبيلة إحساس قوى بالوحدة أو المصالح المشتركة بينهما وبين القبائل الأخرى ، الأمر الذى أدى إلى إشاعة جو من الفوضى

ترتب عليهم ضعفهم بالرغم من كثرتهم العددية (٦٤) . وبطبيعة الحال لم يستمر هذا الوضع القبلى لدى الصرب بعد استقرارهم . ويرجع ذلك إلى الاحتكاك بينهم وبين البيزنطين ، إذ بدأ التأثير البيزنطى تظهر ملامحه على المجتمع الصربى ، خاصة بعد توزيع الأراضى التى استولى عليها الصرب من أصحابها الأصليين ، مما ترتب عليه أن أصبح الصرب هم أصحاب الأرض ، وغدا أصحابها الأصليون عبيدًا لهم(٦٥) .

يضاف إلى ذلك أن القبائل الصربية تجمعت فيما بينها وعملت اتحادات فيدراليه Plemes ، ثم تحولوا إلى ولايات تحت رئاسة صغار الأمراء " الزوبان " إلى أن خضعت لسيطرة الأمير الكبير " الزوبان الكبير " فى القرن العاشر الميلادى(٦٦) ولعل هذا الوضع الذى أضحى فيه المجتمع الصربى دفع بعض المؤرخين إلى وصفة بأنه كان " شبه إقطاعيات زراعية صغيرة "(٦٧) .

و لم يقف التأثر الصربى عند هذا الحد ، بل أخذ التاثير البيزنطى يضرب بجذوره فى المجتمع الصربى ، فيطور البلاط بحيث غدا يضم طبقة النبلاء من الرؤساء والكونتات أو البارونات ، فضلاً عن هيئة مبجلة وغنية من رجال الكنيسة(٦٨) ، ويتضح ذلك خاصة فى راسيكا Rascia إذ كان البلاط يتكون من ممثلى الطبقة الاستقراطية والمسئولين الحكوميين ورجال الدين ، ويجتمعون مع الأمير فى المناسبات الرسمية مثل التتويج – أو اصدار القوانين الجديدة أو تعيين رؤساء أساقفة أو تأسيس دير(٦٩) .

هذا فيما يخص بعض الملامح العامة للجانب الاجتماعى عند الصرب . أما الجانب الثقافى ، فقد أجمع كثير من المؤرخين على أن ثقافة صربيا لم تبدأ إلاّ فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى(٧٠) وأن جانبًا من هذه الثقافة تأثر بالتراث السلافى الذى طوره البلغار ونقلوه إلى الصرب وغيرهم(٧١) . غير أن الجانب الأكبر من هذه الثقافة كان بيزنطيًا ، وخاصة فى المناطق القريبة للدولة ، على

الدانوب وسافا Sava وفى مونتنجرو Montengro (الجبل الأسود) ودلماشيا والبوسنة وراسيكا وعلى حافة فاردار Vardar عن طريق مقدونيا - ومنطقة مورافيا Moravia(٧٢) ، وهناك تأثير قوى فى حوض نهر ايبار Ibar وسهل كوسوفو Kosov . وعلاوة على ذلك فإن المناطق الصربية من الادرياتيكى تأثرت بالغرب فى الناحية الفنية فقط . ومن المناطق التى تأثرت بها صربيا فى هذا الجانب " بار " Bar وانتبارى Antibari ودوبر فينيك Dubrovnik وديراكيوم (ديراتشيوم) Dyrrachium (٧٣) .

ويمكن القول أن هذا المجتمع الصربى ، الذى كان فى أصله غير منظم ومستقر ، تحول عندما أتيحت له فرصة الاستقرار والنهوض إلى الشكل الآنف الذكر ، وكون مجتمعًا وثقافة متأثرة بالبيئات التى نشأ عليها من ناحية والحضارات المجاورة له من ناحية ثانية ، فضلاً عن تعطشه للتشرب بروح العصر من ناحية ثالثة - فلا غرابة عندما نجد بعض المؤرخين يذكر أن معدل الثقافة فيه برزت على المستوى الأوربى ، وخاصة فى عصر النضج والاستقرار اعتبارًا من القرن الثالث عشر على حد قول البعض(٧٤) .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن على بساط البحث ؛ إذا كان هذا هو بعض جوانب الأوضاع الاجتماعية والثقافية عند الصرب ، فكيف كان حالهم الاقتصادى ؟ لاشك فى إن الحياة فى هذه المنطقة قبل وبعد استقرار الصرب وتقريبًا حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، كانت قائمة على أساس الرعى فوق الجبال والقرصنه على ساحل . وهناك تربية الماشية وزراعة بعض الفواكة مثل الأعناب ، وقد بدأ النمو الصربى وتغير نمط الحياة نتيجة للتأثير البيزنطى من ناحية وزيادة عدد سكان الصرب من ناحية أخرى بحيث غدا لا يقل عن نصف مليون صربى(٧٥) .

وإلى جانب الحياة الرعوية والزراعية ، وجدت بعض المعادن فى صربيا ، مثل الفضة والنحاس والحديد ، وبدأ التفكير فى استخراج هذه المعادن من مناجمها(٧٦) . ولعل وجود هذه المناجم مع توسط موقع صربيا ، دفع بعض عمال

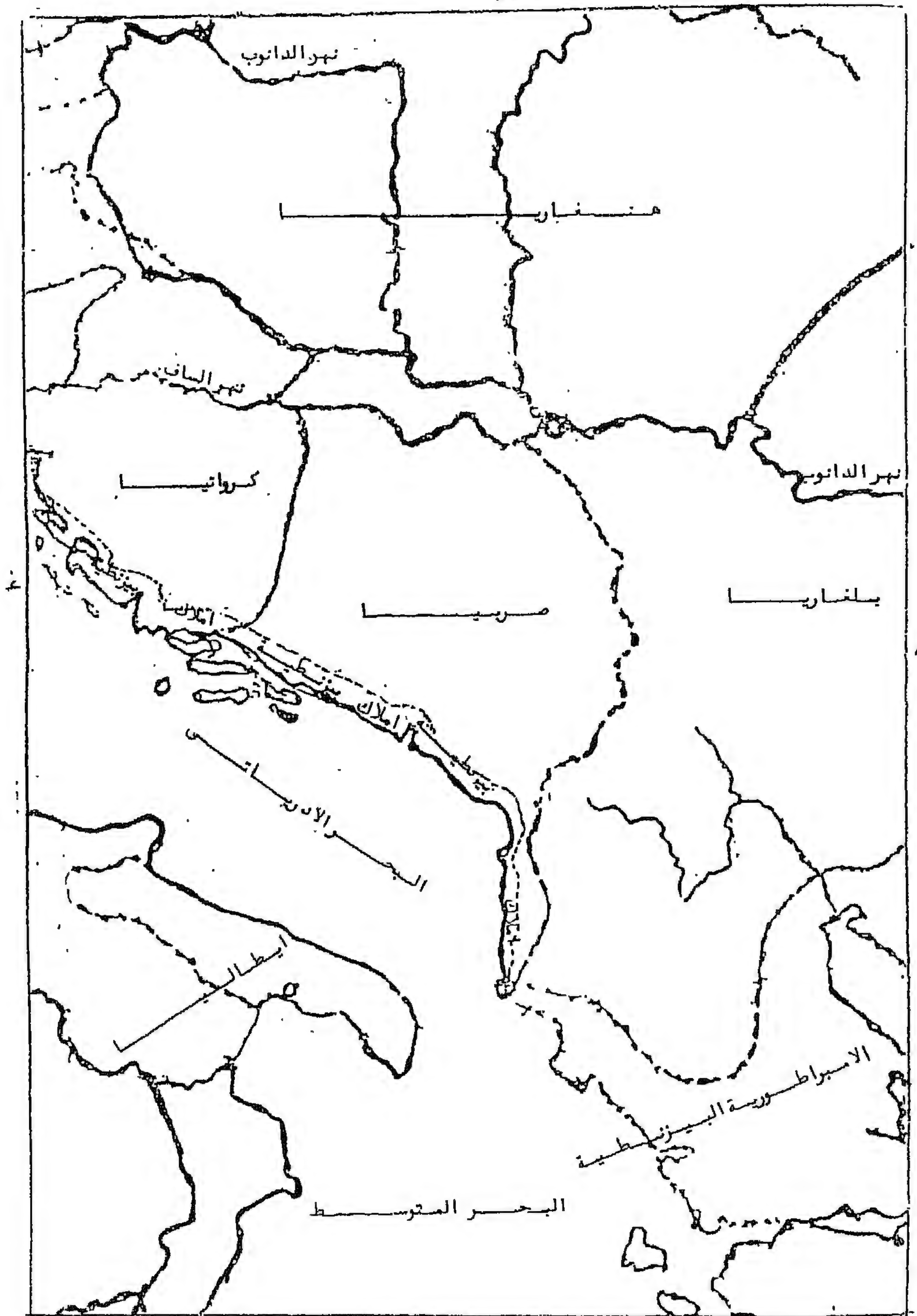
المناجم فى ألمانيا وسكونيا للعمل فى صربيا ، وهؤلاء استقروا فى صربيا وأسسوا ما يشبه المستعمرات لهم ، ثم أصبحت مدنًا فيما بعد مثل نوفو Novo وبرسكوفو Brskovo فى وادى تارًا Tara فى مونتنجرو Montengro وردنيك Rudnik . ولم تلبث تطورت الحياة فى صربيًا واتجهت إلى الصناعة والتجارة وسك العملة والبحرية اعتبارًا من القرن الثالث عشر الميلادى(٧٧) .

* * *

وصفوة القول أن صربيا نشأت فى منطقة البلقان ، وسط بعض القوى مثل الدولة البيزنطية والبلغار . ويبدو أن المجتمع الصربى فى البداية لم يكن عنده خبره بسياسة الحكم ، مما دفع القوى المجاورة لها إلى أن تنتهز الفرصة وتستغل هذا الوضع لغرض السيطرة عليها من جانب والزج بأفراد الأسرة الحاكمة فى صراعات داخلية من جانب آخر .

ولا يمكن إنكار الدور الذى قامت به الدولة البيزنطية فى صربيا لإدخال الصرب خطيرة المسيحية وغرس هذه الديانة فى قلوب الشعب الصربى ، والذى لاشك فيه هو أن هذا الدور البيزنطى كان مقترنًا بالسيطرة السياسية حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى .

ثم جاء أمراء صربيون رفضوا السيطرة البيزنطية والبلغارية واستقلوا تمامًا عن كليهما . والأدهى من ذلك أن الصرب تطلعوا إلى استقطاع أجزاء من أملاك الدولة البيزنطية وخاصة بعد سقوطها فى يد اللاتين سنة ١٢٠٤م . والملاحظ أن المجتمع الصربى بتركيبته الاجتماعية القبلية وأمرائه وسكانه ، أهتم بالجانب الدينى والثقافى والاقتصادى على الرغم من الأوضاع السياسية التى كان يعيش فيها سواء داخلية أو خارجية ، وما عرف عن أخلاق الصربيين من قسوة تصل إلى حد الوحشية ، ولا شك فى أن هذه البنية كانت نواة لما ظهرت عليه صربيا فيما بعد فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد وحتى السيطرة العثمانية .



خريطة صربيا فى العصور الوسطى

CF : Dvornik (F) : op. cit, p. 269. 330 .

- الزاكلومى : Zachlumi تعنى فى لغة السلاف ما وراء الجبـل ، والجبـل المقصـود بـه هنا جبل كلومس Chlumos ، وهناك نهر يسمى زاكلوما . وقـد سـكن هـذا الإقليـم الرومـان الذين نقلهم دقلديانوس من روما ، وظل هذا الإقليم خاضعًا للإمبراطور البيزنطى حتى استولى عليه الأقار الذين طردهم الصرب وأقرهم الإمبراطور البيزنطى فيه . Ibid, p. 161

- التربونيون والكاناليت : هى بلاد واحده ، وتيربونا تعنـى فـى لغـة السـلاف المكـان الحصين ، وكانالى Kanali تعنى العربه المشحونه ، وتوجد مدن عامره فى هاتين المنطقتـين هـى أورموس Ormos وريستا Rhisena ولوكاباتاى Loukabetai وزتليبى Zetlibe . Ibid, p.163.

- الباجانى : ويسـمون الارنتـانى ؛ وتعنـى فـى اللغـة السـلافيه والرومانيـة والإنجليزيـة الوثنيين . وفى باجانيا مدن عامرة هى موكرون Mokron وبروليا Beroulia واستروك Ostrok وسلافينتزا Slavinetza ، ويمتلكون جزيـرة كبـيرة تسـمى كوركـرًا Kourkral وأخـرى يطلـق عليها مالوزيتيا Malozetai Ibid, p.165.

(١٣) ليلى عبد الجواد إسماعيل : المرجع السابق ص١٣٣

(١٤) اينهارد : المصدر السابق هامش ص٩٨

(15) The Encyclopedia Americana, V.24 , pp.571 - 572.
CF : The New Encyclopedia Britannica, v. 9, p.65.
CF : Ostorgorsky (G) : History of the Byzantine state, new Jersy , 1954. p.94 .

(16) Dvornik (F) : Op. Cit., p.13 .

(١٧) تبلغ المساحة الإجمالية لبلاد الصرب تقريبًا ٣٤,١١٦ ألف ميل مربـع أى حـوال ٨٨,٣٦٦كم

CF : The New Encyclopedia Britannica, V.9 , p. 65, V. 24, p.571 .

(18) Lec.cit.

(١٩) سعيد عاشور : المرجع السابق ص٦١٣

وانظر عن اللغة العربية

(20) Ibid, v. 9, p. 60. CF : Byzantion, Tome , 4, p.278

وإبراهيم أنيس : اللغة بين القومية والعالمية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ص١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٥١

(21) The Encyclopedia, Britannica, v. 9, p.65 .

(22) Constantine Porphyrogenitus : op. cit., p.161.

(23) Ibid, pp.157, 159 .
(24) Ibid, pp. 159,161.

وعن الصراع البيزنطى البلغارى انظر CF : Ostrogorsky (G) : Op. Cit., 236 - 237

وكذلك : وسام عبد العزيز فرج : السلاف فى شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها ، مجلة الجمعية المصرية مجلد ٣٠ - ٣١ لسنة ١٩٨٤م ص ١٤١ - ٢٠١

(25) CF : Constantine Porphyrogenitus : cit.,pp.161, 163, 165.
(26) Ibid, P.155.
(27) Boissonnade : Life and work in Medieval Europe, Londan, p.58.

وانظر : ليلى عبد الجواد إسماعيل : المرجع السابق ص٣٣١ - ٣٣٢

(28) The New Encyclopedia, Britannica, v. 9, p.65.

(٢٩) اينهارد : المصدر السابق ص٨٦

(30) The Encyclopedia Americana, v. 9, p. 66, v. 24 , p. 572.
(31) Cam - Med - Hist, v. 4, part. I, pp. 531 - 532 .
(32) Dimtri Obolensky : The Byzantine Commonwealth, London, 1971, p.248.
(33) Camb - Med - Hist, v. 4 , Part. I , p.540 .
(34) Ibid, p. 522.
(35) Runciman (S) : Byzantine civilisation, London, 1961, p.282.

(٣٦) اينهارد : المصدر السابق ص١٠

(٣٧) المصدر نفسه ص٩٨

(38) Dvornik (F) : Op. cit , pp. 48, 56 .
(39) Ibid, p. 92 .
(40) Ibid, p. 20.
(41) Constantine Porphyogenitus : Op. cit., p. 155.

وانظر السيد البار العرينى : الدولة البيزنطية ، بيروت ١٩٨٢م ص١٢٩

(42) Ibid, p. 155.
(43) Ibid, p. 157.

(٤٤) لقد أورد قسطنطين بروتينيوس هنا أن الإمبراطور البيزنطى طلب مساعدة الصرب للأتراك ضد البلغار ؛ ويبدو أن المقصود بالترك هنا هم المنغاريون (المجريون) وليس الأتراك المعروفين لدينا ، لسببين ؛ **الأول** : أن عنصر من عناصر الأتراك لم يظهر بعد فى هذه المنطقة من أوربا ؛ وثانيًا : أنه فى هذه الحقبة التاريخية ظهر المنغاريون فى تلك المنطقة ؛ كثرت اغاراتهم على غرب أوربا والدولة البيزنطية ، وقد أطلق عليهم البعض " ترك أوربا " ومن هنا

يغلب على الظن أن المقصود بالترك هنا هم الهنغاريون ، انظر : أحمد مختار العبادى : خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٢م . بمجلة المناهل ، المغرب عدد ٢٩ سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

(45) Constantine Porphyrogenitus : op. cit , p. 157.
CF: Franzius (E) : History of the Byzantin Empire, New York, 1967, p. 208.
(46) Constantine Porphyrogenitus : op. cit., p.159.
(47) Ibid, p. 159.
(48) Lecit .
(49) Franzius (E) : op. cit., p.208.
(50) Constsntine Porphyrogenitus : op. cit., pp. 159, 162.
CF : Franzius (E) : op. cit., p. 208.

وعن الصراع البيزنطى البلغارى . انظر :

Ostrogorsky (G) : op. cit., p. 236 .
CF: Diehl (C) : Byzantiun Greatness and Decline, New Jersey, 1957, 0. 186.
(51) Camb . Med - Hist, v. 4 , part, I , p. 519.
(52) Setton (k) : History of the Crusades, V. I .New York, 1955 , p.510 .
(53) Camb - Med - Hist , v. 4 . part , I , p. 520 .

للمزيد انظر : ليلى عبد الجواد إسماعيل : حملات مـا نويل كومنين على بلاد المجر ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية .

(54) Ibid , pp. 521 - 522.

(٥٥) حسنين محمد ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٩٣م ص٢٢٨

(56) Camb - Med - Hist, V.4, part,1, p.521 .
CF : Diehl (c) : op. cit, p.186.

(٥٧) ستيفن رنسيمان : الحروب الصلبية جـ٣ ترجمة السيد / الباز العرينى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٠ ص٣٦

(58) Michaud (J.E) : Historia de Criosades, Tome, 2, Paris, 1816, p. 78 .
CF: Setton (K.M) : History of the Crusades, v. 2, London, 1962, v. 2 , p. 99
(59) Camb - Med - Hist , v. 4, Part, I , p.521.
CF Diehl (C) : Op. Cit., p.186.
(60) Camb - Med - Hist, v. 4, part, pp. 530 - 531.
(61) Obolensky (D) : Op. cit., p. 247 .
(62) Camb - Med - Hist , v.4, part , 1 pp.526, 531, 533. 543.
CF Diehl (C) : op. cit., pp. 186 , 200, 206 .

وعن العلاقات بين البيزنطيين والبلغار انظر :

Byzantion , Tome, 9, Bruxeles, 1934, pp. 301 - 309, 311, 319, 322.

CF: Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, B. G. Niebuhrii, v. 3, Bonnae, 1855, pp. 148, 169, 557, 566.

وانظر : سعيد عاشور : المرجع السابق ص٦١٣ - ٦٢٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣

وحسنين محمد ربيع : المرجع السابق ص٢٩١ - ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .

CF : Lodge (M.A) : The Close of the Middle Ages (2172 - 1494) London, 1910, pp. 501 - 502 .

(63) CF : Obolensky (D) : Op. cit., p. 247.

وانظر : ستيفن رنسيمان المرجع السابق جـ٣ ص٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٧١٧

(64) The Enclopedia Americana , v. 24. p.572.

(65) Boissonnad e : Op. cit., pp. 58, 271 .

(66) Franzius (E) : Op. cit., p. 208 .

(68) Boissonnade : Op. cit., p.58 .

(69) Obolonsky (D) : Op. cit., pp. 249.

(70) Runciman (S) : Op. cit., p. 284.

(71) Dvornik (F) : Op. cit., p.19.

CF : Setton (K) : Op. cit., p. 510.

(72) Boissonnade : Op, cit., pp. 57 - 58 .

(73) Obolensky (D) : Op. cit., pp. 247 - 249 .

(74) The Encyclopedia Americana, v.24., p.572.

CF : Obolensky (D) : Op. cit., pp. 250 - 254 .

CF : Runciman (S) : Op. cit ., pp. 284 - 285 .

CF : Camb - Med - Hist , v.4 , part , I, pp. 545 - 549.

(75) Boissonnade : Op. cit , p. 58 .

(76) Ibid , p . 269.

(77) Obolensky (D) : Op. cit., pp. 247 - 250.

CF : Camb - Med - Hist , v. 4, part , 1 pp.532 - 433 , 540

(المصادر والمراجع الأوربية)

- **Atiya (Aziz Syryal) :**

The Crusade of Nicopolis, London, 1939.

- **Boissonnade :**

Life and Work in Medieval Europe, London .

- **Byzantion :**

Tome 4, Paris, 1929.

Tome 9, Bruxeles, 1934 .

- **Corpus :**

Scriptorum History Byzantinae, v.3, Bonnae, 1844, 1855.

- **Constantine Porphyrogenitus :**

An Administamdo Imperio, Translated by R. J. H. Jenking, Budapest , 1949 .

- **Diehl (Charles) :**

Byzantium : Greatness and Decline, New Jersey, 1957 .

- **Obolensky (Dimitri) :**

The Byzantine Commonwealth, London , 1971 .

- **Dvornik (Francis) :**

The Making of Central and Eastern Europe London , 1949 .

- **Franzius (Enne) :**

History of the Byzantine Empire, Mother of Nations, New York, 1967 .

- **Ahrweiler (Helene) :**

Byzance et La Mer, Paris, 1966.

- **Pirenne (Henri) :**

A History of Europe from the Invasions to the 16 Century, London, 1948 .

- **Lodge (M - A) :**
The Close of the Middle Ages (1272 - 1494) London, 1910 .
- **Michoud (J - F) :**
Historia des Croisades, Tome 2-3 , Paris , 1816-1822 .
- **Baynes (Norman) and . L . B. moss :**
Byzantium, Oxford, 1948.
- **Ostrogorsky (G) :**
History of the Byzantine State New Jersey, 1957.
- **Runicman (Steven) :**
Byzantine Civilistion, London, 1961 .
- **Southern (R - W) :**
The Making of the Middle Ages, London
- **Setton (M . Kenneth) :**
A History of the Crusades, V. I New York , 1955 , v . 2 London , 1962 .
- **The Cambridge Medieval History :**
v . 4, part I . Cambridge, 1964 .
- **The Encyclopedia Americana :**
v . 24, America, 1824 .
- **The Encyclopedia Britannica :**
v . 9, Chicago, 1973-1974 .

(المراجع العربية والمترجمة)

- **إبراهيم أنيس :**
اللغة بين القومية والعالمية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
- **أحمد مختار العبادى :**
خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٢م . مجلة المناهل ، المغرب سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

- **اينهارد :**

سيرة شارلمان ، ترجمة/عادل زيتون ، الطبعة الأول دمشق ١٩٨٩م/١٤١٠هـ .

- **حسنين محمد ربيع :**

دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية . القاهرة ١٩٩٣م .

- **زبيدة محمد عطا :**

الترك فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٦م .

- **ستيفن رنسيمان :**

تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ترجمة السيد الباز العرينى ، بـيروت ط٢ ١٩٨٠ م .

- **سعيد عبد الفتاح عاشور :**

أوربا العصور الوسطى ، جـ١ الطبعة السادسة القاهرة ١٩٩١م

- **السيد الباز العرينى :**

الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١م) بيروت ١٩٨٢م .

- **ليلى عبد الجواد إسماعيل :**

(١) الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين القاهرة ١٩٨٥م.

(٢) حملات ما نويل كومنين على بلاد المجر ، مقال بالجمعية التاريخية المصرية .

- **وسام عبد العزيز فرج :**

السـلاف فى شبه جزيرة البلقـان وجهـود الإمبراطوريـة البيزنطيـة لاسـترداد سيادتها . مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية مجلد ٣٠ - ٣١ سنة ١٩٨٤م .

فئات القضاة فى الدولة العثمانية

وأفراد ينتمون إليهم

د. سعيد بن سعد سفر الغامدى*

اهتمت الدولة العثمانية بأمر القضاء اهتمامًا كبيرًا ، ووضعت نظامًا دقيقًا لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة أعمالهم ، وكانت ولاية القضاة تشمل جميع أنحاء الدولة العثمانية فى القارات الثلاث : آسيا وأوربا وأفريقية . والجدير بالذكر أن الولاية القضائية ظلت تمتد إلى الأقاليم التى ضعف فيها النفوذ العثمانى سياسيًا أو عسكريًا أو إداريًا ، مثل بلاد القرم وشمال إفريقية . وعلى ذلك فالقضاء العثمانى كان أكثر نفوذًا وبقاءًا واستقرارًا فى الولايات العثمانية من النفوذ العسكرى أو السياسى أو الإدارى للدولة فى تلك الأقاليم وأمثالها .

كانت المحاكم الإسلامية تنظر جميع أنواع القضايا ، سواء كانت قضايا مدنية أو جنائية ، وسواء كانت من اختصاص الشريعة أو القوانين الوضيعة أو العرف أو غير ذلك . وكان القضاة جميعهم مسلمين ، ويفصلون فى القضايا فى ضوء مذهب الإمام أبى حنيفة(١) ، وهو المذهب الرسمى للدولة . وقد اهتم السلاطين بتقرير هذا المذهب مذهبًا رسميًا فى الأقاليم الإسلامية التى فتحتها القوات العثمانية ؛ وكان هذا التغيير المذهبى أحد التغييرات الرئيسية والقليلة التى أدخلتها الدولة فى أقاليم العالم الإسلامى التى فتحتها . وقد أبقت الدولة العثمانية على المذاهب الأخرى ، ولكن اشترطت أن يكون كبير القضاة أو رئيس المحكمة حنفيًا، وكان يطلق على شاغل هذا المنصب قاضى القضاة ، أو قاضى عسكر أفندى أو رئيس القضاة(٢) .

---

* أستاذ مشارك فى التاريخ الحديث والمعاصر - كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام محمد ابن سعود .

ولكن لم تمتد هذه الولاية القضائية لتلك المحاكم لتشمل جميع الأشخاص في الدولة ، إذ كانت فى الدولة هيئات معترف بها لها محاكمها الخاصة التى تنظر فى قضايا أفرادها ، مثل طبقة القولار ، وهم العبيد . ومثل الأشراف الذين هم من سلالة أسرة النبى ﷺ .

أما رعايا الدولة النصارى فكانت قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم خارجة عن اختصاص المحاكم العادية ، وكانت تنظرها محاكم كنسية خاصة بهؤلاء النصارى ، يرأسها رئيس " الملة " ، وله أن يستعين ببعض رجال الدين النصرانى . كذلك كانت هناك قضايا خاصة بإدراة أراضٍ معينة من أراضى الأوقاف ، فكانت تنظر أمام محاكم خاصة يرأسها عضو من الهيئة القضائية الإسلامية العادية . وعلى العموم فإن قضاة الهيئة الإسلامية كانوا ينظرون جميع القضايا التى تتعلق بالشريعة الإسلامية فى جميع أنحاء الدولة سواء بين المسلمين بعضهم وبعض ، أو بين المسلمين والنصارى ، إلا إذا كان المسلم ينتمى إلى هيئة لها نظام قضائى يختص بها مثل القولار ، والأشراف(٣) .

وكان القضاة بوجه عام يحصلون على جزء كبير من دخلهم من مصدرين(٤) : الرسوم القضائية ، والغرامات التى يحكم بها . وكلا المصدرين يدران إيرادًا وفيرًا . وكانوا يتقاضون جزءًا من الرسوم المقررة على معاينة التركات وتقسيمها ، والمبايعات ، وعلى الأوراق الرسمية التى تصدر عن المحاكم ويطلق عليها الحجج الشرعية . وتسجل كل حجة التصرفات العقارية ، ورسوم الزواج المقررة على زواج البنت البكر وزواج الثيب ، وكان رسم زواج البنت(٥) أسيرًا أو أقجة(٦) بينما كان رسم زواج الثيب(٧) أسيرًا .

١ - قضاة العسكر (٨) :

أنشـأت الدولـة العثمانيـة علـى رأس النظـام القضـائى منصـب قـاضى القضاة(٩) ، أو رئيس القضـاة ، أو قـاضى عسـكر(١٠) . وكـان مقـره الأساسى العاصمة أستانبول ، وقد استحدث هـذا المنصـب فـى الدولـة العثمانيـة فـى عهـد السلطان مراد الأول . وأول قاضى عسكر هو " جاندارلى قره خليـل " ومـن أهـم أعماله الإشراف على أعمال القضاة فى سائر أنحاء الدولة العثماينة ، فيقوم بترشيح القضاة لشغل المناصب القضائية . ويرفع هذا الترشيح إلى شيخ الإسـلام للمصادقـة عليه ، كمـا يقـوم قـاضى العسـكر بمراقبة أعمـال القضـاة والتـأكد مـن نزاهتهـم وحرصهم على تطبيق الشـريعة الإسـلامية فـى الأحكـام ، وأسلوب تعـاملهم مـع الناس ، كذلك يقـوم بالإشراف علـى حركـات التنقـل والترقيـة ، وتعـرض عليـه التقارير والمذكرات التى يبعث بها قضـاة الأقـاليم . وكـانت تقـوم بجـانب قـاضى العسكر أجهزة فنية وإدارية ، يعمل فيها موظفـون بمثابـة مسـاعدين لـه . وكـانت بعض هذه الإدارات لمتابعة أعمال القضاة ، واستقبال التقـارير التـى ترفـع عنهـم ، والبعض الآخر لمتابعة تنقلاتهم ، وتعيين قضاة جدد فـى المنـاطق والمـدن المحتاجـة ، والبعض الثالث من هذه الإدرات يتعلق بالشئون المالية وصـرف اسـتحقاق القضـاة ومرتباتهم ، بينما كان يحتفظ بعض هذه الإدارات بصور من أختام القضاة للتحقق من صحة الأختام على المذاكـرات والتقـارير التـى ترفـع إلى قـاضى العسـكر منعًـا للتزوير(١١) .

وكان قاضى القضاة يتمتع بنفـوذ أدبـى كبـير لم يظفـر بـه مـن قبـل قـاضى القضاة فى أى بلد إسلامى . وعلى سبيل المثال كان الصدر الأعظـم قرمـان محمـد باشا يخشى أن يتضاءل نفوذه بجانب نفوذ قاضى القضـاة ، فاقـترح علـى السـلطان محمد الثانى (الفاتح) أن ينشئ منصبًا ثانيًا لوظيفة قاضى عسكر ، وأن يطلق على شاغل الوظيفة الأولى قاضى عسكر الروملى ، والوظيفة الثانية يطلق علـى شـاغلها

قاضى عسكر الأناضول ، وأن يتقاسم الاثنان الاختصاصات التى كان يمارسها قاضى العسكر ، فيختص أحدهما بقضاء الأناضول ، بينما يختص الآخر بقضاء بلاد البلقان وبقية الأقاليم العثمانية فى أوربا . وكان الصدر الأعظم يقصد من وراء هذا الاقتراح كسر النفوذ الواسع العريض الذى كان يتمتع به قاضى العسكر، حيث كان هو الرئيس المباشر لقضاة الدولة . وقد أخذ السلطان محمد الفاتح بهذا الاقتراح ، وتم إنشاء المنصب الجديد فى عام ٨٨٥ هـ/١٤٨٠ م قبل وفاة السلطان بسنة واحدة(١٢) .

هذا بينما تشير بعض الوثائق العثمانية إلى أن السبب فى إنشاء منصب ثانٍ لوظيفة قاضى عسكر هو تزايد الأعباء والمسئوليات على رئيس القضاة بعد فتح القسطنطينية ، وتوسع الفتوحات العثمانية فى بلاد شرق أوربا . لهذا رأى السلطان محمد الفاتح إنشاء وظفتين بمسمى قاضى عسكر ؛ لتوزيع المسئوليات ، مما يساعد على أدائها على أحسن وجه(١٣) .

وعلى هذا النحو وجد فى الدولة العثمانية منصبان يحمل شاغل كل منهما لقب قاضى عسكر ، مع إضافة الاسم الجغرافى الذى يحدد مناطق ولايته القضائية إلى اسمه . ولكن كان قاضى عسكر الروملى أعلى مركزًا من زميله قاضى عسكر الأناضول ، وكان الأول يصحب الجيش العثمانى فى فتوحاته الكثيرة فى شرق أوربا ، كما كان من اختصاصاته تعيين جميع القضاة الذين يعملون فى شرق أوربا ، وكذلك العاملين فى المساجد التى أنشأت فى الولايات العثمانية الأوربية . وكان قاضى عسكر الأناضول يمارس مثل هذه الاختصاصات فيما يختص بالأقاليم فى آسيا ، إلا أن الحروب كانت أقل ، وتكاد تكون منحصرة فى إخماد الفتن التى تظهر فى الأناضول فى بعض الأحيان . وكان هذان القاضيان الكبيران يليان شيخ الإسلام فى المرتبة(١٤) .

ولا تساع رقعة الدولة العثمانية بعد أن ضم السلطان سليم كلا من الشام ومصر والحجاز واليمن إلى رحاب الدولة العثماينة ، استحدث السلطان سليم وظيفة ثالثة بمسمى قاضى عسكر البلاد العربية(١٥) .

وبعد دخول الشمال الإفريقى فى حوزة العثمانيين(١٦) ، استحدث السلطان سليمان القانونى ابن سليم الأول وظيفة رابعة أطلق على شاغلها مسمى " قاضى عسكر الشمال الإفريقى "(١٧) . وكان القضاة فى شمال إفريقيا يتبعون قاضى عسكر الأناضول قبل استحداث السلطان سليمان القانونى وظيفة قاضى عسكر الشمال الإفريقى .

وكان قضاة العسكر أعضاء فى الديوان الهمايونى(١٨) . وكانوا يشتركون إشتراكًا فعليًا مع رئيسه الصدر الأعظم للنظر فى القضايا التى تعرض على محكمة الديوان ، كما كان يشارك فى هذا العمل إلى جانب قضاة العسكر مجموعة من القضاة من فئة مولى الكبير، وهذا ما سأشير إليه فيما بعد .

وقد أضفت الدولة العثمانية على قضاة العسكر الكثير من الامتيازات والتشريفات منها : أن يقام حفل رسمى كبير لقاضى العسكر عند تعيينه ، وكان على الصدر الأعظم أن يحضر هذا الحفل من باب التقدير والتكريم ، وكان لا يجوز للصدر الأعظم أن ينيب أحدًا عنه فى حضور الحفل . وكان الصدر الأعظم يقدم لقاضى العسكر رداء التشريفة ، وهو فروسمور ، ويساعده على ارتدائه فى أثناء الحفل(١٩) . وكانت تخصص لكل قاضى عربة يستقلها فى تنقلاته ، وإذا قامت الحرب فى آسيا صحب قاضى الأناضول الجيش العثمانى إلى ساحة الحرب، أما إذا كانت الحرب فى أوربا فإن قاضى عسكر الروملى هو الذى يرافق الجيش ، وفى كلتا الحالتين كانت تقدم لكل منهما أطواخ(٢٠) تنصب أمام خيمته التى تكون مجاورة لخيمة السلطان وخيمة الصدر الأعظم .

ومن امتيازات قاضى العسكر صلاحية مقابلة السلطان بلا دعوة فى السفر. وكان ينفذ المعاملات المتعلقة بالعساكر أو من فى حكمهم ، وكانت له مخازن للشعير ، ولهذا كانت تأتيه مبالغ كبيرة من تلك المخازن ومن إيراداته الخاصة . وكان قاضى العسكر يستقبل الوزراء عند الديوان ، ويرافق السلطان فى مراسيم الأعياد . وكان يتناول الطعام فى مأدبة خاصة فى الديوان . بينما كان الوزراء وأركان الدولة يتناولون الطعام فى القصر معًا فى أيام الديوان وسائر الأيام الرسمية(٢١) .

قضاة التخت :

كان يلى قضاة العسكر فى الدرجة والمركز قاضى استنابول ويطلق عليه ، استانبول أفنديسى(٢٢)، والقضاة الثلاثة لضواحيها الثلاث ، وهذه الضواحى هى: سكوتارى Scutari وهو اسم يرجع إلى العهد البيزنطى ، ولذلك يطلق على هذه الضاحية أيضًا الاسم التركى أسكودار(٢٣) Uskudar ، ثم ضاحية جلاطة Galata ، ثم ضاحية أيوب(٢٤) وكان يطلق على هذه الضواحى الثلاث اسم " بلاد ثلاثة " أى البلاد الثلاثة . وهذا المصطلح له مدلول قضائى ومدلول إدارى، فقضاة هذه النواحى يتمتعون باستقلال قضائى عن قاضى استانبول ويرتبطون بقاضى عسكر الأناضول ، كما كان لهذه الضواحى بعض الاستقلال فى شئون الشرطة . وكان هؤلاء القضاة يحضرون جلسات الديوان الهمايونى يومًا واحدًا فى الأسبوع ، كما يحلون مكان قاضى العسكر فى حالة تغيبه ، كما يقومون بمساعدة الصدر الأعظم رئيس الديوان فى نظر القضايا . وكان يطلق على هؤلاء القضاة الأربعة - قاضى استانبول ، وقضاة الضواحى - اسم معبر " تخت قاضيسى " أى قضاة التخت ، لأنهم يقيمون بصفة دائمة فى العاصمة وعلى مقربة من العرش السلطانى ، الذى كان يطلق عليه التخت . وكان الصدر الأعظم عقب إنتهاء جلسة المحكمة يذهب فى صحبة قاضى استانبول فى جولة تفتيشية ميدانية فى

العاضمة . ومما هو جدير بالذكر أن قضاة التخت الأربعة كانوا ينتمون إلى طائفة القضاة من فئة المولى الكبير(٢٥) .

٢ – القضاة من فئة مولى الكبير(٢٦) :

يختلف عدد القضاة من فئة مولى الكبير من عصر إلى عصر ، وقد بلغ عددهم – فى أواخر عهد السلطان سليمان القانونى (منتصف القرن السادس عشر الميلادى تقريبًا) – خمسة وعشرين قاضيًا(٢٧) موزعين على النحو التالى :

قاضى عسكر الرّوملى .

قاضى عسكر الأناضول .

قاضى عسكر البلاد العربية .

قاضى عسكر الشمال الإفريقى .

قاضى استانبول .

قاضى أسكودار .

قاضى جلاطة .

قاضى أيوب .

قاضى مكة الكرمة .

قاضى المدينة المنورة .

قاضى بروسه(٢٨) .

قاضى أدرنة(٢٩).

قاضى لاريسيا(٣٠) .

قاضى سالونيك(٣١) .

قاضى فيلبية(٣٢) .

قاضى إزمير (٣٣) .

قاضى القدس .

قاضى دمشق .

قاضى بغداد .

قاضى القاهرة .

قاضى الجزائر .

قاضى تونس .

قاضى طرابلس .

قاضى اليمن .

وكان شيخ الإسلام هو الذى يعين هؤلاء القضاة الخمسة والعشرين ، ويوافق الصدر الأعظم على تعيينهم(٣٤) . ثم يصدر السلطان فرمانًا بتعيينهم فى مناصبهم . ومن المميزات التى أعطيت لأصحاب هذه المناصب القضائية ، أنهم يشغلونها مدى الحياة ، إلا أنه كانت تصدر فى بعض الأحيان حركة ترقيات أو تنقلات لهؤلاء القضاة حرصًا على المصلحة العامة . وكان يتبع كل قاض من هؤلاء جهاز إدارى كبير يتكون من مراقبى الحسابات ، وأمناء الخزانة ، ومجموعة من الكتاب والمساعدين . ومن الاختصاصات التى اختص بها القضاة من فئة مولى الكبير حق عقد الجسات القضائية فى بيوتهم أحيانًا . بينما كان سائر القضاة ينظرون القضايا فى المحاكم(٣٥) .

المفتشون :

يعد المفتشون من رجال القضاء ، وإن كان اسمهم لاينم عن مهنتهم القضائية . وكان عددهم قليلاً يصل إلى خمسة مفتشين . وكانوا جميعًا قضاة من فئة مولى الكبير ، ويختصون بالإشراف على الأوقاف الخيرية فى الدولة العثمانية ، فيقومون بجمع إيراداتها والانفاق على المؤسسات الدينية والخيرية وكافة أوجه البر والخير . وكان بعض هذه الأوقاف تحت إشراف شيخ الإسلام ، والبعض الآخر تحت إشراف الصدر الأعظم ، والبعض الثالث تحت إشراف رئيس الخصيان البيض(٣٦) . وكان مقر ثلاثة من أولئك المفتشين فى استانبول ، يختص كل منهم بقسم من الأقسام الثلاثة لهذه الأوقاف : فكان أحدهم يعمل مع شيخ الإسلام ويسمى " شيخ الإسلام مفتشى " ، وكان الثانى مع الصدر الأعظم ويسمى " وزيرى أعظم مفتشى " ، وكان الثالث يسمى " حرمين مفتشى " ، لأنه كان يشرف على الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . وظل هذا الأخير فى منصبه حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، ثم تقاسم مع زميله رئيس الخصيان السود(٣٧) الإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين ، ثم انفرد رئيس الخصيان السود بالإشراف على هذه الأوقاف فى القرن الثامن عشر الميلادى . أما المفتشان الآخران فكان أحدهما يباشر عمله فى مدينة أدرنة ، والآخر فى مدينة بروسة . وكانا يتبعان رئيس الخصيان . وكان لكل مفتش من هؤلاء المفتشين جهاز إدارى يضم عددًا كبيرًا من الموظفين المساعدين الذين يتجولون فى مناطق الأوقاف(٣٨) .

٣ – القضاة من فئة مولى الصغير :

كان القضاة من فئة مولى الصغير يعملون فى أكثر من سبع عشرة مدينة من مدن الصف الثانى ، مثل : بوسناسراى(٣٩) ، وصوفيا(٤٠) . بلغراد ، كوتاهية ،

قونية ، فيلوبوليس ، مرعش ، ديار بكر ، عنتاب(٤١) . حلب ، بيروت ، الموصل، البصرة ، حيفا ، الإسكندرية ، عسير(٤٢) .

وكان هؤلاء القضاة من فئة مولى الصغير أقل فى درجتهم ومستوى تعليمهم من القضاة من فئة مولى الكبير ، لذلك يعينون فى المناطق والمدن الصغيرة.

أما من حيث الأعمال التى يقومون بها ، فهى فصل الخصومات بين الناس، وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عليهم . أما القضايا الكبرى مثل القصاص والرجم وما إلى ذلك فترفع عادة إلى شيخ الإسلام للبت فيها ، وفى بعض الأحيان ترفع إلى قاضى العسكر (قاضى القضاة) . أما تقسيم التركات وفض المنازعات القبلية ، فنظرًا لأهميتها وحساسيتها فقد ربطت بشيخ الإسلام ، الذى يقوم بدوره بإرسال لجنة من كابر القضاة تشرف على توزيع التركات ، وتفض المنازعات بين القبائل حسب تعليمات شيخ الإسلام والصدر الأعظم(٤٣) .

كذلك كان يتولى القضاة من فئة مولى الصغير الإشراف على المساجد والمدارس فى مدنهم الصغيرة ، ويقومون أيضًا بالإشراف على الأوقاف الخيرية .

٤ - القضاة العاديون :

كان القضاة العاديون يشكلون الغالبية العظمى من عدد قضاة الهيئة الإسلامية الحاكمة . وقد اختلف عددهم من فترة إلى أخرى حسب اتساع الدولة العثمانية وانكماشها . وقد بلغ عددهم فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى حوالى ستمائة قاض ، يباشرون القضاء فى المدن الصغيرة ، فى ثلاث قارات هى آسيا وأوربا وأفريقيا(٤٤) . وكان عددهم فى أوربا يصل إلى مائتى وخمسين قاضيًا تقريبًا ، يتبعون قاضى عسكر الروملى . أما قضاة الأناضول وشمال العراق ، فكانوا يتبعون قاضى عسكر الأناضول ، بينما يتبع القضاة فى الجزيرة العربية والشام لقاضى عسكر البلاد العربية ، ويتبع القضاة فى شمال أفريقيا قاضى عسكر

شمال إفريقيا (٤٥) . وكان يجرى فى بعض الأحيان بعض التغييرات بما يتمشى مع أهمية الولاية ومصلحة الدولة ، فمثلاً القضاة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة تبعوا فى بعض الأحيان قاضى استانبول وارتبطوا فى بعض الأحيان بشيخ الإسلام مباشرة . وكذلك القضاة فى القدس وبعض المدن الفلسطينية ارتبطوا فى منتصف حكم السلطان عبد الحيمد الثانى بشيخ الإسلام مباشرة ، وكذلك الحال بالنسبة لولاية بيروت . أما الحال فى مصر فقد كان القضاة يتبعون فى بعض الفترات كبير القضاة فى الأناضول ، والذى يسمى قاضى عسكر الأناضول ، كما كانوا يتبعون فى بعض الفترات قاضى القضاة فى استانبول(٤٦) .

ورغم انحسار النفوذ السياسى والإدارى للدولة العثمانية من شرق أوربا عقب هزيمتها فى حربها مع روسيا ، وعقد معاهدة سان استفانو(٤٧) . ومؤتمر برلين سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م(٤٨) ، إلا أن نفوذ القضاة بقى كما كان ، وظلوا يمارسون عملهم فى القضاء والفصل فى الخصومات بين الناس ، ولم يؤثر فى عملهم تغيير نظام الحكم فى بلاد شرق أوربا إلا فى عصور متأخرة .

٥ - النواب والمفتون :

النواب :

كانت وظائف النواب تمثل أدنى درجات السلم الوظيفى القضائى فى الهيئة الإسلامية الحاكمة فى الدولة العثمانية . وكانوا يباشرون اختصاصاتهم القضائية فى المدن الصغيرة ، أو فى القرى الكبيرة ، كما كانوا يحلون محل القضاة أثناء تغيبهم عن عملهم عند قيامهم بالإجازة ، أو فى أثناء مرضهم أو آدائهم لفريضة الحج . وكان بعض النواب يرافقون بعض كبار القضاة ويشركونهم فى جلسات المحاكم الشرعية لمساعدتهم وتخفيف العبء عنهم . واختلف عدد النواب من فترة إلى أخرى ، وقد بلغ عددهم فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ما يقرب من

مائتى نائب ، كانوا يباشرون عملهم فى مختلف أنحاء الدولة العثمانية(٤٨) . وكان النائب يعين فى منصبه ولا يتقاضى مرتبًا من الحكومة . ولكنه كان يحصل على إيرادات ضخمة من حصيلة الغرامات المالية التى يحكم بها على المخالفين ، والذين يرتكبون أعمالاً مخلة بالآداب العامة ، وما إلى ذلك(٤٩) .

ووجد إلى جانب شيخ الإسلام عدد من النواب ، للنظر فى بعض القضايا العادية مما يساعد على تخفيف بعض الأعباء عن شيخ الإسلام وقضاة استانبول . وكان شيخ الإسلام وقضاة العسكر يرسلون بعضهم فى مهمات رسمية إلى بعض الولايات فى الدولة العثمانية(٥٠) .

المفتون :

كان المفتون يشكلون قطاعًا هامًا للغاية فى الهيئة الإسلامية الحاكمة إلى جانب القضاة . وكان المفتون يعينون فى المدن الهامة ويقومون بمهام مناصبهم بجانب القضاة ، ولكن كان مركزهم يأتى بعد مركز القضاة . ويظلون فى مناصب الإفتاء مدى الحياة، أى دون التقيد ببلوغهم سنًا يحالون عندها إلى التقاعد. وكانت مهمتهم تتمثل فى إصدار الفتاوى فى المسائل التى يطلب منهم بحثها ، فيعكف المفتى على دراسة هذه المسألة فى ضوء مذهب الإمام أبى حنيفة ، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة رسمية معدة ومختومة من قبل المحكمة ، تشبه الإستمارة . وكان الرأى الذى ينتهى إليه المفتى يسمى فتوى(٥١) .

وكان عدد المفتين فى جميع أنحاء الدولة العثمانية يصل إلى ما يقرب من ثلاثة مفتين(٥٢) . وكانت غالبيتهم تعمل فى المدن الهامة بجانب القضاة - كما ذكرت ذلك من قبل - بينما عمل البعض الآخر بجانب كبار رجال الحكم فى الدولة ، يمدونهم بالرأى الصحيح فى المسائل العامة من حيث عدم تعارضها مع مبادئ الشريعة الإسلامية . فكان كل منهم يشغل ما يمكن أن نطلق عليه فى المصطلح الحديث منصب المستشار الدينى .

وكان هناك بعض المفتين إلى جانب السطان ، كما كان هناك بعض المفتين إلى جانب الوزراء والأمراء ، وحكام الولايات فى الدولة ، يوضحون لهم رأى الشريعة فى أى قضية ما ، ورأى القانون ، وأوجه التطابق أو التعارض . ومثل هذه الفتوى التى تصدر عن المفتى يؤخذ بها جملة وتفصيلاً ، وتحسم الموقف سواء فى المسألة العامة أو فى القضية المطروحة(٥٣) .

ولكن قلما لجأ القضاة أو رجال الحكم المحلى إلى المفتين لإصدار الفتاوى لهم ، فقد كان القضاة يباشرون الفتاوى بأنفسهم . أما الوزراء والأمراء وحكام الولايات ورجال الحكم فى الدولة ، فكانوا يطلبون معظم الفتاوى من دار الإفتاء التابعة لشيخ الإسلام(٥٤) ، ولا يحيلون إلى المفتى إلا بعض الأمور البسيطة الخالية من التعقيد . لذلك نعتهم بعض الباحثين بأن نشاطهم كان يشوبه الخمول أو الركود . ولكن اتسعت آفاق العمل حينما سمح للأفراد بالالتجاء إلى المفتين ؛ لإصدار الفتاوى الشرعية فى القضايا المطروحة أمام المحاكم ، فكان المفتى يصدر رأيه كتابةً ومسجلاً على ورقة رسمية ، على غرار الفتاوى التى يصدرها للجهات الحكومية ، ويأخذ المواطن هذه الفتوى ويقدمها للمحكمة كمستند يدعم موقفه فى القضية . وكانت مثل هذه الفتوى تحسم القضية فى العادة لصالحة .

ويلاحظ أنه لم يكن فى تلك العصور محامون محترفون يتولون المرافعة أمام المحاكم ، لذلك كان المفتى عنصرًا ضروريًا وهامًا ونافعًا فى النظام القضائى . وقد رحب المفتون بالفتاوى التى تصدر عنهم للأفراد ؛ لأنها جاءت بمورد مالى جديد تمثل فى الرسوم التى يدفعها طالب الفتوى ، وكان للمفتين نصيب كبير من هذه الرسوم ، فكان يأتيهم رزقهم رغدًا من كل مكان(٥٥) .

وكان المفتون فى الأقاليم أقل درجة ومرتبة من القضاة . وكانت وظائف المفتين لا تحاط بأى نوع من أنواع المظهرية التى كانت تحاط بها المناصب الأخرى فى نفس المدينة أو الإقليم أو الولاية .

وقد أسدى المفتون للدولة العثمانية أجل الخدمات ، فقدموا لها - بصفتهم حراس الشريعة - قوة الإسلام ، وهى أعظم قوة روحية عملت فى هدوء ومثابرة واستمرار على تماسك الدولة ومجتمعاتها الإسلامية دون أن تتعرض هذه القوة الروحية لهزات أو تغيرات ، بل مضت فى طريقها تطبع العثمانيين وحياتهم الخاصة والعامة بالطابع الإسلامى العميق .

٦ - امتيازاتهم ودورهم فى تطبيق تعاليم الإسلام :

كان القضاة - وبخاصة من فئة مولى الكبير - يتمتعون بعدة امتيازات ، إذ كان لكل منهم الحق فى ارتداء عباءة من الفرو السمور فى الاحتفالات الرسمية من قبيل التكريم والتشريف . وكان هذا النوع من العباءات يرتديه الباشوات وحكام الولايات ومن إليهم من كبار موظفى الدولة . وكان من تقاليد الدولة العثمانية أن يقام حفل رسمى كبير - سواء فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الولايات - لتقديم هـذا الرداء للشخص أو للأفراد الذين ينعم به عليهم ، ويحضر هذا الحفل كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين ، ويتولى ورئيس الحفل مساعدة القاضى فى ارتداء الفرو السمور(٥٤) .

وكان من امتيازات كبار القضاة أن يتبعهم فى غدواتهم وروحاتهم وكافة تنقلاتهم عدد من الرجال يختص بعضهم بحراسة القاضى ، ويختص البعض الآخر بخدمته باختلاف أنواعها(٥٥) .

وكانت توجه الدعوة إلى أولئك القضاة وإلى كبار أساتذة مدارس الشريعة والقانون باستانبول ، وكبار المدن العثمانية لحضور الاحتفالات التى تقام عند اعتلاء سلطان جديد العرش العثمانى ، ويقدم فيها كبار الموظفين الولاء له . وكانت هذه الدعوة تتكرر - بعد ذلك - مرتين على مدار السنة ، المرة الأولى عند حلول عيد الفطر المبارك ، والمرة الثانية عند حلول عيد الأضحى . فكان يقام

فى كل عيد من هذين العيدين حفل استقبال رسمى فى القصر السلطانى . وكان كبار القضاة يشهدون هذين الحفلين كما يشهدهما شيخ الإسلام والصدر الأعظم . وكانت تقام احتفالات مماثلة فى عواصم الولايات ، يحضرها القضاة والقادة العسكريون ، وكبار الموظفين فى الولاية تحت رعاية الوالى . وكان القضاة لهم قصب السبق فى تلك الاحتفالات(٥٦) .

كذلك كان هؤلاء القضاة يدعون للمشاركة فى بعض الاحتفالات التى كانت تقميها الدولة العثمانية فى بعض الأحيان عقب انتصارها فى معركة حاسمة لها أثر كبير فى تقدم الفتوحات العثمانية وهزيمة الأعداء . وكانوا - أى القضاة - يقدمون فى بعض هذه الاحتفالات على بعض القادة العسكرية(٥٧) .

وتذكر بعض الوثائق العثمانية(٥٨) أنه كان يسند إلى بعض القضاة من فئة مولى الكبير قيادة بعض الجيوش العثمانية الفاتحة ، كما كان يسند إليهم قيادة بعض الجيوش العثمانية الموجهة لإخماد فتنة شبت فى بعض أنحاء الدولة العثمانية . وقد حقق الكثير منهم انتصارات كبيرة سجلها التاريخ لهم(٥٩).

كذلك كان معظم هؤلاء القضاة أعضاء رئيسيين فى ديوان الولاية ، لايبت أمر بدونهم ، فكل قاضٍ من هؤلاء مسئول عن الشئون القضائية فى ولايته(٦٠) .

وقد قام العلماء والقضاة بدور كبير وبارز فى تطبيق تعاليم الإسلام فى أحكامها وتصرفاتهم الشخصية ، فقد كانوا على اختلاف رتبهم ومناصبهم وتخصصاتهم قدوة طيبة للمجتمع العثمانى ، وقد ميزتهم الدولة العثمانية فى زيهم الخارجى فكانوا يرتدون العمامات والفرو المميز لهم فى لونه وشكله العام ، مما يجعلهم محط أنظار الناس ، وقدكانوا أهلاً لذلك . ولم يكن تميزهم مقصورًا على المظهر الخارجى . وإنما كان التميز أصلاً فى تمكنهم فى العلوم الشرعية ، وحرصهم الشديد على تطبيق تعاليم الإسلام ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فى أماكن تجمعات الناس فى الطرقات والأسواق .

وكان كثير من القضاة يتولى الإمامة بالمسلمين فى الجوامع والمساجد الكبيرة ، كما يؤمون الناس فى الأعياد وأيام الجمع ، وكانوا يحثون الناس فى خطبهم على التمسك بالدين ، ووجوب تطبيقه نصًا وروحًا فى كل صغيرة وكبيرة من أمورالحياة .

غير أن القضاة لم يكونوا جميعًا على درجة واحدة من النزاهة والاستقامة ، فهناك عدد قليل من القضاة لعبت الرشاوى دورًا كبيرًا فى صرفهم عن إصدار الأحكام الإسلامية الصحيحة ، خاصة فى الفترة الثانية من حكم سلاطين الدولة العثمانية ، وهى الفترة التى استشرى فيها الضعف والفساد ، وعم معظم الأجهزة الحكومية ، فاستغل ذلك بعض القضاة والقادة العسكريين وصغار الموظفين لجمع مكاسب مالية على حساب الدولة وأفراد المجتمع . وقد أورد بعض المؤرخين الأتراك نماذج من تقارير مرفوعة من لجان التفتيش والتحقيق إلى السلطان وإلى شيخ الإسلام تذكر أن بعض القضاة باعوا ضمائرهم ، وخانوا الأمانة التى أوكلت إليهم فى سبيل جمع المال(٦١) .

وفيما يلى نماذج مختصرة لعدد من القضاة وشيوخ الإسلام لعبوا دورًا هامًا فى التاريخ العثمانى . وخلفوا آثارًا كبيرة من المؤلفات الشرعية والكتب التاريخية واللغوية وغيرها ...

ابن الجزرى :

شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن على بن يوسف الجزرى ، فقيه وحجة فى القراءات وشاعر . ولد بدمشق ليلة السبت الموافق ٢٥ رمضان عام ٧٥١هـ/ ٣٠ نوفمبر - أول ديسمبر - عام ١٣٥٠ م، وحفظ القرآن عام٧٦٣هـ/ ١٣٦٣م . وبعد أن صرف جزءًا من عنايته فى الحديث درس القراءات المختلفة ، وأجاد فيها . وفى سة ٧٦٨هـ/١٣٦٧هـ ، حج إلى مكة المكرمة والمدينة ، ثم ذهب إلى القاهرة حيث أجاد القراءات ، ولما رجع إلى دمشق انصرف إلى دراسة

الحديث والفقه ، وعاد إلى القاهرة لدراسة البلاغة وأصول الفقه . ثم ذهب إلى الإسكندرية ليحضر على تلاميذ ابن عبد السلام . وفى عام ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م أجاز له أبو الفداء الإفتاء . كما أجاز له الإفتاء أيضًا كل من ضياء الدين عام ٧٧٨هـ/١٣٧٣ م ، وشيخ الإسلام البلقينى عام ٧٨٥ هـ/١٣٨٣ م . وبعد أن درس القراءات مدة من الزمن عُين قاضيًا بدمشق عام ١٣٩١/٧٩٣ م . ولما صودرت أملاكه بالقاهرة عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥ م ذهب إلى بلاط السلطان العثمانى بايزيد بن عثمان فى بروسه ، ولازمة ما يقرب من ست سنوات ، وتولى منصب " مفتى الأنام " بعد أن تدرج فى الوظائف الإدارية والقضائية فى الدولة العثمانية . وبعد وقعة " أنقرة " فى عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م أوفده تيمورلنك إلى بلاد ما وراء النهر ، ثم بعد ذلك إلى سمرقند ، وألقى فيها على الناس دروسًا ، وذهب ابن الجزرى بعد وفاة تيمور فى عام ٨٠٧هـ/١٤٠٥ م إلى خراسان ثم إلى هراة فاصفهان ، فالبصرة ... ثم إلى مكة المكرمة فالمدينة المنورة عام ٨٢٣ هـ/١٤٢٠م. وبعد أن مكث عدة سنوات فى هذه البلدان رجع إلى شيراز ، وتوفى بها يوم الجمعة ٩ ربيع الأول ٨٣٣ /٢ ديسمبر ١٤٢٩ م .

مؤلفاته :

١ – كتاب النشر فى القراءات العشر. ويوجد بمكتبة نورى عثمان رقم٩٧،فهرس الكتبخانة الخديوية، جـ١ ،ص١١٧ ؛المكتبة العبدلية بتونس، جـ١، ص١٧٦.

٢ – تحبير التيسير فى القراءات ، وهو شرح لكتاب " التيسير " للدانى فى القراءات . فهرس الكتبخانة الخديوية ، جـ١ ، ص٩٢ ، برلين رقم ٥٩٠ ، استانبول / مكتبة نورى عثمان ، رقم ٥٩٠ .

٣ – طيبات النشر فى القراءات العشر ، وهى منظومة من بحر الرجز تقع فى ألف بيت عن القراءات العشر ، انتهى من نظمها فى شعبان عام ٧٩٩ هـ/مايو ١٣٩٦ م ، طبعت بالقاهرة عام ١٢٨٢ ، ١٣٠٧هـ .

٤ - الدرة المضية فى قراءات الأئمة الثلاثة المرضية ، وهى منظومة من بحر الطويل فى ٢٤١ بيتًا انتهى منها عام ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م ، طبعت بالقاهرة عام ١٢٨٥ ، ١٣٠٨هـ .

٥ - هدية أو (غاية) المَهَرَة فى زيادة العشرة . وهى منظومة فى نفس الموضوع . توجد بمكتبة أيا صوفيا رقم ٣٩ .

٦ - منجد المقرين ومرشد الطالبين ، وهى رسالة فى سبعة أبواب عن أهمية القراءات .

٧ - لامية من بحر الطويل فى إحدى وأربعين بيتًا تحتوى على أربعين مسألة عن معضلات القراءات .

٨ - المقدمة الجزرية ، وهى أرجوزة فى ١١٠ أبيات عن التجويد ، طبعت فى القاهرة عام ١٢٨٢ ، ١٣٠٧هـ .

٩ - التمهيد فى عام التجويد ، انتهى من تأليفه عام ٧٦٩هـ/١٣٦٧م يوجد بالكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٠٥٩٢

١٠ - كفاية الألمعى فى آية يا أرض ابلعى . وهى فى القراءات المختلفة للآية ٤٦ من سورة هود ، فهرس ، فهرس الكتنخانةالخديوية ، جـ٧ ، ص٥٧٨

١١ - مختصر طبقات القراء المسمى بغاية النهاية ، وهو أصغر كتابيه اللذين يبحثان فى هذا الموضوع . استانبول ، مكتبة نورى عثمان رقم ٨٥

١٢ - مقدمة علم الحديث ، برلين رقم ١٠٨٤

١٣ - الهداية إلى الرواية ، وهى منظومة فى ٣٧٠بيتًا من بحر الرجز عن تناقل الروايات المختلفة فى القراءات بين طبقات القراء .

١٤ - عقد اللآلى فى الأحاديث المسلسة العوالى ، انتهى من تأليفه بشيراز عام ٨٠٨ هـ /١٤٠٥م ، باريس ، المكتبة الأهلية ، رقم ٤٥٧٧ ، ٣

١٥ - الرسالة البيانية فى حق أبوى البنى ﷺ .

١٦ - المولد الكبير ، وهو فى سيرة النبى ﷺ .

١٧ - ذات الشفاء فى سيرة النبى والخلفاء ، وهى أرجوزة فى سيرة النبى ﷺ والخلفاء الراشداين - رضوان الله عليهم - ولمحة سريعة فى تاريخ المسلمين إلى عهد السلطان بايزيد الأول ، ألفها نزولاً على رغبة أمير شيرازبير محمد .

١٨ - الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين ، طبع بالقاهرة عام ١٢٧٩ ، ١٣٤٥ ، وفى عام ١٣٢٢٨هـ .

١٩ - مختصر النصيحة بالأدلة الصحيحة ، وهى رسالة الأخلاق . تعتمد على الحديث ، فهرس الكتبخانة الخديوية ، المجلد السابع ، ص٥٦٤

٢٠ - الزهر الفاتح . وهى رسالة فى الحث على الفضيلة ، طبعت بالقاهرة عام ١٣٠٥ ، ١٣١٠ هـ .

٢١ - الإصابة فى لوزام الكتابة ، برلين ، رقم ٦

٢٢ - منظومة عن الفلك فى اثنين وخمسين بيتًا من الرجز(٦٢) .

خوجة أفندى :

سعد الدين بن حسن جان بن حافظ محمد بن حافظ جمال الدين الأصفهانى ، ويعرف عادة باسم خوجة (سعد الدين) أفندى . مؤرخ عثمانى شهير وشيخ من شيوخ الإسلام النابهين ، ولد عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦ - ١٥٣٧م فى استانبول . وهو ابن رجل يدعى حسن جان ، هاجر من فارس والتحق بخدمة السلطان سليم الأول حاجبًا له ، خلال السنوات السبع الأخيرة من سنوات

حكمه . ولقد قص حسن جان على ولده جميع القصص والأخبار التى تتصل بحياة السلطان سيلم ، فما كان من سعد الدين إلا أن ألف منها كتابًا سماه "سليم نامة" وجعله ذيلاً لتاريخه المشهور ، ولقد ترجم دييز H. F. Diez كتاب " سليم نامة " إلى الألمانية ما عدا المقدمة .

درس سعد الدين الفقه الإسلامى ، واندمج فى زمرة العلماء منذ عهد متقدم . وفى عام ٩٦٣هـ / ١٥٥٥ - ١٥٥٦ م أصبح سعد الدين ملازمًا للفقيه المشهور أبى السعود ، ثم أصبح فى المحرم من عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣ - ١٥٧٤م مدرسًا (خوجة ، وهو اسمه المشهور الذى لا يزال يعرف به إلى الآن بوجه عام) لمراد ولى العهد . وكان فى ذلك الوقت واليًا على مغنيسية . وظل خوجة أفندى مشير مراد الثالث الأمين بعد اعتلائه العرش فى ديسمبر سنة ٩٨١هـ/١٥٧٤م ، واحتفظ برتبة " خوجة سلطانى " أى مدرس السلطان فى عهد محمد الثالث خليفة السلطان مراد . وغدا سعد الدين شيخًا للإسلام فى شعبان عام ١٠٠٦هـ/١٥٩٨- ١٥٩٩ م ، وتوفى وهو يشغل هذا المنصب بعد ذلك بعامين بمدينة استانبول فى الثانى عشر من ربيع الأول عام ١٠٠٨ هـ/١٢ أكتوبر ١٥٩٩م . وقد حمل أربعة من أبنائه الخمسة نعش أبيهم إلى أيوب حيث دفن فى فناء المدرسة الخاصة بتحفيظ القرآن وتلاوته . وقد بلغ بعض أبنائه مناصب رفيعة ، فقد بلغ ولداه محمد ومحمد أسعد(٦٣) منصب الإفتاء ، وعبد العزيز وصالح(٦٤) منصب قاضى عسكر ، أما ولده مسعود فقد مات صغيرًا(٦٥) .

وسعد الدين هو مؤلف التاريخ العثمانى المشهور المعروف باسم " تاج التواريخ " ولا يزال هذا التاريخ يعد بوجه عام من عمدة المصادر فى التاريخ العثمانى ، رغم أن سعد الدين لم يؤلفه بأمر من السطان (لم يكن سعد الدين حاملاً للقب مؤرخ السلطان) . وقد أسدل هذا التاريخ حجب النسيان على جميع

التواريخ المتقدمة الخاصة بآل عثمان ، وهى المعروفة باسم "تواريخ آل عثمان" بل إنه جعلها شيئًا تافهًا مزريًا(٦٦) .

ويتناول هذا التاريخ الكلام عن البيت العثمانى من وقت قيامه حتى وفاة السلطان سليم الأول - المتوفى فى ٢١ سبتمبر عام ١٥٢٠م - واستقى هذا التاريخ مادته من كتب المؤرخين المتقدمين ، وهو مكتوب بأسلوب يغلب عليه الإطناب . وتم هذا الكتاب فى عهد السلطان سليم الثانى ، وكان المقصود منه على وجه التحديد أن يكون ذيلاً للكتاب الفارسى " مرآة الأدوار ومرقاة الأخبار " لمصلح الدين محمد اللارى المتوفى عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م ، ونقل سعد الدين هذا الكتاب إلى التركية . وقد ذاع هذا الكتاب ، وأصبح الناس يقرأونه فى عدة مخطوطات إلى أن أصبح فى متناول الأيدى بوجه عام عندما طبع عام ١٢٧٩هـ/١٨٦١م فى مجلدين كبيرين .

وأعد أنطوان كالان Antoine Galland ترجمة فرنسية مخطوطة لكتاب تاج التواريخ فى عام ١٧١٠م ، ويظهر أن المجلد الأول من هذا المخطوط قد فقد، أما الباقى فمحفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس .

ويقال : إن محمد أسعد أفندى ابن سعد الدين قد أتم التاريخ الذى كتبه أبوه(٦٧).

أبو السعود :

هو محمد الآمدى نسبة إلى آمد المعروفة الآن بديار بكر ، فقيه عثمانى من أصل كردى ، ظل شيخًا للإسلام ثلاثين عامًا . وكان من أكبر أعوان السلطان سليمان القانونى ، ولد عام ٨٩٦ هـ/١٤٩٠ - ١٤٩١ م . وكان فى أول أمره مدرسًا للفقيه ثم قاضيًا ، وظل قاضى عسكر الروملى ثمان سنوات متتالية ، ثم عين شيخًا للإسلام . وصنف تفسيرًا للقرآن الكريم استقاه من تفسير البيضاوى ،

والكشاف للزمخشرى . ولما ظهر الجزء الأول من تفسيره رفع مرتبه اليومى من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ آقجة ، ثم رفع إلى ٦٠٠ لما ظهر الجزء الثانى منه . ولما ولى السلطان سليم الثانى العرش شرفه بوضع يده على عمامته واحتضنه بشغف ، ورفع مرتبه إلى ٧٠٠ آقجة فى أول شعبان عام ٩٧٤ هـ / ١١ فبراير ١٥٦٧ . وأفتى أبو السعود فتوى يجيز فيها حملة السطان سليم على قبرص . وقد حزن السلطان سليم حزنًا شديدًا لوفاته عام ٩٨٢هـ/١٥٧٤م . وهو صاحب " قانون نامة " الذى صنفه للسلطان سليمان القانونى ، جمع فيه القوانين التى صدرت خلال فترة حكم هذا السطان ، وخلف شعرًا بالتركية والعربية ، وقد أطلق اسمه على أحد شوارع مدينة استانبول(٦٨) .

خضر بك :

عالم عثمانى وشاعر ، وقاضى قضاة استانبول . ولد فى غرة ربيع الأول عام ٨١٠هـ/ ٦ أغسطس ١٤٠٧م فى " سيورى حصار " ، وهو ابن جلال الدين قاضى تلك المدينة ، وينتمى إلى أسرة " شهيرة " يرد نسبها إلى خوجة نصر الدين. تلقى خضر بك العلم على يد ملا محمد يكن ، وتزوج من ابنته فيما بعد . ولما أتم دروسه أصبح قاضيًا فى مسقط رأسه ، ثم مدرسًا ، واختير بعد ذلك أستاذًا فى بروسة ، ثم قاضيًا فى " اينكول " ثم استدعى آخر الأمر للتدريس فى أدرنة ، وعين قاضيًا للقضاة فى استنابول . وأبناؤه هم : أحمد باشا مفتى بروسة الذى توفى عام ٩٠١هـ/١٤٩٥ م ، وسنان باشا ، ويعقوب باشا قاضى بروسة الذى توفى عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م ودفن فى مسجد ملا فنارى . وعرف هؤلاء الثلاثة بمواهبهم العقلية ، وسعة إطلاعهم . وكان خضر بك نفسه حجة فى العلوم الإسلامية ، على دراية واسعة بآداب اللغات الإسلامية ، وله منظومة فى الوعظ والإرشاد من بحر البسيط عنوانها " النونية فيالعقائد " . وقد شُرحت هذه القصيدة أكثر من مرة مثل شرح داود بن محمد القرصى . وله إلى جانب ذلك عدة

مؤلفات أخرى معظمها فى الشعر . وتوفى خضر بك فى استنابول عام ٨٦٣هـ/١٤٥٨ - ١٤٥٩م ، ودفن فى مقبرة أيوب . ولا تزال قرية قاضى كوى المقابلة لاستانبول على الشاطئ الأسيوى تحمل اسمه ، أى قرية القاضى، وكانت له فيها أملاك شاسعة(٦٩) .

خير ا لله أفندى :

مؤرخ تركى نابه الذكر ، ولد فى استانبول من أسرة ظلت تخدم السلاطين دون انقطاع أكثر من ١٦٠ عامًا . وأبوه عبد الحق أفندى المشهور (توفى عام ١٢٧٠ هـ/١٨٥٤م) ، كان من رجال الدين والطب ، وبلغ مرتبة " سر أطباء " ثلاث مرات ، ثم خلع عليه لقب التشريف " رئيس العلماء " منذ عام ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م . وبدأ خير ا لله حياته مقتفيًا آثر أبيه ، فنشأ نشأة دينية . وكان أول منصب تولاه هو منصب " ملا إزمير " عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢ م ثم اتجه نحو العلوم والطب والتربية ، وأصبح سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م عضوًا فى مجلس التعليم ومجلس الزراعة ، ورئيسًا ثانيًا لمجمع (أنجمن - دانشى) ، ورئيسًا لعدة هيئات عميلة . وشغل مناصب رفيعة فى وزارة المعارف التى ألفت تأليفًا جديدًا ، وظل مدة طويلة ناظرًا لمدرسة الطب ، إلى أن اختير سفيرًا فى طهران عام ١٢٩١هـ/١٨٦٤م ، وتوفى فجأة عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦ م .

ولخير ا لله ولدان هما : عبد الحق حامد ، أشهر شاعر فى تركيا الحديثة ، وعبد الخالق نصوحى ، وكلاهما اشتغل بالسفارة لتركيا فى الخارج .

ولخير ا لله عدد من المؤلفات فى التاريخ والجغرافيا والطب والعلوم والزراعة. ومعظم كتبه فى الزراعة مترجمة عن اللغات الأجنبية . وقد طبعت بعض مؤلفاته مثل كتاب " مسائل حكمت ، وبيت دهقانى ، ورحلته إلى أوربا المسماة أوربا سياحت نامة سى " . وتعود شهرته إلى مؤلفاته فى التاريخ ، فله إلى جانب كتابه

" وقائع مصرية " ، تاريخ مفصل للدولة العثمانية عنوانه " دولت عليه عثمانية تاريخى " بدأ صدوره تقريبًا فى نفس الوقت الذى ظهر فيه التاريخ القيم الذى أصدره أحمد جودت - مؤرخ السلطنة - فى أثنى عشر مجلدًا ، وهو يشمل تاريخ الدولة العثمانية فيما بين عامى ١٧٧٤ هـ/١٨٢٦م .

وكان خير الله أفندى يريد أن يكتب التاريخ العثمانى بأجمعه فى مصنف واحد متصل الحلقات . وهو أول مؤرخ تركى حاول أن يتناول التاريخ العثمانىمن ناحية مكانته بالنسبة لتاريخ العالم ، وذلك على عكس الطريقة التى كانت مألوفة فى ذلك الوقت عند أصحاب الحوليات من الترك الذين لم يخرجوا فى تأليفهم عن المصادر والشئون التركية دون غيرها .

وكان خير الله فى الواقع أول كاتب نجح إلى حد ما فى كتابة تاريخ شامل للعالم " تاريخ عمومى " . وكان معظم اعتماده على المصادر الفرنسية . ويتبين لنا ذلك من كتابة الأعلام الأجنبية بحسب نطقها الفرنسى ، وكان فى الوقت نفسه يعتمد على المصادر التركية التى لم تكن بعد قد استقلت تمامًا .

وقد خص مجلدًا من كتابه بالمقدمة وبالتاريخ المتقدم للدولة العثمانية ، وهو العهد السابق على حكم عثمان الأول . ووضعت خطة الكتاب بحيث يستغرق عهد كل سلطان من سلاطين آل عثمان مجلدًا من مجلداته . وقد عرض فى الوقت نفسه للحكام المسلمين والنصارى المعاصرين ، ثم يتناول بعد ذلك مادة الكتاب متوخيًا الفائدة من غير اعتبار لسرد الأخبار . ولغة خير الله بسيطة واضحة سهلة الفهم إذا قسناها بلغة المؤرخين المتقدمين الطنانة . ويمتاز تاريخه أيضًا على تواريخ من تقدموه ببعده عن المحاباة والبغض الأعمى للثقافات الأخرى .

وقد ظهر من هذا التاريخ خمسة عشر مجلدًا فقط (١٢٧١ - ١٢٨١هـ/ ١٨٥٣ - ١٨٦٤ م) وهى تبدأ بعهد عثمان الأول، وتنتهى بعهد أحمد الأول (١٠١٢-١٠٢٧هـ/ ١٦٠٣ - ١٦١٧م) ثم توفى المؤرخ بعد ذلك . فحاول

على شوكت المفتش فى " ديوان أحكام عدلية " أن يتم الكتاب الذى لم يستطع خير الله أن ينجز إلا بعضه بعد مشقة . ولم يظهر بعد ذلك إلا ثلاثة مجلدات أخرى ، من المجلد السادس عشر إلى المجلد الثامن عشر (١٢٨٩ - ١٢٩٢هـ/١٨٧٢ - ١٨٧٥ م) إلى عهد السلطان إبراهيم الأول (١٠٤٩- ١٠٥٨هـ/١٦٣٩ - ١٦٤٨ م)(٦٩) .

صارى كورز :

ويعرف أيضًا باسم صارى كروز ، ففيه عثمانى وقاضى عسكر ، واسمه الحقيقى نور الدين . وقد ولد فى إقليم " قره سى " . كان أبوه يدعى يوسف ، وتلقى صارى دروسه على مشاهير المعليمن ، ومن بينهم قوجة سنان باشا . ثم اشتغل بعد ذلك بالفقه وأصبح مدرسًا ثم قيمًا ، ثم غدا آخر الآمر قاضى استانبول عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م ، واستخدمه السلطان بايزيد الثانى فى شئون الدولة المختلفة . وعين فى عام ٩١٩ هـ/١٥١٣ م إبان حكم السطان سليم الأول قاضى عسكر الأناضول ، وفى عام ٩٢١هـ/١٥١٥ م قاضى عسكر الرومللى . وقد صُرف عن منصبه فى العام التالى وأصبح مرة أخرى قيمًا . وعين عام ٩٢٦هـ/١٦١٩م قاضى استانبول مرة أخرى ، وتوفى صارى كورز فى استانبول عام ٩٢٨هـ/١٥٢١م ودفن فى حديقة المسجد الذى شيده . وكان يعيش فى مكان غير بعيد من المسجد الذى يحمل اسمه(٧٠) ولا يزال حى من أحياء استانبول يعرف باسم صارى كورز نسبة إليه(٧١) وقد ألف صارى كورز فى الفقه ، وخلف عددًا من الكتب يوجد ثبت لها فى كتاب حاجى خليفة(٧٢) .

خليل أفندى زاده :

أحمد سعيد أفندى ، من العلماء الذين ظهروا فى عهد السلطان محمود الأول (١١٤٣ - ١١٦٨هـ / ١٧٣٠ - ١٧٥٤م) وهو ابن بركلى خليل أفندى . ولى منصب قاضى عسكر الأناضول مرتين . ودرس خليل على أبيه ثم

تلقى الدروس المألوفة فى المدرسة ، وبدأ حياته مُلا فى يكى شهر عـام ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢ م . ثم أخذ يرتقى مراتب العلماء حتى بلغ أسماها . واختير شيخًا للإسـلام عام ١١٦٢هـ / ١٧٤٩م ولكنه صرف عن منصبه عام ١٧٥٠م ، بعد أن ظل فيـه عشرة أشهر ، لصلابته وعناده ، ونفى إلى بروسه حيث توفى بها عـام ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م ، ودفن بالقرب من أمير سلطان .

وكان خليل فى نظر الناس عالمًا مـن أصحـاب الأقـلام مؤهـلاً تمـام التـأهيل لكل ما يتطلبه منصبه . وخلف لنا خليل - علاوة على شرحه لتاريخ عينى المتوفـى عام ٧٦٢هـ - ترجمة تركية لجـزء مـن ذلـك الكتـاب . واشـتهر كثـير مـن أبنائـه وأحفاده بالتفقه فى الدين(٧٣) .

جلبى زاده :

عاصم أفندى إساعيل : شيخ الإسـلام ومـؤرخ تركـى ، وهـو ابـن رئيـس أفندى كوجك جلبى ، ومن ثم عـرف بهـذا الاسـم . تـولى بـادئ الأمـر القضـاء وتدريس الفقـه ، ثـم اختير آخـر الأمـر مؤرخـًا للدولـة العثمانيـة مكـان رشـيد ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م ، وولى على التعاقب قضاء بروسه عام ١١٥٢هـ/١٧٣٩م ، والمدينة المنورة عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م ، واستانبول عام ١١٦١هـ / ١٧٤٨م ثم أصبح شيخًا للإسلام عام ١١٧٢هـ / ١٧٥٨م وظل فى هذا المنصب حتـى وفاتـه بعد ذلك بثمانية شهور .

ويتناول تاريخه المشهور ، (طبـع بالآسـتانة عـام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠ م) . الفـترة بين عـامى ١١٣٥ و ١١٤١هـ / ١٧٢٢ - ١٧٢٨م . ولـه ديـوان شـعر كبير يضـم قصـائد فى مـدح السلطان أحمـد الثـالث ومحمـود الأول ، وأبيـات قيلـت فـى الأحـداث الهامـة الـتى وقعت بـين عـامى ١١٢٧ - ١١٥٥هـ/ ١٧١٦ - ١٧٤٢م(٧٤) .

عارف حكمت بك :

عـاش فـى الفــترة (١٢٠١ - ١٢٧٥هــ / ١٧٨٦ - ١٨٥٩م) وتـولى مشيخة الإسـلام مـن سنة ١٢٦٢ - ١٢٧٠ هـ / ١٨٤٥ - ١٨٥٤م ، ويعـد عارف حكمت من أواخر شعراء وكتاب المدرسة القديمة مـن الـترك . وقـد انحـدر عارف من أكابر الموظفين ، (كان أبوه إبراهيم عصمت قاضى عسكر ، فـى ظل السلطان سليم الثالث) . تولى عارف حكمت منصب (ملا) بيت المقـدس سنة ١٢٥١هـ/ ١٨١٦م ثم القاهرة سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠ م ، ثم المدينة المنورة سـنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م . وغدا من بعد نقيب الأشراف سـنة ١٢٤٩هــ / ١٨٣٣م، ثم قاضى عسكر الأناضول سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م ، ثم الرومللى سنة ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م وتقلد أخيرًا منصب شيخ الإسلام ، وظل يشغلة سبع سنوات . وقد عقد عارف حكمت باشا صلات مع أكابر شعراء عصره وخاصة أسعد أفندى ، وزيور باشا ، وطاهر سلام . وكان هو نفسه يقرض الشعر ، ويعد ديوانـه الـذى يشتمل على قصائد بالتركية والعربية والفارسية ، من أواخر الآثــار النابهـة لمدرسـة الشعر التركية القديمة ، وقد طبع الديوان فى استانبول سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٧م .

ومن الآثار الأخرى " تذكر شعراء " وهو تراجم للشعراء الترك حتـى سـنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م ، وكتاب " الأحكام المرعية فى الأراضى الأميريـة " وكتـاب " خلاصة المقالات فى مجالس المكالمات "(٧٥) .

٧ - مستشارو السلطان والوزراء :

يأتى فى مقدمتهم " خوجة السلطان " والمعنى الحرفى لهذا المصطلـح معلـم السلطان . وكان مستشارًا للسطان فى المسائل الدينية ، وكان يشـترط فيـه تعمقـه فى المسائل الشرعية إلى جانب تعمه فى القوانـين الدوليـة المعـاصرة . وكـان يقـدم الرأى القانونى فى أى مسـألة يريدها السلطان مبينًا مدى مطابقتها أو تعارضها مع

تعاليم الشريعة الإسلامية السمحة ، فكما أنه مفتى فى المسائل الشرعية فهو أيضًا يعد مفتيًا فى المسائل القانونية . ولذلك كان يظفر بتقدير عميق ومركز مرموق بين مستشارى السلطان ، وفى دوائر الحكومة . وكان خوجة السلطان فى درجة القضاة من فئة المولى الكبير ، أى قاضى من الدرجة الأولى ، ولذلك كان يرقى من هذا المنصب المرموق إلى الوظائف العليا فى الهيئة الإسلامية الحاكمة . وتذكر بعض الوثائق العثمانية أن محمد عصمت باشا شغل منصب معلم ومستشار السلطان القانونى مدة ثلاث سنوات ، ثم عين رئيس محكمة الصدر الأعظم ، وبقى فى هذا المنصب مدة أربع سنوات ، ثم رقى إلى منصب أعلى وهو قاضى عسكر الروملى ، وبقى فى هذا المنصب سنتان حتى توفى سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م(٧٦) .

وتذكر وثائق عثمانية أخرى أن معظم سلاطين الدولة العثمانية – وبخاصة سلاطين المرحلة الأولى – كانوا يحيطون أنفسهم بعدد كبير من المستشارين الشرعيين والمعلمين . وقد اتخذ السلطان سليمان القانونى فى السنوات الأخيرة من حكمه خمسة وعشرين مستشارًا شرعيًا(٧٧) ، كما عين السلطان عبد الحميد الثانى سبعة عشر قاضيًا على وظيفة مستشار(٧٨).

وكان معظم السلاطين يتنافسون فى تعيين المستشارين الشرعيين من حيث الكثرة والنوعية ، وكانوا يصطحبونهم فى حلهم وترحالهم وحتى فى ميادين القتال والمعارك ، وكانوا يتقيدون بتعليماتهم ونصائحهم ، وبهذا تقدمت الدولة العثماينة تقدمًا مذهلاً فى فتوحاتها الإسلامية فى شرق أوربا . وتذكر بعض المصادر العثمانية أن السطان محمد الفاتح كان له مايزيد عن عشرين مستشارًا ، منهم من يختص بالأمور العسكرية ومنهم من يتولى متابعة أمور الدولة العثمانية الأخرى . وكان معظم هؤلاء لمستشارين ملازمين للسطان محمد الفاتح ويحضرون اجتماعات الديوان الهمايونى ،ويشاركونه فى ساحات الجهاد(٧٩) .

ويتم تعيين هؤلاء المستشارين الشرعين بترشيح من شيخ الإسلام والصدر الأعظم بعد تمحيص وتدقيق ، ثم يرفع هذا الترشيح للسلطان للمصادقة عليه وإصدار قرار التعيين(٨٠) .

ولم يكن السلاطين على درجة واحدة من حيث التقيد أو الأخذ بمشورة هؤلاء المستشارين ، فقد كان السلطان سليم الأول- وهو رجل عسكرى من الدرجة الأولى - يستبد برأيه وبخاصة فى الأمور الحربية ، وإن كان يستمع إلى رأى مستشاريه ووزرائه(٨١) .

ووصل الأمر ببعض السلاطين الضعاف حد تسليم مقاليد الحكم إلى المتسشارين والصدر الأعظم . وصار مثل هذا النوع من السلاطين لا يعرف عن أمور دولته شيئًا إلا عن طريق هؤلاء المستشارين والمعلمين أمثال سليم الثانى ، ومصطفى الأول ، وأحمد الثانى ... وغيرهم(٨٢) .

ولم يكن تعيين المستشارين مقصورًا على السلاطين فحسب ، بل كان كل وزير من وزراء الدولة العثمانية يحيط نفسه بعدد من المستشارين يساعدونه فى إدارة الدولة . كذلك نجد كبار الأمراء من آل عثمان - ممن يشغلون مناصب قيادية فى الدولة - يعينون بعض المستشارين إلى جابنهم(٨٣) .

وكان الوزراء والأمراء - فى فترة قوة الدولة - يستمعون إلى نصحهم وإرشادهم ولا يقدمون على أمر ما أو قرار معين إلا بعد تمحيصه ورداسته دراسة دقيقة والاستماع إلى مشورة المستشارين(٨٤) .

أما فى فترة الضعف التى انتابت الدولة العثماينة بعد وفاة السلطان سليمان القانونى ، فنجد بعض الوزراء والأمراء قد سلموا الأمر والإدارة إلى هؤلاء المستشارين ، فاستبد بعضهم بالحكم واحتكر مصالح الدولة ، وأخذ يعمل لحسابه الخاص نظرًا لانصراف الوزراء والأمراء عن متابعتهم(٨٥) .

ومما زاد الأمر سوءًا وعجل بضعف الدولة العثمانية وسقوطها ، تعيين مستشارين أجانب من الدول الأوربية إنجلترا وفرنسا ، وألمانيا ... إلى جانب السلاطين والوزراء والأمراء . وهؤلاء كانوا يتظاهرون بتقديم النصح والمشورة الصادقة للسلطان وأعوانه ، بينما هم فى الحقيقة على عكس ذلك ، يعملون لحسابهم وحساب دولهم المعادية للدولة العثمانية المسلمة . وكانت مشوراتهم من أسباب ضعف الدولة العثمانية وسقوطها ، لأن بعض السلاطين والوزراء كانوا يأخذون هذه النصائح كأمر مسلم به وينفذونها دون تمحيصيها وتدقيقها وأخذ رأى العلماء والفقهاء فيها(٨٦) .

وقد بدأ تعيين المستشارين الأجانب فى الدولة العثمانية منذ أوائل القرن السابع عشر تقريبًا ، ثم ازداد عدد المستشارين الأجانب وبخاصة العسكريين منهم حتى بلغ قمته فى القرن التاسع عشر الميلادى . وكان بلاط السلاطين محمود الثانى وعبد الحميد وعبد العزيز يفيض بهم ، بدعوى محاولة إصلاح الدولة العثمانية وتقدمها ،بينما هم فى الحقيقة يعملون على تغريب الدولة العثمانية وإبعادها عن دينها .

ومن أمثلة الذين تولوا منصب مستشار السلطان والوزراء :

أحمد باشا :

وهو ابن قاضى عسكر ولى الدين ، فقيه وشاعر عثمانى فى عهد السلطان محمد الفاتح . كان فى أول أمره أستاذًا بمدرسة مراد الثانى فى بروسه ثم قاضيًا لأدرنه ، ثم معلمًا للأمراء والوزراء ،ثم عين مستشارًا للسلطان محمد الفاتح ، وبقى فى هذا المنصب حتى وفاته سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م . ودفن بمدينة بروسه بالقرب من المسجد الذى أنشأه ، وهو أول شاعرعثمانى يتميز شعره برقة الأسلوب . ويعتبر أحمد باشا مبدع التعبير الشعرى للأتراك العثمانيين(٨٧) .

بركـوى :

محمد بن بير على ، فقيه تركى ، ولد سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م ، ودرس فى استانبول ، وتدرج فى بعض الوظائف الحكومية فى أدرنة ، ثم أراد أن يعتزل الحياة العامة ، ولكن عطا الله أفندى عينه مدرسًا فى مدرسة (بركى) وظل يعمل فيها فترة طويلة إلى أن عين مستشارًا للسطان سليم الثانى سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م ، وبقى فى هذا المنصب حتى وفاته سنة٩٨١هـ ، ١٥٧٣م . وتشهد مصنفاته وكتبه - التى ألف معظمها باللغة العربية - بطول باعه فى التأليف ، وأغلب مصنفاته فى شؤون الدين بمعناه الواسع ، كتفسير القرآن الكريم وعلم الفرائض والوعظ والمسائل الفقهية مثل شروط الوقف ، وهو موضوع جادل فيه جدلاً عنيفًا . وله مؤلفات فى النحو العربى ، ولكن بركوى يشتهر على وجه خاص برسالة فىأصول الدين باللغة التركية تسمى عادة باختصار "رسالة بركوى" أو " صيت نامة " وقد طبعت وترجمت عدة مرات(٨٨) .

بير محمـد باشـا :

أحد الصدور العظام فى الدولة العثمانية ، وهو ينتسب إلى أماسيه . اشتغل بالقانون والشريعة الإسلامية حتى أصبح قاضى صوفيًا وسلورى وغلطه ، ثم أشرف على مطاعم (عمارات) محمد الفاتح التى خصصها للفقراء فى استانبول . وفى عهد بايزيد الثانى منح لقب باش دفتردار ، واشتهر فى أيام سليم الأول بمشورته الحكيمة فيما يتصل بغزو فارس حتى عينه السلطان سليم الأول مستشارًا له ، ثم شغل بعد ذلك قائمقام استانبول مدة من الزمن . ولما انتهت الحملة العثمانية على المماليك فى مصرعين صدرًا أعظم مكان يونس باشا ، ثم شغل منصب مستشار السلطان سليمان القانونى حتى وفاته عام ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م . وقد شيد بير محمد باشا بعض المنشآت الخيرية منها : مسجد باستانبول سمى باسمه، ومدرسة ومطعم للشعب(٨٩) .

راشد محمد :

مؤرخ سلطاني عثماني ينتسب إلى استانبول حيث ولد ، وأبوه القاضي ملاّ مصطفى من أهله ملطية . أتم دراسته في مسقط رأسه ، وولي بها منصب المؤرخ الرسمي للدولة ، وظل شاغلاً لهذا المنصب إلى أن عين قاضيًا لحلب عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢٠م . ثم بعث سفيرًا لبلاده في فارس ، ثم شغل بعد ذلك قاضي مكة المكرمة ، ثم قاضي استانبول في شعبان ١١٤٢هـ / ١٧٣٠م ، وصرف عن هذا المنصب بعد ذلك ببضعة أشهر . وفي جمادى الأولى ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م ، عين قاضي عسكر الأناضول ، ثم عين مستشارًا للسلطان محمود الأول لمدة عام ، حيث توفي في ١٨ صفر ١١٤٨/١٠ يولية ١٧٣٥ م في استانبول . وقد كتب راشد محمد ذيلاً لتاريخ نعيما عن الدولة العثمانية من عام ١٠٧١ - ١١٣٤هـ/ ١٦٦٠- ١٧٢١ م يعرف عادة بـ (تاريخ راشده) ، وهو العمدة في تاريخ هذه الفترة ، وخلفه في منصب المؤرخ السلطاني إسماعيل عاصم المعروف بكوجوك جلبي زاده(٩٠) .

سالم محمد أمين :

ويلقب بميرزا زاده ، فقيه عثماني وكاتب لسير العلماء والأدباء . وهو ابن شيخ الإسلام ميرزا مصطفى أفندي . وكانت ولايته في استانبول وتعلم بها حتى أصبح مدرسًا . ثم ترقى في سلم الوظائف الشرعية فتولى القضاء في مكة المكرمة في ذي القعدة عام ١١٣٤هـ/١٣ أغسطس ١٧٢٢ م ، ثم قاضيًا في استانبول في جمادى الأولى عام ١١٤٣ هـ/١٢ نوفمبر ١٧٣٠م ، ثم غدا قاضي عسكر الأناضول . وعهد إليه في ربيع الثاني عام ١١٤٦هـ/١٢ أغسطس ١٧٣٣ م بمنصب قاضي عسكر الروملي . وفي عام ١١٤٩هـ/١٧٣٦م أوفد إلى مكة المكرمة ليتولى القضاء فيها مرة أخرى . ثم عاد بعدها إلى استانبول ، وعين مستشارا للسلطان محمود الأول ، ثم نقل بعد ذلك إلى دمشق ليتولى القضاء بها ،

لكنه توفى فى الطريـق عـام ١١٥٢هـ/١٧٣٧٩م . ولسالم محمـد عـدة ترجمـات وشروح لمصنفات فقهية ، وكتاب فى الجهاد يسمى " نيل الرشاد فى أمر الجهاد " طبع فى الآستانة عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٨م ، انتهى من تأليفه فى ذى الحجة عام ١١٤٥هـ/١٧٣٢ م ، وقد كتبه بأمر من السلطان محمود الأول . وترجم أيضًا إلى التركية التاريخ العام للعينى المتوفى عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م ، المعروف باسـم " عقـد الجمان فى تاريخ أهل الزمان " وتوجد ثمانية مجلدات مـن المخطوط الأصلى لهـذا الكتاب - وكان فى نية المؤلف أن يجعله فى عشرة مجلدات - فى استانبول بمكتبـة نورى عثمانية . وأعظم مؤلفات سالم " تذكرة شعراء " الذى ترجم فيه لـ ٤١٠ شاعر وناظم ، كتبـه عـام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م ، ويوجـد المخطـوط الأصلى لهـذا الكتاب فى مكتبة خالص أفندى باستانبول ، ومنه مخطوط آخر فى فينا ، وقد طبع هذا الكتاب فى استانبول عام ١٣١٥هـ/١٨٩٨م ، ويقع فى ٧٢٦ صفحة(٩١) .

أئمة السلطان والمساجد الخاصة :

تنافس سلاطين الدولة العثمانية والأمراء والوزراء فى بناء المساجد والجوامـع فى العاصمة استانبول ، وفى مختلف ولايات الدولة العثمانيـة . وكـان الدافـع وراء ذلك إما حبًا للخير ، أو تخليد لذاكراهم .

وكان كل سلطان يبنى جوامع يعهد إلى شيخ الإسلام بتعيين أئمـة وخطبـاء ومؤذنين لتلك الجوامع . وكان عددهـم يختلـف حسـب كـبر الجـامع أو صغـره . وكان خطباء الجوامع الكبيرة يختارون من كبار القضاة ، وينتسبون إلى القضاة مـن فئة مولى الكبير . وكان السلطان يؤدى صلاة الجمعة أو العيدين فى أحـد الجوامـع التى بناها، أما بقية الفروض فكان يؤديها مع وزرائه فى المساجد الخاصة فى مقـر الحكم ، أو فى مسجده الخاص فى قصره مع أفراد حاشيته(٩٢) .

وكان يشترط فى إمام الجامع أن يكون متعمقًا فى علوم الشريعة الإسـلامية إلى جانب إلمامه بالقوانين الوضعية المعاصرة ، وقضايـا المجتمـع ، حتى يتمكـن مـن

تفقيه الناس وتبصيرهم بأمور دينهم ، ومعالجة بعض الظواهر الاجتماعية السيئة(٩٣) .

وكان بعض السلاطين لهم مجموعة من الأئمة والخطباء يصاحبونهم فى حلهم وترحالهم وتنقلاتهم فى أقاليم الدولة العثمانية المختلفة ، كما كانوا يصاحبون السلطان فى ميادين الجهاد ، ويقومون بإمامة المجاهدين فى جميع صلواتهم ، كما كانوا يقومون إلى جانب بعض القضاة الآخرين بحث الناس على الجهاد والاستبسال فى الجهاد ، ويذكرونهم بما أعده الله للمجاهدين من أجر جزيل وخير كبير فى الدنيا والآخرة(٩٣) .

وكانت مرتبات هؤلاء الأئمة فى الغالب من إيرادات الأوقاف الخيرية التى يوقفها السلطان على مسجده الذى شيده ، وقل أن نجد سلطانًا أو وزيرًا أو أميرًا يبنى جامعًا دون أن يوقف على هذا الجامع مزرعة أو استراحة أو عينًا ما ... يصرف منها على متطلبات المسجد ورواتب الخطباء والأئمة والمؤذنين(٩٤) .

وكان بعض خطباء الجوامع يشاركون فى اجتماعات الديوان الهمايونى ، كما كان البعض الآخر مستشارًا للسطان(٩٥) .

وكان مستشارو السلطان وأئمته ومعلموه من كبار أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، وتمتعوا بنفوذ كبير جدًا فى الدولة ، لأن طبيعة وظائفهم كانت تتطلب أن يكونوا على اتصال مستمر بالسلطان . وكان لهم من ثقافتهم ومن الثقة الكبيرة التى أولاهم إياها السلطان ما جعل الأضواء تسلط عليهم . وكان السلطان يقدر آراءهم ويحترمها .

ومن أمثلة الجوامع والمساجد الخاصة : المساجد التى كان يبنيها الأمراء والوزراء ، وأهل الخير . وكانت الهيئة الإسلامية الحاكمة هى التى تتولى تعيين الأئمة والخطباء والمؤذنين والوعاظ .

ومن الخطباء المشهورين والأئمة كمال الدين خوجندى مؤلف كتاب شرح المقاصد . وكان كمال الدين يؤم السطان بايزيد الصاعقة فى مسجده الخاص . والسيد شريف على الجرجانى مؤلف كتاب " التعريفات " وكان مستشار السلطان محمد الأول وإمامه الخاص . ويازيجى زاده محمد أفندى مؤلف كتاب " محمدية " كان إمامًا وخطيبًا فى مسجد السلطان مراد الثانى فى أدرنه . والشيخ سليمان الجزولى مؤلف كتاب " دلائل الخيرات " من أئمة السلطان محمد الفاتح ، وسيد أحمد البخارى إمام وخطيب فى جامع السلطان بايزيد الثانى ، والشيخ الإمام أحمد القسطلانى مؤلف كتاب " المواهب " إمام وخطيب مسجد السلطان سليم الأول . والشيخ نعمة الله أفندى صاحب كتاب " اللغة " ، وكان من أشهر أئمة السلطان سليمان القانونى ، وأبو السعود أفندى إمام السلطان سليم الثانى ، وعلى القارى مؤلف كتاب" تصانيف " إمام وخطيب جامع السلطان أحمد الأول، والشيخ إسماعيل حقى البورصوى مؤلف " تفسير روح البيان " إمام وخطيب جامع السلطان أحمد الثالث ، والشيخ شمس الدين حبيب إمام السلطان عبد الحميد الأول والشيخ سنبل زاده إمام وخطيب جامع السلطان محمود الثانى(٩٦) .

٩ - أطباء القصور السلطانية :

لم يكن علماء الدين وحدهم الذين ينتمون إلى الهيئة الإسلامية الحاكمة ، بل كانت هذه الهيئة تتسع لتشمل بعض الأطباء والجراحين ... وغيرهم من أصحاب التخصصات العلمية . ولعل مرد هذا الشمول إلى أن فريقًا من الأطباء كانوا يجمعون بين دراسة الطب ، والفقه ، أصول الدين وعلوم البلاغة وغيرها . وكانت لكل منهم فى معظم الأحيان قدم راسخة ، وسأورد بعض الأمثلة على ذلك :

١ - أيدينلى(٩٧)حاجى باشا : وهو خضر بن على بن الخطاب ، وكان معاصرًا للسلطان أبى يزيد الأول (٧٩٠ - ٨٠٦هـ) ، جمع بين دراسة الفقه ، وعلوم البلاغة وبين دراسة الطب . وقد ارتحل إلى القاهرة طلبًا للعلم ، ودرس على

شيوخ عصره فى الأزهر ، حيث درس على يد الشيخ مبارك منتقى ، وأتم دراسته الدينية والفقهية مع الشيخ أكمل الدين ، والشيخ بدر الدين سيهافى . وقد أصيب بمرض صرفه إلى تعلم الطب . وسرعان ما لمع نجمه فيه ، ثم أصبح كبير الأطباء فى (بيمارستان مصر) . وقد عاد بعدئذ إلى آيدين ، واستقر فى بركى بدعوة من آيدين أوغلى محمد بك ، وقيل أصبح من أطباء تيمرلنك ولقن أطباءه العلم ، ثم خدم الأمير سليمان وقضى فى بلاطه وقتًا طويلاً . وكان له بعض الصلات المتفرقة مع السلطان بايزيد الأول بعد عودته من مصر(٩٨) .

وقد ألف فى التخصصات التى درسها عدة رسائل وكتب ومراجع . ويلاحظ أن مؤلفاته الطبية فاقت - من حيث عددها وأهميتها - رسائله فى الفقه والتفسير والمنطق ، وقيل إن كتابيه " الشفاء " وتسهيل الطب " قد نقلا إلى اللغة اللاتينية(٩٩) .

ومن أشهر رسائله فى الفقه والتفسير والمنطق(١٠٠) :

تفسير فى مجمع الأنوار فى جميع الأسرار ، ويقع فى مجلدين .

طوالع الأنوار فى الكلام ، وهو شرح على تفسير البيضاوى للقرآن الكريم.

حواشى على شرح فخر الدين الرازى لكتاب "مطالع الأنوار فى المنطق".

" الشفاء " وضعه باللغة التركية ، ويبحث فى أنواع العلاج ، وقسمه ثلاثة أقسام، تناول فى القسم الأول علم وظائف الأعضاء وعلم التغذية ، وفى الثانى الأطعمة والأدوية ، وفى الثالث أسباب الأمراض وتشخيصها وعلاجها .

- " تسهيل الطب " وهو عبارة رسالة بسط فيها كتابه السابق .
- " شفاء الأسقام ودواء الآلام " .
- " الفريدة فى ذكر الأغذية المفيدة " .

• " التعاليم " .

• " الكيمى الجلالى " .

٢ - بهجت مصطفى أفندى : (١١٨٨-١٢٤٩هـ/١٧٧٤-١٨٣٤م)
تدرج فى المناصب الطبية حتى وصل سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣ م إلى منصب كبير أطباء السلطان سليم الثالث ، ثم انتقل إلى المناصب الدينية والقانونية المرموقة ، كان من بينها منصب قاضى إزمير من فئة مولى ، ثم قاضى مصر سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م ، ثم توج حياته الوظيفية بشغله منصب قاضى عسكر الأناضول سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م ، ثم قاضى عسكر الرومللى (البلقان وبقية الولايات العثمانية فى أوربا) سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م . وكان بهجت مصطفى أفندى يعتبر من رواد الطب الحديث على النمط الأوربى ، أنشئت تحت إشرافه مدرسة طب جديدة ، استقدمت الدولة لها مدرسين أوربيين ، كما أنشئ تحت إشرافه أيضًا مستشفى جديد . وعكف على دراسة لغات أوربية على يد كبير التراجمة فى الباب العالى ، وقام تبرجمة عدد لا يستهان به من الكتب العلمية والطبية ، منها كتاب ينر Jnner عن التطعيم ، وكتاب بوفون Buffon عن التاريخ الطبيعى ، ومصنفات أخرى عن الكوليرا والزهرى وقوبا الغنم . وتولى ترجمة كتاب المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى :" عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" إلى اللغة التركية ، وقصر ترجمته على الجزء الخاص بالحملة الفرنسية على مصر وأطلق عليه "تاريخ مصر" وقد طبع فى استانبول سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥ - ١٨٦٦م(١٠١).

٣ - عاكف أفندى : درس الطب فى إنجلترا ، وبعد عودته عين طبيب السلطان عبد العزيز الخاص ، إلى جانب عمله كمدرس فى مدرسة الطب فى استانبول . وكان أحد الأطباء الستة(١٠٢) الذين قاموا بفحص السلطان مراد الخامس ، وأثبتوا أن الداء الذى أصيب به السلطان مراد داء عضال ، وأنه لن يستطيع أن يستعيد قواه العقلية وسلامه تفكيره ، حتى ولو بعد مدة طويلة . وبعد

تولى السطان عبد الحميد الثانى مقاليد الحكم عينه طبيبة الخاص ، وبقى فى منصبه هذا مدة سنين ، ثم استبعده السلطان عبد الحميد الثانى لشكه فى إخلاصه له . وكان عاكف أفندى طوال السنين التى عمل فيها طبيبًا لعبد الحميد- كان أيضًا - مستشارًا له فى كثير من الأمور ، لا سيما وأن عاكف أفندى درس الفقه وأصول الشريعة الإسلامية . وتشير الوثائق العثمانية بأن السلطان عبد الحميد قد استدعاه لمراجعة بعض الفتاوى التى أصدرها شيخ الإسلام وبعض القضاة بشأن الحرب الروسية العثمانية ، والتى أصبح بموجبها الجهاد فرض عين على كل مسلم قادر على حمل السلاح(١٠٣) .

وبالإضافة إلى تمكن عاكف أفندى ونبوغه فى الطب والشريعة الإسلامية ، فقد كان على درجة كبيرة من الخبرة والفهم فى الفنون الحربية ، إذ عمل مدرسًا فى المدرسة الحربية فى استابنول وتخرج على يديه عدد من كبار الضباط فى الجيش العثمانى(١٠٤) .

* * *

كان للسطان العثمانى عدد كبير من الأطباء ينتمون إلى الهيئة الإسلامية الحاكمة عند معظم المؤرخين ، وهم طبيب السلطان الخاص ، ويطلق عليه " حكيم باشى " أى كبير الأطباء ، ويعمل تحت رئاسته عدد من المساعدين له ، ثم " جراح باشى " أى كبير الجراحين ، ويعمل معه عشرة من الجراحين بمثابة مساعدين له ، وينتمى هؤلاء جميعًا إلى الهيئة الإسلامية الحاكمة(١٠٥) .

إلا أنه لا ينبغى تعميم هذا الحكم لأمرين :

الأول منهما : أن الشرط الأساسى لانتماء أى شخص إلى الهيئة الإسلامية هو تمكنه من الشريعة الإسلامية ، وليس جميع الأطباء فى تاريخ الدولة العثمانية الطويل قد توفر فيه هذا الشرط .

الأمر الثانى : أن الدارس لسلاطين الدولة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر يجد أن معظم الأطباء الذين كانوا يعملون فى بلاطهم أطباء أجانب من مختلف الدول الأوربية ، وقل أن نجد أطباء عثمانيين مسلمين متمكنين فى علوم الشريعة الإسلامية ، يعملون فى بلاط السلاطين كالذين أشرت إليهم سابقًا . وهذه الاستثناءات القليلة تجعلنا نخصص فى الحكم ولانعم(١٠٤) .

١٠ - نقيب الأشراف ، حامل الراية :

كانت الهيئة الإسلامية الحاكمة تضم بين أفرادها فئة الأشراف ، وهم الذين ينحدرون من آل بيت النبى ﷺ . وكان الأشراف يمثلون أحد نظامين وراثيين وحيدين فى الدولة العثمانية ، والنظام الوراثى الاخر هو وراثة العرش السلطانى ، وكانت هذه الوراثة فى أسرة آل عثمان .

وكان يطلق على الأشراف اسم آخر هو الاسياد ، فيذكر اسم الشريف مسبوقًا بكلمة سيد ، ولكنهم كانوا لا يعدون أعضاء فى الهيئة الإسلامية الحاكمة إلا أذا تلقوا فى المؤسسات التعليمية دراسات فى مستوى الدراسات التى يتعلمها العلماء . وكان بعض الأشراف يكتفون بانتسابهم إلى آل بيت النبى ﷺ ولا يجهدون أنفسهم فى تثقيفها وتعليمها ، وهذا لا يكفى لانتسابهم إلى هيئة العلماء. فالعلم والتمكن من علوم الشريعة الإسلامية شرط أساسى لذلك الانتساب . وكان عدد الأشراف بوجه عام كبيرًا ، ويختلف من عصر إلى آخر ، وقد تسلل إلى صفوفهم عدد من المدعين ، ولذلك لم تكن تصرفات هؤلاء المدعين فوق مستوى الشبهات)(١٠٦) .

وكانت بعض الحكومات والسلطات تعطيهم الحق دون سواهم فى ارتداء العمامة الخضراء ، كما كانت لهم امتيازات شخصية كالإعفاء الضرائبى مدى الحياة ، وإجراء مرتبات مجزية لبعضهم ، كما كان لهم محاكم خاصة بهم ، وقضاتها من الأشراف(١٠٧) .

وفى نطاق الحديث عن الأشراف نسلط الأضواء على شريفين : أحدهما يحمل علم الدولة العثمانية ويسير به فى المواكب الرسمية والعسكرية ، وكان يتقدم على جميع ضباط الجيش ويطلق عليه أمير العلم أوحامل الراية ، وكان يتناوب مع الصدر الأعظم فى رفع العلم فى المعارك الحربية . وأول إشارة عثرت عليها فى الوثائق العثمانية تشير إلى أن حامل العلم من الأشراف كان ذلك فى عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م فى أثناء الحملة التى شنها صالح ريس بكلر بك الجزائر بأمر من السلطان سليمان القانونى لضم مراكش (المغرب) إلى الحكم العثمانى . ولم تنجح هذه الحملة فى البقاء فى مراكش إلا بضعة أشهر ، لأن محمد المهدى السعدى استطاع أن يبعد النفوذ العثمانى والجزائرى عن مراكش(١٠٨) ، كما وردت فيما بعد إشارات كثيرة فى الوقائق العثمانية تشير إلى تناوب حمل البيرق النبوى بين الصدر الأعظم والشريف فى المعارك الحربية ، وبخاصة فى الفتوحات الإسلامية فى شرق أوروبا(١٠٩) .

وكان لحمل الشريف العلم فى مقدمة الجيش أثر كبير فى تقدم الجيش واستبساله فى الجهاد حينمايرون علم الدولة يحمله الشريف فى وسط جيش الأعداء.

أما الشريف الآخر فكان رئيس الأشراف ، ويطلق عليه نقيب الأشراف ، وكان يحتل المكانة الثانية فى الهيئة الإسلامية الحاكمة ، وفى الاحتفالات التى تقام خلال شهر رمضان المبارك . وكان نقيب الأشراف يتقدم فى معظم الأحيان على شيخ الإسلام ، وكان يعين فى منصبه مدى الحياة ، ومقره فى العاصمة استانبول . وهو يرأس الهيئة القضائية الخاصة بالإشراف ، وله سلطة مطلقة عليهم، ويتولى محاكمتهم والتحقيق معهم وتنفيذ العقوبات عليه . وكان له جهاز فنى وإدارى يعمل تحت إدارته ، ويوفد بعضًا إلى الولايات العثمانية الإسلامية لتقصى الحقائق عن الأشراف وأوضاعهم وما إلى ذلك(١١٠) ، وكمثال على وضع الأشراف ومدى اهتمام الدولة العثمانية بهم نشير إلى وضع الأشراف فى مصر .

ففى مصر كان يصدر تعيين نقيب الأشراف بفرمان من السلطان فى استانبول . وكان النقيب يشغل هذا المنصب مدى الحياة ، ولو أن هذا المبدأ لم يحترم تمامًا ، وبخاصة عندما ضعفت قبضة الدولة العثمانية على مصر التى اجتازت فترة سياسية دامية أطلق عليها عهد الانقلابات السياسية أو عهد الاضطراب السياسى (١٢١٦ - ١٢٢٠ هـ / ١٨٠١ - ١٨٠٥م) . فقد استطاع أفاك تركى يدعى " يوسف أفندى " أن يستصدر من السلطان سليم الثالث فرمانًا فى نوفمبر - تشرين الثانى - ١٨٠١م بتعيينه نقيبًا للأشراف فى مصر بدلاً من السيد عمر مكرم . ولم يستطع الباشا العثمانى فى مصر فى ذلك الوقت ، وهو محمد خسرو باشا أن يتجاهل فرمان السلطان سليم ، فقلد هذا الباشا نقابة الأشراف فى ٢ نوفمبر - شباط - ١٨٠٢ م للأفاك التركى يوسف أفندى ، ولكن أعيدت نقابة الأشراف إلى السيد / عمر مكرم فى ١٨ أبريل سنة ١٨٠٢ م بعد مساع بذلت لدى السلطان فى استانبول(١١١) .

وكان للمركز المرموق الذى تبوأه نقيب الأشراف فى استانبول أصداء على مركز نقيب الأشراف فى مصر ، وإذا كان الأخير أيضًا يتمتع بمكانة كبيرة ، فهو بحكم منصبه عضو فى ديوان القاهرة ، وكان الباشا العثمانى يرجع إليه فى كثير من المسائل . وكان يقدم للنقيب فرو سمور فى شتى المناسبات ، وفى فترات متقاربة على مدار السنة ، وكان أشراف مصر يدينون لنقيبهم بالطاعة ، وكان يقدم له كل ثلاثة مرتبات يطلق عليها " جميكية " وكانت هذه المرتبات محدودة قيمتها ، ومدونة فى سجلات النقابة(١١٢) .

الهوامش

(١) أبو حنيفة : هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه ، ولد فى سنة ٨٠هـ / ٦٩٩م، وهو من المجتهدين فى الشرع الإسلامى ، وإمام للمذهب الحنفى الذى ينسب إليه ، وكانت وفاته يرحمه الله سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م .

(خليفة بن خياط العصفرى : كتاب الطبقات ، ص١٦٧ ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الثانية ، دار طيبة . الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) .

(أحمد بن أبى بكر بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ص٤٠٥ ، ٤١٣، ٤١٤ ، تحقيق إحسان عباس ، الجزء الخامس ، دار صادر ، بيروت " بدون تاريخ ") .

(٢) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (٦١٣) تاريخ ٢ ربيع الأول ٩٨٢هـ/ ٧ أكتوبر١٥٢١م .

- محمد بن أحمد النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص٧٣١ الطبعة الأولى، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . الرياض ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

- طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية . جـ١، ص٣٠٤ ١٣١٩ .

- يلمازا وزتونا : بيوك تركيا تاريخى ، جـ١ ، ص٦٧ . إستانبول ١٩٧٨م .

(٣) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٤٣) تاريخ ٢٣ رجب ٩٦٢هـ/ ١٩ أبريل ١٥٥٥م .

- محمد جمال : وثائق سياسية ، ص١٢٣ . الآستانة ١٣٢٧هـ .

- أحمد رفيق : كدنلر سلطنى ، جـ ١، ص٩٣ . الآستانة ١٣٢٢هـ .

(٤) عبد الصمد بن إسماعيل الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، ص٥٥ - ٦٠ ، تحقيق محمد الحبشى . الطبعة الأولى . منشورات المدينة ، صنعاء ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

(٥) الأقجة : هى وحدة من عملة تركية قديمة . سكت لأول مرة عام ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م فى عهد السلطان أورخان بن عثمان . وكانت على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وحدة قيمتها ٥٠أقجة . ولم يكن عليها تاريخ ، كما لم يذكر محل سكها . قطرها ٢٢مم . ومكتوب على وجهها " أورخان ، خلد الله ملكه " باللغة العربية .

النوع الثانى : وحدة من أقجة واحدة فقط ، بلا تاريخ ولا ذكر المكـان . علـى وجههـا الأول أسماء الخلفاء الراشـدين الأربعـة وكلمـة الشـهادة ، وعلى وجههـا الثانى " أورخان ، خلد الله ملكه " .

النوع الثالث : على الوجه الأول أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة ، وعلى الوجـه الثـانى تـاريخ ٧٢٩ ومحل سـكتها بورصـة ، وقطرهـا ١٨سـم . ويتتـابع سـك الأقجة طوال مدة السلطنة العثمانية حتى عهد السلطان محمود الثـانى أى حتى عام ١٢٣٤هـ / ١٨١٨م ، وضربت من فضة عيارها ٩٠٪ .

(دائـرة المعـارف التركيـة ، ميـدان لاروس ، جـ١ ، ص٢١٣ ، الطبعـة الأولى ١٩٧٣م) .

(٦) قاضى العسكرى (الجيش) تعود تسميته بهذا الاسم إلى أن هذا المنصـب فـى الأصل قـد أنشئ ليكون شاغله قاضيًا للجيش العثمانى يرافقه فى ساحات المعـارك . وكـان إنشـاؤه متقدمًا على وضع قضاة للمدن . وفضلاً عن تكليفه برد الحقوق إلى أصحابها ؛ فقد كان يخوض المعارك مع الجيش ، ولهذا وقعت علـى عاتقـه مهمـة ضمـان الوحـدة المعنويـة فـى الجيش أكثر مما وقعت على عاتق القواد العسكريين . انظر كلاً من :

- حكمت فقلجملى : المرجع السابق ، ص٢٨٣ .
- محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، ص١١٥ .

(٧) قاضى القضاة : تعود هذه التسـمية إلى عهـد الخليفـة العباسـى هـارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/٧٨٦ - ٨٠٩م) الذى يرجع إليه الفضـل فـى تعيـين رئيـس للقضـاة فـى كافـة أراضى الدولة الإسلامية .

(جمال صادق المرصفاوى : نظام القضاء فى الإسلام ، ص١٩٧ بحث مقدم لمؤتمر الفقـه الإسلامى المنعقد فى جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، طبـع سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - الرياض)

(٨) دفتر المهمة رقم (١) ، وثيقة رقم (٦٩٩) تاريخ ٢٥ ذو الحجة ٨٦٤هـ/٢٦ نوفمبر ١٤٥٩م .

(٩) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (٧٠٣) تاريخ ١٠ شعبان ٨٨٥هـ / ١ مارس ١٤٨٠م .

- أحمد رفيق : أونىجى عصر هجر يده إستانبول حيات ، ص١٨٧ الآستانة ١٣٣٣هـ.

- أسعد أفندى : أس ظفر ، ص١٢٥ باريس ١٨٣٣م .

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٢ ، ص٣٣٥ ، إستانبول ١٣٣٨هـ .

(١٠) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة (٧٠٣) تاريخ ٠ شعبان ٨٨٥هـ/ ١مارس ١٤٨٠م.

(١١) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (٧١٠) تاريخ ١٢ شعبان ٨٨٥هـ/٣ مارس ١٤٨٠م .

- وثيقة رقم (٧١١) تاريخ ١٥ شعبان ٨٨٥هـ / ٦ مارس ١٤٨٠م .

(١٢) محمد جمال : وثائق سياسية ، ص٣٠١ ، ألآستانة ١٣٢٧هـ .

- أحمد رفيق : كدنلر سلطتى ، جـ١ ، ص٩١ .

(١٣) دفتر المهمة رقم (٤) وثيقة رقم (٥٢٧) تاريخ ١ صفر ٩٢٤هـ / ١٣ يونيه ١٥١٨م .

(١٤) كان دخول الشمال الإفريقى في حوزة العثمانيين على نحو التالى : فى ٢٨ ذى الحجة ٩٢٢هـ / ٢١ يناير ١٥١٧م دخلت مصر فى حكم العثمانيين . بعد انتصار السلطان سليم الأول على الجيش المملوكى بقيادة السلطان طومان باى فى معركة الريدانية . وفى سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م دخلت الجزائر فى الحكم العثمانى بناءًا على استنجاد أهلها ضد القوى النصرانية الأسبانية . وفى سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م دخلت طرابلس فى الحكم العثمانى بعد استنجاد أهلها بالسلطان سليمان القانونى . أما تونس فقد دخلت فى الحكم العثمانى سنة٩٨٢هـ / ١٥٧٤م بعد معارك هائلة بين القوات العثمانية والقوات الليبية الأسبانية .

(١٥) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٧٧٩) تاريخ ١٠ ربيع الأول ٩٦٨هـ/١٦ كتوبر ١٥٦٠م .

(١٦) لفظة " همايون " فارسية الأصل .ومعناها اللغوى مبارك ، مقدس ، حسن الحظ ، ومن هنا ملكى ، أو سلطانى ، وخطى همايون معناها مرسوم أو أمر كتابى سلطانى .

(سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٣٠٧١ ، الآستانة ١٣٠٨هـ) .

والديوان الهمايونى يشبه بجلس الوزراء ، ولكنه أوسع من ناحية الاختصاص والعضوية. وكان سلاطين الفترة الأولى يحضرون حلساته ويرأسون اجتماعاته . واستمر هذا التقليد متبعًا حتى الثلث الأخير من حكم السلطان سليمان القانونى حيث تنازل عن رياسته للصدر الأعظم؛ نظرًا لإتساع رقعة الدولة العثمانية فى عهده وانشغاله بمعالجة أمور الدولة الخارجة عن نطاق اختصاص الديوان ، وليس سبب هذا التنازل هو زواج السلطان

سليمان القانونى بزوجته النصرانية روكسلانه وحبه الشديد لها إلى درجة أنـه لا يستطيع مفارقتها كما يزعم بعض المؤرخين .

- دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٩١) تاريخ٩ ذو الحجة٩٦٨هـ/٣١ أغسطس١٥٦٠م.

وكان الديوان زمن السلم يعقد جلسات مطولة أربعة أيام من كل أسبوع هـى : السبت والأحـد والإثنين والثلاثـاء ، وتتوقـف الجلسـات خـلال شـهر رمضـان المبارك ، فكـان الاجتماع يستغرق ما يقرب من ثمان سـاعات ، وكـان يتخلله فـترات اسـتراحة وتنـاول الطعام الذى كانت تقدمه الدولة لأعضـاء الديـوان وغـيرهم مـن الموظفـين الذيـن تقضـى طبيعة عملهم أن يظلوا على مقربة من الأعضاء لتقديـم البيانـات أو الإيضاحـات ومـا إلى ذلك . وكانت الدولة تستقطع نسبة معينة مـن مرتبـات جميـع أعضـاء الديـوان وموظفيـه والحرس ومن إليهم قيمة جزء من تكاليف الطعـام الـذى تقدمـه لهـم علـى مـدار السـنة ، وكان الطعام يتكون من اللحم والخبز والأرز والفاكهة .

(١٧) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٤٥) تاريخ ٢٥رجب ٩٦٤هـ/ ٢١ أبريل ١٥٥٧م.

- عثمان زادة : حديقة الوزراء ، ص١٢٣ ، الآستانة ١٢٧١هـ .

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص١٥٩ ، الآستانة ١٣١١هـ .

(١٨) أطواخ جمع طوخ وتكتب فى بعض المراجع العربية بحرف الغين على هـذا النحـو: طـوخ وأطواغ . والطوخ هو ذيل حصان معلق فى سارية فى أعلاها كـرة مـن النحـاس المطلى بالذهب . وكان كبار موظفـى الدولـة يتميزون بعـدد الأطـواخ التـى ترفـع أمـامهم فـى المواكب والحفلات الرسمية .

حيث كانت تقدمهم سارية تحمل الطوخ أو الأطواخ المقررة بحكم القانون لكـل منهـم . وعدد الأطواخ هو الذى يحدد مراكز كبار رجال الدولة . فالسـلطان لـه تسـعة أطـواخ ، وللصدر الأعظم خمسة أطواخ ، ولشيخ الإسلام خمسة أطواخ ، أمـا الوزيـر فـترفع أمامـه ثلاثة أطواخ .

(علميه سالنامه سى ، ص٤٣٧ ، نشر أحمد رفيق وزميله ، مطبعة إستانبول ١٣٣٤هـ).

(عطائى : ذيل الشقائق ، ص٩٣ ، إستانبول ١٢٦٨هـ) .

(١٩) عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، ص٢٠ ، الآستانة ١٢٦٧هـ .

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى : جـ٢ ، ص٣٦٧ .
- سلانيكى مصطفى أفندى : تاريخ ، ص٨٣ ، الآستانة ١٢٨١هـ .

(٢٠) أفندى لفظة عثمانية شاع استخدامها فى جميع البلاد التى دخلت فى الحكـم العثمـانى ، وهى لقب يمنح للأشخاص المدنيين المثقفين ثقافة واسعة .

(سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٢٥٩) .

(٢١) أسكودار : كلمة تركية معناها محطة البريد ، وهذا المكان أقدم حى فى إستانبول ، ويقع على الجانب الأسيوى من البوسفور . ويذكر بعض المؤرخـين الأتـراك أن هـذا الحـى قـد دخل فى الحكم العثمانى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م فى عهد السلطان أورخان بن عثمان ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أن دخوله فى الحكـم العثمـانى كـان فـى سـنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م . وفى عهد العثمانى أصبحت أسكودار جزءًا مـن صميـم العاصمـه إسـتانبول ، ولم يزدحم بالسكان إلا فى عهدالسلطان سليمان القانونى . وفى أسكودار عدد كبير من المساجد المشهورة ، أنشأ أكثرها أكبر نساء القصر العثمـانى ، كمـا أن أسـكودار أصبـح مقر احتماع طائفة الدراويش ، ومركزا للتكايا ، وبهذا غدت مركزًا هامًا لحياة التصوف فى العاصمة ، وأشهر هذه التكايا تكية الخلوتية ، وتكية الرفاعية وغيرها .

(حاجى خليفة : جهانتما ، ص٦٦٣ - ٦٧٠ الآستانة ١١٤٦هـ)

(حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ٢ ، ص١٨٢-١٩٠، الآستانة ١٢٨١هـ).

(٢٢) ضاحية أيوب تنسب إلى الصحابى الجليل " أبى أيب " وهو : خالد بن زيد الأنصارى ، حامل لواء النبى ﷺ . استشهد تحت أسـوار القسـطنطينية أثنـاء حصـار المسـلمين لهـذه المدينة عام ٥٢هـ / ٦٧٢م ، ودفن هناك . ويقال إن الشيخ أق شمس الدين عثر على قبره عندما أتى محمد الثانى لمحاصرة هذه المدينة . وقد شيد مسجد فـى هـذه البقعـة عـام ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م . وقام بتوسيعه اتمكجى زاده أحمد باشا عام ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م وشـيدت لـه مئذنتان وأروقة عام ١١٣٦هـ / ١٧٣٣م . وقد دفن فى مكان ملحق بالمسجد عدد كبير من مشاهير الرجال ، أمثال : الصدر الأعظم سنان باشا المتوفى عام ١١٢٣هـ/١٧٢٩م. والسلطانه ماه فيروز خديجة ، وأم السلطان عثمان الثالث ، والصـدر الأعظـم سمبز علـى باشا ... وقد قامت حول هذا المسجد ضاحيه هامة هى ضاحيه أيوب . ويحتفل فـى هـذا

المسجد بتتويج كل سلطان جديد من سلاطين آل عثمان : حيث يتقلد السيف ، ويقسم على المصحف على الجهاد فى سبيل الله . وهذا عُرف جرى عليه سلاطين الدولة العثمانية منذ فتح القسطنطينية حتى سقوط الدولة العثمانية .

(٢٣) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٦٥) تاريخ ٢٣صفر ٩٧٠هـ / ١٧ يناير ١٥٦٢م .

- حافظ حسين الأيوانسرايى : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٢٦٧ .

- عطائى : ذيل الشفائق ، ص٩٣ .

(٢٤) المولى : بفتح الميم أو ضمها وسكون الواو وفتح اللام بمعنى سيد أو رئيس أو زعيم أو قيم . وقد حرفت هذه اللفظة فى أقاليم شمال إفريقيا فأصبحت " مولاى " ومن بين الطرق الصوفية المشهورة توجد الطريقة التى أسسها جلال الدين الرومى ، وقد اشتق اسمها من كلمة " مولانا " بمعنى سيدنا ، ويطلق الأكراد إلى الوقت الحاضر لفظة " المولا " على السيد الوقور كبير السن ذى المركز المرموق سواء الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية ، وهى تقابل فى المجتمعات القبلية كلمة شيخ . وأكثر الأكراد استخدامًا لهذا الكلمة هم أكراد العراق. فيذكرون اسم الشخص مسبوقًا بكلمة " مولا " . مثل مصطفى البرزانى زعيم الأكراد .

(عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة الإسلامية مفترى عليها، جـ١ ، ص٤٢٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٨٠م) .

(٢٥) دفتر المهمة رقم (٥) ، وثيقة رقم (١٦٣٩) تاريخ ٥ رجب ٩٦١هـ/ ١ أبريل ١٥٥٤م.

(٢٦) برُوسَّة : وينطقها الأتراك : " بورسة " وكانت تعرف قديمًا باسم " بروسًا " وتقع على خط طول ٤٠° - ٢٦° شرقًا وخط عرض ٣١° - ٤٠° شمالاً ، عند سفح جبل كشيش ، واسمها القديم " أوليمبوس " وبلغ عدد سكانها عام ١٩٠٧م : ٦٦,١٥١ نسمة ، وبها حمامات ساخنة شهيرة بمياهها الكبريتية الحديدية . ومن آثار بروسة المساجد التى شيدها السلاطين الأول من آل عثمان وخاصة " يشيل جامع " الذى شيده السلطان محمد الأول " وأولو جامع " ، ومسجد مراد الثانى ، ومسجد يلدرم ، وأصبح لبروسة شأن فى الإسلام بعد أن فتحها السلطان أورخان بن عثمان ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ، اتخذها عاصمة

للدولة ، وظلت بعده مقر السلاطين إلى أن فتحت مدينة القسطنطينية . حيث نقلت العاصمة إليها .

(عبد الله خلوصى : دوحة الملوك . ص ٨٧) .

(٢٧) أدرنة : تقع على مرتفع من الأرض ، عند ملتقى عدة أنهار فى وسط سهل بالبلقان . وقد حصّنها الروم تحصينًا قويًا لصد غارات البلغار ، فتحتها الجيوش العثمانية فى عهد السلطان مراد الأول سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦٢م ، بعد إنزال هزيمة ساحقة بالأحلاف الصليبية ، وفشلت جهود البابا " أوربان الخامس " الذى بذل جهودًا مضنية فى لم شمل الدول الأوربية فى حرب صليبية ضد الدولة العثمانية . وبعد هذا النصر المؤزر الذى حققه السلطان مراد على الدول الأوربية نقل عاصمته من بروسة إلى أدرنة . وعمرها بالمساجد والمدارس والقصور والمنشآت الخيرية ، واتخذها نقطة إنطلاق لمواصلة الفتوحات الإسلامية فى أوربا . واتسعت أدرنة اتساعاً كبيرًا ، حتى كان بها عام ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠ أكثر من ثلاثين ألف بيت ، يسكنها أكثر من مائة وخمسين ألف نسمة . غير أن هذه المدينة أخذت فى الضمور تدريجيًا بعد الحرب الروسية العثمانية ، وانسحاب الدولة العثمانية من معظم بلاد شرق أوربا ، حيث قدر عدد سكانها فى أعقاب الحرب بثمانين ألف نسمة تقريبًا .

(سامى : قاموس الأعلام ، جـ٣ ، ص١٥٩) .

(٢٨) لاريس Larisse مدينة فى بلاد اليونان ، وتقع فى إقليم تساليا .

(٢٩) سالونيك : بلد من أعمال مقدونية فى طرف خليج سلانيك مصب نهر وردار . وكانت منذ قديم العصور مدينة تجارية لها شأنها وظل هذا حالها فى عهد الإمبراطورية البيزنطية، وكانت تضم فى تلك الأيام جاليات كبيرة وخاصة من أهل البندقية . افتتحها السلطان العثمانى با يزيد الأول سنة٧٩٦هـ / ١٣٩٤م بعد أن أوقع الهزيمة بالأساطيل النصرانية المتحالفة . ولما بدأ الضعف يظهر على جسم الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر الميلادىأصبحت سالونيك أشد تعرضًا لهجوم الأعداء والنفوذ الأجنبى . وقد نص قانون الإصلاح الإدارى الذى عمل سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م على إنشاء ولاية سالونيك ، وامتدت تلك الولاية إلى مساحات كبيرة ، ولكنها لم تلبث طويلاً حتى

انكمشت ، كما أصبحت مركزا لجمعية تركيا الفتاة ، والجمعيات الماسونية اليهودية ، والمعارضين للدولة العثمانية ، نظرًا لموقعها الممتاز ، وضعف نفوذ الدولة العثمانية عليها ، وسيطرة الدولة الأوربية عليها . وخسرت الدولة العثمانية سالونيك أثناء الحرب البلقانية، فقد عبر الجيش اليونانى إليها تحت إمرة ولى العهد ، وحاصر سالونيك فى ٨ نوفمبر ١٩١٢م . وفى اليوم نفسه سلم القائد العثمانى حسن باشا المدينة لليونانيين وأدمجت فى بلاد اليونان بمقتضى الصلح الذى تم فى أثينا فى ١٤ نوفمبر ١٩١٣م .

(سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ص٣٤٢ وما بعدها . والآستانة ١٢٧٩هـ) .

(حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، ص٢٥١ . والآستانة ١١٤٦هـ) .

(٣٠) فيلبية : مدينة تقع فى بلغارية .

(٣١) إزمير : أهم مدن تركية آسيا من الوجهة التجارية . ولما غزا السلاجقة آسيا الصغرى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلاد . واستقروا فى إزمير ، ومنها أخذوا يشنون الغارات على جزر الأرخبيل ومضيق الدردنيل ، ولم تعد إزمير إلى الحكم البيزنطى إلا بعد أن أجلى السلاجقة عن نيقية عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م . ولما انحلت مملكة السلاجقة فى قونية ، واحتل أمير أفسوس المدينة عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م وأصبحت كما كانت من قبل قاعدة لغارات القراصنة على جزر الأرخبيل وسفن الفرنجة التجارية . واتحدت قوات الفرنجة البحرية تحت رعاية البابا للقضاء على هذه القرصنة ، ونجحوا فى دخول إزمير عنوة سنة ٧٤٥هـ / ١٤م وابتنى فرسان جزيرة رودس الذين أنيط بهم حماية المدينة قلعة القديس بطرس ، ثم نجح السلطان العثمانى بايزيد الأول فى إجلائهم ، وتم فتح المدينة ودخلوها فى الحكم العثمانى ، وعمرها سلاطين الدولة العثمانية بالمساجد والمدارس والمنشآت الخيرية . غير أن الزلازل التى انتابت هذه المدينة قضت على معظم هذه المساجد والمدارس والآثار . فقد انتابها زالزال فى ١٢ رمضان عام ١٠٩٩هـ/١٠ يوليه ١٦٨٨م ، وطغت الأمواج على ما يقرب من نصف المدينة، وأما الزلزال الثانى فقد حدث عام ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م ومات فيه عدد كبير من سكان هذه المدينة ، ولا تزال بعض الآثار باقية إلى اليوم .

(حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ١ ، ص٢١١) .

(٣٢) بعد أن أصبح رئيس الديوان الهمايونى .

(٣٣) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة قم (١٦٤١) تاريخ ٢٨ شعبان ٩٦١هـ / ١٩ مارس ١٥٥٤م ، ووثيقة رقم (١٦٦٥) سبق ذكرها .

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص١٦٧ .

- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص٩٠ .

(٣٤) يقوم رئيس الخصيان البيض على الخدمة الداخلية فى أجنحة الحريم السلطانى ، وكان يطلق عليه أحيانًا " باب السعادات أغاسى " أى أغا باب السعادة ، وأحيانًا أخرى " قابى أغاسى " أى أغا البوابة .

(٣٥) رئيس الخصيان السود كان يطلق عليه " قيزار أغاسى " أى أغا البنات .

(٣٦) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٤٦) تاريخ ٢٦ رجب ٩٦٥هـ/٢٢ أبريل ١٥٥٨م.

دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (١٢٤٠) تاريخ ٢١ ربيع الثانى ٩٨٤هـ/٢٦ نوفمبر ١٥٧٥م.

(٣٧) بوسنا سراى هى عاصمة ولاية البوسنة .

(٣٨) صوفيا : عاصمة بلغاريا .

(٣٩) عنتاب : مدينة فى سوريا .

(٤٠) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٧٩٧) تاريخ ٢٤ ربيع الأول ٩٧٠هـ /٣٠ أكتوبر ١٥٦٢م.

(٤١) سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ص٣٦٣ .

- عطائى : ذيل الشقائق ، ص١٤٤ .

(٤٢) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص١٩١ .

- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص١١٣ .

(٤٣) دفتر المهمة رقم (١٠) وثيقة رقم (١٤٠١) تاريخ ١٦ محرم ١٠٠١هـ / ٨ يونيه ١٥٩٢م .

- خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، جـ١١ ، ص٢٨١ الآستانة ١٢٩٢هـ.

(٤٤) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (١٣٢٧) تاريخ ١٧ جمادى الآخرة ٩٩٥هـ / ١٩ ديسمبر ١٥٨٦م .

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص١١٣ .

(٤٥) دفتر المهمة رقم (٨) وثيقة رقم (١٣٣٤) تاريخ ١٩ جمادى الآخرى ٩٩٥هـ ٢١ ديسمبر ١٥٨٦م .

- أحمد رفعت : روضة العزيزية ، ص٩١ ، الآستانة ١٢٨٢هـ .

(٤٦) معاهدة سان استفانو : هى من أكثر المعاهدات ضررًا بالدولة العثمانية ، وتعتبر فى القانون الدولى العام من أنواع المعاهدات غير المتكافئة أملتها دولة منتصرة على دولة منهزمة ، وأهم البنود التى جاءت فى هذه المعاهدة :

إنشاء ما يسمى بلغاريا العظمى ، وأفردت لها مساحات شاسعة فى البلقان ذات أربعة أضلاع ، تتحد بنهر الدانوب شمالاً ، والبحر الأسود شرقًا ، وبحر إيجه جنوبا ، والبانيا غربًا . وقررت المعاهدة أن يكون " مأمور " الحكومة وجنودها من النصارى ، وأن يحكمها أمير ينتخبه الأهالى ، بشرط ألا يكون هذا الأمير أحد أعضاء الأسر الحاكمة فى أوربا . ويصدر السلطان فرمانًا بتعيينه بعد موافقة الدول الأوربية الكبرى الموقعة على معاهدة باريس عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م ، وإن يجتمع مجلس " المعتبرين " أى مجلس الأعيان ؛ لوضع دستور للبلاد قبل انتخاب الأمير . وعلى الدولة العثمانية أن تسحب قواتها من بلغاريا ، وعلى الحكومة المحلية أن تهدم القلاع المقامة فى أنحاء البلاد ، وأن ترابط القوات الروسية فى بلغاريا لمدة سنتين ، حتى يتم إنشاء جيش من البلغاريين ، يتكون من ست فرق من المشاة وفرقتين من الفرسان ، ويكون تعدادهم جميعًا خمسين ألفًا . وأن تدفع بلغاريا جزية سنوية للسلطان تودع فى أحد المصارف .

ونصت المعاهدة على منح الاستقلال التام لرومانيا ، وأن يضم إليها ثلثا إقليم دبروجة ، وأن يأخذ منها إقليم بساريا لضمه إلى روسيا ، كما قررت المعاهدة منح الصرب استقلالها مع إضافة إقليم نيش إليها ، ووضع ولايتى البوسنة والهرسك تحت مراقبة روسيا ، على أن تحتفظ الدولة العثمانية بسيادتها على هاتين الولايتين . وقررت المعاهدة وجوب تنفيذ أحكام اللائحة الأساسية الصادرة عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م فى جزيرة كريت . أما بالنسبة لأرمينية فقد قررت المعاهدة أن تتعهد الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات أساسية حسب الاحتياجات المحلية فى المناطق التى يسكنها أرمن ، وتأمين النصارى من أعتداءات

الأكراد والشراكسة ، وإصدار عفو عام عن المسجونين السياسيين والمعتقلين والمنفيين الأرمن . وأما مكاسب روسيا في الحرب فهي:

١ - تقرير حرية المرور فى البوسفور والدردنيل فى وقت السلم والحرب للسفن التجارية الروسية التى تريد عبور هذه المضايق .

٢ - استيلاء روسيا على أقاليم هامة فى آسيا ، وهى : اردهان ، قارص، باطوم ، وبايزيد مع الأراضى الملحقة بهذه المدن .

٣ - استيلاء روسيا على أقليم هام فى أوربا هو بساربيا مصب نهر الدانوب .

٤ - فرض غرامة فادحة على الدولة العثمانية حدث بمبلغ "١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠" روبل أى ما يعادل فى ذلك الوقت " ٢٣٥ " مليون جنيه

٥ - المحافظة على أوضاع وحقوق وامتيازات القسيسين والرهبان ومن إليهم من رعايا روسيا القاطنين فى الدولة العثمانية ، وكذلك الزوار الروس .

(٤٧) اعترضت الدول الأوربية على معاهدة سان أستفانو ، وهاجمتها هجومًا عنيفًا ، وذلك لإنفراد روسيا بالمكاسب الهائلة ، والنفوذ الواسع فى البلقان والقوقاز دون أن تنال الدول الأوربية الكبرى نصيبًا من هذه الغنيمة . وتداعت الدول الأوربية لعقد مؤتمر فى برلين ، فأذعنت روسيا لمطالب هذه الدول ، وتم عقد المؤتمر برئاسة المستشار الألمانى بسمارك ، وشارك فيه كل من :

بريطانيا ، فرنسا ، روسيا ، ألمانيا ، النمسا المجر ، والدولة العثمانية ، وإيطاليا ، وأهم مقررات هذا المؤتمر :

أولاً : أن تحتل الإمبراطورية الثنائية - النمسا والمجر - الولايتين العثمانيتين الهامتين البوسنة والهرسك فى غرب البلقان احتلالاً " مؤقتًا " .

ثانيًا : أن تقيم الإمبراطورية الثنائية - النمسا والمجر - حاميات عسكرية، وتحتفظ بطرق عسكرية وتجارية فى صنجق " نوفى بازار " بين الصرب والجبل الأسود ، ومع بقاء الإدارة العثمانية فيها .

ثالثًا : أبقت معاهدة برلين النفوذ الروسى فى شرق البلقان مع تقرير ما جاء فى معاهدة سان أستفانو .

رابعًا : أكدت معاهدة برلين استقلال رومانيا طبقًا للحدود التى وضعتها معاهدة سان أستفانو.

خامسًا : أكدت المعاهدة أيضًا استقلال كل من الصرب والجبل الأسود.

سادسًا : أنقصت المعاهدة من حجم بلغاريا العظمى بتقسيمها إلى قسمين :

(أ) قسم باسم بلغاريا ، وحددت حدوده ، ويكاد يكون مستقلاً وله حكومة نصرانية وقوات نصرانية ، وحاكم نصرانى .

(ب) أما القسم الثانى فيقع جنوب البلقان بين مقدونيًا وأدرنة ، ويسمى "روم إيلى شرقى" بدلا من اسم بلغاريا . وتكون إدارته الداخلية مستقلة .

سابعًا : كما قرر المؤتمر أن تتنازل الدولة العثمانية لروسيا عن أراضى : أردهان ، قارص، باطون ، بايزيد ...

ثامنًا : قامت بريطانيا بالضغط على الدولة العثمانية سرًا فى مؤتمر برلين حتى أجبرتها على التنازل عن جزيرة قبرص لبريطانيا .

تاسعًا : قامت بريطانيا باسترضاء فرنسا ، حينما اعترضت الأخيرة على الاحتلال البريطانى لقبرص ، واستطاعت بريطانيا إقناع فرنسا باحتلال تونس ، وتم ذلك فيما بعد . وكان هدف بريطانيا هو إسكات فرنسا عندما تقوم هى باحتلال مصر.

هذه هى أهم مقررات مؤتمر برلين ، وكانت أشد سوءًا ونكالاً بالدولة العثمانية من معاهدة سان أستفانو ، حيث تكالبت الدول الأوربية وروسيا على أجزاء الدولة العثمانية ، وبذلك انتهى الوجود العثماني تقريبًا من شرق أوربا ، ومن شمال إفريقيا .

(أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩م ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧م ، ص١٩٣ ما بعدها) .

(محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ، ص٣٥٣ وما بعدها) .

(محمد رفعت : تاريخ البحر المتوسط وتياراته السياسية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩م ، ص٧٨ وما بعدها) .

(٤٨) دفتر المهمة رقم (١٠) وثيقة رقم (١٤٩٧) تاريخ ٢٣صفر ١٠٠٧هـ/ ٢٤ يونيه ١٥٩٨م .

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص١٨٣ ، مطبعة إستانبول .

(٤٩) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص١٢١

- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ص٣٥١

(٥٠) منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٩٣ ، الآستانة ١٢٨٥هـ .

- دائرة المعارف التركية ، ميدان لاروس ، جـ١، ص٤٣١ ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م ، إستانبول .

(٥١) دانشمان ظهورى : عثمانلى إمبراطور لوغو تاريخى ، تاريخي جـ١ ، ص٢٨٧ ، إستانبول ١٩٦٥م .

- جمال الدين : عثمانلى ومؤرخلرى ، ص٥٣ ، القسطنطينية ١٣١٤هـ .

(٥٢) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥٤٩) تاريخ ٢٥ ذو الحجة ٩٧٣هـ / ٢٦نوفمبر ١٥٦٥م .

(٥٣) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥٢٧) تاريخ ٢١ ذو القعدة ٩٧١هـ / ٩ يونيه ١٥٦٣م .

(٥٤) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥٣١) تاريخ ٢٢ ذو القعدة ٩٧٢هـ / ١٠ يونيه ١٥٦٤م .

(٥٥) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : أثر الغرب الأوروبى فى حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية (١٧٨٩ - ١٨٣٩) ، ص٥٢ بيروت ١٩٧٥م .

- أحمد راسم : تاريخ ، جـ١ ، ص١٢٧ ، إستانبول ١٣٢٦ - ١٣٢٨هـ.

(٥٦) دفتر المهمة رقم (٥) ، وثيقة رقم (١٦٤٥) سبق ذكرها .

- حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، ص١٥٣

(٥٧) عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص٤٣

- دائرة المعارف التركية : ميدان لاروس ، جـ١ ، ص٤٥٢

(٥٨) أحمد رفعت : روضة العزيزية ، ص١١٩

- دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٥٠) تاريخ٦ ذو الحجة ٩٦٧هـ/٢٨ أغسطس١٥٥٩م

(٥٩) حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ١ ، ص٥٤

- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٩١

(٦٠) دفتر المهمة رقم (٦) وثيقة رقم (٧٨١) تاريخ ١٧ ذو القعدة ٩٦٨هـ / ٥ يونيه ١٥٦٠م .

- وثيقة رقم (٧٨٣) تاريخ ١٢ ربيع الأول ٩٦٩هـ / ١٨ أكتوبر ١٥٦١م.

(٦١) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٥٠) سبق الإشارة إليها .

(٦٢) أحمد راسم : تاريخ ، جـ١ ، ص١٢١

- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ص٣٢١

(٦٣) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص١٤٤ - ١٦١

- برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة سيد رضوان علي ، دار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص١٧٩ - ١٨٢

(٦٤) طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية القاهرة، ١٣١٠هـ ، جـ١، ص٣٩

- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية . القاهرة ١٣٢٤هـ ، ص١٤٠

- حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ٢ ، ص١٨٢

- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ص٣٦١

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٢٢١

(٦٥) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ١ ، ص٣٣ ، جـ٤ ، ص١٤٤

(٦٦) محمد ثريا أفندى : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٠٠ - ٣٣٨

(٦٧) محمد ثريا أفندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٣٦٥ وما بعدها .

(٦٨) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون جـ٢ ، ص١١٢ ، دار الكتب العلمية بيروت .

(٦٩) قنالى زاده حسن جلى : تذكرة الشعراء . مخطوط فى فينا رقم ١٢٢٨ . جـ٢ ، ص٣٨٧

- بجوى : تاريخ ، جـ٢ ، ص٢٨٨

- حاجى خليفة : فذلكة ، جـ١ ، ص١٣٠

- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون جـ٢ ، ص٥٤٩

- عطائى : ذيل الشقائق ، ص٤٢٩ وما بعدها .

- بروسلى محمد طاهر : عثمانى مؤلفلرى ، جـ٢ ، ص٢٢ وما بعدها .

- علمية سالنامه سى : ص٤٢٦ وما بعدها .

(٧٠) حافظ الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ٢ ، ص١٩٣

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٢٩٧

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٢ ، ص٣٠٠

- بجوى : تاريخ ، ١٢٣ - ١٤٩
- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ٣٢١
- قنالى زاده حسن حلى : تذكرة الشعراء ، جـ٢ ، ص٣٥١

(٧١) أحمد رفعت : روضة العزيزية ، ص١١٩
- حاجى خليفة : جهاننما ، ص٢٢٣
- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ، ص١٩٧ .
- حاجى خليفة : فذلكة ، جـ١ ، ص١٤٣
- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٢ ، ص٣٢١
- حافظ الأيوانسرايى : حديقة الجوامع . جـ١ ، ص٢١٨
- قنالى زاده حسن حلبى : تذكرة الشعراء ، جـ١ ، ص١١٧

(٧٢) - أحمد رفعت : روضة العزيزية ، ص١٨١ - ١٠٥
- جمال الدين : عثمانلى تاريخ ومؤرخلرى ، ص١٢٥
- سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٢٢٧٤
- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٢ ، ص٣١٩
- سلانيكى مصطفى : تاريخ ، ص ٦١ - ٩٢
- خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، جـ١١ ، ص٢٤١
- أحمد راسم : تاريخ ، جـ١ ، ص١٥٣

(٧٣) حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ١ ، ص١٣٣ وما بعدها .
- أحمد رفيق : كدنلر سلطنى ، جـ١ ، ص٩٣
- محمد اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ، ص٢٢٧
- أحمد راسم : تاريخ ، جـ١ ، ص١٧٧ - ١٨٩
- خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، جـ١١ ، ص٣٢٤

(٧٤) خطأ مشهور ، والأصح صارى كورز . انظر :
- سرى باشا : غلط مشهور ، إستانبول . الطبعة الثانية مادة صارى كوزل .

(٧٥) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . جـ٢ ، ص٤١٣

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى جـ٦ ، ص١٠٨

- حاجى خليفة : سجل عثمانى جـ١ ، ص١٣٤

- عطائى : ذيل الشقائق ص٢٦٥

(٧٦) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ص

- سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٢٠٥٦

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص٢٨

- نامق كمال : عثمانلى تاريخ ، ص١٩١

- محمد جمال : وثائق سياسية ، ص١٢٣

(٧٧) أحمد راسم : تاريخ ، جـ١ ، ٢٨٣

- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنيفة ، ص٢١١

- حافظ الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ٢ ، ص١١٣

(٧٨) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٢ ، ص٣١٩

- سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٣٠١١

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٣٧٧

(٧٩) دفتر المهمة رقم (٤) وثيقة رقم (٥٠١) تاريخ ٢٤ شوال ٩٤٤هـ / ١٤ يناير ١٥٣٧م .

(٨٠) دفتر المهمة رقم (٧) وثيقة رقم (٥١٩) تاريخ ٢٠ ذو القعدة ٩٧١هـ / ٨ يونيه ١٥٦٣م .

(٨١) (المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء ، إستانبول ، (يلدز)

- وثيقة رقم (٦٩٥) كرتون ١٨ ، ظرف ٣٨ ، قسم ٢١ تاريخ ١ محرم ١٢٩٥هـ/٥ يناير ١٨٧٨م .

- وثيقة رقم (٧٠١) كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٣ تاريخ ١ شعبان ١٢٩٦هـ/ ٢١ يوليه ١٨٧٩م .

(٨٢) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٣٥٦

- عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، ص١٨٤

(٨٣) حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ٢ ، ص١٩٣

- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٢٤٣

(٨٤) أحمد جواد : تاريخ عسكرى عثمانى ص٤٠٢

- محمد جمال : وثائق سياسية . ص٢٠٢

(٨٥) نهاد سامى بانارلى : دستان ملوك آل عثمان ، ص٣١٤ ، إستانبول ١٩٣٨م .

- أحمد رفعت : روضة العزيزية . ص١٣٣

- عثمان زاده : حديقة الوزراء . ص١٨٧

(٨٦) نامق كمال : عثمانلى تاريخ ، ص١٧٩

(٨٧) سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ ، ص٣١٠

(٨٨) محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى جـ٢ ، ص٣٢٧

- أحمد رفيق : أوننجى عصر هجر يده إيتانبول حيات ص٢٢١

(٨٩) طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية جـ٩ ، ص٤٤٧

- جمال الدين : عثمانلى تاريخ ومؤرخلرى ص٧١

(٩٠) بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفرى ، جـ٢ ، ص٣٠٩

- عثمان زاده : حديقة الوزراء ، ص٩٧

(٩١) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، جـ٢ ، ص١٤٧

- حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، ص٢٠١ - ٢٠٣

(٩٢) نامق كمال : عثمانلى تاريخ ، ص٢٥١

- حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، ص٣٣٧

(٩٣) سعد الدين : تاريخ التواريخ ، جـ١ ، ص٣٩٧

(٩٤) ممد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، جـ٣ ، ص٣

- سامى : قاموس الإعلام ، ص٢٤٩٤

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٢ ، ص٣٣٥

(٩٥) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٣١١ - ٣١٣

(٩٦) حافظ حسين الأيوانسرايى : حديقة الجوامع ، جـ١ ، ص٩٥

(٩٧) عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، ص ١١٩

(٩٨) منجم باشى : صحائف الأخبار جـ٣ ،ص٣٢٤

(٩٩) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٤٠١

(١٠٠) منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٢٢١

- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص١٨٠ - ١٩١

- عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، ص٥٣ - ٦٧

- عبد القادر أغلو : البوم العثمانيين .

ترجمة محمد خان ، الناشر الدار العثمانى للنشر ١٣٩٧هـ .

(١٠١) أيدينلى نسبة إلى آيدين . وهى مدينة فى آسيا الصغرى . وقد استولى عليها سلاجقة الروم ، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة إمارة أسسها الأمير أيدين وخلع عليها اسمه . وقد ضم حفيده الأمير عيسى هذه الإمارة إلى السلطان العثمانى أبا يزيد الأول ، واستولى السلطان مراد الثانى عليها نهائيًا سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م عند وفاة أميرها الجنيد ، ولكن ظل حكم هذه الإمارة وراثيًا فى أسرة قرة عثمان أوغلى عدة قرون حتى نجح السلطان محمود الثانى فى إنهاء حكمهم لها سنة ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م . (سامى : قاموس الإعلام . جـ٣ ، ص٣٠٩٧) .

(١٠٢) رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، ص٢٨٥ - ٢٨٧

- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٣٠٩

(١٠٣) منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ٣ ، ص٤٠٩

- سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ص٣٠٤٦

- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى . جـ٢ ، ص٣١١

(١٠٤) منجم باشى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٤١٥

- سعد الدين : تاج التواريخ جـ١ ، ص١٩٤

- طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية ، ص٤٦٠

(١٠٥) خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، جـ١١ ، ص٣٠٨ ، الآستانة ١٢٩٢هـ .

- أسعد أفندى : أس ظفر ، ص١٨٧

- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى جـ٢ ، ٣٥٧

- علمية سالنامه سى : مصدر سبق ذكره . ص ٥٨٧

- شهاب الدين سليمان: تاريخ أدبيات عثمانية جـ١١ ، ص٣٧٦ الآستانة ١٣٢٨هـ.

(١٠٦) الأطباء الستة هم :

١ - ديسكون : طبي سفارة إنجلترا .

٢ - مروان : طبيب سفارة فرنسا .

٣ - سوتو : طبيب سفارة النمسا .

٤ - موليخ فاسطورى : طبيب سفارة ألمانيا .

٥ - موبجرى .

٦ - عاكف أفندى : أحد أطباء السلطان مراد الخامس .

(١٠٧) المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء - استانبول (يلدز)

- وثيقة رقم (٧١١) كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ تاريخ ١٠ محرم ١٢٩٤هـ/٢٦يناير ١٨٧٧م

- وثيقة رقم (٧١٢) كرتون ٢٩ ، ظرف ٤٣ ، قسم ١٣ تاريخ ٧ ذو القعدة ١٢٩٤هـ / ١٤ نوفمبر ١٨٧٧م .

(١٠٨) المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزراء - استانبول (يلدز) . وثيقة رقم (٧١٩) كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٥ تاريخ ١ صفر ١٣١١هـ/١٤ أغسطس ١٨٩٣م.

(١٠٩) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٦٧٠) تاريخ ٢١ محرم ٩٦٦هـ/ ١١ ديسمبر ١٥٥٩م . ووثيقة رقم (١٦٧٣) تاريخ ٢٩ محرم ٩٦٦هـ / ١٩ ديسمبر ١٥٥٩م .

(١١٠) لمعرفة المزيد من أسماء الأطباء المسلمين الدارسين لعلوم الشريعة الإسلامية ، والذين يمكن اعتبارهم أعضاء فى الهيئة الإسلامية الحاكمة انظر : " المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الوزاراء - استانبول (بلدز) .

- وثيقة رقم (٧٢٧) كرتون ٢١ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١٧ تاريخ ٢ رمضان ١٢٦٢هـ/ ٢٥ أغسطس ١٨٤٦م .

- وثيقة رقم (٧٢٩) كرتون ٢١ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١٧ تاريخ ٥ صفر ١٢٧٤هـ / ٢٦ سبتمبر ١٨٥٧م .

- وثيقة رقم (٧٤١) ، كرتون ٢٧ ، ظرف ٤١ ، قسم ١١ تاريخ ٢ ربيع الأول ١٢٨٥هـ / ٢٤يونيه ١٨٦٨م .

- وثيقة رقم (٧٤٩) كرتون ٢٧ ، ظرف ٤١ ، قسم ١١ تاريخ ٩ صفر ١٣٠٣هـ / ١٨ نوفمبر ١٨٨٥م .

(١١١) علميه سالنامه سى : مصدر سبق ذكره . ص ٤٠٣

- عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، جـ١ ، ص٤٣٩ و ٤٤٠

- عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦م ، ص ٥٣ ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٧٤م .

(١١٢) عبد الرؤوف محيى الدين سنو : المرجع السابق ، ص٥٣ .

(١١٣) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (١٦٣٩) تاريخ ٥ رجب ٩٦١ هـ / ١ إبرايل ١٥٥٤م .

(١١٤) دفتر المهمة رقم (٢) وثيقة رقم (١٦٤٠) تاريخ ٢٨ شعبان ٩٦١هـ / ١٩ مارس ١٥٥٤م

(١١٥) دفتر المهمة رقم (٥) وثيقة رقم (١٥٧٠) مصدر سبق ذكره ، ووثيقة رقم (١٦٧٣) مصدر سبق ذكره .

(١١٦) عبد العزيز الشناوى : عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧م ، ص٩٢ - ٩٧ .

(١١٧) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . جـ١ ص٤٤١ .

المصادر والمراجع

القسم الأول : الوثائق العثمانية

١ – وثائق عثمانية غير منشورة من المديرية العامة لدار محفوظات رئاسة الـــوزراء إستانبول . BASBAKANLK ARSIVI GENEL MUDURLU

وهى مصنفة على شكل دفاتر مهمة . MUHIMMED EFTERLERL

*** دفتر المهمة رقم (١) :**

– الوثيقة رقم (٦١٣) ، تاريخ ٢٩ ذو الحجة ٨٥٩هـ/٣٠ نوفمبر ١٤٥٤م .

– الوثيقة رقم (٦٩٩) ، تاريخ ٢٥ ذو الحجة ٨٦٤هـ/٢٦ نوفمبر ١٤٥٩م .

*** دفتر المهمة رقم (٢) :**

– الوثيقة رقم (٧٠٣) ، تاريخ ١٠ شعبان ٨٨٥هـ / ١ مارس ١٤٨٠م .

– الوثيقة رقم (٧١٠) ، تاريخ ١٢ شعبان ٨٨٥هـ / ٣ مارس ١٤٨٠م .

*** دفتر المهمة رقم (٥) :**

– الوثيقة رقم (١٦٣٩) ، تاريخ ٥ رجب ٩٦١هـ /١ أبريل ١٥٥٤م .

– الوثيقة رقم (١٦٤١) ، تاريخ ٢٨ شعبان ٩٦١هـ/١٩ مارس ١٥٥٤م.

– الوثيقة رقم (١٦٤٥) ، تاريخ ٢٥ رجب ٩٦٤هـ/٢١ أبريل ١٥٥٧م.

– الوثيقة رقم (١٦٤٦) ، تاريخ ٢٦ رجب ٩٦٠هـ/٢٢ أبريل ١٥٥٨م.

– الوثيقة رقم (١٦٧٠) ، تاريخ ٢١ محرم ٩٦٦هـ /١١ ديسمبر ١٥٩٠م.

– الوثيقة رقم (١٦٩١)، تاريخ ٩ ذو الحجة ٩٦٨هـ/٣١ أغسطس ١٥٦٠م

– الوثيقة رقم (١٦٥٠)، تاريخ ٦ ذو الحجة ٩٦٨هـ/٢٨ أغسطس ١٥٦٠م

*** دفتر المهمة رقم (٦) :**

– الوثيقة رقم (٧٧٩)، تاريخ ١٠ ربيع الأول ٩٦٨هـ/١٧ أكتوبر ١٥٦٠م

– الوثيقة رقم (٧٨١) ، تاريخ ١٧ ذو القعدة ٩٦٨هـ/٥ يونيه ١٥٦٠م .

– الوثيقة رقم (٧٨٣) ، تاريخ ١٢ ربيع الآخر ٩٦٩هـ/١٨ أكتوبر ١٥٦١م

- الوثيقة رقم (٧٩٧)، تاريخ ١٥ ربيع الأول ١٩٧٠هـ/٢١ أكتوبر١٥٦٢م

* دفتر المهمة رقم (٧) :

- الوثيقة رقم (٥١٩) ، تاريخ ٢٠ ذو القعدة ٩٧١هـ/٨ يونيه ١٥٦٣م.
- الوثيقة رقم (٥٢٧) ، تاريخ ٢١ ذو القعدة ٩٧١هـ/٩يونيه ١٥٦٣م .
- الوثيقة رقم (٥٣١)، تاريخ ٢٢ ذو القعدة ٩٧٢هـ/١٠ يونيه١٥٦٤م.
- الوثيقة رقم (٥٤٩)، تاريخ ٢٢ذو الحجة ٩٧٣هـ/٢٦ نوفمبر١٥٦٥م.

* دفتر المهمة رقم (٨) :

- الوثيقة رقم (١٢٤٠)، تايخ ٢١ربيع الثانى ٩٨٥هـ/٢٧ نوفمبر١٥٧٦م
- الوثيقة رقم (١٣٢٧)، تاريخ ١٧ جمادى الآخرة ٩٩٥هـ/١٩ ديسمبر١٥٨٦م
- الوثيقة رقم (١٣٣٤) ، تاريخ ١٩جمادى الآخرى ٩٩٥هـ/ ٢١ ديسمبر ١٥٨٦م .

* دفتر المهمة رقم (١٠) :

- الوثيقة رقم (١٤٠١) ، تاريخ ١٦ محرم ١٠٠١هـ/٨ يونيه ١٥٩٢م .
- الوثيقة رقم (١٤٩٧) ، تاريخ ٢٣ صفر ١٠٠٧هـ/٢٤ يونيه ١٥٩٨م.

٢ – وثائق الفهرس الأصلى لأوراق قصر يلدز :

YLIDIS ESAS EVRAKI KATAOLGU

- وثيقة رقم (٧٢٧) ، كرتون ٢١ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١٧ .
  تاريخ ٢ رمضان ١٢٦٢هـ/٢٥ أغسطس ١٨٤٦م .
- وثيقة رقم (٧٢٩) ، كرتون ٢١ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١٧ .
  تاريخ ٥ صفر ١٢٧٤هـ/٢٦سبتمبر ١٨٥٧م .
- وثيقة رقم (٧٤١) ، كرتون ٢٧ ، ظرف ٤٠ ، قسم ١١ .
  تاريخ ٢ ربيع الأول ١٢٨٥هـ/ ٢٤ يونيه ١٨٦٨م .
- وثيقة رقم (٧١١) ، كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٣ .
  تاريخ ١٠ محرم ١٢٩٤هـ/٢٦ يناير ١٨٧٧م .

- وثيقة رقم (٧١٢) ، كرتون ٢٩ ، ظرف ٤٣ ، قسم ١٣ .
تاريخ ٧ذو القعدة ١٢٩٤هـ/١٤ نوفمبر ١٨٧٧م .
- وثيقة رقم (٦٩٥) ، كرتون ١٨ ، ظرف ٣٨ ، قسم ٢١ .
تاريخ ١ محرم ١٢٩٥هـ/٥ يناير ١٨٧٨م .
- وثيقة رقم (٧٠١) ، كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٣ .
تاريخ ١ شعبان ١٢٩٦هـ/٢١ يوليه ١٨٧٩م .
- وثيقة رقم (٧٤٩) ، كرتون ٣٧ ، ظرف ٤١ ، قسم ١١ .
تاريخ ٩ صفر ١٣٠٣هـ/١٨ نوفمبر ١٨٨٥م .
- وثيقة رقم (٧١٩) ، كرتون ١٩ ، ظرف ٣٩ ، قسم ١٥ .
تاريخ ١ صفر ١٣١١هـ/١٤ أغسطس ١٨٩٣م .

القسم الثانى : المؤلفات

١ - المصادر والمراجع التركية :

- أحمد رفعت : روضة العزيزية ، الأستانة ١٢٨٢هـ .
- أحمد رفيق : كدنلر سلطتى ، جـ١ ، الآستانة ١٣٣٢هـ .
- أحمد رفيق : أوننجى عصر هجر يده إستانبول حيات الآستانة ١٣٣٢هـ.
- أحمد راسم : تاريخ جـ١ ، إستانبول ١٣٢٦ - ١٣٢٨هـ .
- أسعد أفندى : أس ظفر باريس ١٨٣٣م .
- بروسلى محمد طاهر : عثمانلى مؤلفلرى ، جـ٢ إستانبول ١٣٣٨هـ .
- جمال الدين : عثمانلى تاريخ مؤرخلرى ، القسطنطينية ١٣١٤هـ .
- حافظ حسين الأيوانسرايى: حديقة الجوامع ، جـ١ ، الآستانة ١٢٨١هـ.
- حاجى خليفة : تقويم التواريخ ، الآستانة ١١٤٦هـ .
- حاجى خليفة : جهاننما ، الآستانة ١٠٤٥هـ .
- خير الله : دولت عثمانية تاريخ ، جـ١١ ، الآستانة ١٢٩٢هـ .
- دانشمان ظهورى : عثمانلى إمبراطور لو غوتاريخى ، جـ١ ، إستانبول ١٩٦٥م.
- رفعت أفندى : دوحة المشايخ ، مطبعة إستانبول .
- سلانيكى مصطفى أفندى : تاريخ الآستانة ١٢٨١هـ .
- سعد الدين : تاج التواريخ ، جـ١ الأستانة ١٢٧٩هـ .
- سرى باشا : غلط مشهور ، إستانبول ، الطبعة الثانية .
- شهاب الدين سليمان : تاريخ أدبيات عثمانية ، الأستانة ١٣٢٨هـ .
- عبد الله خلوصى : دوحة الملوك ، الآستانة ١٢٦٧هـ .
- عثمان زاده : حديقة الوزراء الآستانة ١٢٧١هـ .
- علمية سالنامه سى : نشر أحمد رفيق وعلى أميرى أفندى ، مطبعة إستانبول ١٣٣٤هـ .
- محمد ثريا أفندى : سجل عثمانى ، ٣ أجزاء الآستانة ١٣١١هـ .

- منجم باشى : صحائف الأخبار ، جـ ٣ ، الآستانة ١٢٨٥هـ .
- محمد جمال : وثائق سياسية ، الآستانة ١٣٢٧هـ .
- نهاد سامى بانارلى : دستان ملوك آل عثمان ، إستانبول ١٩٣٨م .
- يلماز اوزتونا : بيوك تركيا تاريخ ، جـ١ ، إستانبول ١٩٣٨م .

٢ - المصادر والمراجع العربية والمعربة :

- أحمد بن أبى بكر بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . وتحقيق إحسان عباس ، الجزء الخامس دار صادر بيروت (بدون تاريخ).
- أحمد عبد الحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩م ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧م .
- برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة سيد رضوان على ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م
- حكمت قفلجملى : التاريخ العثمانى (رؤية مادية) ترجمة فاضل لقمان، دار الجيل (بدون تاريخ) .
- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، جـ٢ ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان .
- خليفة بن خياط العصفرى : كتاب الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمرى، الطبعة الثانية ، دار طيبة ، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .
- طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية ، القاهرة ١٣١٠هـ
- عبد الصمد بن إسماعيل الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، تحقيق محمد الحبشى ، الطبعة الأولى ، ومنشورات المدينة ، صنعاء ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
- عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٠م .
- عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧م .

- عبد الكريم رافق العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ الطبعة الأولى ١٩٧٤م دمشق .
- عبد القادر ده ده أغلو : البوم العثمانيين ترجمة محمد خان . الناشر الدار العثمانى للنشر ١٣٩٧هـ .
- عبد الرؤوف محى الدين سنو : أثر الغرب الأوربى فى حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية (١٧٨٩ - ١٨٣٩م) بيروت ١٩٧٥م .
- عطائى : ذيل الشقائق . إستانبول ١٢٦٨هـ .
- محمد عبد الحى اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية . القاهرة ١٣٢٤هـ .
- محمد بن أحمد النهروالى: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى الطبعة الأولى. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر الرياض ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .
- محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى . كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أى حد بلغت عظمتها . بيروت ١٩٢٥م .
- محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية . دار الجيل بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- محمد رفعت : تاريخ البحر المتوسط وتياراته السياسية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩م.

٣ - المخطوطات والقواميس ودوائر المعارف العربية والتركية :

- قنالى زاده حسن جلى : تذكرة الشعراء ، مخطوط فى فينا رقم ١٢٢٨ .
- سامى : قاموس الإعلام ، جـ٣ ، ألاستانة ١٣٠٨هـ .
- دائرة المعارف التركية : ميدان MAYDAN LAROUSSE الطبعة الأولى ١٩٧٣م ، إستانبول .
- جمال صادق المرصفاوى : نظام القضاء فى الإسلام ، بحث مقدم لمؤتمر الفقة الإسلامى النعقد فى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، طبع سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

علاقات الدولة السعودية الأولى بولاة الدولة العثمانية

فى العراق والشام

د. عايض بن خزام الروقى(*)

كان أول تدخل فى شئون الدولة السعودية الأولى من جانب العراق ، تلك الحملة العسكرية الكبيرة التى قادها ثوينى بن عبد الله بن محمد بن مانع آل شبيب، شيخ قبائل المنتفق سنة ١٢٠١هـ/١٧٨٦م ووصل بها إلى منطقة القصيم . وكان الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود يبذل قصارى جهده فى إصلاح ذات البين ، والمصالحة مع هذا القائد المهاجم ، لأن السعوديين لم يقوموا بأى عمل عدائى ضده . وكل ما هناك هو التجاء أحد أمراء بنى خالد الذى يُطَارَد من إخوانه وعشيرته إلى الدرعية ، ودخولها هربًا بنفسه من الموت . ولكن ثوينى أخذته العزة بقوته وسار حتى وصل إلى بريدة وضرب عليها الحصار ، وإن كان سرعان مافك الحصار وعاد إلى العراق، لأن الأوضاع فى قبيلته اختلت وخشى على مركزه فعاد دون أن يحقق مآربه(١).

وكان رد فعل الدولة السعودية سريعًا على هذا العدوان الذى لا مبرر له ، فقاد الأمير سعود بن عبد العزيز حملة عسكرية سنة١٢٠٣هـ/١٧٨٨م فاجأ بها قبائل المنتفق فى الروضتين – بين المطلاع وسفوان(*) – لتكون هذه الحملة أول حملة عسكرية سعودية تجتاز حدود العراق ، وتظهر لهؤلاء القوم قدرة الدولة السعودية على رد الاعتداءات التى توجه لها عبر تلك الحدود(٢) .

وكان الأمير سعود بن عبد العزيز قد تمكن قبل ذلك من تأديب ثوينى بن عبد الله وبعض قبائله حين أغار عليهم فى الصمان عند اجتماعهم مع قبائل بنى خالد فى نفس العام ، وهزمهم فى تلك المعركة(٣) .

---

* أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر – جامعة أم القرى .

ومما يؤسف له أن يكون موقف بعض المنتسبين إلى العلم الشرعى متأثرًا بالجو السياسى والمصالح الذاتية ، وهذا ما ظهر فى الخطابين المرسلين من قاضى مكة المكرمة وقاضى المدينة المنورة فى أواخر عام ١٢٠٧هـ إلى السلطان العثمانى. ففى الوقت الذى يطالب قاضى المدينة بالقضاء على الدعوة السلفية فى نجد والدولة الداعمة لها لأنها بدأت فى إلا انتشار والوصول إلى المدينة المنورة وأهلها(٤) ، يؤكد قاضى مكة المكرمة أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب المدعومة من الدولة السعودية بدأت تشتد وتقتوى يومًا بعد يوم ، وأن أهل البلدان المجاورة للحرمين الشريفين بدأوا يتسابقون فى الدخول فيها تباعًا ، لذا فإن هذا القاضى يرى أن العلاج يكمن فى محاصرتها والقضاء عليها وأنه يجب تكليف والى بغداد بتلك المهمة وبذل المساعدة العاجلة له لانجاز مهمته(٥) .

ونحن لا نعدو الحقيقة هنا إذا قلنا أن مواقف أمثال هؤلاء القضاة تعبر عن نظرة ذاتية ضيقة ، كانت تلعب دورًا نشازًا فى كثير من مواقف الولاة ورجال السياسة فى الدولة العثمانية . وأثرت هذه المواقف تبعًا لذلك على الدعوة السلفية الإصلاحية التى رعتها الدولة السعودية الأولى .

وتذهب بعض المصادر المعاصرة إلى أن إتساع الدعوة الاصلاحية والدولة السعودية قد خاف أمير مكة ، فسارع بالكتابة إلى السلطان العثمانى فى الأستانة؛ وأطلق كثيرًا من التهم ضد الدولة السعودية ودعوتها . ولكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب سارع بإرسال خطاب توضيحى إلى والى الشام يتبرأ فيه مما نسب إليه من تهم باطلة . وزاد من سوء سلوك أمير مكة منعه لحجاج نجد وحبس جماعة منهم ، وكان قد أرسلهم الإمام عبد العزيز إلى مكة(٦) .

وتؤكد الرويات التاريخية المعاصرة أن والى العراق سليمان باشا الكبير ١١٩٣ - ١٢١٥هـ/١٧٧٩ - ١٨٠١م تلقى عددًا من الرسائل المليئة بالإفتراءات والأكاذيب ضد الدولة السعودية ومنهجها ، وطالب بالوقوف فى وجهها والحد

من خطورتها كما يزعم أصحاب هذه الرسائل(٧) . ولذا قررت الأستانة توجيه حملة عسكرية ضد الدولة السعودية والإيعاز لمتسلم البصرة بمساندة هذه الحملة ودعمها بالعتاد والرجال . وأرسل أحد الأغوات من بيروت للمساعدة والدعم(٨).

وقد أسندت قيادة هذه الحملة إلى شيخ قبائل المنتفق ثوينى بن عبد الله الذى قضى أكثر من أربعة أشهر فى إعدادها وجمع الرجال من بادية العراق وحاضرتها(٩) . وخرج بجيشه اللجب وعتاده المخيف فى أواخر سنة ١٢١١هـ/ أوائل سنة ١٧٩٧م .

ومن ناحية أخرى واستعد رجال الدولة السعودية وبدأوا فى تجهيز قواتهم وتجميع رجالهم . وتوجه الأمير سعود بن عبد العزيز بقواته حتى نزل الحفر(١٠) ، بينما سار ثوينى بقواته حتى نزل على الماء المعروف فى ديرة بنى خالد والمسمى - الشباك - ، وعندئذ هاجمه أحد عبيد جبور بنى خالد والمسمى طعيس بحربة حديدية معه ، وضربه بها بين كتفيه ، وقيل قذفه قذفة بها فى صدره وهو يلعب بين يديه ، فخرج رأسها من ظهره ، وطعيس - يردد الله أكبر - ومات ثوينى حينئذ وتفرق جنده ، فتعقبهم الجيش السعودى وغنم منهم مغانم كثيرة من المدافع والسلاح والإبل والماشية ، وكان ذلك فى شهر محرم سنة ١٢١٢هـ/ يوليو ١٧٩٧م(١١) .

ومهما كان اختلاف الروايات التاريخية وكُتّاب التاريخ فى البحث عن الأسباب التى أودت بحياة ثوينى (١٢) ، إلا أن ما تؤيده هذه الدراسة هو ما ذهب إليه أحد المؤرخين فى القول بأن طعيس الذى قام بقتل ثوينى هو " أحد مماليك برّاك - بن عبد المحسن أحد زعماء بنى خالد - سابقًا ، وأحد المتحمسين للدعوة الإصلاحية ، .. وقد أصبح ما قام به طعيس مضرب مثل للإقدام ؛ إذ يقال : "باع بيعة طعيس"(١٣) .

ولم يعد أمام قادة الدولة السعودية الأولى بعد ذلك إلا الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم وأرضهم ، فتوجه الأمير سعود بن عبد العزيز فى شهر رمضان ١٢١٢هـ/ فى أوائل سنة ١٧٩٨م بحملة عسكرية إلى أطراف العراق وهاجم بلدة سوق الشيوخ من ضواحى متصرفية البصرة ، ثم اتجه إلى بادية السماوة لتأديب القبائل التى تعاونت مع ولاة بغداد ، ووقعت بينهم معارك غربى مدينة كربلاء . وقد قتل فى هذه المصادمات العسكرية من رجال الدولة السعودية ما يقرب من خمسة عشر رجلاً منهم براك بن عبد المحسن رئيس بنى خالد ، ومحمد آل على شيخ جبل شمر ، بينما قتل من قبائل العراق عدد كبير من أشهرهم مطلق بن محمد الجربا شيخ قبائل شمر العراق . ثم عاد الأمير سعود بعد أن أحرز انتصارات حاسمة، وحقق لدولته مكانة عسكرية قوية(١٤) .

ولم يكن هذا العمل العسكرى الذى قامت به القيادة السعودية هو الوحيد فى تلك المرحلة ، لأنهم أدركوا أن الأخطار باتت تتكانفهم من كل جانب والتآمر يحيط بهم وأن الأعداء يتربصون بهم الدوائر . لذلك خرجت حملة عسكرية سعودية بقيادة أمير القصيم حجيلان بن حمد ، إلى الإطراف الجنوبية من أرض الشام ، وهاجمت هذه القوة عربان الشرارات وغنمت منهم ، ثم عادت إلى أوطانها بعد أن حققت إنتصارات حاسمة ذات أثر معنوى واستراتيجى بالغ(١٥) . وقد تنبه أحد الكتاب الغربيين إلى سلامة المنهج السياسى عند رجال الدولة السعودية الأولى ، وأنهم كسبوا الأنصار والمؤيدين لهم بالتدريج ، ولم يعلنوا الحرب على الحكومتين القريبتين منهم فى العراق والحجاز ، ولم يعتدوا على حقوقهما مؤكدا أن قوافل الحجاج من دمشق وبغداد كانت تعبر أراضيهم دون أن يمسوها بسوء(١٦) .

وكان أن طلب السلطان العثمانى فىالأستانة من الوالى العثمانى فى بغداد إعطاءه تصورًا كاملاً عن ماهية الخلاف الحاصل بين أمير مكة غالب بن مساعد

والإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود ، لأن هذا الخلاف كما اعتقد السلطان ستصل تأثيراته فى يوم ما إلى الحرمين الشريفين . وفى ضوء ذلك تم تكليف والى بغداد ، ووالى جدة وأمير الحاج العثمانى لمحاولة لإصلاح ذات البين بين أمير مكة وأئمة الدولة السعودية الأولى .

ولم يتردد أئمة الدولة السعودية فى الموافقة على الصلح والتعامل الحسن ؛ إلا أن أمير مكة أصر على عدواته وتأجيج الخلاف مع السعوديين رغم القوة المتفوقة لدى السعوديين وكثرة أتباعهم كما يؤكد ذلك والى جدة .

وكتب والى بغداد إلى السلطان العثمانى بهذا الشأن ، مشيرًا إلى أن الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود أرسل رسالة إلى السلطان فى الأستانة مع أحد رجاله ، وكان المأمول كما يقول الوالى العثمانى فى بغداد إتمام الصلح بعد الإطلاع على مضمون هذه الرسالة ، لكن الرجل توفى قبل وصوله إلى الأستانة واختفت معه رسالته مما زاد فى تعقيد القضية ، كما يؤكد الوالى العثمانى .

وحين كُلِّفَ والى الشام بمحاولة إقناع أمير مكة بالصلح مع السعوديين لم يتمكن من ذلك ، لتعنت الأمير ، ووجود محاذير لم يسمها الوالى العثمانى باسمها .

ولعل استقراء هذه الوثيقة يعطى دلالة واضحة على أن الولاة العثمانيين قد لعبوا دورًا مؤثرًا فى تأجيج العداوة بين الدولة السعودية والدولة العثمانية ، حيث أعطى الوالى العثمانى لسلطان الدولة العثمانية صورة خاطئة عن مسلك السعوديين، متهمًا إياهم أنّ ما يظهرونه يخالف ما يبطنونه ، وذَكَّر فى رسالته بالحملات العسكرية التى قام بها السعوديون على جنوب العراق وعلى قبائل المنتفق دون أن يشير إلى الأسباب التى حملتهم على القيام بها والتى من أبرزها الحملتان العسكريتان اللتان قام بهما ثوينى بن عبد الله شيخ قبائل المنتفق فى داخل حدود الدولة السعودية الأولى .

وتحدث الوالى العثمانى بإسهاب عن غزوة السعوديين لسوق الشيوخ وغربى مدينة كربلاء وما نتج عن هذه الحملات العسكرية ، ليصل فى نهاية رسالته إلى الهدف الذى يسعى إليه وهو المطالبة بالانتقام من حكام الدولة السعودية والقضاء عليهم . ومع اعترافه ببعد المسافة وصعوبة الطرق إلا أنه طالب بإعداد تجهيزات عسكرية كبيرة مدعومة من الدولة العثمانية . ومع ذلك فأنه يعتقد فى رسالته تلك أنه حتى لو تم التغلب على السعوديين فى أرضهم فمن الصعوبة بل من المستحيلات البقاء فى تلك الجهات والمحافظة عليها . والحل عندئذ كما اعتقد ذلك الوالى هو دعم أمير مكة ، لأن الخطر كما يزعم كبير ، والنفوذ السعودى قوى ومتزايد(١٧) .

ومن خلال ما تقدم يظهر لنا جليًا أن الوالى العثمانى فى بغداد سعى لتشويه مسلك الدولة السعودية ، ووضع المحاذير والافتراضات والعقبات الكثيرة فى سبيل تطوير وتحسين علاقات الدولة السعودية الأولى مع الدولة العثمانية فى الأستانة بداية ، ومع ولايته هو فى بغداد بعد ذلك .

وكان أن سارع والى بغداد سليمان باشا الكبير إلى تجهيز حملة عسكرية ضخمة بعد أن حصل على موافقة الأستانة(١٨) ، وقد ضمت تلك الحملة عناصر مختلفة من الجنود العثمانية النظامية المدربة ، إضافة إلى رجالات بعض العشائر الكردية ، وقبائل الخزاعل الشيعية التى عسكرت على الضفة الغربية من نهر دجلة خارج مدينة بغداد لتستكمل استعدادتها وتجهيزاتها(١٩) .

وغادرت هذه القوة العسكرية الكبيرة بقيادة الكيخيا على باشا(٢٠) بغداد يوم ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢١٣هـ / أكتوبر سنة ١٧٩٨م ، وانضمت إليها فى الطريق أعداد كبيرة من رجالات القبائل العراقية المختلفة ، وتسلحت هذه الحملة بالمدافع وآلات الحرب المدمرة . وفى البصرة انقسمت هذه الحملة إلى قوتين :

قوة الفرسان بقيادة على باشا ، سارت على الطريق البرى إلى الأحساء ، وقوة المشاة والمدفعية والمعدات الثقيلة نقلت على السفن التى استأجرها متصرف البصرة وتوجهت بحرًا إلى البحرين وموانئ الأحساء .

وأخيرًا وصلت الحملة بعدتها وعتادها إلى المبرز والهفوف ، وحاصرت الحصنين السعوديين فيهما لأكثر من شهرين(٢١) ، واستبسل القائدان السعوديان ورجالهما أمام هذه القوة الغاشمة ، وعندئذ أدرك على باشا أن الأمر جد خطير . وإذا كان هذا موقف قائدين مع عدد محدود من الرجال فى حصنين اثنين ، فكيف يكون لقاء الجيش السعودى بعدته وعتاده ؟ هكذا دخل الخوف والفزع فى نفس القائد العثمانى ورجال جيشه ، وراح جنوده يفكرون فى مصيرهم والهلاك الذى ينتظرهم ، فقرر الانسحاب ودفنوا بعض معداتهم تحت الأرض وأحرقوا البعض الآخر ، وتراجعوا حتى نزلوا الماء المعروف - الشباك - فى حين نزل الأمير سعود بن عبد العزيز مع جنده على الماء المعروف والمسمى - ثاج(٢٢) ، وكان أن جنح الباشا إلى السلم وتبادل الرسائل مع الأمير سعود بن عبد العزيز ، وتوصل الطرفان إلى اتفاق يتم بموجبه انسحاب الكيخيا على باشا إلى أرض العراق على أن يعود الأمير سعود إلى الدرعية . وقد تحدثت المصادر والمراجع التاريخية بإسهاب عن شروط هذا الاتفاق ، وكل مؤلف عالجها بطريقته ، بيد أن ما يلفت الانتباه أسلوب الخطاب الذى وجهه الأمير سعود إلى الكيخيا على باشا واورده أحد المؤرخين المعاصرين ، حيث يقول :

" من سعود بن عبد العزيز إلى على ..

أما بعد : ما عرفنا سبب مجيئكم إلى الأحساء ؟ وعلى أى منوال جئتم؟... أما الأحساء فهى قرية الآن ليست داخلة فى حكم الروم - أى العثمانيين - وبعيدة عنكم ولم يحصل منها شئ يسوى - أى يساوى - تعبكم ، ولو أن جميع الأحساء وما يليها تؤدى لكم دراهمًا ، ما تعادل مصروفاتكم التى عملتموها فى

هذه السفرة ، ولا يوجد بيننا وبينكم من المضاغنة قبل ذلك إلا ثوينى ، فهو كان المعتدى ولقى جزاءه فالآن مأمولنا المصالحة وهى خير لنا ولكم ، والصلح سيد الأحكام "(٢٣) .

وقد اختلفت آراء وروايات المؤرخين حول تلك الواقعة ومن هو المنتصر فيها من الجانبين ؟ ومن هو الذى طلب الصلح قبل صاحبه ؟ ومن الذى رغب فى الصلح ولم يرغب فى الحرب ؟ كل هذه التساؤلات والآراء يمكن توكيدها بلغة المنطق العلمى من خلال مجريات الأحداث ، فالهزيمة والخوف والتخاذل كلها اعترت جيش الكيخيا على باشا وقادته ، ولو كان قد أحس بشئ من الأمل والانتصار مهما كان يسيرًا لما طلب الصلح والسلم . يكفى أنه يمثل قوة الدولة العثمانية وواليها القوى فى بغداد ، وهو الذى جهز هذه الجحافل من الجيوش من العراق إلى الأحساء عن طريق البر والبحر . وكان هدفه معروفًا ، وهو تدمير الدولة السعودية وجيشها ، فكيف يجنح للسلم وهو فى مواجهة السعوديين ؟! إنه لم يفعل ذلك إلا عندما أحس بالضعف والهزيمة فلجأ إلى الحفاظ على البقية الباقية من كرامته كقائد ؛ وكرامة قادة جيشه ورجاله ، حتى لا تتكرر معه أحداث الحملة التى قادها ثوينى بن عبد الله ، فى العام المنصرم .

لقد كان الإمام عبد العزيز بن محمد حريصًا على الأمن والاستقرار ومراعاة قواعد الجوار ، ولا سيما مع ولاة الدولة العثمانية فى العراق . لكن الطرف الآخر لم يبادلونه نفس الاحساس ، وإنما تربصوا به وبقومه الدوائر ، وتحقق لهم ذلك عن طريق قبيلة الخزاعل بالقرب من النجف إذ اعترضوا قافلة من أتباع الدولة السعودية ، قيل إنهم تجار ، وقيل غير ذلك . لكن المؤكد أن عشائر الخزاعل التابعين لباشوية بغداد غدروا بهذه القافلة وقتلوا منهم حوالى ثلاثمائة رجل وذلك فى عام ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م . ولم يتعجل الإمام عبد العزيز فى اتخاذ القرار ، بل أرسل احتجاجًا إلى والى بغداد بدفع الدية لرجاله كى تُسلّم لأسرهم وفق قواعد

الشريعة الإسلامية . لكن الوالى العثمانى أخذ فى التسويف والمماطلة؛ وطلب من أحد رجالات العراق واسمه عبد العزيز بيك الشاوى المرور على الإمام عبد العزيز بعد انتهاء الحج ومباحثته فى القضية ، لكن دون الالتزام بشئ للسعوديين . لذا فقد كان مصير هذه المفاوضات الفشل وعدم الوصول إلى نتيجة حاسمة(٢٤) .

لم يعد أمام رجال الدولة السعودية إلا الانتقام لأنفسهم ورد اعتبارهم ، إنطلاقًا من التوجيه القرآنى الكريم : ﴿ الشهرُ الحرامُ بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله وأعلموا أن الله مع المتقين ﴾ الآية(٢٥) .

وكان أن غزا الأمير سعود بن عبد العزيز كربلاء لتأديب عشائر الخزاعل على فعلتهم فى قتل رجاله ، ولأن الوالى العثمانى لم يحرك ساكنًا . وقد نجح الأمير سعود فى دخول المدينة عنوة فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٦هـ / وهو الشهر الثالث من سنة ١٨٠٢م وقام بهجوم خاطف حقق له انتصارًا عسكريًا ومعنويًا ضد تحركات الوالى العثمانى فى بغداد ومن شايعه وسار وفق رغباته ، ثم عاد إلى نجد منتصرًا(٢٦) .

وعندما أدرك والى بغداد سليمان باشا الكبير ضعفه وعجزه عن مقارعة الدولة السعودية عسكريًا ، كتب رسالة للسلطان العثمانى ، تتصف بالغرابة ؛ وأعقب ذلك وفاة ذلك الوالى فى ٨ ربيع الثانى سنة ١٢١٧هـ/ أواخر أغسطس سنة ١٨٠٢م ربما بسبب وباء الطاعون الذى كان عندئذ منتشرًا فى بغداد بصورة كبيرة(٢٧) .

ومازالت تلك الرسالة محفوظة بنصها العثمانى فى أرشيف رئاسة مجلس الوزراء فى إستانبول تحت تصنيف خط همايون ٣٧٦٥ وتاريخ ١٠ ذى القعدة سنة ١٢١٦هـ ، وسيتطرق البحث هنا لأهم عناصرها ، وللتعرف من خلالها على البعد الحقيقى لعلاقات هؤلاء الولاة بالدولة السعودية الأولى .

استهل والى بغداد رسالته الموجهة للسلطان العثمانى بالإفتراء على إمام الدولة السعودية الإمام عبد العزيز بن محمد بأنه أحدث مذهبًا جديدًا ليس من الدين الإسلامى ، ثم تطرق إلى نفوذ الدولة السعودية ، وأشار إلى أن ذلك النفوذ شمل معظم أجزاء نجد وأطراف الحجاز ومنطقة القصيم وسائر عشائر الشام ، وامتد إلى رأس الخيمة وإلى مسقط ، وشمل هذا النفوذ القواسم والعتوب على الساحل الغربى للخليج .

وأشار الوالى العثمانى فى رسالته إلى أن نفوذ السعوديين أصبح متغلغلاً فى أذهان العرب والعجم على السواء ، وأن الولاء فى الجزيرة العربية ومنطقة الخليج أصبح شبه مطلق للسعوديين .

ثم يقول ذلك الوالى فى ختام رسالته ما نصه :

" الدولة السعودية الآن تعتبر فى عنفوان قوتها ، حيث فرضت نفوذها كاملاً على البحر ولا نستطيع حينئذ مجابهتها والتصدى لها بحريًا ، إلا أنه بالإمكان مهاجمتها والتصدى لها عن طريق البصرة برًا . وأما فى الخليج فإن بريطانيا التى تعتبر صديقة وفية للدولة العلية والتى تتحكم فى شبه القارة الهندية والبحار الشرقية، تسعى جديًا لمجابهة الدولة السعودية ، ولعلها تقوم بالمهمة فى الخليج العربى ضد ابن سعود وأتباعه ، وهذا كله إذا تمت الموافقة عليه من عتبة السلطان المحترم ، وعندئذ سيتم تنظيم المواقف كل فيما يخصه "(٢٨) .

وبعد وفاة والى بغداد سليمان باشا الكبير ، أسندت الولاية إلى الكيخيا على باشا ، الذى قاد الحملة العسكرية العثمانية سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ، إلا أنه كان أشد عداء للدولة السعودية من سلفه(٢٩) . ولأنه يعرف القدرة العسكرية عند السعوديين ، من خلال خبرته السابقة ويدرك الصعوبات التى تعترضه فى تنفيذ أهدافه ضد الدولة السعودية ، فأنه أخذ يحيك المؤامرات التى تساعده فى تحقيق

أهدافه ، ووجد ضالته فى أحد المجرمين الذين احترفوا القتل والاغتيالات ، وسبق له أنجز مهمة كُلِّفَ بها فى مكة المكرمة من هذا القبيل .

ذلك أن الوالى العثمانى - الكيخيا على باشا التقى بهذا الرجل - المدعو عثمان - (٣٠) وتأكد من أن شخصيته تدعو إلى الثقة فى إنجاز مهمة الاغتيال ، وأن الإغراء والتحريض لا يزيده إلا إصرارًا ، فاتفق معه على قتل الأمير سعود مع والده . ولكن المجرم تمكن من قتل الإمام عبد العزيز دون الوصول إلى ابنه ، وعندئذ تعهد الوالى العثمانى لسلطان دولته بإكمال المهمة وبذل الجهد والإمكانيات للقضاء على الأمير سعود وقتله مثلما قتل والده . وعند وصول هذه الرسالة إلى السلطان العثمانى ، تَوجها بتوقيعه بالإطلاع وإبداء الفرح والسرور بإنجاز هذا العمل(٣١) .

هذه الراسلة - الوثيقة - التى بعثها والى بغداد إلى عاصمة الدولة العثمانية وإلى السلطان العثمانى شخصيًا تُتَرجم بوضوح ماهية العلاقة بين ولاة الدولة العثمانية فى العراق ورجال الدولة السعودية الأولى .

ولم تتوقف مؤامرات الولاة العثمانيين فى العراق عند حد إغتيال أئمَة الدولة السعودية ، وإنما تجاوزتها إلى محاولة قتل أمراء وقادة الدولة السعودية فى أكثر من موقع . فهذا هو والى بغداد يرقص طربًا للخير الذى جاءه من متصرف البصره عن اغتيال أحد قادة الإمام سعود بن عبد العزيز فى الطائف على يد أحد المجرمين ، وقد أرسله أمير مكة للقيام بهذه المهمة . وزَفّ الوالى العثمانى ذلك الخبر إلى سلطان الدولة العثمانية فى إستانبول(٣٢) .

وفى تلك الأثناء بعث برسالة أخرى إلى السلطان العثمانى ، يؤكد فيها أن قواته العسكرية وصلت إلى أطراف نجد ، وأن قواته التقت بالسعوديين واشتبكت معهم فى معركة قوية وقتلت منهم الكثير ، هو يَعِدُ فى خطابه هذا بمواصلة العداء والحرب ضد الدولة السعودية(٣٣) .

وفى هذه الأجواء المشبعة بالعدوان صار على السعوديين أن يثأروا لأنفسهم عملاً بقوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنَا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ، ولينصرنَّ الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ﴾ الآية(٣٤).

وقد ترجم هذه الحقائق الإمام سعود بن عبد العزيز على أرض الواقع . ففى عام ١٢١٨هـ/١٨٠٣م قاد حملة عسكرية ناجحة على جنوب العراق وداهم مدينة البصرة ومدينة الزبير ، ثم عاد إلى الدرعية منتصرًا(٣٥) .

واستمرت الهجمات السعودية على أطراف العراق الجنوبية وبعض بلدانه مثل البصرة والزبير والنجف طوال السنوات اللاحقة ، حيث غزاها الإمام سعود سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وداهمت قواته كربلاء للمرة الثانية . وتَبِعَ هذه الحملة عدة حملات ناجحة ، تمكنت القوات السعودية فى إحداها من عبور نهر الفرات . ووصل الأمير عبد الله بن سعود فى إحدى تلك الحملات إلى قرب بغداد وهددها تهديدًا مباشرا(٣٦) . وبذلك حققت القوات السعودية قصب السبق فى هذه المواجهة العسكرية مع ولاة الدولة العثمانية فى العراق ، واستطاعت بذلك التغلب على معارضيها والمناوئين لها . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن كثيرًا من القبائل العراقية فى غرب الفرات دفعت الزكاة للدولة السعودية الأولى ، فى تلك المرحلة التاريخية الحاسمة(٣٧) .

* * *

أما عن علاقات الدولة السعودية الأولى مع ولاة الدولة العثمانية فى الشام فقد مرت بنفس الصعوبات وتلك العقبات . وتعتبر الحملة العسكرية التى أرسلها الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى دومة الجندل(٣٨) ، فى سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م ، أول اتصال بين الدولة السعودية وأطراف الشام ، ثم تبعتها

بعد ذلك الحملة السعودية التى قادها حجيلان بن حمد أمير القصيم ، سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م ، حيث أغار على بوادى الشرارات فى أطراف الشام وحقق انتصارًا عسكريًا مؤثرًا رغم بعد المسافة بينه وبين عاصمة دولته(٣٩) .

وكان لهذه الحملات العسكرية تأثير واضح على بعض قبائل الشام التى أقبلت على اعتناق مبادئ الدعوة السلفية ، حتى أن المصادر المعاصرة أكدت على أن بعض القادمين من حلب الشام إلى الدرعية فى زمن الإمام عبد العزيز بن محمد، قدموا على ست نجائب محملات بزكوات بوادى أهل الشام(٤٠) . وهذا الواقع التاريخى الذى أصبحت تعيشه بلاد الشام يبدو جليًا فى الرسائل التى بعث بها قاضى دمشق الشام - محمد راشد حمامى زاده - إلى السلطان العثمانى فى الأستانة . وقد طلب هذا القاضى من الأستانة إرسال فرمان عثمانى(٤١) باللغة العربية إلى قبائل عنزة القاطنة فى حمص وحماه . وعند وصول هذا الفرمان إلى والى الشام الحاج عبد الله باشا العظم ، فإنه سيرسله بدوره إلى هذه القبائل ، لِيُقْرَأ عليهم على رؤوس الأشهاد ، وأمام جموع الناس لإفهامهم محتواه(٤٢) . وفى الخطاب الثانى طلب القاضى إعداد خطاب مستقل للقبائل القاطنة فى ضواحى الشام وأورد بعض الأسماء لأشهر مشايخ تلك القبائل لمخاطبتهم مباشرة(٤٣) .

لكن يبدو أن الخوف والقلق أخذ يساور ذلك القاضى ، وربما يكون الرجل مدفوعًا من والى الشام العثمانى ، لتكون رسائله أشد أثرًا فى الأستانة من رسائل الوالى التى يبعثها بنفسه . وفى الرسالة الثالثة التى بعثها القاضى المذكور إلى السلطان العثمانى بتاريخ ١٧ ربيع الأول سنة ١٢١٨هـ ، يظهر عليه شئ من الخوف والارتباك ، حيث يتحدث عن الدولة السعودية وتنظيماتها بأسلوب غير مقبول عقلاً ، فهو يشير إلى أن الدولة العثمانية أصبحت فى خطر داهم ، وأن تهديد الدولة السعودية سيصل إلى عاصمة الدولة إذا لم توقف بسرعة وبقوة ، ولم

ينس قاضى الشام أن يطلب من السلطان العثمانى إصدار فرمان عثمانى إلى شيخى بنى صخر(**) فى الزرقاء . وعند وصول ذلك الفرمان إلى والى الشام عبد الله باشا فإنه سيبلغ لهما سريعًا ، لأن هذين الرجلين - كما يقول - شديدًا الولاء للدولة العثمانية ، ووقوفهما مع قبائلهما إلى جانب الدولة سيحقق النصر المنتظر ضد الدولة السعودية وتهديداتها المستمرة على حد تعبيره(٤٤) .

وهكذا ظهر الخوف وكثرت الدعايات المضادة للدولة السعودية فى بلاد الشام ، حتى بلغ الأمر منتهاه بعرض تقارير من ولاة الشام على السلطان العثمانى والصدر الأعظم تتضمن نقل المؤن والذخائر إلى الحرمين الشريفين عن طريق البصرة والخليج العربى ، لأنها الطريق الأفضل والأكثر أمنًا من طريق الشام . وقد وافق الصدر الأعظم فى الدولة العثمانية على تكليف والى بغداد بإنجاز تلك المهمة لأنه يعتقد هو الآخر أن ذلك من صميم مهماته ، لاسيما وأن الدولة السعودية الأولى لازالت متأثرة بحادثة اغتيال الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود(٤٥) .

وتؤكد المراجع التاريخية إنضواء كثير من قبائل الشام بسهولة تحت لواء الراية السعودية ، لأنها وجدت فيها ما لم تجده فى سياسة الولاة العثمانيين . لذلك فإن معظم هذه القبائل رأت فى الانضواء تحت مظلة الدولة السعودية خلاصًا لها من فساد حكم الولاة الذى كانت تعانى منه البلاد(٤٦) .

فى تلك الظروف ، وفى ظل هذه المتغيرات التاريخية التى كانت تمر بها بلاد الشام ، بدأ الارتباك واضحًا فى الإجراءات الإدارية المتبعة فى ولاية الشام ، إذ رفض بعض رجال الدولة الالتزام بالتعليمات التى تصدر إليه من عاصمة الدولة ، أو حتى تنفيذ الفرمانات التى تصدر من السلطان العثمانى نفسه . وظهرت على السطح حينذاك قضية محمد باشا الذى صدر أمر سلطانى منذ سنة ١٢١٩هـ بتعيينه واليًا على جدة ، لكنه رفض الذهاب إلى هناك وأثار كثيرًا من الإشكالات والأشاعات التى انعكست على جند الدولة العثمانية فى الشام وأصابتهم بالوهن

والرعب ، وجعلتهم يتلكأون فى الاستجابة للتعليمات التى تصدر إليهم . وقد خاض المسئولون ورجال الدولة فى هذه القضية وكيفية معالجتها ، حتى أن السلطان العثمانى نفسه طلب من والى الشام المسارعة فى حل هذه القضية دون إثارة مشاكل إضافية ، لأن الوضع فى الشام وفى الجزيرة العربية لا يحتمل مثل هذه الأمور فى ذلك الوقت بالذات(٤٧) .

وكان أن سارع والى الشام إلى إرسال تحريرات مهمة لعرضها على السلطان العثمانى وبرفقها القرار المتخذ من قبل مجلس الشورى فى الولاية ، الذى يطالب بإعداد حملة عسكرية كبيرة من قبل والى الشام قوامها ثلاثة آلاف جندى، والاستعانة بولاية مصر فى دعم هذه الحملة بالذخائر والمهامات ، ليتم إرسالها إلى جد ومهاجمة الدولة السعودية فى عقر دارها(٤٨) .

وبينما أكد والى مصر - محمد على باشا - هذا الرأى فى رسالته التى بعثتها للأستانة بتاريخ ١٧ رجب ١٢٢٠هـ/ أواخر عام ١٨٠٥م ، مبديًا استعداده لتنفيذ التكليف الذى ورده من السلطان العثمانى للمشاركة فى التصدى للدولة السعودية، بيد أن ذلك الوالى زاد من مخاوف الدولة العثمانية حين أكد عجز ولاتها فى الشام والحجاز عن مجابهة السعوديين ، وأنهم فى حاجة إلى الدعم المستمر من مصر ومن الأستانة(٤٩) .

وكان الإمام سعود بن عبد العزيز قد بين للسلطان العثمانى سليم الثالث منهج دولته ، وأن ضم الحجاز للدولة السعودية فيه خير كثير للأهالى والمسلمين ، حيث أنه أمن الناس على أرواحهم وأموالهم ، وألغى الضرائب عن كواهلهم وثبت القاضى المعين من قبل السلطان العثمانى . والشئ الذى طلبه الإمام سعود من سلطان الدولة العثمانية هو منع والى الشام ووالى مصر من حمل الطبول والزمور التى ترافق الحجاج كل عام ، لأنها لا تتناسب مع قداسة الزمان والمكان وليست من الدين الإسلامى(٥٠) .

في سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م ، وهى السنة التى حج فيها الإمام سعود بن عبد العزيز حجته الثالثة ، مَنَع السعوديون والى الشام أمير الحاج الشامى عبد الله باشا العظم من دخول المدينة المنورة ومن ثم مكة المكرمة ، لأن محمل الحج الذى يرافقه تزفه الطبول والزمور ، وهى من الأشياء المخالفة لشعائر الحج . وكان قد طُلِبَ من الوالى العثمانى فى العام السابق عدم اصطحاب هذه البدع فى الحج القادم لكنه لم يلتزم ، فأصبح لزامًا على رجال الدولة السعودية منعه من دخول الأماكن المقدسة(٥١) .

ويذهب البعض إلى أن سبب منع الحاج الشامى وأميره عبد الله باشا العظم من دخول المدينة المنورة ومكة المكرمة ، هو الحيلولة دون التقاء أهل الشام ومن معهم مع أمير مكة غالب بن مساعد ، لكى لا تتاح لهم الفرصة فى التآمر وإحداث قلاقل فى الحج ، لا يعلم مداها إلا الله عز وجل ، لا سيما أن أمير الحاج الشامى يمتلك من الأسلحة والمعدات والعساكر النظامية الشئ الكثير(٥٢). وهذا الرأى من الآراء الراجحة ، خاصة إذا عرفنا أن أمير مكة لم يكن مخلصًا فى ولائه وتعامله مع أئمة الدولة السعودية وهم يدركون ذلك دون أدنى شك ، إضافة إلى أن رجال الدولة السعودية يرفضون من منطلق عقائدى وجود الطبول والزمور فى الحج والتى تأتى عادة مع محمل الحاج الشامى .

وكان أن دفع أمير الحاج الشامى عبد الله باشا العظم ثمن ذلك الإجراء ، حيث أصدر السلطان العثمانى سليم الثالث فرمانًا بعزله من منصبه ، باعتبار أنه تقاعس عن مواجهة رجال الدولة السعودية ، وأرجع الحجاج بناء على طلبهم ، دون أن يقوم بأى عمل عسكرى ، وعين يوسف باشا كنج Genc بدلاً منه فى ولاية الشام سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م(٥٣) .

أما الإمام سعود بن عبد العزيز فقد بعث بأكثر من رسالة إلى والى الشام يوسف باشا كنج ، قال فى إحداها :

" الحمد لله معز من أطاعه واتقاه ، ومذل من أضاع أمره وعصاه ... من سعود بن عبد العزيز إلى جناب حضرة يوسف باشا وزير الشام ... " .

إلى أن قال : " ... وفصل النزاع بين المختلفين عند كتاب الله ، وأصل الدين الذى ندعو إليه الناس هو ما دعا إليه محمد ﷺ إخلاص العبادة لله ، وأقامة الفرائض الذى افترض الله عليه ، ونفى الشرك وتوابعه من كل قبيح ... "

ثم كانت الرسالة الثانية أكثر وضوحًا ، وأرق لفظًا حيث قال الإمام سعود: " ... إلى جناب المكرم والحبيب المحترم يوسف باشا ، بلغه الله من الخير ما شاء ... وقد بلغكم ما نحن عليه وندعو الناس إليه ، ولكن ربما يقع من نقل الأخبار زيادة ونقصان ، فنذكر لكم الآن حقيقة الأمر على وجهه ... فيقيننا الذى نحن عليه وندعو الناس إليه هو : الإخلاص لعبادة الله وحده ، ولا نذبح القربان إلا لله، ولا نرجو إلا هو ولا نخاف إلا منه ولا نتوكل إلا عليه ، وأننا نتبع الرسول ﷺ ونوجب طاعته ... ولا نعبد إلا الله وحده ، ولا نتقرب إلا إليه بما شرع على لسان رسوله ﷺ ، مما دلت عليه النصوص القرآنية والسنة النبوية... "(٥٤) .

لكن يوسف باشا كنج والى الشام كان يبيت للإمام سعود بن عبد العزيز ودولته الحرب والدمار ، فالتعليمات تأتيه تباعًا من الأستانة كى يقوم بتجهيز الحملات العسكرية ضد الدولة السعودية ، وهو لا يرفض هذه الأوامر ، ولكنه يدرك حجمه الطبيعى وعجزه عن القيام بهذه المهمة بمفرده . وقد كتب أكثر من رسالة إلى والى مصر محمد على باشا ، فيها شرح وافى للخطط التى يعتزم القيام بتنفيذها ضد الدولة السعودية ، متعاونًا فى ذلك مع محمد على فى مصر وأمير مكة غالب بن مساعد ، ودعا فى رسائله تلك إلى تظافر الجهود ، وبذل كافة الإمكانات لانجاز تلك المهمة التى تؤرقه هو قبل غيره ، وتؤرق دولته العلية فى الأستانة كما يقول(٥٤) .

والواقع أن الإمام سعود بن عبد العزيز - وهو السياسى المحنك والقائد العسكرى الجسور - أدرك تلك المواقف وعرف كنهها ، ففى الوقت الذى نراه يستقبل قافلة كبيرة للحجاج المغاربة قَدِمت عن طريق البر عن طريق القاهرة ، ويقول عنهم : إنهم قوم متدينون ، ويتصرفون بحشمة(٥٦) ، إذا به وقد قاد قواته العسكرية سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م ، وغزا بها بلاد الشام حتى وصل إلى المزيريب(٥٧) ، وحقق إنتصارات سريعة . ثم أعاد الكرة فى نفس العام ، وتوغل داخل الشام ووصل إلى حوران(٥٨) ، وبصرى(٥٩) ، ومن هناك كاتب ولاة الشام ودعاهم إلى الدخول فى الطاعة واعتناق مبادئ الدعوة . ثم عاد من مهمته تلك بعد أن حقق فيها الانتصارات وأوقف مؤامرات المناهضين لدولته . بيد أن رجال الأستانة أفزعتهم هذه التحركات وأدركوا ضعف والى الشام يوسف باشا كنج ، فأصدروا فرمانًا عثمانيًا بعزله من منصبه وتعيين سليمان باشا واليًا على الشام بدلاً منه(٦٠) .

وكان الهدف من هذا التغيير تعاون الوالى الجديد مع والى مصر محمد على باشا ، غير أن الواقع أثبت عكس ذلك ، فالعلاقات بين محمد على باشا ويوسف باشا كنج كانت فى أحسن حالاتها ، فى حين أن سليمان باشا ومحمد على باشا كانا على طرفى نقيض والتعاون بينهما يكاد يكون معدومًا(٦١) ، وهو ما أثر بعد ذلك فى مجرى الأحداث وزاد من اتساع الهوة بين الرجلين .

أما الوالى الجديد سليمان باشا فلم يوفق فى تحسين علاقات الدولة العثمانية مع الدولة السعودية ، وإنما بدأ ولايته بتوجيه خطاب إلى الإمام سعود بن عبد العزيز فى شهر رجب سنة ١٢٢٥هـ ملأه بالتهديد والوعيد . وزاد من حدة الخطاب أنه ملأه بالتهم والأباطيل ضد الدولة السعودية الأولى ودعوتها السلفية منهجها الذى تسير عليه(٦٢) .

وهكذا أوصل ولاة الدولة العثمانية فى العراق والشام علاقات الدولة السعودية الأولى مع الدولة العثمانية إلى نقطة اللا عودة ، وكأنهم أرادوا بذلك هدم ما بناه السعوديون ، وهو ما تحقق بالفعل بعد ذلك ، لكنه فى تلك المرة لم يكن بأيدى هؤلاء الولاة وأنما بيد والى مصر محمد على باشا .

الخاتمة والنتائج :

كان قيام الدولة السعودية الأولى عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م فى قلب الجزيرة العربية ، يمثل ظاهرة حضارية رائدة فى قيام الدول ، لاسيما أن هذه الدولة قامت على المنهج الإسلامى الصحيح ، وأنها نذرت نفسها للدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة . وكان وقوفها خلف الدعوة الإصلاحية التى نادى بها العالم الجليل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، يمثل مرتكزًا جديدًا لقيام أول دولة عصرية عرفتها الجزيرة العربية فى تاريخها الحديث .

ومع أن المعارضين للدولة والمناوئين لها اختلفت مشاربهم ، وتضاربت مصالحهم ، وسلكوا مختلف الطرق الغير مشروعة للتأثير على منهجية الدولة السعودية وثوابتها الدينية ، إلا أن تلك الدولة لم تغير من مرتكزاتها السياسية التى قامت عليها ، وتعاملت مع هؤلاء القوم وفق المنظور الإسلامى ووفق مقاصد الشريعة الإسلامية ، وتحملت فى سبيل ذلك الشئ الكثير ، ولم تغير من أهدفها وغاياتها ، مما جعلها فى مقدمة الدول الناهضة والقوية فى العصر الحديث .

وعندما نقل المعارضون لهذه الدولة تصوراتهم الخاطئة عنها إلى القوى المجاورة ، وفى مقدمة هذه القوى ولاة الدولة العثمانية فى العراق والشام ، لعبت حينئذ المطامع والمطامح الشخصية دورًا بارزًا فى توجيه حركة الأحداث التاريخية بين هذه الدولة وولاة الدولة العثمانية ، وبالتالى مع عاصمة الدولة العثمانية فى إستانبول .

ولم يتمعن ولاة الدولة العثمانية ورجالاتها فى الأستانة هذا المسلك الذى انتهجه أئمة الدولة السعودية ، فأغمضوا أعينهم ، وصموا آذانهم عن الحجج الواضحة ، والحقائق الساطعة التى نادى بها السعوديون ، وأخذتهم العزة بالإثم قدبروا المؤامرات المختلفة ضد الدولة السعودية ودعوتها الإصلاحية ، وأرسلوا الحملات العسكرية لأطراف الدولة السعودية وعاصمتها ، حينئذ أصبح لزامًا على أئمة الدولة السعودية ورجالاتها الدفاع عن عقيدتهم ودولتهم وانتمائهم ، إنطلاقًا من التوجيه الربانى فى قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (الآية ١٩٠ من سورة البقرة) .

وقد بلغ العداء ذروته حين ساهم ولاة الدولة العثمانية فى العراق بطريقة أو أخرى فى إغتيال إمام الدولة السعودية الأولى الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود .

وسبق هذا الحادث المؤلم إرسال عدة حملات عسكرية كبيرة إلى أراضى الدولة السعودية الأولى فى وسط نجد . ولأن هذه الحملات لم تحقق أهدافها المتوقعة فى القضاء على الدولة السعودية ، لأن السعوديين لم يخضعوا لهذه الحملات بل ردوا عليها بالمثل ، بل بصورة أشد وأقوى فى بعض المواقع ، فقد حاول أولئك الولاة ومن شايعهم تشويه سمعة الدولة السعودية الأولى ، وإطلاق التهم والأكاذيب .

هذا التشويه وهذه الافتراءات الكاذبة وصلت إلى عاصمة الدولة العثمانية فى إستانبول ، وتأثرت بها ولايات الدولة العثمانية وفى مقدمتها ولاية الشام ، التى حاول ولاتها أن يقوموا بنفس الدور الذى قام به ولاة العراق ، لكنهم كانوا أضعف من أن يؤدوا الدور المطلوب منهم ، حتى أن منصب الوالى فى الشام كان مرهونًا بمدى قدرة الوالى فى مهاجمة الدولة السعودية ، فإذا تلكأ أو عجز عن المهمة عُزِل من منصبه . ومن حسن الطالع لهذه الدراسة أننا حصلنا على وثائق من

الأرشيف العثمانى فى إستانبول لم يسبق نشرها من قبل ، أبرزت جملة من النتائج التاريخية التى تعتبر إضافة علمية جديدة :

١ - أن الدولة السعودية الأولى قامت على منهج إسلامى ، وأنها سارت وفق معتقد أهل السنة والجماعة .

٢ - أن من أهداف الدولة السعودية واستراتيجيتها نشر الدين الإسلامى الصحيح، وإزالة البدع والضلالات التى انتشرت داخل الجزيرة العربية فى تلك الفترة التاريخية الحاسمة .

٣ - أن هذه الدولة لم تبادر إلى العداء المطلق مع القوى المجاورة ، وإنما حرصت على الدعوة إلى الله بالحجة ، والحوار العلمى البناء ، فبعث أئمة الدولة الرسائل والدعاة إلى أماكن كثيرة ، وكسبوا بذلك الكثيرين من الأنصار المؤيدين .

٤ - إن المعارضين للدولة السعودية ودعوتها الإصلاحية من داخل الجزيرة وفى أطرافها لم يتحروا الحقيقة فى أحكامهم ، ووجهوا التهم والأباطل الكاذبة ضد الدولة السعودية ومنهجها الإسلامى .

٥ - لم تلجأ الدولة السعودية الأولى فى أى وقت من الأوقات إلى محاربة المعارضين لها والمناوئين لدعوتها ، وإنما كانت تدافع عن وجودها كدولة مستقلة ذات معتقد صحيح وهدف سليم .

٦ - إن المعارك التى خاضتها الدولة السعودية الأولى مع ولاة الدولة العثمانية فى العراق والشام كانت تنطلق من محورين أساسيين :

- إما لردع العدوان عن أرضها وكيانها .

- أو لتأديب من يجرؤ على مهاجمتها ، وإثبات قدرتها على التصدى لكل عدوان يوجه ضدها .

٧ - أن ولاة الدولة العثمانية فى العراق والشام شوهوا المنهج السياسى والعقائدى الذى تقوم عليه الدولة السعودية ، وحالوا بذلك دون تحسين العلاقات بين الدولة السعودية والدولة العثمانية ، وأوصلوا العلاقة السياسية بين الدولتين إلى نقطة النهاية .

٨ - أثبتت الدراسة أن الأهداف الشخصية والمصالح الذاتية الآنية كانت ذات أثر فعال فى إضعاف علاقات الدولة السعودية الأولى مع ولاة الدولة العثمانية فى العراق والشام ، وهو ما أعطى الفرصة الكاملة للمعارضين والمناوئين كى يحققوا أهدافهم الهدامة .

٩ - إن الواقع التاريخى لهذه الأحداث يثبت أن أئمة الدولة السعودية ودعاتها كانوا أشد حرصًا من ولاة العراق والشام ومن شايعهم على تطوير وتحسين العلاقات بين الجانبين ، ولو أدرك رجال الدولة العثمانية وولاتها ذلك مبكرًا لتغير وجه التاريخ ليس فى الجزيرة العربية والمشرق العربى فحسب وإنما فى العالم الإسلامى بشكل عام .

الهوامش

(١) حسين بن غنام : تايخ نجد ، جـ١ ، ص١٦١ - ١٦٤

؛ عثمان بن بشر : عنوان المجد ، جـ١ ، ص١٥٧ - ١٦٠

؛ مقبل عبد العزيز الذكير : مخطوطة ...جـ٣ ، ص٣٤ ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى ، رقم المخطوط ١٧٤تاريخ .

(*) سفوان : قرية تقع بين الكويت والبصرة وهى تابعة للعراق ، وسفوان ذكره النابغة الجعدى بقوله :

فضل لنسـوة النعمان منـا على سفـوان يوم أردننانى

وذكره أبو نواس الحسن البصرى بقوله :

يا حبذا سفـوان من متربع إذ كان مجتمع الهوى سفوان

وقد صحفه الاستعمال فلا يعرف اليوم عند الناس إلا بصفوان .

انظر : عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، جـ١ ، هامش ص٢١٨ .

(٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولـة السعودية الأولى ١١٥٨ - ١٢٣٢هـ / ١٧٤٥ - ١٨١٨م ، جـ١ ، ص٢٠٤ ، ط٤ ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ١٦٨ .

(٣) مقبل عبد العزيز الذكير : المصدر السابق ، ص٣٥ .

؛ د. عبد الكريم الغرايبة : قيام الدولة السعودية العربية ، ص٧٦ ، منشورات معهد البحوث والدرسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

(4) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - A - Tarihi, 12.10.1207.

(5) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - F - Tarihi, 3.10.1207.

(٦) مخطوطة : " رسالة فى تراجم آل سعود " ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى جامعة أم القرى ، رقم المخطوطة ١٣٦٨ تاريخ .

؛ السيد أحمد بن زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، جـ٢ ، ص٢٣٤ ، ط١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م ، مؤسسة الحلبى وشركاه ، القاهرة .

(٧) حسين بن غنام : المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٩٥

؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ٢١٨ - ٢١٩

(٨) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢٠٤

؛ مصطفى النحاس جبر : آل سعود فى الجزيرة العربية من القبيلة إلى الدولة ، ص١٧ ، ص١ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة.

(٩) د. منير العجلانى : تاريخ البلاد العربية السعودية ، الدولة السعودية الأولى ، جـ٢، عهد الإمام عبد العزيز بن محمد ، ص١٠٣ ، ط٢ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، مطابع دار الشبل بالرياض .

؛ أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، جـ١ ، ص٥٩ - ٦٠ ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض .

(١٠) حفر العتك – وهو المعروف قديمًا بحفر بنى سعد ، انظر : عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، هامش ص٢٢٦ .

(١١) حسين بن غنام : المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٩٥ - ٢٠٢

؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٢٥ - ٢٢٨

؛ رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ٢٠٤ - ٢٠٥

؛ تاريخ جودت : الجزء الثانى ، ص١٢٤ ، طبعة ١٩٩٣م ، مطبعة جاويك Cevik - طبع باللغة التركية ذات الأحراف اللاتينية .

(١٢) د. منير العجلانى : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص١٠٦ - ١٠٨

(١٣) د. عبد الله العثيمين : المرجع السابق ،جـ١ ، ص١٥٨ .

(14) Hatt-i, Humayun, No - 3841. Tarihi, 4.2.1213.

؛ عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٤٠ - ٢٤١

؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، ص٣٦

(١٥) عثمان بن بشر ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٤٠

؛ فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب ، ص٣٣٨ - ٣٣٩ ، ط٢ ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض .

(١٦) جوهان لودفيج بوركهارت : مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة د. عبد الله الصالح العثيمين، ص٨٠ ، ط١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، مطابع شركة العبيكان ، الرياض .

(17) Hatt-i, Humayun, No - 3841 - Tarihi, 4.2.1213.

(١٨) رسول الكركوكلي : المصدر السابق ، ص٢٠٥ .

(19) Sir, Brydges Harford Jones : Anaccount of his Majesty's mission to the court of Persia in the years 1807 - 1810 to which is appended, Abrief History of the wahhaby, Vol, 2. p.19 "London, 1834".

(٢٠) الكيخيا – أو – الكتخدا – لقب إستعمله العثمانيون بمعنى النائب، ويقصد به هنا نائب الوالي ومساعده . وعلى باشا – هذا نائب والى بغداد – سليمان باشا الكبير ، وقد زوجه ابنته واتخذه نائبًا له . انظر : سول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢١٧–٢١٨ ؛ د. منير العجلانى : المرجع السابق ، جـ٢ ، هامش ٢ ، ص١١٠

(٢١) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥١ – ٢٥٢

؛ مخطوطة رسالة فى تراجم آل سعود : ص٢ ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى جامعة أم القرى ، رقم ١٤٦٨ تاريخ .

؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٣٦

؛ عبد المنعم الغلامى : الملك الراشد جلالة المغفور له عبد العزيز آل سعود، ص١١ ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار اللواء للنشر ، الرياض .

- كان قائد قصر المبرز والمعروف بقصر – صاهود – هو القائد السعودى سليمان بن محمد بن ماجد التميمى من بلدة ثادق إحدى بلدان نجد ، وكان عدد الرجال الذين معه داخل الحصن لا يتجاوز مائة رجل . وقد عَيَّنَ الأمير سعود ذلك القائد أميرًا على الأحساء بعد إنتهاء هذه الأزمة .

أما قائد قصر الهفوف فهو القائد السعودى إبراهيم بن سليمان بن عفيصان ومعه عدد ليس بالكثير من أهل الخرج وغيرهم ، لا يتجاوز عددهم المائة رجل وقد سمى القصر ذاك باسم قائده – قصر إبراهيم .

انظر : ابن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥١ – ٢٥٥

؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٣٦ – ٣٧

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص١٥٩

(٢٢) الشباك : أصبح اليوم هجرة – قرية – كبيرة تسكنها بعض قبائل آل مرة .

؛ ثاج : أصبح هو الآخر هجرة – قرية كبيرة تسكنها بعض قبائل العوازم ، وقد ورد ذكر ثاج فى شعر ذو الرمة ، حين قال :

نحاها ثاج نحـــوه ثـــم إنه   توخى بها العينين عين متالع

(٢٣) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢٠٨

(٢٤) مخطوطة : رسالة فى تراجم آل سعود ، ص٢ ، مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، رقم ١٤٦٨ تاريخ .

؛ رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢١٣

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص٢١٦

؛ د. عبد الفتاح حسن أبو عليه : المرجع السابق ، ص٥٤

؛ أمين سعيد : المرجع السابق ، ص٦٢

؛ أحمد عبد الغفور عطار : المرجع السابق ، ص٦٧

(٢٥) سورة البقرة ، آية ١٩٤

(٢٦) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥٧ – ٢٥٨ .

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص٢١٧ .

؛ لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، تقديم وتعليق الأمير شكيب أرسلان ، المجلد الثانى ، جـ٢ ، ص١٦٢ – ١٦٢ ، ط٤ ، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٣م ، منشورات دار فكر .

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين ، المرجع السابق ، ص١٦١ .

(٢٧) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢١٧ – ٢١٨ .

(28) Hatt-i, Humayun, No. 3765. Tarihi.10.11.1216.

(٢٩) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥٨

؛ رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢١٩ – ٢٢٣

(٣٠) اختلفت الروايات حول شخصية هذا الرجل ، فبعضها يؤكد أنه كردى من بلدة العمادية بلد الأكراد المعروف شمالى الموصل فى العراق ، والبعض الآخر يقول أنه شيعى من كربلاء أو النجف قدم للانتقام من الإمام عبد العزيز الذى غزا البلدتين سنة ١٢١٦هـ

بينما تؤكد رواية ثالثة أن اسمه عبد القادر وأنه أرسل من ملك العجم ، وأنه فارسى الأصل . وتشير هذه الرواية إلى أنه قد وُجِدَ فى عمامة هذا الرجل عند قتلة ورقة مكتوبة باللغة الفارسية تدعوه إلى قتل عبد العزيز بن محمد بن سعود ، وهناك رواية رابعة أوردها مؤلف لمع الشهاب تؤكد أن والى بغداد على باشا قد أعلن أمام جلسائه عن جائزة كبيرة لمن يقوم باغتيال الإمام عبد العزيز فى الدرعية ، وفى اليوم التالى جاءه هذا الرجل واسمه على واتفق معه على إنجاز المهمة ووهب ولأسرته كثير من المال . انظر فى ذلك عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٦٤ - ٢٦٦

؛ مقبل الذكير : لمصدر السابق ، جـ٣ ، ص٣٨

؛ جوهان لودفيج بوركهارت : مواد لتاريخ الوهابيين ، ص٩٦

؛ د. منير العجلانى : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٢٠٥ - ٢٠٩

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين ، المرجع السابق ، ص١٦٢

؛ لوثروب ستودارد : المرجع السابق ، المجلد٢ ، جـ٤ ، ص١٦٣ - ١٦٤

(31) Hatt-i, Humayun, No.3381. Tarihi. 1218.
(32) Hatt-i, Humayun, No.3381 - B.
(33) Hatt-i, Humayun, No.3381 - S - Tarihi. 26 - 8 - 1218.

(٣٤) سورة الحج ، الآية ٤٠

(٣٥) عثمان بن عبد الله بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٧٩ - ٢٨١

؛ لوثروب ستودارد : المرجع السابق ، المجلد ٢ ، جـ٤ ، ص١٦٤

(٣٦) رسول الكركوكلى : المصدر السابق ، ص٢٢٦ - ٢٤٣

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص٢٢١ - ٢٢٢

؛ مخطوطة : رسالة فى تراجم آل سعود ، ص٤ مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى ، مكة رقم ١٤٦٨ تاريخ .

(٣٧) د. عبد الله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص١٦٣

؛ عبد المنعم الغلامى : المرجع السابق ، ص١٣ - ١٤

(٣٨) دومة الجندل - أو الجوف - جوف آل عمرو - وهى التى ذكرها حسان بن ثابت بقوله :

ولقـد يرانى موعـــدى كأننى   بأرض دومة أو سواء الهيكل

واسم الجوف اليوم يطلق على ثلاث قرى فى شمال المملكة العربية السعودية هى – دومـة الجندل وسكاكا والقارة .

(٣٩) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٠٨ – ٢٠٩ ، ص٢٤٠ .

(٤٠) عثمان بن عبد الله بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٦٩ .

(٤١) فرمان كلمة فارسية الأصل ، معناها الأمر ، كانت تستعمل فى الدولة العثمانيـة للأوامر السلطانية أو يسـمى اليـوم بالمراسيم الملكيـة . انظـر : محمـد فريـد بـك : تـاريخ الدولـة العليةالعثمانية ، هامش١ ، ص١٩ ، تحقيق إحسان حقى ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار النفائس ، بيروت .

(42) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - S. Tarihi. 30 - 2 - 1218.
(43) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - B. Tarihi. 17 - 3 - 1218.

(* *) بنو صخر بطن من جذام من القبائل القحطانيـة النازلـة فـى شمـال الجزيـرة العربيـة علـى أطراف الشام الجنوبية .

(44) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - D. Tarihi. 17 - 3- 1218.
(45) Hatt-i, Humayun, No. 3784 - Tarihi. 9 - 12 - 1218.

(٤٦) د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المرجع السابق ، ص٢٢٧.

؛ بنوا ميشان : عبد العزيز آل سعود – سيرة بطل ومولد مملكة – نقله إلى العربيـة ، عبـد الفتاح ياسين ، ص٣٢ ، ط١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م ، دار الكاتب العربى ،بيروت .

؛ يلماز أوزتونا : تـاريخ الدولـة العثمانيـة ، جــ١ ، ص٦٥٢ – ٦٥٣ ، الطبعـة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسسة فيصل للتمويل – تركيا – استانبول.

(47) Hatt-i, Humayun, No. 4027.
, Hatt-i, Humayun, No. 4027 - A. Tarihi. 7 - 3 - 1219.
, Hatt-i, Humayun, No. 4030.
, Hatt-i, Humayun, No. 4030 - D. Tarihi. 5 - 2 - 1220.
, Hatt-i, Humayun, No. 4034 - Tatihi. 19 - 3 - 1220.
, Hatt-i, Humayun, No. 4039 - Tarihi. 1220.
(48) Hatt-i, Humayun, No. 3840 - Tarihi. 1220.
(49) Hatt-i, Humayun, No. 3848 - Tarohi. 17 - 7 - 1220.

(٥٠) خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة فى عهد الملـك عبـد العزيـز ، جــ١، ص٣٨ ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

(٥١) عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الأثار فى التراجم والأخبار ، جـ٣ ، ص١٨٩ ، دار الجيل ، بيروت ، ب - ت - ن .

؛ د. عبد الفتاح حسن أبو عليه : المرجع السابق ، ص١٤

؛ مخطوطة : رسالة فى تراجم آل سعود ... سبق ذكرها ، ص٤

(٥٢) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٩١ - ٢٩٢

؛ مقبل الذكير : المصدر السابق ، ص٤٢

؛ د. عبد الله الصالح العثيمين : المرجع السابق ، ص١٦٤

(٥٣) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٩٣

؛ ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص٥٢ ، ط١٩٥٧م، معهد الدارسات العربية العلية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة .

(٥٤) د. منير العجلانى : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٢١٠ - ٢١٧ - نقلاً عن نص الرسالة فى تاريخ جودت باللغة التركية .

(٥٥) محفظة (١) بحربرا وثيقة رقم ٨ بتاريخ ١٩ صفر١٢٢٣هـ ، دار الوثائق القومية بالقاهرة.

؛ محفظة (١) بحربرا وثيقة رقم ٨ مكرر وتاريخ ١٩ صفر ١٢٢٣ ، دار الوثاقئق القومية بالقاهرة .

؛ الوثيقة رقم ٢١ بتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٢٤هـ .

انظر : د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : من الوثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على ١٢٢٢ - ١٢٣٤هـ / ١٨٠٧ - ١٨١٩م ، جـ٢ ، ص٥٤ - ٦٦ ، ص٨٢ - ٩١ ، ط١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ ، الناشر دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(٥٦) جوهان لودفيج بوركهارت : المرجع السابق ، ص١٠٣ .

؛ لوثروب ستودارد : المرجع السابق ، المجلد ٢ ، جـ٤ ، ص١٦٤ .

(٥٧) المزيريب : قرية من قرى سوريا وهى لا تزال تحمل اسمها إلى اليوم ، وتقع على طريق الحاج بين دمشق ومكة المكرمة .

(٥٨) كورة واسعة فى جنوب دمشق ذات قرى كثيرة ومزارع ، وعاصمتها بلدة درعا، يقول امرؤ القيس عن حوران :

فلما بدت حوران والآل دونها نظرت فلم تنظر بعينيك منظرًا

انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، حـ٢ ، ص٣١٧ ، ط١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت .

(٥٩) بُصرى : من أعمال دمشق الشام ، وهى قصبة كورة حوران ، نزلهاخالد بن الوليد سنة ١٣هـ . يقول النابغة الذبيانى :

سقى الغيث قبرًا بين بصرى وجاسم بغيث من الوسمى قطر ووابل

انظر فى ذلك : ياقوت الحموى : المرجع السابق ، حـ١ ، ص٤٤١

(٦٠) عثمان بن بشر : المصدر السابق ، حـ١ ، ص٣٠٨ - ٣١١

؛ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبدالرحيم: الدولة السعودية الأولى ... ص٢٢٨-٢٣٠

؛ د. عبد الفتاح حسن أبو علية : المرجع السابق ، ص٦٤ - ٦٥

(٦١) محافظ الذوات - محفظة رقم ١ - وثيقة رقم ١/٢٦٤ فى ١٢٢٥/٦/٢٨هـ - دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٦٢) د. منير العجلانى : المرجع السابق ، حـ٣ ، ص٢١٨ - ٢٢١

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصـــادر :

(أ) العـربية :

(١) القرآن الكريم .

(٢) أبو محمد عبد الملك بن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخـرون ، ط٢ ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م ، منشورات مصطفى البابى الحلبى - مصر .

(٣) السيد أحمد بن زينى دحـلان : الفتوحـات الإسـلامية بعـد مضـى الفتوحـات النبوية ، ط١٣٨٧هـ/١٩٦٨م ، الحلبى وشركاه ، القاهرة .

(٤) حسين بن غنّام : تاريخ نجد - المسمى روضة الأفكـار والأفهـام لمرتـاد حـال الإمام وتعـداد غـزوات ذوى الإسـلام ، تحقيـق نـاصر الديـن الأسـد ، ط٣ ، ١٤٠٣هـ ، الرياض .

(٥) عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبـار ، دار الجيـل - بيروت ؛ ب - ت - ن .

(٦) عثمان بن عبد الله بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، تحقيـق عبـد الرحمـن ابن عبد اللطيف بن عبـد الله آل الشيخ ؛ ط٤ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياش .

(٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ط١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار صادر للطباعـة والنشر ، بيروت .

(ب) المصادر غير العربية :

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ط١٩٩٣م ؛ ١٩٩٤م - مطبعة جاويك Cevik - تركيا - وهو مطبوع باللغة التركية ذات الأحرف اللاتينية .

(٢) جوهان لودفيج بوركهات : مواد لتاريخ الوهـابيين ، ترجمـة د. عبـد الله الصـالح العثيمين ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، مطابع شركة العبيكان ، الرياض .

(٣) رسول الكركوكلى : دوحة الوزراء فى تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نورس؛ دار الكاتب العربى ، بيروت - مكتبة النهضة ، بغداد، ط١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

(جـ) المخطوطات :

(١) مقبل عبد العزيز الذكير : مخطوطة فى ٣ أجزاء - مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى، جامعة أم القرى - مكة - رقم المخطوط ١٧٤ تاريخ.

(٢) مخطوط : رسالة فى تراجم آل سعود - لمؤلف مجهول - مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، جامعة أم القرى - مكة - رقم المخطوط ١٤٦٨ تاريخ .

ثانيًا : الوثائق :

(أ) وثائق عثمانية من أرشيف رئاسة مجلس الوزراء إستانبول - تركيا :

(1) Hatt-i, Humayun, No. 3381. Tarihi, 1218.
(2) Hatt-i, Humayun, No. 3381 - B.
(3) Hatt-i, Humayun, No. 3381 - S. Tarihi. 26 - 8 - 1218.
(4) Hatt-i, Humayun, No. 3765. Tarihi. 10 - 11 - 1216.
(5) Hatt-i, Humayun, No. 3784 - Tarihi. 9 - 12 - 1218.
(6) Hatt-i, Humayun, No. 3840 - Tarihi. 1220.
(7) Hatt-i, Humayun, No. 3841 - Tarihi. 4 - 2 - 1213.
(8) Hatt-i, Humayun, No. 3848 - Tarihi. 17 - 7 - 1220.
(9) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - B. Tarihi. 17 - 3 1218 .
(10) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - D. Tarihi. 17 - 3 - 1218.
(11) Hatt-i, Humayun, No. 3854 - S. Tarihi. 30 - 2 - 1218.
(12) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - A. Tarihi. 12 - 10 - 1207.
(13) Hatt-i, Humayun, No. 3855 - F. Tarihi. 3 - 10 1207.
(14) Hatt-i, Humayun, No. 4027.
(15) Hatt-i, Humayun, No. 4027 - A. Tarihi. 7 - 3 - 1219.
(16) Hatt-i, Humayun, No. 4030.
(17) Hatt-i, Humayun, No. 4030 - D. Tarihi. 5 - 2 - 1220.
(18) Hatt-i, Humayun, No. 4034 - Tarihi. 19 - 3 - 1220.
(19) hatt-i, Humayun, No. 4039 - Tarihi. 1220.

(ب) وثائق من دار الوثائق القومية بالقاهرة :

(١) محافظ الذوات - محفظة رقم(١) وثيقة ١/٢٦٤ فى ١٢٢٥/٦/٢٨هـ.

(٢) محفظة (١) بحربرا وثيقة رقم ٨ وتريخ ١٩ صفر ١٢٢٢هـ .
(٣) محفظة (١) بحربرا وثيقة رقم ٨ مكرر وتريخ ١٩ صفر سنة ١٢٢٣هـ.
(٤) وثيقة رقم ٢١ وتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٢٤هـ .

الوثائق من رقم ٢ إلى رقم ٤ نشرها الأستاذ الدكتور / عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : فى كتابه : من وثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على ١٢٢٢ - ١٢٣٤هـ/ ١٨٠٧ - ١٨١٩م ، جـ٢ ، فى صفحات ٥٤ - ٦٦ ؛ ص٨٢ - ٩١ ، ط٣ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م - الناشر دار الكتاب الجامعى - القاهرة .

وقد إطلع عليها الباحث فى دار الوثائق القومية بالقاهرة - فى الهيئة المصرية العامة للكتاب يوم السبت ١٤ جمادى الآخر ١٤١٧هـ الموافق ٢٦ إكتوبر ١٩٩٦م ... وللأمانة العلمية فقد اعتمد عليها فى كتاب د. عبد الرحيم ، لأنه أدق فى الترجمة .

ثالثًا : المراجع العربية :

(١) أحمد عبد الغفور عطار : صقر الجزيرة ، جـ١ ، شركة استاندارد للطباعة العربية ، مصر ، ١٣٦٤هـ .
(٢) أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، جـ١ ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض .
(٣) خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، دار العلم للملايين ، بيروت .
(٤) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط١٩٥٧م ، معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة .
(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ - ١٢٣٣هـ/١٧٤٥ - ١٨١٨م ، ط٤ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(٦) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : من وثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على ١٢٢٢ - ١٢٣٤هـ / ١٨٠٧ - ١٨١٩م ، ط٣ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(٧) عبد الفتاح حسن أبو علية : محاضرات فى تاريخ الدولة السعودية الأولى ١١٥٧ - ١٢٣٣هـ / ١٧٤٤ - ١٨١٨م ، ط٢ ، ١٤١١هـ / ١٩١١م ، دار المريخ للنشر ، الرياض .

(٨) عبد الكريم الغرايبة : قيام الدولة السعودية العربية ، منشورات معهد البحوث والدرسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

(٩) عبد الله الصاح العثيمين : تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ١ ، ط٦ ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، دار العبيكان للنشر ، الرياض .

(١٠) عبد المنعم الغلامى : الملك الراشد جلالة المغفور له عبد العزيز آل سعود ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، دار اللواء للنشر ، الرياض .

(١١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ط٢ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض .

(١٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقى، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار النفائس ، بيروت .

(١٣) مصطفى النحاس جبر : آل سعود فى الجزيرة العربية من القبيلة إلى الدولة ، ط١ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

(١٤) منير العجلانى : تاريخ البلاد العربية السعودية - الدولة السعودية الأولى ، ط٢ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، مطابع دار الشبل بالرياض .

(١٥) مهدى رزق الله أحمد : السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية - دراسة تحليلية ، ط١ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض .

رابعًا : المراجع المترجمة إلى العربية :

(١) بنوا ميشان : عبد العزيز آل سعود - سيرة بطل ومولد مملكة - نقله إلى العربية - عبد الفتاح ياسين ، ط١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ، دار الكاتب العربى ، بيروت .

(٢) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، تقديم وتعليق المير شكيب أرسلان ، ط٤ ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٣ ، منشورات دار الفكر .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، مؤسسة فيصل للتمويل ، إستانبول - تركيا .

خامسًا : المراجع غير العربية :

(1) Sir, Brydges Harford Jones : Anaccount of his Majesty's mission to the court of Persia in the years 1807 - 1810 to which is appended, Abrief History of the wahhaby, Vol, 2.p.19 "London, 1834" .

سياسة حكام مصر تجاه تجارة الرقيق

(١٢٣٥-١٢٩٤هـ / ١٨٢٠-١٨٧٩م)

د . عمر سالم عمر بابكور*

ما أن استولى محمد على على حكم مصر سنة ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م ، إلاّ وفكر فى تأسيس دولة قوية ذات عز ومنعة(١) فخطط المشاريع للنهوض بها فى مختلف المجالات الزراعية والصناعية والعلمية والعمرانية . ولم تنته طموحات محمد على بتأسيس دولة قوية فى مصر ، بل لعله أمل فى توسيع رقعة بلاده(٢) .

يذكر الجبرتى أن الآراء اختلفت حول فتح محمد على للسودان ، فيقول : " ... وكان الناس قد تقولوا على ذهابه إلى قبلى أقاويل منها أنه يريد التجريد على بواقى المصريين المنقطعين بدنقلا ، فأنهم استحفل أمرهمُ واستكثروا من شراء العبيد وصنع البارود والمدافع وغير ذلك ، ومنها أنه يريد التجريد أيضًا وأخذ بلاد دار فور والنوبة ويمهد الطريق للوصول إليها " . ومنها أنهم قالوا إنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد . على أن ذهابه لجلب الرقيق يكاد يكون إجماع من كتبوا عن غزو محمد على للسودان والذى بدء فى سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م ، بمعنى أن جلب الرقيق كان الهدف الرئيسى لغزو محمد على للسودان،(٣) كما يتضح لنا ذلك - بما لا يدع مجالاً للشك - من الوثائق .

وما أن سيطرت الجيوش الفاتحة على إقليمى سنار وكردفان حتى أظهر محمد على اهتمامًا بالغًا بأمر العبيد ، وحرص على جلب أكبر عدد منهم إلى مصر، حيث أنه بعد نحو شهرين من دخول ابنه إسماعيل سنار بعث محمد على بمكاتبة إلى الكتخدا فى مصر يقول " علمنا من مكاتبة نجلنا صاحب السعادة الباشا

---

* أستاذ مساعد بجامعة أم القرى - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .

سر عسكر السودان الواردة مع بشكيرجيه ، أنه أرسل بصحبة سلحدار سليم أغا نحو ألف وتسعمائة زنجى ، وألفى جمل ، وألف راس من البقر . وحيث أنه من اللازم فرز الذين يصلحون لمصالحنا من ذكور الزنوج المذكورين مهما كانوا وإبقاؤهم فى إسنا . وإذا كان سعادة أخينا محمد بك لم يسافر فتبلغوه صورة إرادتنا وأن تحيلوا على عهدته فرز من يصلح لمصلحتنا من هؤلاء السود الأقوياء منهم - مهما كان عددهم - وإبقاؤهم فى البندر المذكور . وإن إرادتنا تقضى بأنه إن كان يوجد لدينا أشغال يمكن معها استخدام الباقين من قبيل النسوة والصبيان فيستخدمون فيها . وإن لم يوجد فيباعون(٤) " .

وهكذا كان الحصول على الرقيق هدفًا من أهداف محمد على الأولية فى فتح السودان ، نظرًا لاحتياجه إلى أعداد كبيرة منهم لتجنيدهم فى الجيش ، بالإضافة إلى استخدامهم فى أعمال الزراعة والصناعة وغير ذلك من الشئون ، وذلك دون أن يحمل الخزينة المصرية أعباء شرائهم فضلاً عن رغبته فى إحياء تجارة الرقيق نظرًا لما تدره من أرباح(٥) .

وتلقى مكاتبات محمد على لأبنائه وقواده فى السودان الضوء على مستقبل الرقيق والنخاسة فى ظل النظم الجديدة ، لذا يحسن أنه أعرض بعض مقتطفات من هذه المكتابات التى توضح حرص محمد على فى الحصول على أكبر عدد ممكن من الرقيق(٦) من ذلك أن محمد على يذكر فى رسالته إلى متصرف جرجا " بديهى أننى قد أرسلنا العساكر الجرارة فى معية أولادنا وما زلنا نرسلهم بغية أن يجلب إلينا من ولايات السودان رجال سود نستخدمهم فى أعمال الحجاز وما يماثلها من الخدمات "(٧) وفى رسالته إلى ابنه إسماعيل " إن المقصود الأصلى من هذه التكليفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا إليكم ذلك مرة بعد أخرى ، بل الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا "(٨) كذلك يذكر فى رسالة ثالثة " إن الغرض من انتدابكم إلى

تلك الديار باختيار هذه المتاعب الشديدة ومن تعزيز كم بسواد عظم من الجنود والمهمات واللوازم العديدة ، هو عبارة عن الحصول على العبيد اللازم إنتقاؤهم وفق المطلوب وإيصالهم إلى ثكنات أسوان غير معرضين للضياع والتلف . وليس فى نيتنا ولا فى نظرنا غاية أعز من هذا الأمل كما هو ظاهر ، وإن قيمة العبيد الصالحين للعمل عندنا بمثابة قيمة الجواهر نظرًا لمتقضى الوقت والحال بل هو أعز من تلك وأجل كما هو بديهى وأظهر "(٩) .

وهكذا انطلقت حملات صيد الرقيق منذ بداية الفتح ، وقام بالإشراف عليها ولداه إسماعيل وإبراهيم(١٠٩) وبقية قواد الجيش ، لتوفير الأعداد التى يلح فى طلبها الباشا. ثم أخذت هذه الحملات صفة رسمية أعيد تنظيمها(١١) بحيث تحقق أكبر صيد من الرقيق ، وأصبح من واجبات الحكومة كل عام أن ترسل الحملات العسكرية فى شهرى سبتمبر وأكتوبر إلى المناطق النائية من السودان للحصول على الرقيق(١٢) .

لقد أكد محمد على أن إرسال الجنود إلى قواده بالسودان مرتبط ارتباطًا وثيق بما يرسلونه من العبيد ، ففى رسالة وجهها إلى ابنه إبراهيم باشا " ... فلترسلوا أنتم من هنا لكم ثلاثة آلاف أسود متماسك الأعضاء صالح لعملنا وخدمتنا ، نرسل لكم من هنا ألف جندى فى مقابلهم !! "(١٣) .

كذلك قال فى رسالة أخرى للدفتر دار : " من البديهى أن الظروف تحتم وجود المشاة والفرسان على الوجه المرفوع . فإن كنتم ترسلون لنا ألف واحد من العبيد الموجودين لديكم فإننا نلحقهم بالمدربين ونرسل لكم أربعمائة عسكرى من العساكر الذين تريدونهم بدلاً منهم ، وأن أرسلتم لنا ألفى عبد فإننا نرسل لكم ثمانمائة . وقد كتبنا لكم هذا من باب التذكار "(١٤) .

وكانت هذه الحملات تخرج سنويًا من مدن الأبيض والخرطوم وسنار إلى ثلاث مناطق رئيسية هى جبال النوبة – جنوبى كردفان ، وأوطان الشلك على

ضفاف النيل الأبيض ، وجبال الفونج(١٥) . ويرى محمد فؤاد شكرى أن انتشار تجارة الرقيق فى السودان قبل الفتح المصرى أدى إلى انتشار الفوضى فى ربوعه(١٦) ، ولكن يبدو أن هذه التجارة كانت معروفة آنذاك فى حدود ضيقة ومشروعة ، لها نظمها وقوانينها فهى لم تكن سببًا لاضطراب الأمن بل أن السبب الرئيسى لذلك هو تلك الغزوات المسلحة التى أرسلها محمد على لاصطياد الرقيق(١٧) .

واستمر المسئولون تحت حكم محمد على باشا يواصلون جهودهم لإرسال الرقيق ، فأرسل إسماعيل فى أواخر سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م تسعمائة من الرقيق أصحاء أشداء على حساب الفرد(١٨) . وبعد مقتل إسماعيل(١٩) واصل الدفتر دار تلك المجهودات حتى بلغ مجموع الرقيق الذين أرسلهم إلى دنقلا ليرسلوا من هناك إلى مصر منذ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ - يناير ١٨٢٤م حتى شوال سنة ١٢٣٩هـ - مايو ١٨٢٤م أربعة آلاف من الرقيق(٢٠) .

ويذكر محمد فؤاد شكرى بأن بورنج يقول أنه عندما زار مصطفى بك حاكم كردفان ، وجده فى ساحة الديوان يفرز نحو أربعمائة من الرقيق بغية توزيعهم على الجند بدلاً من مرتباتهم وكانت رتبة الفرد العسكرية تراعى عند التوزيع .

وعندما طلب الدفتر دار من الباشا فى سنة ١٢٣٧هـ " ١٨٢١ - ١٨٢٢م" مده بكمية من الريالات الفرنسية ليدفع مرتبات الجنود ، اعتذر الباشا وأمر الدفتر دار بأن يدفع لهم جزءًا منها فى شكل بفتة القطن المستعمل كعملة فى ذلك الإقليم ، ويسلموا بقيتها فى مصر(٢١) . وهكذا فقد كان من الصعب دفع مرتبات الجند نقدًا لقلة العملات النقدية المتداولة فى السودان .

ولما كان تأخير دفع رواتب الجنود سببًا لكثير من الثورات العسكرية(٢٢) فقد تحتم على حكومة الباشا أن تفكر فى طريقة أخرى لدفعها ، وإلا تعرض أمن

البلاد وسلامتها لأخطار بالغة . ولحل هذا الإشكال وافق محمد علـى علـى إعطـاء الجنود العبيد والجوارى بدلاً من علوفتهم(٢٣) .

ولما زاد أحيانًا ثمن العبد الواحد عن استحقاق الجندى ، أعطى كل عدد من الجنود كمية من العبيد اقتسـموها فيمـا بينهـم . وبينمـا ذكـر الرحالـة (بـالم) أن الجنود فى كردفـان أعطـوا العبيـد بـدلاً مـن رواتبهـم بواقـع ثلاثمائـة قـرش لـلرأس الواحد(٢٤) ، ذكر الحكمدار خورشيد عن الغزوة التى قادهـا لإخمـاد ثـورة أهـالى عطبش فى سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩ - ١٨٣٠م أنه أعطـى بعـض الأسـرى لجنـود الشايقية بواقع خمسة عشر فرانسـة لكـل عبـد(٢٥) وهكـذا شـاع استعمال هـذه الطريقة الجديدة لدفع مرتبات الجنـد ، حتـى إنهـا كثـيرًا مـا تـأخرت لحـين عـودة الغزوات من مناطق العبيد(٢٦) .

وقد شهد عهد الحكمدار خورشيد اهتمامًا ملحوظًـا بـأمر تنظيـم الغـزوات وإرسالها لقنص الرقيق . فعندما استلم مقاليد الحكم فى سنة ١٢٤١هـ - ١٨٢٦م أرسل غزوة لبلاد الشلك ، كما قاد فى نفس السـنة حملـة صغيرة أخـرى سـارت بحذاء النيل الأزرق حتى وصلت جهاد ود العباس ، وعـادت إلى الخرطـوم بعـد أن استولى خورشيد على كمية من العبيد باعها نيابة عـن الحكومـة(٢٧) . وفـى سـنة ١٢٤٢هـ - ١٨٢٧م قاد خورشيد حملة أخرى إلى بلاد الدنكا على ضفاف النيـل الأبيض واستطاع بمساعدة الشيخ سليمان أبى روف ، من شـيوخ عربـان رفاعـة ، الوصول حتى نهر سوباط . وعاد من هناك بعد غياب ثلاثة أشهر ، كانت نتيجتها اعتقال خمسمائة من زنوج الدنكا(٢٨) . وفى سـنة ١٨٢٨م قـاد خورشـيد غـزوة أخرى نحو بلاد الإنقسنا لجلب العبيد مـن هنـاك(٢٩) كذلـك شـهد عـام ١٨٣٠م حملة أخرى قادها خورشيد إلى بلاد الشلك وعاد من هنـاك بمئتين مـن الأسـرى . وفيما بين عامى ١٨٣١ - ١٨٣٢م قاد خورشيد أكبر قوة تستعمل فـى الغـزوات حتى ذلك الوقت وهى ستة آلاف جندى ، نحو بلاد التاكة بهدف الحصـول علـى

كميات ضخمة من الماشية والعبيد ، إلا أن تلك الحملة تعرضت لخسارة فادحة ، إذ فقدت ألف وخمسمائة من رجالها(٣٠) وفى سنة ١٢٤٧هـ - ١٨٣٢م غزا خورشيد بلاد فازو غلى غزوة ناجحة جلبت أعدادًا كبيرة من الرقيق(٣١) .

كذلك أعد رستم بك حاكم كردفان فى عهد الحكمدار خورشيد بعض الغزوات لصيد العبيد ، ففى الخامس من شهر شعبان سنة ١٢٤٥هـ ٣٠ يناير ١٨٣٠م قاد حملة لغزو الزنوج فى جبالهم بالقرب من كردفان ، وبعد قتال عنيف بين الجانبين استمر لمدة أيام استطاع رستم بك الانتصار على الأهالى فغنم أموالهم وأملاكهم وأسر منهم ألف وأربعمائة أسير ، اختار منهم ألفًا من صغار السن المقتدرين وأرسلهم مع مصطفى أغا بيكباشى الأورطة السادسة إلى المحروسة(٣٢) . وقاد رستم رستم أيضاً فى سنة ١٢٤٨هـ ١٨٣٢ - ١٨٣٣م حملة أخرى إلى جبال الزنوج فنكث بهم وأسر منهم ألف وخمسمائة عبد(٣٣) .

وتعتبر الحكومة مسؤلة إلى أقصى حد عن ازدهار هذه التجارة بسبب السياسة الاقتصادية التى اتبعتها فى هذا الجزء من قارة أفريقية ، فقد احتكر محمد على باشا التجارة فى السودان ، وامتد هذا الاحتكار فشمل كل المحاصيل بحيث أصبحت الحكومة هى المشترية للصمغ والعاج وجلود الحيوان(٣٤) . وزيادة على ذلك فقد وضعت القيود وفرضت الضرائب الباهظة التى تكفل تنفيذ هذا الاحتكار بكل صرامة ، الأمر الذى أدى بالتجار إلى العمل فيه ، فكانت المتاجرة فى الرقيق أكثر أنواع التجارة ربحًا وخاصة بعد أن كثرت أعداده التى كانت تجلبها حملات الحكومة كل عام ، مما مكن من شرائه بأثمان رخيصة(٣٥) . وقد ساعد الجلابة فى المتاجرة بهذه السلع ما أتاحته لها ضريبة الماشية التى كانت تجمعها السلطات من البدو الذين كانوا يدفعون ضريبتهم عينًا ، وكان جزء منها يرسل إلى مصر والباقى تتخلص منه الحكومة ببيعة للتجار . وكان هؤلاء يقبلون على شرائها ثم يقومون ببيعها لأصحابها الأصليين الذين يظهرون فرحتهم باستعادة ماشيتهم . ولكي

يستردوها كان عليهم تلبية طلبات الجلابة من الرقيق ، فكانوا لذلك ينظمون الحملات لاصطياد الزنوج التعساء(٣٦) . وكان يهم الحكومة استمرار هذه التجارة نظرًا للعوائد والرسوم التى فرضت على القوافل ، والتى أصبحت تمثل دخلاً أساسيًا لها . من ذلك أن دخل حكومة الخرطوم منها بلغ اثنى عشر ألفًا من الجنيهات . وقد أنشئت كذلك مكاتب تحصيل هذه العوائد فى الخرطوم وأسيوط والقاهرة ، وفى كل من هذه الأماكن كان على الجلابة أن يدفعوا الرسوم على رقيقهم ، ففى كردفان كانت تتراوح ما بين عشرين وثمانين قرشًا وفى دنقلة خمسة عشر قرشًا(٣٧) ، وفى أسوان كانت أربعة وثلاثين قرشًا ونصف ، وفى القاهرة تفرض عليهم ضريبة تبلغ أحد عشر قرشًا ، أى أن متوسط الضريبة المفروضة على العبد كان مائة وخمسة قرشًا(٣٨) ولم تكن هذه الرسوم وحدها هى التى تمثل دخل الحكومة إذ أن الحكومة كانت لها تجارتها التى تشرف عليها عن طريق بيع الفائض من الرقيق ، فكانت هناك ضريبة تقضى بدفعها عددًا من الرقيق الأقوياء(٣٩) وبذلك انتعشت تجارة الرقيق وازدهرت أسواقه القديمة فى بربر - الأبيض - الخرطوم - ودنقلة(٤٠) .

وللهيمنة على مصادر الرقيق فى السودان ، كان لابد لمحمد على من أن يتخذ إجراءات حاسمة لمنع تصدير الرقيق السودانى إلى الخارج . فمنذ بداية عهده فى السودان أصدر أوامره الحازمة المشددة إلى حاكم دنقلا لمنع تجار الرقيق من تصدير الرقيق السودانى إلى مصر ، إما بحجزهم فى دنقلا أو بردهم من حيث أتوا(٤١) على أن هذه السياسة لم تأت بالفائدة المرجوة ، إذ تسلل عدد كبير من أولئك النخاسين إلى مصر ، مما اضطر الباشا إلى إصدار توجيهاته بشراء العبيد الذكور منهم ، الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشر والعشرين على أن يسمح لهم بالتوجه مع باقى رقيقهم إلى مصر(٤٢) .

وقد كلف محمد على المسئولين فى السودان بجلب أكبر عدد من الرقيق الذين يصلحون للتجنيد فى الجيش . ومن ثم فقد اهتمت الحكومة بإعداد الغزوات التى درج حكمدار وموظفو الباشا على إرسالها لصيد الزنوج السودانيين ، وتجهيزها تجهيزًا تامًا . وقد ذكر الرحالة Pallme أن الحملة المجهزة الواحدة كانت تتكون عادة من ألف إلى ألفين من القوات المنظمة ، ومن أربعمائة إلى ثمانمائة من المسلحين بالبنادق والمسدسات ، مع ثلاثمائة إلى ألف من الأهالى المشاة المزودين بالسهام والدروع،وثلاثمائة إلى خمسمائة آخرين مسلحين وراكبين على ظهور دوابهم(٤٣).

هذا وقد أمر محمد على بتوفير كل متطلبات المعيشة الطيبة والراحة لهم لأنه كان مسؤلاً عنهم ، مثلهم فى ذلك مثل المصريين وبقية الشعوب الأخرى التى يحكمها(٤٤) ورغم كل الإمكانات التى وضعها محمد على لإنجاح تجربة تجنيد الرقيق فى الجيش ، ورغم كل الجهود التى بذلها المسؤلون لتحقيق رغبته ، فإن التجربة سرعان ما باءت بالفشل ، ربما لأن العدد الذى وصل من الرقيق الصالح للجندية كان غير كاف لتكوين الجيش ، أو ربما بسبب تغير البيئة والمناخ وإصابتهم بالأمراض ، التى لم تفلح معها العقاقير وقتذاك ، الأمر الذى ترتب عليه موت كثيرين منهم ، مما أزعج محمد على وخيب أمله فى إمكان الاعتماد على الرقيق فى تكوين جيش نظامى(٤٥). لذلك اتجه محمد على إلى تجنيد أبناء الفلاحين المصريين، رغم حاجته الشديدة إليهم فى فلاحة الأرض ومواجهة التوسع فى الزراعات الجديدة . ولكن من ناحية أخرى كان تكوين الجيش فى ذلك الوقت ، من الأهمية بمكان ، من حيث الاعتماد عليه فى بناء الدولة المصرية ذاتها ، ومن حيث درء الأخطار التى كانت تحيق بالدولة العثمانية ، والتى كانت تتمثل فى الحركات الثورية فى الولايات التابعة لها .

وعندما لجأ محمد على إلى تجنيد المصريين ، أصبحوا عصبة الجيش النظامى(٤٦) الحديث الذى وصل عدده فى سنة ١٨٢٤م إلى أربعة وعشرين ألفًا من الجنود(٤٧) فى رأى ، وفى رأى آخر حوالى عشرين ألفًا(٤٨) .

وصار هذا الجيش من أحسن الجيوش النظامية فى الشرق الأوسط . وقد ظل هذا الجيش المصرى ينتظم بين صفوفه فرقًا من العبيد وإن كان المصريون يشكلون العنصر الأساسى فى الجيش النظامى . أما الرقيق الذين كانت لا تتوافر فيهم شروط الخدمة العسكرية فكانوا يعملون فى مجالات أخرى كالزراعة والصناعة والخدمة فى الدواوين الحكومية(٤٩) .

و لم يتشدد محمد على مع حكام السودان ، بخصوص إرسال الرقيق من الذكور الأقوياء الذين يتجاوزون الخامسة عشر إلى العشرين سنة من العمر لتجنيدهم فى الجيش ، حيث صار لا يمانع فى جلب الرقيق - ذكورًا وإناثًا، للاستفادة منهم بقدر الإمكان فى المصانع الحديثة التى أنشأها فى البلاد(٥٠) .

وقد عمل محمد على على تهيئة الجو الصالح للمجندين الجدد من الرقيق ، وتوفير كافة احتياجاتهم حتى يعملوا بكل إخلاص وتفان . ولترغيبهم فى حياتهم الجديدة كان عليه أن يعمل على استقرارهم وإسكانهم ، ببناء الثكنات اللازمة لهم فى أسوان . وبما أن هذه الثكنات وإعدادها يستغرق وقتا طويلا ، فقد أرسل محمد على خمسمائة خيمة لإيوائهم إلى أن تجهز لهم الثكنات(٥١) . والواقع أن محمد على حاول أن يجعل من الرقيق ، أفراد يفيدون ويستفيدون ، حيث عز عليه أن يتركهم - خاصة بعد عدم نجاح تجربة تجنيدهم - فريسة للبطالة وما يترتب عليها من آثار فهداه تفكيره إلى توجيههم إلى العمل فى مشروعات التنمية ، فأصدر أوامره بضرورة استقرارهم ، وتوفير سبل المعيشة والراحة لهم وأن يزاولوا أعمالاً مفيدة ، تتناسب مع قدراتهم الذهنية والعضلية . وقد أمر بإنشاء قرية خاصة بهم بجوار منفلوط بالصعيد ، وأن يقوم بعض الفلاحين المصريين بتعليمهم أصول الفلاحة والزراعة(٥٢) وظل يصدر الأوامر من حين إلى آخر ، بإسكان الرقيق فى القرى المصرية الأخرى ، والعمل على ترغيبهم فى أعمال الفلاحة(٥٣) حتى لا يشعرون بأنهم غرباء عن المجتمع المصرى ، وأن يعاملوا معاملة طيبة ، لأنه كان

يهتم ببسط الرفاهية للسودانيين والمصريين علـى حـد سـواء ونشـر العـدل وتعمـير الأقاليم السودانية تمامًا كالأقاليم المصرية(٥٤) .

وكان محمد علـى يهـدف مـن وراء ذلـك أن يفيـد الزراعـة فـى مصـر مـن خدمات الرقيق ، حتى يزدهر الإنتاج الزراعى ، وما يترتب عليه من تصديـر وقيـام صناعات مما كانت الدولة فى أشد الحاجـة إليهـا ، لسـد حاجـات الجيـش . وفـى الوقت ذات يكتسب الرقيق أنفسهم خبرة جديدة فى الأعمال الزراعية والصناعية.

وبعد المعارك الدامية التى خاضها الشعب المصـرى ضـد الحملـة الفرنسـية ، وبعد حروب محمد على الطاحنة ، فقدت مصر الكثير من خبرة أبنائها ، كما أدى تفشى الأمراض كالحميات والطاعون إلى هلاك آخرين . ومعظم الذين ماتوا كانوا من الرجال مما عرض البلاد لنقص حاد فى الأيدى العاملة كانت فى أمس الحاجـة إليهم لاستخدامهم فى المشاريع الصناعية والزراعية التى أنشأها محمـد علـى للسـير بمصر قدمًا على طريق التقدم والرخاء الاقتصـادى(٥٥) . لذلـك ألحق محمـد علـى بعض الزنوج الذين جلبوا لمصـر بالمعـامل والمصـانع التـى أنشـأها(٥٦) كمـا حـث حكمـدارى السـودان لإرسـال الرقيـق ذكـورًا وإناثًـا ممـن يصلحـون لأشـغال الجفالك(٥٧) .

ولحث أولئك العبيد للعمل بهمة ونشاط فى تلك الأعمال الزراعيـة ، عمـل على استقرارهم وتوفير كل سبل الراحة لهـم ، فعـين أحـد كشـافة - وهـو جمـال الديـن أحمـد - لإنشـاء قريـة لإسـكانهم فـى المحـل المسـمى كـوم كـام بجـوار منفلوط(٥٨) وأمره بتوفير كافة مسلتزماتهم ، وجلب خمسـة أو عشـرة أنفـار مـن الفلاحين لتعليمهم " أصول الفلاحة والزراعة "(٥٩) . وبجانب إنشاء هذه القرية ، عمل الباشا على إسكانهم بالقرى المصرية الأخرى ، وأصدر أوامره إلى عبدى أغـا مأمور منفلوط لإيوائهم فى قرية قوبتوجة والسعى لترغيبهم فى الأعمال والزراعيـة التى أوكلت إليهم(٦٠) .

على أن مسألة استخدامهم فى الزراعة ، فشلت هى الأخرى رغم مـا بـذل من جهود جبارة تشير إليها الوثائق فى ترغيب السود وتعليمهم الفلاحة . فبجانب إعراض البعض منهم عن الأعمال الزراعية وعدم إقبالهم عليها ، فإن البعض الآخـر إرتضى الاستقرار ، ومن ثم فإن ذلك تطلب توفير المسكن والمعيشة لهم مما كلـف أصحاب المزارع نفقات باهظة ، فى بعض الأحيان ، أكثر مما تغله الزراعة ، الأمـر الذى ترتب عليه أن رفض أصحاب المزارع استخدام هؤلاء الرقيق(٦١) .

أما الرقيق ، الذين لا يصلحون للجندية والأشغال الأخـرى فقـد أمر محمـد على منذ بداية عهده ببيعهم لتجار الرقيق فى سنار وكردفان أو فى أسوان أو فـى وكالة النحاسين بالقاهرة ، حيث كانت تجارة الرقيـق تجـارة مشـروعة منظمـة لهـا دلالون سمح لهم بأخذ سمسرة(٦٢) .

على أن محمد على ، رغم أنه احتكر التجارة فإنه لم يتاجر فـى الرقيـق ، ولم أعثر على وثيقة واحدة تشير إلى ذلك بصراحة . وكان فى إمكانـه أن يحتكـر هـذه التجارة ، مثل أية سلعة أخرى كالصمغ والعاج مثلاً ، علمًا بأن التجارة فى الرقيق كانت أكثر ربحًا من أى سلعة أخرى ، ومع ذلك لم يمارسها بل كـان كمـا يقـول بورنج " يكرهها ويمقتها "(٦٣) .

ويبدو أن الذى جعل محمد على يتغاضى عن تصرفات بعض حكام السودان فى بيع الرقيق ، رغبته فى سد عجز خزينـة البـلاد لتغطيـة نفقـات الإدارة والجيـش هناك ، فكانت خزينة مصر فـى حاجـة شـديدة إلى الأمـوال لمواجهـة المصروفـات وتغطية نفقات مشروعات التنمية ومرتبات الجيش ، لذلك كان يتـأخر فـى بعـض الأوقات عن إرسال الأموال من مصر إلى الإدارة فى السودان .

وإذا صح ما ذكرناه من أن محمد على لم يتاجر فى الرقيق ، ولم يسـتفد مـن استمرار التجارة فيه هناك ، بعـد الجهـود المضينـة التـى بذلهـا لإنجـاح تجربتهـم فـى الجيش النظامى وفشل تلك التجربة ، ما هو إذن موقفه منهم بعد كل ذلك ؟

* * *

تشير الأحداث التى جرت بعد ذلك إلى أن محمد على وجه النظام المتبع بشأن الرقيق فى السودان إلى نظام العمل الشريف ، ومن ثم نظر إلى مسألة الرق من زاوية أخرى ، هى وقف الغزوات المسلحة التى كانت ترسل لجلب الرقيق ، والإبقاء على تواجدهم فى قراهم ، والاهتمام بتعليمهم وتدريبهم على الحرف الصناعية والأعمال الزراعية ، أى أن محمد على تحول من هدفه - السابق - الذى كان يرمى إلى إلقاء عبء الأعمال الحربية على عاتق الرقيق المجندين فى الجيش ، إلى استخدامهم فى المشروعات الصناعية التى أقيمت فى السودان نفسه ، وأن يشجع الزنوج على استغلال مواردهم الاقتصادية وينشط من حركة التجارة المشروعة معهم(٦٤) .

وقد تطلب منه ذلك الضرب بشدة على أيدى الحكام الجشعين الذين كانوا يزاولون التجارة فى الرقيق بصورة أو بأخرى ، أو حتى يتساهلون مع التجار وأصحاب القوافل الذين يمارسون هذه التجارة ، فقد اقتضى الأمر تضييق الخناق عليهم ومحاصرتهم سواء كانوا من العرب أو من الأجانب(٦٥) .

هذا بجانب مضاعفة الجهود لتوطيد الأمن والتوسع فى دائرته والاستفادة بخدمات السوادنيين أنفسهم فى الإدارة بشكل أكثر ، وتوفير الوسائل البديلة من استخدام الرقيق والمتاجرة فيهم ، حتى يمكن تحقيق انهيار نظام الرق فى السودان(٦٦) .

وقبل أن نشير إلى تلك الوسائل البديلة التى وفرها محمد على ، لتحل محل التجارة فى الرقيق ، أو على الأقل تخفف من انتشارها ، نرى أن نعرف أولاً موقف الدول الأوربية - خاصة بريطانيا - من مسألة الرق فى السودان حيث ذكر البعض أن محمد على لم يعمل على إلغاء تلك التجارة إلا تحت ضغط الدول الأوربية .

نشر الرحالة ، الذين زاروا السودان وغيره من الأقطار الأفريقية التى اشتهرت بتجارة الرقيق فى القرن التاسع عشر ، الأخبار عن أحوال الرقيق وعن

المعاملة القاسية التى تعرضوا لها ، وقيام حركات قوية فـى أوربـا تهـدف إلى إلغـاء الرق وتجارة الرقيق . وقد بادرت الحكومة الإنجليزية بالاتصال بمحمد على بهـدف إلغاء هذه التجارة المشينة(٦٧) . وفى الواقع لم تغب عن محمد على النـداءات التـى كانت تتردد فى أوربا للقضاء على تجارة الرقيق ، وكان محمد علـى يهمـه ألا تثـار مشاكل تمس سمعته وسمعة مصر فى الخارج ، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار ، تطلعه إلى بعض الدول الأوربية لمساندته لدى السلطان العثمانى الذى لا يـزال فـى قـرارة نفسه يحقد عليه . على أن محمد على ، كان أبعد نظرًا من كثير من حكـام الـدول الأوربية ، بخصوص مسألة الرق ، فهو - أى محمد على - يرى أن الـرق نظـام لـه جذور ضاربة وعميقة فى المجتمعات الشرقية ، ومن المستحيل نزعه منهـا بـين يـوم وليلة(٦٨) ولكن من الممكن القضاء عليه بالتدريج ، وذلك بإيجاد الوسـائل البديلـة خوفًا من أن يحدث ما لا يحمد عقباه من السوادنيين أنفسهم . من ذلك ما حـدث من تذمر الأهالى لعدم وجود الرقيق فى الأسواق ، عندما منع تسيير الغزوات لصيد الرقيق فى سنار(٦٩) وكانت بريطانيا فى تلك الفترة ، وخاصة فى الثلاثينـات من ذلك القرن فما بعدها ، تحمل راية محاربة الرق فى طول الكـرة الأرضيـة وعرضهـا وخاصة فى القارة الأفريقية . ولم يكن ذلك بدوافع إنسانية أو أخلاقية بقدر ما هو وسيلة لتحقيق أغراض مصلحية وسياسية(٧٠) .

كذلك كان لبعض الدول الأوربية تاريخ فى تجـارة الرقيـق الأفريقـى ، فقـد أخذ البرتغاليون يمارسون تلك التجـارة منـذ عـام ١٤٤٢م ولم يتقصـر الأمـر علـى تزويد الدول الأوربية بالرقيق الأسود(٧١) بل كانوا يزودون به أسـبانيا للعمـل فـى العالم الجديد(٧٢) .

ويقول كل من (GOHNSTON) و(COUPLAND) أن التجار العرب هم الذين فتحوا أبواب تجارة الرقيق ، لكنهم - أى هؤلاء - لا ينكرون فى الوقت نفسه ، أن هــذه التجارة صـارت تمارس على نطاق واسع على أيدى البرتغاليين

وغيرهم من التجار الأوربيين الذين اندفعوا إلى القارة الأفريقية واستطاعوا عن طريق إمكاناتهم المادية والعسكرية ، أن ينخرطوا فى ذلك الميدان ويحققوا الأرباح الكثيرة(٧٣) .

وقد اشترك الإنجليز فى تجارة الرقيق منذ عام ١٥٦٢م فى عهد الملكة اليزابث عندما كون جون هاوكنز فى لندن شركة للاتجار مع غرب أفريقيا لنقل الرقيق إلى المستعمرات البريطانية فى أمريكا(٧٤) .

و لم يأت القرن الثامن عشر حتى كانت الحكومة البريطانية من أكبر تجار الرقيق فى العالم ، فلم يقتصر دورها على نقل السود من أفريقيا إلى جزر الهند الغربية بل نشطت السفن البريطانية(٧٥) فى نقل الرقيق من أفريقية إلى خارج القارة(٧٦) .

وعندما تغيرت الظروف الاقتصادية والسياسية فى أوربا نفسها ، نادى بعض الأفراد والجماعات بإلغاء تجارة الرقيق ، بدعوى أنها تخالف المبادئ الإنسانية. والواقع أن السبب الهام لتبنى إنجلترا الدعوة لمنع تجارة الرقيق فى السودان بوجه خاص ، هو أن إنجلترا كانت ترقب بعين الاهتمام ، ما كان يجرى فى السودان ، بعد أن مد محمد على التنظيمات الحديثة إليه ، والتى وصلت إلى جانكير فى الجنوب ، وفى الشرق إلى ساحل البحر الأحمر الغربى . وعندئذ أحست بريطانيا بالخطر الذى من الممكن أن يهدد مصالحها فى تلك المنطقة ، خاصة بعد أن بسط محمد على سيطرته على جنوب الجزيرة العربية وأشرف على سواحل البحر الأحمر ، فأحست بريطانيا أن ذلك البحر خرج من قبضتها . وكانت شركة الهند البريطانية قد نشطت فى تعاملها التجارى مع شعوب تلك المنطقة – فأخذت تعمل حسابًا لإزدياد سيطرة محمد على بل وتحول البحر الأحمر إلى ما يشبه البحيرة المصرية(٧٧) . هذا إلى أن إنجلترا كانت أساسًا لا ترتاح لمحمد على ، بسبب مشروعاته الطموحة من حيث تكوين الجيش واحتكاره التجارة

واتجاهه نحو الصناعة التى ربما تتطور وتنافس الصادرات البريطانية فى مصر وفى الولايات العثمانية الآخرى . يضاف إلى ذلك تقاربه من الفرنسيين ، وتشجيعهم لمشاريعه المختلفة(٧٨) . لذلك إتخذت إنجلترا من مسألة تحريم تجارة الرقيق فى السودان ، تكأة للضغط على محمد على . وليكن الأمر أولاً ، بمثابة جس نبض حتى تشرع فى تنفيذ مخططها نحوه ، طبقًا لمدى تجاوبه فى هذه المسألة . ومن ثم فقد راقبت تصرفات محمد على ، وأخذت تقف له بالمرصاد وتسعى لتأليب الدول الأوربية ضده ، بل والعمل على تحطيم طموحه وتجميد نشاطه الممثل فى سياسته التوسعية واحتكاراته التجارية ، فوجهت إليه فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٧٣م الكولونيل كامبل قنصلها العام فى مصر والدكتور جون بورنج لمقابلة الباشا والتحدث إليه فى هذا الشأن ، وطلبا من الباشا أن " يبادر على الفور بإبطال صيد الرقيق في الجنوب من تلقاء نفسه قبل أن يطلبا ذلك منه بطريقة رسمية "(٧٩) وقدما مقترحات لوضع حد لهذه التجارة غير الإنسانية . واقترحت البعثة الامتناع عن دفع رواتب الموظفين والضباط والجنود رقيقًا ، الأمر الذى سيؤدى إلى توقف حملات الحكومة لصيده . كذلك منع الموظفين والمسؤولين فى السودان من الاشتراك فى هذه التجارة . وتخفيف حدة الاحتكار الحكومى فى المواد الأخرى ، وإطلاق حرية التجارة فى الجنوب(٨٠) وبالرغم من عدم إقتناع محمد على بإبطال تجارة الرقيق(٨١) ، إلا أنه اضطر تحت ضغط بريطانيا بوعد الرسولين بالعمل فى خطوات وئيدة لإلغائها، إذ أنه لا يمكن القضاء عليها قضاء مبرما مرة واحدة(٨٢).

ولم تغب عن محمد على مغزى هذه المقابلة وما تنطوى عليها من أبعاد ، لذلك كان رده عليهما حاسمًا وقاطعًا ، حيث قال " إنه لم يكن متأخرًا لدى أى من الجنود مبلغ يوازى ثمن عبد "(٨٣) وأنه يعرف أن ضباطه يتاجرون فى الرقيق ، وهو أمر لا يوافق عليه ، لأنه يكره هذه التجارة ويعتبر نفسه سعيدًا إذا تمكن من إلغائها(٨٤) . ثم بادر بالكتابة إلى خورشيد باشا " حكمدار السودان نفسه " فى

مساء اليوم نفسه(٨٥) الذى تمت فيه المقابلة بينه وبين يونج وكاميل يأمره بإبطال هذه التجارة أى تجارة الرقيق . وجاء فى الرسالة التى وجهها إلى خورشيد باشا بتاريخ أول ديسمبر عام ١٨٣٧م " إذا كان هذا الأمر صحيحًا ، فليكن معلومًا لديكم أنه مخالف لرغباتى ، ولهذا أمركم أن تكفوا فى المستقبل عن إعطاء العبيد إلى الضباط والجنود وغيرهم من الموظفين لقاء مرتباتهم " . ولعل الباشا قد ضحى كل هذه التضحية حرصًا منه على حسن العلاقات مع إنجلترا ، إذ قال لخورشيد : " ... ولما كان واضحًا استهجان هذا النظام لدى الدول المشار إليها ، فقد وجب إلغاؤه مراعاة لما استحكم بيننا وبين هذه الدولة من روابط الصداقة المتينة "(٨٦) وأضاف قائلاً " ... يجب عليك أن تعلم أنى لا أريد ربحًا من تجارة لا تشرفنى ، وإنى على استعداد لبذل كل تضحية إذا تطلب إلغاء هذه التجارة تضحيات منى " وأرسل صورة من تلك الرسالة إلى الكولونيل كامبل ليعلمه بذلك . وأرى أن إفادة كامبل بتلك الرسالة ، كانت بمثابة قطع خط الرجعة على الحكومة الإنجليزية ، ودليلاً على أن محمد على لم يعد يتاجر فى الرقيق ولا يرغب فى أن يتاجر فيه رجاله الممثلون له فى السودان ، وأنه ليس أقل من هؤلاء الأوربيين الذين ينادون بتحريم الرق ، إن لم يكن أكثر منهم وعيًا وحكمة بخصوص هذه القضية .

وفى أثناء زيارة محمد على للسودان فى ٤ ديسمبر ١٨٣٨م إتخذ بعض الخطوات حيث أصدر وهو بالخرطوم " الأوامر الرسمية بإبطال صيد الرقيق ، وأذاع المنشورات بين الأهالى والجلابين يوضح لهم جميعًا أن الجيش والمدفعية التى تتقدم فى بلادهم لا تحمل إلى قراهم وأكواخهم سوى السلام والسكينة "(٨٧) .

كذلك أصدر تعليماته بتحريم الحملات ومنع دفع الرواتب من الرقيق . وأرسلت صورة من هذه الأوامر إلى قواد الجيش ليتوقفوا عن جمعه . وفى يناير سنة ١٨٣٩م أطلق الباشا سراح خمسمائة من الزنوج الأرقاء وتم إرسالهم إلى بلادهم . وصدرت الأوامر بأن تختصر الغزوات على إخضاع الخارجين عن

سلطان الحكومة وتأديب العصاة فقط وأن لا يتعرض الجنود إطلاقًا لأسر الرقيق(٨٨) .

ولا يعنى هذا أن خطر تجارة الرقيق قد قل بل إنها فى الواقع اشتدت وإتسع نطاقها بعد فتح النيل الأبيض للملاحة على أثر رحلات سليم قبودان ، إذ زاد عدد التجار المشتغلين بها وتوغلت حملاتهم جنوبًا فى مناطق الرقيق ، كما أن الحكمداريين أنفسهم استمروا - بالرغم من أوامر محمد على بإيقاف الغزو - فى إرسال الغزوات لاصطياد الرقيق ، إما لحسابهم الخاص أو لسد نفقات الحكومة والإدارة فى السودان(٨٩) .

والواقع أن منع تجارة الرقيق والقضاء على هذه المشكلة لم يكن أمرًا سهلاً يتم عن طريق إصدار الأوامر والمنشورات . فالرقيق فى السودان كما صرح بورنج، يكوّن جزءًا من النظم الاجتماعية والاقتصادية كنسيج متشابك فى كل من السودان ومصر ، بحيث أصبح الأمر يحتاج إلى تحركات كبيرة للقضاء على تجارته أكبر من تلك المنشورات التى أصدرها محمد على(٩٠) لذلك نرى أن تدخل بريطانيا ، كان من باب الوقوف فى وجه محمد على والحد من سياسته التوسعية واحتكاراته التجارية(٩١) . وكانت خطة محمد على أن يتم إلغاء تجارة الرقيق رويدًا رويدًا ، حيث أن هذا هو الطريق الوحيد الذى يمكن بفضله - كما قال - الوصول إلى هذه الغاية المنشودة . والسبب فى ذلك هو أن ما ألفه شعبه من عادات وما درج عليه فى هذه الأمور ، من شأنه أن يضع عقبات كثيرة فى سبيلة من العسير تذليلها إذا هو اعتزام إلغاء تجارة الرقيق دفعة واحدة(٩٢) .

وكان من أثر الإجراءات التى إتخذها محمد على إبطال الرق وتجارته فى السودان أن أوفدت جمعية إلغاء الرق بلندن " ريتشارد مادن " إلى مصر فى عام ١٨٤٠م ، يحمل إلى محمد على شكر الجمعية وإرتياحها لما أصدره من أوامر أبان زيارته للسودان ، فقابل مادن وبصحبته القنصل الإنجليزى Hodges هودجس محمد

على . وفى أثناء المقابلة قال محمد على " يعظم سرورى إذ ألغيت الرق إلغاء تامًا ، ولكن من الواجب على الإنسان أن يهيئ للشعب قبل ذلك وسائل التربية والتعليم، لأن مسألة الرق فى هذه البلاد من أشق المسائل وأشدها صعوبة على خلاف الحال فى بلادكم ... ذلك أن الناس إعتادوا أن يستخدموا الرقيق لدرجة أنه إذا امتنع وجود الرقيق بالأسواق ، بادروا بالشكوى ، على نحو ما فعلوا سابقًا عندما منعت جنودى من تسيير الغزوات لصيد الرقيق فى سنار ، ومن العسير على الإنسان أن يجعل من هؤلاء السود شعبًا متمدنًا فى بلاده وأن يعودهم العيش وفق أساليب الحياة التى نأخذ بها . لقد حاولت أن أصنع منهم جنودًا منذ سنوات مضت ، ولكنهم صاروا يموتون فى مصر وفى غيرها من الجهات التى أرسلوا إليها . ولم يبق منهم لدى سوى ثلاثمائة أو أربعمائة فحسب . وفضلاً عن ذلك فإنى لا أسمح لشعبى بأن يجهز الحملات لصيد الرقيق وجلب عبيد آخرين(٩٣) .

وهكذا مضى محمد على فى طريقه للتخلص من نظام الرق فى السودان ، ولكن ليس بالطريقة التى أرادها الأوربيون ، فكانت خطته تختلف عن خطط تلك الدول . فبينما كان يعمل على النهوض بالسودان ، كانت الدول الأوربية ، خاصة بريطانيا كما أثبتت الأحداث ، تتخذ من مسألة القضاء ستارًا للتدخل والإستعمار، كما حدث فى تدخل بريطانيا فى شئون سلطان زنجبار ، وتدخلها فى شئون الجهات الخاضعة للإدارة المصرية فى السيطرة على الملاحة فى البحر الأحمر بحجة تفتيش السفن التى تشتبه فى أنها تنقل الرقيق(٩٤) .

وعلى هذا ، إذا كانت تلك هى أغراض إنجلترا من محاربة تجارة الرقيق ، فإن محمد على إتخذ من تلك المسألة وسيلة يغير من تركيبة المجتمع السودانى أولاً ، وأن يعطيه الفرصة ليكيف نفسه مع الزمن لهذا الإجراء ، على أن يترك المشكلة لتحل نفسها بنفسها ، بما يدخله على المجتمع من تغير فى سلوكه اليومى عن طريق البدائل التى أوجدها هناك .

وتشير الوثائق الأصلية ، إلى أنه بعد فشل تجربة استخدام الرقيق ، لم يتشدد محمد على مع حكام السودان فى طلبهم ، بل رأى أن تضاعف الجهود للنهوض بالسودان . ولعل فى تعليماته لخورشيد باشا ، ما يدل على ذلك ، إذ ذكر له فى قرار التعيين ، أن المطلوب منه هو تعمير الأراضى فى سنار وما حولها ورفاهية سكانها وراحتهم . وأرسل له ثمانية من كبار العلماء ومائة وأربعين مساعدًا له فى تعمير البلاد وتقدمها ، وأمره بأن ينفذ ما يراه صالحًا للسكان ، دون الرجوع إليه إلا فى المسائل الهامة(٩٥) .

والواقع أنه عندما استقرت الأوضاع فى السودان ونظمت شئونه لم يأل محمد على جهدًا فى سبيل نهضته المادية ، تمامًا كما فعل بالنسبة لمصر فكان يرسل أوامره من حين لآخر بضرورة تنظيم الأوامر واستغلال موارد البلاد الطبيعية ، وإنزال العقاب بأى مسئول يتهاون فى أداء عمله(٩٦) .

لذلك يمكن القول أن الإدارة المصرية فى السودان نجحت إلى حد كبير فى تنفيذ أوامر حاكم مصر ، وأوجدت الكثير من البدائل لتغير نمط المجتمع السودانى(٩٧) . هذا وقد شملت خطة النهوض بالبلاد كل المجالات ، حتى تكون الدفعة بالمجتمع إلى التقدم متوازنة ، ولا يحدث خلل فى زاوية منها ، وبذلك تتمكن الإدارة من المحافظة على عدم إنهيار المجتمع من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والأمنية . وقد شهد على استتباب الأمن ، العلماء والرحالة الأجانب الذين زاروا السودان فى عهد محمد على ، أمثال هوسنكس وهولوريد وبالم والمستر كامبل وغيرهم من الجنسيات الأوربية ، الذين أشادوا باستقرار الأمن ، ونشر ألوية الحضارة فى ربوع السودان(٩٨) .

وقد ترتب على استتاب الأمن فى السودان ، تغيرات اجتماعية وسياسية ، لعل أهمها استقرار الفرد السودانى بجوار عمله فى المزرعة أو المصنع . وهذا أدى

بدوره إلى التقليل من ترحالهم الذى كانت تشوبة فى بعض الأحيـان ، الكثير مـن الأنشطة التجارية غير المشروعة .

ولم تقتصر جهود محمد على على الحد من تجارة الرقيق ، بل كـانت خطته تستهدف تغيير التركيـة الاجتماعية ، وذلك بفتح الورش والمعامل الصناعية وتدريب السودانيين فيها على الصناعات المختلفة ، التى أمر محمد على بإدخالها هناك ، ليتمكن السودانيون من الاعتماد على أنفسهم(٩٩) .

وكان أن أخذت الأنظار تتجه إلى الإستفادة من موارد البلاد وتحويلها إلى سلع وصناعات يستفاد بها ، بعد أن كانت - كمادة خام - ترمى على الأرض وتضيع هباء منثورًا . وبذلك يستفيد السودانيون ماديًا لرفع مستواهم المعيشى ويتعلمون بعض الحرف الصناعية الجديدة لتمتص جزءًا آخر من وقتهم الذى كانت تشغله التجارة المشروعة وغير المشروعة ، وتجذب البعض الآخر منهم لكونه عملاً جديدًا - ومن ثم تتسع العمالة المثمرة . وبالتالى يقل الاعتماد على الرقيق ، ويصبح أكثر تهيؤًا لتقبل التطورات الاقتصادية والسياسية التى تهدف إلى التخلص من نظام الرق . لذلك أراد محمد على أن يحدث - إن جاز لنا ذلك التعبير - إنقلابًا صناعيًا فى السودان ، بالقياس إلى تلك الصناعة البدائية التى كانت تقتصر على إنتاج سلع بسيطة وضرورية تقوم على غلات نباتية ومنتجات حيوانية ، فأمر بإرسال الخبراء والصناع المصريين وإعارة الفنيين من بعض الدول الأوربية ، لينشئ الصناعات فى السودان ، مثل ما حدث فى مصر لمضاعفة الدخل القومى فى تلك البلاد ، وليكون بديلاً - بصفة خاصة - عن الأرباح العائدة من تجارة الرقيق(١٠٠) وكان أن أقامت الإدارة المصرية ترسانة ضخمة فى الخرطوم ، وألتحق بها كثير من أبناء السودان للعمل والتعليم ، وكان من إنتاج تلك الورش - التى كانت بحق مركزًا للتدريب - العديد من السفن التى استخدمت فى البعثات الثلاث لمهمة البكباشى المصرى سليم قبطان الإستكشافية فى النيل

الأبيض. كذلك أرسلت مصر النجارين والبنائين والغواصين إلى السودان لحفر الآبار وصناعة السواقى ، ليتعلم الأهالى تلك الصناعات من جهة ، ولتوفير المياه لزراعة الأرض ، وذلك لرفع المستوى الاقتصادى من جهة أخرى .

وأنشأت الإدارة المصرية هناك ، العديد من المراكز لدباغة الجلود ، وذلك للاستفادة من جلود الحيوانات ، وليتدرب الأهالى على تلك الصناعة الجديدة(١٠١) ومن ثم فإن الإدارة المصرية فى السودان ، لم تدخر وسعًا فى فتح الورش وإنشاء المصانع ، لتدريب السوادنيين وتعليمهم الحرف المهنية ، وتشجيعهم على الإقبال عليها بكافة السبل ، بجانب رواتب مالية لهم . لذلك استوعبت المصانع الجديدة، التى كثيرًا ما كانت تلحق بها الورش ، العديد من أبناء السودان، للعمل والتدريب فيها . واشتهرت بعض المدن كمراكز للصناعة ، مثل مدينة الكاملين على النيل الأزرق ، حيث وجدت مصانع الصابون والسكر والنيلة .

والواقع أن هذه جهود طيبة ، فكان محمد على ، يرى أن هذه الإجراءات تعتبر علاجًا فعالاً للمجتمع السودانى ، ليخلصه من نظام الرق المزمن فى البلاد . وكان هدفه من وراء ذلك،هو أن ينصب اهتمام الفرد السودانى علىالعمل المنتج ، بدلاً من الاعتماد على الرقيق،وأن يتعود على أن يعمل بنفسه ، وبذلك يقل الإقبال على شراء العبيد واقتنائهم لقلة الحاجة إليهم ، ويتم القضاء على الرقيق السودان .

لقد كانت هذه الخطة فى حد ذاتها ، خطة عظيمة وطيبة ، بدلاً من خطط الدول الأوربية ، التى تقوم على المنع القهرى لمحاربة التجارة فى الرقيق(١٠٢) هذا إلى أن جهود محمد على فى السودان ، خففت إلى حد كبير ، من انتشار تجارة الرقيق ، وإن لم يتمكن من القضاء عليها كلية ، نظرًا لقصر مدة حكم محمد على فى تلك البلاد ، بالقياس إلى تاريخ نظام الرق فى السودان الذى يعود إلى قرون عديدة سابقة . وبالإضافة إلى كل ذلك ، هناك عوامل أخرى ساعدت على استمرار تلك التجارة – وإن كانت بشكل ضعيف – ولعل أهمها ما يلى :

١ - عدم قدرة الحكومة علـى مراقبـة التجـار - مـن عـرب وأجـانب - لإتسـاع أرجاء السودان وكثرة نوافذه ، رغم مراقبة البحار وتفتيش السفن .

٢ - كان الهدف من فتح النيل الأبيض ، تسيير الملاحة الحرة وتشجيع التجارة مـع الزنوج ، ولكن سرعان ما تحول التجار إلى ممارسة صيد الرقيق لأنه أكثر ربحًا.

٣ - بعض حكام السودان الجشعين ، لم ينفذوا أوامر محمد علـى الخاصـة بتحريـم تلك التجارة ، نظرًا لما تدره عليهم من فوائد شخصية .

٤ - تدخل رؤوس الأموال الأجنبية فى التجارة ، الأمر الذى ترتب عليه أن اتسـع النشاط ، وبالتالى تنوعت الأساليب والأسلحة المستخدمة .

٥ - وجود بعض الأقاليم مثل دار فور ، لم تكن قد خضعـت للحكـم المصـرى - بعد - استمرت من أهم وأكبر مستودعات الرقيق(١٠٣) .

ويعتبر عهد كل من عباس وسعيد مرحلة حاسمة فى تاريخ الرق وتجارته فـى السودان ، إذ بلغت فى قوتها حدًا خطيرًا مكـن تجـاره مـن مزاولـة نشـاطهم علـى أوسع نطاق ، وأصبحت لهم تشيكلاتهم الخاصة التى استمدوا عـن طريقهـا نفـوذًا واسعًا وسيطرة كاملة . وقد تركز مسرح عملياتهم فى النيل الأبيض وروافد النيـل العليا(١٠٤) وكان للنهج السياسى الذى صـار عليه عبـاس صـداه فـى السـودان . ولنجاح تجار العاج والرقيق - أوربيين وعرب - فـى تحطيـم احتكـار التجـارة فـى النيل الأبيض وانتشارهم فى أعالى النيل تحت حماية أعلام دولهم ، أثره فى نمو هـذه التجارة الشائنة(١٠٥) وكان أن إختار الوالى طريق الجمود والتزمت بعـد محـاولات الباب العالى الانتقاص من اختصاصات الوالى وسعى القناصل فى التدخل فى شئون حكومته . وكان كثير الشك فى كـل مـن حولـه إلى حـد أنـه عـارض كـل تغيير وتمسك بالوضع الرتيب فرضته إتفاقيـة لنـدن ١٨٤٠ - ١٨٤١(١٠٦) وانعكسـت هذه الحالة على السودان الذى لم يلق من الوالى أى اهتمام إلا بالقدر الذى يضمـن

له استمرار استغلاله ، فـى الوقـت الـذى أخـذ القنـاصل يتمتعـون كزملائهـم فـى القاهرة بنفوذ كبير. وقد أدى ذلك إلى تسرب الضعف للسلطة فى الخرطوم(١٠٧)، فى الوقت الذى أدى التدخل القنصلى إلى نمو تجـارة الرقيـق وازدهارهـا خصوصًـا بعد أن نجحوا فى فتح النيل الأبيض للتجـارة الحـرة أمـام تجـارة العـاج(١٠٨) وفـى الوقت نفسه كانت السلطات الحاكمة غير مستعدة للتنازل عن ذلك المصدر الـذى كان يدر دخلاً كبيرًا فى الماضى ويساهم فى تغطية نفقات الحكـم فـى السـودان ، وخصوصًا أن الباشا نظر إلى السودان علـى أنـه منحـة يجـب إستغلالها ، وضمـان المحافظة عليها(١٠٩) وقد انتقلت هذه النظرة إلى حكام السودان الذيـن عملـوا فـى هذه الفترة على تحقيق ربح شخصى عـاجل ، بعـد أن نظـر عبـاس إلى هـذه البـلاد على أنها منفى للمغضوب عليهم ولكل من يشك فى اخلاصهـم . ولذلـك عمـل هؤلاء على استغلال موارد السودان أسوأ استغلال خصوصًا وأن خوف الباشا مـن استقلالهم كان يدفعه إلى تغييرهم بحيث تولى فـى تلـك الفـترة مـن حكمـه حـوالى خمسة حكام ، هم خـالد باشـا ١٨٤٥ / ١٨٤٦م وعبـد اللطيـف باشـا ١٨٤٦ / ١٨٥٢ ، ورستـم باشـا ١٨٥٢ ، وإسمـاعيل حـاكى باشـا ١٨٥٢ / ١٨٥٣ ، وإسماعيل باشا الجزايرلى ١٨٥٣ / ١٨٥٤(١١٠) لذلك كان على السودان أن يفى بهذه الالتزامات المالية سواء للخزينة المصرية أو لإشباع أطماع هؤلاء الحكام الذين تبعهم صغار الحكام فى الأقاليم بالإضافة إلى تحمله نفقات الحكـم . وكـان الرقيـق يلعب دورًا كبيرًا فى مصادر الدخل فى السودان التى تمثلت فى الضرائـب ورسـوم احتكار التجارة وحملات صيد الرقيق(١١١) ففى تلك الفترة قاسى السودان إسـرافًا كبيرًا فى فرض الضرائب إلى حد إبتزاز المـال مـن الأشـخاص ، حتـى بلغـت سـتة جنيهات سـنويًا علـى الفـرد ، وأصبـح الشـيوخ ورؤسـاء القبـائل(١١٢) مسئولين مسئولية مباشرة عن جمع الضرائب مـن مواطنيهـم . كذلـك فـرض عليهـم تقديـم أعداد من الزنوج لتجنيدهم فى الجيش . وكثيرًا ما كان يفشل الرؤسـاء والشيـوخ فى دفع التزاماتهم نظرًا لهروب المواطنين من الضرائب الباهظة إلى المناطق الجبليـة ،

بعيدًا عن سلطة الحكومة . وكان ينظر إلى هذه العجز على أنه تمـرد(١١٣) ، ومـن ثم يرسل الحكام حملاتهم لغرض ظـاهرى هـو القضـاء علـى هـذا التمـرد وتـأديب هؤلاء الرؤساء ، وفى الحقيقة لاصطياد الرقيق ومصادرة الماشية ، الأمر الذى كـان يدر أرباحًا كبيرة للحكام(١١٤) كذلك فقد أقلع عباس عن سياسة حريـة التجـارة التى كان قد سمح بها فى بداية حكمه عام ١٨٥٠م فى محاولة لزيادة الدخل وعـاد إلى تطبيق الاحتكار الذى رحـب بـه الحكـام وتطرفـوا فـى تطبيقـه تحقيقًـا لأربـاح شخصية . وتحت هذه الظروف أصبحت التجارة فى الرقيق أوفر ممـا كـانت عليـه فى عهد جده محمد على(١١٥) .

وفى عام ١٨٥٤م كان العاج يمثل الباعث الأكـبر الـذى جـذب التجـار إلى الخرطوم ، حيث كافحوا بنجاح للمحافظة على حرية التجارة فى النيـل الأبيـض . وفى نفس الوقت بدأت تجارة الرقيق تخيم على هذه الأرض الجديدة(١١٦) بحيث لم يكد ينتهى عام ١٨٥٤م حتى كان تجار العاج قد تحول الكثير منهم إلى تجار رقيق. ولتفصيل ذلك نقول أنه حدث بعد فتح النيل الأبيض للملاحـة والتجـارة أن وجـد تجار الخرطوم فى العاج حقلاً كبيرًا صالحًا لهذه التجارة ، ووجدوا فى صيـد الفيلـة فى مناطق النيل الأبيض وبحر الغزال والسوباط عمـلاً مربحًا . وقـد أغـرى التجـار الأثمان المرتفعة للعاج لتنظيم رحلات لصيد لفيلة ، وكان طبيعيًا مـع مـرور الوقـت أن يتناقص عدد الفيلة وبالتالى يتناقص احتياطى الثروة فى هذه الجهات . ولم يكـن فى استطاعة التجار أن يتحملـوا فـى المستقبل النفقـات الكبـيرة لهـذه الرحـلات . ولكى يتحاشى التجار هذه الخسائر لجأوا إلى الأشتغال بالرق(١١٧) ، وذلـك عـن طريق السماح لعملائهم بأن يصطادوا الرقيق كجزء من رواتبهـم . وكـان الرقيـق يجد طريقة للخرطوم بدون عائق(١١٨) . وعنمـا نـدر العـاج وجـد تجـاره أنـه مـن الأربح لهم اصطياد الرقيق بدلاً من اصطياد الفيلة ، وهكذا صـار واضحًـا أنـه منـذ عام ١٨٥٥م اندفع صيادو الرقيق فى شراسة نحو الغزال والنيل الأبيض(١١٩) .

وكان تجار الرقيق قادرين على الحصول على تأييد ومساعدة القناصل الأوربيين الذين لم ينجوا من الشبهات(١٢٠) ، حتى إن هذه التهم وجهت إلى رجال مثل جون بيترك القنصل البريطاني . وكلما ازداد نشاط تجار الرقيق كانت السلطات في الخرطوم تعاني نقصًا في السلطة والنفوذ ، حتى أصبح نفوذهم في نهاية هذه الفترة وعند وفاة عباس لا يتعدى سلطة الخرطوم ومدينة الرصيرص على النيل الأزرق وتشلجة(١٢١) ، أما ما وراء ذلك من بلاد فكانت خارجة عن السلطة . وكان المواطنون متحررين من سلطة الحكومة . وفي نفس الوقت شعر الحكام في المناطق البعيدة مثل منطقة كردفان بحرية التصرف والعمل دون تدخل من جانب السلطة في الخرطوم .

وعندما تولى سعيد باشا الحكم بعد عباس اصدر سنة ١٨٥٦م منشورًا لتحرير الرق ومنحهم حريتهم كاملة في مصر ، مع توفير العمل لمن يترك خدمة أسياده(١٢٢) . وفي محاولة لإيقاف إمدادات الرق من السودان أصدر أوامره بتعيين أخيه حلمي باشا حاكمًا على السودان ، وعهد إليه القيام بالاصلاحات التي تحقق مصلحة السودانيين ، والقضاء على أسباب الشكوى والتذمر(١٢٣) . وصدرت التعليمات بأن يرسل حاميات للقيام بدوريات منتظمة في النيل الأبيض . وقد قام حلمي باشا بإنشاء سلسلة من المحطات العسكرية(١٢٤) التي توغلت جنوبًا حتى التقاء السوباط بالنيل الأبيض . وكانت هذه المحطات ذات غرض مزدوج فهي تحمي التجار من هجمات الزنوج وكذلك تشرف على أوجه نشاطهم في الأقاليم البعيدة(١٢٥) .

كذلك ألغى احتكار التجارة في محاولة لتشجيع التجارة المشروعة ، وألغى الضرائب التي كانت تفرض على المشتريات من السودان(١٢٦) ، وبذلت محاولات لتحسين وسائل المواصلات في السودان . وفي نهاية سنة ١٨٥٦م ، قرر سعيد زيارة السودان . وقد تعددت الأسباب وراء هذه الزيارة ، من بينها محاولة حل

مشكلة الرقيق التى كانت تقلقه ، لا سيما بعد أن وافقت تركيا بعد مساعى بريطانيا على منع هذه التجارة فى ممتلكاتها ، وأبدى الباب العالى رغبته فى أن يرى الوالى وقد نجح فى استئصال هذه التجارة فى ممتلكاته . بذلك تلاقت وجهات نظر سعيد مع الباب العالى فى وضع حد لهذه التجارة .

وفى الخرطوم أصدر سعيد أوامره بمنع الاتجار فى الرقيق ، وكذلك إيقاف رواتب الجند والموظفين بالرقيق مهما كانت الأحوال ، وحرم تقديم الرقيق كجزء من الضرائب . وفى ٢٧ يناير سنة ١٨٥٧م أصدر أربع منشورات تتعلق كلها بتنظيم وجباته الضرائب . وتوقفت حملات الحكومة الصيادة للرقيق إلا فى أقصى حالات الضرورة التى تحتمها امتناع الأهالى عن دفع الضرائب وتكون الحكومة مضطرة لذلك(١٢٧) .

ولكن هذه الثورة من القرارات والمنشورات لم تؤد إلى نتيجة ، وعادت تجارة الرقيق وازدادت عملياتها واشترك المسؤلون فى ذلك . ويعتبر سعيد المسؤول عن فشل هذه الاصلاحات إذ أضفى على جمع الرقيق صفة رسمية عندما كون حرسًا خاصًا من الزنوج فى سنة ١٨٥٩م . وطبقًا لذلك أرسل لحكامه فى السودان يطلب الرقيق ، وبالتالى عادت طلبات استيراد الرقيق مرة ثانية . وتحرك تجار مصر والجلابة وإتخذوا التنظيمات مع تجار العاج لإرسال هؤلاء الزنوج طبقًا لطلبات الباشا(١٢٨) ، ونتيجة لذلك أصبح هناك حافز قوى لمزاولة اصطياد الرقيق من مناطق النيل الأبيض وأعالى النيل ، وهكذا زال آخر قيد رسمى على مزاولة نشاطهم من قبل الباشا نفسه . وكان أن عادت الحكومة ترسل حملاتها لصيد الرقيق والتعامل به فى دفع رواتب الجند والموظفين وتحقيق الربح لهم ، وكذلك إرغام الرؤساء على تقديم أعداد منه كضريبة(١٢٩) . وكما حدث فى عهد عباس أدت تجارة العاج إلى مزاولة صيد الرقيق حتى إذا انتهت هذه الفترة كان تجار العاج قد تحولوا إلى تجار للرقيق . ومن هاجر من هذه المناطق باع منشآته لتجار الرقيق الذين إحتلوا تلك المناطق الشاسعة التى كانت مسرحًا لعمليات صيد الفيلة والبحث عن العاج(١٣٠) .

* * *

ولكى تتضح مدى الصلة بين تجارة العاج والرقيق وكيف مهدت هذه التجارة واسعة النطاق لتجار الرقيق صار من الأفضل أن أتناول هذا الموضوع فى هذه الفترة بشئ من التفصيل حتى تتضح معالم المشكلة التى واجهت إسماعيل باشا فيما بعد .

أخذ التجار فى تكوين شركات تجارية للتجارة فى النيل الأبيض وأعالى النيل . وكانت هذه الشركات تساوم السلطات فى الخرطوم للحصول على حق التجارة فى منطقة معينة(١٣١) . وإذا ما حصلت على هذا الحق أصبحت تحتكر مصادر الثروة فى هذه المنطقة وتستغلها بما يحقق لها أكبر قدر من الربح دون تدخل من سلطات الخرطوم . وامتدت هذه الحقوق حتى شملت أصقاعًا شاسعة جنوبى دار فور وفى كردفان وعلى طول النيل الأبيض حتى غندو كرو . وتقوم هذه الشركات بإرسال وكلائها لاستغلال هذه المناطق(١٣٢) وقد بدأت هذه التجارة هادئة وبالطرق السليمة مع الأهالى ولكن سرعان ما تخلى التجار عن هذه الطرق ولجأوا إلى استخدام القوة للحصول على ربح سريع(١٣٣) . وقد أدى ذلك إلى تكوين جماعات مسلحة تابعة لهم ونقط عسكرية تعتبر بمثابة مستودعات للمؤن والذخائر وتجمعات لبضاعتهم ، مما عاد عليهم بالأرباح الهائلة(١٣٤) .

وأدى هذا النجاح إلى احتلال مناطق فسيحة شملت عدة آلاف من الأميال المربعة . وهذه المساحات فرض عليها تجار العاج والرقيق حمايتهم عن طريق عدد من الزرائب الرئيسية التى كان يتبعها عدد أصغر منها . وقد سيطر على هذه الجهات ما يقرب من ستة شركات كبيرة وبلغت عدد الزرائب أكثر من ثمانين زريبة ، يسيطر عليها حوالى اثنى عشر من كبار التجار وأتباعهم من القواد(١٣٥). وأدى ذلك إلى خروج كل حوض النيل وأجزاء النيل العليا من سلطة الخرطوم . ونستطيع أن نقول أن هذه الفترة قد أفضت إلى حقيقتين :

الأولى : تمتع تجار الرقيق بنفوذ وسلطة لم يصلوا إليها قبل ذلك فى السودان بحيث أصبحوا فى مناطق نفوذهم كحكام .

الثانية : أن إخضاع هؤلاء التجار واستئصال شأفة هذه التجارة من السودان صار يتطلب فتح جديد لهذه الأقاليم . وهذه الوسيلة فرضت نفسها على إسماعيل دون أن يكون هناك مجال لاختيار غيرها . وأتفقت كلمة المعاصرين على أن حكومة مصر وحدها هى التى تستطيع أن تفعل ذلك ويقتضيها الواجب أن تدخل فى حوذتها جهات النيل العليا وتبسط عليها سلطاتها . ووقع عبء ذلك كله على عاتق إسماعيل باشا . والواقع أن تولية إسماعيل حاكمًا على مصر يعتبر بداية جديدة فى تاريخ السودان ، ففى أثناء حكمه إتخذت خطوات حاسمة لمحاربة تجار الرقيق والقضاء عليهم . وقد سلطت الأضواء على هذه المشكلة فى السودان من قبل الرحالة أمثال " سبيك وجرانت " بولوجنس " و" هوجلين " الذين جابوا هذه البلاد فى نهاية حكم سعيد والسنوات الأولى من حكم إسماعيل(١٣٦) .

فعن طريق كتابات هؤلاء الرحالة والمستكشفين نسطيع أن نكشف النقاب عن قصة الأعمال الوحشية التى ارتكبت ضد قبائل هذه الجهات على أيدى هؤلاء التجار الذين زاولوا سلطاتهم ونفوذهم من عدد من الزرائب التى أصبحت قلاعًا لتجار الرقيق والتى أجبر الأهالى على إنشائها وأرغموا على تزويدها بما تحتاجه من حبوب وماشيه . وعن طريقها استطاع هؤلاء التجار أن يحكموا مساحات شاسعة من هذه الأقاليم من أعالى النيل ، والتى لم تظهر فيها أية سلطة لحكومة الخرطوم(١٣٧) ، حتى أن حامياتها الموجودة عند إلتقاء النيل الأبيض والسوباط والتى كان عليها القيام بدوريات تفتيشية أصبحت لا أثر لوجودها(١٣٨) .

وقد قدمت كتاباتهم وتقاريرهم صورة واضحة لما كان يجرى فى مناطق بحر الغزال والسوباط ومنطقة البحيرات الإستوائية من أعمال ، بحيث أصبح العالم

الخارجى على علم بهذه المأساة ، كما قدموا مقترحاتهم للقضاء على هذا الشر. وقد أكدوا جميعًا ضرورة تقوية قوات الحكومة المرابطة عند إلتقاء النيل الأبيض والسوباط حتى يمكن أن تقوم بدوريات تفتيشية ناجحة الأثر . وإذا أريد القضاء على قوة هؤلاء التجار فى غندو كرو فلا بد من وجود قوة قوية فى بحر الجبل . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن لمفرزة من القوات المصرية تتكون من أربعمائة جندى أن تفرض سيطرة الحكومة على منطقة بحر الغزال إذ أصبح من الضرورى أن تمتد سلطة الحكومة إلى هذه المناطق ، وأن تفتح إقليم البحيرات الإستوائية للتجارة المشروعة مع العالم الخارجى ، حتى تكون إجراءاتها ذات فاعلية فى محاربة هذه التجارة(١٣٩) . وفى ضوء هذه الإقتراحات بدأ إسماعيل فى تنفيذ مخططه للقضاء على هذا الشر واستئصاله من السودان(١٤٠) ، فى الوقت الذى تعرض لاتهامات من الصحف الأوربية التى اتهمته بالرغبة التوسعية ومحاولة فرض سيطرته على كل حوض النيل وتكوين إمبراطورية له(١٤١) .

وقد بدأ إسماعيل فى معالجة هذه المشكلة حتى سنة ١٨٧٩م دون أن يلجأ إلى عمليات حربية مع تجار الرقيق ، إذ رأى أن نظام الرق قد تغلغل فى المجتمعات القبلية فى أفريقية . وكان الرقيق يعاملون معاملة حسنة من قبل أسيادهم ، فضلاً عن أن النظم السائدة بين سادة هذه المناطق مكنت تجار الرقيق من أن يزاولوا حرفتهم على أوسع نطاق دون أى عائق(١٤٢) ، حيث أضفوا على هذا النظام صورته البشعة ، إذ اعتمدت تجارته على حرق القرى وقنص الرجال والنساء والأطفال وإثارة الحروب بين القبائل . وبعد رحلة قاسية عبر مئات الأميال يتعرض فيها الرقيق لعوامل الموت يصل إلى الأسواق لبيعه .

وقواد هذه المأساة الذين أصبحوا مصدر خطر على السودان كانوا هدف إسماعيل فى حربه السافرة فى الفترة التى تلت سنة ١٨٧٠م(١٤٣) . ذلك إن إسماعيل اعتقد أن نظام الرق يجب أن ينتهى ويتوقف بين الأهالى ، حتى يمكن أن

يضع نهاية لهذه الأعمال فى تلك الجهات . وفى رأى إسماعيل أن هذه الخطوات لا تتم إلا بتطهير النيل الأبيض ووضع نظام دقيق للإشراف على الملاحة ، وكذلك بفتح مناطق النيل العليا وبحر الغزال للتجارة المشروعة ، وإدخال المدنية والحضارة فى هذه الجهات(١٤٤) .

وقد إتخذت خطوات فعالة لتحقيق المرحلة الأولى من مخطط إسماعيل ، عن طريق دوريات تجوب النيل الأبيض حتى يمكن أن تشل حركة نقل الرقيق . وأصرت السلطات المسؤلة على تفتيش جميع المراكب التى تستخدم هذا النهر ومصادرة رقيقها وحجز رجالها ، حتى يتقرر مصير المراكب ورجالها بتعليمات محددة وصريحة من القاهرة بينما يخلى سبيل الرقيق ويطلق سراحه .

كذلك تمسكت الحكومة ضمن خطتها بالإشراف الدقيق على تصدير الأسلحة والذخائر إلى السودان(١٤٥) ، لحساب تجار الرقيق ، الأمر الذى هدد سلطة الخرطوم . وزيادة على ذلك فقد تطلعت الحكومة إلى وضع حد لسوء استخدام القناصل للإمتيازات الممنوحة لهم ، الأمر الذى دفع إسماعيل إلى مطالبته ممثلى الدول التعاون مع الحكومة المصرية بالتخلى عن حمايتها للتجار ، حتى تستطيع الحكومة المصرية القضاء على تجارة الرقيق فى ممتلكات الباشا التى أصبحت مهددة بنفوذ هؤلاء التجار(١٤٦) .

وكان أن صدرت التعليمات إلى موسى حمدى حكمدار السودان برغبة الباشا فى القضاء على هذه التجارة " إرادة كريمة إلى حكمدار السودان ... إن مبيع وشراء العبيد الذين صار جلبهم من السودان ودارفور صار منعه من طرفنا كليًا . وقد صدر أمر من طرفنا فى هذا التاريخ إلى المالية وإلى مدير جرجا وأسيوط وأسوان فى خصوص عدم إعطاء الرخصة للجلابين المارين عليهم بالأسرى إلى مصر . فحين تصير هذه الممنوعية معلومكم يلزم الدقة والإعتناء التام فى منع مبيع ومشرى الجوارى والعبيد ببلاد السودان سرًا وجهرًا . وإذا وجد جلابين بيدهم

أسرى وقاصدين الجلب إلى مصر يصير حصرهم وإرجاعهم إلى محلهم فتستمر هذه الممنوعية على الدوام بحيث لا يرد أسرى إلى مصر ذكورًا وإناثًا من بعد هـذا كليًا ومجازاة من يخالف هذه الإدارة فى حكمداريتكم "(١٤٧) .

وفى مايو ١٨٦٣م أعلن موسى حمدى عن سياسته بالقبض علـى عـدد من القوارب التى تتعامل فى الرقيق عند وصولها الخرطوم من أعالى النيل ، وكـان هـذا من الإجراءات الشديدة فى ذلك العام ، ثم مصـادرة حمولـة سبعة مراكـب تحمـل الرقيق فيما بين " كاكـا " و" فاشـودة " علـى النيـل الأبيـض(١٤٨) . ومنـذ ذلـك الوقت أخذت السلطات فى الخرطوم تتخذ الخطوات التى تضمن لهـا سيطرة تامـة على النهر كله . وفى نفس العام أرسلت حامية من الخرطوم إلى النيل الأبيض من أجل مراقبة قوارب تجار الرقيق . وفى " كاكا " عسكرت قوة أخـرى مكونـة مـن ألف رجل على النيل الأبيض عند فاشودة التى أصبحت مقرًا لمديرية النيل الأبيض. وكذلك أنشئت مراكز أخرى على النيل الأبيض لمراقبة القوارب التى تجوب النيل . ولتدعيم الرقابة أرسلت أربع بواخر من القاهرة إلى الخرطوم للمساعدة فى القبـض على تجار الرقيق . وقد عهد لاثنـين منهـا بالقيـام بالدوريـات فـى النيـل الأبيـض . كذلك أرسلت بعض القوات لتدعيم سلطة الحكومة فى غندكرو(١٤٩) .

و لم يكتف موسى حمدى بهذه الإجراءات إذ أصدر فى نهاية ١٨٦٣م عـدة لوائح تهدف إلى منع تجارة الرقيق فى النيل الأبيض . وهذه اللوائح اشـتملت علـى شريحة من الضرائب عرفت باسم " الوركو " فقد فرض ضرائب تتراوح بين مائـة ومائتين قرشًا على كـل العـاملين لحسـاب الرقيـق فـى النيـل الأبيـض سنويًا . و لم يسمح لأى سفينة بأن تغادر الخرطوم إلا بعـد أن تحصـل علـى تأشـيرة مـن ديـوان الوركو ، وتقوم بتسديد ما عليها . كذلك طلب من القناصل منح السلطات الحـق فى تفتيش القوارب التى يملكهـا التجـار الأجـانب ، وأصبـح فـى حكـم المقرر أن التجار فى الخرطوم مسئولين ويتحملون نتائج أعمال ممثليهم فى النهر .

وقد قوبلت هذه الإجراءات باستياء من التجار واعتبرت الضرائب مرهقة ، فالرجال يعملون نصف العام لذلك لا يقدرون القيام بدفع هذه اضرائب مما يكسبونه ، ونتيجة لذلك تحمل اسيادهم هذه الضرائب . كذلك اعتبروا أن الهدف من هذه الضرائب هو تدمير تجارتهم وأتهموا سلطات الخرطوم بالرغبة فى العودة إلى احتكار التجارة . واعتقدوا أن الحاكم العام يرغب فوق ذلك فى طرد جميع الأوربيين من النيل الأبيض(١٥٠) . وقد أعلنوا سخطهم بأن إمتنع عدد كبير منهم عن الدفع . ولكن هذا لم يثن عزم موسى حمدى عن تنفيذ سياسته ، بينما صدع للأمر " دى بوبو " و" بونست " فى حين أصرّ على عناده " جون بارترك " وأعلن رفضه الخضوع لهذه الإجراءات ، وأظهر إحتجاجه عليها بأن ترك مراكبة وزرائبه ورجاله للحكومة وهدد بشكوى الحكومة المصرية ومطالبتها بالتعويض(١٥١) .

وفى الحقيقة فقد كان الوركو ضروريًا (أطلق على الديوان الذى أنشأه موسى ويشتمل على لوائح وشرائح ضريبية تحدد فئات الرسوم المفروضة على سفن ورجال الرقيق فى النيل الأبيض ويعطى التصريحات للسفن قبل إبحارها فى النيل الأبيض بما يفيد سدادها) لمحاربة تجارة الرقيق ، فقد تدخلت عدة عوامل مهمة جعلت مهمة الورديات المسلحة فى النيل الأبيض بعيدة عن النجاح إذ كان التجار يعلمون مقدمًا بتحركات سفن الحكومة ، وبالتالى يستطيعون تفريغ حمولاتهم من الرقيق وتهريبها على ضفاف النهر قبل مقابلتهم المسئولين . وبهذه الطريقة كان التجار يتفادون غالبًا إجراءات التفتيش(١٥٢) . ويضاف إلى ذلك أن تجار الرقيق أخذوا يبحثون عن حماية ممثلى الدول الأجنبية برفع أعلام دولهم على مراكبهم ، مما جعل الحكومة المصرية تشكو من نشاط التجار الأوربيين ، فضلاً عن أن الرشوة كانت تجد طريقها عند بعض الموظفين المسئولين .

هذه الأعمال جعلت مهمة دوريات النيل الأبيض تزداد صعوبة ، لذلك اعتبر الوركو وسيلة لتضييق الخناق على تجار الرقيق فى النيل الأبيض(١٥٣) .

وقد امتد تنفيذ هذه السياسة عبر النيل الأبيض فـى منـاطق النيـل العليـا ، إذ بدأت الحكومة بتنفيذ سياسة تهدف إلى تجريد التجار من زرائبهـم فـى بحـر الجبـل عن طريق فرض ضرائب جديدة على هذه الزرائب . وهذه الضرائب الجديـدة مـع ضرائب الوركو جعلت تجارتهم غير مربحة .

وفى أثناء حكمدارية صادق باشا تم تدعيم دوريات التفتيش وإتسع نفوذهـا واعتبرت فاشودة مركزًا حكوميًا . وأرسلت حملة مكونة من ألف رجل لإحتلالهـا بصفة دائمة . وقد أدى تأسيس هذه المحطة وتدعيمها إلى إغلاق النيل الأبيـض فـى وجه تجار الرقيق الوافدين من بحر الغزال والسوباط والنيل الأعلى . وكانت نتيجـة هذه الإجراءات التى استهل بها موسـى حمـدى حكمـه ، ثـم استمر فـى تنفيذهـا صادق باشا ، أن اضطر " دى بونو " إلى التخلى عن تجارته وبيع منشـآته وزرائبـه للحكومة بثمن زهيد وترك البلاد(١٥٤) .

وقد سار فى هذا الطريق أيضًا جعفـر باشـا الـذى حكـم بـالقوة والشـدة ، وحارب أولئك الذين اتهموا بالرشوة والفساد . وفى ولاية هذا الحاكم أعيد تنظيم الحكم فى السودان بعد أن ألحقت بممتلكات الباشا مصوع وسواكن . وقد استمر مظهر باشا فى تنفيذ سياسة تجريد تجار الرقيق من زرائبهم بعد أن تلقـى تعليمـات من إسماعيل صريحة لتحقيق هذه الغرض . ذلك أنه طلب من مظهر باشا أن ، يبذل محاولاته فى الإستيلاء على زرائب التجار فى بحر الغزال والنيل الأعلـى فـى مقـابل تعويض عادل ، واعتبرت هذه السياسة استمرارًا لمحاربة تجارة الرقيق(١٥٥) . ويعتبر عام ١٨٦٩م من الأعوام الحاسمة فى تاريخ الرق ، إذ تقرر فيـه ضـم دارفـور وبحـر الغزال وفتح المديريات الإستوائية .

أما فى جبهة بحر الجبل وغندوكرو ، فقـد أنيطـت المهمـة إلى سـير صمويـل بيكر بناء على نصيحة أمير ويلز " الذى أصبح فيما بعد ادوارد السابع "(١٥٦) .

وقد منحه الخديو إسماعيل سلطات مطلقة فى المناطق الواقعة إلى الجنوب من غندركرو حتى خط الإستواء ، وعهـد إليه إدخال الوسائل المشروعة ، وإنشاء الملاحة فى البحيرات العظمى الإستوائية وإنشاء سلسلة من النقاط العسكرية يفصل بين كل منها مسيرة ثلاثة أيام ، وأن يعمل على إبطال صيد الرقيق أو الإتجار فيه(١٥٧) .

وقد لقى تعيينه معارضة شديدة من السلطات الرسمية فى مصر ، لأن الرق كان من الأمور المعترف بشرعيتها ، فإبطال هذه التجارة على يد مسيحى كان كفيلاً بإثارة الشعور الدينى(١٥٨) ، فضلاً عن أنه كان بمثابة تحد وإعتداء على حقوق رعايا الخديوى . وقد رأى بعضهم أن المجتمع المصرى بدون رقيق يكون - أشبه بالعربة بدون عجلات(١٥٩) .

وأعترض على ذلك التعيين أيضًا جعفر مظهر حكمدار عموم السودان ، الذى طالب بأن يتولى ذلك العمل ضباط مصريون ، وحذر من الثقة بالضباط الأجانب فى مثل هذه الحملات الهامة فى أفريقية(١٦٠) .

وكان سير صمويل بيكر رجلاً مغرورًا تعوزه اللياقة والسياسة وحسن التصرف(١٦١) إذا صادف عصيانًا أو تحديًا ، لجأ إلى القوة والبطش حتى إلى حملة عسكرية صغيرة .

واعترف غوردون - الذى خلف بيكر - بكراهية الأهالى الشديدة لسلفه بيكر فقال (إن أكبر صعوبة هى استعادة ثقة الأهالى مرة ثانية فقد لقوا معاملة قاسية) وهنا وضع الدكتور هل Hill مجموعة من النقط ، إذ لم يشأ إن يكمل عبارة غوردون ، ولكن لورد إلتون إطلع على هذه الوثيقة وأكملها هكذا : (ومن الغريب الكراهية الشديدة هناك لبيكر(١٦٢) . فإذا علمنا أن كتاب Hill نشر فى سنة ١٨٨١م أدركنا السبب فى حذف هذه العبارة .

ويمكن تلخيص نتائج بيكر فى أنها استطاعت أن تقيم مراكز عسكرية بين غندكرو وفاتيكو ونويرة ، غير أنها فشلت فى تحقيق أهدافها الرئسية وهى إبطال حركة الرقيق ، وفتح البلاد للتجارة المشروعة وإنزال سفن فى بحيرة البرت وقد حققت نجاحًا كبيرًا فى إثارة عداء الأهالى السود لحكومة الخديوى ، وإنشاء حلف بين الأهالى وتجار الرقيق(١٦٣) .

ولست أدرى ما إذا كان التفكير فى تعيين حكام من غير المصريين فى السودان بمثابة تأكيد لنوايا الخديوى وتسجيل لصدق عزيمته فى العمل على إبطال تجارة الرق ، ليفوت فى الوقت نفسه على أية دولة أوربية أن تتدخل فى هذه المناطق بحجة مكافحة الرق مدفوعة بعوامل إنسانية أو دينية ، أو أن الخديوى - من ناحية أخرى - كان قد دخل أو بدأ يدخل ، فى مرحلة الخضوع للضغط الأوربى ، فكانت نصيحة ولى عهد بريطانيا بمثابة إملاء . ومن الجائز أن الأوربيين، بدأوا منذ ذلك الوقت يتطلعون إلى حوض النيل ويملون إرادتهم ، واتخذ ذلك مظهر الإشتراك فى ترشيح أشخاص ، لأن إسماعيل لو كان قصير النظر فلا بد أن يدرك أن الحاكم الذى ينتمى لدولة عظمى لا يمكن أن يتجرد عن قوميته ، ولا يمكن أيضاً أن يخلص له إخلاصاً لا شائبة فيه أو يتخلى عن مصلحة بلاده فى إستعمار تلك المناطق . وليس فى ذلك مبالغة فالحوادث كلها تشير إلى ذلك ، إذ لما إقتضت الظروف إغلاق منافذ تصدير الرقيق على شواطئ البحر الأحمر أرسل الخديوى حملة إلى مصب نهر جوبا بقيادة ماليكوب باشا ، لكنها نزلت فى قسمايو جنوبى المصب ، ثم لم تلبث أن إنسحبت فى ديسمبر ١٨٧٥م إزاء احتجاج إنجلترا ، وإن كان الكثير يعزون فشل الحملة إلى إهمال غردون " المعتمد " تحت تأثر مصالح بلاده وإهماله التقدم من الداخل لمديد العون إلى المصرين على ساحل المحيط الهندى(١٦٤) .

وقد اعتذر غوردون بإنعدام كفاءة قواته غير النظامية . وكذلك أعترف لورد إلتون - وهو آخر من كتب عن غوردون - بأن ذلك الإهمال من جانبه

يرجح إن نزول المصريين على الساحل الشرقى أمر لن تحتمله الحكومة البريطانية(١٦٥) .

وهذا دليل آخر على أن غردون لم يتجرد عن قوميته يوماً .

وقد أثار تعيين غوردون خلفاً لبيكر غضب الدوائر الرسمية وغير الرسمية ، التى كانت ترى فى هذا التعيين لفتة من الخديوى بقصد الحصول على تأييد إنجلترا فى الأزمة المالية المستحكمة فى مصر . وأدعى البعض أنه كان من المنتظر أن يقوم غوردون بمراقبة إسماعيل باشا أيوب حكمدار الخرطوم الذى لم تكن نزاهته فوق مستوى الشبهات(١٦٦) .

هذه هى الآثار التى ترتبت على الفتح الحكومى لمناطق بحر الجبل على أيدى بيكر وغوردون . أما الجبهة الثانية التى إزدهرت فيها تجارة الرقيق ، فقد كانت فى بحر الغزال حيث انفرد بالسلطة الزبير رحمة(١٦٧) ، الذى تحدى سلطة الحكومة ، ورفض أن يسدد لها أية مبالغ عن زرائبه . وقد حاول مظهر باشا حكمدار السودان إضعاف نفوذه بتسليم إدارة بحر الغزال إلى منافس للزبير هو " كجك على " ولكن الزبير قاوم هذا المشروع بحيث لم يعد أمام الحكومة سوى الالتجاء إلى القوة ، فأعدت حملة بقيادة محمد البلالى للاستيلاء على سلطنة دار فور ، وهى أهم موطن للرقيق فى السودان الغربى ، على أن يتم ذلك بعد إخضاع الزبير فى بحر الغزال ، ولكن الحملة هزمت وقتل قائدها(١٦٨) .

وتعتبر هزيمة البلالى أول ضربة أصابت هيبة الحكومة الخديوية فى السودان . غير أن جعفر باشا مظهر لعب دوره بمهارة ، فحين بعث الزبير باحتجاجاته إلى حكومة الخرطوم ، أبلغه الحكمدار أنه أحيط علماً بذلك . وهكذا منع تحويل الصراع إلى حرب مكشوفه(١٦٩) .

وبدلاً من أن تقضى حملة البلالى على الزبير ، أدت إلى نتيجة عكسية ، وأصبح للزبير السيادة على بحر الغزال . غير أن الحوادث سرعان ما تطورت ، فإن

قبيلة الرزيقات " البقارة " نقضت إتفاقها مع الزبير وباتت تعتدى على التجار اللذين يمرون بديارها ، فاضطر إلى محاربتها ، فهزمها وأحتل شكل فى أغسطس ١٨٧٣ م . وخشى السلطان إبراهيم حاكم دارفور من ازدياد نفوذ الزبير ، فتعهد زعماء الرزيقات بحمايته ، فلم يعد أمام الزبير سوى مهاجمة دارفور ذاتها ، وعرض على الحكمدار إسماعيل أيوب إقليم بحر الغزال ، فصدر الأمر بتسميته مديراً على بحر الغزال فى نوفمبر ١٨٧٣م . وأعقب ذلك أن زحف الزبير على دارفور من الجنوب ، وتقدم إسماعيل أيوب من الشرق ، وأوقع الزبير الهزيمة بالسلطان إبراهيم فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧٤م(١٧٠) .

وسرعان مادب النزاع بين الزبير وإسماعيل أيوب ، فتوجه الأول إلى مصر فى نوفمبر عام ١٨٧٥م وأستبقاه الخديوى بها .

وبذلك سيطرت مصر على مراكز تجارة الرقيق وصيده فى بحر الجبل وبحر الغزال ودارفور ، إلا أنه وضح إن إقليم يوغوص الواقع بين مصوع والتاكة ، يجد فيه الأحباش ميداناً لصيد الرقيق . وبالفعل أذن الخديوى لمنزنجو حاكم مصوع بدخول يوغوص فتم إحتلال كيرن ، وبعد ذلك تم إحتلال هرر فى الجنوب سنة ١٨٧٥م لسد المنافذ تماماً أمام تجارة الرقيق . على أنه كان من نتيجة ذلك تطويق الحبشة وإثارة شكوك النجاشى بعد أن أحاط المسلمون ببلاده من جميع الجهات . ونشبت حرب الحبشة فى الفترة من سنة ١٨٧٥م - ١٨٧٦م . وترتب عليها نتائج بالغة الخطورة بالنسبة لمصر ، فقد وجهت ضربة شديدة إلى هيبة الإمبراطورية المصرية ، وبدأ السودانيون والأحباش لا يحسبون لها حساباً بعد أن كان للحكومة الخديوية سطوة عجيبة فى السودان ، حتى كان جنديها الواحد يرهب رهطاً من الأهلين(١٧١) فلم يعد للأهالى حاجة للخضوع لحكومة وضحت فيها السيادة للأجانب .

وفى الوقت الذى كانت البلاد تعانى من الآثار التى ترتبت على حرب الحبشة والتى كلفت الخزانة المصرية نفقات طائلة ، عقد الخديوى مع بريطانيا فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م المعاهدة المشهورة الخاصة بتجارة الرقيق(١٧٢) والتى جاء فى المادة الثانية منها إن أى شخص يعمل فى تجارة الرقيق بطريقه مباشرة أو غير مباشرة سوف يعامل معاملة " السارق القاتل " وهى جناية يعاقب عليها فى القانون المصرى بالإعدام . كذلك صدر أمر الخديوى يوم إبرام المعاهدة تنص المادة الأولى منه على تحريم بيع الرقيق من عائلة إلى أخرى فى مصر خلال سبعة أعوام وفى السودان خلال إثنى عشر عاماً . ونصت المادة الثانية على أن اية محاولة للخروج على هذا القانون بعد هذين التاريخين يعاقب مرتكبها بالحبس مدة تتراوح بين خمسة شهور وخمس سنوات(١٧٣) .

وكانت سنة ١٨٧٧م التى وقعت فيها المعاهدة من أحراج الأوقات فى تاريخ الإدارة المصرية فى السودان ، فالخزانة الخديوية على وشك الإفلاس ، مما دفع إسماعيل إلى إتخاذ إجراءات لم تدرس الدراسة الكافية بأمل أن يسهم السودان بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيهات سنوياً ، تتحمل منه مديرية خط الإستواء ثلاثين ألفاً ، ومديرية بحر الغزال ما بين خمسة عشر الفاً . على أن مصادر الإيراد فى هاتين المديريتين كانت قد أتت عليها مصروفات غوردون فى بحر الجبل ، ونفقات حملة دارفور التى قادها الزبير . وفى يونيو من العام التالى ، أمر الخديوى بإتخاذ الإجراءات اللازمة لتحصيل كل الأموال المستحقة للحكومة . ولما كان صرف مرتبات الموظفين معلقاً بتنفيذ هذا الأمر ، فلم يكن له من نتيجة سوى إغضاب الطبقة التى تقوم عليها الإدارة(١٧٤) . وحين صمم غوردون على ضرورة تولية الحكمدارية العامة للسودان ، لم يسع الخديوى سوى النزول على طلبه ، فقد كان يرى أن توتر العلاقات بين غوردون وإسماعيل أيوب جعلت من المستحيل تنفيذ واجبات الأول فى مكافحة الرق خارج نطاق المديريات الاستوائية(١٧٥) .

وتقرر أن يمتد حكم غوردون على السودان جميعه ، ودارفور ، والمديريات الإستوائية على أن يعاونه ثلاثة وكلاء : الأول للسودان ذاته ، والثانى لدارفور ، والثالث لسواحل البحر الأحمر وشرق السودان ، وعهد إليه الخديوى بتسوية مشاكل الحدود مع الحبشة ، كما لفت نظره إلى ضرورة القضاء على تجارة الرق والعمل على تحسين وسائل المواصلات(١٧٦) .

ويرى البعض أن بريطانيا قد وقع اختيارها على غوردون لإتمام عملية نشر الفوضى فى السودان ليسهل عليها وضع يدها عليه بعد إنفصاله عن مصر .هذا فى حين يرى البعض الآخر أن الحكومة البريطانية لم تتعمد اختيار غوردون لنشر الفوضى فى السودان ، إنما رسمت له سياسة محدودة ، هى إلغاء الرق . وهذه السياسة هى التى كانت سبباً فى استنزاف موراد الإدارة المصرية فى المال والرجال. ويقرر البعض أيضاً أن فشل غوردون يرجع إلى ظروف خارجة عن إرادته ، إذ لم يكن للإنجليز عموماً أية دراية بالإدارة بين الشعوب المتخلفة نسبيًا ، فيما عدا الهند التى لم يسبق لغوردون أن عمل بها . ولم يكن لبريطانيا رجال ذو خبرة بهذا العمل الدقيق ، وهو حكم خليط من القبائل الإسلامية والوثنية فىمجاهل أفريقية . هذا بالإضافة إلى أن غوردون نفسه لم تتح له الفرصة لكى يتدرب على مهام وظيفته ، فإسماعيل عهد إليه بحكومة السودان دون أن يمده بالمستشارين ذوى الخبرة والتجربة لكى يوجهوه . وعلى أية حال ، لم يكن غوردون ليقبل نصيحة أى منهم(١٧٧) . ولذا فإنه لما رجع إلى السودان فى مايو سنة ١٨٧٧م كانت كل خبرته بشؤون الحكم والإدارة لا تزيد عن خبرة عامين قضاهما فى المديرية الإستوائية ، وهى مديرية غير إسلامية وغير عربية . وكان ماضيه العسكرى فى الصين والقرم لا يؤهله إطلاقاً لأن يكون سياسياً وإدارياً ، ولا يدربه كيف يسوس شعوباً إسلامية(١٧٨) . وكانت مسالة الرق شغلة الشاغل ، لأنه كان يدرك أنه رغم ما يتمتع به من سلطات مدنية وعسكرية مطلقة ، فإنه لا يتمكن من إبطال

تجارة الرقيق إلا إذا انتشر على طول حدود البلاد سلسلة من حراس الحدود ، على غرار القوزاق الروسى .

لقد نسى غردون أن الخديوى قد استخدمه للإدارة لا لكى يشن حرباً صليبية شعواء على تجار الرقيق . ولا شك فى أن القضاء على هذه التجارة ، كان هدفاً من أهداف الخديوى الذى كان يعلم تمام العلم بأن الأملاك السودانية تسير بخطى وئيدة نحو حياة لامكان فيها للرقيق . فضلاً عن أن معالجة مشكلة الرقيق كان جزءاً فقط من تعلميات الخديوى ، وهو عمل دقيق يحتاج إلى شئ كثير من الدقة واللباقة(١٧٩) .

وعندما رغبت الحكومة الخديوية فى إقامة دوريات بوليسية لمراقبة سواحل البحر الأحمر وخليج عدن لتنفيذ نصوص معاهدة إغسطس ١٨٧٧م ، انتهى الأمر بتعيين الكابتن مالكولم ، وهو ضابط بالأسطول البريطانى ، للإشراف على هذه الدوريات . ولم يلبث غوردون أن إصطدام بمالكولم لأن الأخير اعتقل بعض أفراد عائلة " ابى بكر شحيم " محافظ زيلع بتهمة الاتجار فى الرقيق . وساء غوردون هذا الإجراء خشية أن يؤدى إلى تهديد الحكم المصرى فى هذه الأصقاع البعيدة ، فأطلق سراح المعتقلين ، فما كان من مالكولم إلا أن قدم إستقالته إحتجاجًا ، فاستاءت الحكومة البريطانية ورأت فى ذلك لينا " كما لو كان غوردون لا يحس فى نفسه القدرة على معاداة تجار الرقيق صراحة " .

وشاء غوردون أن يثبت لحكومته أنه لا يقل عن مالكولم أو غيره قوة فى مكافحة الرق ، حيث لجأ إلى الأساليب العنيفة وسياسة الضغط لتنفيذ سياسة الإلغاء ، بل لقد عمل إلى التخلص من الموظفين المصريين وإسناد مناصبهم إلى الأوربيين ، فى وقت كانت الإدارة المصرية فى حاجة ماسة إلى الاستقرار والهدوء، كما تناول المناصب الإدارية الكبرى بالتغيير والتبديل . وقد ترتب على تعيين موظفين أوربيين مسيحيين آثار خطيرة مهدت الطريق للثورة المهدية(١٨٠) .

ومن ناحية أخرى شاء الموظفون الأوربيون أن يثبتوا جدارتهم وإستحقاقهم للمناصب التى يشغلونها ، فأعلنوا حرباً شعواء علـى تجـار الرقيـق . والمعـروف أن السودانيين لم يؤمنوا يوماً بشرعية سياسة إلغاء الرقيق ، فما بالك إذا مـا قـام علـى تنفيذ هذه السياسة أجانب من الأوربيين المسيحيين ، مما يثير الظنون بأن فـى ذلـك إضطهاد للإسلام على يد المسيحية .

وكان الإنجليز أنفسهم بعد إسترداد السودان ، يعلمون أن مسألة إلغاء الـرق شائكة للغاية وينبغى تناولها فى شئ كثير من الحذر ، بدليل ما جاء فى تقرير رفعـه الكابتن مموردو Memurdo مدير مصلحة مكافحة الرق :

" أن الرقيق فى طريقة إلى الزوال ، ولكنه طريق طويل جداً وأمامنا سـنوات طويلة لبلوغ نهايته ، وليس من الطبيعى فى شئ أن نتخلص فى الحال من العـادات والتقاليد التى عاشت لعدة قرون "(١٨١) .

الخاتمة :

يتضح لنا من خلال العرض السابق عدةنقاط أهمها :

أولاً : كان نظام الرق من الأمور العميقـة الجـذور فـى المجتمـع السـودانى ، ومن أهم الأركان الذى قامت عليه اقتصادياته ، ومن ثم كان له تأثيرًا واضح على حياة السودانيين الاجتماعية والسياسية .

ثانيًا : كان هدف محمد على من جلب الرقيق ، الاستفادة منهم فى تكويـن الجيش وإلقاء عبء الأعمال العسكرية علـى عـاتقهم ، وأن يـترك أبنـاء الفلاحـين المصريين ليتفرغوا لأعمال الزراعة والرى ومواجهة التوسع فى المشروعات الإنمائيـة الجديدة ، حتى يعمل الجميع من مصريين وسوادنيين فى إطـار وحـدة وادى النيـل السياسية .

ثالثًا : بعد فشل تجربة اسـتخدام الرقيـق ، فتـح محمـد علـى أمـامهم أبـواب العمالة التى تتناسب مع قدراتهم الذهنية والعضلية ، حتى لا يقعون فريسة للبطالة.

رابعًا : بالغ الكتاب والمؤرخون الأجانب فى تصويرهم لمسألة إعطاء رواتب الجنود من الرقيق – فى بعض الأحيان – ولم يعالجوا المسألة من جميع زواياها المختلفة ، فكان هدفهم من وراء ذلك اعطاء معلومات مبتورة ترتب عليها تشويه الحقائق .

خامسًا : أثبتت الدراسة أن محمد على ، رغم أنه احتكر التجارة فى البلاد التى كان يحكمها ، لم يتاجر فى الرقيق على الإطلاق ، علمًا بأن تجارة الرقيق – وقتذاك – كانت أكثر ربحًا .

سادسًا : أشارت الدراسة إلى أن محمد على كان يكره التجارة فى الرقيق ويمقتها ، وبالتالى تشدد مع حكامه فى السودان لمحاربتها .

سابعًا : إن تدخل بريطانيا لإلغاء تجارة الرقيق فى السودان ، كان ستارًا يخفى أهدافًا عدائية ضده ، ومخططًا لتحقيق أطماع استعمارية ، كما أثبتت الأحداث فيما بعد .

ثامنًا : كان من الصعب القضاء على تجارة الرقيق بين طرفة عين وانتباهتها، بسبب تركيبة المجتمع السودانى نفسه ، وأهمية الرقيق بالنسبة له ، لذلك أحدثت الوسائل العلمية والعملية المشار إليها فى الدراسة كبديل عن نظام الرق وتعويض عن الأرباح التى كانت تعود من التجارة فيه .

تاسعًا : أوضحت الدراسة أنه مما يؤخذ على غوردون أنه أساء تقدير المهمة التى أنيطت به ، فقد ركز كل اهتمامه فى القضاء على تجارة الرقيق دون النظر أو الاهتمام بالتعليمات الأخرى ، ولم يكن هناك من سبب يدعوه إلى التشدد من تلقاء نفسه فى القضاء على تجارة الرق ، فملكية الرقيق لم يكن فيها أية مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية ، فضلاً عن أن الناس كانوا فى حاجة ماسة إلى الرقيق لإنجاز أعمالهم . فلما توقف ذلك المورد الهام من الأيدى فجأة ، نشبت أزمة هزت الكيان الاقتصادى والاجتماعى للبلاد ، وبدأت الناس يلقون اللوم ، لا على

غوردون ذاته بل على الإدراة المصرية . ودفعهم الغضب إلى الاعتقاد بأن الحكومة - بطريقة ما - تعمل ضد تعاليم الإسلام .

عاشرًا : أثبتت الدراسة آثار تعين غوردون لأعداد كبيرة من الأوربيين في وظائف لا تناسبهم مما أغضب الأهالى حتى أنهم كرهوا الأجانب عمومًا بمن فيهم المصريين .

حادى عشر : يؤخذ على غوردون أنه بينما كان يعمل فى خدمة الحكومة المصرية لم يستطيع أن يتجرد من قوميته التى جعلت منه أداة لخدمة السياسة البريطانية والقضاء على أعمال إسماعيل فى السودان . ويشاركنا فى هذا الرأى بعض المؤرخين البريطانيين الذى عالجوا شئون الإدارة المصرية فى السودان بنزاهة وأمانة(١٨٢) .

ثانى عشر : أشارت الدراسة إلى أن غوردون لم يحاول أن يبحث فى أسباب الرق ووضعه فى الإسلام ، والطريقة السليمة التى يمكن بها وضع حد له . وقد قيل عنه أنه وجد السودان فى سلام ورخاء ، وتركه فى يوليو سنة ١٨٧٩م مدينًا والثورة على وشك أن تندلع فيه .

الملاحـــق(١٨٣)

نص المعاهدة :

معاهدة الرقيق مع بريطانيا فى أغسطس سنة ١٨٧٧م .

لما كان من أقصى آمال كل من حكومتى جناب ملكة بريطانيا العظمى وإيرلنده الحرة وحضرة خديوى مصر التعاون فى إبطال منع بيع الرقيق بالكلية ، وكان قد صمما على عقد معاهدة للوصول لهذا الغرض ، حصل الرضا والإتفاق للواضعين إماءهم آدناه الماذونين بهذا الشأن على تدوين البنود الآتية :

بند ١ :

حيث أنه سابق صدور لائحة من الحكومة الخديوية بمنع بيع الرقيق السودانى والحبشى فى الجهات التابعة لها فتتعهد الحكومة المشار إليها أن تمنع منعًا كليًا من

الآن فصاعدًا إدخال العبيد السودانيين والحبشيين بأراضى القطر المصرى وملحقاته سواء كان بطرق البر والبحر المارة بتلك الأراضى وأن يعاقب باشد الجزاء على مقتضى القوانين المصرية الجارى العمل بها أو بموجب ما سيأتى بيانه بهذه المساعدة كل من وجد متعاطيًا بيع الرقيق السودانى أو الحبشى مباشرة أو بواسطة غيره وكذالك تتعهد بأن تمنع إخراج الرقيق السودانى أو الحبشى إلى خارج القطر المصرى وملحقاته منعًا مطلقًا مالم تحقق وتثبت صحة منعه أو حريته ولا بد أن يذكر بورقة العتق أو الباسبور الذى يعطى لأولئك السودانيين أو الحبشيين من طرف الحكومة المصرية قبل خروجهم بأنهم أحرار ويمكنهم أن يتولوا أمر أنفسهم كيف شاءوا بلا قيد أو شرط .

بند ٢ :

كل شخص يوجد بأرض مصر أو بحدودها أو بالجهات التابعة لها بوسط أفريقيا متعاطيًا بيع الرقيق السودانى أو الحبشى مباشرة أو بواسطة غيره تعتبره الحكومة المصرية هو ومن يكون مشتركًا معه بمنزلة السارقين القاتلين فإن كان من تبعيتها يحاكم أمام مجلس عسكرى وإلا تحال محاكمته على المجالس الخاصة بذلك وترسل لها المحاضرة المحررة من الجهة العليا الدالة على صحته للحكم فيها بمقتضى قوانين الحكومة التى يكون تابعًا لها مادامت هذه القوانين تجيز ذلك . وما يوجد من الرقيق السودانى أو الحبشى بأيدى أى تاجر كان يصر اعطاؤه حريته ومعاملته بمقتضى المدون ببند ٣ الآتى والمذيل المؤشر بحرف أ المتمم لهذه المعاهدة .

بند ٣ :

نظرًا لكون إعادة الرقيق السوادنيين أو الحبشيين لبلادهم بالتالى سواء كانوا منزوعين من أيدى المتجرين فيهم أو معتوقين يتعذر حصولها وينشأ منها إما هلاكهم من التعب أو الفاقة أو وقوعهم فى ربقة الرق ثانيًا تستمر الحكومة بأن تجرى معهم الإجراءات السابق إتخاذها بمعرفتها فى حق الرقيق ومذكورة فى الذيل المؤشر بحرف أ المحكى عنه .

بند ٤ :

تستعمل الحكومة المصرية سطوتها على قدر الاستطاعة لمنع ما يجرى من المقاتلات بين قبائل أفريقيا الوسطى بقصد الاستيلاء على الرقيق وبيعه وتتعهد بأن يعامل معاملة القاتلين كل من يوجد متعاطيًا بيع الأولاد أو جلبها فإن كان المرتكبون لذلك من تبعية الحكومة المصرية تصير محاكمتهم أمام مجلس عسكرى وإلا تحال محاكمتهم على المجالس المختصة بالحكم وترسل لها المحاضر والأوراق والمستندات للفصل فى الدعوى بمقتضى قانون بلادهم كما هو مذكور ببند ٢ .

بند ٥ :

تتعهد الحكومة المصرية بنشر أمر خصوصى يرفق بهذه المعاهدة ويكون من مقتضاه منع بيع الرقيق بالكلية فى أرض مصر من ابتداء تاريخ يتحدد بالأمر المشار إليه وتخصيص نوع الجزاء التى يترتب على من يخالف منطوقها .

بند ٦ :

لأجل زيادة الوثوق من منع بيع الرقيق السودانى أو الحبشى بالبحر الأحمر ترتضى الحكومة المصرية بأن السفن يجرى التفتيش والبحث والقبض عند اللزوم على أى مركب تكون متعاطيًا تجارة رقيق من السودانيين أو الحبشيين وتسليمها لأحد مراكز الحكومة المصرية القريب من محل الواقعة أو للمركز الأوفق لأجل الحكم على تلك المراكب بما تلزم . وكذلك يصير ضبط أى مركب مصرية تحقق فيها شبهة وجود رقيق للبيع أو تكون قد تعاطت بيع الرقيق أثناء سفريتها . وإجراء التفتيش وضبط الرقيق يكونان بخليج عدن وساحل بلاد العرب وبالجهة الشرقية من أفريقيا وبمياه سواحل مصر والجهات المقابلة لها ما يوجد من الرقيق السودانى أو الحبشى بأى مركب مصرية وتضبط بمعرفة المراكب الإنجليزية لدى التفتيش يبقى تحت إذن الحكومة الإنجليزية . وهى تتعهد بإجراء ما يقتضى لحصوله على تمام الحرية أما المراكب وشحنتها وطقم بحريتها فيصير تسليمه لأقرب مركز من مراكز الحكومة المصرية لمحل الواقعة أو للمراكز اللائق لأجل توقيع الحكم عليها بما يلزم

فإذا لم يتيسر لقبطان المركب الإنجليزى تسليم ما يكون صار ضبطه من الرقيق لمحل تابع لحكومة الإنجليز أو إذا دعت الضرورة من مصلحة الرقيق سوداني أو حبشى لتسليمهم للحكومة المصرية فالحكومة المشار إليها تتعهد بناء على طلب قبودان المركب الإنجليزى أو الضابط الذى تستبينه لذلك أن يقبل الرقيق سوداني أو حبشى يعطيهم حريتهم وتمنحهم الامتيازات التى تمنحها للرقيق السوداني أو الحبشى المضبوط بمعرفة جهاتها ، كذلك تقبل الحكومة الإنجليزية من جهتها بأن أى مركب إنجليزية سائرة ببنديرة إنجليزية فى البحر الأحمر أو خليج عدن أو فى ساحل بلاد العرب أو فى المياه الداخلية بالقطر المصرى أو فى الجهات التابعة لهم متعاطية التجارة فى الرقيق السوداني أو الحبشى يصير تفتيشها بمعرفة الحكومة المصرية إنما المركب بشحنتها وطقم بحريتها يصير تسليمها لأقرب جهة من الجهات الحكومة الإنجليزية لأجل توقيع الحكم عليها . وما يصير ضبطه من الرقيق سوداني أو حبشى تعطى لهم الحرية بمعرفة الحكومة المصرية وتبقى متولية أمره إذا حكم بعدم صحته الجز أو إقامة الدعوى من المجلس المختص بالحكم فالحكومة التابعة لها المراكب التى أجرت ذلك تكون ملزمة بأن تعطى تعويضًا لائقًا بحسب الأحوال لحكومة المركب التى صار ضبطها أو إقامة الدعوى عليها .

بند ٧ :

يكون إجراء العمل بهذه المعاهدة فى القطر المصرى لحد أصوان من تاريخ توقيع الإمضاء عليها وفى ملحقات الحكومية المصرية بأفريقيا العليا وسواحل البحر الأحمر من بعد مضى ثلاثة شهور من ذلك التاريخ بناء عليه فقد تحررت هذه المعاهدة بتاريخ ٤ أعسطس سنة ١٨٧٧م وتوقعت عليها إمضاء وأختام الواضعين أسماءهم فيه أدناه

شريف　　　　فيفيان

* * *

والواقع أنه لا يمكن معرفة الدوافع التى جعلت إسماعيل يوقع على هذه المعاهدة وهى تحوى التزامات كثيرة على مصر من أجل المداومة على مقاومة الرقيق فى الوقت الذى كانت الحالة المالية فيه تسير من سئ إلى أسوأ . ويكفى أن تعلم أن كلا من إنجلترا وفرنسا كانتا قد أرغمتا إسماعيل على إنشاء لجنة صندوق الدين فى مايو ١٨٧٦ لإيجاد وسيلة لتسوية دين مصر البالغ ٩١ مليونًا من الجنيهات والتى كانت أرباحها ٧٪ فى كل عام بل أنهما أجبرتا خديوى مصر بعد ذلك على تعيين مراقبين عموميين لحسابات الحكومة أحدهما إنجليزى يراقب الدخل والآخر فرنسى يراقب المنصرف وهذا النظام عرف بالمراقبة الثنائية .

ونحن نعتقد أن إسماعيل قد وقع هذه المعاهدة للدافع الشخصى ، وهو شهرته وعظمته إذ يقوم بدور مهم فى مكافحة الرقيق وبذلك تجوب سمعته أنحاء أوربا كلها . والرجل كما هو معلوم عنه كان يميل إلى كل ما يتعلق بالمظاهر التى تجعل منه رجلاً عظيمًا فاخرًا مشهورًا فى أوربا كلها . وربما كان توقيع هذه المعاهدة أيضًا نزولاً على رغبة إنجلترا التى كانت قد أوغلت فى التدخل فى شئون مصر .

الهوامش

(١) مكى شبيكة : السودان فى قرن (١٨١٨ - ١٩١٩ م) ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص١٢

(2) DODWELL, THE Founder of Modern Egypt, Astudy of Mohamed Ali, 2nded., Cambridge, 1967, p.50 .

(٣) عبد الرحمن الجبرتى : التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجـزء الرابع ، القاهرة ١٣٦٠ هـ ، ص٣٠٥

(٤) مكى شبيكة : مقاومـة السـودان الحديـث للغزو والتسـلط ، معهـد البحـوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ص٢٩

(٥) سليمان بن محمد الغنـام : قـراءة جديـدة لسياسـة محمـد على باشـا التوسـعية فـى الجزيرة العربية (١٨١١ - ١٨٤٠) ص٥٠ وكذا

Dodwell, H., The Founder of Modern Egypt, Astudy of Mohamed Ali, 2nded., Cambrdige, 1967, p.50 .

(6) Henry Dodwell The Founder Of Modern Egypt 1931 .

(٧) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ١٤٥ بتاريخ ٢٥ جماد الأولى ١٢٣٧هـ .

(٨) دفتر ١٠ معية تركيى مكاتبة رقم ٣٢٥ بتاريخ غرة القعدة ١٢٣٧هـ .

(٩) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ٤١٥ بتاريخ ١٢ ذى الحجة ١٢٣٧هـ .

(١٠) أحمد كاتب الشونة : تاريخ ملوك السودان تحقيق مكى شبيكى ص٢٣ .

(11) Hill : Egypt In The Sudan., London , P.62 .

(12) Richard Gray : AHistory of Southern Sudan Oxford , 1961,p.5.

(١٣) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبة رقم ٦٤ بتاريخ ٢٣ ربيع أول سنة ١٢٣٧هـ.

(١٤) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة الكاتبة رقم ٢١٨ بتاريخ ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧هـ.

(15) Shukri, M. F., khedive Ismail and Slavery in the Sudan , 1863 - 1879, Cairo, 1937, P. 74.

(١٦) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصـرى فـى السـودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥ ، القـاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٢ - ٣١ .

(١٧) حسن أحمد إبراهيم : محمد علـى فـى السـودان ، دار التـأليف والترجمـة والنشـر الخرطوم (د.ت) ، ص٥٦ - ٥٧ .

(١٨) دفتر معية تركى ، ترجمة المكاتبات رقم ٣٢٥ بتاريخ ١٠ ذو القعدة سنة ١٢٣٧هـ .

(١٩) يرى الأستاذ الشاطر البصيلى أن المماليك هم الذين دبروا مقتل إسماعيل استنادًا إلى أن خطة الغدر التى دبرت لإغتياله لم تكن معروفة فى السودان آنذاك ، كما أن المماليك هم أصحاب المصلحة الحقيقية لإغتياله نسبة للعداء المستحكم بينهم وبين محمد على . انظر :

الشاطر البصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص١٣٤ ورغم أن الوثائق لا تنير الطريق أمامنا فى هذا الموضوع الهام فهى تتركنا وقد غدر إسماعيل ودمدنى وتنتقل بنا فجأة إلى حملات الدفتردار الإنتقامية ، إلا أن الكثير من الرحالة الذين زاروا السودان فى عهد محمد يؤكدون على أن إسماعيل قتل بمؤامرة دبرها نمر زعيم الجعليين . انظر حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق ، ص٥٨(٤) .

(٢٠) دفتر ١٤ معية تركى،ترجمة المكاتبة رقم ٤٢٤ بتاريخ ١٧ شوال سنة ١٢٣٩هـ.

(٢١) كل ثلاثة مقاطع من بفتة القطن تساوى ريالاً فرنسيًا ، دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة الوثيقة رقم ٥٠ بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٣٧هـ .

(٢٢) فى أوائل رجب سنة ١٢٣٧هـ - ١٨٢٢م ثار جنود أحد القواد فى السودان يدعى حسين أغا مطالبين بمتأخرات رواتبهم ، وخوفًا من انتشار الفتنة أمر الدفتردار بصرف مائة قرش لكل واحد منهم ، إلا أنه ما هدأت الفتنة حتى قبض على الرؤوس التى حركتها وأعدمهم رميًا بالرصاص ، دفتر رقم ١٤ معية تركى وثيقة رقم ٤٢١ بتاريخ شوال سنة ١٢٣٧هـ .

(٢٣) دفتر ٢٢١ عابدين " قسم السودان " ترجمة المكاتبة رقم ١٧ ، ١٨ ص٤ بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٥٣هـ .

(٢٤) الوقائع المصرية العدد ١٥٥ بتاريخ الاثنين ٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٥هـ .

(25) Pallme , Travels in kordofan , London 1844,p.342 .
(26) Shukry, M . F., Op.,cit.,p.75 ..
(27) Ipid.,p.76 .
(28) Hill, R.,On The Frontiers of Islam , Oxford, 1970,P.9.
(29) Ibid ., p.p.4-5 .
(30) Hill R., Egypt in the Sudan p 63 .
(31) Hill R.: On the Frontiers of Islam, pp. 12 - 13 .

السبب الرئيسى الذى برر به خورشيد هذا الهجوم على بلاد الشلك هو معاقبة قبائلها لاعتداءاتها المتكررة على العرب الذين سكنوا بالقرب منهم .

(32) Hill , R., op. Cit,.p.13 .

(٣٣) الوقائع المصرية ، عدد رقم ٣٩٩ بتاريخ الثلاثاء ١٥ محرم سنة ١٢٤٨هـ .

(٣٤) الوقائع المصرية ، عدد رقم ٣٨٨ بتاريخ السبت ٣ محرم سنة ١٢٤٨هـ .

(35) Palme,I.,op. cit ,. pp 279 - 280 ..

(36) Hamont, P.A.L'Egypte sous Mehomet Ali , Paris, 1845,pp.579-580 .

(37) Dehrain, Le Sudan EGYPTIEN SOUS MEHOMET Ali, Paris 1940, pp. 189-190.

(٣٨) محمد فؤاد شكرى ومحمد أنيس : نصوص وثائق فى التاريخ المعاصر، ص١٢٣ .

(39) Richard Gray, Op. cit,. p.5 .

(40) Pallme,I.,Op.cit,p.280 .

(٤١) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبة رقم ٥١ ربيع الأول سنة ١٢٣٧هـ .

(٤٢) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبة رقم ١٦١ بتاريخ ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٣٧هـ .

(43) Pallme, I., op,cit.,p.309 .

(٤٤) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ٢٤١ بتاريخ ٨ شعبان ١٢٣٧هـ وكذا .

السيد رجب حراز المدخل إلى تاريخ مصر الحديثة القاهرة ١٩٧٠م ، ص٣٤٠ .

(٤٥) مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل " مصر والسودان فى القرن التاسع عشر " ص٣٤٠ .

(٤٦) مكى شبيكة : مرجع سابق ص٣٤٠ .

(٤٧) د . السيد رجب حراز : مرجع سابق ص٢٢٨ .

(٤٨) سليمان بن محمد الغنام : المرجع السابق ص٥١ .

(49) Hill ,R.Op.cit.,p.108 .

(٥٠) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ٥٤١ بتاريخ ٨ شعبان ١٢٣٧هـ وكذا .

دفتر رقم ٤١٣ معية تركى مكاتبة رقم ٥٨٨ بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى ١٢٦٣هـ .

(٥١) دفتر ٦ معية تركى ترجمة المكاتبة رقم ٧٦٨ ص٣١١ بتاريخ ذى الحجة ١٢٣٦هـ وكذا .

حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق ، ص٥٤ .

(٥٢) دفتر ١٦ معية تركى مكاتبة رقم ١٥٤ بتاريخ ٢٤ جماد أول ١٢٣٩هـ .

(٥٣) دفتر ٢٥ معية تركى مكاتبة رقم ٢٤٤ بدون تاريخ .

(٥٤) دفتر ٦٦ معية تركى أمر ٦٨ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٢٥١هـ .

(55) Shukry, MF.,OP.cit.,P.75 .

(٥٦) دفتر ديوان الخديوى بلا رقم ، وثيقة رقم ١١ بتاريخ ٢١ جمادى الأولى ١٢٤٥هـ .

(٥٧) دفتر ٤١٣ صادر المعيشة السكنية ، ترجمة المكاتبات رقم ٢٥٨٨ بتاريخ ٢٠ ربيع الآخر ١٢٦٣هـ .

(٥٨) دفتر ١٦ معية تركى ، ترجمة الأمر رقم ١٥٤ بتاريخ ٢٤ جماد الأولى سنة ١٢٣٩هـ .

(٥٩) الوثيقة السابقة .

(٦٠) دفتر ٢٥ معية تركى ، ملخص الوثيقة التركيبة رقم ٢٤٤ بدون تاريخ .

(٦١) من تقرير بورنج صاحب التقرير المشهور عن مصر فقد حضر إلى مصر عام ١٨٣٧م وكتب عن أحوال مصر ضمنها ذلك التقرير . ولعل مما أدى إلى خسارة المزارع المصرى سخاؤه ومعاملته الطيبة للرقيق وعدم إرهاقه فى العمل - عكس ما كان يلقاه الرقيق فى أوربا ، فقد كان لا يهم السيد الأبيض إلا استغلال السود مما ترتب عليه تقدم كير فى اقتصاديات تلك البلاد انظر .. محمد فؤاد شكرى وآخرين : وبناء دولة مصر محمد على ، القاهرة ١٩٦٧م ص٥٦٣ .

(٦٢) دفتر رقم ٧١ صادر المعية ، الوثيقة رقم بتاريخ ٢٧ ذو الحجة سنة ١٢٥١هـ .

(٦٣) من تقرير بورنج : ترجمة د. محمد فؤاد شكرى وآخرين: مرجع سابق ، ص٧٨.

(٦٤) دفتر ١٠ معية تركى مكاتبة رقم ١٢٠ بتاريخ ١٢ جمادى أول ١٢٣٧هـ وكذا.
تقرير بورنج : محمد فؤاد شكرى وآخرين : مرجع سابق ، ص٥٨٩ .

(٦٥) مارس بعض الأجانب التجارة فى الرقيق فى ظل حماية قناصل دولهم، الذين استغلوا الامتيازات التى كانت لدولهم فى الولايات العثمانية .

(٦٦) شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٦٩ ص٨٧ - ٨٨ .

(٦٧) حسن أحمد إبراهيم ، المرجع السابق ، ص٧٥ .

(٦٨) د . أنجلو ساماركو : رحلة محمد على إلى السودان (تعريب طه فوزى) القاهرة ١٩٤١م ، ص٨٧ .

(٦٩) د . محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، القاهرة ١٩٤٧م ، ص١٦٤ .

(٧٠) سليمان بن الغنام : المرجع السابق ، ص٥٢ .

(٧١) كان يسمى الرقيق الأسود بالعبيد ، ويسمى الرقيق الأبيض بالمماليك.

(72) Goodell , W Slavery and anti - Slavery , London 1852, p.6.

(73) Coupland, R : The British anti - Slavery Movement , London 1933, pp .Johnston ,: History of the Colonization of Africa , cambridg , 1899.p151 .

(74) Goodell , W.,op.cit.p.6.

(٧٥) كانت السفن البريطانية تقوم بما هو معروف بالرحلة المثلثة ، بمعنى أن تقلع من أوربا محملة بالبضائع مثل الأسلحة والخمور وغيرها ، وتحصل فى مقابلها على الرقيق من أفريقيا ثم تتجه به إلى العالم الجديد ، لبيعه هناك وتشترى بثمنه المنتجات والسلع الأمريكية ، وتنقلها إلى الأسواق الأوربية فى رحلة العودة ، وقد ترتب على ذلك تدمير للمجتمعات الأفريقية ، يقابله تقدم وازدهار فى المجتمعات الغربية ، فقد شارك الرقيق الأفريقى بنصيب وافر فى بناء الاقتصاد الأمريكى قبل ظهور الثورة الصناعية وما ترتب عليها من إنتاج واسع .

(76) Harris, H.J.H,. Slavery or Sacred Truth , 1926,pp.10 - 11 .

(٧٧) حسين مؤنس : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص١٦٦ وهكذا

Hill , R,Op. cit., p.8.

(٧٨) جورنج يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، تعريب على أحمد شكرى القاهرة ١٩٣٧م ، ص٥٨ .

(٧٩) محمد فؤاد شكرى بناء دولة محمد على ، ص٥٧٨ .

(80) Shukry, M.F., Op. cit,.p.79 .

(٨١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص٥٧٨ .

(٨٢) من رسالة الكولونيل كامبل التى أرسلها إلى يلموستون انظر : محمد شكرى وآخرين : المرجع السابق ٥٧٩ .

(٨٣) من تقرير يونج انظر : نفسه ، ص٥٧٨ .

(٨٤) من تقرير يورنج انظر : محمد فؤاد شكرى وآخرون : المرجع السابق، ص٥٨٢.

(85) Shukry M.F.,:op.cit.,.p.78 .

(٨٦) دفتر ٢٢١ عابدين (قسم السودان) ، ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٨٤/١٧ مسلسل ١٥ اصلى ورقة ١٠٥ ص٤ بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٥٣هـ إلا بالمرسلون لاحظ فى رسالة أسلها إلى كامبل بتاريخ ١٧ يناير ١٨٣٨ أن " هذا الأمر ما يزال فى ظاهره يسمح للضباط فى حيش الباشا بأن يحشدوا العبيد أو يقنصوهم ويبعثوا بهم إلى القاهرة حيث يباعون " انظر : محمد شكرى وآخرون : المرجع السابق ، ص٥٨٣ .

(٨٧) حسن أحمد إبراهيم : المرجع السابق ، ص٧٥ .

(88) Shukry , M.F.,op. cit ., p. 86 .

(٨٩) أنجلو ساماركو : رحلة محمد على للسودان ، تعريب طه فوزى ، القاهرة ١٩٤١ ، ص٣٢ .

(٩٠) من تقرير يرونج : محمد فؤاد شكرى وآخرون مرجع سابق ، ص٥٨٩ .

Madden . R.R ; Egypt and Mohamed Ali " London, 1841pp. 112 - 113 .

(٩١) غضبت بريطانيا من محمد على لاحتكاره تجارة الحرير فى الشام والبن فى اليمن والصمغ والعاج فى السودان بجانب التجارة فى مصر ، فأبرمت مع الدولة العثمانية إتفاقية تجارية فى عام ١٨٣٨م وذلك لفك هذا الاحتكار وضد سياسته التوسعية ، وتمكنت بريطانيا بمقتضى معاهدة لندن عام ١٨٤٠م من أن تحصر قوته وتحددها فى داخل مصر نفسها .

(92) F.O. 78/381 . Repport of Bowting . p.329.

(93) Madden R.R.,: op.cit , pp.110 - 114 .

(٩٤) شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣م - ١٨٧٩م) ص١٤٤ .

(95) Shukry , M.e:Op. Cit , p.55; Hill , R.:op . cit .,p.29 .

(٩٦) عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية فى السودان ، الجزء الثانى القاهرة ١٩٤٩م (ثلاثة أجزاء) الجزء الثانى ، ص١٣ .

(٩٧) دفتر رقم ١٠ معية تركى وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ٧ محرم ١٢٣٧هـ .

(٩٨) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، القاهرة ١٩٤٧، القاهرة ، ص٢٩ .

(٩٩) دفتر رقم ٢٦ معية تركى مكاتبة رقم ١٠٠ وتاريخ ٢٩ رجب ١٢٤٢هـ .

(١٠٠) جورج ياتج : المرجع السابق ص٨٥ .

(101) Shukry M.F., m.f ., The Khedive Ismail and salvery in the Sudan (1863 - 1876) . Cairo 1938) p.55 .

(١٠٢) أنجلو سارماكو : المرجع السابق ، ص٨٧ .

(١٠٣) شوقى عطا الله الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الثانى ، ص٨٠ .

(104) Holt , P.M., A Modern History The Sudan , Oxford 1958 .. P.63.

(105) Walis Budge , E.A., p.43The Egyptian Sudan , VAL.2, ,P.225..

(١٠٦) تمكنت بريطانيا بمساعدة بعض الدول الأوربية وتركيا من فرض ما عرف بالتسوية الدولية (١٨٤٠ - ١٨٤١) التى بمقتضاها قصر دولة محمد على - على مصر والسودان تغلغل الفوذ الأوربى فى البلاد ، حيث صارت مصر نفسها تحت إشراف الدول الأوربية الضامنة لتلك التسوية .

(107) Shukry , M.F.,op.cit,p.61.

(108) Holt, P.M.,op.cit.,p.61 .

(109) Shukry , M.F.,op.cit ., A.95.

(110) Robinson, The Rulers of The Sudan , London ,1928,pp.42-43 .

(111) Shukry , M.F., OP.CIT.,P.96 .

(112) Menlly, G : Khartoum and the Bule and White Nile . vol 2. ' London 1851 ' p.183 .

(113) Shukry, M.F.,: op.,cit.pp 96. 97 .

(114) Burn Rollet;Le Nil Blanc et la soudan , Paris 1855, p.178 .

(115) Walis Badge , E.A., op.cit.p.225.

(116) Holt,p.M., op.cit .,p.63 .

(117) Walis Budge., E.A., op.cit .,pp.- 221 - 222 .

(118) Gray , R.,op.cit ., p.51 .

(119) Shukry , M.F.,op.cit,p.108 .

(120) Walis Budge , E.A., op. cit , p.225 .

(121) Shukry , M.F., op.cit .,p. 109 .

(١٢٢) دفتر ٧١ قيد اللوائح مكاتبة رقم بتاريخ ١٤ ربيع أول ١٢٧١هـ .

(123) Shukry , M.F.,op.cit .,p.112 .

(124) Gray , R., op.cit.,p73 .

(125)Ibid.,

(١٢٦) مكى شبيكة المرجع السابق ص٥٨ .

(127) Shukry , M.F., op.cit.,p.116 .

(128) Shukry M.F.,cit.,p.118 .

(129) Walis Badge E.A,op.cit .,p.225 .

(130) Gary R.,op. cit., p82.

(131) Shukry M.F.,op.cit.,p.118 .

(١٣٢) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى ، ص١٦٦ .

(133) Halt P.M., op.cit ., p.61 .

(١٣٤) المرجع السابق ، ص٧٩ .

(135) Gray R.,op. cit ., p.p 56,61 .
(136) Shukry M.F.,op .124-125 .
(137) Colvile H.E. History of the Sudan 1889 , p4 .
(138) Holt P.M., op. cit ., p.63 .
(139) Shukry M.F., op. cit ., p.127 .
(140) Holt P.M., op. cit ., 66.
(141) Wudlge E.A., op.cit., p.2260 .
(142) Nieber . H. J . Slavery as on Industrial System , 1910,p.137 .
(143) Walis Budge E.A., op. cit., pp . 225 - 226 .
(144) Shukry M.F., op. cit ., p. 131 .

(١٤٥) مكى شبيكة : المرجع السابق ، ص٨٢ .

(١٤٦) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص١٧٣ .

(١٤٧) دفتر ٧١ تركى مكاتبة رقم ١٠ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨١هـ .

(١٤٨) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، الجزء الثانى ، بيروت ١٩٦٧م ، ص٥٢ .

(149) Shukry M.F., op. cit ., p.132 .
(150) Shukry Ibid ., op. cit , p.132.

(١٥١) كان من الثابت أن فى وقت صدور " الوركو " كان رجال " بيترك " يتاجرون فى الرقيق وبعد مراسلاته مع الحكومة المصرية من وجهة ومع الحكومة البريطانية من جهة أخرى وافق إسماعيل على دفع تعويض له عن منشآته بلغت خمسمائة عشر ألف من الجنيهات.

(152) Walis Bude E .A.,op cit., p. 228 .
(153) Shukry M.F., op .cit., p. 139 .

(١٥٤) فؤاد شكرى المرجع السابق ، ص١٧٣ .

(١٥٥) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الثانى بولاق مصر ١٣١٢هـ ، ص٣١٤ ، ٣١٦ .

(156) Allen : Gordon and the Sudan , London 1931 . p.I .

(١٥٧) انظر نص العقد المبرم بين الخديوى وبيكر فى ٢٧ مارس ١٨٦٩م نقلاً عن وثائق عابدين محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢٥٥ .

(158) Holt . P.M., op cit., p.26.
(159) Archer, I.: The War in Egypt and The Sudan , Vol I., London 1886, p. 123.

(١٦٠) إسماعيل سرهنك : المرجع السابق ، ص٣٣٥ .

(160) Halt P.M., op. cit ., P.27 .
(162) Lord Elton , General Gordon , London , 1954., p.170 .
(163) Shukry M.F.,op. cit ., p 174 .
(164) Ibid .,p.264 .

(١٦٥) تعليمات الخديوى إلى غردون فى ١٦ فبراير ١٨٧٤م انظر : محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص٢٦٤ ، ٢٦٧ .

(١٦٦) إبراهيم فوزى : السودان بين يدى غردون وكتشنر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٠٢م ، ص١٠ .

(١٦٧) عن تاريخ حياة الزبير رحمة ، انظر نعوم شقير : المرجع السابق ، ص٦٠ - ٨٨

(168) Shukry M.F.,op. cit p. 152 .
(169) Sobry : M., L egyptien sous Ismaol , Paris 1933. p.339 .

(١٧٠) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص١٨٦ .

(١٧١) نعوم شقير : المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص١٣٨ .

(١٧٢) انظر ملحق رقم (١) فيه نص المعاهد بالتفصيل .

(173) Gordon , H.W.: Events in the Life of Gordon From its Beginning to its End , London 1886 , p.126 .
(174) Holt P.M., op . cot., p.26 .
(175) Cratites , p.: Gordon , the Sudan , and Slavery , london 1933. p .79 .

(١٧٦)محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص٢٠٤ .

(177) HII,R ., op.cit. ,p147 .
(178) Ibid., p.145 .
(179) Ibid., p. 146 .
(180) Holt , P.M., op . cit ., p.30 Shukry ,M.F,. op cit ., pp .297 - 299 .
(181) Cromer The Earl of Modern Egypt Vol. I, New York. 1908. pp. 553-554.
(182) Hill . R., op . cit., pp . 145 - 146 .

(١٨٣) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، الوضع التاريخى للمسألة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص١١٧ / ١٢٠ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : وثائق أصلية :

وهى مودعة بدار الوثائق القومية ، بالقلعة ، فى الدفاتر الآتى أرقامها :

دفاتر معية تركى أرقام : ٦، ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٤١٣ .

دفتر عابدين رقم : ٢٢١ .

دفتر ديوان خديوى تركى بدون رقم :

ثانيًا : وثائق منشورة :

١ - تقرير " جون بورنج "Bowring ويتضمن حالة البلاد من النواحى الاقتصادية والإدارية والعسكرية ، بجانب حديث محمد على عن الرق وتجارته أنظر محمد فؤاد شكرى وآخرون بناء دولة مصر محمد على ، القاهرة ١٩٦٧م ص .

٢ - تقرير باتريك كامبل قنصل إنجلترا العام فى مصر وقد تناول فى هذا التقرير الذى رفعه إلى اللورد بالمستون فى ٦ يوليو ١٨٤٠م ، أحوال مصر الاقتصادية والسكانية ونظام الرق فى السودان والتجارة فيه وقد جاءت ترجمته العربية بكتاب محمد فؤاد شكرى .

ثالثًا : المصادر والمراجع العربية :

- **إبراهيم فوزى** : السودان بين يدى غردون وكتشنر ، القاهرة ١٩٠٢م .
- **أحمد شفيق** : الرق فى الإسلام ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأهلية ١٣٠٩هـ .
- **أحمد كاتب الشونة** : تاريخ ملوك السودان ، تحقيق مكى شبيكة .
- **إسماعيل سرهنك** : حقائق الأخبار عن دول البحار ، جزءان ، بولاق مصر ١٣١٢هـ .
- **السيد رجب حراز** : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ، القاهرة ١٩٧٠م.
- **الشاطر بصيلى عبد الجليل** : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٥م .

- **جورج بانج** : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل تعريب علي أحمد شكري ، القاهرة ١٩٣٧م .
- **حسن أحمد إبراهيم** : محمد على فى السودان ، دار التأليف والترجمة والنشر ، الخرطوم (د.ت) .
- **حسين مؤنس** : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث القاهرة .
- **سليمان محمد الغنام** : قراءة جديدة لسياسة محمد على باشا التوسعية فى الجزيرة العربية (١٨١١ - ١٨٤٠) تهامة ١٤٠٠هـ .
- **شوقى عطا الله الجمل** : تاريخ سودان وادى النيل، جزءان ، القاهرة ١٩٦٩م.
- **شوقى عطا الله الجمل** : الوثائق التاريخية السياسية ، مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣ - ١٨٧٩) القاهرة .
- **عبد الرحمن الجبرتى** : فى التاريخ المسمى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، والجزء الرابع ، القاهرة ١٣٦٠هـ .
- **عبد العزيز أمين عبد المجيد** : تاريخ التربية فى السودان ، ثلاثة أجزاء ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٤٩م .
- **عبد الله حسين** : السودان من التاريخ القديم .
- **على عبد الواحد وافى** : حقوق الإنسان فى الإسلام ، الطبعة الخامسة ، دار نهضة مصر ١٩٧٩م .
- **محمد فؤاد شكرى ومحمد أنيس** : نصوص ووثائق فى التاريخ المعاصر .
- **محمد فؤاد شكرى** : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥م القاهرة ١٩٤٨م .
- **محمد فؤاد شكرى وآخرين** : بناء دولة مصر، محمد على ، القاهرة ، ١٩٦٧م.
- **مصطفى مسعد** : اليقط نمط فريد فى مجال العلاقات الدولية فى الإسلام بحث فى مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد الخامس ، الرياض ، ١٣٩٥هـ / ١٩٥٧م .

- مكى شبيكة : السودان فى القرن (١٨١٨هـ - ١٩١٩م) ، القاهرة ١٩٤٧م.
- مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل ، " مصر والسودان فى القرن التاسع عشر " القاهرة .
- نسيم مقار : السودان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦١م .
- نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية ، ثلاث أجزاء بيروت ، ١٩٦٧م .

رابعًا : المترجمة :

- أنجلو ساماركو : رحلة محمد على إلى السودان ، تعريب طه فوزى ، القاهرة ١٩٤١م .
- بوركهارت (جون لويس) : رحلات بور كهارت فى بلاد النوبة والسودان ، تعريب فؤاد أندراوس ، القاهرة ١٩٥٥ .

خامسًا : الدوريات :

- الوقائع المصرية : عددهم رقم : ٣٩٩ بتاريخ الثلاثاء ١٥ محرم سنة ١٢٤٨هـ .
- الوقائع المصرية : عدد رقم : ١٥٥ بتاريخ الاثنين ٢٩ ذىالحجة سنة ١٢٤٥هـ.
- الوقائع المصرية : عدد رقم : ٣٨٨ بتاريخ السبت ٣ محرم سنة ١٢٤٨هـ.

خامسًا : الأجنبية :

- Arkell ., History of The Sudan From The Earlest Times to 1821 .
- Allen , B.M. Gordon and The Sudan , London 1931 .
- Archer , T ., The War In Egypt and The Sudan , London 1886 .
- Brace ,. Travels to discover the Source of the Nile , 5 vols . 1970 .
- Cany , Notice Sur Le Darfour et sur Les Cardavans , pARIS 1854 .
- Coupland , R., the British Anti - Slavery Movement , London 1933 .
- Crabites , P., Gordon , The Sudan and Slavery , London 1933 .
- Cromer , The Earl of Modern Egypt . New york 1908 .
- E.Awalis Budge , The Egyptain Sudan , London .
- Doun , G , History da Regna khedive Ismail , Le Caire 1933 .

- Goodell , W ., Slavery and anti - Slavery , London 1922 .
- Gordan , H . W ,. Events in the life of Gordon From its Beginning to its end , London 1886 . - Hair ., The Atlantic Slave Trade and Black Africa , London 1978 .
- Harald Macad Macad cheel . The Sudan 1954 .
- Heneri Diherain , Le Sadan Egyptian Soua Mehemet Ali, Paris 1940 .
- Henry Dod well , The Founder of Modern Egypt, 1931 .
- Hill , R., Egypt in The Sudan , London , London 1959 .
- Hamont , P . A L Egypte Sous Mehomet Ali , Paris 1845 .
- Harris , H . J ., Slavery or Sacred Trath , London 1926 .
- Calvile . H . E . History of The Colonization of Africa , Compeiga . Part I . Press 1889 .
- Johnston , H ., History of the Colonixation of Africa , Camb 1899 .
- Lautare , Netice Sar Le Karda fan , Paris 1851 .
- Lord Elton , : Goneral Gordon , London 1954 .
- Mortin, Stadia Arabica of Islamica. American University of Beirut 1981.
- Madden, R ., Egypt and Mohamed Ali . London 1841 .
- Melly, G., Khartoum and the Blae and White Nile . Vol. 2, London 1851 .
- Nieboer , H,J., Slavery as an Industrial System , 1910 .
- Holt . P . m . Amodorn History of the Sudan , London , 1972 .
- Robinson., The Gray . Ahistory of the Southera Sudan . sfod 1961 .
- Robinson., The Rulers . London 1928 .
- Shukry, M.F., The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan , Cairo 1938 .
- Sbry, M.: L'Empire Egyptien Sous Ismail, 1863-1879. PARIS 1923 .

أضواء على بعض التحف الفنية

التى أهداها السلطان قايتباى للحجرة النبوية

د. عائشة عبد العزيز محمد التهامى(*)

تحتل دولة سلاطين المماليك(١) (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م) مكانة هامة وموقعًا بارزًا فى تاريخ الحضارة الإسلامية . ذلك أن عصر سلاطين المماليك اتصف بالتفوق الحربى والاستقرار الأمنى والنشاط الاقتصادى ، مما انعكست صورته فى الازدهار الحضارى . وساعد على هذا الازدهار وفرة الثراء والمال ، نتيجة احتكار سلطنة المماليك للتجارة العالمية بين الشرق والغرب ، مما عاد على دولة المماليك بالخير فى الداخل والخارج . ويتمثل جزؤ كبير من الازدهار الحضارى فيما خلفه ذلك العصر فى مجال الفنون على تباين فروعها وأوجهها .

ويعتبر عهد السلطان قايتباى(٢) من العصور الذهبية فى دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤ - ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) حيث أمتد حكمه بالديار المصرية والشامية قرابة تسعه وعشرين عامًا (٨٧٢ - ٩٠١هـ/١٤٩٦م)(٣) ، وهى مدة طويلة لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، الذى تسلطن ما يقرب من أربع وأربعين عامًا(٤) .

وفى هذا العهد الطويل أثبت السلطان قايتباى أنه من أمهر سلاطين دولة المماليك الجراكسه سواء فى خبرته وحنكته ودرايته بكافة الأمور ، أو فى شجاعته وبُعد نظره ونشاطه وحزمه وقوة شخصيته . وحسبه أن المؤرخ المعاصر ابن أياس(٥) ، وصفه بقوله : " وعاش عمره كله فى عز وشهامة من حين كان

---

* مدرس الآثار الإسلامية - كلية الآداب - قنا .

خاصكيا(٦) إلى أن بقى سلطانًا ، وافر العقل ، سديد الرأى ، عارفًا بأحوال المملكة ، يضع الأمور فى نصابها " .

أما ابن العماد(٧) ، فقد وصف أيام قايتباى بأنها أكانت كالطراز المذهب فى الخيرات والمبرات ، هذا فى حين قال السخاوى(٨) : " بأن السلطان قايتباى كان له خضوع لمن يعتقد فيه العلم والصلاح " .

وبخصوص اعتقاده فى أهل الدين والصلاح يقول الغزى(٩) : " حكى أنه - أى قايتباى قبل أن يصبح سلطانًا - تنبأ له البعض بأن أمره يؤول إلى السلطنة . وفى موضع آخر يؤكد ابن العيدروس هذا الاعتقاد فيقول : " كان بعض أولياء الله تعالى قد أشار إلى ملكه قبل أن يفضى إليه الملك بزمام ، فقال له فى واقعة : " أنت أيها الملك الأشرف قايتباى " .

ويتفق هذا مع ما عرف عن قايتباى من تهجد وتعبد وترديد أوراد ، مع شهرته بالعفة والديانة والتقوى والصيانة(١٠) . وعن عدله يصفه الصيرفى(١١) فيشير إلى : " تواضعه للضعيف والفقير والبائس والمحتاج مع شدة سطو حرمته على الجبابرة والمتمردين والظلمة والفجار والمتكبرين " .

وصفوه القول أن المؤرخين المعاصرين(١٢) أجمعوا على أن السلطان قايتباى: " كان ملكًا جليلاً ، وسلطانًا نبيلاً له اليد الطولى فى الخيرات والطول الكامل فى أشد المبرات ، جامع أشتات الفضايل والفواصل حاوى المحاسن والمآثر، وكانت محاسنه أكثر من مساوئه " ، وقد ورد بيت الشعر فى هذا المقام :

ومن ذا الذى ترض سجاياه كلها كفى المرء فضلاً أن تعُد معايبه

وكان أن انعكست هذه الصفات وتلك الشخصية على فترة حكمه فجعلتها من أخصب فترات عصر دولة سلاطين(١٣) . ويهمنا فى هذا البحث أن هذه

الصفات التى تحلى بها قايتباى جاءت مصحوبة بحبه للبناء والتعمير والإنشاء(١٤)، حتى لبست البلاد فى عهده ثوبًا قشيبًا واكتسبت فنًا جميلاً لكثرة عمائره وفخامتها .

وعلى الرغم من أن هناك بعض المؤرخين(١٥) والمستشرقين(١٦) وصفوا قايتباى بالشح والبخل ، فإن آثاره ومنشآته الباقية حتى اليوم تشهد على أنه استغل المال فى الإنشاء والتعمير ، ليس فى مصر فحسب بل فى بلاد الشام والحجاز أيضًا ، بحيث قل أن يخلو حى من أحياء القاهرة أو إقليم من أقاليم الدولة فى بلاد الشام وبلاد الحجاز(١٧) ، من أثر مشهور له . وهكذا ترك اسمه مسطورًا على ما يزيد عن سبعين أثرًا إسلاميًا ما بين إنشاء أو تجديد أو ترميم ، هذا بالإضافة إلى إصلاح آثار أسلافه والتى سجل اسمه عليها أيضًا(١٨) .

وقد بلغ من اهتمام هذا السلطان بالعمارة أنه كان يشرف بنفسه على إنجاز عمائره . وهناك الكثير من المهندسين والمعماريين الذين قاموا بتصميم تلك العمائر، من أشهرهم آنذاك المهندس / البدرى حسن بن الطولونى(١٩) . ويعزى تنوع الطرز المعمارية الفنية فى عمائر قايتباى إلى كثرة هؤلاء المهندسين(٢٠) الذين صمموا وأشرفوا على تنفيذ تلك الأعمال من حيث تناسق رسومها وتنوع زخرفها وجمال نقوشها(٢١) .

والحق أن بلاد الحجاز حظيت بقسط وافر من عناية قايتباى(٢٢) نظرًا لما لها من مكانة كبيرة تتناسب مع قدسية وجلال هذه البلاد ، وليثبت للعالم أجمع أن سلطان مصر وبلاد الشام جدير بلقب " خادم الحرمين الشريفين(٢٣) " .

وإذا كان سلاطين المماليك قد واصلوا العناية بإرسال الكسوة إلى الكعبة كل عام(٢٤) وخصصوا لنسج وتطريز هذه الكسوة بالخرنفش مجموعة من مهرة الصناع المصريين من حياكين ونساجين ومطرزين وخطاطين(٢٥) ، فإن السلطان

قايتباى بالغ فى العناية بأمر كسوة الكعبة ، فضلاً عن أنه أنشأ بمكة عند باب السلام بجانب المسجد الحرام(٢٦) مدرسة لطيفة(٢٧) ، وبجانبها رباط للفقراء والطلبة مع إجراء الخيرات لأهلها كل يوم ، كما انشأ سبيلاً عظيمًا(٢٨) ومكتبًا للأيتام .

كذلك اجتهد السلطان قايتباى فى عمارة مسجد نمره ومسجد الخيف بمنى(٢٩) ، كما عمر عين عرفه(٣٠) ، وأصلح بئر زمزم والمقام ، وعمر ساقية سيدنا العباس(٣١) عم الرسول ﷺ .

ومثلما أهتم السلطان قايتباى بمكة المكرمة وعمارتها بوصفها قبلة المسلمين وحجاج بيت الله الحرام ، كذلك أولى عناية كبرى بالمدينة المنورة وبالمسجد النبوى الشريف . يذكر لنا المؤرخ المعاصر ابن أياس(٣٢) ، مدى حرص السلطان قايتباى على إقامة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف كل عام فى شهر ربيع الأول فيقول : " وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلاً ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة ، وكان السلطان شرع فى عمل خيمة كبيرة مدورة برسم المولد الشريف ، وقيل أن مصروفها ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، فنصبها فى ذلك اليوم بالحوش " .

وعندما سقطت صاعقة عظيمة(٣٣) سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م على المسجد النبوى الشريف ، أحرقت المنارة وسقوف المسجد جميعها والمنبر والحوائط والأعمدة والأبواب ، أمر السلطان بإصلاح وتجديد عمارة المسجد وتعويض ما التهمه الحريق من كتب ومصاحف ، وبعث ذلك على يد مؤرخنا الشهير الشيخ السمهودى(٣٤) ، الذى وصف ما حمله معه من مصر إلى المدينة فقال : " بحيث اجتمع من ذلك أكثر مما فات ، وكذلك الكتب بعث بجانب منها ووعد بإرسال ما يحتاج إليه " . كذلك أمر قايتباى بأنشاء مئذنة خامسة(٣٥) للمسجد على باب الرحمة ، ربما محل تلك التى كانت قد شاهدها ابن جبير(٣٦) سنة ٥٨٠هـ فى رحلته

إلى المدينة المنورة وزيارته مسجد الرسول ﷺ ، إذ ذكر عدد المآذن ، فقال : "وللمسجد المبارك ثلاث صوامع أحدها فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة ، والاثنان فى ركنى الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة برجين ، والصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع" ، كما قال أيضًا ابن بطوطة فى سنة ٧٢٦هـ، فى رحلته لمسجد خاتم النبيين ، فقال : " وجعل عمر للمسجد أربع صوامع فى أربعة أركانه " . وقد جدد قايتباى المنبر والحجرة النبوية الشريفة ، وكذلك المصلى النبوى ، وعمل للمسجد قبتين بديعتين(٣٦) ، بالإضافة إلى أنه جعله رباطًا(٣٧) للفقراء والطلبة مع تفرقة الخبز كل يوم ، علاوة على إنشاء سبيل هائل يرتوى منه الغنى والسائل . كذلك تم فى عهده إنشاء مقصورة حديدية جديدة للحجرة النبوية الشريفة فى سنة ٨٨٨هـ/ سنة ١٤٨٣م . يذكر لنا ابن أياس(٤٠) : " أن زنه هذه المقصورة الحديدية أربعمائة قنطار من الحديد ، وقد حملت إلى المدينة المنورة على سبعين جملاً " .

وبالإضافة إلى الإنشاء والبناء والترميم والإصلاح لكثير من أثار أسلافه بالمدينة المنورة ، فقد نقش قايتباى اسمه أيضًا على الكثير من التحف الفنية التى أهديت إلى المدينة من السابقين من الملوك والسلاطين والأمراء والعظماء . ومن هذه التحف الفنية ، الشمعدانان النحاسيان اللذان أوقفهما السلطان قايتباى على الحجرة النبوية الشريفة ، ويحتفظ بهما الآن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

وبالنسبة للشمعدان الأول فهو من النحاس الأصفر(٤٢) (صورة ١)(٤٣)، ويتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية ، البدن وهو الجزء الأسفل والأكبر مساحة ، قوام زخرفته ، كتابة دعائية باستدارة البدن وبخط الثلث المملوكى(٤٤) - على مهاد من الزخارف النباتية - نصها " عز لمولانا السلطان الملك العادل المجاهد سلطان * الإسلام والمسلمين(٤٥) الملك الأشرف أبو النصر قايتباى " ويلاحظ أن ألفات ولامات حروف النص الكتابى السابق ، تتقابل من أعلى مكونة شكل أهلة(٤٦)،

كل هلال داخله وريدة صغيرة . وهكذا استطاع الفنان أن يطوع هامات الحروف العلية ، ويجعل من هامة كل حرفين متجاورين شكل نصف هلال ، مكررًا ذلك فى النص . ومما لا شك فيه أن الفنان بتحويره لنهايات تلك الحروف الصاعدة قد أخرج لنا تشكيلاً فنيًا وزخرفيًا رائعًا ، فبدت هذه الحروف فى صورة جميلة من التنسيق والتماثل والتكرار .

ويفصل هذان النصان الكتابيان دائرتان مفصصتان من الخارج ، داخل كل منها رنك كتابى(٤٧) ، هذا الرنك مقسم إلى ثلاثة أقسام ، القسم العلوى نقش به بخط الثلث المملوكى عبارة : " أبو النصر قايتباى " و القسم الأوسط وهو الأكبر ونقش عليه بنفس الخط عبارة " عز لمولانا السلطان الملك الأشرف " ، والقسم السفلى وهو مماثل العلوى فى المساحة ونقش عليه وبنفس الخط أيضا عبارة " عز نصره " (شكل ١) . ويلاحظ أن هذه الخطوط النسخية كتبت على أرضية من الزخرفة البنائية قوامها وريقات نباتية ثلاثية ؛ مما أضفى على هذه الخطوط وتلك النقوش عنصرًا جماليًا .

ويحف منطقة البدن ، من أعلى وأسفل إطاران رفيعان متماثلان من الخطوط المائلة ، يليهما إطاران متشابهان أعرض من السابقين تزخرفهما رسوم بنائية ذات أفرع تحمل زهورًا وورودًا وأوراقًا مختلفة الأشكال(٤٨) والأحجام .

ويعلو منطقة البدن السفلية ، منطقة الرقبة وهى أسطوانية الشكل وتتعامد على المنطقة السابقة ، وتنقسم إلى ثلاثة أشرطة أو إطارات باستدارة الرقبة ، الشريط الأوسط أوسعهم ، وقوام زخرفته كتابة بخط الثلث المملوكى نصها " عز لمولانا السلطان الملك العادل المجاهد(٤٩) المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى" ويحف هذا الشريط الأوسط شريطين آخرين أقل عرضًا من الأوسط - يحويان زخرفة نباتية من فروع ملتفة تحمل زهور اللوتس وأوراق العنب بالإضافة إلى ورود ذات أشكال مختلفة .

ويربط منطقة البدن بالرقبة ، الكتف ، وهو أفقى ومسطح وقوام زخرفته نص كتابى بخط الثلث المملوكى عبارته " عز نصره * فى شهر رمضان المعظم قدرة " ، ونقش هذا النص الكتابى على مهاد من الزخرفة النباتية ذات الزهور والورود والأفرع النباتية الملتفة .

ويعلو منطقة الرقبة الرأسية ، تجويف علوى لكى توضع به وسيلة الإضاءة من شمع أو خلافة – ويزين هذا التجويف كتابة نسخية بخط الثلث المملوكى على مهاد من الرسوم النباتية نصها " هذا ما أوقف على الحجرة النبوية مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى بتاريخ سنة سبع وثمانين وثمانمايه " (شكل ٢).

ويلاحظ أن المساحة التى نقش عليها النص الكتابى غير كافية لتكملته ، فنجد أن الفنان استكمله على المساحة الأكبر من الكتف بعبارة " عز نصره* " ، "فى شهر رمضان المعظم قدرة " كما ذكرنا من قبل .ويفصل هذا النص الكتابى ، دائرتين صغيرتين مفصصتين من الخارج ، وتنقسم كل منهما من الداخل إلى ثلاثة أقسام ، القسم العلوى نقش عليه بخط الثلث المملوكى : قايتباى ؛ والقسم الأوسط وهو الأكبر ، نقش عليه بنفس الخط عبارة : السلطان أبو النصر ، والقسم السفلى وهو مماثل للعلوى فى المساحة – ونقش عليه أيضًا بنفس الخط عبارة : " عز نصره " (شكل ٣) .

* * *

بالإضافة إلى الشمعدان النحاسى السابق الذكر ، فإن متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، يحتفظ كذلك بشمعدان نحاسى آخر (صورة ٢)(٥١) ، أوقفه أيضًا السلطان قايتباى على الحجرة النبوية بمسجد الرسول ﷺ ، وهو يشبه الشمعدان السابق ذكره ، وذلك من حيث الشكل العام والأسلوب الزخرفى والعناصر الكتابية والدعائية ، ولكن هناك اختلاف بسيط(٥٣) فى النص الكتابى على البدن.

وهناك ثمة ملحوظة هامة تجب الإشارة إليها ، هى أن السلطان قايتباى أهدى الحجرة النبوية الشريفة بمسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة ، مايقل عن خمسة شمعدانات وذلك فى عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م حيث كانت - ولا زالت - هذه الأهداءات بمثابة عمل خيرى داوم عليه سلاطين وأمراء دولة المماليك ، وأيضًا حكام الدول الإسلامية على مر العصور . وكانت الحجرة النبوية الشريفة تحوى الكثير من الجواهر الفاخرة والتحف العامرة والذخائر النفيسة التى لا تقدر بثمن من الناحية المادية وكذلك الفنية . ولكن من المؤسف أن كثيرًا ما كانت تتطاول يد الأشرار والمفسدين من ولاة المدينة ذوى النفوس الضعيفة والضمائر المعدومة إلى هذه التحف وتلك الأهداءات(٥٣) ، فينبهون ما يروق لهم .

كذلك كانت تحدث أحيانًا قلاقل وفتن فى المدينة المنورة بسبب عبث بعض الأشراف ، ونشوب بعض الصراعات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، كل هذا كان يؤدى إلى كثير من حالات الاضطراب والفوضى(٥٤) ، ومن هذه الأحداث المؤسفة على سبيل المثال دخول بعض المفسدين الحجرة الشريفة بقوة السلاح ونهب ما فيها من قناديل ذهبية وفضية وختمات شريفة وزيت المصابيح وشموع التراويح . ويضيف السمهودى(٥٥) ، بأنه قد بلغ الحد بهذه الشرذمة إلى سرقة ونهب كسوة الضريح الشريف والقناديل المعلقة حوله .

وأوضح دليل على صحة ما ذكره مؤرخو ذلك العصر من نهب هذه التحف وصول هذين الشمعدانين النحاسيين اللذين أوقفهما السلطان قايتباى ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م على الحجرة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة ، كما هو منقوش وثابت بالنص الكتابى عليهما ، إلى مصر حيث يحفظان اليوم بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

بالإضافة إلى الشمعدانين السابق ذكرهما ، فقد أهدى أيضًا السلطان قايتباى الحجرة النبوية الشريفة مصحفًا كبيرًا أطلق عليه مؤرخو ذلك العصر(٥٦)

" مصحف حمايلى " أى ينوء بحمله الإنسان ، ولا يستطيع ذلك ربما لثقل وزنه وكبر حجمه . إذ أنه حمل على جمل بمفرده ، وكان من النوادر على حد تعبير ابن أياس.

وقد كتب هذا المصحف الشريف الخطاط الشهير شاهين النورى ، ومات ولم يتمه ، فأكمله الخطاط وكاتب الوثائق خطاب بن عمر الدنجاوى بأمر من السلطان قايتباى . ويعد غلاف هذا المصحف من أبدع الأغلفة الجلدية ذات الزخارف المضغوطة(٥٧) والمذهبة من ذلك العصر . (صورة ٣)(٥٨) وقوام زخرفة هذا الغلاف جامة(٥٩) مستديرة (صورة ٤) ذات تفصيصات نصف دائرية يبلغ عددها ستة عشر تفصيصًا ، داخل كل تفصيص دائرة صغيرة مذهبة . ومثلها على الحافة الخارجية ، فيعطى شكل إشعاعي كقرص الشمس ، بينما يخرج من التفصيصين العلويين والسفليين شكل دلاية على هيئة ورقة نباتية ثلاثية البتلات، ويتوسط مركز هذه الجامة شكل نجمى سداسى الأضلاع ، يزخرف كل ضلع أشكال هندسية مختلفة تتداخل ويتشابك بعضها مع البعض مكونة أشكالاً جديدة (شكل ٤) .

ويزخرف كل ركن من الأركان الأربعة لهذا الغلاف ، حليات نباتية ثلاثية البتلات ، كونت شكلاً جميلاً مع الجامة المستديرة . أما عن المصحف الشريف من الداخل ، فورقة " فاتحة الكتاب " ممزقة ومتآكلة ، ويقابلها " سورة البقرة " مذهبة على أرضية زرقاء(٦٠) . وقد كتبت الأيات القرآنية الخمس من سورة البقرة باللون الذهبى ، وبخط الطومار(٦١) ، داخل مستطيل يحيط به أطار خارجى أزرق اللون يحوى زخارف نباتية مورقة وملتفة ومتشابكة (أرابيسك) بلون ذهبى(٦٢).

وفى ختام المصحف الشريف كتبت هذه الآية(٦٣) الكريمة : ﴿ وتمت كلمات ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ بخط الثلث المملوكى ، بلون ذهبى على أرضية زرقاء ، وذلك داخل سبع دوائر متداخلة يحدها شكل مستطيل مزخرف بوحدات متضافرة على هيئة جدائل .

وأسفل هذا المستطيل نقرأ بخط الطومار " كتبه خطاب بـن عمـر الدنجـاوى سنة سبع وثمانين وثمان مائة من الهجرة النبوية " (شكل ٥) (٦٤) .

وهذا المصحف المهدى إلى الحجرة النبويـة الشـريفة محفـوظ هـو الآخـر فـى القاهرة بدار الكتب المصرية .

الهوامش

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨م ، ص٧١

- عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٥٤١

- سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٤ ، ص٣٧٨

(٢) لقد بويع قايتباى بالسلطنة سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٨م ، ولُقب بالملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى ، وأُحْضِر له شعار السلطنه أو المُلك وهو العمامة السوداء والجبة السوداء المطرزة بخيوط ذهبية والسيف العربى وضُربت له البشاير فى القلعة نودى بأسمه فى القاهرة ، وصار حينئذ السلطان الحادى والأربعون من ملوك الترك ، والخامس عشر من الجراكسة وأولادهم بمصر .

- ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ، حـ٨ ، ص٧

- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م ، حـ٣ ،ص٤

- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق جمال محرز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١م ، حـ٦ ، ص٣٩٥

- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ ، حـ٢ ، ص١٨٥

- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٩-١٩٢٢ ، حـ٣ ، ص٢٧٤

ENCYCLOPEDIA DE ISLAM, TOME II, 1927, P. 704.

(٣) المقدسى : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٠٣ تاريخ تيمور) ، ورقة ١١١ - ١١٢

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص١٢٥ - ١٢٦

- سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م، ص٣١٧

(٥) ابن أياس ، بدائع الزهور ، حـ٣ ، ص٣٢٥

(٦) خاصكى ، والجمع خاصكيون وخاصكية ، وهم جماعة من أخصاء السلطان ، يأتون فى الترتيب بعد الأمراء المقدمين ، كان عددهم فى أول الأمر أربعة وعشرين ، ثم زادوا على الأربعمائة أو نحو خمسمائة نفر منهم أمراء وغيرهم ، وقد تمتع الخاصكية بمكانة كبيرة ، فكانوا يدخلون على السلطان دون استئذان ، وأجزل لهم السلاطين الهبات والعطايا .

- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٨١ ، وسعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤١٧

(٧) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٨ ، ص٨ - ٩

(٨) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ ، جـ٦ ، ص٢٠٢ - ٢٠٣

(٩) ابن العيدروس : النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (جـ٩٧٣٣) ورقة ٢٠ - ٢١

- الغزى : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، بيروت ١٩٤٥ ، جـ١ ، ص٢٩٧ - ٢٩٨

- ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٧

(١٠) السيوطى : تاريخ الملك الأشرف قايتباى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم (٦١ تاريخ) .

(١١) ابن الصيرفى : إنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٧م، ص٣٣٨

(١٢) المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٢

- ابن الجيعان : القول المستظرف فى سفر مولانا الملك الأشرف ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢١٠ تاريخ) .

- السخاوى : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص٢٠٢ - ٢٠٣

(١٣) عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص١٨٩

- عبد الرحمن زكى : بناة القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص٦٧

(14) LANE POOLE, THE ART OF THE SCARACENS IN EGYPT, LONDON, 1866,P. 94.

- حسنى محمد نويصر : منشأت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراة ، كلية الأثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص٨ ، ١١

- كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ، ص٤٧

- فييت (جاستون) ، القـاهرة مدينـة الفـن والتجـارة ، ترجمـة د. مصطفـى العبـادى ، كتاب اليوم ، ١٩٩٠ م ، ص١٥٥

(١٥) ابن أياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص٣٢٦

(١٦) لينبول : سيرة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص٢٠٣

(١٧) سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ، ١٩٨٠م ، جـ ص٢٢٠

(18) ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM, TOME II, P. 705.

(١٩) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٦ ، ص٢٠٨

- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، جـ١، ص٢٧٤

- محمد مصطفى نجيب : العمارة فى عصر المماليك ، مقالة من القاهرة ، تـاريخ فنونهـا. آثارها ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

(٢٠) أحمد تيمور باشا : المهندسون الإسلاميون ، بمجلة الهندسة ، العدد٢، ١٩٢٣ ، ص٧٩ – ٨٠

(٢١) لينبول : سيرة القاهرة ، ص٢٠٧

(٢٢) لقد سافر السلطان قايتباى للحـج ٨٨٤هـ/١٤٧٩م ، وبـدأ بالمدينـة المنـورة لزيـارة قـبر الرسول ﷺ ، وأجزل الهبات والعطايا حتى قيل أنها بلغت أكثر من ستة آلاف دينار .

- ابن أياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٥٩

- السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميـد دار الباز للنشر ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، جـ١ ، ص٧١٣

(٢٣) خادم الحرمين الشريفين ، ورد لفظ خادم كوظيفة فـى كثـير مـن الكتابـات علـى الآثـار العربية ، والخادم هو من يقوم بالخدمة ، وفى موضع آخر استخدم لفظ خادم كترجمة تدل على التواضع ، كما دخلت الكلمة فى تكوين بعـض الألقـاب المركبـة الفخريـة ، ومنهـا "خادم حرمى الله ورسوله" ، " خادم الحرمين الشريفين " ويقصد بها المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة . وقد تلقب بهـذا اللقـب الكثـير مـن سـلاطين الممـاليك ، وذلك للدلالة على سيادتهم على الأقطار الحجازية وحمـايتهم للحرمـين الشـريفين ، كمـا أنها ترمز إلى شمول نفوذهم على العالم الإسلامى . ومن هؤلاء السـلاطين الذين حرصوا

كل الحرص على تشريفهم بخدمة الحرمين الشريفين - ومن ثم كان إطلاق هذا اللقب عليهم في محله - السلطان الأشرف أبو النصر قايتباى . وقد وجد هذا اللقب بصيغة أخرى فى نقش على وكالة تحمل اسمه بباب النصر بتاريخ سنة ٨٨٥هـ وهى " خادم حرمى الله ورسوله " .

- حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ١ ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٥م ، ص٤٣٣ - ٤٣٧

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى تاريخ الوثائق والآثار ، الدار الفنية ، ١٩٨٩م، ص٢٦٦ - ٢٦٩

(٢٤) ابن العيدروس : المخطوط السابق ، ورقة ٢١

- ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٧

(٢٥) وقد استمرت مصر فى نسج وصنع ستور الكعبة الشريفة إلى ما بعد العصر المملوكى وطوال العصر العثمانى ، وكذلك إلى ما بعد الثورة حتى ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، حيث قررت المملكة السعودية ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، أن تصنع الكسوة فى مصنع خاص بالكعبة.

- عبد الله النابلسى : مخطوط " الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٤٤ جغرافيا ، ورقة ١٢٥

- ابن بطوطة ، الرحلة ص١٣٤

- على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٩، جـ٣ ، ص٢٧.

- حسن عبد الوهاب : كسوة الكعبة الشريفة ، مجلة منبر الإسلام ، العدد٤ ، ١٣٨٢هـ، ص١٨٢

- على حسن الخربوطلى ، الكعبة على مر العصور ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص١١٤

- أحمد عبد الغفار عطار : الكعبة منذ أربعة الآف سنة حتى اليوم ، بيروت ، ١٩٧٤م، ص١١٨

(٢٦) وقد جهز السلطان قايتباى لهذا المسجد منبرًا عظيمًا فى ٨٧٩هـ/١٤٧٤م .

- ابن العيدروس : المخطوط السابق ، نفس الورقة .

- ابن العماد : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢٧) - المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٣

- الغزى : المصدر السابق ، ص٢٩٩

(٢٨) ابن العيدروس : المخطوط السابق ، ٢١ - ٢٢

(٢٩) ابن الصيرفى : المصدر السابق ، ٢٤٦

- عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة السلطان قايتباى ، والمؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص٣٩٦

(٣٠) لقد أصلح السلطان قايتباى عين عرفة بعد انقطاعها نحو مائة وخمسين سنة فساق الماء من عرفات إلى منى .

- المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٣

- السيوطى : المخطوط السابق .

- ابن الغزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٩٩

- ابن أياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٥٦ - ٥٧

(٣١) ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٧

(٣٢) ابن أياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٦

(٣٣) ويذكر ابن إياس مدى اهتمام السلطان قايتباى بأمر هذه الصاعقة على مسجد الرسول ﷺ فيقول : " أن السلطان شرع فى تجديد عمارة المسجد الشريف ، فعين الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن ، وأرسل معه عدة من البنائين والنجارين والمرخمين وغير ذلك ، وأمر بهدم القبة الشريفة وأعادتها ، وتغيير المقصورة وتجديد غيرها من الحديد المخرم ، وكانت من الخشب ، وتغيير المنبر والمآذن وانتهى العمل فى أواخر سنة ٨٨٧هـ فجاء فى غاية فى الحسن، من أجل الأبنية وأعظمها حتى قيل أن السلطان صرف على بنائه نحوًا من مائة ألف دينار " .

- المصدر السابق ، جـ٣ ، ص١٨٧ - ١٨٨

- إسماعيل أحمد إسماعيل والنبوى حبر سراج ، المسجد النبوى الشريف ومزارات أهل البيت ، ١٩٧٤م ، ص٣٤

- سعاد ماهر : مساجد فى السيرة النبوية ، ١٩٨٧م ، ص١٠٠

(٣٤) السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، جـ٢ ، ص٦٤١ - ٦٤٣

(٣٥) ابن جبير : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، ١٧٣

- ابن بطوطة : الرحلة ، دار صادر ، بيروت ، ص١١٨

(٣٦) السخاوى : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص٢٠٦

(٣٧) الرباط ، هو بناء معمارى مأخوذ من الكلمة العربية المرابطة ، وهى بقاء المجاهدين ومرابطتهم فى الحصون والقلاع والثغور للحراسة وقد نشأت هذه الربط فى أوائل العصر الإسلامى ثم تحولت الربط بعد ذلك من مبانى حربية إلى دينية لايواء الزهاد والمتصوفين المنقطعين للعبادة والعلم .

- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ، ص٤٢٨

- المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٩م ، ص١٨٢ ، (هامش ٤) .

- سعاد ماهر محمد : مشهد الإمام على فى النجف وما به من الهدايا والتحف ، دار المعارف ، ١٩٦٨م ، ص٣٨١

- محمد توفيق بلبع : نشأة الرباط وتطورة وأهمية نظام المرابطة فى تاريخ المسلمين ، جمعية الآثار بالإسكندرية ، ١٩٦٨م .

- سعاد ماهر : العمارة الإسلامية على مر العصور ، جـ٣ ، دار البيان العربى ، جدة ١٩٨٥ ، ص١٦٨ - ١٦٩

(٣٨) السخاوى : المصدر السابق ، نفس الصفحة .

- ابن الغزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٩٩

(٣٩) ابن العيدروس : المخطوط السابق ، ورقة ٢٢

- المقدسى : المخطوط السابق ، ورقة ١١٣

- ابن الشحنة ، " البدر الزاهر فى نصر الملك الناصر محمد بن قايتباى " مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم (حـ١٢٧٣٧) ، ورقة ٢٥

- ابن العماد المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٧

(٤٠) ابن إياس : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٢٠٣ - ٢٠٤

(٤١) كانت الشمعدانات توضع فى المساجد ، وعادة ما كان يوضع اثنان فخمان على جانبى المحراب .

- أرنست كونل ، الفن الإسلامى ، ترجمة د. أحمد موسى ، مطبعة أطلس ، ١٩٦١ ، ص١٢٠

(٤٢) محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ، مصر ، ١٣٢٩هـ ، ص٢٤٨ - ٢٥٠

- ALYBEY BAHGAT, HISTOIRE DE LA HOUDYRA MEDINE OU SAILE FUNERAIRE DE PROPHETE A PROPOS D'UN CHANDLIER OFFERT PAR QAYT BAY LE CAIRE, 1944, P.74.

(٤٣) رقم السجل : ٤٠٧٢ ارتفاعه : ٤٨ سم

قطر القاعدة : ٣٨ سم قطر الرقبه : ١١ سم

- WIET. G, CATALOGUE DE GENERAL DU MUSEE ARAB DU CAIRE, OBJETS EN CUIVRE, LE CAIRE, 1932, PP. 107 - 9, PL.XXX III

- ALY BEY BEAHGAT, OP. CIT, PP. 73 - 4 .

- حسين عليوه : المعادن ، القاهرة تاريخها ، فنونها وآثارها ، ص٣٨٢ - ٣٨٣ ، (شكل ٩٥) .

- عائشة التهامى : التحف الفنية فى عهد السلطان قايتباى فى ضوء مجموعات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية آداب ، جامعة طنطا ، ١٩٩١م ، ص٢٥٥ - ٢٥٧ ، (صوره ١١٥ - ١١٦).

(٤٤) كان لنزول القرآن الكريم على النبى ﷺ ، باللغة العربية تأثير قوى لدفع المسلمين للعناية بالخط العربى فى فنونهم ، فاستطاعوا بجهودهم التى بذلوها فى هذا الشأن مضاف إليها طبيعة الخط العربى وأشكال حروفه ، أن يصلوا بفن الخط إلى اسمى مراحل الازدهار، كما استطاع رجال الفن أن يضعوا لهذا الخط وتلك الكتابة قواعد وأصول روعى فيها أن يؤدى صور الحروف حسنا فى العين شبيها بحسن مخارج اللفظ العذب عندالسمع . ويعتبر العصر المملوكى العصر الذهبى للخط النسخ وخاصة ما عرف من فروعه باسم الخط الثلث ، وقد أهتم سلاطين المماليك بالخط العربى اهتمامًا كبيرًا فأنشاوا المدارس لتعليمه وتحسينه . والدليل على ذلك كثرة ما وصلنا من عمائرهم وتحفهم الفنية المختلفة التى ازدانت كلها بالكتابات العربية ذات الخط الثلث .

- أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، مدخل ، ١٩٦٥م ، ص٤٦
- محمد عبد العزيز محمود : تطور الخط العربى فى مصر فى عصرى الأيوبيين والمماليك، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٤م، ص٢٣٨-٢٤٢
- جروهمان (أدولف) : النسخ والثلث ، مقالة بمجلة المورد ، المجلد ١٥ ، العدد ٤ ، العراق ، ١٩٨٦م ، ص١١١ - ١٢٢
- حسن الباشا : الخط الفن العربى الأصيل ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص٢٣
- حسين عليوه : الخط ، مقالة من القاهرة تاريخها فنونها . آثارها ، ص٢٧٩

(٤٥) سلطان الإسلام والمسلمين ، إن إضافة لفظ " السلطان " إلى " الإسلام والمسلمين " يعطى الملقب صفة دينية إسلامية ، إذ تجعله المسلم الأول الذى أختير لتأييد الإسلام والانتصار للمسلمين . وقد جاء اللقب ومترادفاته كأثر لتخلى الخلفاء عن حماية الدين لرجال الدولة من السلاطين . ويعتبر هذا اللقب من أعلى الألقاب المركبة لسلاطين المماليك الذين اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام بعد القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ .

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى تاريخ والوثائق والآثار ، ص٣٣١ - ٣٣٣

(٤٦) محمد عبد العزيز محمود : تطور الخط العربى فى مصر ، ص٢٤٤

(٤٧) رنك كتابى : الرنك كلمة فارسية الأصل تنطق (رنج) وتعنى اللون ، ولكنها عربت وأصبحت بمعنى الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له ، وقد لعبت الرنوك دورًا مهماً وكبيرًا فى العصر المملوكى لم تلعبه من قبل ، لما تميز به هذا العصر من رقى ورفاهية وثراء انعكس أثره على أمرائهم وسلاطينهم . وقد كانت الرنوك فى العصر المملوكى الأول (البحرية) ، أمرا شائعًا ، فكان لكل سلطان رنكًا مميزًا له إما بصورة أسد أو زهوة أو غير ذلك ، أما فى العصر المملوكى الثانى (الجراكسه) فقد كانت الرنوك كتابية وهى خاصة بالسلاطين تسجل أسماؤهم وألقابهم مصحوبة ببعض العبارات الدعائية لهم ، وقد كان رنك السلطان قايتباى كتابيًا ظهر على معظم منشآته المعمارية

وتحفـة التطبيقية ، حيث ينقسـم الرنـك إلى ثـلاث منـاطق ، المنطقـة العليـا : أبـو النصـر قايتباى ، الوسطى : عز لمولانا السلطان الملك الأشرف ، السفلى : عز نصره ، مع وجود بعض الزخارف البنائيه ذات الورقة ثلاثية التبلات .

- VAN BERCHEM, METERAUX POUR UN CORPUS INSRIPTIONUM ARABICARUM, EGYPTE, I, PARS, 1903, P. 325.

- القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٦١ - ٦٢

- MAYER, SARCENIC HERALDRY, OXFORD UNIVERSITY PRESS, 19333, P. 37.
- LANE POOLE THE ART OF THE SARACENS OF EGYPT, LONDON, 1866, P. 22.
- ESIN ATIL, ART OF THE MAMULUKS, WASHINGTON, 1981, P. 240.

- جمال محمد محرز : الرنوك المملوكيـة ، مجلة المقتطـف ، العـدد الخـامس ، المجلـد ٩٨ ، ١٩٤١م ، ص٤٦٦

- أحمد عبد الرازق أحمد :الرنوك على عصر سـلاطين المـماليك ، مجلـة الجمعيـة المصريـة للدرسات التاريخية ، المجلد ٢١ ، ١٩٧٤م ، ص٦٧ - ٩٣

- مايسة داود الرنوك الإسلامية ، مجلة الـدارة ، العـدد الثـالث ، السـنة السـابعة ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص٢٩ - ٣٠

(48) FARID SHAFII, SIMPLE CALYX ORNAMENT IN ISLAMIC ART, CAIRO. UNIVERSITY PRESS, 1927, PP. 142 - 144.

(٤٩) العادل المجاهد : العادل هو اسم مشتق من أسماء الله الحسنى ، وقد لقـب بـه الكثـير مـن الملوك والسلاطين والحكام ونحوهم من ولاة الأمور ، وهو من أعلى الصفـات لهـم ، لأنـه بالعدل تعمر الممالك ويأمن الناس وتصلح أمور البلاد ، وقد عرف هذا اللقب فى العصـر المملوكى ، فأطلق على ملوكهم وسلاطينهم ووجد على الكثير مـن نقوشـهم وفنونهـم . أما لفظ المجاهد ، فقد استمد هـذا اللقـب مـن تعـاليم الإسـلام الأولى كمـا بينهـا القـرآن الكريم والأحاديث النبوية ، حيث ذكر الجهاد والمجاهدون فى آيات قرآنية كثيرة ، ويعتبر المجاهد اختصارًا للجهاد فى سبيل الله " المجاهد فى سبيل الله " ومـا أشـبه ذلـك ، وقـد أطلـق هذا اللقب على الكثير من سلاطين المماليك وإن إضافة كلاً اللفظين العـادل والمجـاهد إلى ألقاب السلطان قايتباى تعنى أنه كان عادلاً فى حكمه ومجاهدًا فى سبيل الله .

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص٣٨٨ ، ص٤٥١ - ٤٥٢

(٥٠) ويذكر السمهودى حرص سلاطين المماليك ورعايتهم واهتمامهم بالحرم النبوى الشريف يتجلى ذلك فى حبس الكثير من أوقاف مصر عليه ، ومنها الشموع التى بلغت مجموعها مائة وستين شمعة بين كبار وصغار ، وذلك بصفة سنوية ، بالإضافة إلى البخور بأنواعه المختلفة ـ والتى كانت تصل منها كل عام علبة ضخمة فيها مائه مثقال منه لتجمير المسجد .

- السمهودى : نفسه ، جـ٢ ، ص٦٧١ - ٦٧٢

(٥١) رقم السجل : ٤٢٩٧ ارتفاعه : ٤٨سم قطر القاعدة : ٣٩,٥سم .

- WIET, OBJECTS EN CUIVRE, NO - 4297, PL XXXIV GREAT BRITAN, 1976.
- THE ART OF ISLAM, P. 195, NO-220 .
- ESIN ATIL, ART OF THE MAM LUKS, PP. 100 - 1, PL. 34.

(٥٢) وقد نقش فى الشمعدان كلمة " إسلام " بدلاً من " الإسلام " ، وهناك اختلاف ثانى وهو نقش عبارة " عز نصره " فى النص الكتابى للشمعدان السابق ، ولم تكتب أو تنقش على هذا الشمعدان .

(٥٣) محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ، ص٢٤٨ - ٢٥٠

- سعاد ماهر : مساجد فى السيرة النبوية ، ص٩٩ - ١٠٠

(٥٤) على السيد على : الحياة الثقافية فى المدينة المنورة عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص٣٥

(٥٥) السمهودى : نفسه ، جـ٢ ، ص٥٨٦ - ٥٨٨

(٥٦) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الزهور ، جـ٣ ، ص٣٠٤

(٥٧) كانت الزخرفة بطريقة الضغط تتم قبل تركيب الكسوة الجلدية على الكتاب ، وهى نوعان : الضغط بالقوالب الباردة أى أن الفنان أو الصانع كان يضغط بقوالب معدنية - منقوش عليها الرسم الزخرفى المطلوب - على الجلد وهو مبلول . أما الضغط بقوالب ساخنة - وهو السائد فى التجليد الإسلامى عامة والعصر المملوكى خاصة - فهو يعد الأكثر وضوحًا وبروزًا . وقد تطورت وتقدمت زخرفة القوالب فى العصر المملوكى وتنوعت أشكالها وتباينت نقوشها.

- سهام المهدى : تجليد الكتب فى مصر فى العصر المملوكى ، ص٥٥ - ٥٨

(٥٨) رقم السجل : ١٢٦ أبعاده : ١٠٤,٥ × ٦٨,٥ سم عدد ورقاته : ٣٩٣ ورقة مذهبه وملونه .

(٥٩) لقد ترك التصميم الزخرفى لأغلفة المصاحف أثره فى زخرفة كثير من أبواب المساجد المصنوعة من الخشب المصفح بالنحاس ، وترك أثره كذلك فى كثير من رسوم الطنافس والأبسطة المحملية PILE CARPETS التى تفرش وتبسط فى المساجد والقصور .

- محمد عبد العزيز مرزوق ، المصحف الشريف ، ص١٢٧ - ١٢٨

(٦٠) إن من أحب الألوان إلى الفنانين المسلمين الذين أبدعوا زخرفة المصاحف وكتابتها هما اللونين الأزرق والذهبى ، فقد لعب هذان اللونان دورًا كبيرًا وتأثيرًا عظيمًا فى زخارف الصفحات الأولى والأخيرة من المصاحف الشريفة الأثرية .

- المرجع السابق ، ص١٠٥ - ١٠٧

(٦١) خط الطومار ، مشتق من خط النسخ الفنى ، وقد تولد منه خط الثلث أى خط الطومار ، ويسمى كذلك لأن العرب كانت تكتب به الدرج وهو الملف المتخذ من الورق أو البردى ، وكان سدس هذا الدرج أو الملف يسمى طومار . - نفسه ، ص٨٣ .

- كانت المعارضة قوية فى زخرفة الصفحات الأولى التى تسبق النص القرآنى أو التى تحوى الفاتحة وأول سورة البقرة أو التى توجد فى الصفحات الأخيرة من المصحف ولكن هذه الزخرفة كان هدفها الجمال الفنى ليس إلا .

- محمد عد العزيز مرزوق : المصحف الشريف ، ص١٠١ ، ١٠٢

(٦٣) آية ١١٥ من سورة الأنعام .

(٦٤) يبين زخرفة آخر ورقة من الصحف ، وكذا اسم الخطاط وتاريخ خطة .

شمعدانان من النحاس الأصفر أوقفهما السلطان قايتباى

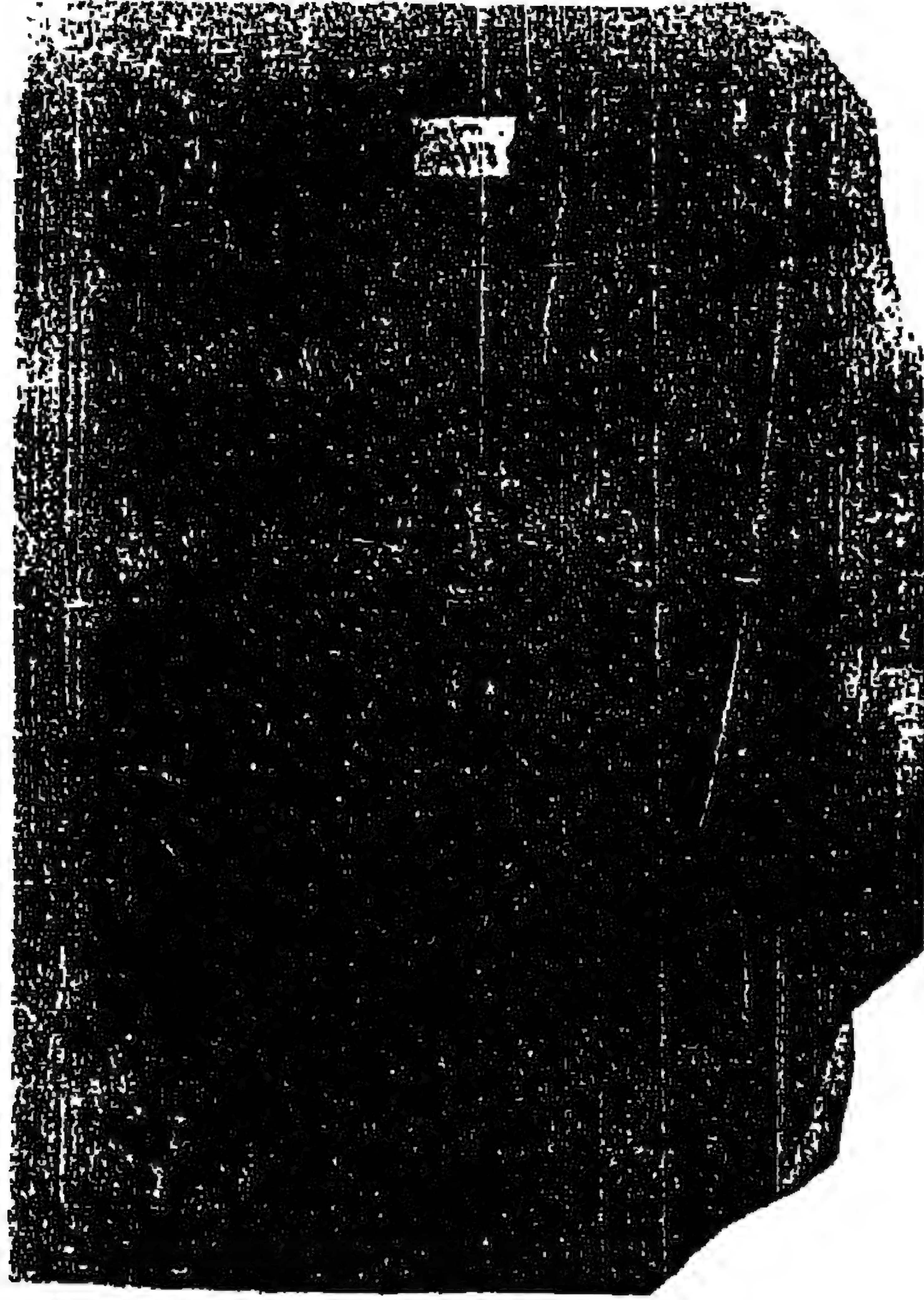
على الحجرة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة .



(صورة ١)

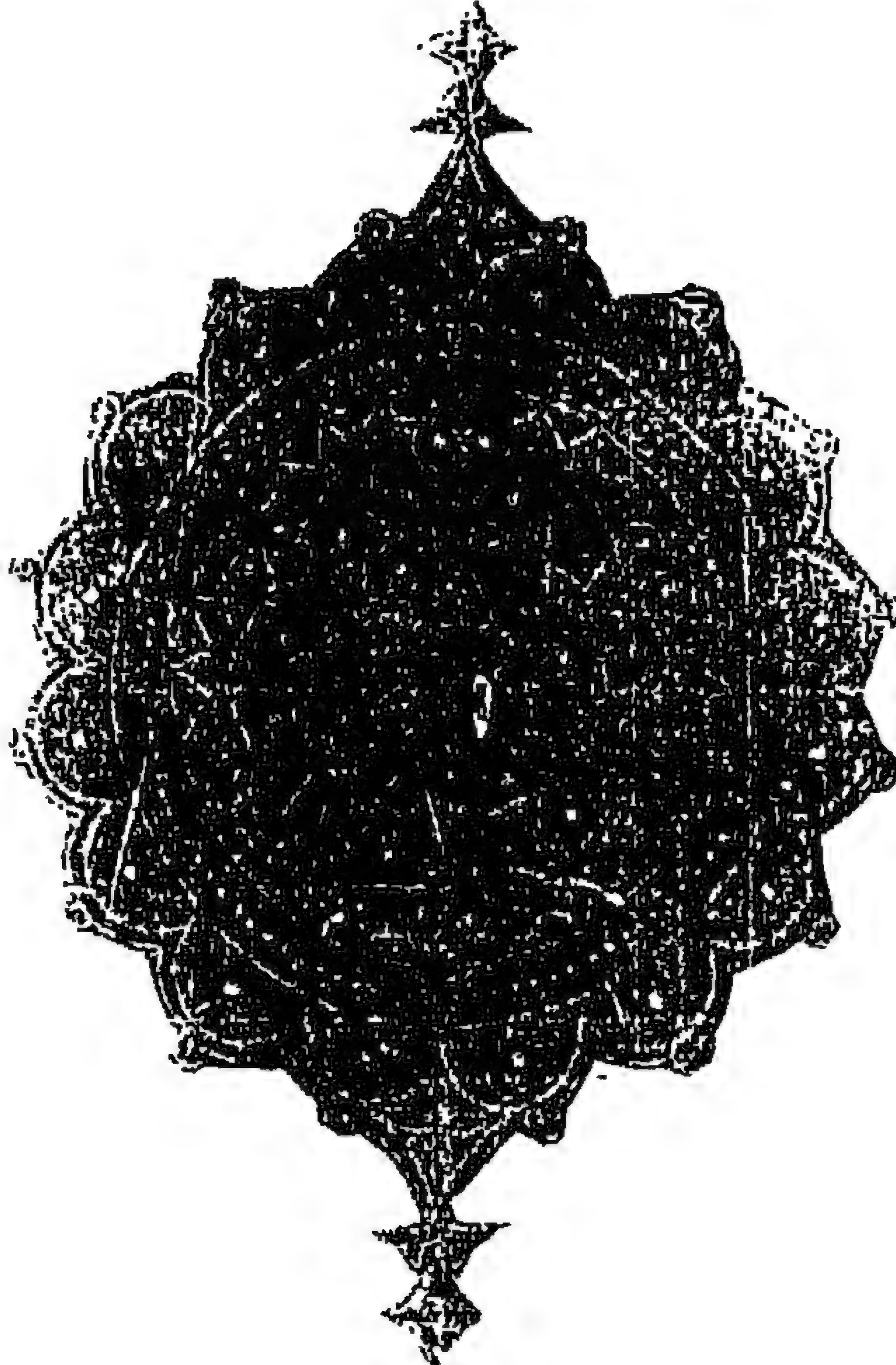


(صورة ٢)



(صورة ٣)

غلاف مصحف شريف أوقفه السلطان قايتباى على الحجرة النبوية بالمدينة المنورة



(صورة ٤)

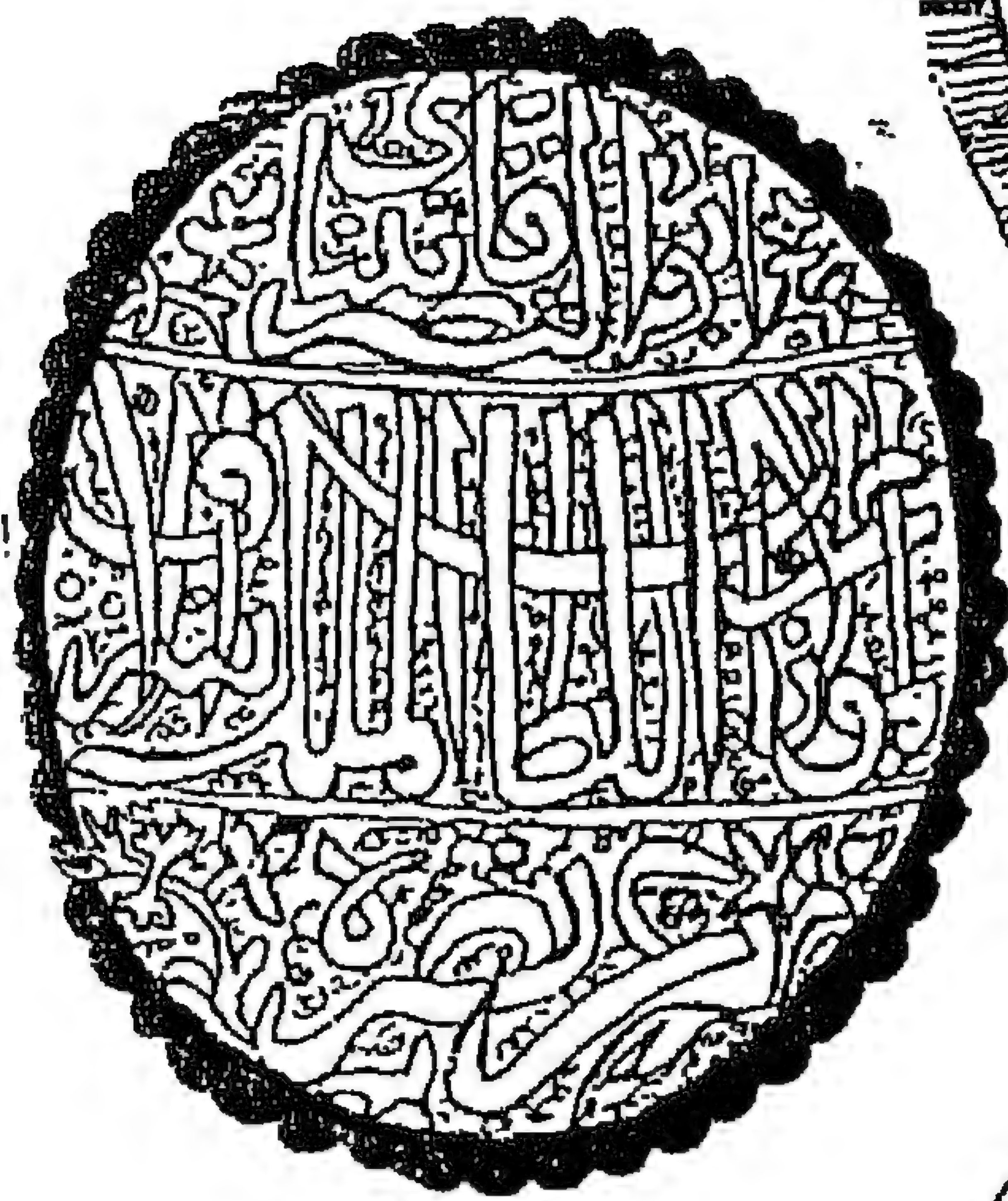
زخرفة الجامة التى تتوسط غلاف المصحف السابق

(شكل ١)

أشكال مختلفة للرنك الكتابى السلطان قايتباى



(أ)



(ج)



(ب)



مصادر ومراجع البحث

المصادر العربية المخطوطة :

١ - ابن الجيعان (شرف الدين علم . ت ٨٨٥هـ)
القول المستظرف فى سفر مولانا الأشرف
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢١٠ تاريخ) ميكروفليم ١٣٩٧٥ .

٢ - ابن الشحنة (مؤلف مجهول) .
البدر الزاهر فى نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباى .
نسخة محفوظة بدار الطتب المصرية تحت رقم (ح١٢٧٣٧) ميكروفليم ١٨٤١٦ .

٣ - ابن العيدروس (عبد القادر الهندى . ت١٠٣٨هـ) .
النور السافر فى أخبار القرن العاشر .
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم(ح٩٧٣٣) ميكروفليم ١٠٩٨٩

٤ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ) .
تاريخ الملك الأشرف قايتباى .
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٦١ تاريخ) ميكروفيلم ١٦٣٤١

٥ - المقدسى (مرعى بن يوسف ٩٢٧هـ) .
نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين .
نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٠٣ تاريخ تيمور) ميكروفيلم ١٣٣٠٣

المصادر العربية المطبوعة :

١ - ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣هـ/١٥٢٤م) .
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، حققه وقدم لـه د. محمد مصطفى ، خمسة أجزاء الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤م .
٢ - ابن بطوطة (عبد الله بن محمد ت ٧٧٧) .
رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٢م .
٣ - ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف ت ٧٨٤هـ / ١٤٦٩م) .
النجوم الزهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، حققه د. جمال محرز ، أ. فهيم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١م .
٤ - ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) .
رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤م .
٥ - ابن العماد (عبد الحى بن أحمد ت١٠٨٩هـ) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ١٨ أجزاء القاهرة ، ١٣٥٠هـ .
٦ - ابن الصيرفى (على بن داود الجوهرى ت٩٠٠هـ) .
أنباء الهصر بأبنـاء العصر ، تحقيق د. حسين حبشى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
٧ - على باشا مبارك .
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٩م .
٨ - الغزى (نجم الدين الغزى) .
الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، حققه جبرائيل سليمان جبور ، جـ١ ، بيروت ، ١٩٤٥م .
٩ - السخاوى (شمس الدين محمد ت ٩٠٢ هـ) .
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، جـ٦ ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ ،

١٠ - السمهودى (نور الدين على بن أحمد ت ٩١١هـ) .
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الباز للنشر ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
١١ - القلقشندى (أبو العباس أحمد ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) .
صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، دار الكتب المصرية ، ١٤ جزء ، القاهرة ، ١٩١٩ - ١٩٢٢م .
١٢ - المقريزى (تقى الدين أحمد ت٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ .
١٣ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ، جـ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ، ١٩٣٩م .

المراجع العربية الحديثة :

١ - أحمد تيمور (باشا) .
المهندسون الإسلاميون ؛ من مجلة الهندسة ، العدد الثانى ، فبراير ١٩٢٣م.
٢ - أحمد عبد الرازق أحمد (دكتور) .
الرنوك على عصر سلاطين المماليك ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلة ٢١ ، ١٩٧٤م .
٣ - أحمد عبد الغفار عطار .
الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، بيروت ١٠٧٨م .
٤ - أحمد فكرى (دكتور) .
مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ، ١٩٦١م .
٥ - إسماعيل أحمد إسماعيل والنبوى جبر سراج .
المسجد النبوى الشريف ومزارات أهل البيت، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٤م.
٦ - جروهمان (أدولف) .
النسخ والثلث ، مجلة المورد ، المجلدة ١ ، العدد٤ ، العراق ، ١٩٨٦م .

٧ - جمال محمد محرز (دكتور) .

الرنوك المملوكية ، مجلة المقتطف ، العدد ٥ ، المجلد ٩٨ ، ١٩٤١م .

٨ - حسن الباشا (دكتور) .

الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦م .

٩ - الخط الفن العربى الأصيل ، مجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

١٠ - الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والاثار ، القاهرة ، ١٩٨٩م.

١١ - حسن عبد الوهاب .

تاريخ المساجد الآثرية ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٤٦م .

١٢ - كسوة الكعبة الشريفة ، مجلة منبر الإسلام ، العدد ٤ ، ١٣٨٢ھ

١٣ - حسنى محمد نويصر (دكتور) .

منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م .

١٤ - حسين عبد الرحيم عليوه (دكتور) .

المعادن ، مقالة فى القاهرة تاريخها فنونها آثارها ، مطابع الأهرام التجارية ، ١٩٧٠م .

١٥ - الخط ، مقالة فى القاهرة . تاريخها فنونها آثارها مطابع الأهرام ، التجارية ، ١٩٧٠ م .

١٦ - زكى محمد حسن (دكتور) .

فنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

١٧ - سعاد ماهر محمد (دكتور) .

مشهد الإمام على فى النجف ومابه من الهدايا والتحف ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م .

١٨ - مساجد مصر أولياءها الصالحون ، خمسة أجـزاء ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨١م .

١٩ - العمارة الإسلامية على مـر العصـور ، جـ١ ، دار البيـان العربـى ، جـدة ، ١٩٨٥م .

٢٠ - مساجد فى السيرة النبوية ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ، ١٩٨٧م.

٢١ - سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) .

الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م .

٢٢ - العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

٢٣ - سهام محمد المهدى (دكتور) .

تحديد الكتب فى مصر فى العصر المملوكى مخطوط رسـالة ماجستير ، كليـة الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤م .

٢٤ - عائشة عبد العزيز محمد التهامى (دكتور) .

التحف الفنية فى عهد السـلطان قايتبـاى فـى ضـوء مجموعـات متحـف الفـن الإسلامى ، بالقاهرة ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب، جامعة طنطـا، ١٩٩٢م .

٢٥ - عبد الرحمن زكى (دكتور) .

موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩م.

٢٦ - بناة القاهرة فى ألف عام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م.

٢٧ - عبد اللطيف إبراهيم (دكتور) .

وثيقة السلطان قايتباى ، أوقــاف ٨٨٧ ، المؤتمـر الثـالث للآثـار فـى البـلاد ، القاهرة ، ١٩٦١م .

٢٨ - على حسنى الخربوطلى .

الكعبة على مر العصور ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

٢٩ - على السيد على (دكتور) .

الحياة الثقافية فى المدينة المنورة عصر سلاطين المماليك معهد الدرسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٩٩٤م .

٣٠ - فييت (جاستون) .

القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ترجمة د. مصطفى العبادى ، كتاب اليوم، العدد ٣٠٨ ، ١٩٩٠م .

٣١ - كمال الدين سامح (دكتور) .

العمارة الإسلامية فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

٣٢ - لين بول (ستانلى) .

سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

٣٣ - مايسة محمود داود (دكتور) .

الرنوك الإسلامية ، بمجلة الدارة ، العدد ٣ ، السنة ٧ ، فبراير ١٩٨٤م .

٣٤ - محمد توفيق بلبع .

نشأة الرباط وتطورة وأهمية نظام المرابطة فى تاريخ المسلمين ، دراسات آثرية وتاريخيه ، جمعية الآثار بالإسكندرية ، ١٩٦٨م .

٣٥ - محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) .

المصحف الشريف دراسة تاريخيه وفنية ، المكتبة الثقافية (٣٢٤) ، ١٩٧٥م.

٣٦ - محمد عبد العزيز محمود (دكتور) .

تطور الخط العربى فى عصرى الأيوبيين والمماليك ، مخطوط رسالة ماجستير ، ١٩٧٤م ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

٣٧ - محمد لبيب البتنونى .

الرحلة الحجازية ، مصر ، ١٣٢٩هـ .

٣٨ - محمد مصطفى نجيب (دكتور) .

العمارة فى عصر المماليك ، مقالة فى القاهرة . تاريخها . فنونها . آثارها . ١٩٧٠م .

المرجع الأجنبية

1 - Allan,W " James " :

- Traesures of Islam, Metalwork, Geneva, 1985.

2 - Aly bey Bahgat :

- Histoire du la Houdjra du Meine au Saile Funeraire du Prophete a propos d'unchsandelier offert par Qaut - Bay, le Caire, 1944.

3 - Esin Alil :

- Art of the Mamluks, Washington, D. C., 1981.

4 - Encydopede de L'Islam. Tomell, Paris, 1972.

5 - Farid Shafii :

- Simple Calyx Ornament in Islamic Art, Cairo University Press 1927.

6 - Lane Poole St :

- The Art of the Saracens in Egypt, London, 1866.

7 - Mayer, L. A :

- Saracenic Heraldry, Oxford Unversity Pres, 1933.

8 - Islamić Metal Workers and their works, Geneva, 1959.

9 - The Art of Islam, The Arts Council of Great Britain, 1976.

10 - Van Berchem (max) :

- Meteriaux pour un corpus Inscriptionum, Egypte I, Paris, 1903.

11 - Wiet, G, :

- Catalogue General du Musee Arabe du Caire, Objects en Cuirre Cairo, 1932.

آثار درب الهجرة النبوية

فى عصر الدولة العثمانية

دكتور جمال محمود موسى(*)

خـرج النبى مهاجرًا وصديقـه ورمى عيـون الكفر بالحصوات

أغشى الإله عيونهم لم يبصروا نور النبـى مهاجـرًا بثبـات(١)

أسهمت مع الإدارة العامة للآثار والمتاحف السعودية ، فـى الكشـف ميدانيًات عن بعض المناطق الآثرية ببلاد الحجـاز(٢) ، ممـا يسـر لى دراسـة معالمها ومواقعها الإسلامية الباقية عبر طريق جبل الغاير أو المغـاير التـى سـلكها الرسـول ﷺ ، عند هجرته الميمونة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فى السـابع عشـر مـن شـهر ربيع الأول (٩ سبتمبر عام ٦٢٢م) . وهو الطريق الشهير أيضًا بـالطريق المدنـى، لإيثار أهل المدينة المنورة له عند رحيلهم إلى مكة المكرمة ، لقصر مسافته عـن كـل من الطريق السلطانى والفرعى والشرقى(٣) . هذا فضلاً عـن أن هـذا الطريـق مـن ألطف دروب بلاد الحجاز وأكثرها إئتناسا بينابيعه وعيونه وحفائره العذبة الجاريـة، وآباره المتعددة الغزيرة المتقنة ، وواحاته الكثيرة ومزارعه وبساتينه المونقة(٤) .

وأتناول فى هـذا البحـث ، مكتشـفات المنشـآت المعماريـة الدينيـة والمدينـة والدفاعية واللقـى الفخاريـة الآثريـة(٥) ، المتباينـة الأنـواع والزخـارف والأشـكال والوظائف ، والتى عرفتها الحضارة الإسلامية منذ أن توطـدت أركانهـا ، وطـوال عصورها المتعاقبة ، وزخرت بها مواضع درب الهجرة النبوية فى العصر العثمـانى ، لتوفير الاحتياجات والحمايـة للمرتحلين بـين الرحـاب الطـاهرة فـى مكـة المكرمـة

---

* استاذ الآثار الإسلامية المساعد ورئيس قسم الآثار - كلية الآداب - جامعة جنوب الوادى.

والمدينة المنورة(٦) . وقد أمكننى حصرها وتصنيفها وتسجيلها وتوثيقها ، إعتمادًا على رؤيتى الذاتية ، ومصادرها ومراجعها العربية والأوربية المتخصصة ، مستهدفا التعريف بمواضعها ، ووصفها ، وإبراز خصائصها من حيث التخطيط ونظام البنيان، وعناصرها المعمارية والزخرفية وأساليبها الفنية . وملحق بالبحث بيان بمواضعها ، وبمجموعة من مخططاتها المعمارية ، وصورها الفوتوغرافية ، ورسومها التوضيحية ، فضلاً عن خريطة للدرب .

يتجه مسار درب الهجرة النبوية من مكة المكرمة ، ناحية الشمال الغربى ، مرورًا بموضع ذى طوى الذى بات فيه النبى محمد ﷺ واغتسل بمائه ، وجنان مكة المكرمة المسماة بالزاهر ، وهو وادى بين جبلين ، يضم قبور لبعض الصحابة ، فالتنعيم أو العمرة ، وفيه مساجد ثلاثة تنسب للسيدة عائشة ﷺ ، ثم موضع سرف ، حيث قبر ميمونة الهلالية ، إحدى زوجات النبى محمد ﷺ ، وموضع مر ، وكان لهما مكانتهما التجارية عبر الدرب(٧) ، فوادى مر الظهران أو وادى بطن مر أو وداى فاطمة أو وادى الشريف ، وهو وادى منخفض فسيح ، يضم عددًا من القرى ، أشهرها قرية الجموم ، وكان يوجد بها سوق تجارى . ثم موضع المحيسنية ، فقرية عسفان ، وكانت تقام بها سوق تجارية أيضًا(٨) ، ثم ثنية عسفان أو عقبة مدرج عثمان ، وهى عبارة عن وادى بين جبلين(٩) ، فوادى غيران .

ثم يتخذ الدرب مسارًا ناحية الشمال ، مرورًا بقرية خليص أو الدف أو النتوجه ، وكانت بها سوق حافلة(١٠) .

ويواصل الدرب اتجاهه نحو الشمال الغربى ، مرورًا بالقضيمة ، وموضع سعبر ، فوادى رابغ الذى يعد من أخصب أودية الحجاز ، وتنتهى إليه جداول المياه عقب الأمطار الغزيرة التى تأتيه من أماكن بعيدة ، ويصل إلى رابغ التى كان يقام بها سوق عظيمة ، حيث كان يخرج أهلها من أعراب حرب وغيرهم ، لبيع ما يوجد عندهم من ماء وطعام(١١) .

ثم يتجه الدرب نحو الشمال الشرقى ، ويمر بقرية الأبواء(١٢) ، وبها قبر آمنه بنت وهب ، أم النبى ﷺ ، فبئر مبيرك ، ثم رصفة ، وبها حفائر ماء عميقة وعذبة ، وجبل الغاير أو المغاير ، وعنده ماء دائم عذب ، فبئر الماشية ، وقرية أبيار على أو ذى الحليفة ، فعروة ، ثم جبل مفرح الذى ترى من أعلاه قباب المدينة المنورة وأنوراها (انظر الخريطة)(١٣) .

وتتمثل مكتشفات المنشآت المعمارية الدينية التى شيدت فى العصر العثمانى على جنبات درب الهجرة النبوية ، فى مسجد الروضة الذى يقع على بعد (٦كم) شمالى شرق قرية الجموم(١٤) ، بوسط فيضة تحيط بها بعض الأودية الصغيرة التى تصب فى وادى فاطمة (مخطط - ١ ، صورة - ١) ، وهذا المسجد مستطيل الشكل (١١,٩٠ × ٧,٥٠م) ، مشيد بأحجار الحرة السوداء المتوفرة بالمنطقة ، وملاط من طمى الوادى والجير (جص) ، للربط بينها وتغطيتها من الداخل والخارج فى أجزائه العلوية ، فضلاً عن أرضيته ، ويتكون من أربع بلاطات مستطيلة ، مغطاة بأربع قبوات مدببة(١٥) ، متعامدة على جدار القبلة الذى يبلغ سمكه (٠,٧٥م) ، ويضم محرابين ، يتخذ الواحد منهما مسقطًا نصف دائرى ، قطره (١,٠٠م) ، وارتفاعه (٢,٤٠م) ، وتتوجه نصف قبيبة مدببة . ويبرز عن سمت الجدار للخارج ، متخذا مسقطًا مستطيلاً (١,٣٥ × ٠,٣٥م)(١٦) - (صورة - ٢) ، وتفصل البلاطات الأربع هذه ثلاث بائكات ، قوام الواحدة منها ثلاث دعامات ، الوسطى منهم ذات مسقط مستطيل (١,٨٠ × ٠,٨٠م) ، والأخرتان تبرزان للخارج ، وكل منهما ذات مسقط مربع (٠,٧٠ × ٠,٧٠م) . ويعلوها عقدان مدببان(١٧) ، بينما يدعم كل من الجدارين الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى ، واللذان يبلغ سمك الواحد منهما (٠,٨٥م) ، دعامتان ، كل منهما ذات مسقط مستطيل (٠,٧٠ × ٠,٦٠م) . وترتفع الدعامات العشر هذه لنحو إرتفاع المسجد (٦,٠٠م) ، وتنتهى بما يشبه نصف عقد مدبب مصمت .

ويدخل للمسجد بواسطة مدخلين مسطحين ومباشرين فى الضلع الشمالى الغربى الذى يبلغ سمكة (٠,٧٥م) ، وهما مقابلان للمحرابين ، عرض الواحد منهما (١,٠٠م) ، وارتفاعه (٢,٤٠م) ، ويعلوه عقد مدبب (صورة - ١) . كما يتخلل كل ضلع من أضلاع المسجد الأربعة شباكان مجاوران لأركانه ، عرض الواحد منهما (٠,٥٥م) وارتفاعه (٠,٨٠م) ، ويعلوه عتب حجرى مستقيم .

وتعتبر بقايا قصر العابدية بمكة المكرمة من مكتشفات المنشآت المعمارية المدنية بدرب الهجرة النبوية(١٨) ، وقد أنشأه أمير مكة المكرمة عبد الكريم بن محمد بن يعلى بن حمزة بن موسى بن بركات بن محمد أبونمى الثانى ، المتوفى فى الخامس من ذى القعدة عام ١١١٦هـ (١ مارس عام١٧٠٥م) ، وعمره أربعة وستون عامًا(١٩) .

وترتفع بعض بقايا هذا القصر الحصين عن مستوى سطح الوادى بنحو (٧,٠٠م) ، وتحتل مساحة مستطيلة (٩٠,٠٠ × ٥٠,٠٠م) - (مخطط - ٢) ، ويشاهد بينها الجدار الشرقى ، وجزء من الجدار الغربى ، وأجزاء من أبراجه الركنية المستديرة الأربعة التى يصعب التأثير فيها (صورة - ٣) ، قوام الواحد منها ثلاثة مستويات . ويدخل إلى المستوى الأرضى ، المغطى بقبة ضحلة(٢٠) ، بواسطة باب صغير ، بينما يصل إلى المستوى الثانى بواسطة مدخلين ، يأتى إليهما بواسطة الممر المكشوف الذى يعلو جدران القصر الخارجية ، للمراقبة والدفاع والمناورة والتنقل بين الأبراج ، أما المستوى الثالث ، فيتمثل فى الدروة التى تعلو البرج . ويلاحظ أن جدران القصر الخارجية والأبراج التى يبلغ سمكها (٠,٩٠م) ، مزودة على مستويين بفتحات للمراقبة والسهام والبنادق ، ويعلو كل منها عتب حجرى مستقيم ، ويرتفع بعضها عن مستوى الأرض بنحو (٢,٠٠م) ، والبعض الآخر يرتفع لنحو (٥,٠٠م) ، بينما يبلغ سمك جدران القصر الداخلية (٠,٦٠م) ، وقد استخدمت الميدات الخشبية لتقوية الجدران والربط بينها فى بعض أجزاء

جدران القصر المرتفعة والممتدة ، والمشيدة من أحجار الحرة السوداء ، وملاط من طمى الوادى والجير (جص) ، كذلك غطيت جدران القصر من الداخل بطبقة من الجص ، كنوع من الزخرفة ، ويوجد بالجهة الجنوبية للقصر جدار طوله (١٥,٠٠م) مزود بقنوات مياه رأسية ، مشابهة للقناة الأفقية التى تقع على بعد (١ كم) إلى الغرب من هذا القصر ، عرضها (٠,٥٠م) وعمقها (٠,٧٠م) - (صورة - ٤) ، وربما كانت تستخدم هذه القنوات الرأسية والأفقية فى تزويد القصر بما يلزمه من مياه .

هذا إلى جانب مسطح مستطيل الشكل (١٠٠,٠٠×٥,٠٠م) من أحجار الشيست والكوراترز والبازلت التى يتخذ معظمها شكلاً مربعًا (٠,٣٠×٠,٣٠م) ، والمتراص بعضها بعناية فى وادى القحا بمنطقة رابغ (٢١) ، والتى تعلو عن مستوى سطحه بـ (٠,١٠م) ، وقد ملئت الفراغات فيما بينها بالحصباء (صورة - ٥) .

كذلك تتمثل مكتشفات المنشآت المعمارية التى حفرت بمواضع درب الهجرة النبوية فى العصر العثمانى ، فى بعض الآبار والأحواض والبرك والقنوات، والمشيدة بالأحجار الجرانيتية الحمراء ، والرملية المائلة للإحمرار ، والجيرية البيضاء، وأحجار الحرة البركانية والبازلتية السوداء ، ويربط بينها ملاط من طمى الوادى والجير (جص) ، وتتخذ الآبار شكلاً أسطوانيًا ، وتتراوح أقطارها ما بين (١,٥٠م) ، (١٥,٠٠م) ، وسمك جدرانها ما بين (٠,٣٠م) ، (١,٥٠م) ، وارتفاع حوافها عن مستوى سطح الأرض ما بين (٠,٥٠م) ، (١,٥٠م) وأعماقها حتى مستوى سطح الماء ما بين (٥,٠٠م) ، (٢٥,٠٠م) . ويهبط إلى بعضها بواسطة قطع حجرية ملاصقة لجدرانها من الداخل ، أو يصعد إليها من الخارج ، إما بمجموعتى درج ، أو بمجموعة واحدة ، وتعلو بعضها دعامات تحصر بينها قطعًا خشبية لتثبيت حبال رفع المياه ، كما تضم بعض هذه الآثار أحواضا صغيرة مستطيلة الشكل أو تتخذ شكلاً شبه منحرف ، بينما تتخذ البرك شكلاً

مربعًا أو مستطيلاً . وكانت تمتلئ إما بمياه الآبار المجاورة لها ، أو بمياه الأمطار والسيول ، كما تتخذ مقاطع القنوات شكلاً مربعًا (٠,٥٠ × ٠,٥٠) ، كسى من الداخل بطبقة من الجص ، وغطيت بعضها بألواح حجرية، للمحافظة على المياه من التلوث والتبخر .

ومن ذلك آبار مر الظهران أو وادى فاطمة أو وادى الشريف (مخطط - ٣) ، حيث تضم قرية الجموم ثلاث آبار ، مشيدة بالأحجار الرملية والجيرية المتعددة الألوان(٢٢) ، اتخذ ملاطها من طمى الوادى والجير (جص) ، ومازالت مياهها مستغلة حتى الآن ، تعرف البئر الأولى ببئر أبى عروة (صورة - ٦) ، ويبلغ قطرها (٢,٥٠م) ، وسمك جدارها (٠,٧٠م) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بنحو (٠,٩٠م) ، ويبلغ عمقها حتى سطح الماء نحو (١٠,٠٠م) ، وتعلوها دعامتان حديثتا البناء ، مقام بينهما عارضة خشبية لرفع المياه ، وتقع البئر الثانية جنوبى بئر أبى عروة بنحو (٣٠٠م) ، ويبلغ قطرها (٣,٠٠م) ، وسمك جدارها (٠,٨٠م) ، وعمقها حتى سطح الماء نحو (١٥,٠٠م) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ (٠,٩٠م) وتعلوها حافة أخرى مربعة الشكل حديثة البناء (صورة - ٧ ، أما البئر الثالثة فتبعد نحو (٤٥٠م) ، جنوبى شرقى البئر الثانية ، ويبلغ قطرها (١,٥٠م) ، وسمك جدارها (٠,٦٠م) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ (٠,٧٠م) ، أما عمق البئر فيبلغ حتى سطح الماء نحو (٨,٠٠م) - (صورة - ٨) .

هذا إلى جانب بئر المحيسنية التى لا تزال تنبض بالحياة ، على نحو (٢٥ كم) جنوب شرق قرية عسفان(٢٣) ، وهى مشيدة بالأحجار الرملية والجيرية البيضاء ، وملاط يتكون من طمى الوادى والجير (جص) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بنحو (٠,٥٠م) ، ويبلغ قطرها (٣,٥٠م) ، وسمك جدارها (٠,٥٠م) ، وعمقها حتى سطح الماء حوالى (٦,٠٠م) . وتتعامد عليها

عارضة خشبية تمتد من الشرق إلى الغـرب ، مقامـة على جزعـى شـجر ، لتثبيت الحبال المستخدمة فى رفع المياه من البئر ، كما يلتصـق بـالبئر فـى جهتهـا الجنوبيـة حوض صغير للمياه ، يتخـذ شـكلاً شبه منحـرف ، وارتفـاع حافتـه (٠,٢٥م) وسمكها (٠,١٥م) - (صورة - ٩) .

كذلك تشتمل قرية عسفان بوادى غوله الذى يصب فى البحر الأحمر علـى أربع آبار ، أقيمت من الحجر الجيرى ، واستخدم فى ملاطها طمى الـوادى والجير (جص) بطريقة متقنة (مخطط - ٤)(٢٤) ، أشهرها يعرف ببئر التفله (صورة - ١٠) ، ويبلغ قطر فوهتها (١٠,٠٠م) ، وعمقها حتى سـطح المـاء نحـو (٢٥,٠٠م) ، وسمك جدارها (١,٥٠) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ (١,٥٠م) ، ويصعد إليها بواسطة مجموعتين من الدرج ، بالجهتين الشرقية والغربيـة ، ويشـتمل كل منهما على أربـع درجـات ، أبعـاد الواحـدة (٣,٠ × ٠,٣٠ × ٠,٢٥م) ، تعلو البئر دعامتان حديثتان من الآجـر ، تعلوهمـا عارضـة خشبية ، تتـدلى منهمـا بكرتان معدنيتان ، لرفع دلو المياه .

أما البئر الثانية فتعرف ببئر الجنانية ، وتقع إلى الشمال الشرقى من بئر التفلة، بمسافة (٥٠,٠٠م) ، ويبلغ قطرها (١٥,٠٠م) وعمقها حتى سـطح المـاء نحـو (٢٠,٠٠م) وسمك جدارهـا (١,٥٠م) ، وترتفـع حافتهـا عـن مستوى سـطح الوادى بنحو (٢,٠٠م) ويصعد إليها من الجهة الغربية ، عن طريق أربع درجات ، فى حين يمكن الوصول إلى داخل البئر من الجهـة الجنوبيـة ، عـن طريـق عـدد مـن الدرجات تمتد فى مساحة مستطيلة (١٥,٠٠ × ٢,٠٠م) ، وتنتهـى عنـد بـاب البئر الذى يبلغ اتساعه (١,٥٠م) ويعلوه عقد مدبب (صورة - ١١) .

والبئر الثالثـة ، يطلق عليها اسم بئر مضحى ، وتقع شمال بئر الجنانية بنحـو (١٠٠م) ، ويبلـغ قطـرها (٣,٠٠م) ، وعمقهـا حتـى مستوى سطح المـاء (٥,٠٠م) ، وسمك جدارها (١,٥٠م) ، وتعلـو حافتهـا فـوق مسـتوى سـطح

الأرض بـ (١,٥٠م) ، ويمكن الصعود إليها من الجهة الجنوبية ، عن طريق أربع درجات ، وتتعامد عليها دعامتان من الآجر حديثتا للبناء ، تعلوهما عارضة خشبية تتدلى منها بكرة معدنية لجذب دلو المياه ، بالإضافة إلى آلة رفع مياه حديثة (صورة - ١٢) .

أما البئر الرابعة ، فتعرف بئر الشقمة ، وتقع على بعد (٢٠م) جنوب شرقى البئر الأولى (بئر التفلة) ويبلغ قطرها (٣,٥٠م) وسمك جدارها (١,٥٠م) ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الأرض بنحو (١,٣٠م) ، وتعلوها دعامتان ، إرتفاع الواحدة منهما (١,٥٠م) ، ويلتصق بجدار البئر من الخارج ثلاثة أحواض صغيرة (١,٠٠ × ٠,٨٠م) ، وحوض رابع ، مربع الشكل (٢,٠٠ × ٢,٠٠م) حديث البناء - (صورة - ١٣) .

ومن ذلك أيضًا بئر وقنوات وبركة خليص ، وتقع هذه البئر بقرية خليص ، فى شرق وادى مروانى ، وقد بنيت بالأحجار الجيرية البيضاء والبركانية السوداء ، المختلفة الأحجام والأشكال ، واتخذ ملاطها من طمى الوادى والجير (جص) ، ويبلغ قطر البئر (٢,٥٠م) ، وترتفع فوهتها عن مستوى سطح الوادى بنحو (٠,٦٠م) ، وسمكها (٠,٣٠م) ، ويصل عمقها حتى مستوى سطح الماء (٥,٠٠م) - (مخطط - ٥ ، صورة - ١٤) ، وينساب الماء فى قناة مبنية من الأحجار الجيرية ، ومبطنة من الداخل بطبقة من الجص ، يبلغ إتساعها (٠,٥٠م) وسمك جدارها (٠,٧٠م) ، ومتوسط عمقها (٠,٥٠م) ، وقد غطيت بألواح حجرية ، وتتجه غربًا لنحو (١ كم) ، ويكشف عن مياهها فى نقاط معلومة للاستفادة منها فى السقاية والوضوء ، إلى أن تصب فى بركة مربعة الشكل ، طول ضلعها (٣٥,٠٠م) ، سمك جدارها (١,٠٠م) ، إلا أنها طمرت برواسب مما جرفته السيول من طمى ، وما حملته الرياح من رمال(٢٥) هذا فضلاً عن قناة أخرى مسقوفة أيضًا بألواح حجرية ، ملاصقة لسفوح المرتفعات ، فى جنوب

وادى مروانى ، ترتفع قاعدتها الحجرية إلى (٢,٠٠م) ، ويبلغ عرضها (٢,٠٠م) ، بينما يبلغ إتساع مجراها (٠,٥٠م) ، وعمقه (٠,٥٠م) - (صورة - ١٥) .

هذا إلى جانب بئر قضيمة الذى يقع على بعد (٥٣ كم) جنوب شرق رابغ(٢٦) ، وهى بئر مطوية بأحجار الحرة السوداء ، وملاط من طمى الوادى والجير (جص) ، تحتوى على سلم ذى درجات ست من الخارج (صورة - ١٦) ، ودرجات تسع من الداخل (صورة - ١٧) ، ترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بنحو (١,٢٥م) ، وسمكها (٠,٦٥م) ، وقطرها (٣,٥٠م) وعمقها حتى مستوى سطح الماء نحو (٨,٠٠م) .

وبئر مبيرك ، تقع عند ملتقى فرع وادى النخيل بوادى القحا (صورة - ١٨ (٢٧)) ، وهى بئر مشيدة بأحجار الحرة السوداء ، وملاط من طمى الوادى والجير (جص) ، ترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ (٠,٨٠م) وسمكها (٠,٦٠م) وعمقها حتى مستوى سطح مائها ، (٩,٠٠م) ، وتعلوها أربع دعامات ذات مقاطع مربعة ، ربما كانت تستخدم فى تغطية البئر ، فضلاً عن رفع المياه .

وبئر الماشية(٢٨) ، وتقع جنوب شرق المسيجيد بنحو (٢١كم) ، عند التقاء وادى الجن بوادى ورجان (صورة - ١٩)(٢٩) ، وهى مشيدة بأحجار الحرة السوداء والجيرية البيضاء والرملية المائلة للاحمرار ، وترتفع حافتها عن مستوى سطح الوادى بـ (٠,٨٠م) ، وقطرها (٣,٨٠م) ، وسمك جدراها (٢,١٠م) ويصل عمقها لنحو (٢٠م) ، ويتصل بها من الجهة الشمالية الشرقية ، حوض مستطيل الشكل (١,٥٠ × ٠,٧٠م) ، وعمقه (٠,٥٠م) ، كما يوجد بجهتها الجنوبية الغربية ، حوض صغيرة مستدير الشكل ، قطره (٠,٥٠م) ، وعمقه (٠,٢٠) ، ويخرج منه مجرى ضيق لتصريف المياه المستخدمة ، ويعلو البئر جزعا شجرتين لرفع المياه .

فضلاً عن بئر وحوض وقناة وبركة ، جنوب غرب أبيار على أو ذو الحليفة بنحو (٧كم)(٣٠) - (مخطط - ٦ ، صورة - ٢٠) ، وهى مشيدة بالحجار الجرانيتية الحمراء والبازلتية السوداء ، اتخذ ملاطها من طمى الوادى والجير (جص) ، ويبلغ قطر البئر (٣,٥٠م) ، وسمك جدارها (٠,٩٠م) ، وعمقها نحو (١٠,٠٠م) ، ويتصل بها من الناحية الجنوبية بركة مستطيلة الشكل (٦,٠٠ × ٤,٠٠م) ، مطمورة بالطمى والرمال ، كما يتصل بهذه البئر من الناحية الشمالية ، حوض مستطيل الشكل (٣,٠٠ × ٢,٥٠) ، وعمقه (١,٠٠م) وسمك جداره (٠,٦٠) . وتخرج من ركنه الشمالى الغربى قناة ، كسى مجراها بالجص ، يبلغ طولها (٣,٠٠م) ، واتساعها (٠,٣٠م) ، وسمك جدارها (٠,٦٠م) ، ويرتفع الحوض والقناة عن مستوى سطح البئر بـ (٠,٧٠م) .

وتتمثل مكتشفات المنشآت المعمارية الدفاعية الباقية من العصر العثمانى بدرب الهجرة النبوية فى تلك القلاع الحصينة(٣١) ، المشيدة على تلال وهضاب وجبال يتراوح ارتفاعها عن مستوى سطح ما بين (١٥ - ٥٠م) أو فى وسط المدن ، بالأحجار الجرانيتية الحمراء والبركانية السوداء والرملية والجيرية البيضاء ، المختلفة الأحجام والأشكال ، والمنتظمة فى صفوف . ويربط بينها ملاط شديد الصلابة ، وقوامه طمى الوادى والجير (جص) ، مضاف إليهما أحياناً كسر الأحجار الناعم . وقد تكسى بطبقة من الجص ، وذلك وفق مخططات معمارية تلائم وظيفتها ، إما مربعة أو مستطيلة الشكل . وتدعم جدران هذه القلاع التى يتراوح سمكها ، بين (٠,٤٥ ، ١,٥٠م) ، أوتار خشبية لتقويتها والربط بين أحجارها ، كما تتخلل أجزاءها السفلية منافذ طولية معقودة للسهام ، وفى العلوية طاقات مربعة أو مستطيلة الشكل ، للمراقبة والإضاءة والتهوية ، ويدخل إلى هذا القلاع عبر ممرات منكسرة ، تتقدمها أبواب ذات مصاريع خشبية(٣٢) ، تؤدى إلى دركاوات ، تكتنف بعضها مصاطب وحنايا وتنتهى بممر . ومن ثم تشكل هذه

الدركاوات والممرات مداخل منكسرة (باشورة) غير مباشرة لهذه القلاع(٣٣) ، فضلاً عن إمكانية الدخول المباشر إليها من خلال الأبواب التى تتصدر بعض جدران هذه الدركاوات . ويتوسطها عادة صحن مركزى مكشوف ، يدور حوله عدد من الوحدات المعمارية ، تتوزع إما على طابق أو طابقين ، يشتمل الطابق الأرضى على حجرات صغيرة ومخازن ومطابخ ودورات للمياة . ويصعد إلى غرف الطابق الثانى والممرات المكشوفة التى تلتف من الداخل حول الجدران العلوية للمراقبة والدفاع ، بواسطة درج . ويقوم فى كل ركن رئيسى من هذه القلاع ، برج يمكن دخوله من الصحن ويتكون إما من طابق واحد أو طابقين . وقد يتخذ شكلاً أسطوانيًا أو مربعًا أو مثمنًا ، فضلاً عن الأبراج المتصلة بالأضلاع ، والتى يتخذ بعضها شكلاً نصف دائرى . وقد استخدمت فى تغطية بعض الوحدات المعمارية بهذه القلاع ، قبوات مدببة وأخرى نصف دائرية ، فضلاً عن جذوع وفروع أشجار الصرر والنخيل ، كما علت بعض فتحاتها عقود مدببة ، ونصف مستديرة(٣٤) ، إلى جانب جذوع وفروع الأشجار والنخيل أيضًا ، كما اشتملت بعض هذه القلاع على ميازيب خشبية لتصريف المياه ، وشرافات نصف دائرية(٣٥) .

ويتضح ذلك فى قلعة عسفان المستطيلة الشكل (٣٥ × ٢٥م) والمستديرة الأبراج (مخطط - ٧ ، صورة - ٢١) والمشيدة بأحجار جرانيتية وبركانية سوداء كبيرة ، تنتظم فى صفوف عرضية ، وتضم بينها قطعًا صغيرة . ويربط بين هذه الأحجار المختلفة الأشكال والأحجام ، مونه من طمى الوادى والجير (جص) ، والتى ترتفع بقاياها المعمارية لنحو (٥م) ، فوق هضبة تعلو عن مستوى سطح وادى غولة بنحو (١٥م) ، شمال غرب قرية عسفان بنحو (١,٥ كم)(٣٦) . ويستشف التصميم المعمارى للقلعة من هذه البقايا المعمارية التى تضم أبراجها وبعض أساسات الجدران ، وقوامه فناء مكشوف بأربعة جدران سميكة

(١ - ١,٥٠م) ، تبرز عنها للخارج بنحو (٢,٥٠م) برجان مستطيلان بكل ضلع ، كما يوجد برج مستدير قطره (٢م) فى كل ركن من الأركان الأربعة للقلعة ، ويرجح وجود ممر مكشوف يحيط بسور القلعة من الداخل للمراقبة والدفاع ، وأن يكون مدخل القلعة فى ضلعها الشمالى ، وبأرضية القلعة يوجد ممر طوله (٣,٠٠م) وعرضه (١,٥٠م) ، كان يغطى بقبو مدبب ، وينتهى بباب يعلوه عقد مدبب ، يؤدى إلى غرفة مستطيلة (٤,٠٠ × ٣,٠٠م) ، مغطاة بقبوة نصف دائرة ، ترتفع لنحو (٢,٠٠م) ، ربما كانت تستخدم كمخزن للأسلحة والذخائر أو مستودع للوقود أو سجن للمخالفين .

ومن القلاع أيضًا قلعة بقرية خليص ، مقامة بإرتفاع يتراوح من (٥,٠٠ : ٨,٠٠م) فوق هضبة بنحو (٥٠,٠٠م) عن مستوى سطح وادى مروانى (مخطط - ٨ ، صورة - ٢٢) ، تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى(٣٧) . وقد شيدت من الأحجار البركانية السوداء ذات الأحجام الكبيرة والمتوسطة ، مع وجود قطع من الأحجار الصغيرة بينها ، وقد ربط بين هذه الأحجار جميعها ، ملاط مكون من طمى الوادى والجير (جص) . وقوام تصميمها المعمارى المربع الشكل (٤٠,٠٠ × ٤٠,٠٠م) ، فناء مكشوف محاط بأربعة أسوار ضخمة ، مزودة فى الأركان بأربعة أبراج مربعة (٤,٠٠ × ٤,٠٠م) قوية فى الأركان ، يتخلل طابقها العلوى فتحات للسهام ، أبعادها من الخارج (٠,٤٠ × ٠,١٠م) ومن الداخل (٠,٤٠ × ٠,٣٥م) . وأبراج أخرى مستديرة فى الأضلاع ، كانت تستغل فى استخدام نوع من السهام يحتاج إطلاقها من الأقواس إلى مساحة رحبة ، وليس من أعلى الكتف مباشرة كالتى تقذف من فتحات السهام ، إذ يشتمل كل ضلع من أضلاع القلعة ، عدا الضلع الجنوبى الغربى ، على برجين مستديرين ، قطر الواحد منهما (٢,٠٠م) . ويدخل إلى القلعة من ناحيتها الغربية ، بواسطة مدخل منكسر (٥,٠٠ × ٣,٠٠م) مغطى

بقبو مستدير . وكان يتقدمة باب خارجى معقـود ، إتساعه (١,٠٠م) . ويبرز أساس القلعة للخارج بنحو (٠,٢٠م) كنوع من التقوية . وتوجد بقايا معمارية فى وسط القلعة تضم جدران يتراوح سمك الواحد منها ما بين (١,٠٠ - ١,٥٠م) ، ويبدو أنه كان يراقب ويدافع أيضًا من القلعة بواسطة ممر مكشوف يلتف من الداخل حول الأسوار .

كذلك يقع فى وسط مدينة رابغ الحالية ، أحد أبراج قلعتها الآثرية التى كانت تشمل على صهاريج للمياه العذبة وعدة عنابر ومخازن ، لحفظ المؤن والذخائر ، كما كانت تقيم بها بصفة دائمة فرقة من العسكر ، وعدد كاف من المدافع وأطقمها(٣٨) (مخطط - ٩ ، صورة - ٢٣) . ويتخذ البرج شكلاً مثمن الأضلاع ، تبلغ مساحته نحو (٨٢م٢) ، وسمك جداره (٠,٦٠م) ، ويتكون من طابقين ودروة ، بارتفاع (٦,٠٠م) ، وهو مشيد بالأحجار الجيرية البيضاء المنتظمة فى صفوف أفقية . أما الملاط فمن طمى الوادى والجير (جص) ، كما تغطية من الداخل والخارج طبقة من الملاط ، وتدعمه من الخارج عوارض خشبية للربط والتقوية . ويدخل إلى كل طابق عبر مدخل مربع الشكل (١,٠٠ × ١,٠٠م) ، ينفتح فى الجهة الجنوبية ، ويغلق بضلفة خشبية ، ويعلوه عتب من جذوع أشجار الصرر ، وتتخلل جدران البرج تسع عشرة فتحة للمراقبة والدفاع ، متسعة من الداخل وضيقة من الخارج ، موزعة على صفين ، وأربع نوافذ يعلو كل منها عقد نصف دائرى ، ويعلو كل طابق سقف من جذوع أشجار الصرر أيضًا ، وطبقتان من جريد النخيل والطمى والحصير ، ويبرز من أعلى البرج ، ميذاب خشبى لتصريف مياه الأمطار .

ومن القلاع الباقية أيضًا من العصر العثمانى بدرب الهجرة النبوية ، قلعة عروة بالمدينة المنورة (مخطط - ١٠ ، صورة - ٢٤)(٣٨) ، وهى قلعة مربعة الشكل ، طول ضلعها (٢٢,٠٠م) مشيدة بالأحجار البركانية السوداء والرملية

والملاط المكون من طمى الوادى والجير (جص) ، ويتراوح سمك جدرانها من (٠,٤٥ - ٠,٥٠م) ، وتغطيها من الداخل والخارج طبقة من الجص . ويتوسط ضلعها الشمالى الغربى مدخل يعلوه عقد نصف مستدير ، يؤدى إلى دركاه مستطيلة المساحة ، تلتصق بجدارها الشمالى الشرقى حجرة صغيرة مستطيلة الشكل ، ودرج يصعد به إلى الطابق العلوى ، بينما تلتصق بجدارها الجنوبى الغربى حجرة كبيرة مستطيلة الشكل ، كما تتعامد الدركاه على قاعة كبيرة مستطيلة الشكل أيضًا ، وتغطى الدركاه وما يتصل بها من وحدات مستطيلة المساحة ، قبوات نصف دائرية ، بينما يعلو أبوابها ونوافذها عقود نصف مستديرة . ويحيط بهذا القسم الرئيسى للقلعة ، ممر مكشوف اتساعه (٣م) ، يحيط به جدار سمك (٠,٥٠م) ، تتخلله نوافذ كبيرة ترتفع عن مستوى سطح الأرض بـ (٢,٠٠م) ، كالتى تتخلل جدران القسم الرئيسى للقلعة .

أما عن مكتشفات اللقى الفخارية غير المطلية والمطلية ، والتى أسفرت عنها البحوث الآثرية الميدانية بمواضع درب الهجرة النبوية ، وترجع إلى العصر العثمانى ، وتم تحديد العديد من المواقع الآثرية إستنادا عليها(٤٠) ، فتتمثل فى أجزاء من آنية ومباخر ومسارج وغلايين ، عثر عليها بوادى فاطمة وخليص وبئر مبيرك وبئر الماشية وعروة ، وتميزت ببعض الخصائص الفنية والأساليب الزخرفية البسيطة . وتختلف فيما بينها من حيث تشكيلها ومقدار سمكها ، فضلاً عن تعدد منتجاتها واستعمالاتها ، وقوام زخارفها البارزة والغائرة والملونة ، خطوط عريضة وأخرى دقيقة ، متوازية ومتقاطعة ومنكسرة ، وأشكال معينات وآهلة صغيرة ومتتابعة .

من ذلك قطعتان من الفخار غير المطلى السميك (٨ ملم) المائل للاحمرار ، عثر عليهما بجوار آبار وادى فاطمة ، تمثل الأولى جزءًا من قاعدة إناء (رسم-١) ، والثانية جزءًا من حافة إناء (صورة - ٢٥) .

وقطعتان من صنبورين ، اكتشفتا فى بركة خليص ، من الفخار غير المطلى المتوسط السمك (٥ ملم) ، لونهما بنى فاتح ، قطر الأولى من الداخل (١١ ملم) ومن الخارج (٧ ملم) ، أما الثانية فقطرها من الداخل (١٠ ملم) ومن الخارج (٨,٥ ملم) - (صورة - ٢٦) .

هذا إلى جانب بقايا المنتجات الفخارية غير المطلية ، والتى تغطيها طبقة البطانة من الداخل أو الخارج ، أو من الداخل والخارج معًا ، من ذلك كسرة من بدن إناء من الفخار قليل السمك (٤,٥ ملم) ، عثر عليها بوادى فاطمة ، تغطيها من الخارج طبقة من البطانة البيضاء ، تزينها زخارف هندسية بارزة ، قوامها أشكال معينات (صورة - ٢٧) .

بالإضافة إلى صنبور من الفخار متوسط السمك (٦,٥ ملم) ، يميل لونه للاحمرار ، وتغطيه من الخارج بطانة بيضاء ، ويبلغ قطره من الداخل (١٢ ملم) - (صورة - ٢٨) ، وكسرة من الفخار الرقيق (٣,٥ ملم) ذى اللون البنى الفاتح ، والمبطن من الداخل والخارج باللون الأبيض ، يزينها من الخارج شريط عريض بداخله خطوط دقيقة غائرة متوازية ومتقاطعة ، تكون أشكال معينات (صورة - ٢٩) ، وقد عثر عليهما بخليص ، فى شرق وادى مروانى .

هذا إلى جانب اللقى التى عثر عليها بعروة ، ومنها جزء من حافة إناء من الفخار ، قليل السمك (٤ ملم) به ثقبان ، ربما كان يستفاد منهما فى حمل الإناء . وجزء من مقبض إناء من الفخار السميك (١٠,٥ ملم) ذى اللون البنى الفاتح ، والمبطن من الداخل والخارج باللون الأبيض (صورة - ٣٠) ، فضلاً عن جزأين من مبخرتين مربعتى الشكل من الفخار الخشن السمك (٤ - ١٣ ملم) ذى اللون البنى الفاتح (صورة - ٣١ ، رسم - ٢) ، وفوهة آنية شرب (قلة) من الفخار المتوسط السمك (٦ ملم) ، ذى اللون البنى الفاتح ، والمبطن من

الداخل والخارج باللون الأبيض ، ويلتف حولها من الخارج خطان عريضان وبارزان (صورة - ٣٢ ، رسم - ٣)(٤١) .

كما عثر على أمثلة من بقايا الفخار غير المطلى الأملس المصقول الذى يتميز بدقة صناعته ، بموضع بئر مبيرك ، منها كسرتان من فوهتى غليونين ، سمك أحدهما (٤ملم) ، ويحيط بهما من الخارج خطان غائران ومتوازيان ، يحصران بينهما خطوطًا محزوزة دقيقة متوازية ومتعامدة ، أما الثانية فخالية من الزخارف ، ويبلغ سمكها (٣,٥ملم) - (صورة - ٣٣) .

فضلاً عن أجزاء من آنية ومسارج وغلايين من الفخار المصقول ، عثر عليها ببئر الماشية . من ذلك فوهة آنية من الفخار الوردى اللون ، جيدة الصنع ، ومتوسط السمك (سمك الفوهة ٦ ملم والبدن ٤ ملم) وقطرها من الداخل (١٧ ملم) ، ومضلعة من الخارج (صورة - ٣٤) . بالإضافة إلى جزء من مسرجة مستديرة الشكل(٤٢) ، قطرها (٤٥ ملم) ، تزينه آهلة صغيرة غائرة ومتتابعة ، ويتراوح سمكها ما بين (٤ - ١٥ ملم) ، أما الحافة الخارجية ، فيبلغ سمكها (١,٥٠ ملم) - (صورة - ٣٥) .

أما عن بقايا الفخار المطلى ، فقد عثر فى جنوب وادى مروانى وخليص على خمس كسر من الفخار المطلى من الداخل والخارج ، الأولى عبارة عن جزء من حافة إناء مطلية باللون الفيروزى وثلاثة أجزاء من قواعد آنية من الفخار السميك (٧ - ١٦ ملم) ، مطلية باللونين الأخضر الفاتح والداكن . أما الكسرة الخامسة ، فعبارة عن جزء من بدن إناء من الفخار السميك (٨,٥ ملم) ، والمطلى باللون الأخضر ، يزينه شريط عريض باللون الأخضر الداكن ، قوامة خطوط عريضة منكسرة ومتداخلة (صورة - ٣٦) .

ومما تقدم يتضح مدى أهمية التعرف على المسالك والدروب ذات الدور الحضارى الهام فى إكتشاف معالم مواقع ومناطق أثرية لا تزال مجهولة .

كما يتضح طابع التقشف والبساطة الذى تميزت به المكتشفات الآثرية الثابتة والمنقولة بدرب الهجرة النبوية فى العصر العثمانى(٤٣) ، وقوامها ، مسجد وقصر وأرضية حجرية وبركة وقناتان وأربعة أحواض وثمان آبار وأربع قلاع ، إنفردت بمواقع إستراتيجية وزودت بخصائص وعناصر معمارية تلائم وظيفتها ، كالمحاريب والقباب والقبيبات والقبوات والعقود والأعتاب والدعامات والحنايا والمصاطب والمداخل والمزاغل والنوافذ والأبراج والممرات المكشوفة والدراوى والميدات الخشبية والكسوات الجصية والشرافات ، فضلاً عن اللقى الفخارية غير المطلية والمطلية التى تميزت ببعض الأساليب والعناصر الفنية والزخرفية .

وبعد ، فإننى أرجو أن أكون قد وفقت فى هذا البحث فى إلقاء الأضواء على جانب هام من جوانب التراث الأثرى الإسلامى فى العصر العثمانى .

الهوامـــش

(١) عبد الغنى أحمـد نـاجى : مجلـة الوعـى الإسـلامى (العـدد ٣٠١) - فـى ذكـرى الهجرة النبوية - ص٣٦ .

(٢) خلال موسمى مشروع المسح الآثرى الشامل لأراضى المملكـة العربيـة السـعودية ؛ موسم (٩ ربيع الأول - ٤ جمادى الآخر ١٤٠٠هـ/ ٢٧يناير - ٢٠ أبريل ١٩٨٠م) وموسم (١ ربيع الآخر - ٣٠جمادى الأولى ١٤٠٢هـ/٢٧ يناير - ٢٦ مارس ١٩٨٢م) .

(٣) محمد لبيب البتنونى: الرحلة الحجازية - ص١٧٤-١٧٦ ، ١٨٦ ، ٢٤١-٢٤٣.

محمد طاهر الكردى : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم-جـ٢-ص٢٤٢-٢٤٣ .

(٤) تعد واحات ومزارع وبساتين درب الهجرة النبوية ، مرتعًا خصبًا لأنواع مختلفة من الخضر والفاكهة والنخيل ، وأشجار الدخن والذرة والمقاثى الكثيرة والشيح والحنظـل والخـردل والحنـا الشـهيرة والآثـل - فضـلاً عـن الحبحـب الـذى يصلـح للتـداوى والأعشـاب الطبيـة ، والحشائش الفقيرة والنباتات الصحراوية (انظـر ؛ رينهـات دوزى : تكملـة المعـاجم العربيـة - جـ١ - ص٨٤ ، حليـم إبراهيـم جريـس ، يوسـف خليـل (دكتـور) ، إحـلال السـباعى : الأطلس العربى - ص١٢) .

(٥) ل ق ى : لُقىً ، لِقاء ، لُقْياً ، لُقياً ، لُقى ، لقيانا (انظر ؛ أبى القاسـم محمـود بـن عمر الزمخشرى : أساس البلاغة - ص٤١٣) .

- تدين معظم اللقى والتحف الآثرية بوجودها ، إلى أعمال الحفـائر الآثرية التـى تلقـى أضواء جديدة على الحضـارة الإنسـانية وتاريخهـا (انظـر ؛ ليونـارد وولى : أعمـال المسح الأثرى - ص٥) .

(٦) العياشى : ماء الموائد - ص ٩٣ .

أحمد بن ناصر الدرعى : الرحلة الناصرية - ص٤٢٥ .

فؤاد الماوى (دكتور) : العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز - ص٣٦ .

Shaw, S. J., The Financial and Administrative Organization, p. 250.

(٧) كانت تتداول السلع والبضائع فى العصر العثمانى - إلا فيما ندر - بمكـاييل غـير وافية ، قوامها الصاع أو الربعى وأجزاؤه (الكيلة) ، وبموازين غير صحيحة ، أساسـها الرطـل والأقة والقنطار ، وبأسعار غير معلومة ، وبعملات عديدة (انظر ؛ الجبرتى عجائب الآثـار فـى

التراجم والأخبار - جـ١ - ص٤١٦ ، الجزيرى : الدرر الفرائد - جـ٢ - ص٩١١ ، ٩٧٤ ، ١١٢٩ ، ١١٥٤ ، العياشى : المصدر السابق - ص٢٥ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٣ - ١٦٤ ، أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص١٦١ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ - ٤٤٢، ٤٤٤ ، عبد الرحمن فهمى (دكتور) : النقود المتداولة أيام الجبرتى - ص٥٧٣ ، ٥٧٦، عبد الرحيم عبد الرحمن (دكتور) : وثائق تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى - ص١٥ .

(٨) عسفان ؛ بضم أوله ، وسكون ثانيه ، ثم فاء وآخره نون ، وهى منهلة من مناهل الدرب ، بينها وبين مكة تسعة وأربعون ميلاً ، وبينها وبين البحر الأحمر عشرة أميال ، وهى حد تهامة ، كثيرة الأهل بها نخيل ومزارع ، وماؤها من الآبار (انظر ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان - جـ٤ - ص١٢١ - ١٢٢ ، محمد بن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار - ص٤٢١) .

(٩) كانت تكثر فيه الأوعار من الرمال والأحجار إلى أن مهدت وسويت وعدت ممرًا ضيقًا ، وكان بواسطها لوحة من الرخام ، كتبت عليها بالخط الثلث البسملة ، وأنه أنشئ بأمر سلطانى بمعرفة رضوان بك داود الغفارى فى (جمادى الأولى سنة ١٢٠٠هـ/مارس ١٧٨٦م)، كما كان يوجد بها مسجد صغير (انظر ؛ عبد الغنى النابلسى : الحقيقة والمجاز - ص٤٤٠).

(١٠) كان يباع بها اللحم المشوى والبطيخ والرطب والتمر والملوخية والقرع والباذنجان، (انظر ؛ الجزيرى : المصدر السابق - جـ٢ - ص١٥١٧ ، والنابلسى : المصدر السابق - ص٤٤٠ ، أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٦) .

(١١) رابغ ؛ بعد الألف باء موحدة وآخره غين معجمة ، واد بين البزواء والجحفة دون عزور ، وبين الجحفة ودان ، ورابغ واد من دون الجحفة يقطعه المسافر من دون عزور ، وبطن رابغ واد من الجحفة له ذكر فى المغازى وفى أيام العرب ، وهو على عشرة أميال من الجحفة فيما بين الأبواء والجحفة ، والجحفة جنوب رابغ بنحو عشرة أميال ، وكانت الميقات الذى يحرم الناس منه ، ومن المنازل العامرة ، إلا أنها اندثرت ، وصار الناس يحرمون من رابغ ، ويقال أربغ فلان إبله ، إذا تركها ترد أى وقت شاءت وهى أبل مدبغة أى جيدة ، والرابغ الذى يقيم على أمر ممكن له (انظر ؛ الأزرقى : أخبار مكة المكرمة - جـ٢ - ص٣١ ، ابن حوقل :

صورة الأرض - ص٤٠ ؛ ياقوت الحموى : المصدر السابق - جـ٣ - ص١١ ، العياشى : المصدر السابق - ص٤١ ، أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٥ ، محمد بن عبد السلام الناصرى الدرعى : رحلتنا الدرعى - ص١١٠ ، النابلسى : المصدر السابق - ص٤٣٩، إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين - جـ٢ - ص٢٠٣) .

(١٢) الأبواء ؛ قرية من أعمال الفرع من المدينة ، بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً ، وقبل الأبواء جبل على يمين آرة ، ويمين الطريق للمصعد إلى مكة من المدينة ، وهناك بلد ينسب إلى هذا الجبل (ياقوت الحموى : المصدر السابق - جـ١ - ص٧٩).

(١٣) الأزرقى : المصدر السابق - جـ١ - ص١٣٢ - حاشية ٥ ، جـ٢ - ص٣١٠ .

القلقشندى : صبح الأعشى - جـ٤ - ص٢٥٩ ، جـ١٤ - ص٣٨٦ - ٣٨٨ .

أحمد الرشيدى : حسن الصفا والابتهاج - ص٤٥ .

ياقوت الحموى : المصدر السابق - جـ١ - ص٧٩ ، ٢٣٩ ، جـ٢ - ص٢٩٥ .

الجزيرى : المصدر السابق - جـ ٢ - ص٨٣٧، ١٥٥٩ - ١٥٦٠، ١٥٦٢، ١٥٦٦، ١٥٦٨ ، ١٥٧١ .

العبدرى : الرحلة المغربية - ص١٥٧ ، ١٦٥ .

العياشى : المصدر السابق - ص٤٣ - ٤٥ ، ١٢٧ .

النابلسى : المصدر السابق - ص١١٥ ، ٤٣٩ - ٤٤٠ .

أبو القاسم الزيانى : الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برًا وبحرًا - ص٢٢٩.

أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥١ ، ٤٥٥ - ٤٥٨ .

المنالى الزبادى : بلوغ المرام - ص٥٤٣ - ٥٤٤ ، ٥٤٦ .

محمد بن عبد السلام الناصرى الدرعى:المصدر السابق -ص١١٥-١١٦،١١٩-١٢٣، ١٤٧ ، ١٥٥ - ١٥٦ .

محمد لبيب البتنونى : المصدر السابق - ص١٧٤ - ١٧٦ ، ١٨٦ ، ٢٤١ - ٢٤٣ .

إبراهيم رفعت : المصدر السابق - جـ٢ - ص١٤٢ - ١٤٣ ، ١٩٩ - ٢٠٣ .

محمد طاهر الكردى : المرجع السابق - جـ٢ - ص٢٤٢ - ٢٤٣ ، ٢٤٥ - ٢٤٦ .

عبد الكريم كريم (دكتور) : المرجع السابق - ص١٩٠ .

حليم جريس ، يوسف خليل (دكتور) ، إجلال السباعى : المرجع السابق - ص١٢.

Burckardt, J. L., Travels in Arabia, pp. 292 - 293.

(١٤) عند دائرة خط عرض(٤٢َ-٢١ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٤٩َ-٣٩ْ) شرقًا .

- قطع المعماريون فى العصر العثمانى صلتهم بالتصميمات الإسلامية الصميمة للمساجد ، والتى كانت تتمثل فى النموذجين الرئيسيين ، وأولهما النموذج النبوى ذو الصحن والظلات ، وثانيها النموذج السنى ذو الصحن والأيونات ، وانحصر تصرف هؤلاء المعمارين فى تخطيط بيت الصلاة فى توزيع بدانات أو دعامات فى وسطه (انظر ؛ فريد شافعى - (دكتور) : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - ص١٤٠ - ١٤١) .

(١٥) انتقلت فكرة التغطية بالقبوات من العمائر الساسانية إلى العمارة الإسلامية المبكرة فى العراق والشام ، إذ نشاهدها فى قصر المشتى و قصر الطوبة وفى حمام الصرخ ، ثم فى قصر الأخيضر (انظر ؛ فريد شافعى (دكتور) : المرجع السابق - ص١٦٤) وقد استعملت القبوات نصف الكروية أو المدببة أو المتقاطعة فى تغطية الحجرات والدهاليز فى المبانى الدينية والمدينة والعسكرية) انظر ؛ صالح لمعى (دكتور) : التراث المعمارى الإسلامى فى مصر - ص١٠٦) .

(١٦) يوجد أقدم محراب مجوف فى الجدار الجنوبى الخارجى لمبنى قبة الصخرة فى بيت المقدس (٧٢هـ/٦٩١م) ، (انظر ؛ فريد شافعى (دكتور) : المرجع السابق - ص١٥٢ ، ١٥٤).

(١٧) لم تترك التقاليد والعناصر التى اقتبسها المعماريون فى العصر العثمانى من الطرز البيزنطية إلا مجالاً ضيقًا للعناصر والتفاصيل الإسلامية ، (انظر ، فريد شافعى (دكتور) : المرجع السابق - ص١٤٣ ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية - المجلد الأول - ص١٧٣ - ١٧٤) .

(١٨) أن المنازل والقصور التى ما زالت قائمة بمكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف وغيرها ، والتى يعود معظمها إلى أواخر العصر العثمانى ، لتوضح فى جلاء كبير تلك المستويات التى إنحدرت إليها العمارة فى الأقطار العربية التى دخلت فى حوزة الدولة العثمانية، وذلك على الرغم مما حدث فى العصر العثمانى من الإسراف والمبالغة فى استخدام المواد الثمنية كالرخام والفسيفساء والبلاطات الخزفية والإكثار من استعمال الذهب والتذهيب ، وليس كل ذلك بدليل على ارتفاع المستوى الفنى والمعمارى ، بل لعله يعد أحيانًا وسيلة لتغطية انخفاضه (انظر ؛ فريد شافعى (دكتور) : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - ص١٤٦).

(١٩) مساعد بن منصور (الشريف) : جداول امراء مكة منذ فتحها إلى الوقت الحاضر - ص٣٥ - ٣٧ .

(٢٠) القبة من العناصر المعمارية المعروفة منذ آلاف السنين وقد استخدم العثمانيون القبة المنخفضة (الضحلة) التى تتميز بالشكل الذى يقل عن نصف الكرة ، وهذه تختلف كثيرًا عن القبة الإسلامية العالية فى مصر ، أما القباب ذات الأحجام الصغيرة ، فكان الكثير منها يغلب عليه القطاع المدبب ، بل كان بعضها يقرب من الشكل المخروطى (انظر ؛ فريد شافعى (دكتور): المرجع السابق - ص١٧٧ ، ١٩٨ ، كمال الدين سامح (دكتور) : العمارة الإسلامية فى مصر - ص٥٢) .

(٢١) عند دائرة خط عرض (١٧َ-٢٣ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٢٤َ-٣٩ْ) شرقًا .

(٢٢) العياشى : المصدر السابق - ص٤٤ .

النابلسى : المصدر السابق - ص٤٤٠ .

أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٧ .

المنالى الزبادى : المصدر السابق - ص٥٤٤ .

(٢٣) عند دائرة خط عرض (٤٥َ-٢١ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٣١َ-٣٩ْ) شرقًا .

(٢٤) العياشى : المصدر السابق - ص٤٣ .

النابلسى : المصدر السابق - ص٤٤٠ .

أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٦ .

(٢٥) الجزيرى : لمصدر السابق - جـ٢ - ص٨٣٧ .

العياشى : المصدر السابق - ص٤٣ .

أحمد بن ناصر الدرعى : المصدر السابق - ص٤٥٦ .

المنالى الزبادى : المصدر السابق - ص٥٣٨ .

(٢٦) عند دائرة خط عرض(٢٠َ-٢٢ْ) شمالاً ، ودائرة خط طول (٠٩َ-٣٩ْ) شرقًا.

(٢٧) عند دائرة خط عرض(١٠َ-٢٣ْ) شمالاً ، وادئرة خط طول (٠٩َ-٣٩ْ) شرقًا.

(٢٨) محمد لبيب البتنونى : المرجع السابق - ص١٧٤ ، ١٨٦ .

محمد طاهر الكردى : المرجع السابق : ص٢٤٢ .

(٢٩) عند دائرة خط عرض (٥٥َ-٢٣ْ) شمالاً ، ودائرة خط طول (٠٧َ-٣٩ْ)شرقًا.

(٣٠) الجزيرى : المصدر السابق - جـ٢ - ص١٥٦٦ .

- محمد بن عبد السلام الناصرى الدرعى : المصدر السابق - ص١٥٥ - ١٥٦ .

- عند دائرة خط عرض (٢٤َ-٢٤ْ) شمالاً ، ودائرة خط طول (٣٢ - ٣٩ْ) شرقًا .

(٣١) كلمة القلعة (قلاع) فى الأصل مأخوذة عن الكلمة اللاتينية Castellum وتعنى المكان المحصن ، وقد بدأ الإنسان بإنشاء المبانى المحصنة والمراكز الدفاعية لحماية نفسه منذ أقدم العصور التاريخية ، (انظر ؛ حنان الكردى : القلاع الآثرية فى الأردن-ص٢-٣، ٥).

(٣٢) الدركاة ؛ وجمعها دركاوات ، لفظ فارسى مركب من كلمتين "در" بمعنى فى ، " كاة " بمعنى محل ، وهى المساحة الصغيرة المربعة أو المستطيلة التى تلى باب الدخول إلى داخل المبنى (انظر ؛ المقريزى : الخطط - جـ١ - ص٨٥٧ - حاشية ٢٥ ، صالح لمعى مصطفى (دكتور) : المرجع السابق - ص١١٩) وقد وجدت الدركاوات بالمداخل المباشرة ، والمداخل المنكسرة ، وكانت تسقف بأسقف خشبية مسطحة ، أو بقبوات نصف كروية أو متقاطعة أو بقباب ضحلة أو غير ضحلة .

(٣٣) استخدمت المداخل المنكسرة فى القلاع والحصون للتخفيف من حدة إندفاع هجوم العدو (انظر ؛ توفيق أحمد عبد الجواد (دكتور) : تتاريخ العمارة والفنون الإسلامية - جـ٣ - ص١٩٠ انظر ؛ فريد شافعى (دكتور) : العمارة العربية فى مصر الإسلامية - المجلد الأول - ص٤٣٣ ، ٤٣٥) .

(٣٤) عرف العقد نصف الدائرى أيام الرومان ، واستعمل فى العمارة الإسلامية فى قصر الحير الشرقى (١١٠هـ / ٧٢٨م) فى العصر الأموى ، واستعمل فى مصر فى كثير من الفتحات ، وشاع استعماله فى عمارة العصر العثمانى بمصر (انظر ؛ صالح لمعى مصطفى (دكتور) : المرجع السابق - ص٩٧) .

(٣٥) الشرافات ؛ قطع حجرية توضع أعلى المبنى فوق الكورنيش ، تتوج بها الواجهات، وقد تكون مسننة (تدرج بالجانبين على شكل أسنان) أو مورقة (على شكل زهرة) - (انظر ؛ صالح لمعى مصطفى (دكتور) : المرجع السابق - ص١٢١) .

(٣٦) عند دائرة خط عرض (٥٤َ - ٢١ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٢٠َ - ٣٩ْ) شرقًا.

(٣٧) عند دائرة خط عرض (١٠َ-٢٢ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٢١َ-٣٩ْ) شرقًا .

(٣٨) العياشي : المصدر السابق - ص٤١ .

أبو القاسم الزياني : المصدر السابق - ص٢٢٨ .

أحمد بن ناصر الدرعي : المصدر السابق - ص٤٥٤ .

المنال الزبادي : المصدر السابق - ٥٤٢ .

محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي : المصدر السابق - ص١٠٧ - ١٠٩ .

محمد لبيب التبنوني : المصدر السابق - ص٣٦ ، ٢٠٩ .

أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب - جـ١ - ص١٩٧ .

(٣٩) عند دائرة خط عرض (٢٦َ-٢٤ْ) شمالاً ، دائرة خط طول (٢٤َ-٣٩ْ) شرقًا

(٤٠) عرفت البشرية الفخار منذ القدم ، وهو طفل بنى مائل للاحمرار بعضه خشن وبعضه أملس ناعم ، وكان يستخدم بصفة خاصة في صنع الجرار من قلل وأزيار ، حيث يستفاد من مسامه في تبريد الماء ، وكانت تصنع تحفة التى تتفاوت فى السمك من الطين المحروق دون طلاء ، كما كانت تغطى بعض منتجاته من البطانة الملساء ، لونها أبيض أو مائل للإصفرار وقد يصقل سطحها فتبدو لامعة ، أو تترك بدون بطانة أو صقل ، وقد عرف الصناع المسلمون طرقًا كثيرة لزخرفة الفخار ، مثل النقش والحفر والتجسيم بطريقة (الباربوتين) - أى صب العجينة المضافة من قمع أو قرطاس - والطبع بالأختام (انظر ؛ زكى محمد حسن (دكتور) : أطلس الفنون الزخرفية - ص٤١١ ، م . س . ديماند : الفنون الإسلامية - ص١٨٠ - ١٨١ ، ٢٢١ ، حسن الباشا (دكتور) : مدخل إلى الاثار الإسلامية-ص٣٦٣، ٣٧٤ ، سعاد ماهر (دكتورة) : الزخرف التركى - ص٣ ، عبد الرءوف على يوسف : القاهرة - تاريخها فنونها آثارها - بحث الفخار - ص٣٢٠ ، G. Rctlinger, Unglazed Relief Pottery from Northern Mesopotamia (in Ars Islamica, Vols. XV - XVI, p. 11 - 22).

(٤١) القلل الفخارية ؛ من الأوانى الشعبية الشائعة لتبريد المياه ، وقد تفنن الفخاريون أو القلالون فى إبتكار أشكال لطيفة لهذه القلل ، وفى زخرفتها بأساليب مختلفة وزخارف متنوعة ، (انظر ؛ زكى محمد حسن (دكتور) : فنون الإسلام - ص٣٢٧ - ٣٢٨ ، ص٣٣١ - ٣٣٢ ، عبد الرءوف على يوسف : المرجع السابق - ص٣٢٥ - ٣٢٦) .

(٤٢) تعد المسارج الزيتية بأشكالها المختلفة وزخارفها المتعددة من تحف الفخار الشعبى
ذى يمتاز بالبساطة وقلة التكليف وحسن الذوق ودقة الصناعة (انظر ؛ عبد الرءوف على
يسف : المرجع السابق - ص٣٢٣ - ٣٢٥) .

(٤٣) أدى إجتذاب كبار المعماريين والفنانين والحرفيين من أقطار الدولة العثمانية ذات
تاريخ المعمارى الإسلامى العريق إلى قلب الدولة ، سواء كان ذلك بالأمر أو بالإغراء بالمال ،
، انخفاض كبير فى المستوى المعمارى والفنى فى تلك الأقطار ، (انظر ، فريد شافعى
دكتور) : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - ص١٤٥ - ١٤٦) .

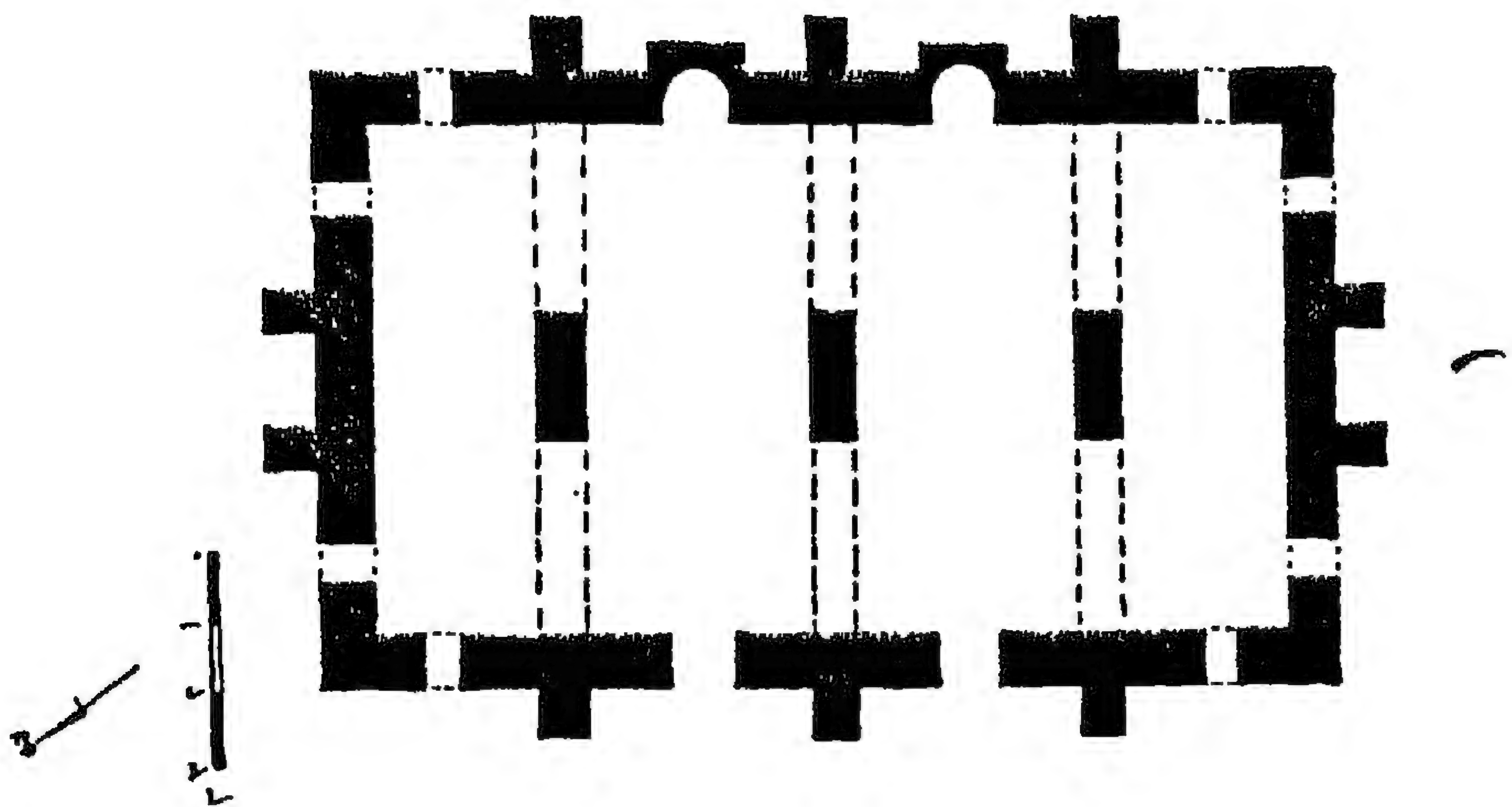
درب الهجرة النبوية

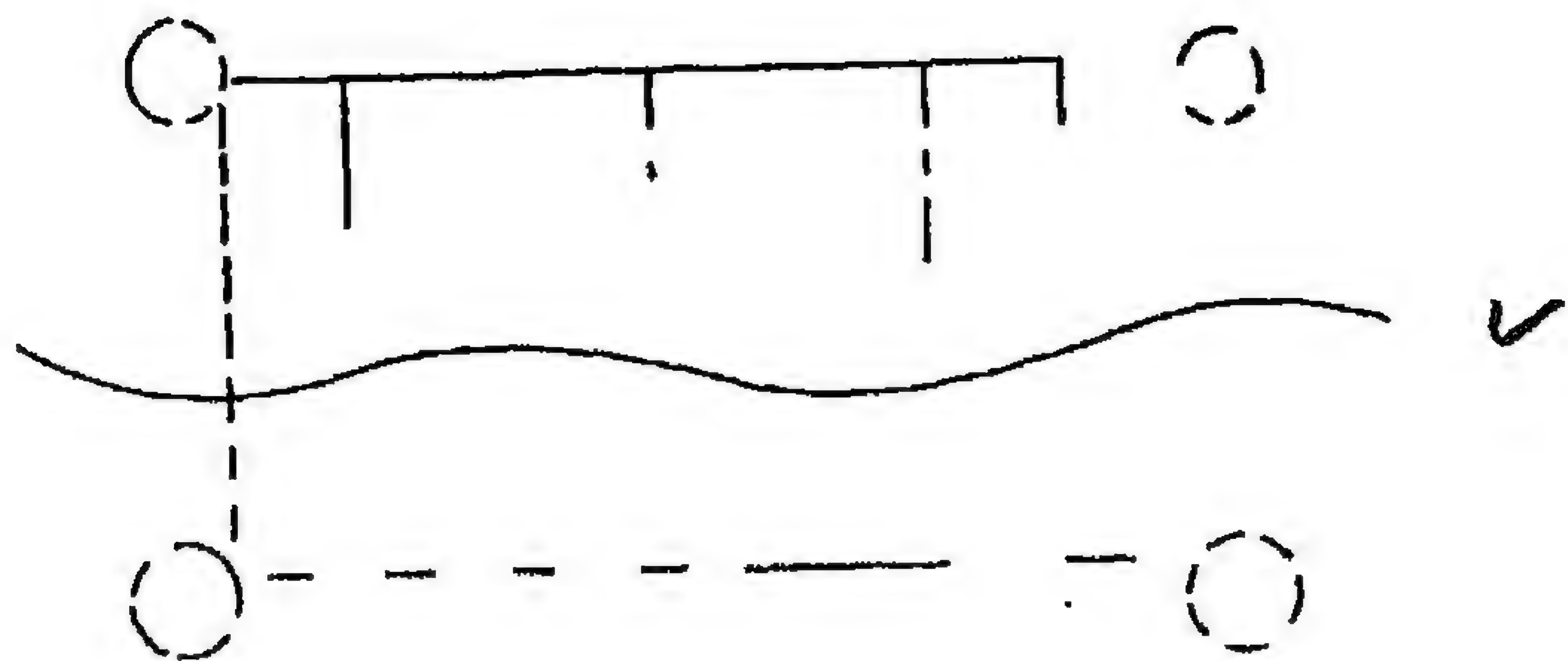
بيان مواضع
مكتشفات المنشآت المعمارية واللقى الفخارية الآثرية وأنواعها
بدرب الهجرة النبوية فى العصر العثمانى

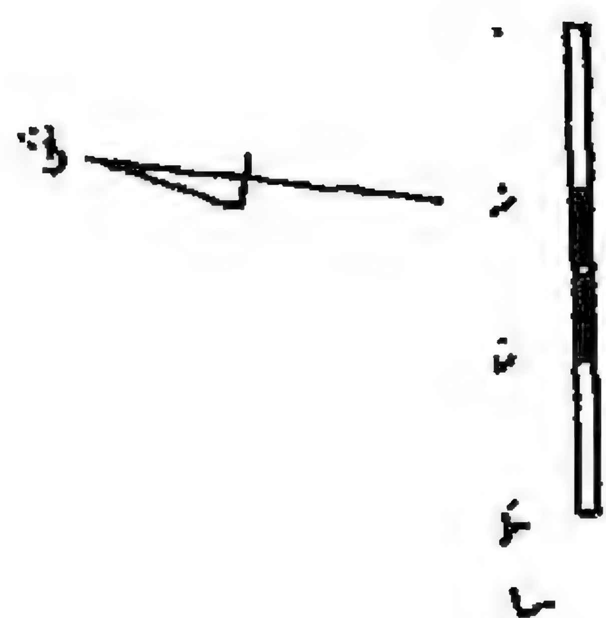
الأنواع / المواضع	المنشآت المعمارية								اللقى الفخارية			
	الدينية	المدنية						الدفاعية	غير المطلية			المطلية
		قصور	أرضيات	آبار	أحواض	برك	قنوات		غير مبطن	مبطن	مصقول	
مكة المكرمة		*										
الجموم	*			*					*	*		
المحيسنية				*	*							
عسفان				*	*			*				
خليص				*		*	*	*	*	*		*
قضيمة				*								
رابغ			*					*				
بئر مبيرك				*							*	
بئر الماشية				*	*						*	
أبيار على				*	*		*					
عروة / المدينة								*		*		

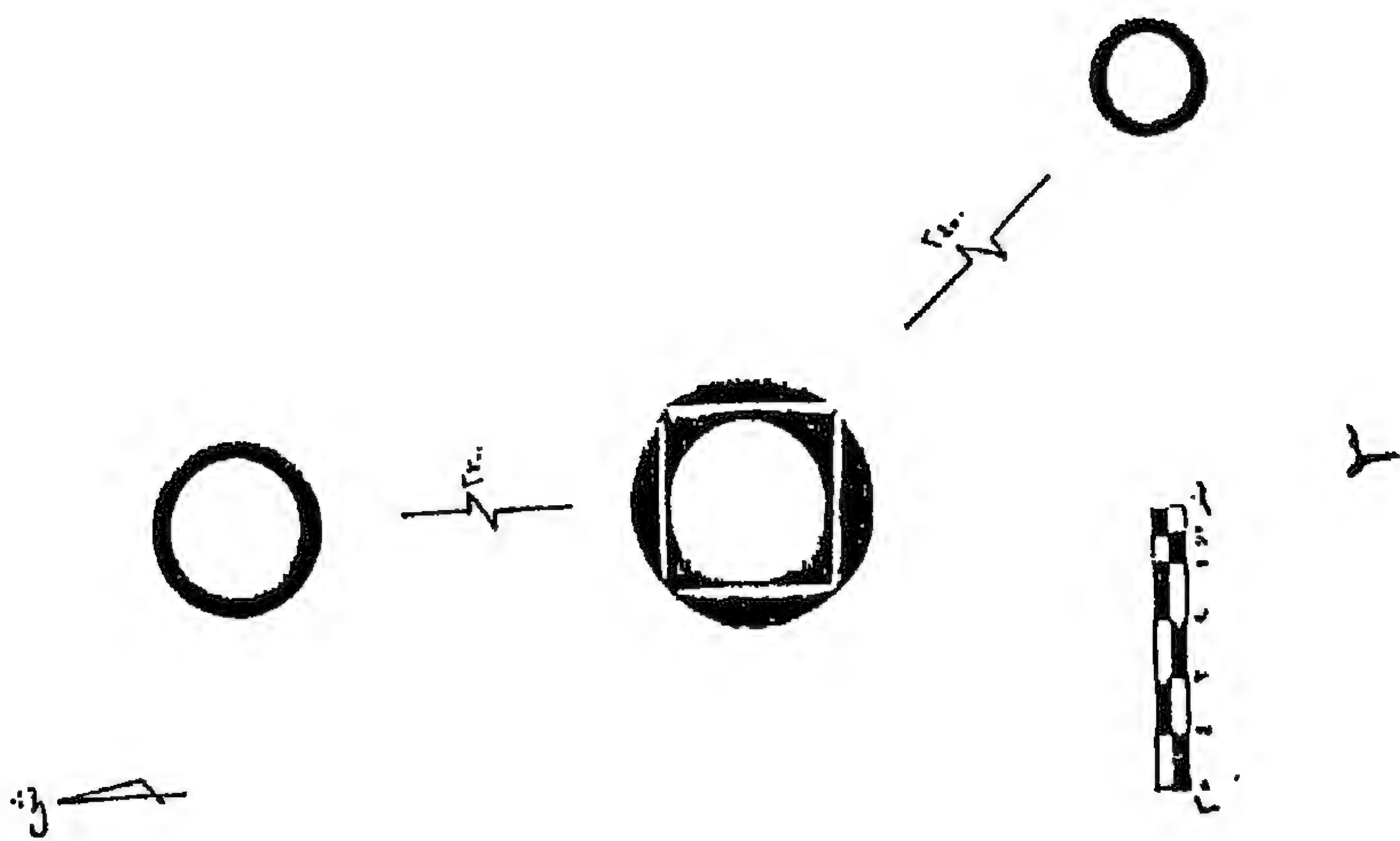
المخططات المعمارية

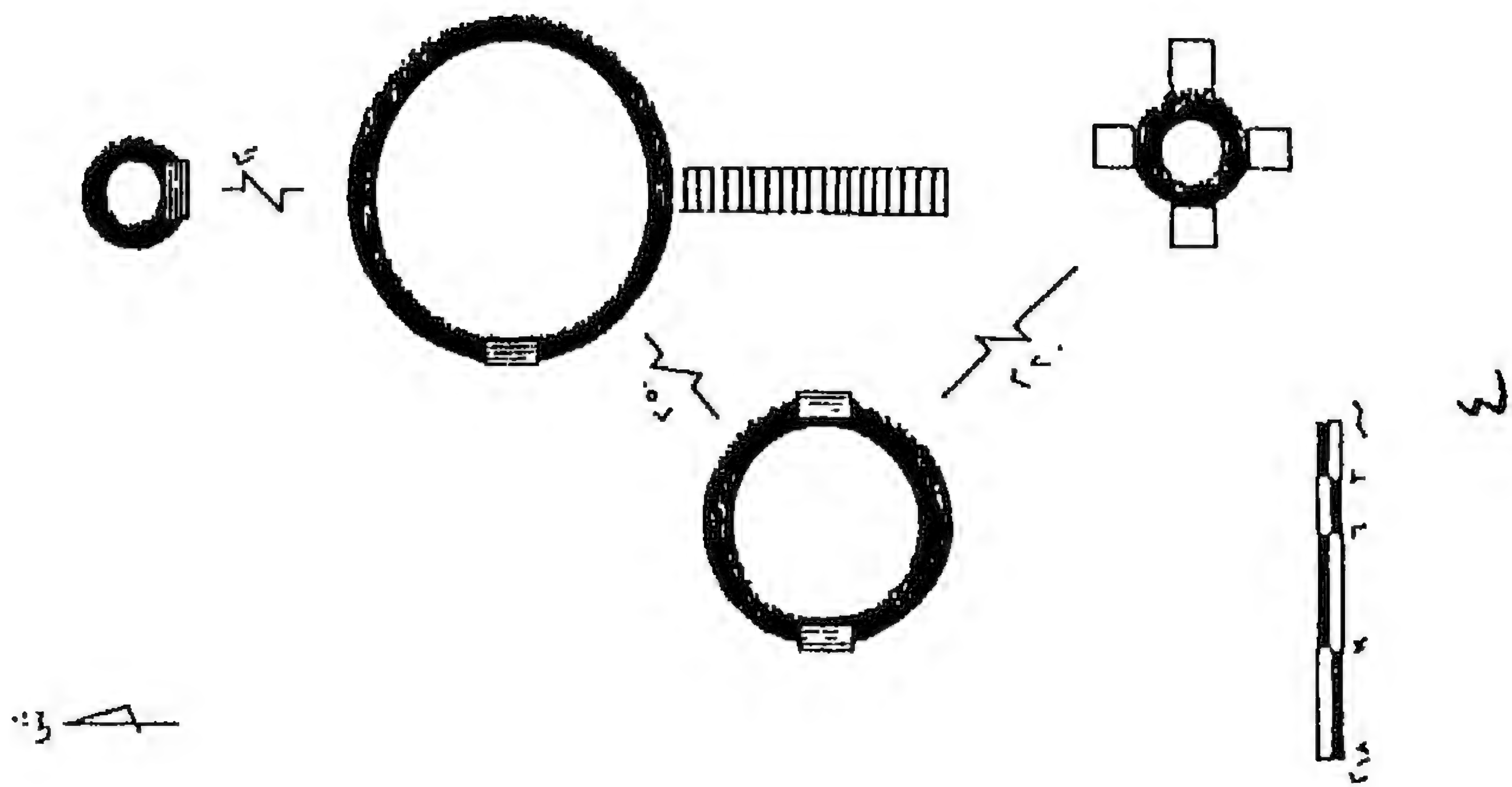
(١ - ١٠)

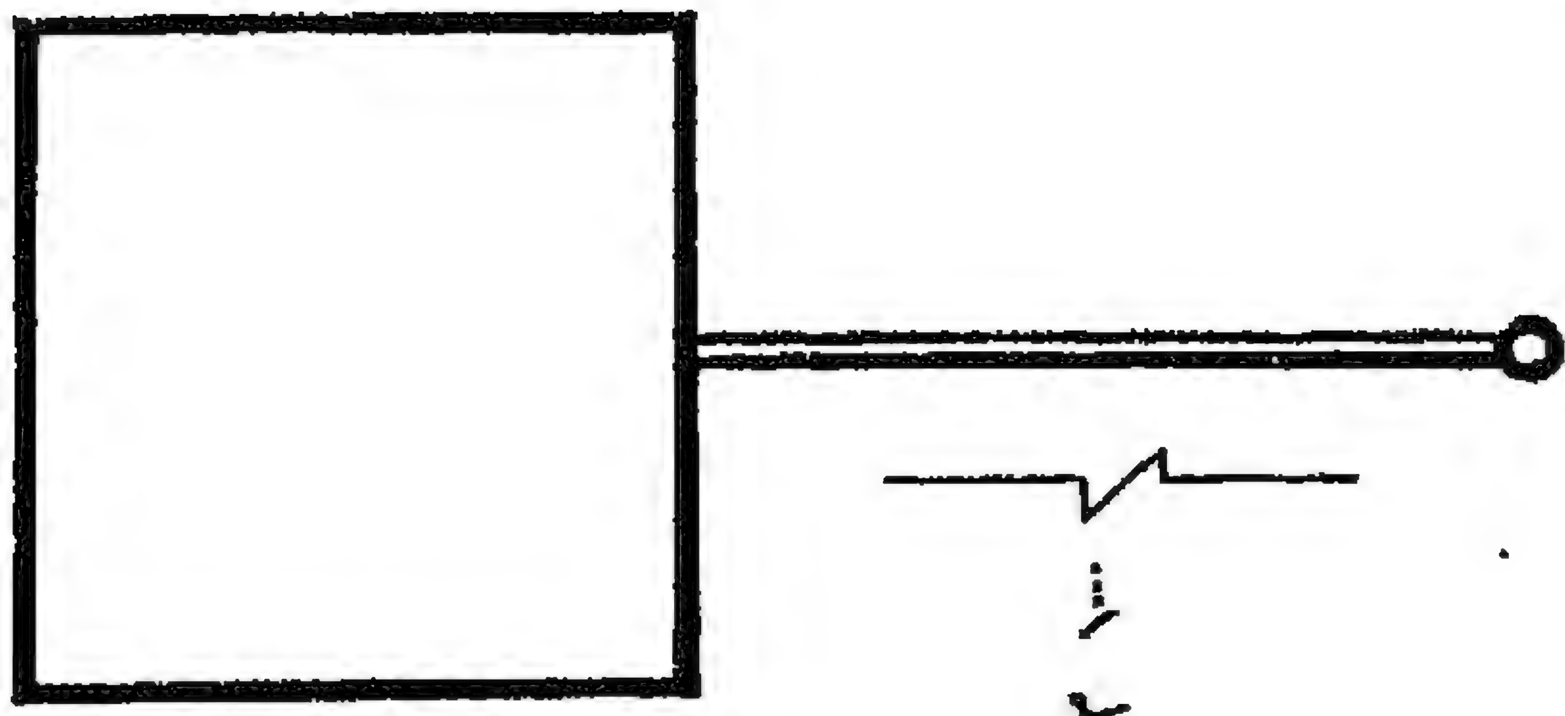




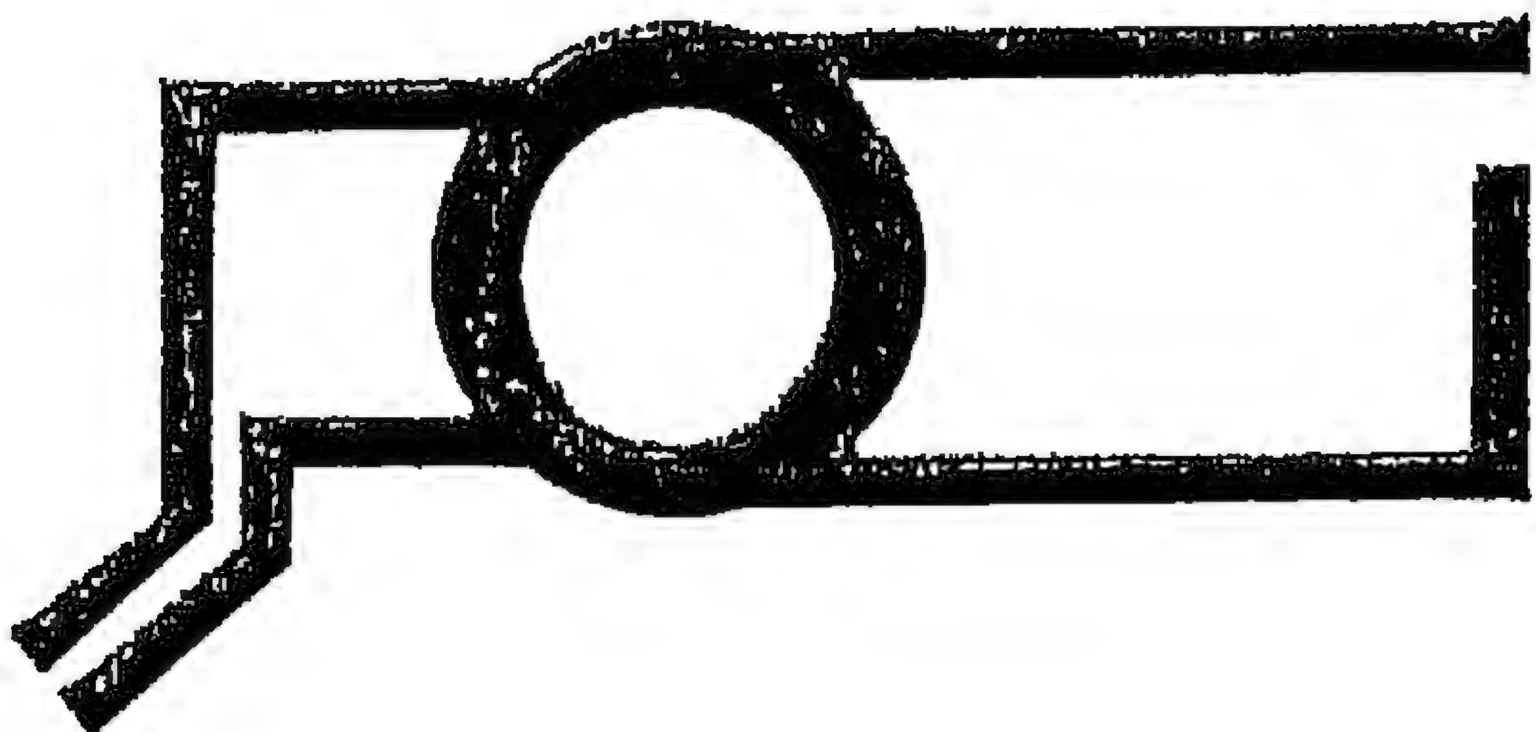




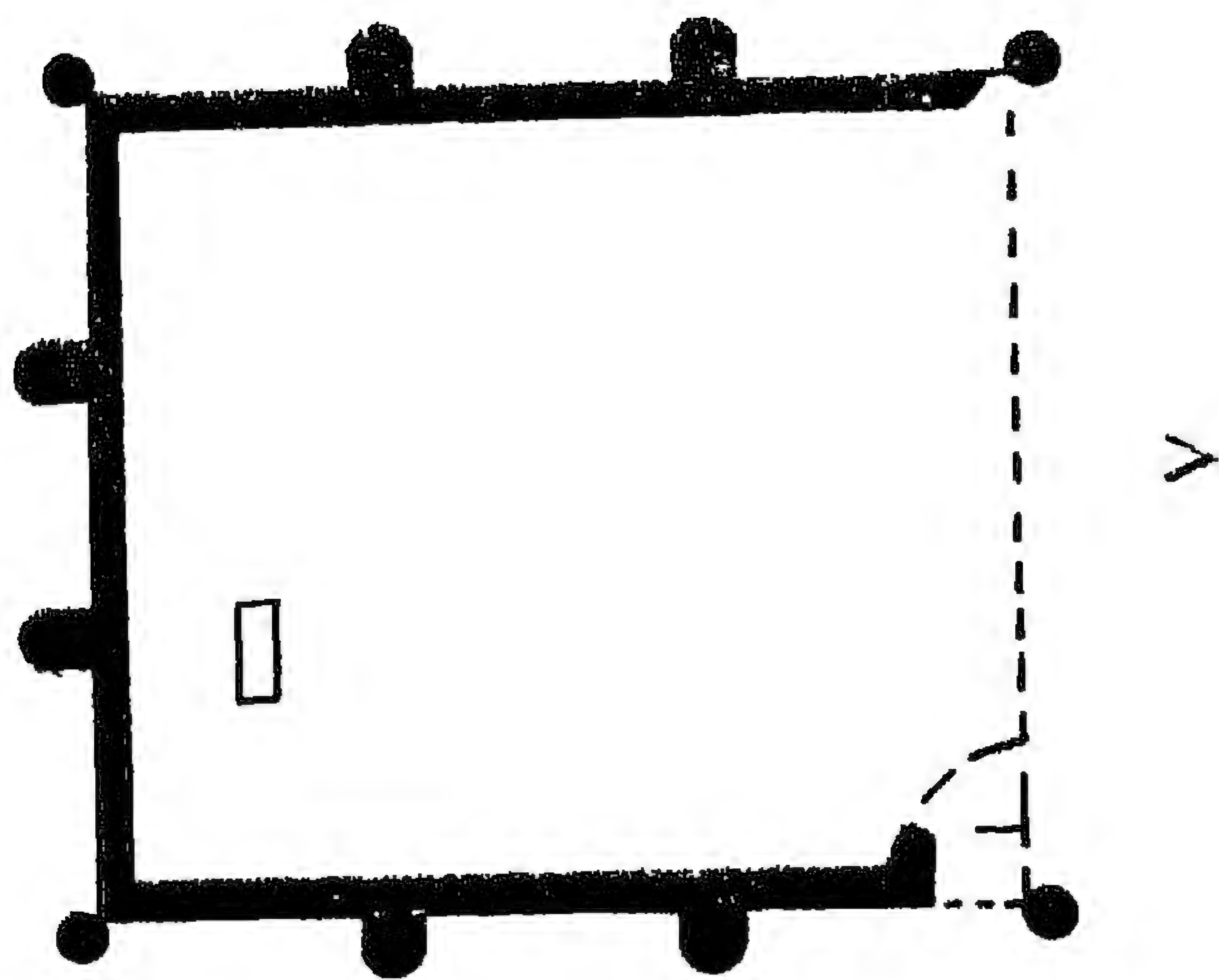


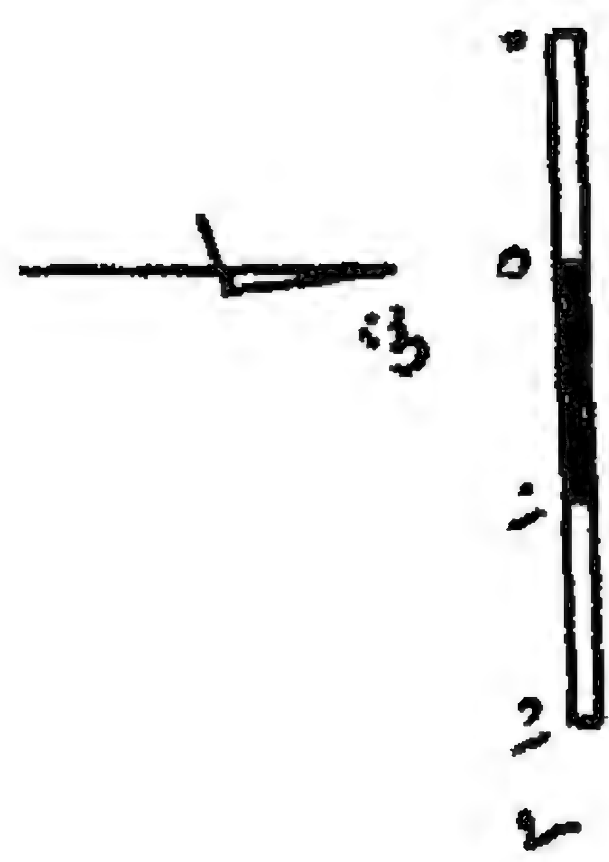


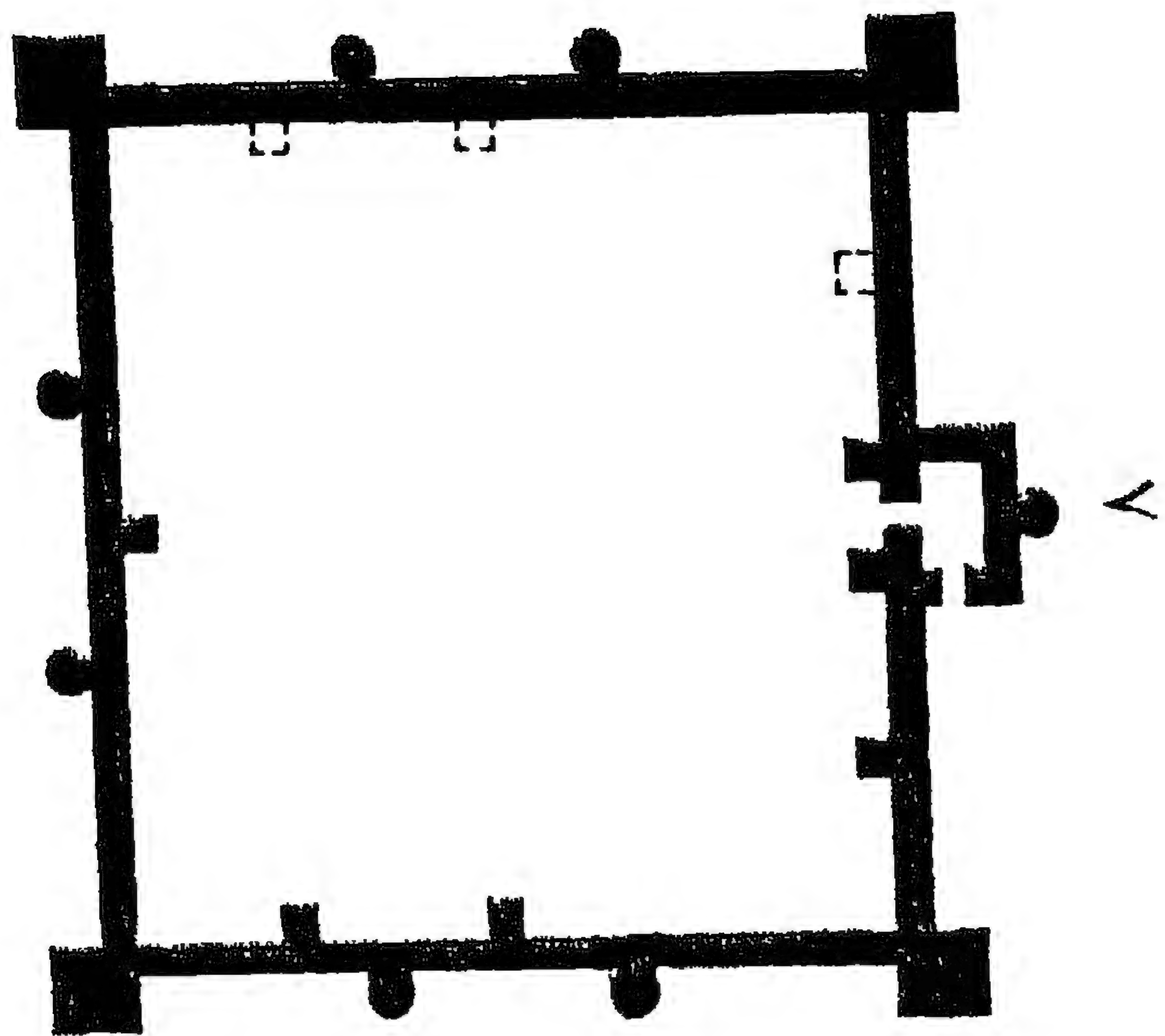
٥



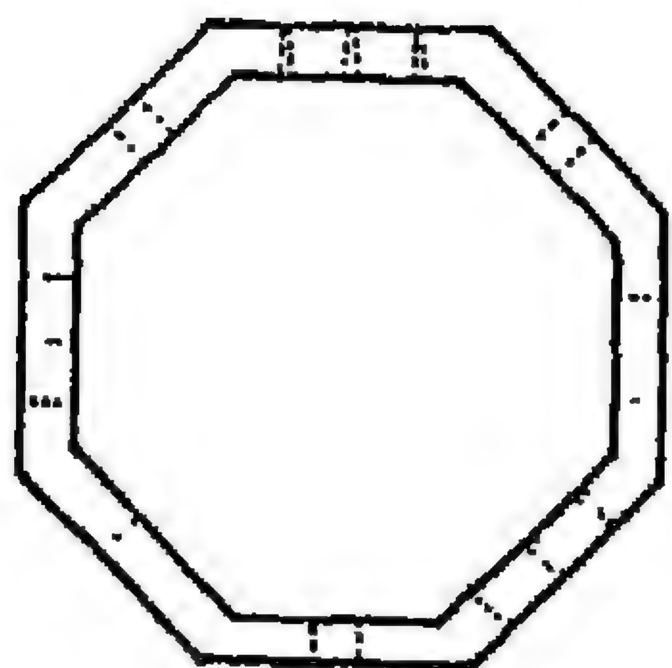
٦

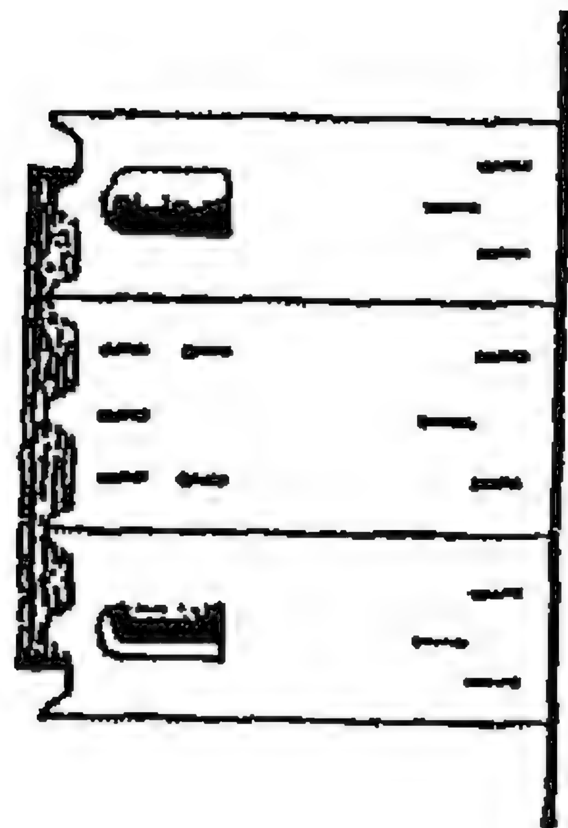


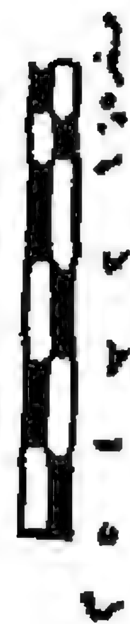


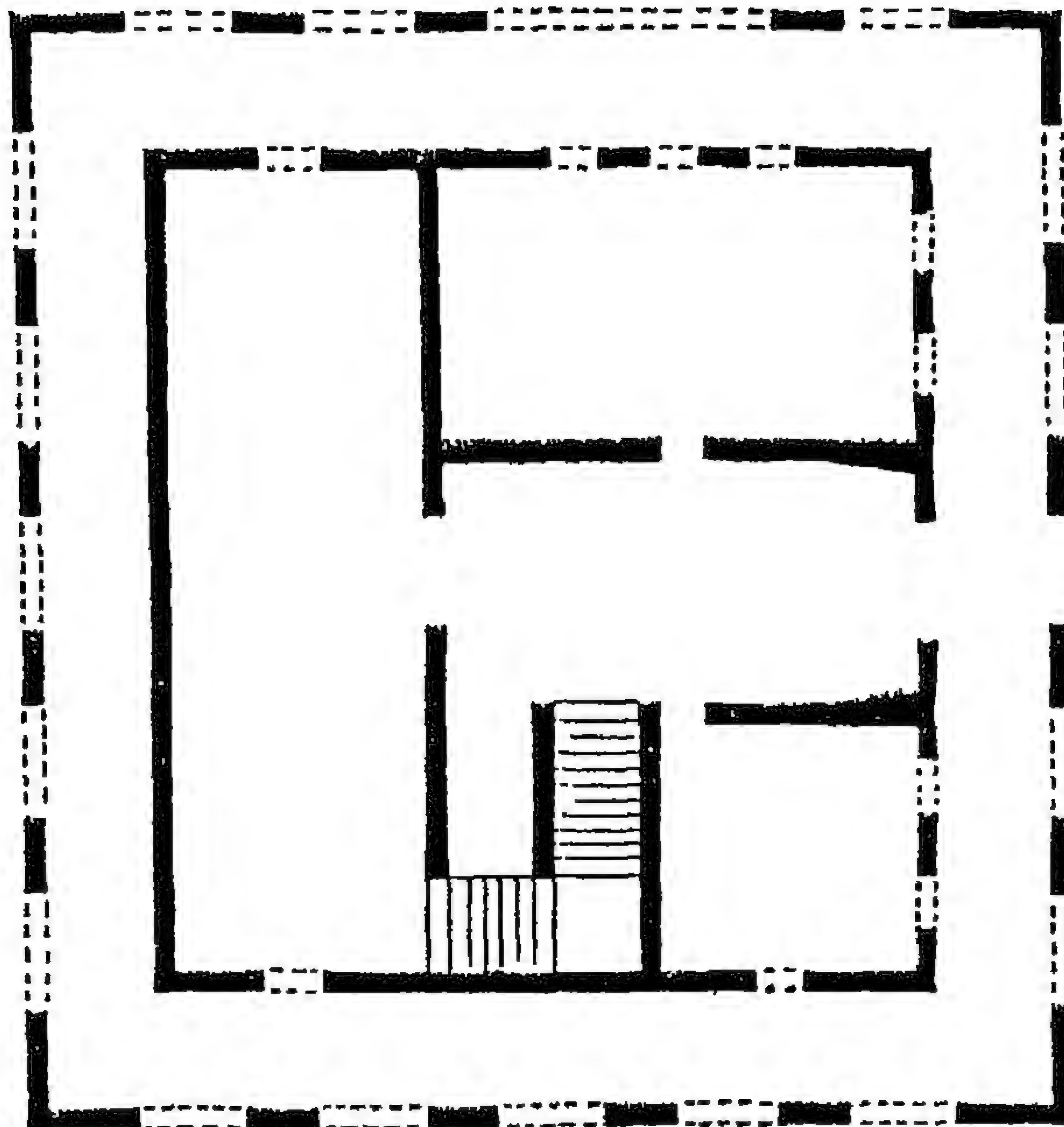


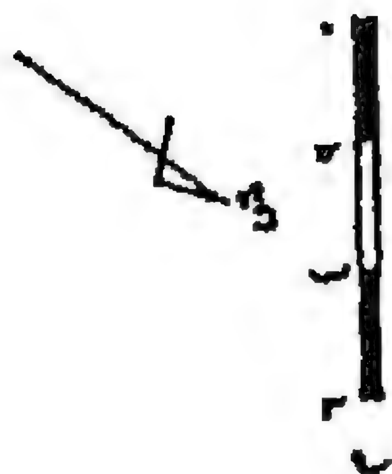






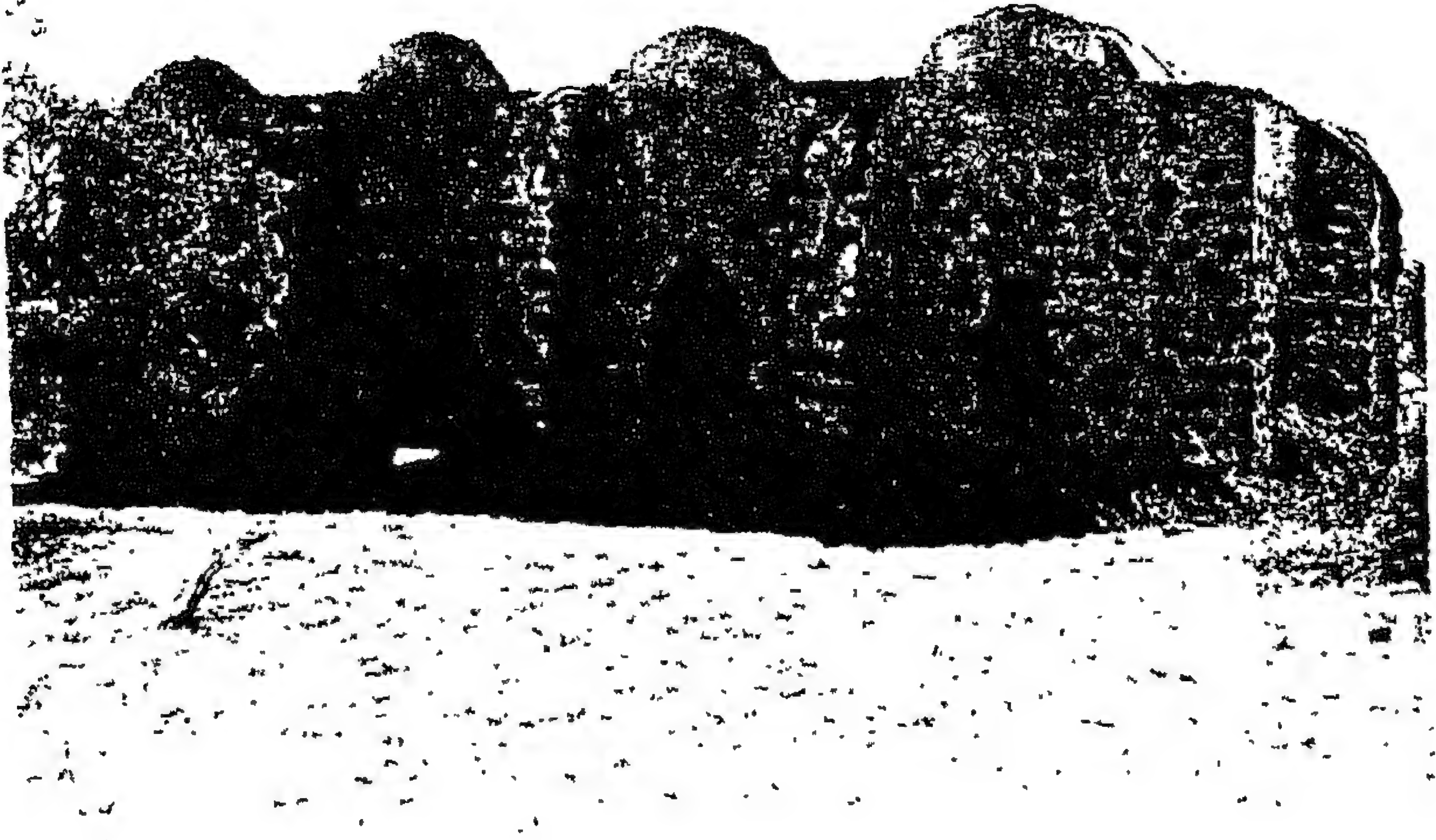




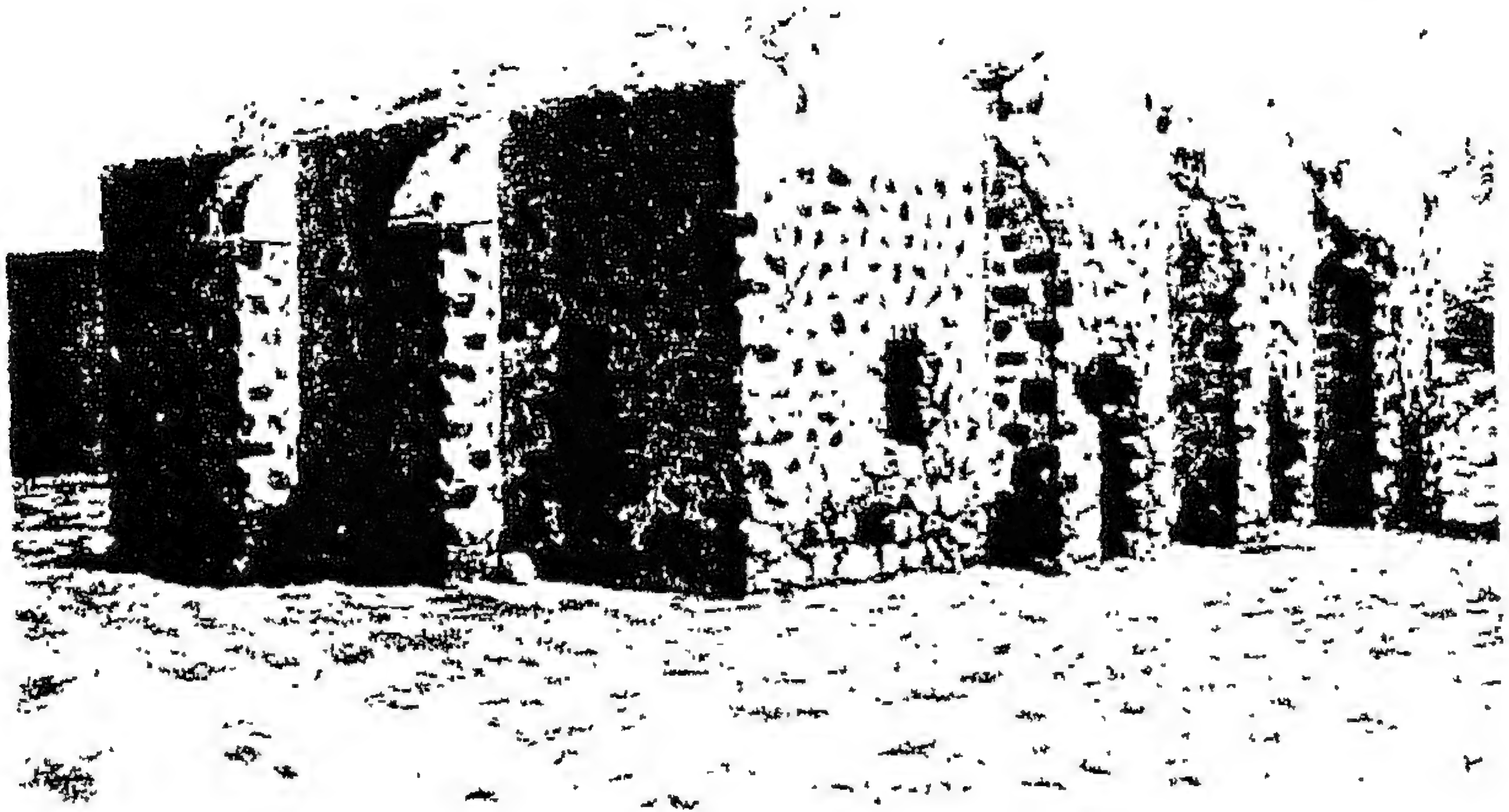


الصور الفوتوغرافية

(١ - ٣٦)



١



٢



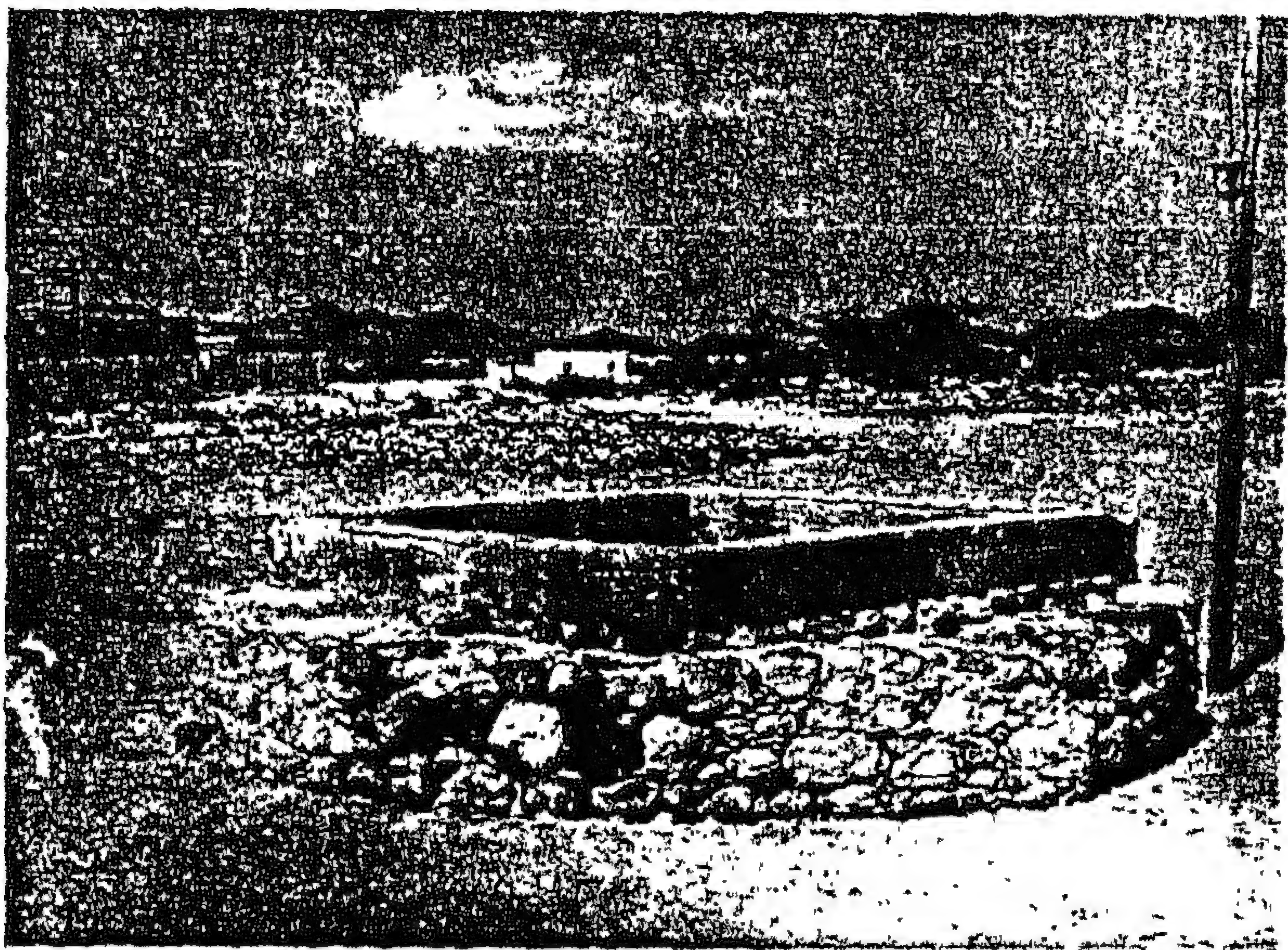
٣



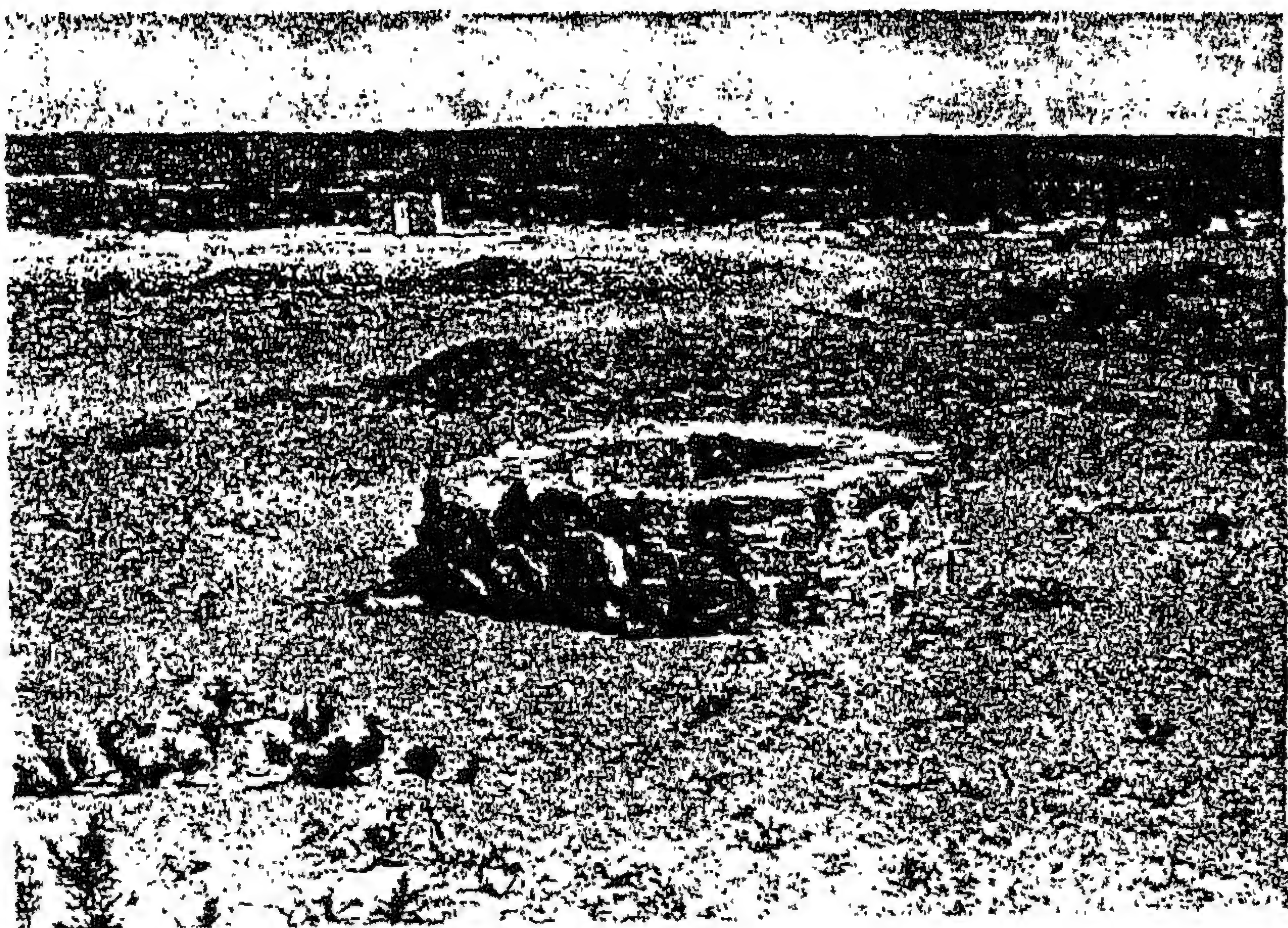
٤


٥


٦



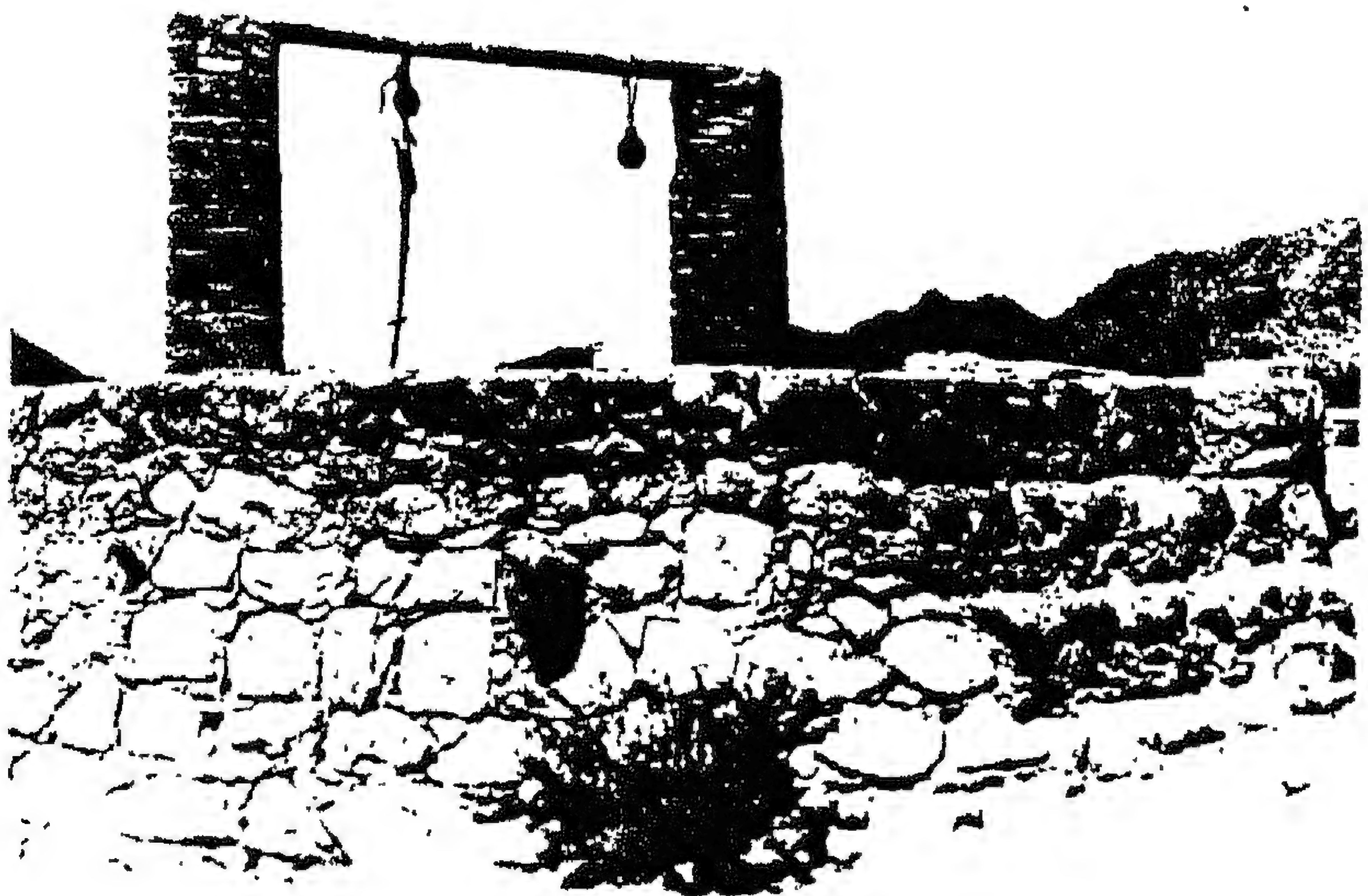
٧



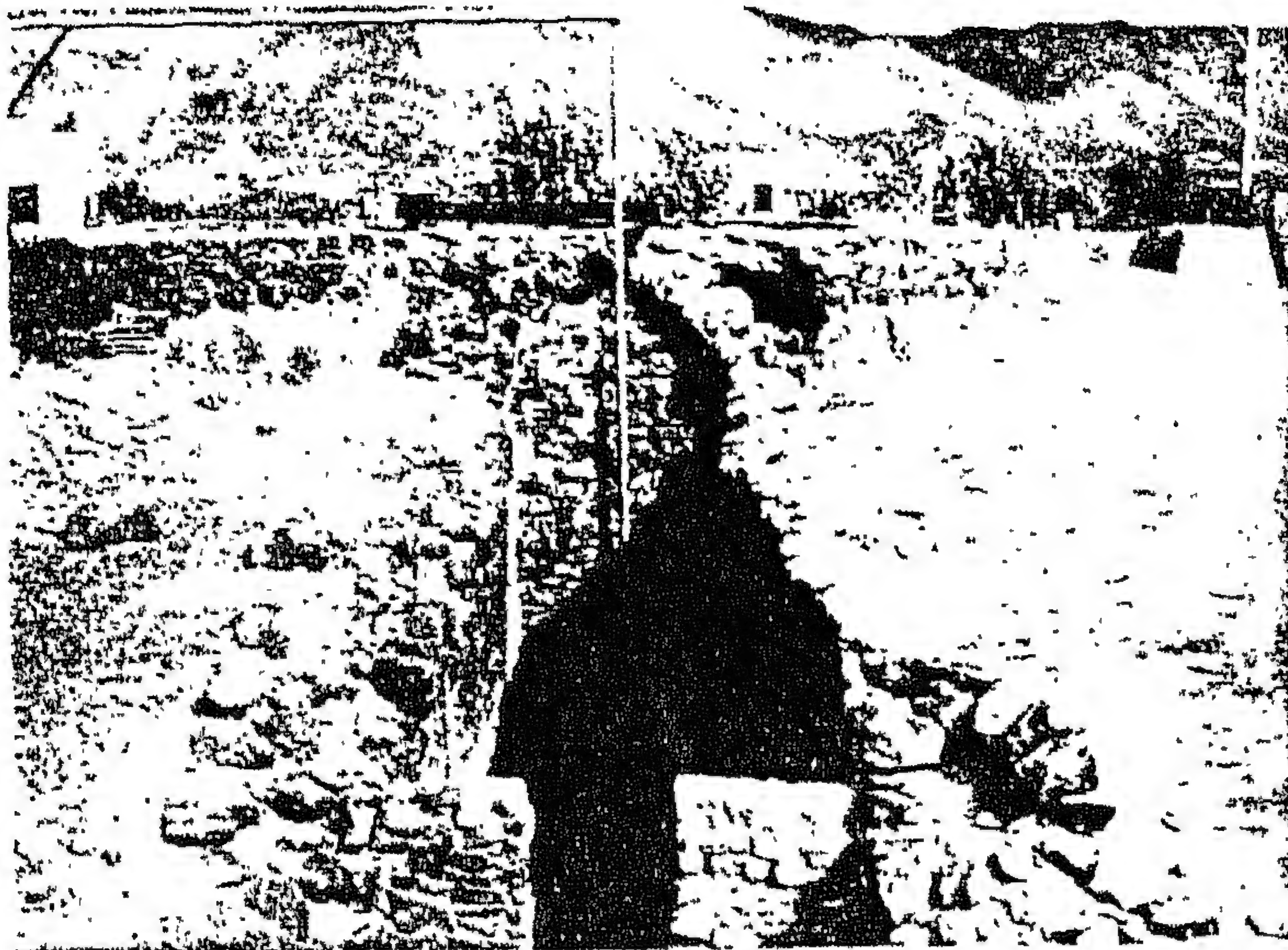
٨



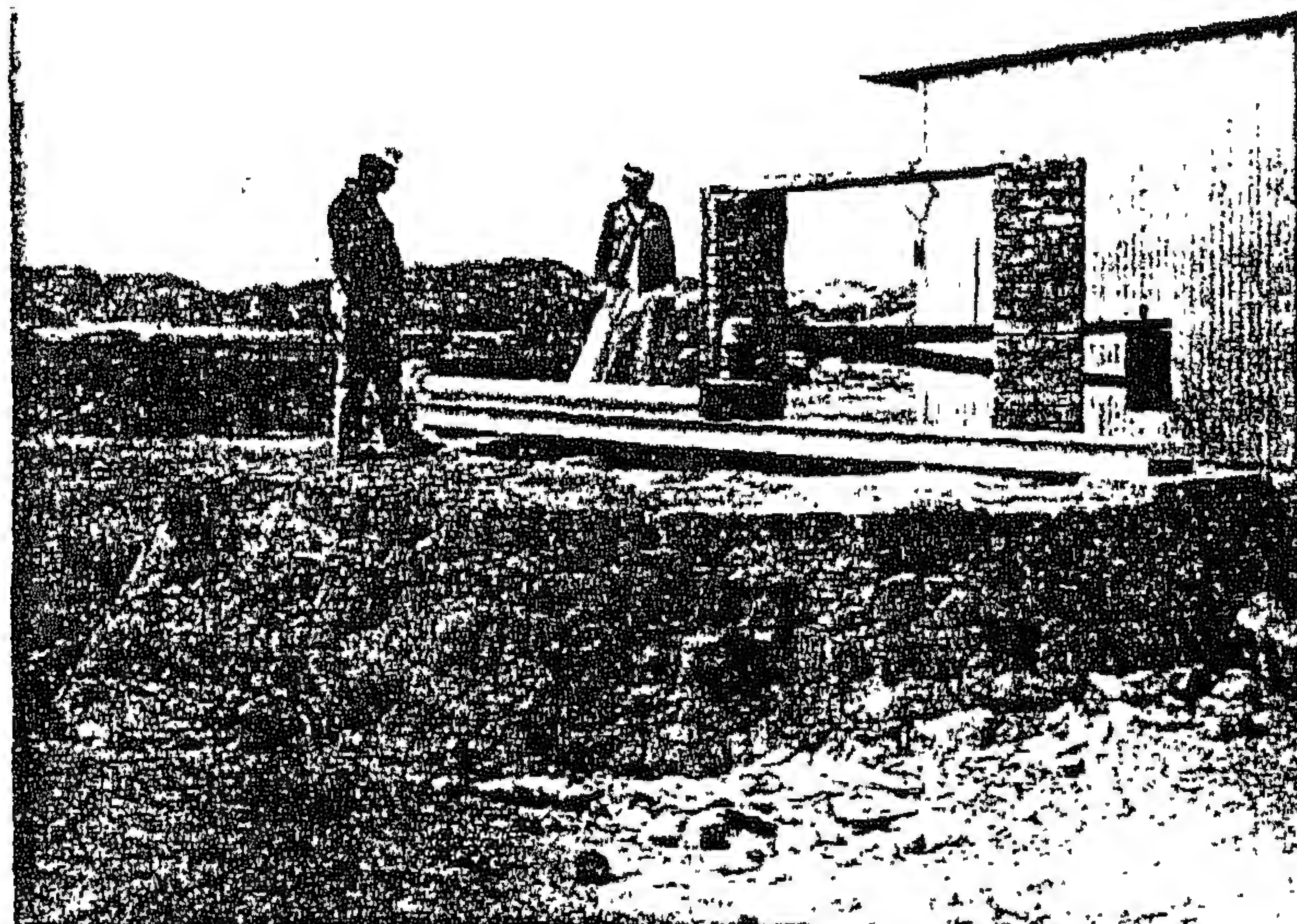
٩



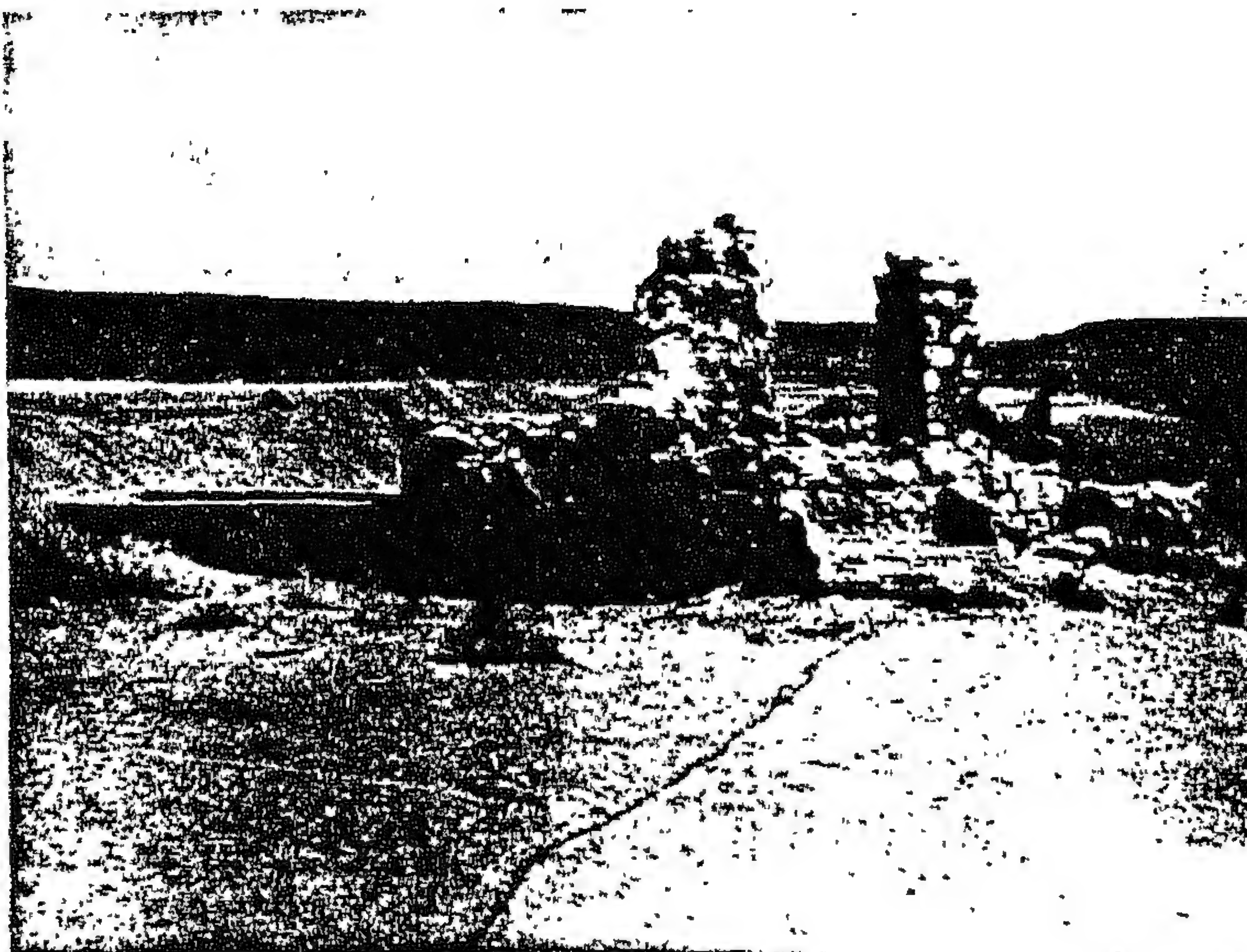
١٠



١١



١٢



١٣



١٤



١٥



١٦



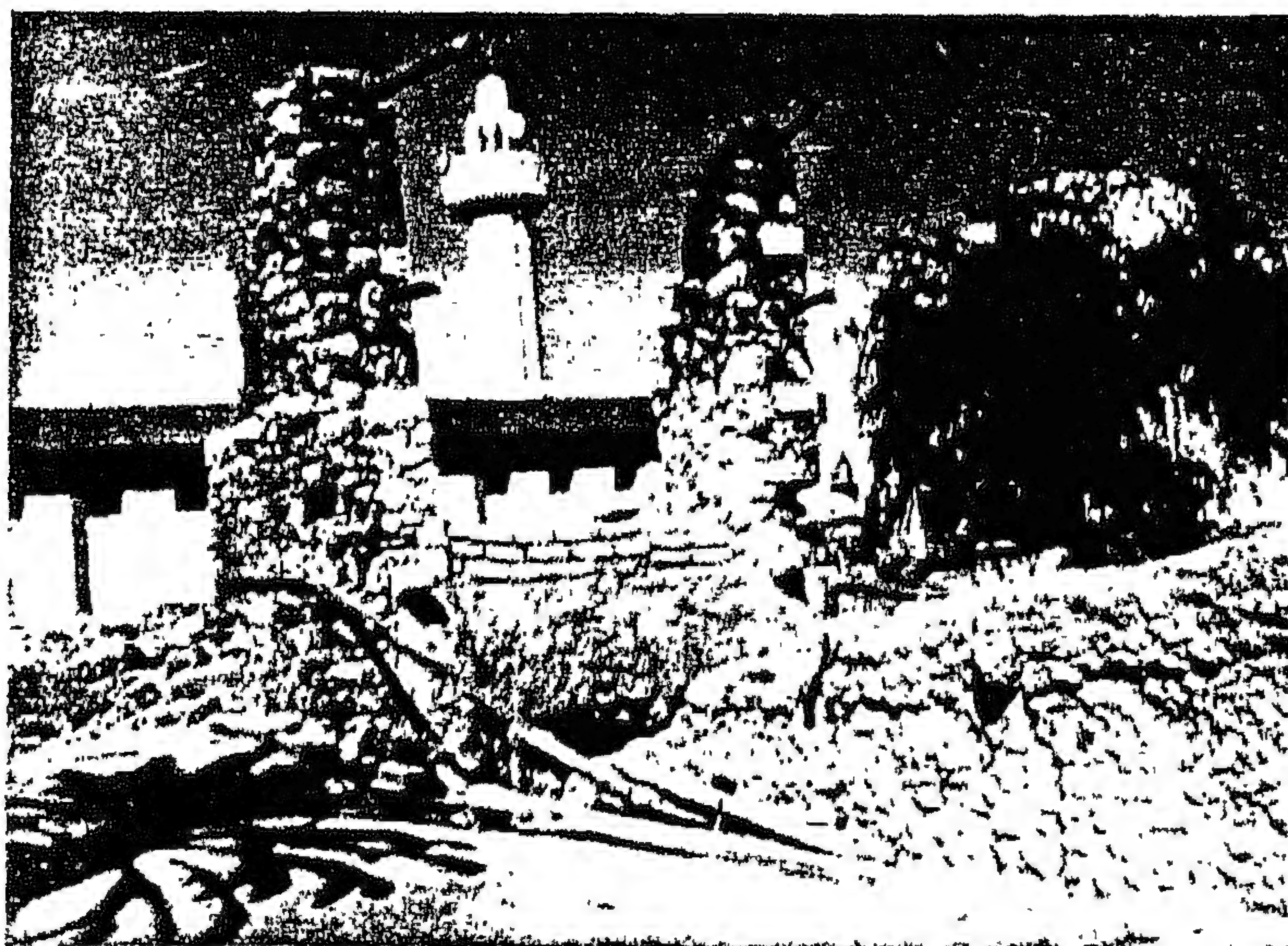
١٧



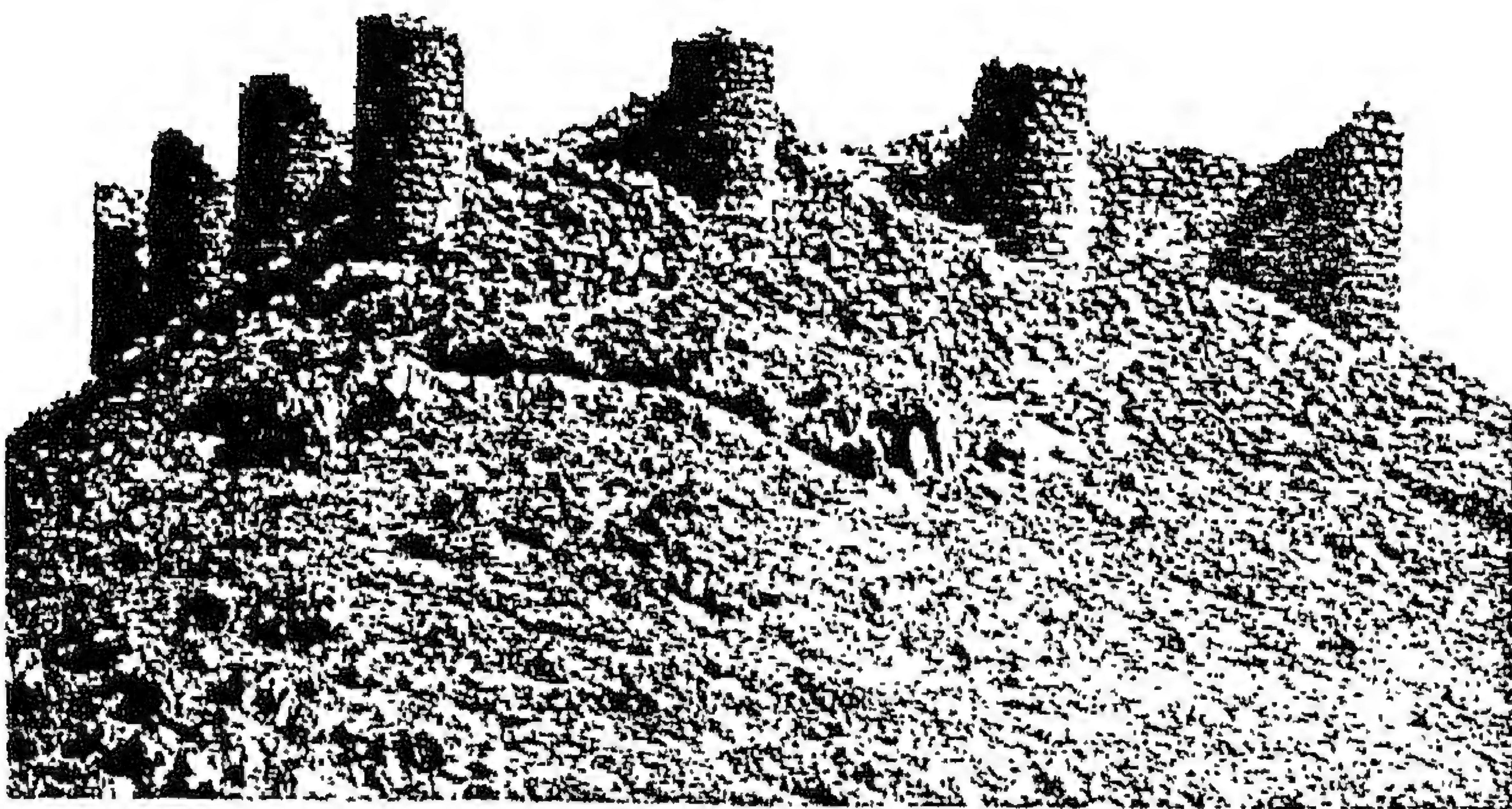
١٨



١٩



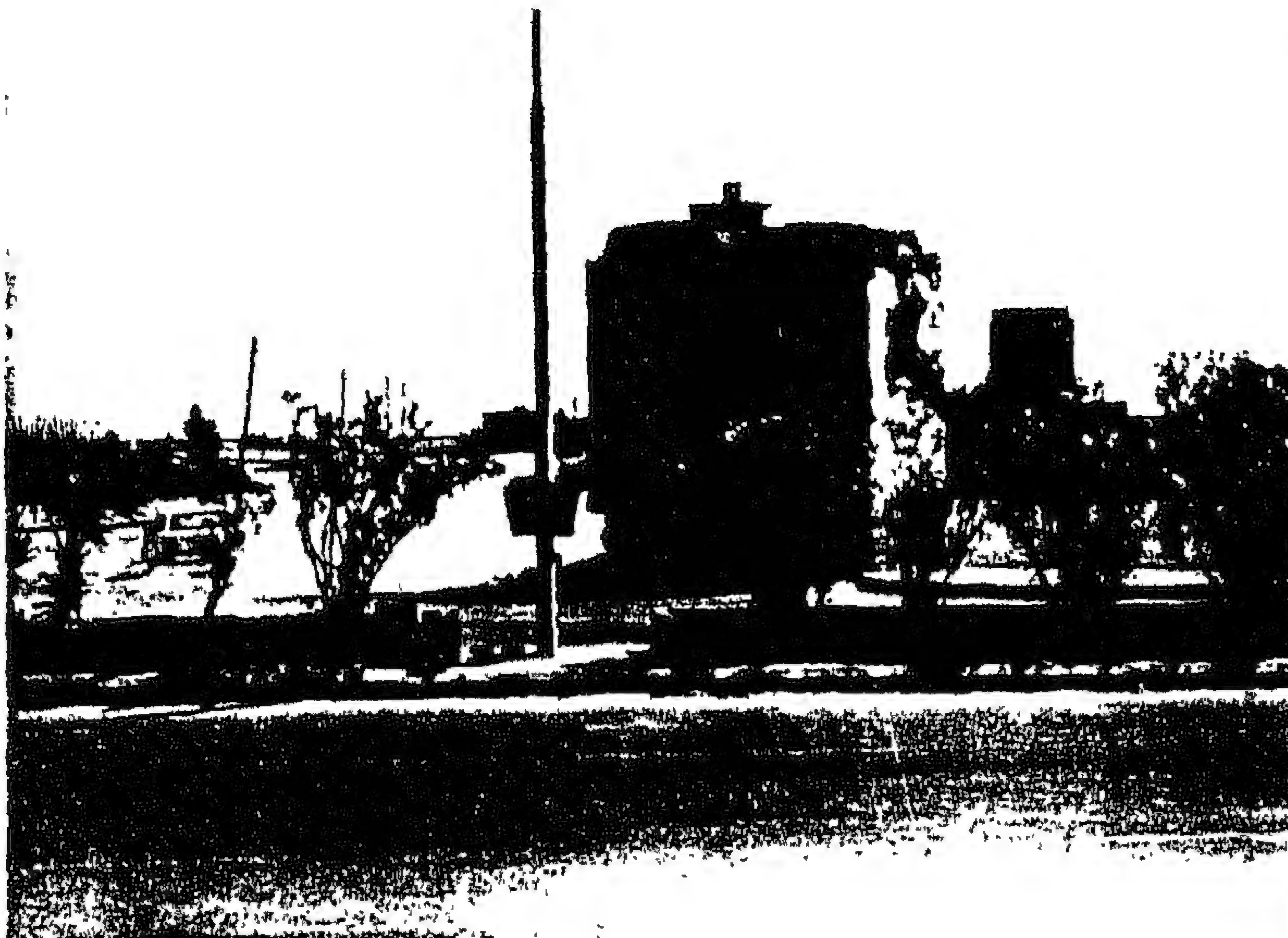
٢٠



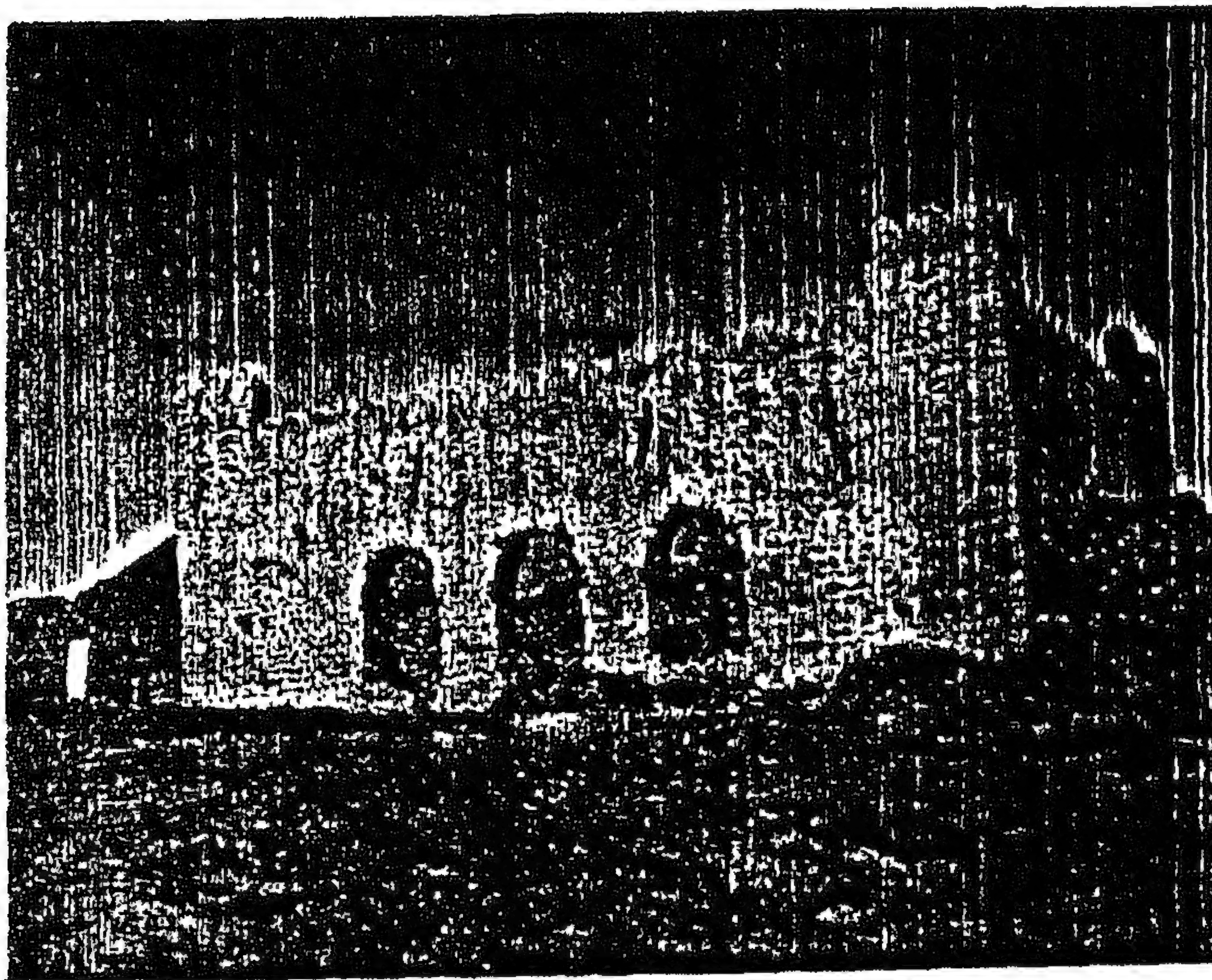
٢١



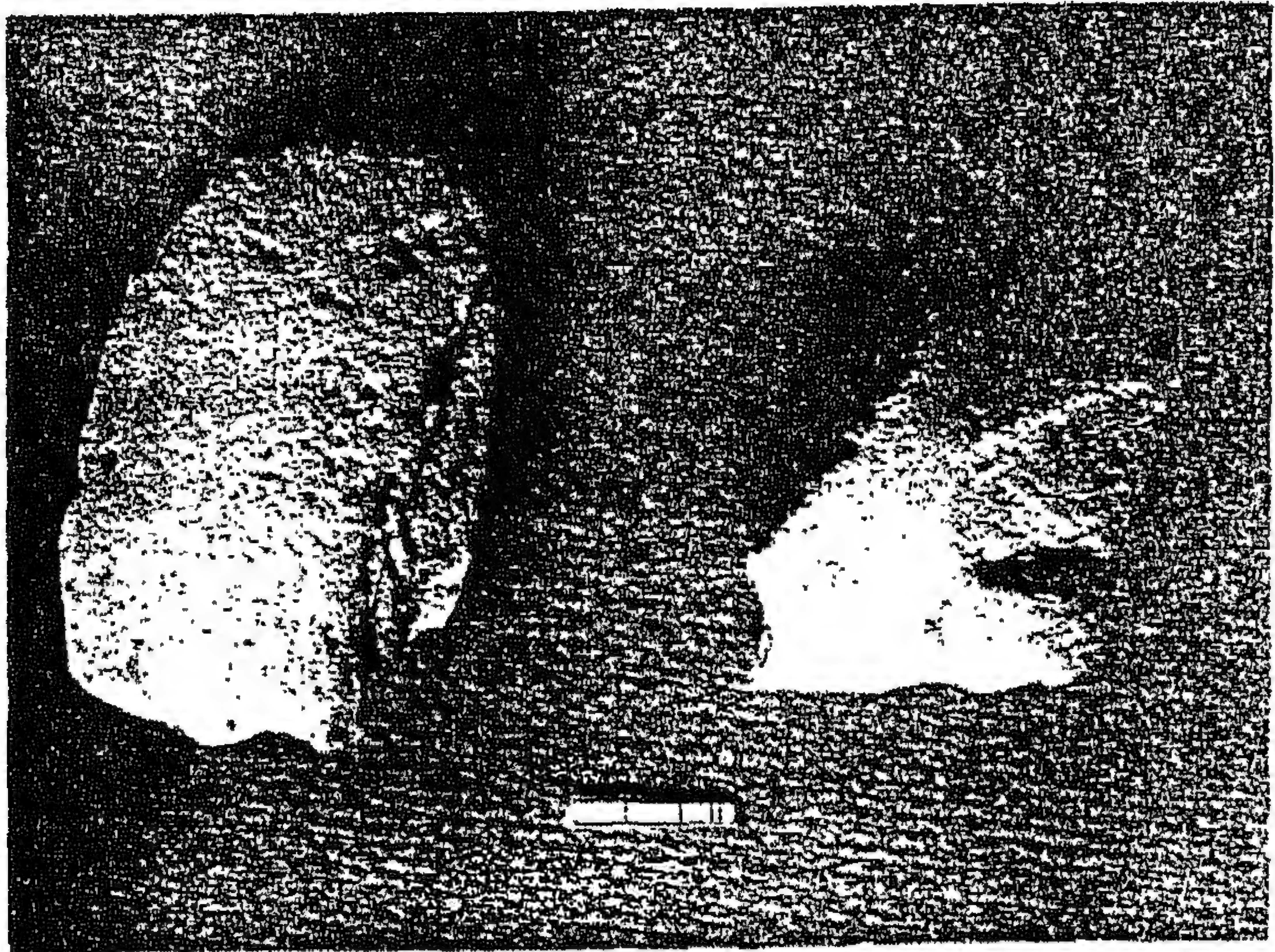
٢٢



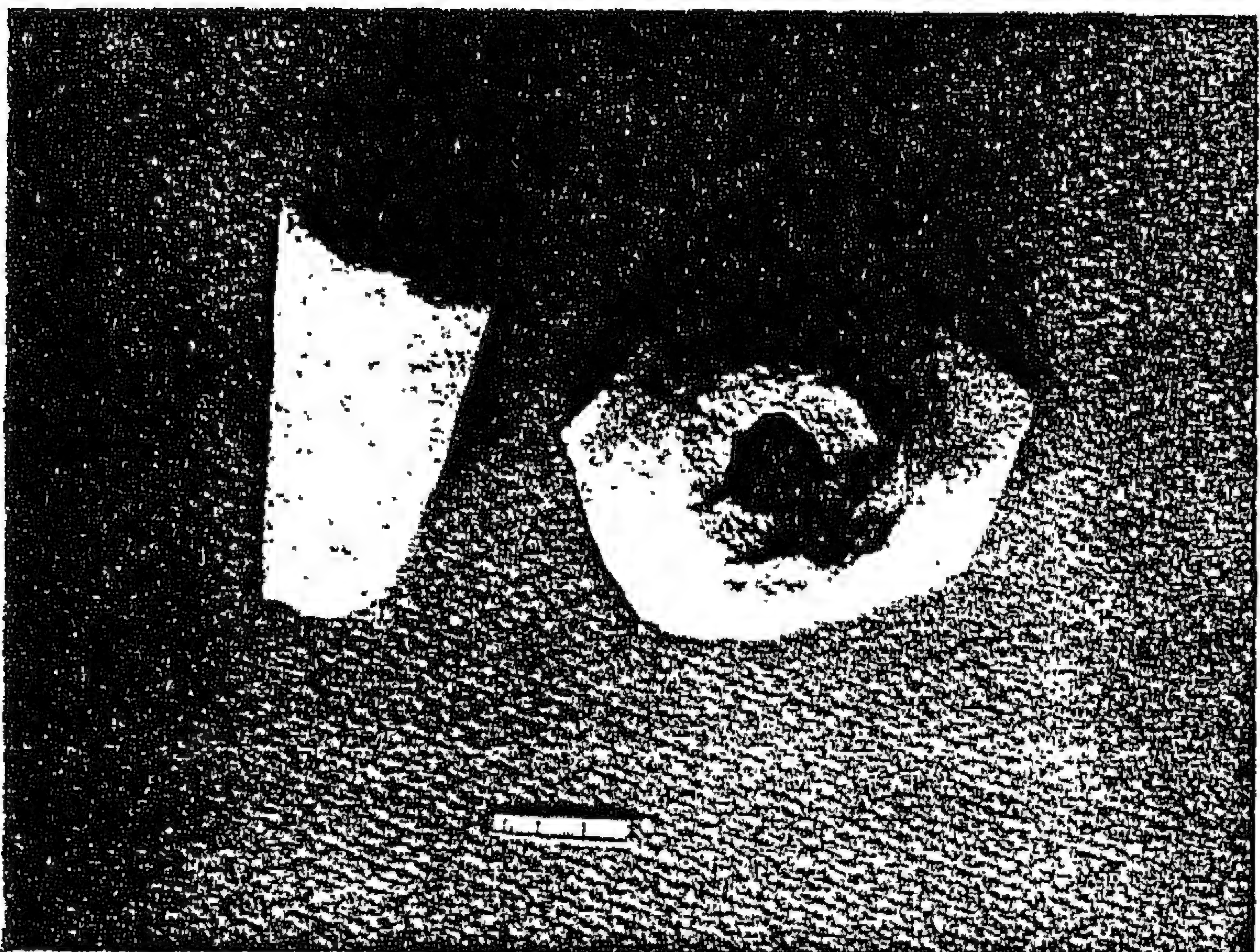
٢٣



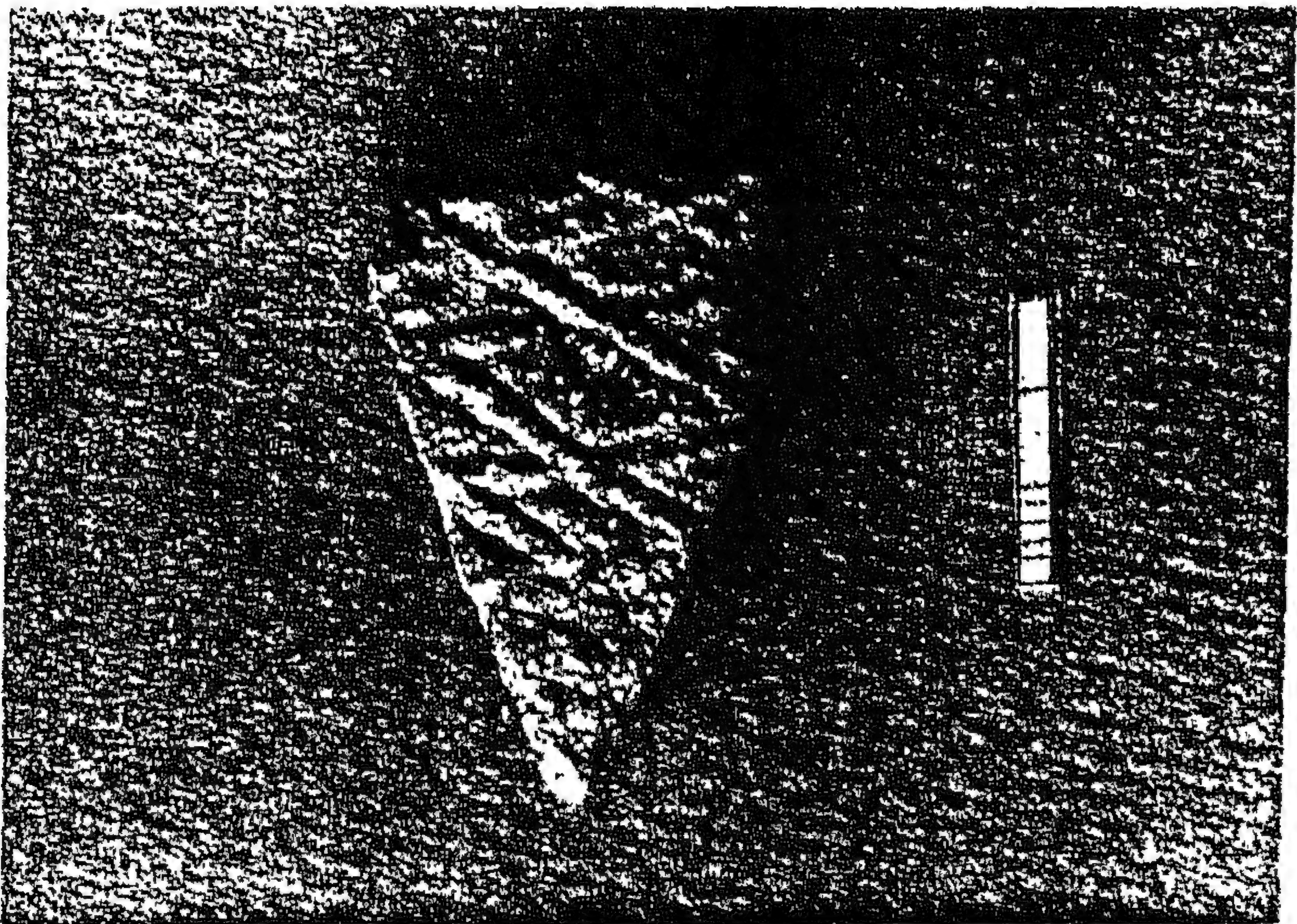
٢٤



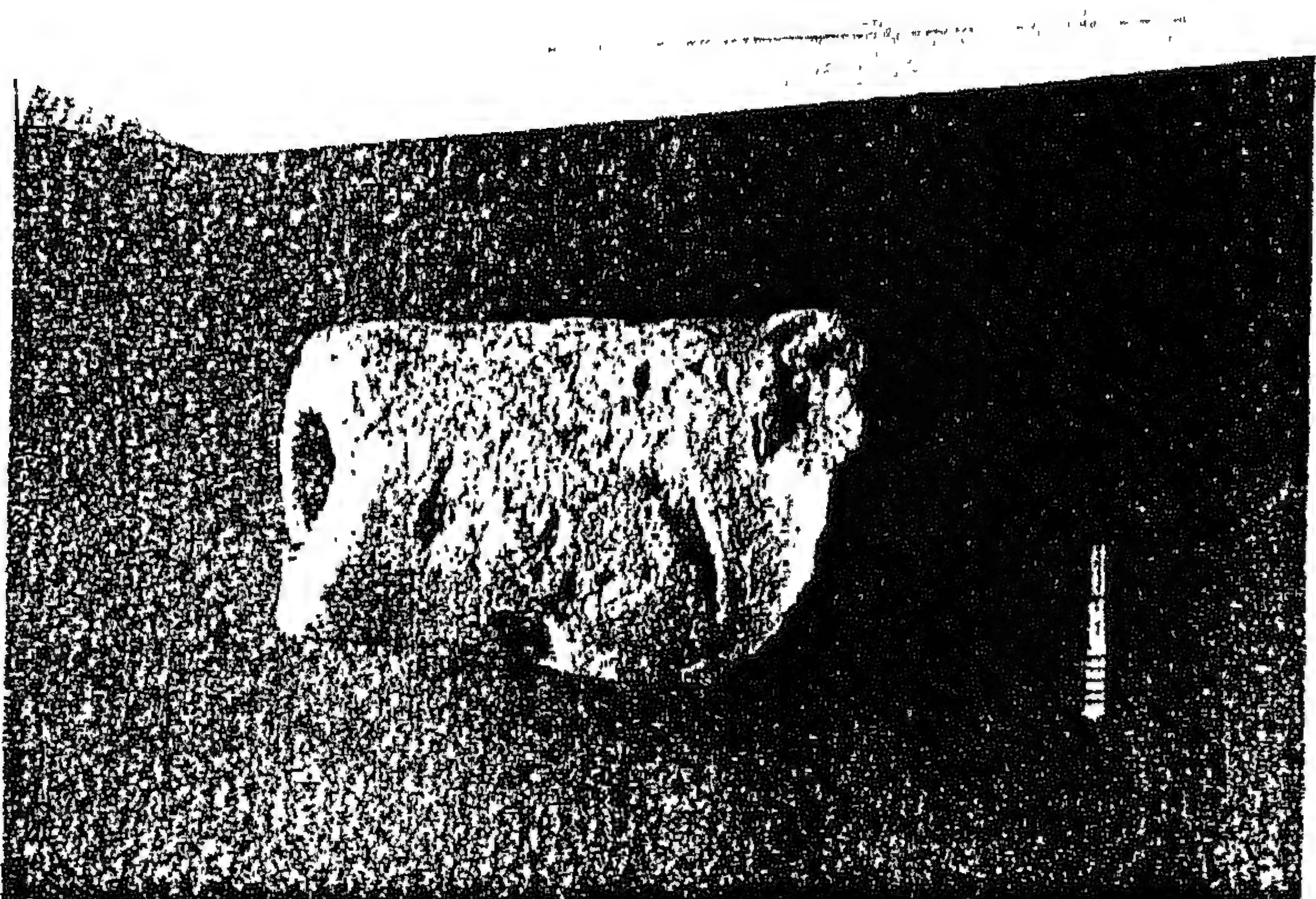
٢٥



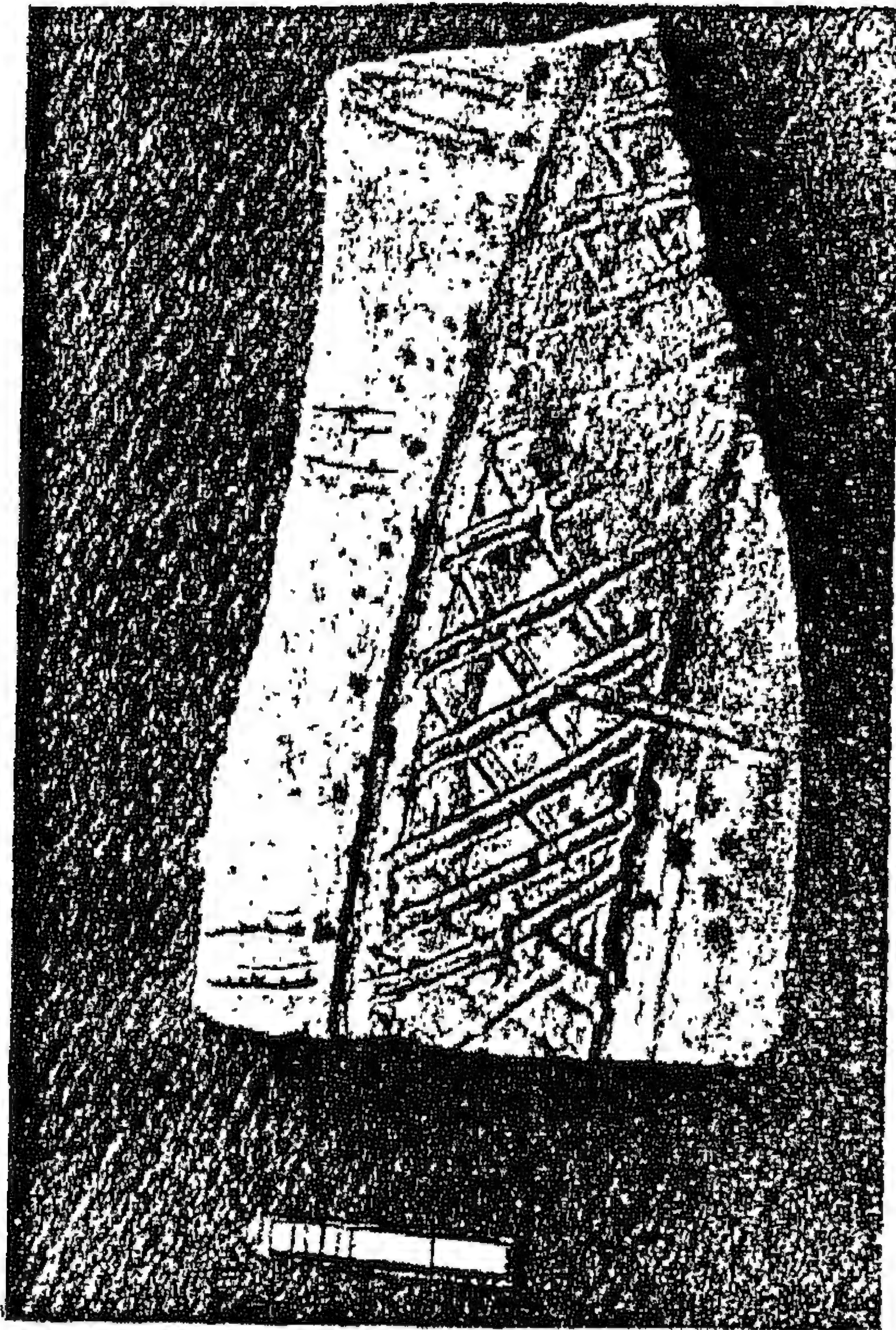
٢٦



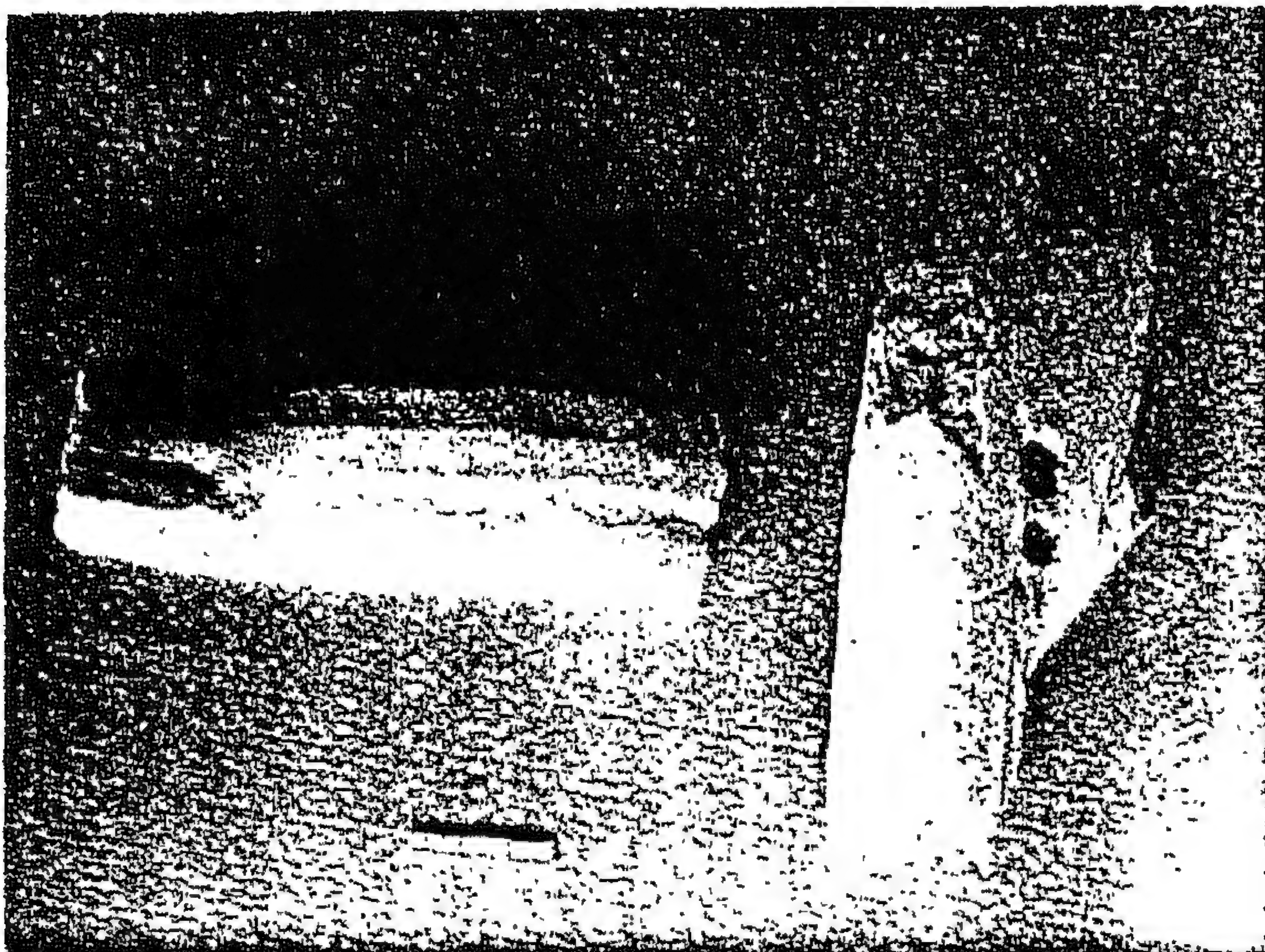
٢٧



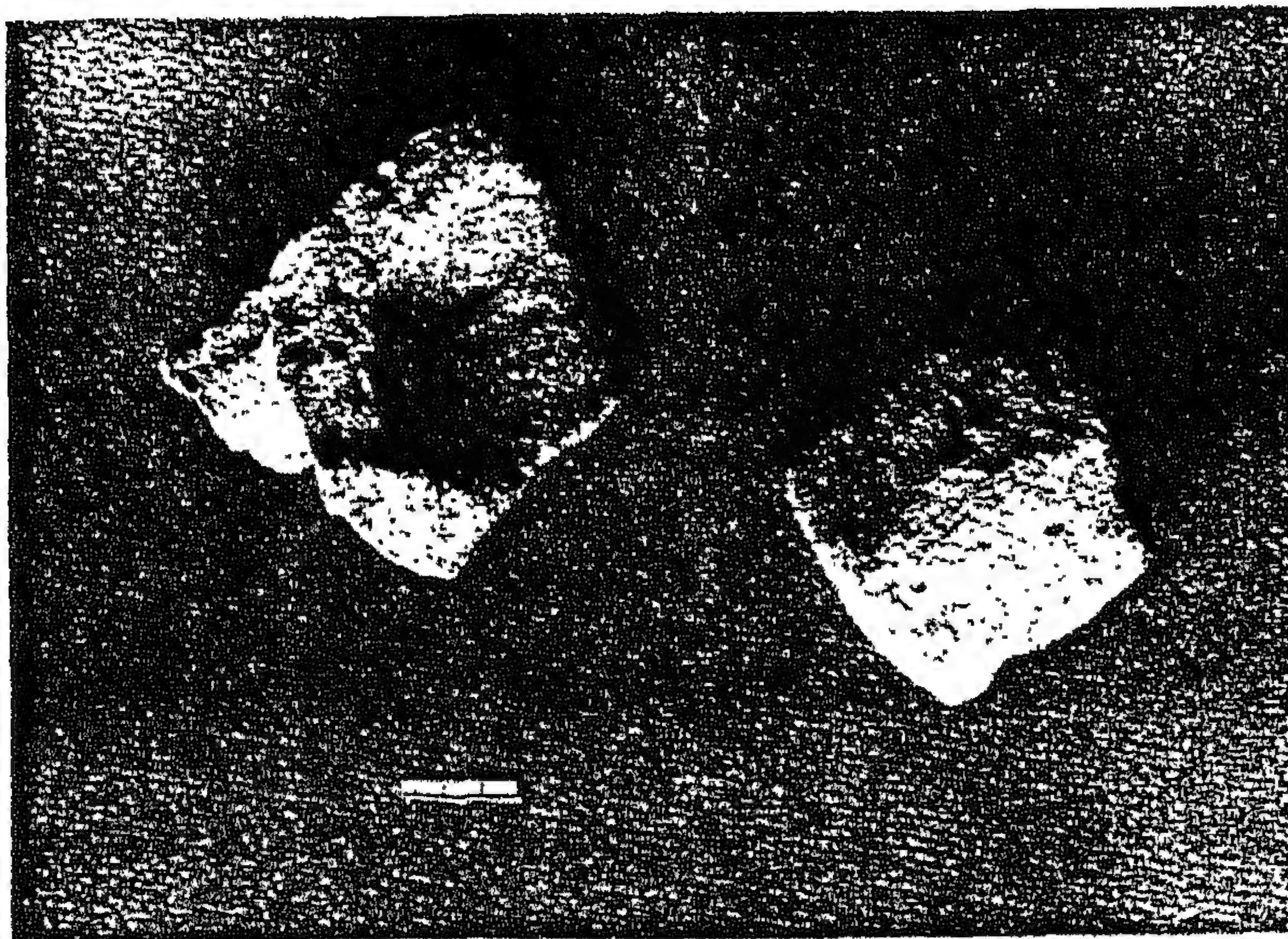
٢٨



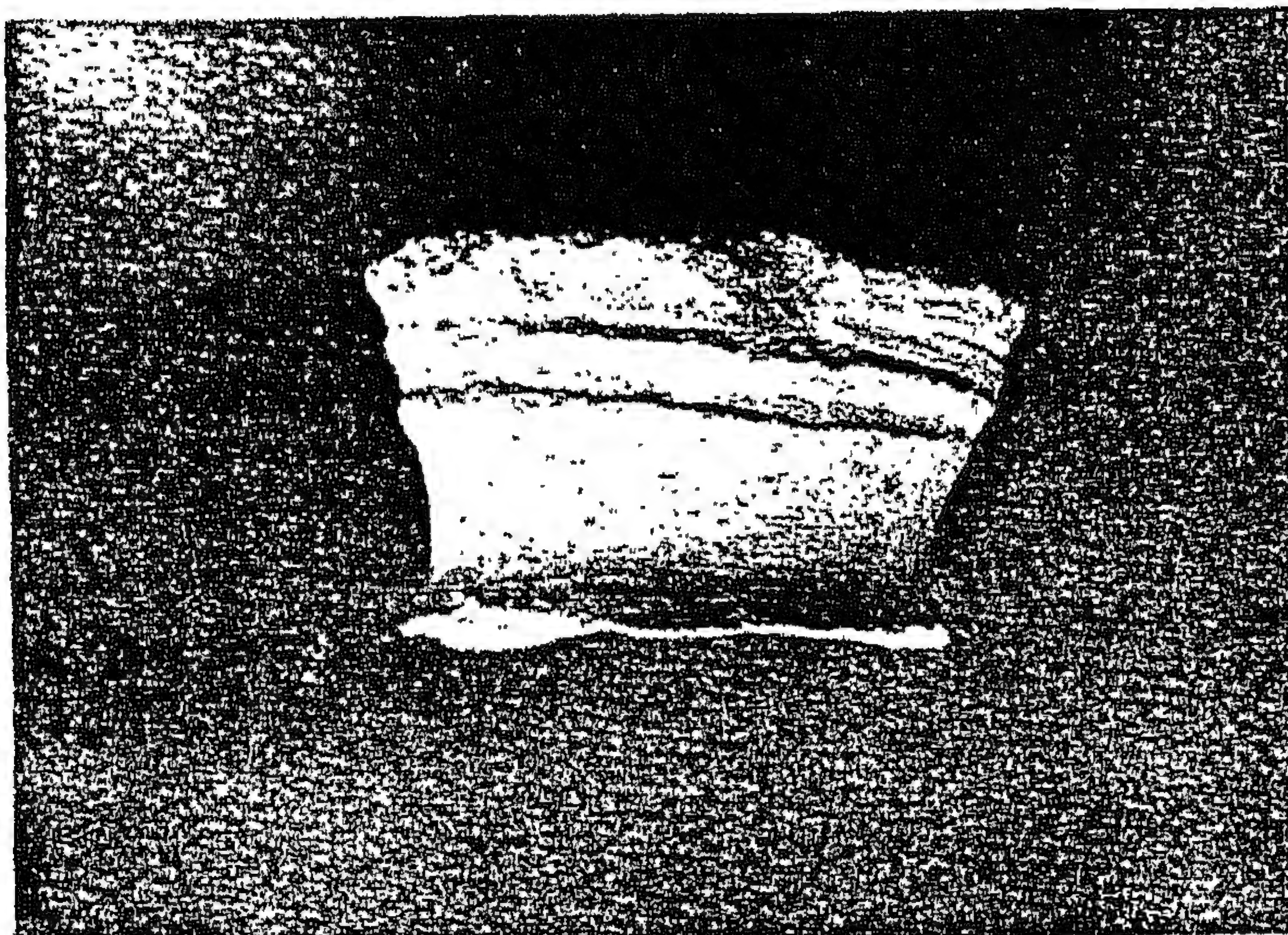
٢٩



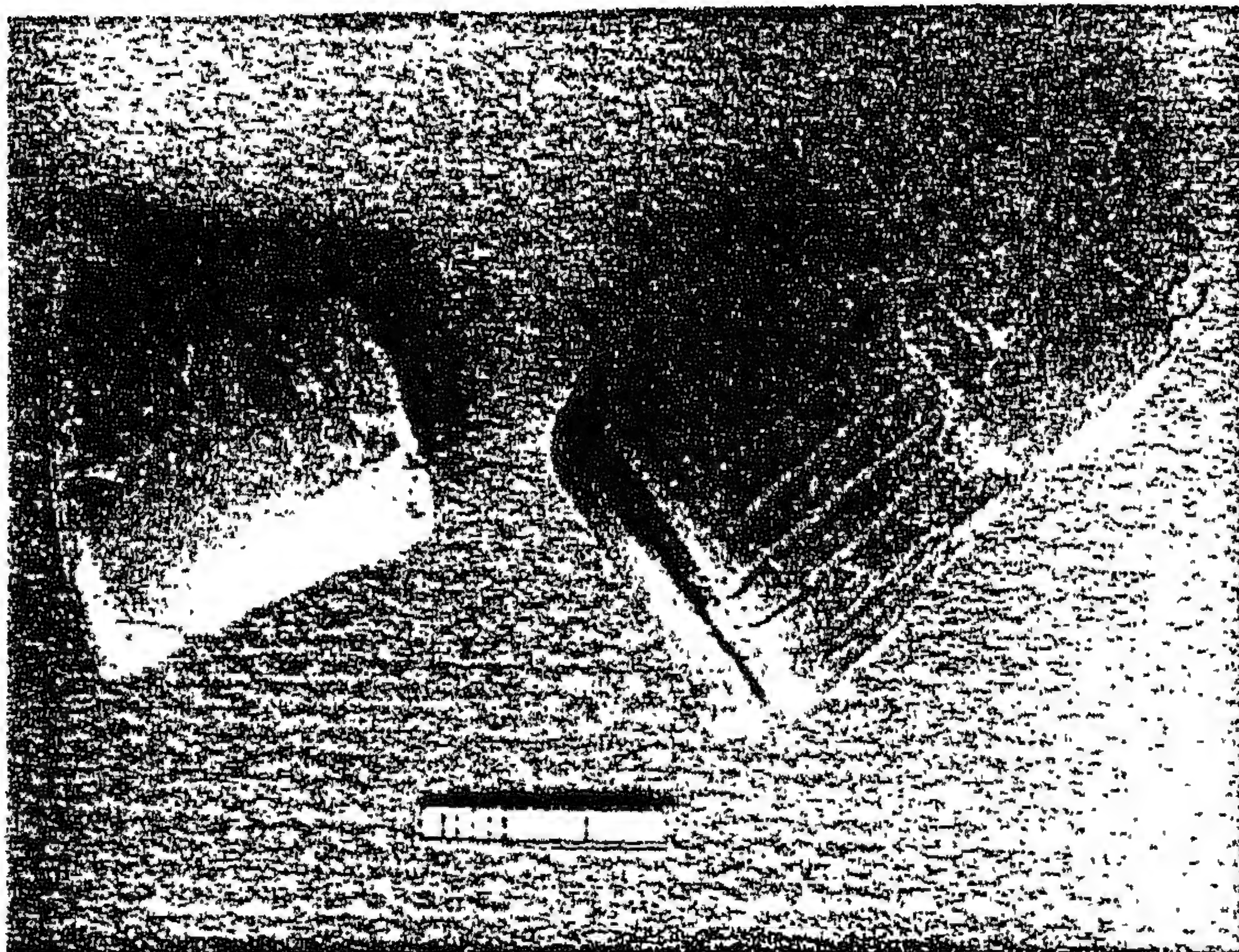
٣٠



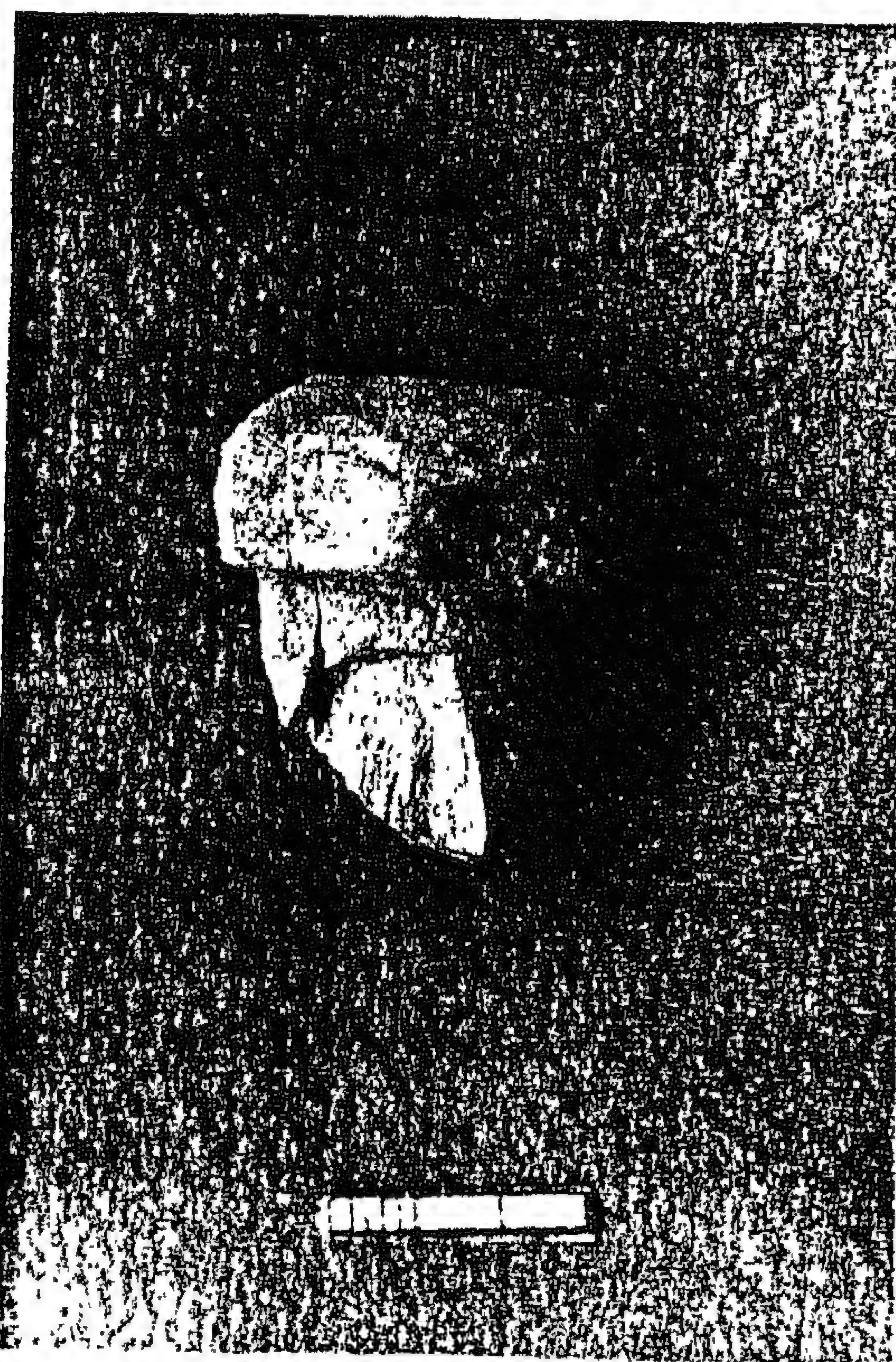
٣١



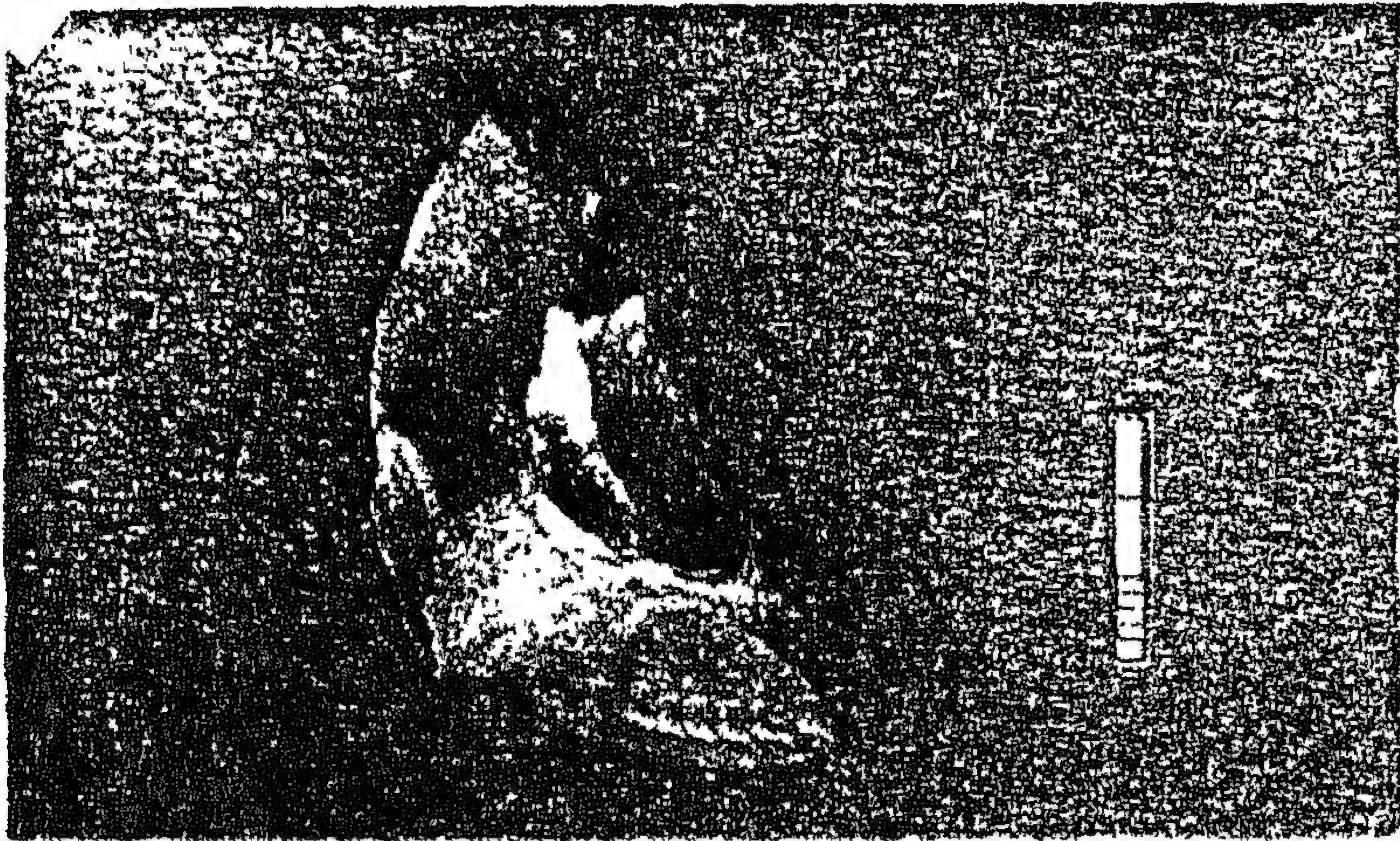
٣٢



٣٣



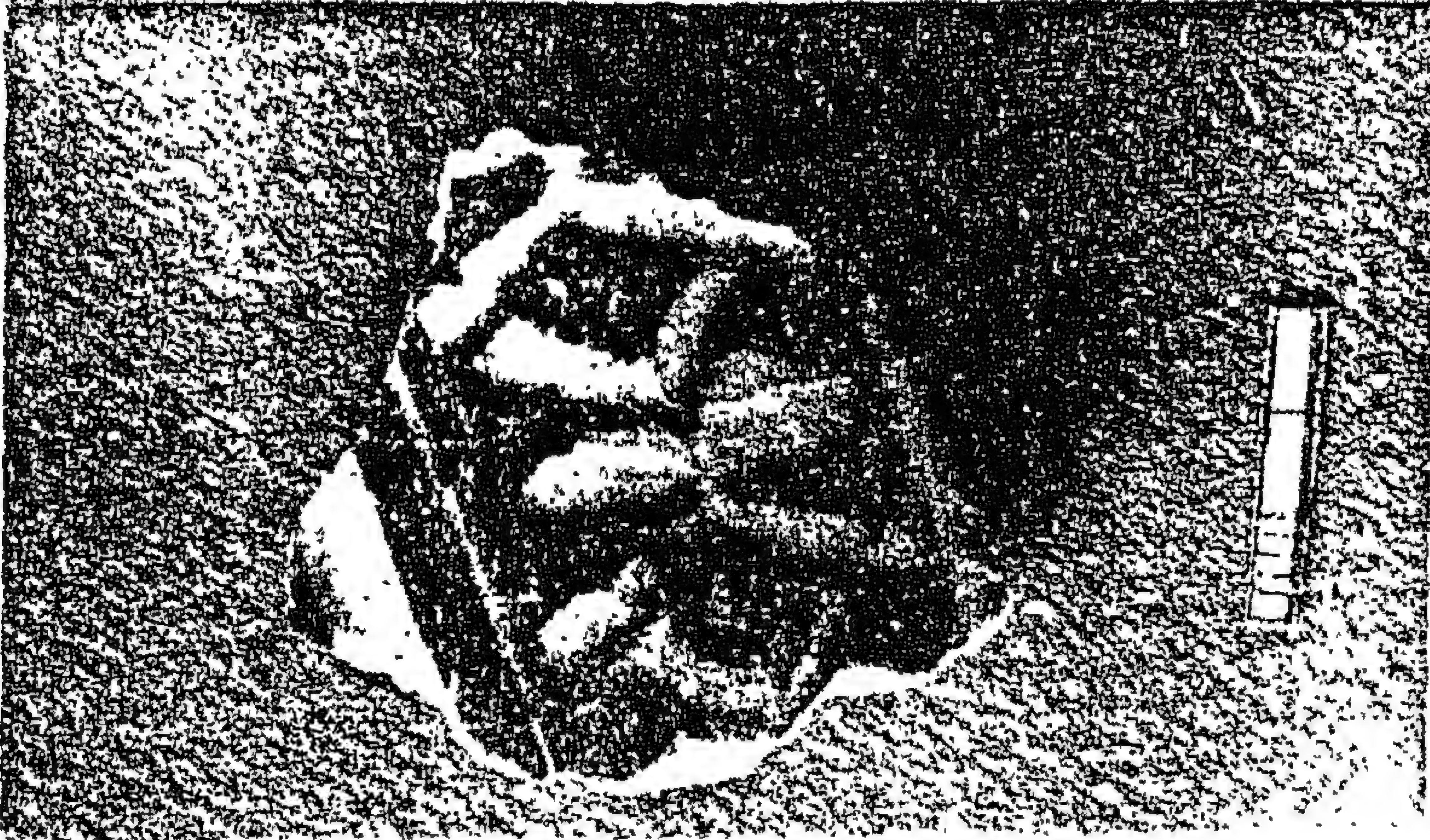
٣٤



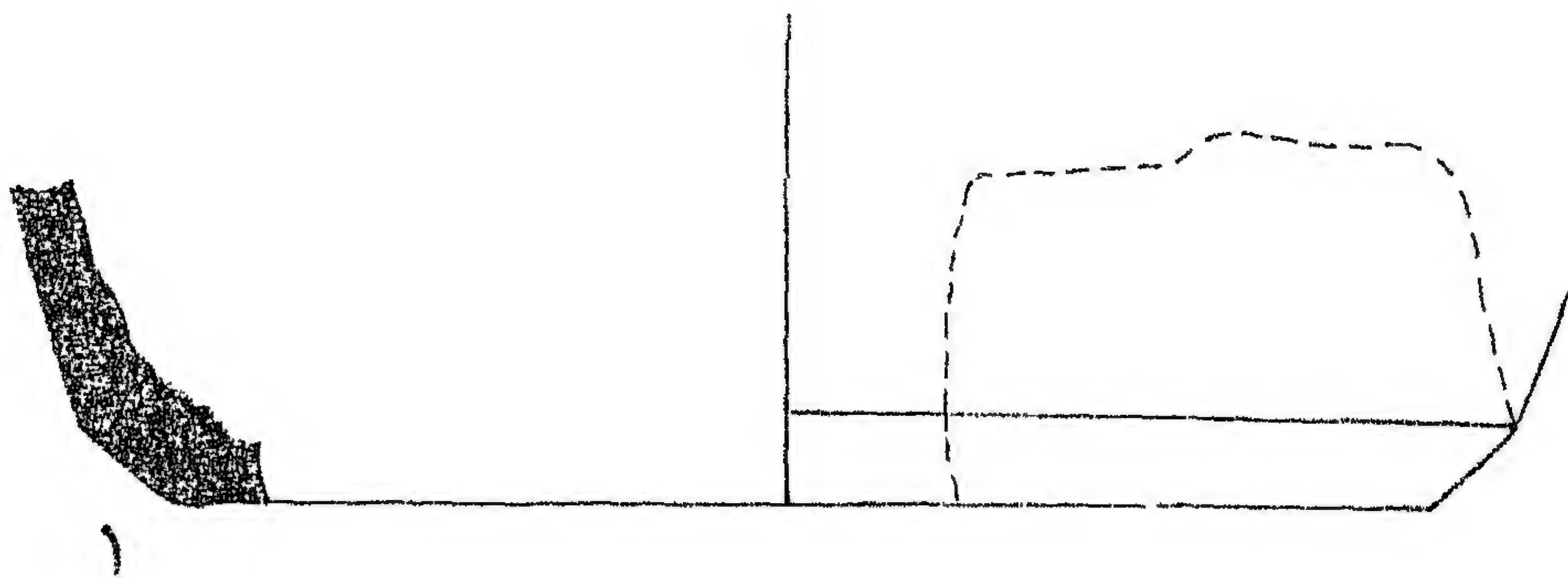
٢٥

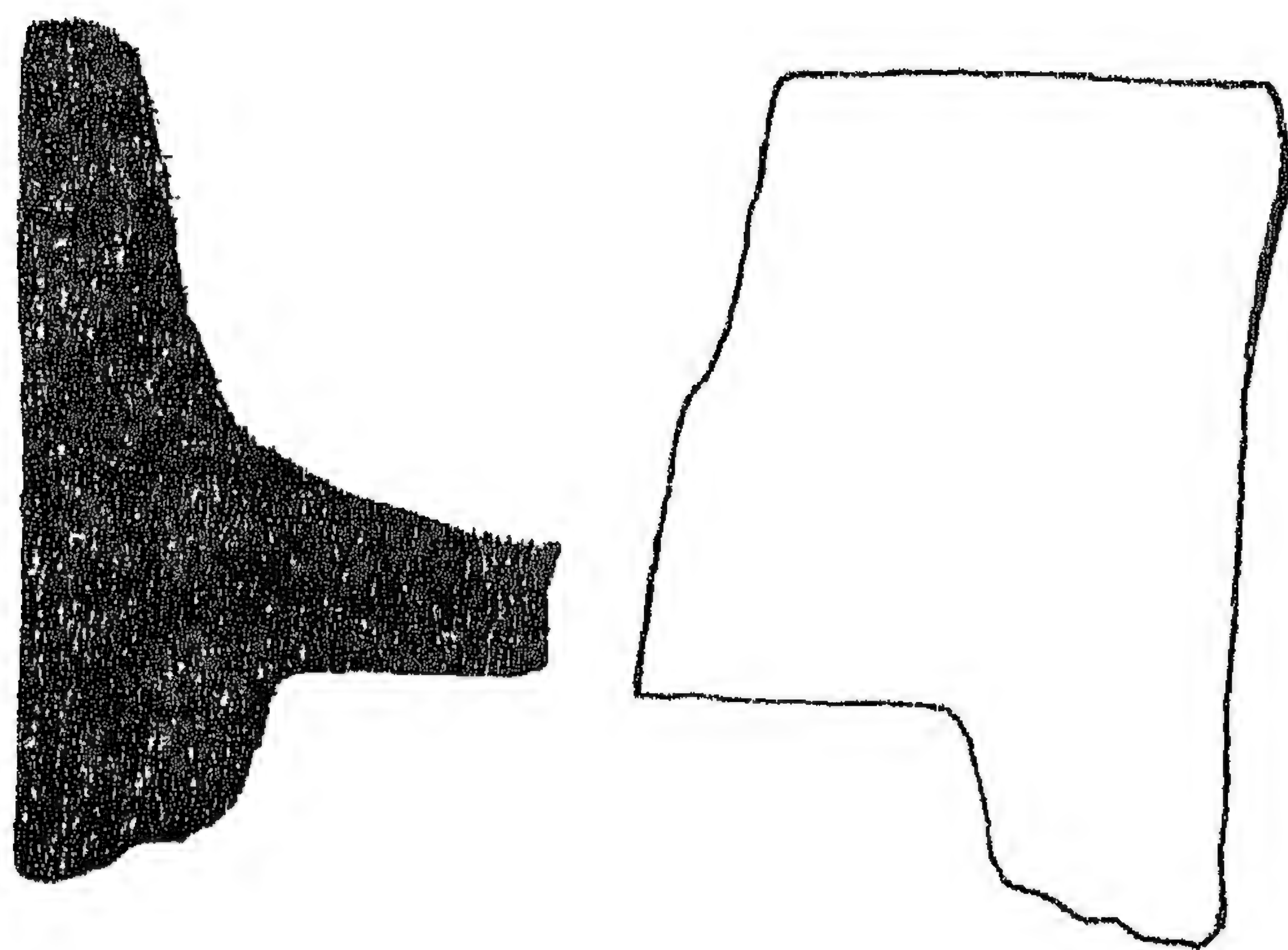


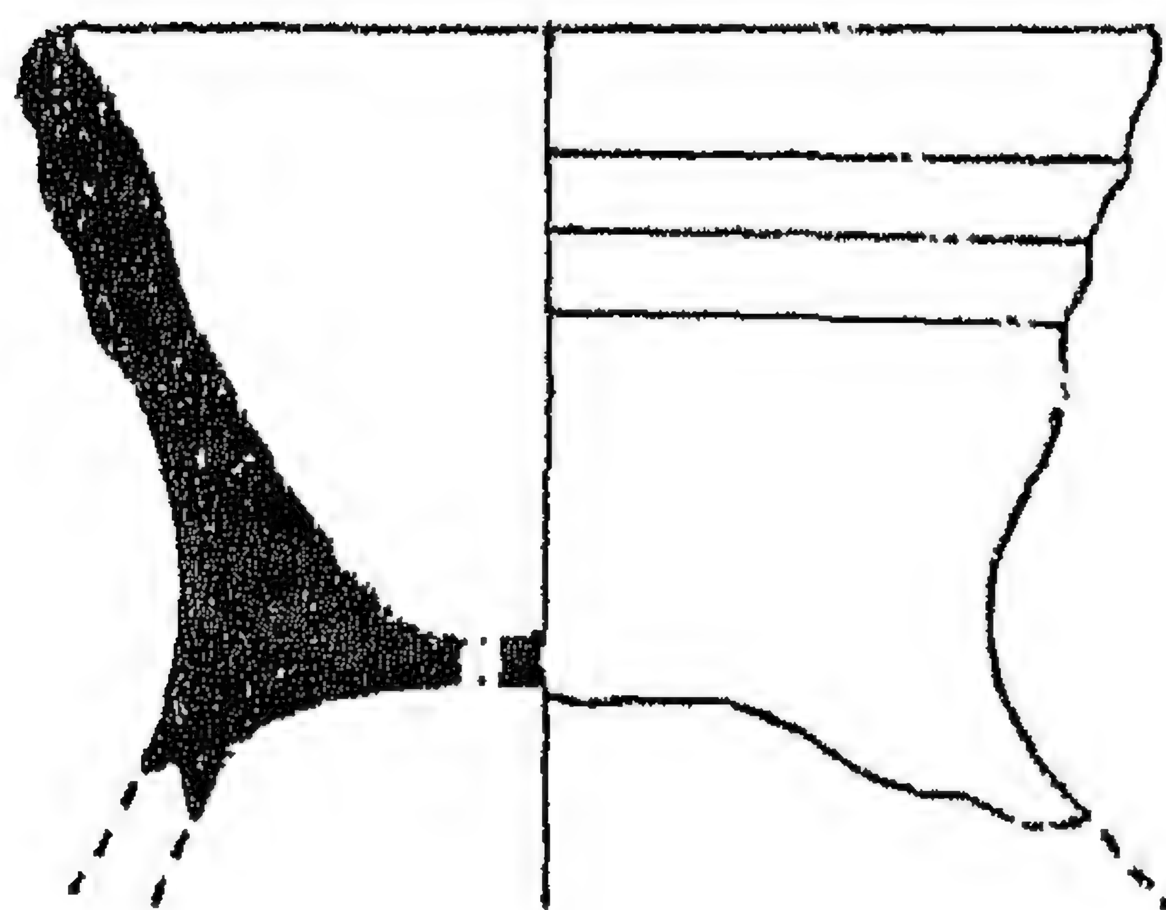
٢٦



الرسوم التوضيحية
(١-٣)


١


٢


٣

ثبت المصادر والمراجع العربية والأوربية

أولاً : المصادر العربية المنشورة :

* أحمد بن على القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا - مولود عام (٧٥٦هـ / ١٣٥٥م) - القاهرة (١٣٣٨هـ/١٩١٩م) .

* أبو القاسم بن حوقل النصيبى: صورة الأرض - منشورات دار الحياة - بيروت.

* أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى : أخبار مكة المكرمة وما جاء فيها من الآثار - جزءان - تحقيق رشيد الصالح ملحس - مطابع دار الثقافة - مكة المكرمة (١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م) .

* أحمد الرشيدى : حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج - تحقيق ليلى عبد اللطيف (دكتورة) - القاهرة (١٤٠١هـ / ١٩٨٠م) .

* أحمد شلبى عبد الغنى الحنفى المصرى : أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات - الملقب بالتاريخ العينى - تقديم وضبط وتصحيح وتحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن .

* تقى الدين أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر محمد المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - المعروف بالخطط المقريزية - أربعة أجزاء - القاهرة (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م) .

* شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى :معجم البلدان - دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر (١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م) .

* عبد الرحمن بن حسن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - تحقيق حسن محمد جوهر - أربعة أجزاء - بولاق (١٢٩٧هـ / ١٨٧٩م) .

* محمد بن عبد المنعم الحميرى : الروض العطار فى خبر الأقطار (معجم جغرافى مع فهارس شاملة) - حققه إحسان عباس (دكتور) - بيروت - الطبعة الأولى (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) .

ثانيًا : القواميس والمعاجم :

* أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (المتوفى سنة ٥٣٨هـ) : أساس البلاغة - تحقيق عبد الرحيم محمود - أحياء المعاجم العربية - مصر (١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م) .
* رينهارت دوزى : تكملة المعاجم العربية - تحقيق محمد سليم النعيمى - الجزء الأول - العراق (١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م) .

ثالثًا : كتب الرحلات :

* إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين - جزءان - الطبعة الأولى - مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م) .
* أبو القاسم بن أحمد الزيانى : الترجمانه الكبرى فى أخبار المعمور برًا وبحرًا - حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالى - نشر وزارة الأنباء المغربية - مطبعة فضالة المحمدية (١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) .
* أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى العياشى المغربى المالكى من أهل فاس : ماء الموائد (المعروفة بالرحلة العياشية) - تحقيق حمد الجاسر - دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض - السعودية - الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) .
* أبو عبد الله بن محمد بن أحمد العبدرى : الرحلة المغربية - تحقيق محمد الفاسى - وزارة الشئون الثقافية والتعليم الأصلى - الرباط - المغرب ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
* أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى : الرحلة الناصرية " رحلة إلى بيت الله الحرام " إحدى رحلاته الأربع للحج - عام (١١٢١هـ / ١٧٠٩م) - عرض وتلخيص حمد الجاسر - مجلة العرب - جـ٥ ، ٦س ١٢ لعام ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م - دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض .
* عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى : الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز - تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدى (دكتور) - الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٠٧ هـ/١٩٨٦م) .

* عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصارى الجزيرى الحنبلى : الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة - ثلاثة أجزاء - أعده للنشر حمد الجاسر - منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض - الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) .
* عبد المجيد بن على المنالى الزبادى الحسينى الادريسى : بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام - تحقيق حمد الجاسر - مجلة العرب - جـ٧ / ٨س ١٢ عام (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) .
* محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصرى الدرعى المغربى : رحلته الكبرى - عام (١١٩٦هـ / ١٧٨١م) ، رحلته الصغرى - عام (١٢١١هـ/١٧٩٦م) - عرض وتلخيص حمد الجاسر - منشورات دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض - الطبعة الثانية (رمضان ١٤٠٣هـ / يونيو ١٩٨٣م) .
* محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية - الطبعة الثالثة (١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) - الناشر مكتبة المعارف بالطائف / السعودية .

رابعًا : المؤلفات المنشورة :

* أيوب صبرى باشا : مرآة جزيرة العرب - جزءان - ترجمة أحمد فؤاد متولى (دكتور) ، والصفصافى أحمد المرسى (دكتور) - الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) - دار الرياض للنشر والتوزيع - السعودية .
* توفيق أحمد عبد الجواد (دكتور): تاريخ العمارة فى الفنون الإسلامية-جـ٣-القاهرة.
* حسن الباشا (دكتور) : مدخل إلى الآثار الإسلامية - دار النهضة العربية بالقاهرة (١٤٠هـ / ١٩٧٩م) .
* حسن محمود الشافعى (دكتور): العملة وتاريخها - القاهرة (١٤٠١هـ/١٩٨٠م).
* حنان الكردى : القلاع الأثرية فى الأردن - مطبعة وزارة السياحة والآثار الأردنية (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) .

* زكى محمد حسن (دكتور) : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية - القاهرة (١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م) .

* : فنون الإسلام - دار الرائد العربى - بيروت (١٤٠١هـ/١٩٨١م) .

* سعاد ماهر (دكتورة) : الخزف التركى - الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية - طبعة (١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) .

* صالح لمعى مصطفى (دكتور) : التراث المعمارى الإسلامى فى مصر - مطبعة جامعة بيروت (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) .

* صامويل برنارد : الموازين والنقود - وصف مصر - ترجمة زهير الشايب - جـ٦ - (١٣٩٨ - ١٣٩٩هـ / ١٩٧٧ - ١٩٧٨م) .

* عبد الرءوف على يوسف : القاهرة تاريخها فنونها آثارها - بحث الفخار .

*عبد الرحمن فهمى (دكتور) : النقود المتداولة أيام الجبرتى - من أبحاث ندوة عبد الرحمن الجبرتى- الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م).

* عبد الرحيم عبد الرحمن (دكتور) : وثائق تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى - من بحوث ندوة تاريخ العرب الحديث بكلية الآداب / جامعة عين شمس (٧ - ١٢ مايو ١٩٧٧م) .

* عبد الغنى أحمد ناجى : فى ذكرى الهجرة النبوية - مجلة الوعى الإسلامى - العدد ٣٠١ .

* عبد الكريم (دكتور) : بلاد الحجاز فى المخطوطات المغربية المدونة خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر للهجرة - من أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ الجزيرة العربية - مجلة العرب جـ ٣/٤ س١٢ - رمضان / شوال (١٣٩٧هـ) سبتمبر / أكتوبر (١٩٧٧م) .

* فريد محمود شافعى (دكتور) : العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها - عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود - الرياض / السعودية - الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

* فريد محمود شافعى (دكتور) : العمارة العربية فى مصر الإسلامية - المجلد الأول - عصر الولاة (٢١ - ٣٥٨هـ / ٦٣٩ - ٩٦٩م) - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) .

* فؤاد الماوى (دكتور) : العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز من الفتح العثمانى حتى الاحتلال الفرنسى - الكويت (١٤٠١هـ/١٩٨٠هـ) .

* ف . ويستنفيلد : جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها - ترجمة عبد المنعم ماجد (دكتور) ، عبد المحسن رمضان - مكتبة الأنجلو مصرية بالقاهرة (١٤٠١هـ / ١٩٨٠م) .

* كمال الدين سامح (دكتور) : العمارة الإسلامية فى مصر - الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية - مطبعة جامعة القاهرة (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) .

* ليلى عبد اللطيف (دكتورة) : دراسات فى تاريخ ومورخى مصر والشام إبان العصر العثمانى - القاهرة (١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م) .

* ليونارد وولى : أعمال المسح الأثرى - ترجمة حسن الباشا (دكتور) - دار النهضة العربية - القاهرة (يوليو ١٩٥٦م) .

* مساعد بن منصور (الشريف) : جدول أمراء مكة وحكامها منذ فتحها إلى الوقت الحاضر ، مطبعة النهضة الحديثة - سوق الليل - مكة المكرمة - الطبعة الأولى (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م) .

* م . س . ديماند : الفنون الإسلامية - ترجمة أحمد محمد عيسى ، ومراجعة وتقديم أحمد فكرى (دكتور) - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - يوليو ١٩٥٨م .

* محمد طاهر بن عبد القادر بن محمد الكردى الشافعى الخطاط : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم - أربعة أجزاء - مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة - سوق الليل - الطبعة الأولى - (٣٠ ربيع الثانى ١٣٨٥هـ / ٢٧أغسطس ١٩٦٥م) .

* محمد فؤاد شكرى (دكتور) وآخران : بناء دولة مصر محمد على - دار الفكر العربى - القاهرة (١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م) .

* مطلق بن بادى العتيبى : ملخص التاريخ الإسلامى - الجزء الأول - الطبعة الأولى (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) - الدمام (ص. ب ٢٠١) .

خامسًا : الأطالس والخرائط :

* حسين حمزة بندقجى : أطلس المملكة العربية السعودية - دار جامعة أكسفورد للطباعة والنشر - (١٣٩٨هـ / ١٩٧٧م) .

* : الخريطة الجغرافية للمملكة العربية السعودية (مقياس ١ : ٢٢٥٠٠٠٠) - طبعت بدار بلانطير / بريطانيا (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) .

* حليم إبراهيم جريس ، يوسف خليل (دكتور) ، إجلال السباعى : الأطلس العربى - ج . م . ع - وزارة التربية - الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية - الإصدار الرابع - الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، رسم وطبع بإدارة المساحة العسكرية بالقاهرة .

* هارى ، هازارد ، لستركوك ، ج . ماك سميلى : أطلس التاريخ الإسلامى ، ترجمة وتحقيق إبراهيم خورشيد ، راجعه محمد مصطفى زيادة ، تقديم محمد عوض محمد - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.

* يوسف خليل (دكتور) ، إجلال السباعى : أطلس الوطن العربى - للناشر مكتبة غريب للطباعة والنشر بالقاهرة .

* خريطة جزيرة العرب (مقياس ١ : ٢٠٠٠٠٠٠) ، المديرية العامة للزيت والمعادن - وزارة المالية والاقتصاد - السعودية - مصلحة المساحة الجيولوجية الأمريكية (١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م) .

* خريطة جغرافية (٢٠٠/ أب) أبحاث جيولوجية مختلفة (مقياس ١ : ٥٠٠٠٠٠) - المديرية العامة للزيت والمعادن - المملكة العربية السعودية ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

* خريطـة جغرافيـة (٢٠٤ / أب) أبحـاث جيولوجيـة مختلفـة (مقيـاس ١ : ٥٠٠٠٠٠) - المديرية العامة للزيت والمعـادن - المملكـة العربيـة السـعودية - (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) .

* خريطـة طبوغرافيـة للجزيـرة العربيـة (مقيـاس ١ : ٢٠٠٠٠٠٠) - وزارة المواصـلات بالتعـاون مـع وزارة البـترول والـثروة المعدنيـة بالمملكـة العربيـة السعودية - المطابع الأهلية للأوفست بالرياض .

سادسًا : المراجع الأوربية :

* Abdullah Al - wohailbi, Map of the Northern Hijaz 800- 1150 (scale 1 : 2.000.000) . University of Riyadh.
* Burckhardt J. L., Travels in Arabia, London, 1829.
* G. Reitlinger, unglazed Relief pottery from Northern Mesopetamia (In Ars Islamica), Vols. XV - XVI, 1937.
* John Bartholomew and son LTD, Edinburgh, World Travel Map, Arabian peninsula (Scale 1 : 3.000.000).
* Pitts, Joseph Voyage de 1685, dans Voyages en Egypte Pendant Les Anne'es 1678 - 1701. Institute Fancais D'Arche'ologie Orientale, Le Caire, 1981.
* Shaw, S. J., The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798, New Jersy 1962.
* ———— ,Ottoman Egypt in the Age of the French Revoluition, Cambridge, 1967.

تم بحمد الله

رقم الإيداع ١٩٩٤/٦٥٤٩

المطبعة الإسلامية الحديثة

٤٢ ش دار السعادة – حلمية الزيتون

القاهرة – ت ٢٤٠٨٥٥٨